منَشِّه دُوڤـــشَانِي

أنبِيَاءُ العَهد القَدِيم

الأنبياء الأواخر

ترجمة

عمرو زكريا خليل

مراجعة وتقديم

د. عبير الحديدي

מנשה דובשני

עיקרי הנבואה

שעורים בנביאים אחרונים

חלק א' – ב'

مِنَشِّه دُوڤـــشَانِي

أنبياء العهد القديم – الأنبياء الأواخر

ترجمة: عمرو زكريا خليل،

ط ١، القاهرة،

مقاس؛ ١٧ * ٢٤ سم

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٨٧٥٣

تصميم الغلاف: أحمد الخولي ت: ٠١٠٠٥٨٣٣٨٥٢

صورة الغلاف: لوحة للنبي إرميا يرثي خراب أورشليم؛ رامبرانت عام ١٦٣٠م.

طبع بمطابع الدار كوبي سنتر

مدينة ٦ أكتوبر – سيتي ستار سنتر ٣/٢٠

ت: ٠١٠٣٠٠٩٤٠٩٣ – ٠١١٠٢٩٩١٠١٥

يطلب من المترجم:

zakaryaamr@yahoo.com

https://www.facebook.com/amr.zakarya.50

أهدي هذه الترجمة

إلى

روح صديقي العزيز

حسن إسماعيل البلبوشي

أسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته ويدخله فسيح جناته

عمرو زكريا خليل

المحتوى

تقديم

يشتمل كتاب "أنبياء العهد القديم – الأنبياء الأواخر"، القسم الأول لمؤلفه مِنَشِّه دُوڤـشَانِي على ستة فصول، يتناول كل فصل نبي من الأنبياء الأواخر وهم: عاموس، هوشع، إشعياء، ميخا، إرميا، يونان، هذا بالإضافة إلى فصل يتناول فيه الأنبياء الأوائل.

وقد ألف مِنَشِّه دُوڤـشَانِي هذا العمل في مجلدين عام ١٩٦٩، ونشرته دار يفنه، تل أبيب. أما مؤلف هذا العمل فهو من مواليد عام ١٩١٤ – ١٩٨٤، عمل معلمًا ومؤلفًا للكتب التعليمية في إسرائيل، وله عشرات المؤلفات في مختلف المجالات.

ويمثل العمل الذي نقدمه مترجمًا إلى اللغة العربية أحد الأعمال اليهودية التي أخذت على عاتقها مهمة توضيح وتقنين المفهوم الواسع للنبوة في اليهودية والذي أَدخل في زمرة الأنبياء من ليسوا بأنبياء من الكهنة والعرافين والمتنبئين والرائيين والحالمين والسحرة، والأنبياء الكذبة وغيرهم.

يهدف الكتاب إلى الوقوف على أقوال الأنبياء الأواخر؛ وفهم هذه الأقوال دون التطرق إلى جذور النبوة وتطورها في عصر الأنبياء الأوائل؛ لذا خُصِّص فصلٌ واحدٌ لاستعراض أقوال الأنبياء الأوائل كمدخل لدراسة الأنبياء الأواخر.

إن أنبياء بني إسرائيل كثيرون، ويصنفهم العهد القديم إلى "أنبياء أوائل" وهؤلاء كانت فترة نبوتهم تمتد لعدة سنوات، وغالبًا ما يقودون حركة إصلاح ديني ولهم رؤى أو نبوءات، و"أنبياء أواخر" كانت مهمتهم النبوية محددة كأن يلفتوا نظر

الملك المعاصر إلى خطأ ارتكبه أو ينصحوه — أو ينهوه — عن دخول حرب ما. والكل كانوا يسيرون على الشريعة الموسوية ويحضُّون على التمسك بها.

كان عديد من "الأنبياء الأوائل" يتنبؤون بأحداث تقع في المستقبل القريب وتتعلق بالحالة السياسية للدولة — أو للدول المجاورة — الأمر الذي جعل هؤلاء الأنبياء في بؤرة الصراع ومشاركين أو مُوجهِّين للأحداث السياسية.

وينقسم أنبياء العهد القديم بحسب الترتيب الزمني إلى أربعة عصور:

١- الأنبياء الذين سبقوا موسى.

٢- موسى سيد الأنبياء.

٣- الأنبياء الأوائل.

٤- الأنبياء الآواخر.

يتناول الكتاب مفهوم النبوة وفقًا للحقائق المذكورة في العهد القديم نفسه؛ دون الاهتمام بالمفهوم الحديث، أو بالتفسير الفلسفي لها. ويهدف بشكل محددٌ وصريح لفَهم النبوة وأقوال الأنبياء من خلال أقوالهم هم أنفسهم المذكورة في العهد القديم. ورغم هذا القيد إلا أنه من الضروري توخي الحذر من ألَّا يكون تعريف مفهوم النبوة، وفقًا للعهد القديم نفسه، تعريفًا ضيِّقًا أو مُسهبًا.

يتكون القسم الأول من الكتاب من ستة فصول، الفصل الأول بعنوان: "الأنبياء الأوائل"، ويتناول كل من (يشوع، عصر القضاة، صموئيل، الأنبياء الذين عملوا بين عصر صَمُوئِيل وعصر إِيلِيَّا، مثل: «ناثـــان»، «جاد النبي»، «أخيا الشيلوني»، «شِمْعيَا»، «رجل الرب»، «عوديد»، «عَزريا بن عوديد»، «حناني الرائي»، «أليعَزَر بن دوداواهو»، «ياهو بن حناني»، «مِيخَا بن يملة»، «النبي إِيلِيَّا»، و«أَلِيشَع»). كما يشير الكتاب في هذا الفصل إلى بقية الأنبياء في عصر الهيكل

الأول الذين ورد ذكرهم في العهد القديم ولم يتركوا وراءهم أسفارًا نبوية، مثل: «زكريا بن يهوياداع»، «أوريا بن شمعيا»، «يونان بن أمتاي»، «خَلْدَة النبية». ويختتم الفصل بعرض الاختلافات بين الأنبياء الأوائل والأنبياء الأواخر.

والفصل الثاني عنوانه: "عاموس"، ويتناول زمن عَامُوس، وشخصيته، ومفهوم الألوهية من وجهة نظره، كما يتناول الواقع الإسرائيلي في عصره من خلال الحديث عن اختيار الرب المشروط لبني إسرائيل، ويوم الرب، والنبوءات عن الشعوب، ومعاصي إسرائيل، والبلاء الذي سيحل بهم بسبب معاصيهم، وما يتوجب عليهم عمله لرفع هذا البلاء، ونبوءة عاموس بالخلاص، ولقاءه مع أمصيا كاهن بيت إيل. كما يتناول الفصل أيضًا علاقة عاموس بالعبادات، وتأثير التوراة على أقواله، وتأثير الأنبياء الأوائل عليه، هذا بالإضافة إلى الحديث عن سفر عاموس وبنائه وصوره الفنية.

أما الفصل الثالث فهو بعنوان: "هوشع"، ويتناول زمن النبي هوشع، وشخصيته، وطبيعة الحياة اليومية والزراعية في عصره، وعلاقته بيهوذا، وانعكاس الأحداث السياسية في نبوءاته. كما يتناول هذا الفصل أيضًا صورة الرب وإسرائيل من وجهة نظر هوشع، ويتحدث عن معاصي إسرائيل والعقوبات التي فرضت عليهم، ونظرة هوشع للعبادات وكيفية أداءها، ونبوءات الخلاص. كما يعقد الفصل مقارنة بين عاموس وهوشع، هذا بالإضافة إلى الحديث عن سفر هوشع وأسلوبه وبنائه وصوره الفنية.

ويحمل الفصل الرابع عنوان: "إشعياء"، ويتناول زمن إشعياء وشخصيته، وتكليفه بالنبوة، ومفهومه للألوهية، وموقفه من العبادات، وتوبيخه لإسرائيل بسبب خطاياها، ويوم الرب، ورؤيا آخر الأيام. كما يتناول الفصل أيضًا الخلفية

السياسية لنبوءاته وخاصة نبوءاته على الأمم، وعلاقته بالملك آحاز، وأيام حصار سنحريب، وعلاقته بمصر، هذا بالإضافة إلى الحديث عن سفر إشعياء وأسلوبه وبنائه وصوره الفنية.

أما الفصل الخامس فهو بعنوان: "ميخا"، ويتناول زمن ميخا وشخصيته، وتوبيخه الاجتماعي خاصة لزعماء الشعب والقضاة والكهنة، وتصويره للخراب والدمار الذي سيحل بالسامرة ومدن يهوذا، ويوضح مفهومه للعبادات وللمطالب الأخلاقية، ونبوءات المواساة، هذا بالإضافة إلى الحديث عن سفر ميخا وأسلوبه وبنائه وصوره الفنية.

ويحمل الفصل السادس عنوان: "إرميا"، ويتناول أصل إرميا وموطنه، ومفهومه للألوهية والعبادات، وتكليفه بالنبوة، ونبوءات المواساة، ونبوءاته على الشعوب، وعلاقته بأنبياء الكذب. كما يتناول هذا الفصل أيضًا علاقة إرميا بالملكية والملوك، والعلاقة الخاصة بين الرب وإسرائيل، ومعاصي إسرائيل، والأحداث الرئيسية في زمنه، ومن أهمها: انهيار آشور وصعود بابل، والتمرد على بابل، وإصلاحات يوشيا، مُلْك يهوياقيم ويهوياكين وصدقيا، فترة حكم جدليا، سبي يهوياكين، وغيرها من الأحداث التاريخية. كما يعقد هذا الفصل أيضًا مقارنة بين كل من "إرميا وهوشع"، هذا بالإضافة إلى الحديث عن سفر إرميا وتقسيمه وأسلوبه وبنائه وصوره الفنية. وهكذا يتناول المؤلف في القسم الثاني من الكتاب، في الفصول من السابع وحتى الرابع عشر الأنبياء: حزقيال، وإشعياء الثاني (الإصحاحات ٤٠-٦٦) وناحوم وعوبديا؛ وحبقوق؛ ويوئيل وصفنيا؛ وحجي وزكريا؛ وملاخي؛ وفي الفصل الرابع عشر يتناول الأسس الرئيسية للنبوة.

وينتهي الكتاب بملاحق عن: إشعياء ويونان؛ بتناول الحقائق الأساسية والأفكار الرئيسية في سفر يونان، ويستعرض الأفكار الأساسية في فلسفة الأنبياء على مستويين: الأول، على مستوى مفهوم الألوهية. والثاني، على مستوى الإنسان. وميخا بن يَمْلَة، الذي اعتبره حلقة الوصل بين الأنبياء الأوائل والأنبياء الأواخر، والسمات التي ميزته بصفات من الأنبياء الأوائل وأخرى للأنبياء الأواخر. وختامًا ملحق عن رؤى عاموس الخمسة وتقسيمها والفرق بينها وزمن هذه الرؤى ومضمونها ورمزيتها.

وفي نهاية هذه المقدمة لابد من تقديم شكر واجب إلى الأستاذ عمرو زكريا لقيامه بهذا المجهود العظيم في ترجمة هذا العمل المهم إلى اللغة العربية. وسيفيد من هذا العمل المتخصصون في عدة مجالات علمية من أهمها مجالات الفكر الديني اليهودي، وكذلك المتخصصون في الدراسات اليهودية المقارنة. كما سيفيد غير المتخصصين في التعرف على أنبياء بني إسرائيل، وتوضيح وتقنين المفهوم الواسع للنبوة في اليهودية.

أ. د. م. عبير الحديدي محمد
أستاذ دراسات العهد القديم المساعد
كلية الآداب – جامعة المنصورة

مدخل

على كل من يشتغل بأقوال الأنبياء أن يطرح على نفسه أولًا سؤالًا أساسيًا: لمن تعود هذه الأقوال التي يدرسها؟ ومَن مِن شخصيات العهد القديم يدخل في دائرة النبوة؟ أو بمعنى آخر: ما هو مفهوم «النبي» وفقًا للعهد القديم؟

سُيقال على الفور: إننا هنا بصدد البحث عن مفهوم النبوة وفقًا للحقائق المذكورة في العهد القديم نفسه؛ فلا نهتم نهائيًا بالمفهوم الحديث (تعريف أحاد هاعام[١] على سبيل المثال)، أو بالتفسير الفلسفي لها (كتفسير الحاخام موسى بن ميمون «رامبام»[٢]؛ إنما هدفُنا محددٌ وصريح فنحن نريد فَهم النبوة وأقوال الأنبياء من خلال أقوالهم هم أنفسهم. ورغم هذا القيد إلا أنه من الضروري توخي الحذر من ألَّا يكون تعريف مفهوم النبوة، وفقًا للعهد القديم نفسه، تعريفًا ضيِّقًا أو مُسهبًا. فلو أننا عرَّفنا «النبي» مثلًا بأنه شخص تواصل الرب معه فسيشمل هذا التعريف كل من: «قايين»[٣]، الذي تحدث الرب معه (التكوين ٤: ٦، ٩، ١٥)، و«هاجر» جارية سارة التي تحدث الرب معها (التكوين ١٦: ٩، ٢١: ١٧)، و«أبيمالك» ملك جرار الذي جاء إليه الرب في المنام (التكوين ٢٠: ٣)، و«لابان» الآرامي الذي زاره الرب أيضًا في المنام (التكوين ٣١: ٢٤)، وامرأة «مَنُوح» أم شمشون التي تراءى لها ملاك الرب (القضاة ١٣: ٢). ومن المؤكد أن

---

[١] أشر تسفي (هيرش) جرينتسبرج ١٨٥٦–١٩٢٧؛ مؤسس تيار الصهيونية الروحية.

[٢] الحاخام موسى بن ميمون ١١٣٨–١٢٠٤؛ من أهم الفلاسفة اليهود على مر العصور، لُقِّب بالنسر العظيم.

[٣] قابيل في الإسلام.

«قايين» و«أبيمالك» و«لابان» و«هاجر» و«امرأة منوح» ليسوا أنبياءً في العهد القديم وأن التعريف المطروح للمناقشة مسهبٌ للغاية ومغلوط.

كما يجب توخِّي الحذر من التعريفات الضيقة جدًا التي تقول بأن «النبي» هو أي شخص يسميه العهد القديم نبيًا؛ فهذا التعريف أولًا: لا يشير إلى أي صفة جوهرية للنبي (بخلاف التعبير السابق)؛ فـــلقب «نبي» أو «نبية» أُطلق على «هارون» (الخروج ٧: ١)، وعلى أخته «مريم» (الخروج ١٥: ٢٠)، وعلى «دَبُّورَه» القاضية (القضاة ٤: ٤)، وعلى «إبراهيم» (التكوين ٢٠: ٧)، وعلى «صَمُوئِيل» (صَمُوئِيل الأول ٣: ٢٠)، وعلى «خَلْدة» (الملوك الثاني ٢٢: ١٤). فما هو القاسم المشترك الذي يربط بين كل من إبراهيم ومريم ودبوره وصَمُوئِيل وخلدة؟؛ ثانيًا: لم يذكر العهد القديم صراحةً أنهم كانوا جميعًا أنبياء؛ فالرب لم يتحدث مع أي من الآباء الثلاثة لكن إبراهيم فقط هو الذي سُميَّ نبيًّا. فهل كان إبراهيم نبيًا ولم يكن يعقوب كذلك؟ ومن بين القضاة «دبُّوره» فقط هي التي سُمِّيَت «نبيَّة»؛ فلماذا لم يُذكر «جدعون» أيضًا كنبي؟

وَرَدَ في الإصحاح التاسع من سفر صَمُوئِيل الأول الآية التاسعة أن النبي سُميَّ أحيانًا «الرائي» وهذا الاسم له تأثير على تعريف ثالث مغلوط للنبوة بأنها كانت تنجيمًا أو عرَافة؛ فرؤية المستقبل هي بالفعل صفة من الصفات المهمة للنبوة لكن من المؤكد أنها لا تلخِّص كل أعمال الأنبياء ووعظهم وتعاليمهم، ثم إنها ليست مشتركة بين كل الأنبياء.

لا جدال في أن أساس النبوة هو الاتصال الإلهي، وأي موضع ليس فيه اتصال إلهي لا نبوة فيه؛ مع ذلك فليس كل اتصال إلهي نبوة؛ فالاتصال الإلهي والنبوة ليسا شيئًا واحدًا. وأيضًا لن نُعرِّفَ النبي في العهد القديم كصانع معجزات فليس كل

الأنبياء صنعوا معجزات، ولا بـــ"الواعظ" فلم يعظ جميع الأنبياء كما أن ليس كل واعظ نبي.

إذن لا يجب أن يشمل التعريف الصحيح لمفهوم النبوة كل من تحدَّث الرب أو ملاك الرب معه، أو كل من سُمِّيَ نبيًا؛ إنما كل من تحدث معه الرب ليكلِّفه بمهمة أو بنقل رسالة إلى بني إسرائيل أو إلى البشرية خاصة الذين أُرسلوا لتوبيخ بني إسرائيل وهدايتهم إلى الصراط المستقيم. ولا يشمل هذا التعريف أيضًا كل من حلَّت أو هبطت عليه روح الرب. وهنا يجب التمييز بين روح الرب وبين الحديث الإلهي؛ فقد ورد في سفر القضاة: "فكان روح الرب على يفتاح" (١١: ٢٩)، وكذلك عن شمشون: "فحلَّ عليه روح الرب" (١٤: ٦). ويفتاح وشمشون بحسب تعريفنا ليسا نبيين لكن قاضيان خلَّصا بني إسرائيل بعون من الرب. كما لا يشمل هذا التعريف أيضًا سليمان الذي تراءى له الرب في المنام ليباركه ولا أيوب الذي استجاب الرب لشكواه.

هناك نوعان من الاتصال الإلهي بالإنسان في العهد القديم: النوع الأول ليكشف للإنسان حقيقة معينة أو ليكون عونًا له؛ أما النوع الثاني فلكي يرسله للقيام بمهمه أو تبليغ رسالة. والنوع الثاني فقط من هذا الاتصال الإلهي هو الذي يُسمَّى «نبوَّة». والنبي هنا بمثابة قناة تنقل كلام الرب إلى الشعب أو البشرية؛ والنبي هو الوسيط بينهما. ويذكر سفر الخروج ٧: ١-٢: ".. وهارون أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما آمرك، وهارون أخوك يكلِّم فرعون...". ويتضح هنا تمامًا معنى النبي كوسيط.

أما طبيعة النبوة كرسالة فيتم التأكيد عليها صراحة في تكليف الأنبياء فقيل في تكليف موسى: "فالآن هَلُمَّ أرسلك إلى فرعون، وتخرج شعبي بني إسرائيل من

مصر" (الخروج ٣: ١٠). إذن فإرسال موسى كان لإخراج بني إسرائيل من مصر. وفي تكليف إِشَعْيَاء ذُكر: "ثم سمعت صوت السيد قائلًا: «من أُرسل؟ ومن يذهب من أجلنا؟» فقلت: «هأنذا أَرسِلنِي»" (إِشَعْيَاء ٦: ٨). وأُرسل إِشَعْيَاء ليوبِّخ بني إسرائيل. وفي إِرْمِيَا: "... لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب، وتتكلم بكل ما آمرك به." (إِرْمِيَا ١: ٧). وفي حِزْقِيَال: "فقال لي: «يا ابن آدم، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمردة قد تمرَّدت علي»" (حِزْقِيَال ٢: ٣).

إن استخدام الفعل أرسل (שָׁלַח) في كل تكليف إنما يشهد بلا شك على أن النبوة هي مهمة وإن هذه المهمة هي الحقيقة المشتركة بين جميع الأنبياء. وعلى الرغم من عدم وجود وصف محدد لهذه المهمة إلا أننا نجد عند ناثان: "فأرسل الرب ناثان إلى داوُد" (صَمُوئِيل الثاني ١٢: ١)، وعند إِيلِيَّا: "اذهب وتراءى لأخآب" (الملوك الأول ١٨: ١) ... "اذهب راجعًا في طريقك" (الملوك الأول ١٩: ١٥)، "قم انزل للقاء أخآب" (الملوك الأول ٢١: ١٨)؛ وعند عَامُوس: "فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب: اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل" (عَامُوس ٧: ١٥)؛ وعند يونان[1]: "«قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة ..»" (يونان ١: ٢) — وكلها تعبيرات واضحة عن التكليف بمهمة.

فالنبي في العهد القديم إذن هو رسول الرب بلا شك. وقد لا يرغب الشخص الذي يقع عليه الاختيار ليصبح نبيًا في قبول هذا التكليف الإلهي. فموسى يقول: "من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أُخرج بني إسرائيل من مصر؟ ... أيها السيد: أرسل بيد من ترسل" (الخروج ٣: ١١، ٤: ١٣). وقال إِرْمِيَا: "آه يا سيد الرب، إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد" (إِرْمِيَا ١: ٦). ويهرب يونان من أمام الرب،

[1] يونس عليه السلام.

كي لا ينفذ مهمته. وبلعام يقول إنه يتحدث بما يضعه الرب في فمه، على عكس رغبته هو (العدد ٢٣: ١٢، وأمثلة أخرى). لكن إِشَعْيَاء فقط هو الذي يقول دون تردد: "هأنذا أرسلني!"، من هنا نلاحظ عدم وجود توافق دائم بين النبي وبين المهمة المكلَّف بها. فالنبي عليه أن يقوم بمهمته وأن يتحدث بكلام الرب الذي وضعه في فمه حتى إن كان ذلك بخلاف رغبته: "الأسد قد زمجر فمن لا يخاف؟ السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ" (عَامُوس ٣: ٨). "قد أقنعتني يا رب فاقتنعت، وألححت علي فغلبت، صرت للضحك كل النهار كل واحد استهزأ بي. لأني كلما تكلمت صرخت ناديت: ظلم واغتصاب. لأن كلمة الرب صارت لي للعار والسخرة كل النهار. فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه. فكان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي، فمللت من الإمساك و لم أستطع" (إِرْمِيَا ٢٠: ٧-٩).

النبي إذن هو رسول الرب، وآداة في يديه؛ لذلك لا نجد في العهد القديم أي معلومات تقريبًا عن شخصية الأنبياء وعن حياهم الشخصية، ولا يوجد كذلك أي تفسير لسبب اختيار الرب لشخص معين ليصبح نبيًا.

ينقسم الأنبياء بحسب الترتيب الزمني إلى أربعة عصور:

١- **الأنبياء الذين سبقوا موسى**: تحدث الرب مع نوح وأمره بصنع الفُلْك لإنقاذ نفسه والبشرية. ويبارك نوح وأبناءه (التكوين ٩)، ويقطع معهم عهدًا ويكلِّفهم بوصايا. فنوح إذن هو أول أنبياء العهد القديم ثم يأتي بعده إبراهيم ثم إسحق ويعقوب آباء بني إسرائيل الذين سيتلقون الشريعة فيما بعد. وإبراهيم لم يُبعث إلى بني إسرائيل وحدهم لكن إلى البشرية قاطبة: "وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية، ويتبارك به جميع أمم الأرض. لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب، ليعملوا برًا وعدلًا، لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به"

(التكوين ١٨: ١٨-١٩). فإقامة العدل والبر هما الهدف القومي والإنساني من وراء اختيار إبراهيم. وسيأتي من نسل إبراهيم الشعب الذي سيكلِّفه الرب بمهمة تعليم العدل والبرَّ للبشرية.

٢- **موسى سيد الأنبياء**: وهو متفرد في ذاته وتؤكد التوارة ذلك: "ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الرب وجهًا لوجه" (التثنية ٣٤: ١٠)؛ "فمًا إلى فم وعيانًا أتكلم معه، لا بالألغاز. وشبه الرب يعاين" (العدد ١٢: ٨). لم يحظ أي إنسان بمثل هذا الدنو العظيم من الرب، كما طالب جميع الأنبياء الذين جاءوا بعده الشعب بتنفيذ وصايا شريعته، ولم يقدِّم أي نبي شريعة جديدة.

٣- **الأنبياء الأوائل**: من يَشُوع وحتى أَلِيشَع من سنة ١٢٥٠ ق.م وحتى سنة ٧٥٠ ق.م تقريبًا؛ نحو ٥٠٠ عام.

٤- **الأنبياء الأواخر**: من عَامُوس وحتى ملاخي من سنة ٧٥٠ ق.م وحتى سنة ٤٥٠ ق.م تقريبًا؛ نحو ٣٠٠ عام.

إذا كان الهدف من هذا الكتاب هو الوقوف على أقوال الأنبياء الأواخر؛ إلا أنه لا يمكننا فهم هذه الأقوال دون التطرق إلى جذور النبوة وتطورها في عصر الأنبياء الأوائل؛ لذا سنخصص فصلًا واحدًا لاستعراض أقوال الأنبياء الأوائل كمدخل لدراسة الأنبياء الأواخر.

الفصل الأول

الأنبياء الأوائل

يَشُوع نبيًّا

كان الأنبياء الأوائل من موسى وحتى صَمُوئِيل زعماء قوميين، وكان أول ذكر ليَشُوع في حرب العماليق كـــ «رجل حرب» (الخروج ١٧: ٩). أصبح يَشُوع خادم موسى الدائم (الخروج ٣٣: ١١) بعد واقعة العجل. وكان لموسى تأثيرٌ كبير عليه لكن يَشُوع لم يصل إلى مرتبة النبوة بسرعة؛ حيث لم يكن ضمن قصة السبعين شيخًا المتنبئين، وكان في قصة «ألداد» و«ميداد» واحدًا من "فِتية" موسى (العدد ١١: ٢٨)؛ فالتواصل الإلهي مع يَشُوع لم يكن قد تحقق بعد. رفض موسى مقترح يَشُوع بحبس «ألداد» و«ميداد» بتواضع عظيم قائلًا: "هل تغار أنت لي؟ يا ليت كل شعب إسرائيل كانوا أنبياء إذ جعل الرب روحه عليهم" (العدد ١١: ٢٩).

ظهر يَشُوع بعد احتلال شرقي نهر الأردن كقائد مستقبلي (العدد ٣٤: ١٧). وطلب موسى بنفسه من الرب أن يُعيِّن قائدًا للشعب فطلب منه الرب أن يضع يده على يَشُوع "رجل فيه روح" (العدد ١٧: ١٥-٢٣). هكذا تم تعيين يَشُوع في عهد موسى وعلم الشعب كله ذلك فاعتبره نائبًا لموسى. ولكي يقبل الشعب سلطة يَشُوع بدون معارضة وبدون أي جدال نقل موسى الزعامة إلى يَشُوع في طقس علني: "فدعا موسى يَشُوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل: تشدَّد وتشجَّع لأنك

أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم الرب لآبائهم أن يعطيهم إياها، وأنت تقسِّمها لهم" (التثنية ٣١: ٧).

حدث أول اتصال إلهي بين الرب ويَشُوع قبل موت موسى بتوصيته إياه: "وقال الرب لموسى: هوذا أيامك قد قربت لكي تموت، ادع يَشُوع، وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه. فانطلق موسى ويَشُوع ووقفا في خيمة الاجتماع، فتراءى الرب في الخيمة في عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة" (التثنية ٣١: ١٤-١٥). وكانت الكلمات الأولى التي قالها الرب ليَشُوع: "تشجَّع وتشدَّد لأنك تدخل ببني إسرائيل الأرض التي أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك". (التثنية ٣١: ٢٣). يذكر الإصحاح ٣١ في سفر التثنية أول تواصل إلهي مع يَشُوع وتكليفه بقيادة الأمة وبمهمة خاصة وهي تقسيم الأرض. وبعد أن يموت موسى يتحدث الرب مع يَشُوع على الفور ويشدُّ على يديه (يَشُوع ١: ١-٩).

من الظاهر أن يَشُوع ليس شخصية نبوية ولكنه رجل حرب وقائد جيش ومحتلّ. ويبدو كذلك أن هناك اختلاف بين موسى الرجل الروحاني وبين يَشُوع الرجل العملي. وأبرز هذا الاختلاف أحاد هاعام الذي ظنَّ أن موسى لم يدخل الأرض كنبي لأن النبي – الرجل المتمسك بآرائه – عليه أن يفسح المكان ليَشُوع رجل الحلول العملية. وحينما يحين وقت تحقيق المُثُل العليا يبدأ عصر جديد من استبعاد للنبوة وتقديم التنازلات والتسويات الكامنة في طبيعة حروب الحياة. وفي النهاية يحصل الواقع على شكل مختلف تمامًا عمَّا شاهده النبي (موسى) في الرؤيا.

غير أن الحقائق البسيطة في العهد القديم تتعارض تمامًا مع فكرة النبوة بشكل عام، ومع يَشُوع بشكل خاص.

تتجلى السمات النبوية عند يَشُوع في مواضع كثيرة:

أ. تجلِّيَ الرب ليَشُوع والحديث معه وتوصيته وتكليفه بمهمة. ولا يتجلى الرب ليَشُوع مرة واحدة فقط لكن مرات عديدة: قبل موت موسى (التثنية ٣١: ٢٣)، قبل عبور نهر الأردن (يَشُوع ١: ١–٩، ٣: ٧)، بعد عبور نهر الأردن (يَشُوع ٤: ٢)، الأمر بختان بني إسرائيل (يَشُوع ٤: ١٥، ٥: ٢)، ظهور قائد جيش الرب (يَشُوع ٥: ٩، ٦: ١٣–١٥)، قبل احتلال أريحا (يَشُوع ٧: ٢)، بخصوص عخان (يَشُوع ٧: ١٠)، بخصوص محاربة عاي (يَشُوع ٨: ١، ١٨)، قبل حرب جبعون (يَشُوع ١٠: ٨)، قبل حرب مياه ميروم (يَشُوع ١١: ٦)، الأمر بتقسيم الأرض إلى قبائل (يَشُوع ١٣: ١)، الأمر بتعيين مدن الملجأ (يَشُوع ٢٠: ١–٢). والأسلوب هنا يشبه كلام الرب مع موسى تمامًا: "وكلَّم الرب يَشُوع قائلًا: كلِّم بني إسرائيل قائلًا" (قارن سفر الخروج ١٤: ١–٢، ٢٥: ١–٢، وغيرهم).

ب. أمر الرب يَشُوع ".. تتحفظ للعمل حسب كل الشريعة التي أمرك بها موسى عبدي. لا تمِل عنها يمينًا ولا شمالًا لكي تفلح حيثما تذهب. لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك، بل تلهج فيه نهارًا وليلًا، لكي تتحفظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب لأنك حينئذ تصلح طريقك وحينئذ تفلح" (يَشُوع ١: ٧–٨). نلاحظ في هاتين الفقرتين مطلبين أساسين للنبوة الإسرائيلية: دراسة الشريعة؛ وتنفيذ وصاياها. وترتبط كذلك فكرة فلاح الإنسان والشعب بالحفاظ على الشريعة.

ث. يَشُوع ليس قائدًا عاديًا للجيش فحسب إنما هو حريصٌ أيضًا على طهارة المعسكر والحفاظ على الوصايا. ويقوم قبل احتلال الأرض بتختين كل بني إسرائيل الذين لم يتختَّنوا في الصحراء (يَشُوع ٥: ٧)، ويحتفل بالفصح (١٠). وبعد احتلال أريحا وعاي يقوم ببناء مذبح للرب على جبل عيبال "كما هو مكتوب في سفر

توراة موسى" (٨: ٣١)، ويكتب على الحجارة شريعة موسى الشفهية ويردد على آذان بني إسرائيل البركات واللعنات "كما هو مكتوب في التوراة" (٣٤). فيَشُوع يتصرف طوال الوقت كقائد ديني ونبي للشعب يُعلِّمه الحفاظ على وصايا التوراة وتنفيذها.

ج. ينادي يَشُوع جميع إسرائيل قبل وفاته فيعظهم ويحذرهم، مثلما فعل موسى قبله وصَمُوئِيل بعده، وفي شكيم يقطع مجددًا عهد سيناء بين الرب وإسرائيل.

ح. يصنع الرب المعجزات لإسرائيل من خلال يَشُوع: شرقي نهر الأردن (الإصحاح ٣)، سقوط أسوار أريحا (الإصحاح ٦)، سقوط حجارة كبيرة من السماء في حرب جبعون وإيقاف الشمس: "يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيلون" (١٠: ١١-١٣).

لا ريب في أن سِفْر يَشُوع يعدُّه نبيًّا فهو يعمل طوال الوقت كرسول الرب الذي ينفذ وصاياه، كما يعاتب الشعب ويدعوه إلى الالتزام بالشريعة، ويسير على درب موسى ويشبهَه في بعض الأمور؛ لكنه لا يقدم شريعة جديدة لبني إسرائيل ولا يرقى إلى مرتبة موسى النبوية.

ما هو مقدار إسهام يَشُوع في تاريخ النبوة؟ إن كلام يَشُوع لا يتضمن أي طلب جديد غير موجود في الشريعة أو في أقوال موسى؛ فيطلب من الشعب: "لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى حتى لا تحيدوا عنها يمينًا أو شمالًا" (٢٣: ٦). إن يَشُوع مثل موسى نبيًا قائدًا، ولقد استمر هذا الشكل النبوي من عصر موسى وحتى صَمُوئِيل.

عصر القضاة

ورد في سفر صَمُوئِيل الأول ٣: ١: "وكانت كلمة الرب عزيزة في تلك الأيام. لم تكن رؤيا كثيرًا". لقد كان عصر القضاة شحيح الأنبياء حتى ظهور صَمُوئِيل؛ فمعظم القضاة لم يكونوا أنبياءً. إنما خلَّصوا شعبهم بمساعدة روح الرب، لكن الرب لم يتحدث معهم ولم يرسلهم لنقل كلامه إلى شعبه. وكان هناك أيضًا قضاة أنبياء؛ فورَدَ عن دبُّوره أنها كانت "امرأة نبية"، والمكتوب يصفها صراحة بأنها كانت رسولة الرب التي تنقل كلامه إلى «باراق»: "فأرسَلَتْ ودَعَت باراق بن أبينوعم من قادش نفتالي، وقالت له: ألم يأمر الرب إله إسرائيل؛ اذهب وازحف إلى جبل تبور" (القضاة ٤: ٦). غير أن دبَّورة فازت بلقب نبيَّة بفضل ترنيمتها التي تصور فيها حرب الرب ضد سِيسْرا بأسلوب نبوي. ولم يكن الشعب أو القبائل هم البطل الرئيس لهذه الترنيمة إنما الرب: "أنا للرب أترنم، أزمِّر للرب إله إسرائيل"، فهاهي تفتتح الترنيمة بوصف ظهور الرب وخروجه من أجل تخليص شعبه (على غرار موسى في التثنية ٣٣: ١ "وهذه هي البركة"). فالرب هو الذي يحارب أعداءه أما أبطال إسرائيل فيساعدوه فقط في حربه.

إن الفكرتين الرئيسيتين في ترنيمة دبُّوره والموجودتين في التوراة والأنبياء هما: (أ) "اختار آلهة حديثة، حينئذ خرَّب الأبواب" (القضاة ٥: ٨)؛ أي أن خيانة الرب هي السبب الرئيس للمصائب. (ب) وجود علاقة خاصة بين الرب وإسرائيل؛ فإسرائيل هو "شعب الرب" وأعداؤه هم أعداء الرب.

لكن دبُّوره ليست الشخصية النبوية الوحيدة في عصر القضاة فذكر سفر القضاة أنبياء آخرين. ويذكر الإصحاح الثاني: "وصعد ملاك الرب من الجلجال إلى بوكيم وقال: قد أصعدتكم من مصر وأتيت بكم إلى الأرض ... ولم تسمعوا لصوتي،

فماذا عملتم؟". الكلام هنا لنبي يوبِّخ الشعب باسم الرب. كما ورد في الإصحاح ٦: ٨ الذي يحكي عن مشكلة مديان: "أرسل الرب نبيًا إلى بني إسرائيل وقال لهم: هذا ما يقوله الرب إله إسرائيل لقد أخرجتكم من مصر وحررتكم من نير العبودية" وكذلك (٧-١٠). إن أقوال هذا النبي لتتشابه كثيرًا مع أقوال ملاك الرب في الإصحاح الثاني فكلاهما ينقلان كلام الرب إلى الشعب، وكلاهما يدعوان الشعب إلى اتباع الصراط المستقيم لكننا لا نعرف اسم هؤلاء الأنبياء أو هويتهم. وفي المقابل نجد هناك قاضيًا واحدًا لم يُطلق عليه نبيًا صراحة لكنه ينتمي بلا شك إلى زُمرة الأنبياء الأوائل ألا وهو جدعون.

كان جدعون رجل حرب مثل يَشُوع لكننا لن نتناول حروبه هنا (لأننا لم نتناول حروب يَشُوع)، لكن صفاته النبوية؛ ففي البداية تجلى له ملاك الرب وأرسله لتخليص إسرائيل: "اذهب بقوتك هذه وخلِّص إسرائيل من كف مديان، أما أرسلتك؟" (القضاة ٦: ١٤). هكذا أصبح جدعون رسولًا للرب. ويتردَّد أيضًا مثل موسى في قبول المهمة: "دعني أسألك يا سيدي، كيف أنقذ إسرائيل وعشيرتي هي أضعف عشائر سبط مَنَسَّى، وأنا أقل أفراد عائلتي شأنًا؟" وعن ذلك يقول له الرب: "سأكون معك" كما هو الحال مع موسى تمامًا. (القضاة ٦: ١٥، ١٦، الخروج ٣: ١٢). ومن أجل تقوية إيمانه أعطاه الرب علامات تشير إلى نجاحه في مهمته. ويوصف لقاء جدعون بملاك الرب بأنه عملية "تكليف نبي" كما يوصف الحوار بينهما بأنه عمل نبوي خالص.

بعد حرب العماليق يبني موسى مذبحًا يسميه: "يَهوَه نِسِّي" (الخروج ١٧: ١٥). أما جدعون فيبني مذبحًا قبل محاربته للمديانين يسميه: "يَهوَه شلوم"[١] (القضاة ٦: ٢٤).

يقوم جدعون بتدمير مذبح البعل "كما كلَّمه الرب" (القضاة ٦: ٢٧) ويسمع جدعون كلام الرب ويتحدث معه ويطرح عليه أسئلة ويطلب منه طلبات وينفذ الأوامر. والتجلّي الإلهي لجدعون يكلفه بمهمة مزدوجة ألا وهي: تخليص إسرائيل من أيدي مديان وتقوية الإيمان بالرب. فكل عمل لجدعون له هدفان: تخليص إسرائيل من أيدي المديانيين؛ وتعظيم اسم الرب. وتدور رحى حرب مديان بما يتماشى مع تعاليم الرب. ويقول الرب لجدعون عند «عين حرود» بأن ينقّي الشعب "لئلا يفتخر عليَّ إسرائيل قائلًا: يدي خلَّصتني" (القضاة ٧: ٢). ويحاول جدعون أثناء الحرب إدخال الإيمان بالرب في قلب الشعب وكان شعار رجاله هو: "للرب ولجدعون" (القضاة ٧: ١٨، ٢٠)؛ وهذا هو الغرض من جميع أعمال جدعون: تقوية الإيمان بالرب.

حتى معارضة جدعون للملكية تنبع من طبيعته النبوية؛ فلو أنه وافق على طلب الشعب لأصبح أول ملك في إسرائيل لكنه رفض العرض قائلًا: "لا أتسلَّط أنا عليكم، ولا يتسلَّط ابني عليكم، الرب يتسلَّط عليكم" (القضاة ٨: ٢٣). وفيما بعد انتقل هذا الموقف من الملكية إلى صَمُوئِيل. ويعدُّ جدعون النموذج الثيوقراطي[٢] في العهد القديم، وكان أيضًا نبيًا وقائدًا مثل موسى ويَشُوع.

---

[١] ومعناه الرب سلام.

[٢] تعني حكم الكهنة أو الحكومة الدينية أو الحكم الديني . تتكون كلمة ثيقراطية من كلمتين مدمجتين في اللغة اليونانية هما *ثيو* وتعني الدين و*قراط* وتعني الحكم وعليه فان الثيقراطية هي

صَمُوئِيل نبيًّا

يظهر صَمُوئِيل في العهد القديم في مراتب مختلفة للنبوة؛ حيث كانت النبوة في ذلك العصر بمثابة رؤية للمستقبل والغيب "سابقًا في إسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله: هلم نذهب إلى الرائي. لأن النبي اليوم كان يدعى سابقًا الرائي" (صَمُوئِيل الأول ٩: ٩). يذهب شاوُل إلى صَمُوئِيل بنصيحة من غلامه الذي يؤمن بقدرة صَمُوئِيل على إخبارهم بمكان وجود «حمير قيس» الضائعة. وبحسب هذا الإيمان فإن رؤيا النبي غير محدودة في المجالات الطبيعية العادية من زمان ومكان بل وتتعدى المستقبل والمسافات لذلك فمن حق النبي أن يحصل على هدايا في مقابل كشف الخفايا. من الطبيعي أن تكون تلك النظرة إلى النبوة نظرة بدائية، والمكتوب يؤكد على زمنها القديم: "سابقًا في إسرائيل".

على أية حال لا شك في أنه قد بقي في إسرائيل، في فترة أكثر تأخرًا – في عصر الأنبياء الآواخر – نوعان من النبوة النوع الأول: الأنبياء المحترفون الذين يتكهنون بالمستقبل ويرون المولود ويحصلون على أجر في مقابل إجابة السائلين؛ والنوع الثاني: الأنبياء المرسَلُون إليهم. لكن لم يكن في مقدور الشعب دائمًا التمييز بين هذين النوعين من الأنبياء واعتبروهم جميعًا أنبياء محترفين. ففي كل أسفار النبوة تقريبًا نجد صدامًا بين الأنبياء المحترفين والأنبياء المرسلين. وهناك أنبياء أكدوا بشكل خاص على الفرق الجوهري بينهم وبين الأنبياء المحترفين (عَامُوس، مِيخَا، إِرْمِيَا، حِزْقِيَال). إن تسميات "رائي" و"عرَّاف" تشير إلى جانب الرؤى في الاتصال

نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته مباشرة من الإله، حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين الذين يعتبرون موجَّهين من قبل الإله أو يمتثلون لتعاليم سماوية، وتكون الحكومة هي الكهنوت الديني ذاته أوعلى الأقل يسود رأي الكهنوت عليها.

الإلهي، وإلى رؤيا الرب؛ في حين يشير مصطلح "نبي" إلى إظهار الكلام الإلهي بشكل خاص وهو أسمى درجة في النبوة. كان صَمُوئِيل "رائيا"، لكنه كان أيضًا واحدًا من أعظم الأنبياء.

العمل النبوي الرئيس لصَمُوئِيل كان في قيادته الروحية للشعب؛ فبتأثير منه أزاح الشعب تماثيل بعل وعشتاروت وعبد الرب وحده (٧: ٤). وبتأثير منه أيضًا يتوب بنو إسرائيل مرة أخرى فيصومون ويصلُّون للرب (٧: ٦، ١٢: ١٩). ويبني صَمُوئِيل مذبحًا للرب في «الرامة»، ويحول مكان رجوعه إلى مركز روحي. وعندما يحكم الفلسطينيون إسرائيل يعمل صَمُوئِيل على دعم الثقافة الوطنية وتعزيزها ويحارب تأثير الثقافة الأجنبية. ويجمع الشعب في اجتماعات كبيرة في «المصفاة» وفي «الرامة» وفي «الجلجال» (٧: ٥، ٨: ٤، ١١: ١٤، ١٠: ١٧). وبفضل نشاطه وتأثيره تتعاظم قوة الشعب لمواجهة الفلسطينيين (٧: ١٣) ويزيد الحس الوطني والوعي بضرورة توحيد القبائل في شعب واحد تحت قيادة ملك واحد، فمهَّد صَمُوئِيل الطريق أمام إقامة الدولة الإسرائيلية ونصَّب أول ملك على إسرائيل. وجمع الشعب قبل موته وخطب فيه مثل يَشُوع وموسى خطاب تحذير وتوبيخ[١].

لقد كان إسهام صَمُوئِيل في تطوُّر النبوة مهمًا للغاية من ثلاث نواحي: موقفه من الملكية؛ ومراقبته للقرابين؛ وتأثيره على ظاهرة جماعات الأنبياء.

---

[١] قارن المكتوب بينه وبين موسى سيد الأنبياء في إرميا ١٥: ١ والمزامير ٩٩: ٦.

١- موقف صَمُوئِيل من الملكية

لم تُوضَّح بإسهاب معارضة جدعون للملكية؛ بينما أسهب صَمُوئِيل في تبرير موقفه السلبي من الملكية (صَمُوئِيل الأول ٨). فلو آمن الشعب بالرب وسار على دربه، لما كانت هناك حاجة إلى الملكية لأن الرب نفسه هو الذي كان سيخلص شعبه. وهذه هي الفكرة الرئيسية بالفعل في أقوال الأنبياء: إسرائيل ليس في حاجة إلى خلاص الملوك والحكام والانتصارات في أرض المعركة لكن إلى الثقة في ربه الذي سينجيه من أعدائه. ففي عصر القضاة يرسل الرب مخلصًا لشعبه في كل أزمة؛ فلماذا يتخذ شعب إسرائيل سلطة ملوك وهم وأبناؤهم غير جديرين بالملك نهائيًا؛ بل يستغلون سلطانهم من أجل متعهم الشخصية فقط؟ عارض صَمُوئِيل الملكية بشكل أساسي لأنها تحمل في طياتها مخاطر الاستبداد والاستعباد وليس فيها أي ضمان لسلطة الشريعة. أما شريعة الرب فتعني أن تُعْطَى زعامة الشعب في كل جيل جديد لقاضٍ أو كاهن أو نبي يختاره الرب (مثل جدعون أو صَمُوئِيل). وينفِّذ هذا الزعيم وصايا الرب ويعمل لصالح الشعب وليس لصالح نفسه.

لقد تمسك صَمُوئِيل في البداية بالنموذج الثيوقراطي لجدعون لكنه خضع للواقع ونصَّب شاوُل – ومن بعده داوُد – ملكًا. في النهاية اتخذ صَمُوئِيل شأن بقية الأنبياء من بعده موقفًا توافقيًا تجاه الملكية: غير معارض من ناحية المبدأ لكنها موافقة مشروطة بأن تحافظ الملكية على وصايا الرب. ملكية أخلاقية ودينية تتمتع بمباركة الرب (مثل ملكية داوُد). أما الملكية الأخرى فمرفوضة من الأساس وليس لها أي حق في الحكم لذلك فإن فناءها محتوم (يَرُبْعَام، أخآب، بيت ياهو وغيرهم).

يُفهَم من ذلك أيضًا معارضة صَمُوئِيل لشاوُل؛ حيث اعتقد في البداية أن شاوُل سيعمل بحسب أوامره وشرائع التوراة لكن شاوُل خالف وصايا التوراة مرتين (لا تهمنا الآن مسألة علاقة صَمُوئِيل وشاوُل لكن موقف صَمُوئِيل الأساسي كنبي).

على أية حال لم يعد هناك منذ تأسيس الملكية في إسرائيل أنبياء قادة أو زعماء فتوقف الأنبياء عن كونهم قادة وأصبحوا واعظين فقط.

٢- أقوال صَمُوئِيل عن القرابين

"هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟ هو ذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش" (١٥: ٢٢). تظهر هنا ولأول مرة في العهد القديم فكرة أن تقديم القرابين ليست أساس عبادة الرب وأن هناك أشياء أهم بكثير. وأصبحت هذه الفكرة فيما بعد من مباديء النبوة الكلاسيكية (عَامُوس، هُوشَع، إِشَعْيَاء، مِيخَا، وإِرْمِيَا). لكن من الضروري التأكيد على الفرق بين أقوال صَمُوئِيل وبين أقوال الأنبياء الأواخر الذين قالوا إن السلوك الأخلاقي هو الأهم؛ أما صَمُوئِيل فنادى لأول مرة بفكرة أن قيمة الذبائح ثانوية في عبادة الرب.

٣- بنو الأنبياء

لأول مرة في العهد القديم نقابل في عصر صَمُوئِيل نبوة جماعية وهي جماعات "بنو الأنبياء". قال صَمُوئِيل في أول لقاء له مع شاوُل إنه سيلتقي في طريقه "زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة، وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون" (١٠: ٥-٦). وهذه ليست نبوة حقيقية إنما نبوة مخبولة. فالتنبوء هو حالة نفسية خاصة يحاول فيها الإنسان السمو والارتقاء عن الواقع والعالم الجسدي وأن يجذب روح الرب إليه عبر الحماس الديني والعزف والغناء والرقص. والشاهد الصريح على

ذلك نجده عندما رأس صَمُوئِيل جماعة أنبياء في "النايوت في الرامة" (١٩: ١٩–٢٠) ويُعتقد أنه أسَّس هناك مدرسة للأنبياء تخرج فيها كل من ناثان وجاد وآخرون.

تذكِّرنا الكلمات الأخيرة لصَمُوئِيل (الإصحاح ١٢) بكلام كل من موسى ويَشُوع؛ فالزعماء الثلاثة يعظون شعبهم قبل موتهم ويقصُّون عليه تاريخ الأمة باختصار لإثبات حقيقة ما يقولون عن العلاقة الفريدة بين الرب وشعبه.

الأنبياء من عصر صَمُوئِيل وحتى عصر إيليا

لم يكن معظم الأنبياء الذين عملوا بين عصر صَمُوئِيل وعصر إِيلِيَّا من الأنبياء الواعظين الذين ينادون الشعب باتِّباع الصراط المستقيم أو من القادة، ولكن من صانعي المعجزات والمتنبئين بالمستقبل عملوا بجوار الملوك وفي بلاطهم واقتصر نشاطهم النبوي في نصح الملوك أو بالتدخل في الشئون الملكية. وصل بعض الأنبياء فيهم إلى مرتبة أسمى في النبوة وعلى رأسهم النبي ناثان الذي عاش في عصر داوُد.

١. «**ناثـــان**» معجب بداوُد ويدعمه في كل صنائعه: "قم واصنع كل ما تحدثك به نفسك، لأن الرب معك" (صَمُوئِيل الثاني ٧: ٣). فضلًا عن أنه تنبأ لداود بدوام ملكه أبد الدهر هو وأبنائه من بعده (صَمُوئِيل الثاني ٧: ١٣، ١٦). هكذا أسس ناثان لرؤية أبدية حكم بيت داوُد: "ويدوم بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك. كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد". مع ذلك لا يجب اعتبار ناثان "نبي بلاط" محترف يصاحب الملك ويوافق على كل أفعاله. فبعد "حكاية بثشبع" قام ناثان بتأنيب داوُد.

لم يكن صَمُوئِيل، الشيخ وقائد الشعب العظيم في حاجة إلى بطولة كبيرة من أجل تأنيب شاوُل الملك الشاب الضعيف الذي نصَّبه بنفسه. أما ناثان فقد جروء على توبيخ الملك العظيم. ويُعدُّ عمل ناثان الشجاع نموذجًا للنبي الحق الذي يوبِّخ الملوك العصاة ويؤنبهم على فساد أعمالهم.

إنَّ ناثان هو أول نبي يعبر عن توبيخه في صورة فنية في شكل مثل أدبي؛ فـ"نعجة الفقير" ليست مثلًا خياليًا مثل مَثَل "يوثام" بل قصة واقعية مقتبسة من المجتمع الإنساني. يُطلب من داوُد أن يحكُم على السارق فيصيح في انفعال: "حي هو الرب، إنه يُقتَلُ الرجل الفاعل ذلك. ويرد النعجة أربعة أضعاف" (صَمُوئِيل الثاني ١٢: ٥-٦). وعلى الفور يتضح لداوُد أنه سبَّ نفسه، ويكتفي ناثان بقول الكلمتين الصارمتين: "أنت هو الرجل!".

لقد كشفت الطريقة التي توجه بها ناثان لداوُد عن حكمته وذكائه، لكنها أثبتت كذلك مهابته العظيمة للملك؛ فهو لا يقول له صراحة مثلما فعل إِيلِيَّا: "هل قتلت وورثت أيضًا؟" لكنه يسبق هذا التوبيخ بقصة تجعل داوُد يتهم نفسه، بعدها فقط يخبره ناثان بما ينتظره: "لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد".

يدخل ناثان ويخرج من بلاط الملك كيفما يشاء، كما إن له تأثير كبير في شئون المملكة. ويرتب لتنصيب سليمان ملكًا ضد أدونيا (الملوك الأول ١)، وكتب أخبار عصر داوُد (أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩)، مع ذلك فإننا لا نجد له ذكرًا في قائمة موظفي المملكة (صَمُوئِيل الثاني ٨: ١٦-١٨، ٢٠: ٢٣-٢٦)؛ لذلك لا يجب اعتباره نبي بلاط. يعدُّ ناثان من أهم الأنبياء الأوائل رغم عدم توبيخه الشعب كله لكن داوُد فقط، ورغم عدم كونه زعيمًا مثل صَمُوئِيل.

٢. «**جاد النبي**» (أو الرائي — أخبار الأيام الأول ٢١: ٩، ٢٩: ٢٩) صاحب داوُد في عصر شاوُل (صَمُوئِيل الأول ٢٢: ٥)، لكن أعماله النبوية تذكر في نهاية عهد داوُد فقط. فبعد القيام بتعدادٍ للشعب يعرض جاد على داوُد حكم الرب ويسأله أي عقاب يختار (صَمُوئِيل الأول ٢٤: ١٢). ويوصي داوُد كذلك ببناء مذبح للرب في «بيدر أُرنان اليبوسي»، هكذا حدَّد هو موضع «بيت همقداش» (بيت المقدس – بيت الرب) (أخبار الأيام الأول ٢١: ٢٨ — ٢٢: ١). وانشغل كذلك مثل ناثان بكتابة أخبار داوُد (أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩).

٣. «**أخيا الشيلوني**» يحفِّز يَرُبْعَام على التمرد على سليمان ويعده بحكم عشرة أسباط لكنه يعترف بحق بيت داوُد في الملك على يهوذا (الملوك الأول ١١: ٢٩-٣٩). لم تمضِ أيام كثيرة حتى خاب رجاء أخيا من يَرُبْعَام مثلما خاب رجاء صَمُوئِيل من شاوُل؛ لكنه لا يستطيع مسح ملكًا آخر مكانه، وتنبأ بزوال حكم بيت يَرُبْعَام (الملوك الأول ١٤: ١-١٦). تنبَّأَ أخيا بالمستقبل ورأى الغيب، وعرف مسبقًا بصعود يَرُبْعَام وكذلك بفقدان بيته، كما تعرَّف على زوجة يَرُبْعَام المتنكرة وعرف بموت ابنها المريض. وتدخل بفاعلية في شئون الدولة وكان له تأثير عظيم على انقسام مملكة إسرائيل لكنه لم يلعب دور النبي الموبِّخ الذي يحاول إعادة الشعب إلى الخير. فكان توبيخُه موجهًا إلى الأفراد – سليمان ويَرُبْعَام – وهو في ذلك يشبه ناثان الذي وبَّخ داوُد فقط.

٤. «**شِمْعيَا**» رجل الرب الذي منع اندلاع الحرب بين يهوذا وإسرائيل في عهد رَحُبْعَام (الملوك الأول ١٢: ٢٢-٢٤). ووبَّخ أيضًا رَحُبْعَام ورؤساء يهوذا (أخبار الأيام الثاني ١٢: ٥-٨). كما عمل في كتابة أخبار أيام رَحُبْعَام (كما هو الحال مع ناثان وجاد اللذين كتبا أخبار أيام داوُد)، سويًا مع "عِدُّو الرائي" (أخبار

الأيام الثاني ١٢: ١٥). وأُطلق أيضًا على عِدُّو الرائي لقب النبي (أخبار الأيام الثاني ١٣: ٢٢). من هنا نلاحظ وجود خلط بين مسميات «الرائي» و«النبي» في ذلك العصر.

٥. «**رجل الرب**» من يهوذا تنبأ في بيت إيل بتدمير مذبح يَرُبْعَام وبقتل كهنته على يد يُوشِيًّا (الملوك الأول ١٣: ١–٣). ويرتبط ظهور رجل الرب في بيت إيل بعدة معجزات: شفاء يد يَرُبْعَام المتيبسة؛ حيث يصلي رجل الرب من أجله وتشفى يده. يغويه رجل آخر من بيت إيل ليذهب لتناول الخبز معه في بيته ورغم قيامه بالخداع ("وهكذا كذب عليه" — ١٣: ١٨)، إلا أن نبوءته تتحقق لرجل الرب بألَّا تدفن جثته في قبر آبائه. وبالفعل ينقض الأسد على رجل الرب فيقتله لكنه لا يأكل الميت بل يقف بجواره ويحرس جثته. سنتناول هذا الأمر عند حديثنا عن «مِيخَا بن يَملة»، لأن في العهد القديم أنبياءٌ يرسلون لقول كلام كذب من أجل اختبار أو إغواء الأنبياء الآخرين.

٦. في عهد "آسا" عمل في يهوذا أنبياء هم: عوديد، وعَزريا بن عوديد، وحناني الرائي (أخبار الأيام الثاني ١٥: ١، ٨، ١٦: ٧). وفي عصر يهوشافاط ذُكِر نبيٌّ وبَّخ الملك وهو «أليعَزَر بن دوداواهو» من مريشة (٢٠: ٣٧).

٧. «**ياهو بن حناني**» يوبخ «بَعْشَا» ويتنبأ بنهاية ملك بيته (الملوك الأول ١٦: ١–٤). كما يوبِّخ يهوشافاط ملك يهوذا (أخبار الأيام الثاني ١٩: ١–٣)، ويكتب أخبار أيام ملكه (٢٠: ٣٤). وكان من مهام الأنبياء منذ عصر صَمُوئِيل وحتى عصر إيليا تسجيل أحداث عصرهم خاصة أعمال الملِك وأقواله؛ لذلك كان لزامًا عليهم التواجد بالقرب من الملك.

الأنبياء في عصر أخآب

حتى عصر صَمُوئِيل لم تكن الرؤيا شائعة لكن تحولت النبوة في عصر صَمُوئِيل إلى ظاهرة اجتماعية. فالصورة السامِيَة للوعظ النبوي كانت من نصيب الأفراد غير أن المرتبة الأولى وهي "التنبوء" التي تغمرها النشوة نتيجة الحماس وتمدد الحواس؛ تظهر لدى جماعة «بني الأنبياء» على وجه الخصوص. ولا شك أن مئات "المتنبئين" عملوا في إسرائيل في تلك الفترة. فيحكي عوبديا وزير أخآب لإِيلِيًّا أنه خبَّأ مائة نبي من أنبياء الرب (الملوك الأول ١٨: ٤، ١٣). وفي اختبار على الكرمل تجمَّع أربع مائة وخمسين نبيًا للبعل، وأربع مائة نبيًا لأشيرا Asherah كانوا يأكلون جميعًا على مائدة إيزابل (الملوك الأول ١٨: ١٩). هكذا عاش هؤلاء الأنبياء على أموال المملكة وأيدوا أفعال الملوك وحروبهم. فأحد الأنبياء يقوم بتشجيعه قبل معركة أخآب الأولى مع «بنهدد» ويعده بالنصر (الملوك الأول ٢٠: ١٣) ويعد «رجل الرب» بنصر أخآب قبل المعركة الثانية (الملوك الأول ٢٠: ٢٨). وقبل حربه في «راموت جلعاد» يستدعي أخآب أربع مائة نبيًا لاستشارتهم، فشجعوه جميعًا: "اصعد فيدفعها السيد ليد الملك" (٢٢: ٦). لكن كان من بينهم بعض الحالات الاستثنائية فلم يقولوا "لملوك نعمتهم" ما أرادوا أن يسمعوه فقط. ويُذكر في عهد أخآب ثلاثة أنبياء منهم: إِيلِيًّا ومِيخَا ونبي آخر مجهول الاسم.

سنتناول الآن «إِيلِيًّا» تحديدًا لكن سنشير بدايةً إلى النبيَّيْن الآَخَرَين:

١. «رجل من بني الأنبياء» يوبِّخ أخآب لقطعه عهدًا مع بنهدد وإطلاق سراحه (الملوك الأول ٢٠: ٣٥–٤٥). وهذا النبي في تفسير «حازل»[١] هو «مِيخَا بن يملة».

٢. يختلف مِيخَا بن يملة عن بقية أنبياء أخآب في أنه لا يتنبأ له بالخير لكن بالشر (٢٢: ٨). وهذا بالفعل من الاختلافات المهمة بين أنبياء البلاط المحترفين والأنبياء الحقيقيين. فأنبياء البلاط يتنبأون للملك بالخير دائمًا أما الآخرون فيقولون كلام الرب فقط سواء بالخير أو الشر: "حي هو الرب، إن ما يقوله لي الرب به أتكلم" (٢٢: ١٤). فكان من الصعب بالتأكيد التمييز بين أنبياء الصدق وأنبياء الكذب فــ «صدقيا بن كنعنة» يقول – باسم الرب – إن أخآب سينتصر في «راموت جلعاد» فأنَّى لأخآب أن يعرف بكذب كلامه؟

وتحمل قصة اللقاء بين «صدقيا» و«مِيخَا» أمام أخآب ويهوشافاط صورتين مأساويتين؛ فملوك يهوذا وإسرائيل يجلسون على عروشهم وملابس الملك تزينهم وأربعمائة نبيًا يتنبأون أمامهم فيقترب «صدقيا» من الملوك ويلوِّح بالقرن الحديدي الذي صنعه له لتأييد كلامه في عرضٍ مبهر. وإذا بمِيخَا يظهر ويتهم كل الأنبياء بالكذب فيقترب صدقيا بن كنعنة ويلطمه أمام كل إسرائيل وفي حضور الملكين. ويُزجُّ بمِيخَا في السجن حتى عودة الملك بسلام. لقد أهان صدقيا مِيخَا أمام كل إسرائيل لكن روحه — مِيخَا – بقيت قوية. فلا يحتاج إلى رد اللطمة فهو واثق من نبوئته التي ستتكشف وتنتصر بعد عدة أيام. لقد أثبتت لطمة صدقيا عدم صدقه —

[١] اختصار كلمة «الحاخامات رحمهم الله»، وهم الزعماء الروحيون والتشريعيون لبني إسرائيل في فترة الهيكل الثاني بعد الانتهاء من تدوين العهد القديم – من القرن الثالث وحتى القرن السادس الميلادي– وهم من وضعوا أسس الشريعة الشفهية.

صدقيا – في نفسه وفي حقيقة كلامه. فهل يمكن أن تصبح اللطمة دليلًا على الحقيقة؟

الصورة الثانية أقل قسوة لكنها أكثر تعقيدًا حيث يصور مِيخَا الرب: "جالسًا على كرسيه، وكل جنود السماء وقوف لديه على يمينه وعن يساره". يعدُّ هذا أول تصوير في العهد القديم لــ "حاشية السماء"، بذلك يكون مِيخَا قد سبق إِشَعْيَاء. فملائكة السماء تحيط عرش القاضي الأعلى فيسأل الرب: "من يغوي أخآب؟" فيقول الروح: "أنا أغويه". وهنا تظهر معضلة كبيرة للغاية؛ فكلام أنبياء أخآب الكذب يعدُّ هنا كلام الروح الذي وُضع في أفواههم بمشيئة الرب. هكذا يكون الرب نفسه (وإن كان عبر الروح) قد استخدم الكذب كوسيلة لإغواء أخآب. لا يتهم مِيخَا الأنبياء بالكذب المتعمد فكلمات الكذب وضعت في أفواههم بمشيئة الرب لجلب الشر على أخآب الذي تحدث به الرب من خلال إِيلِيًّا.

نحن أمام وجهة نظر مهمة جدًا حول «نبي كذب» بمشية الرب. وتحكي التوراة عن مثل هذا النبي الذي يقدم الآيات ويطلب من الشعب اتِّباع آلهة أخرى؛ ويحذر المكتوب في التوراة الشعب: "فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم، لأن الرب إلهكم يمتحنكم ... وذلك النبي أو حالم ذلك الحلم يقتل" (التثنية ١٣: ٢–٦).

وفي هذا الموضع لا يتم اتهام صدقيا بن كنعنة بالخداع فمِيخَا لا يقول بأن الأنبياء كذبوا عمدًا لكن روح الرب هي التي وضعت كلام الكذب في أفواههم من أجل إسقاط أخآب. ويذكر العهد القديم أيضًا النبي الذي يتحدث بالكذب بمشية الرب من أجل امتحان إسرائيل أو لجلب الوبال عليهم. وفي هذه الحالة من الصدام بين الأنبياء (صدقيا ومِيخَا، وحننيا بن عزور وإِرْمِيَا) لا يكون أمام الملك

والشعب أو حتى النبي الحقيقي نفسه (إِرْمِيَا ٢٨) أي فرصة لتحديد النبوءة الحقيقية وحسمها، لكن ذلك يكون عبر امتحان واحد فقط: تحقق النبوءة في المستقبل (يؤكد قويفمان على أن نبوءة الكذب لا يكون مصدرها "كلام الرب" لكن "الروح"، وذلك من الظواهر المصاحبة للنبوة[1].

على أية حال تُعرَف أهمية «مِيخَا بن يَمْلَة» في تاريخ النبوة لظهور مشكلة تصادم أنبياء الحقيقة بأنبياء الكذب عنده للمرة الأولى، كما كان هو أول من رسم صورة لمحكمة السماء.

لقد صعب على المفسرين القدامى تفسير كلام مِيخَا، فقال الحاخام داوُد قمحي[2]: "إن ذلك الكلام به إشكالية كبيرة لمن يفهمه على صورته، والحقيقة هي أن الرب أثار روح أنبياء الكذب من أجل إغواء أخآب للذهاب إلى راموت جلعاد لأن الموت قد كُتِب عليه في السماء وليس إن أحدهم حلت فيه روح النبوة؛ لكن إيقاظ الروح ... لأن روح النبوءة لن تكون.. فقط الحقيقة باسم الرب".

النبي إِيلِيَّا

لا تعود أهمية النبي إِيلِيَّا في تاريخ النبوة إلى أعماله الإعجازية لكن إلى ثلاثة أمور عظيمة:

أ. الامتحان على الكرمل الذي حارب فيه إيليا عبادة البعل وطالب بعبادة الرب الخالصة وعدم اتباع الفرقتين. ويوجد تشابه بين التجلي على جبل الكرمل

---

[1] الجزء الثاني، الكتاب الأول، ص ٢٤٦.

[2] داود قمحي أو رَادَق اختصار «رابي داود قمحي» من كبار النحاة ومفسري العهد القديم اليهود؛ وُلِد في فرنسا عام ١١٦٠م، ومات فيها في سنة ١٢٣٥م.

والتجلِّي الإلهي على جبل سيناء لأن التجلي كان في الحالتين علنًا وليس لأفراد. ورغم أن الوصايا العشر لم تتنزل على جبل الكرمل إلا أن معجزة الكرمل كان هدفها هو التأكيد على الوصيتين الأوليين: "أنا الرب إلهك" و"لا تكن لك آلهة أخرى"، وأن يقف الشعب على المعنى الكامل لمفهوم "الإله الغيور" الذي يظهر في الوصية الثانية.

إن نبي إسرائيل غيور مثل إلهه وكلاهما غير مستعدين للتهاون مع أي معتقد آخر أو أي وثنية. وهناك من استمر بالطبع في عبادة إله إسرائيل، لكنهم عبدوا البعل أيضًا فصرخ فيهم إيلِيَّا سائلًا: "حتى متى تعرجون بين الفرقتين؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه، وإن كان البعل فاتبعوه!" (الملوك الأول ١٨: ٢١). وبعد أن هبطت النار من السماء اعترف كل الحاضرين "الرب هو الله، الرب هو الله" (١٨: ٣٩).

يُعدُّ كفاح إيلِيَّا ضد تزييف عقيدة التوحيد وضد الوثنية في إسرائيل وضد اختلاط العبادات ركيزة من ركائز جميع أقوال الأنبياء الذين جاءوا من بعده، كما تسبق علانية أعمال إيلِيَّا وتوبيخه الأنبياء الأواخر. وتلك هي بداية الخطاب التوبيخي العلني، ولا يكتفي إيلِيَّا بالتوبيخ، بعكس الأنبياء الأواخر، فيقوم بقتل أنبياء البعل (يحكي العهد القديم عن أربعة أنبياء قاموا بالقتل أو كانوا سببًا في القتل وهم: موسى قتل المصري -؛ صَمُوئِيل قتل أجاج؛ إيلِيَّا قتل أنبياء البعل؛ أليشع قتل الأطفال الذين هزأوا به. وليس هذا من عمل يَشُوع في حرب العماليق واحتلال الأرض).

ب. عمل «نابوت». توبيخ إِيلِيَّا الشديد لأخآب- هل قتلت وورثت أيضًا؟ - هو أشد في الشكل والأسلوب من ناثان الذي لطَّف من توبيخه من خلال قصة نعجة الفقير؛ حيث لم يجروء على تفسير عمل داوُد وتلقيبه بالقاتل.

وأخيرًا، تحدَّث ناثان إلى ملك صدِّيق: "مرنِّم إسرائيل الحلو" (صَمُوئِيل الثاني ٢٣: ١)؛ لكن إِيلِيَّا يتحدث إلى ملك مذنب وظالم. إن الاختلاف في شكل التوبيخ ليس فقط نتيجة اختلاف الملكين لكن لاختلاف إِيلِيَّا عن ناثان على وجه الخصوص؛ فإِيلِيَّا لم يكن نبي أخآب. على أية حال ففي الحالتين يوبِّخ أنبياء إسرائيل ملِكين عظيمين لقتلهما أشخاص أبرياء عمدًا من أجل إشباع رغبة شخصية. ويكون رد فعل الملكين متشابهًا.

إن إِيلِيَّا لا يوبخ أخآب فقط إنما يرسل أيضًا رسالة توبيخ ليهورام ملك يهوذا (أخبار الأيام الثاني ٢١: ١٢).

ج. إِيلِيَّا في حوريب – تجلى الرب لإِيلِيَّا في حوريب في "صوت منخفض خفيف" وكلَّفه بثلاث مهام: ١. مَسْح «حزائيل» ملكًا على أرام، ليكون حزائيل عصا الغضب التي يضرب بها الرب المذنبين بعبادة البعل في إسرائيل. ٢. مسح «ياهو بن نمشي» ملكًا على إسرائيل ليبيد بيت أخآب الذي أدخل عبادة البعل إلى إسرائيل. ٣. مسح «أليشع بن شافاط» نبيًا تحته ليكمل عمل إِيلِيَّا نفسه. المهمة الثالثة يقوم بها إِيلِيَّا بنفسه، أما المهمتان الأخريان فيكلِّف بهما تلميذه «أليشع».

لا يصور العهد القديم توجه إِيلِيَّا إلى حوريب كفرار نبي من مهمته (و«يونان» خير مثال على هذا الفرار)؛ مع ذلك ففي الذهاب إلى حوريب قدرٌ من التراخي فهو يفر من إيزابل ويبتعد عن ميدان عمله ويطلب الموت لنفسه ويصوَّر على أنه نبي وحيد يعاني ومضطهَّد، ضعيفٌ ومنهك. وعند وصوله إلى حوريب يسأله

الرب: "ما لك ها هنا يا إِيلِيَّا؟"، وهذا ليس سؤالًا خطابيًا، إنما مغزى السؤال: "مكانك ليس هنا! أليس كذلك؟" ويجيب إِيلِيَّا في أسلوب اعتذاري، فهو لا يستطيع الاستمرار في حربه وحيدًا، منعزلًا ضد الشعب كله: "قد غرت غيرة للرب إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيت أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها" (١٩: ١٠). ويتكرر سؤال الرب وجواب إِيلِيَّا مرتين (١٠، ١٤) فيأتي رد الرب قاطعًا: "اذهب راجعًا في طريقك"، ويكلفه بمهام أخرى أصعب من سابقاتها بكثير — إحداث تحول سياسي كبير في إسرائيل وأرام.

يُعلِّمنا عمل إِيلِيَّا في حوريب أن النبي لا يستطيع الفرار أو التخلي عن مهمته النبوية وهذا من الصفات الأساسية للنبوة التي عبَّرت عنها بشكل واضح أقوال أنبياء مثل عَامُوس وإِرْمِيَا. فالنبوة أقوى من النبي نفسه وشخصية النبي لا قيمة لها أمام نبوَّته كما إن النبي مجرد أداة في خدمة النبوة وليس في خدمة رغباته فهو نفسه أداة في يد النبوة. ومن هنا يتضح معنى التكليف بكل معانيه.

وفي حوريب يخلع إِيلِيَّا بُردَةَ النبي المحترف ويسمو مرة أخرى إلى مرتبة النبي الرسول الذي لا تمنحه النبوة الخير والمكانة الاجتماعية المرموقة؛ إنما تعرِّض حياته للخطر الدائم وتحكم عليه بمصير "الأحمق والمجنون" الوحيد والمنعزل الذي يسمو فوق المجتمع ويطالبه بتحسين أعماله وأخلاقه.

إسهامات إيليا في النبوة

١. الكفاح من أجل العبادة الخالصة للرب، والمعارضة الشديدة لعبادة الأوثان.

٢. مطالبة الملوك بالعدل وفي الوقت نفسه لم يعارض المؤسسة الملكية؛ فيحترم أخآب ويركض إليه (١٨: ٤٥)؛ إنما هو يعارض أخطاءه وهو المبدأ الرئيس لمعظم الأنبياء الأوائل والأواخر منذ عصر ناثان وإِيلِيَّا.

٣. اعتبار أن مصير الملكية مرتبط بالسلوك الأخلاقي للملِك وليس في القوة العسكرية أو السياسية؛ فبسبب أعمال «نابوت» حُكِم على بيت أخآب بالفناء (٢١: ٢٢).

٤. بداية ظهور شخصية النبي الذي يوبِّخ جميع الشعب علنًا.

٥. اعتبار النبوة تكليف أسمى من النبي وأقوى منه.

ختامًا، لابد أن نشير إلى أنه قد ورد أن إِيلِيَّا قد صعد إلى السماء (الملوك الثاني ٢٠: ١١) فقد قال «ملاخي» – آخر الأنبياء: "هأنذا أرسل إليكم إِيلِيَّا النبي قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخيف، فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم" (ملاخي ٣: ٢٣). لذلك أصبح إِيلِيَّا رمزًا للخلود الأبدي لشعب إسرائيل. فهو يظهر في حياة كل يهودي في طقس الختان (كرسي إِيلِيَّا) ليثبت أن بني إسرائيل لم يتخلوا عن عهد إبراهيم، وفي ليلة الفصح كذلك (كأس إِيلِيَّا) التي تحتفل فيها الأسرة اليهودية بتحرير بني إسرائيل من مصر وبأن أصبحوا شعبًا. لقد تحوَّلت روح إِيلِيَّا إلى شيءٍ غامضٍ وسامٍ ومتجرد لا يرتبط بشخصيته الحقيقية.

أَلِيشَع

يستكمل تلميذ إِيلِيَّا مسيرة معلمه فيُكمل ما كُلِّف به إِيلِيَّا فمسح «حزائيل» ملكًا على أرام كي يعاقب إسرائيل، و«ياهو» ملكًا على إسرائيل ليُفنِي بيت أخآب. وعمل أيضًا ضد عبادة البعل وضد فساد ملوك إسرائيل، لكنه لم يصل إلى

مرتبة النبي المتحدث والموبِّخ والمقاتل حيث أن شخصيته تُظهر أكثر طابع النبي حلَّال الألغاز وصانع المعجزات.

صاحب أليشع ملوك إسرائيل - خاصة يهورام - وشجعهم بنبوءات النصر وساعدهم على كشف أسرار الأراميين العسكرية. ووقف على يمين الملك وساعده فناداه ملك إسرائيل: "يا أبي" (الملوك الثاني ٦: ٢١). ولا يوجد أي دليل على أن أليشع قام بتوبيخ يهورام. ولا نعلم بوجود عمل عظيم قام به أليشع ضد عبادة البعل كما لم يطارده أو يضطهده أحد.

لم يساعد أليشع الملوك فحسب لكن الفقراء والمظلومين أيضًا؛ فرفض هدايا «نعمان» قائد الجيش الأرامي من أجل رفع اسم إسرائيل ومجد الرب في نظر الأراميين. وفي صنع المعجزات يتفوق أليشع حتى على إيليَّا نفسه. أما بالنسبة لتاريخ النبوة فلم يسهم أليشع في تطور النبوة في إسرائيل بأي فكرة أو أي قيمة نبوية جديدة.

الأنبياء الأواخر

وقبل أن نختتم هذا الاستعراض القصير عن الأنبياء الأوائل أود أن نشير إلى بقية الأنبياء في عصر الهيكل الأول الذين ورد ذكرهم في العهد القديم ولم يتركوا وراءهم أسفارًا نبوية.

١. «**زكريا بن يهوياداع**»: الذي وبَّخ شعب يهوذا في عصر يُوشِيَّا ملك يهوذا. كما عاش أيضًا في عصر يُوشِيَّا أنبياء آخرون (أخبار الأيام الثاني ٢٤: ١٩)، لكن زكريا كان أعظمهم الذي أثار حنق الملك عليه فأمر «يوآش» بقتله. وسبق زكريا (في عصر إيزابل) أنبياءٌ قُتِلوا بسبب نبوءاتهم؛ أما زكريا فقُتِل في دار

بيت الرب (أخبار الأيام الثاني ٢٤: ٢٠-٢٢) وعلى يد الملك يوآش الذي نصَّبه أبو زكريا نفسه. وكانت عملية القتل هذه من البشاعة أن يذكر المدراش[1] أن دم زكريا كان يتصاعد ويفور ولم يهدأ حتى خراب الهيكل على يد «نَبُوزرَادَان» رئيس الشرطة. وقُتل أنبياء آخرون في فترة متأخرة على يد ملك يهوذا وهو:

٢. «**أوريا بن شمعيا**»: من قرية يعاريم تنبأ في عصر يهوياقيم بخراب المدينة فأمر الملك بقتله. هرب النبي إلى مصر لكن الملك أرسل من قبض عليه ".. وأتوا به إلى الملك يهوياقيم فضربه بالسيف وطرح جثته في قبور بني الشعب" (إِرْمِيَا ٢٦: ٢٠-٢٣)، وأصبح مصير إِرْمِيَا كمصير «أوريا» الذي عاصره.

٣. «**يونان بن أمتاي**»: من قرية جت حافر، تنبأ باتساع حدود إسرائيل من مدخل حماة إلى بحر عربة (الملوك الثاني ١٤: ٢٤). وتحققت نبوءته في عصر يَرُبْعَام الثاني وعزيا. عاش هذا النبي قبل عَامُوس وهو ينتمي إلى الأنبياء الأوائل. لم يترك سِفرًا به أقواله لكن كُتِب عنه سفر ضُمَّ إلى أسفار الأنبياء الإثنَي عشر.

٤. نبيَّان بدون اسم ذُكِرَا في عصر «أمصيا» ملك يهوذا (أخبار الأيام الثاني ٢٥: ٧، ١٥). وذُكِرَ في عصر آحاز وفاقاح بن رمليا «عودد» النبي الذي أثَّر على جيش السامرة كي لا يَستَعبِدوا مسبيي يهوذا الذين أُسِرُوا في حرب فاقاح ضد آحاز (أخبار الأيام الثاني ٢٥: ٩-١١). حتى في عصر منسي لم تتوقف النبوة في يهوذا، لكن لم تُذكر أسماء "الرائين" الذين كلموه (٣٣: ١٨).

---

[1] مجموعة من التعليقات القديمة على كل أجزاء العهد القديم بتنظيم وتقسيم مختلفين. גיט' נז – جيطين ٥٧.

٥. **خَلْدَة النبية**: المذكورة في عصر يُوشِيَّا التي توجه إليها وزراء الملك بالسؤال عن السِفْرِ الذي عُثر عليه في بيت الرب (الملوك الثاني ٢٢: ١٤-٢٠). وكان في كلامها ردًا عليهم تأنيب ورؤيا للكوارث التي ستحل بهم. ولم يعتقد يُوشِيَّا نفسه أن الشر سيحل بالبلاد وبالشعب بفضل أعماله الطيبة فقال: "وصعد الملك إلى بيت الرب وجميع رجال يهوذا وكل سكان أورشليم معه، والكهنة والأنبياء" (٢٣: ٢). وكان هناك في عصر يُوشِيَّا أنبياء آخرون منهم إِرْمِيَا الذي لم يرد اسمه هنا.

من الحقائق المهمة التي نقف عليها بعد استعراضنا للأنبياء الأوائل أنه:

١. لم يكن أول ظهور للنبوة في إسرائيل في عصر عَامُوس، ليس هذا فحسب بل أن النبوة لم تتوقف في إسرائيل منذ عصر صَمُوئِيل حتى ظهور الأنبياء الأواخر؛ لكن كان في كل جيل أنبياء كثيرين ذكرنا بعضهم وهذا غيض من فيض.

٢. تعاليم الأنبياء الأواخر لم تظهر من عدم، وأن كثير من أسس النبوة التقليدية موجود في كلام صَمُوئِيل وناثان ومِيخَا وإِيلِيَّا وزكريا وأوريا.

٣. معظم الأنبياء الأوائل كانوا محترفين وفَّرت لهم النبوة الطعام والمكانة الاجتماعية وكان عملهم في بلاط الملك على وجه التحديد، كما عملوا في بيت الرب إلى جانب الكهنة واللاويين والشعراء.

لكن ظهر من بين هؤلاء الأنبياء – في كل أجيال الأنبياء – من كانت النبوة بالنسبة لهم تكليفًا إلهيًا مقدسًا يُفرض عليهم ترديد كلام الرب مما جعلهم معرضين دائمًا للخطر.

لم يختلف الأنبياء الملقبون بالأواخر عن الأنبياء الأوائل في التكليف النبوي وفي منادهم بالعمل والعدل وفي كفاحهم ضد الثقافة الأجنبية واستعدادهم لتعريض حياهم للخطر والتعرض للقتل من أجل تحقيق هدفهم؛ مع ذلك نجد اختلافات مهمة للغاية بين هذين النوعين من الأنبياء.

٤. كان النبي في البداية قائدًا وطنيًا ثم موبخًا للملوك، ثم موبخًا للشعب في النهاية.

الاختلافات بين الأنبياء الأوائل والأنبياء الأواخر

١. في الوقت الذي كان فيه الأنبياء الأواخر أنبياء كلام يوبخون ويخطبون ويعظون؛ كان الأنبياء الأوائل، إلى جانب الكلام والوعظ والتوبيخ، أنبياء أفعال ولم تكن مهمتهم الأساسية الحديث. فيَشُوع وصَمُوئِيل وأليشع وإِيلِيًّا كانوا رجال أفعال؛ فيَشُوع احتل الأرض وأورثها للأسباط، وصَمُوئِيل قاضيًا وزعيمًا، وإِيلِيًّا وأليشع صنعا المعجزات، خصال لم تكن من خصال عَامُوس وإِشَعْيَاء وإِرْمِيَا وحِزْقِيَال.

٢. يترتب الاختلاف الثاني على الأول فالأنبياء الأوائل لم يتركوا من بعدهم أسفارًا تضم أقوالهم. وبرغم وجود كلام يَشُوع وصَمُوئِيل وناثان وإِيلِيًّا في أسفار الأنبياء الأوائل؛ إلا أننا لا نملك بين أيدينا أسفارًا لنبوءات يَشُوع أو إِيلِيًّا لكن أسفار نبوءات الأنبياء الأواخر التي تشكل النبوة الأدبية التقليدية.

٣. كانت أقوال الأنبياء الأواخر بأسلوب شعري، فكانوا شعراء عبَّروا عن كلام الرب بأسلوب بليغ راقٍ مستعينين في ذلك بالأساليب الشعرية من استعارات وتشبيهات وأمثلة ورموز. ولم يتمتع الأنبياء الأوائل بهذه الموهبة باستثناء بعض

العبارات لصَمُوئيل أو إِيلِيَّا في مَثَل "نعجة الفقير". ويفترض أن ذلك من أسباب الحفاظ على أقوال الأنبياء الأواخر، لأنها تعتبر عملًا فنيًا راقيًا. وقد ساعد حلو كلامهم على الحفاظ عليها أكثر من الحقيقة الموجودة فيه.

٤. عمل الأنبياء الأوائل أحيانًا داخل جماعات كبيرة لـــــ"بني الأنبياء"، وكانت تلك النبوة "الجماعية" موجودة في عصر إِيلِيَّا وأليشع تحديدًا. وفي المقابل نجد أن الأنبياء الأواخر عملوا منفردين ينفِّذون مهامهم بدون "أتباع" أو مرافقين؛ فهم لم يكونوا شخصيات عامة أو اجتماعية؛ فكانوا يمثلون أنفسهم فقط، تحمل أقوال كل منهم طابعه الشخصي. كما اختلفوا تمامًا عن جماعة الأنبياء الذين عاصروهم فكل نبي كان له عالمه الخاص.

٥. وجه الأنبياء الأوائل توبيخهم للملوك فقط أو لأفراد (باستثناء إِيلِيَّا على جبل الكرمل)، أما الأنبياء الأواخر فقد توجهوا للشعب كله فوبخوا وخطبوا علانية في أماكن تجمع الناس وفي فناء «بيت المقدس» وعند أبواب المدينة.

٦. لا تحمل أقوال الأنبياء الأوائل كل ذلك المضمون الثري والعظيم الموجود في رؤى الأنبياء الأواخر.

بذلك يحتل الأنبياء الأواخر من عَامُوس ومن بعده مرتبة أعلى من النبوة؛ هم ليسوا رائين أو منجمين ولا يخبرون بما سيحدث في المستقبل ولا يصنعون المعجزات لكن يؤمنون بفضل الله ويرون رؤى ساميَّة عن الإنسان وعن العالم وعن إسرائيل وعن البشرية كلها.

إن التمييز بين المراتب والدرجات المخلتفة للأنبياء ليس بالفكرة الجديدة فقد حدَّد موسى بن ميمون ست مراتب للأنبياء بحسب قربهم من الرب وبحسب ما يتماشى مع وضوح رؤيتهم، وعند النبي نفسه مستويات مختلفة من النبوة[١].

سنحاول نحن أيضًا عدم الاكتفاء بفهم الأمور المشتركة في أقوال الأنبياء لكن بتمييز الأمور الفريدة في كلامهم فقد قال الحاخامات: "لا يوجد نبيان يتنبئان بنفس الأسلوب."[٢]

جذور النبوة الكلاسيكية في كلام الأنبياء الأوائل

١. المطالبة بالحفاظ على المكتوب في شريعة موسى والعمل به (يَشُوع).

٢. محاربة عبادة الأوثان والمطالبة بعبادة خالصة للرب (يَشُوع، جدعون، إِيلِيًّا وغيرهم).

٣. العلاقة بالملكية بشكل عام ومطالبة الملوك بالعدل (جدعون، صَمُوئِيل، ناثان، إِيلِيًّا).

٤. التمييز بين أنبياء الحق وأنبياء الكذب (مِيخَا).

٥. عدم وجود قيمة حقيقية للقرابين واعتبارها أمرًا ثانويًا (صَمُوئِيل). مع ذلك فليس هناك تعارض بين القرابين والأخلاق، وهذا من تحديد عَامُوس.

٦. النبوة أقوى من النبي وهو مجرد أداة في يدها (إِيلِيًّا).

٧. رؤية أبديَّة بيت مُلْك داوُد (ناثان).

---

١ دلالة الحائرين الجزء الثاني ل ب – م هـــ.

٢ سنهدرين ف ط، ٨٩.

٨. التعبير عن الأفكار النبوية في صورة شعرية (صَمُوئِيل وناثان).

٩. بداية التوبيخ العلني لكل الشعب (إِيلِيَّا). والتوبيخ العلني لِيَشُوع وصَمُوئِيل له طابع خاص مثل خطابات الزعماء قبل تنحيهم، وهو ما لا يشبه التأنيب الدائم للأنبياء الأواخر.

الفصل الثاني

عَامُوس

زمن عاموس

تبدأ افتتاحية سفر عاموس بـــ: "أقوال عاموس الذي كان من بين الرعاة من تقوع التي رآها عن إسرائيل في أيام عُزِّيَا ملك يهوذا، وفي أيام يَرُبعَام بن يُوآش ملك إسرائيل، قبل الزلزلة بسنتين". وذُكرتا "الزلزلة" في أيام عُزِّيَا مرة أخرى في سفر زكريا (١٤: ٥). ويبدو أن تلك الزلزلة كانت قوية ومدمرة عاشت ذكراها في قلوب الناس لسنوات طويلة، اعتادوا ربط الأحداث الأخرى بها سواء قبلها أو بعدها. وليس المقصود من هذه الفقرة أن عاموس تنبأ قبل سنتين فقط من الزلزلة لكن ذلك بداية تنبؤه. ويحتمل أن يكون بنو إسرائيل قد اعتبروا الزلزلة تحقيقًا لنبوءات عاموس قبل الزلزلة، وهو ما رفع من قدره وزاد من ثقة الشعب فيه كنبي حق. وربما كان ذلك أيضًا هو سبب عدم جرأة يربعام الثاني وكذلك أمصيا الكاهن على قتله، أو المساس به.

إن الملوك الذين تنبأ عاموس في أيامهم وكذلك الأحداث الرئيسية التي وقعت في عصرهم؛ معروفين جيدًا في سفر الملوك الثاني (١٤: ٢٣- ٢٩، ١٥: ١-٧)، وسفر أخبار الأيام الثاني (الإصحاح ٢٦). ففي عصر عُزِّيَا ويربعام الثاني (منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ٧٨٠-٧٤٠ تقريبًا) شهدت يهوذا وإسرائيل ازدهارًا سياسيًا وتوسعات واحتلال وتعاظمًا كبيرًا لشأنهما. وفي عصر يُوآش بدأ بنو إسرائيل قتال الأراميين وتحرير المدن الإسرائيلية من أيديهم (الملوك الثاني ١٣:

٢٥). وقام يربعام بن يهوآش بـــ"رد تخم إسرائيل من مدخل حماة إلى بحر العربة". واحتل عُزِّيا إيلات من جديد، وضرب الفلسطينيين، ووسع حدود يهوذا، وحصَّن أورشليم وأرض يهوذا، وبنى الأبراج في الصحراء، وزاد من حجم جيشه وعَتَاده، وطوَّر الزراعة والمراعي في السهول وفي جبال يهوذا. وساد السلام بين مملتكي إسرائيل ويهوذا مما ساعد كثيرًا في تعاظم قوة المملكتين.

وبعد حوالي مائتي سنة من الحروب المستمرة ضد أرام دمشق زال خطر ضغوط الأراميين على إسرائيل والسبب الرئيس في ذلك هو صعود آشور وضغطها على أرام من الشمال؛ فتنفَّست إسرائيل الصعداء. غير أن هذا السبب نفسه أصبح تهديدًا لمملكة إسرائيل من بعيد؛ فمن المنتظر أن يحل محل العدو الأرامي، الذي كان لا يزال من الممكن التعامل معه، عدوٌ جديدٌ قاسٍ وفظيع وطأ إسرائيل تحت أقدامه. و لم يلحظ الشعب أو الملوك التغير الجديد و لم يدركوا أن هذه الراحة سرعان ما ستتبدل؛ لكن عاموس هو الذي رأى الخطر يقترب.

ظهر في عصر عزيا ويربعام الثاني أربعة أنبياء متتاليين في فترة زمنية واحدة وهم: عاموس، وهوشع، وإشَعياء، وميخا. وكان لهذه الظاهرة الفريدة في تاريخ النبوة والبشرية كلها سببان أساسيان: خارجي وداخلي. كنَّا قد وقفنا على السبب الخارجي ألا وهو: الآشوري؛ أما السبب الداخلي فكان الحالة الدينية والأخلاقية والاجتماعية في إسرائيل. فبرغم الانتصارات العسكرية واحتلال الأراضي الذي جلب الطمأنينة والسكينة والأمن والثراء للدولة إلا أن ذلك كان سببًا في ظهور الطبقية من أغنياء وفقراء. وظهرت طبقة جديدة من الزعماء والوزراء (الرؤساء) والقادة والتجَّار أصحاب النفوذ ومراكز القوى؛ الذين جمعوا الثروات بشتى الطرق

وعاشوا في قصورهم حياة البذخ والترف والمجون ومعاقرة الخمر. وفي مقابل هذه القلّة الغنية عاش الشعب في الفقر والعَوَز وفقد كثيرون أراضيهم ومصدر رزقهم.

حذّر الأنبياء من الفساد الاجتماعي والأخلاقي المستشري سواء في إسرائيل أو يهوذا. و لم يُفتَن عاموس ببريق الانتصارات ورأى صعود آشور على إسرائيل. ولأن جميع الأحداث التاريخية بين إسرائيل والشعوب تحدث بإرادة الرب؛ فالسبيل الوحيد إذن لإنقاذ إسرائيل من الوبال الذي يهدِّده هو تطهير الشعب من آثامه ومعاصيه. ووظيفة النبي هي إعادة الشعب الآثم إلى رشده قبل أن تحل به الكارثة المقتربة بسرعة.

شخصية عاموس

إن التفاصيل الواردة في سفر عاموس عن شخصية النبي شحيحة جدًا فلم يُذكر اسم أبيه؛ مما يدل على أنه لا ينتمي إلى عائلة كبيرة فهو من قرية صغيرة تسمى «تقوع» جنوب شرق بيت لحم على تخوم صحراء يهوذا. ويذكر العهد القديم «امرأة حكيمة» من «تقوع» استدعاها يؤاب كي تؤثر على داود ليعيد أبشالوم (صموئيل الثاني ١٤: ٢).

يمكننا التخمين أن عاموس كان من سبط يهوذا لكن عمله كان في مملكة السامرة، وكان لطبيعة «تقوع» تأثيرٌ أكيدٌ على أسلوب نبوءته مثلما أثَّرَت طبيعة «عناتوت» على نبوءة إرميا. فكان لدى كل منهما القدرة على مشاهدة الاستيطان المزدهر في مقابل الصحراء القاحلة والمقفرة، وخشيا في داخلهما من تحوُّل تلك البساتين والمراعي الخضراء التي تنير عيونهم في الغرب إلى صحراء جرداء كما هو الحال في الشرق.

كما تخبرنا الفقرة الأولى أيضًا بأن عاموس لم يكن نبيًا محترفًا فقد كان راعيًا للأغنام من «تقوع» فيقول: "لست أنا نبيًا، ولا أنا ابن نبي، بل أنا راعٍ وجاني جميز. فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل" (٧: ١٤-١٥). وهذا تعبير بسيط جدًا وواضح للاختلاف بين نبوَّة التكليف واحتراف النبوة. فاحتراف النبوة يكون النبي فيها هو الأساس والنبوة ثانوية؛ أما نبوة التكليف فيكون النبي فيها هو الثانوي والنبوَّة هي الأساس؛ فالنبي مجرد قناة تمر من خلالها القيم السامية التي يرددها باسم الرب؛ فعدم علمنا شيء تقريبًا عن شخصية عاموس أو عن أسرته أو حياته الخاصة ليس مصادفة. كما لو أن السِفْر(سفر عاموس) الذي هو أساس النبوة الكلاسيكية يريد التأكيد على أن شخصية النبي ليست مهمة لكن كلامه هو المهم. فكلام عاموس ليس فيه أي إشارة إلى مشاعره أو إلى تجاربه أو أحداث حياته، فهو نفسه ليس سوى صوت ينادي ويصرخ.

يقول عاموس في الإصحاح الثالث: "الأسد قد زمجر فمن لا يخاف؟ السيد الرب تكلَّم، فمن لا يتنبأ؟" فلا مجال أمام النبي للفرار من النبوة فيترك أغنامه ويتوجه إلى بيت إيل والسامرة ويصرخ في الشعب ليرجعه عن طريق الشر الذي يسير فيه. وهذا بالفعل هو التجديد الكبير في ظهور عاموس فهو أول نبي يتم إرساله لتوبيخ الشعب كله وليس الملك فقط. وبالرغم من أن أليشع ترك محراثه وتبع إيليا (الملوك الأول ١٩: ٢٠)، إلا أن أليشع لم يخطب أمام الشعب لكنه عمل في بلاط الملك. كما يعدُّ عاموس أيضًا أول الأنبياء الخاطبين الموبِّخين، وهو كذلك أول "أنبياء الكتابة" لأن كلامه ذكر بأسلوب أدبي شعري تم تسجيله وتدوينه في سفر. عاموس إذن هو أبو النبوة الأدبية الكلاسيكية.

إن كل ما يميز الأنبياء الأواخر عن الأنبياء الأوائل يميز أيضًا عاموس عن الأنبياء الذين سبقوه. فهو لم يخبر بما سيحدث في المستقبل و لم يصنع المعجزات، و لم يصل إلى النبوة عبر نشوة جماعات الأنبياء، و لم يعمل في بلاط الملوك و لم يصاحب الملوك في ذهابهم وفي إيابهم فقد كان راعيًا للغنم اتصل به الرب في المراعي وأرسله للتنبوء على شعبه إسرائيل. وتختلف الآراء والتفسيرات حول معنى الاسم "عاموس"؛ فراشي[1] ورادق يقولان إن "عاموس" بمعنى ثقيل أي ثقيل اللسان أو متلعثم؛ أما هرطوم[2] فيقول إن الرب سيُحمِّله، وربما بمعنى حامل كلام الرب.

مفهوم الألوهية في سفر عاموس

إن إله إسرائيل هو أيضًا إله جميع الشعوب فهو الذي يحاكم ويعاقب دمشق وغزة وصور وأدوم وعمون ومؤاب على جرائمهم ضد إسرائيل. بالنسبة لمؤاب فجرمه غير واضح؛ فالنبي يحتج على ملك مؤاب الذي أحرق عظام ملك أدوم حتى صارت كلسًا وهي جريمة لم تقترف في حق إسرائيل. وقد يكون النص مرتبكًا هنا وأن المقصود كان ابن ميشع ملك مؤاب في حربه ضد إسرائيل (الملوك الثاني ٣: ٢٧). على أية حال، لم يكن عاموس هو من أوجد عقيدة التوحيد الإسرائيلية؛ فالإيمان بالإله الواحد رب العالمين يهيمن على جميع فصول التوراة.

---

[1] الحاخام شلومو إسحق والمعروف براشي ١٠٤٠-١١٠٥م؛ من كبار رجال الدين في فرنسا في عصره، ويعدُّ من كبار مفسري العهد القديم والتلمود، وكان لأعماله تأثير كبير على شكل الديانة اليهودية.

[2] إيليا صموئيل هرطوم ١٨٨٧-١٩٦٥م؛ رجل دين ومعلم في إيطاليا وإسرائيل، ومدير مدرسة دينية لرجال الدين في روما، ومؤلف كتاب "تناخ كاسوتو".

يؤكد الإصحاح الأخير تحديدًا على مفهوم عالمية إله إسرائيل: "ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل، يقول الرب؟ ألم أُصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير؟" (عاموس ٩: ٧).

على الرغم من أن الرب هو إله جميع الشعوب إلا أن مسكنه في أورشليم "إن الرب يزمجر من صهيون، ويعطي صوته من أورشليم" (١: ٢). وهو يسيطر أيضًا على الطبيعة وعلى التاريخ: "فإنه هوذا الذي صنع الجبال وخلق الريح وأخبر الإنسان ما هو فكره، الذي يجعل الفجر ظلامًا، ويمشي على مشارف الأرض، يهوه إله الجنود اسمه" (٤: ١٣). "هل يسير اثنان معًا إن لم يتواعدا؟ هل يزمجر الأسد في الوعر وليس له فريسة؟ ... هل تحدث بلية في مدينة والرب لم يصنعها؟" (٣: ٢-٦). مما يعني أن الرب هو السبب الوحيد لكل ما يحدث في الطبيعة وفي التاريخ وفي المدينة وفي الدولة وفي الإنسانية وفي العالم.

هناك علاقة منطقية داخلية بين سلطته على الطبيعة وبين سلطته على التاريخ لأن في مقدوره استخدام قوى الطبيعة المرتبطة به ليعاقب بها الإنسان، كما في مقدوره ضرب شعب بآخر مثله. وهو قادر على منع سقوط المطر (٤: ٧)، وتحويل نور الفجر إلى ظلمة (٤: ١٣)، والظلمة إلى صُبح (٥: ٨)، وغمر اليابسة بمياه البحر وتحويل النهار إلى ليل (قد يكون كسوف الشمس هو المقصود هنا فقد اكتشف علماء الفلك في حساباتهم أن كسوفًا للشمس حدث في تلك المنطقة في عام ٧٦٣ قبل الميلاد). "أنِّي أغيِّب الشمس في الظهر وأُقتم الأرض في يوم نور" (٨: ٩). وتصل قوته وسطوته حتى قاع البحر (٩: ٣)، وهو الذي يزلزل الأرض ويحدث الزلزال المروِّع (٩: ٥)، الذي شهده عاموس بعد سنتين من بداية نبوته.

اختيار إسرائيل

يَقْبَل عاموس المعتقد الشعبي التقليدي فيما يخص اختيار إسرائيل، لكنه يحذِّر الشعب من التفسير الشائع الخاطيء لهذا الاختيار فالشعب يظن خطئًا أن الاختيار معناه التمييز لصالحه أو الحصول على معاملة خاصة أو أن الرب سيعاقب جميع الشعوب ولن يعاقب شعبه إسرائيل. يعترض عاموس بشدة على هذه النظرة الشعبية الجماعية فالاختيار لا يمنح إسرائيل المزيد من الحقوق لكن المزيد من الالتزامات والمسئولية: "إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض، لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم" (عاموس ٣: ٢). فهم تحديدًا لن يتسامح الرب معهم ولن يغفر ذنوبهم. فالمطلوب منهم أكبر بكثير مما هو مطلوب من الشعوب الأخرى. وإذا لم يتفوقوا على الشعوب الأخرى في المستوى الأخلاقي، حينئذ ستكونون "كبني الكوشيين لي يا بني إسرائيل" (٩: ٧). إن الاختيار عبءٌ والتزامٌ وتكليفٌ وليس مكانة خاصة وحصانة. وأنهم إذا اتبعوا طريق الرب وأصبحوا أفضل من الشعوب الأخرى سيجلب عليهم هذا الاختيار فائدة كبيرة، إلا أن الشعب المخطيء لن يتم التسامح معه بل العكس. ولأنه خالف مهمته بأن يكون قدوة ومثالًا؛ فعليه أن يكون أول من يتلقى أقصى عقاب للإله الغيور المنتقم: "وأجعل عيني عليهم للشر لا للخير" (٩: ٤). لقد دمَّر الرب من أمام بني إسرائيل الأموري الذي كان حصينًا ومرتفعًا بسبب الفواحش التي ارتكبها؛ مع ذلك فبني إسرائيل ليسوا بأفضل من الأموري، وليس لديهم الحق في البقاء على أرض الأموري التي منحت لهم ليقوموا بدورهم الأخلاقي فيها.

ويزداد حنق عاموس تحديدًا على المترفين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة الذين يعتبرون أنفسهم "طليعة الأمم" (٦: ١)، لذلك هم مطمئنين أن الشر لن يحل بهم، لكنهم كانوا على رأس المنفيين تحديدًا.

إن الشعب سعيد بانتصاراته وواثق أن اتساع حدود إسرائيل "من مدخل حماة إلى وادي عربة" هو بمثابة ضمان له في الحاضر والمستقبل. غير أن عاموس يقول للمطمئنين والمترفين: "هأنذا أقيم عليكم، يا بيت إسرائيل، أمة فيضايقونكم من مدخل حماة إلى وادي عربة" (٦: ١٤). ويتعمد عاموس هنا ذكر الحدود الجديدة للبلاد في عهد يربعام الثاني، كما وردت في سفر الملوك الثاني ١٤: ٢٥. والأمة الجديدة ستظهر قريبًا وستضايق إسرائيل في كل أرضه حتى في أبعد حدود لها.

يوم الرب

كنتيجة مباشرة لموقفه من فكرة اختيار إسرائيل يأتي موقف عاموس من الإيمان الشعبي بيوم الرب الذي سوف يكون يومًا لمحاكمة كل الشعوب وليس إسرائيل فقط؛ لذلك اشتاق كثيرون لقدوم هذا اليوم لأنهم اعتبروه يوم بهجة وسرور لإسرائيل لكن عاموس ينادي الشعب: "ويلٌ للذين يشتهون يوم الرب! لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلام لا نور. كما إذا هرب إنسان من أمام الأسد فصادفه الدب، أو دخل البيت ووضع يده على الحائط فلدغته الحية. أليس يوم الرب ظلامًا لا نورًا، وقتامًا ولا نور له؟" (٥: ١٨-٢٠). إن يوم الرب بدايةً هو يوم حساب أشرار إسرائيل الذين لن يتم منحهم أفضليات على بقية الأشرار، ولن يستطيع أحدٌ الفرار من عقابه "بالسيف يموت كل خاطئي شعبي القائلين لا يقترب الشر ولا يأتي بيننا" (٩: ١٠).

يرفض عاموس في مفهوم الألوهية وفي كلامه عن اختيار إسرائيل وعن يوم الرب الفكرة الشعبية البدائية بأن الرب هو إله قومي يخص بني إسرائيل وحدهم ويحمي شعبه وأرضه من الشعوب الأخرى التي يكرهها بنو إسرائيل والرب.

النبوءات عن الشعوب

يفتتح عاموس كلماته بنبوءات غضب على الشعوب المجاورة لإسرائيل ربما لجذب انتباه سامعيه الذين ربما سعدوا لسماعهم المصائب التي نزلت بأرام وفلِشْت وصور وأدوم وعمون ومؤاب؛ لكن بعد أن يتجمعوا ويستمعوا لأقوال عاموس في سرور يترل بهم النبي الضربة القاصمة بنبوءة الغضب الكبرى على إسرائيل.

إن ترتيب الشعوب شمالًا وجنوبًا بحسب إسرائيل ويهوذا هو: دمشق – عدو إسرائيل من الشمال؛ الفلسطينيون – أعداء يهوذا من الجنوب؛ صور– شمال إسرائيل؛ أدوم – جنوب يهوذا؛ عمون – شمال مؤاب وشرق إسرائيل؛ ومؤاب– شرق يهوذا.

وصيغة النبوءات ثابتة: "من أجل ذنوب ... الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه" (لن أعفو عنه ولن ألغي الحكم). و"ثلاثة وأربعة" ليست أعدادًا حقيقية لكنها من أجل الأسلوب البلاغي والتأكيد على الذنب الأخير. "لن يعاقب الرب الإنسان على الذنب الأول والثاني والثالث لأن من شيمته أن يحتمل الذنب ويتجاوز عن الخطيئة ... ويعاقبه في الرابع" (رابي داود قمحي). والعقاب نفسه محدد: "فأرسل نارًا على بيت حزائيل فتأكل قصور بنهدد"، وكذلك فيما يخص غزة وصور وأدوم ومؤاب. ثم تُوجه النار بشكل خاص صوب جدار المدينة وقصور الملوك والرؤساء، غير أن الخراب يكون شاملًا عند الأراميين والفلسطينيين لأنهم أساءوا إلى إسرائيل أكثر من الشعوب المجاورة الأخرى، وعن ذلك يقول الحاخام داود قمحي: إن الرب "لن

يراقب أمم العالم خيرًا وشرًا إلا من أجل إسرائيل". وتأتي النبوءة عن الأراميين — ألد أعداء مملكة إسرائيل حتى عصر عاموس- بشكل تفصيلي فيضاف إلى النار النفي والتدمير لكل الشعب (عن صنيع حزائيل بإسرائيل انظر الملوك الثاني ١٠: ٣٢-٣٣، ١٣: ٣، ٧، ٢٢. وعن سبي أرام إلى قير: الملوك الثاني ١٦: ٩).

وفي النبوءة عن مدن الفلسطينيين تُذكر أربع مدن: غزة، أشدود، أشقلون، وعقرون، ولم يرد ذكر «جَتَّ» (ربما لسقوطها بعد نبوءة عاموس بوقت طويل).

وفي نبوءته عن بني عمون يضيف عاموس سبي الملك والرؤساء؛ وفي نبوءته عن مؤاب يضيف مقتل القاضي (الحاكم) والرؤساء. ونلاحظ وجود قاسم مشترك في هذه النبوءات، وجزء يتفرد به كل شعب.

فما هي الذنوب التي تعاقب عليها الشعوب؟ ليس عبادة الأصنام، فالأغيار لا يعاقبون على الوثنية لكن لقسوتهم الشديدة مع إسرائيل. إن جريمة الأراميين واضحة ومعروفة من العهد القديم نفسه: "لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد"؛ أما الجرائم الأخرى فغير معلومة لدينا. والفلسطينيون سبوا سبيًا كاملًا وسلموهم كعبيد للأدوميين. والصوريون متهمون بخطيئة مشابهة، غير أن خطيئتهم أفظع بكثير لأنهم "لم يذكروا عهد الأخوة" بين صور وإسرائيل المقطوع بين داود وسليمان وأخآب. لقد عُرف الأدوميون ببغضهم وقسوتهم لإخوانهم من أبناء يهوذا. ونبوءات الغضب على أدوم موجودة لدى أنبياء كثيرين (إشعياء، إرميا، حزقيال، عوبديا، ملاخي)؛ أما العمونيون فمتهمون بارتكاب فظائع الحروب ضد إسرائيل؛ والمؤابيون متهمون بحرق عظام ملك أدوم حتى صارت كلسًا.

وفي النهاية تُتَّهم يهوذا أيضًا بنفس الصيغة (من أجل ذنوب يهوذا الثلاثة والأربعة... فأرسل نارًا على يهوذا فتأكل قصور أورشليم)، غير أن خطيئتها مختلفة

تمامًا: "لأنهم رفضوا ناموس الله و لم يحفظوا فرائضه، وأضلتهم أكاذيبهم التي سار آباؤهم وراءها". فأخطاء يهوذا هي: عبادة الأوثان، ترك الشريعة ووصاياها. وعاموس يعرف الشريعة وقوانينها و لم يأت بشريعة جديدة لكنه دعا الشعب إلى عدم عبادة آلهة أخرى وإلى تطبيق شريعة موسى.

معاصي إسرائيل

١. المعصية الأولى التي تحدث عنها عاموس في إطار الأخلاق الاجتماعية عن العلاقة بين الإنسان وأخيه: "من أجل ذنوب إسرائيل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه، لأنهم باعوا البار بالفضة، والبائس لأجل نعلين. الذين يتهمَّمُون تراب الأرض على رؤوس المساكين، ويصدون سبيل البائسين ... ويتمددون على ثياب مرهونة بجانب كل مذبح ويشربون خمر المغرمين في بيت آلهتهم" (٢: ٦-٨). فالجرائم هي: تشويه القضاء، تلقي الرشوة، وظلم الصدِّيقين، وسرقة الفقراء، وإمالة الحق لصالح الأغنياء والظالمين: "تحولون العدل مرارة وتطرحون الحق إلى الأرض". (طرحوا) (٥: ٧)؛ "لقد حولتم الحق سمًّا زعافًا وثمار البر مرارة" (٦: ١٢). لا حق ولا عدل في الدولة، ولا مساعدة للصدِّيقين والفقراء المظلومين المنهوبين.

٢. ظهرت في الفقرات التي ذكرناها معصية أخرى من نوع مختلف تمامًا: "ويذهب رجل وأبوه إلى صبية واحدة حتى يدنسوا اسم قدسي" (٢: ٧). وهذه معصية مزدوجة: تدنيس طهارة العائلة، وتدنيس قدسية الرب، و لم يذكر صراحة أن المقصود فتاة "متزوجة"، وفسر المفسرون ذلك (راشي، بن عزرا، رادق) بالفتاة المخطوبة.

٣. بعث الرب إلى بني إسرائيل الأنبياء والنذيرين لهدايتهم وتوبيخهم، لكنهم اضطهدوهم فأسقوا النذيرين الخمر رغمًا عنهم وأمروا الأنبياء بعدم التنبوء ومنعوهم من القيام بمهمتهم (٢: ١١-١٢).

٤. اشتكي عاموس تحديدًا من الأغنياء أصحاب القصور ومن نسائهم "بقرات باشان"، "الظالمة المساكين، الساحقة البائسين، القائلات لسادهّن هات لنشرب" (٤: ١). وأغنياء السامرة يبنون لهم بيوتًا من حجارة، بيوتًا شتوية وبيوتًا صيفية، ويغرسون كرومًا شهية (٥: ١١)، وينامون على أسرة من عاج "والآكلين خرافًا من الغنم، وعجولًا من وسط الصيرة... الشاربون من كئوس الخمر والذين يدَّهنون بأفضل الأدهان"، ويطأون الفقراء بأقدام الظلم. وقصورهم ممتلئة بالظلم والنهب، (٣: ٩-١٠). لهذا السبب يمقت عاموس القصور على وجه خاص (٦: ٩).

٥. ويشتكي عاموس أيضًا من عبادة الأوثان (٥: ٢٦، ٨: ١٤)، لكن هذه المعصية لا تشغل موضعًا جوهريًا في توبيخه.

٦. عدم الاكتراث والثقة في أن الإله القومي سوف يحمي أبناءه العاصين (٦: ١، ١٣).

٧. الغش التجاري: "لنصغر الإيفة، ونكبِّر الشاقل، ونعوج موازين الغش". (٨: ٥-٦).

هكذا اعترض عاموس على معاصٍ كثيرة لكن توبيخه تركز في الأساس على الناحية الاجتماعية والأخلاقية والقضائية. فيسمع صرخة الفقراء والمظلومين ويطالب بعدل وحق ونظام اجتماعي ليس فيه ظلم للفقراء والضعفاء (٥: ٢٤). كما طالب باتباع طريق الرب: "اطلبوني فتحيوا"، "اطلبوا الرب فتحيوا" (٥: ٤، ٦). فلو أن الشعب طلب الرب وسار على شريعته لم يصبه بلاء.

البلاء

لم يتحدث الأنبياء الأوائل عن بلاء قومي شامل لكنهم هدَّدوا الملوك العصاة بنزول البلاء على رؤوسهم وعلى بيوتهم. وعاموس ليس أول نبي قال بأن الشعب سوف يُساق إلى الشتات والخراب بسبب معاصيه. والمصائب التي هدَّد عاموس بأن تحل على إسرائيل كثيرة وهي:

١. "فأرسل نارًا على يهوذا فتأكل قصور أورشليم" (٢: ٥).

٢. الهزيمة في الحرب (٢: ١٤-١٦)، الحصار (٣: ١١، ٦: ١٤)، شيوع القتل (٣: ١٢، ٥: ٣، ١٦)؛ والسقوط في السبي (٤: ٢-٣).

٣. نهب بيوت الأغنياء وخرابها (٣: ١١، ١٥، ٦: ١١).

٤. المجاعة والجفاف؛ أمراض المحاصيل؛ الجراد والوباء (٤: ٦-١١، ٧: ١).

٥. الخراب الشامل: "سقطت عذراء إسرائيل، لا تعود تقوم" (٥: ٢).

٦. الشتات: وهناك عدة مستويات من الشتات، فقد ذُكر أولًا: "تُسبى سبيًا" (٥: ٥)، وبعدها: "فأسبيكم إلى ما وراء دمشق" (٢٧). ويجب أن نؤكد على أن تلك هي النبوءة الأولى عن شتات إسرائيل. ويضيف عاموس في الإصحاح السادس أن الأغنياء سيكونون أول المسبيين (٧). وهنا يقتبس أمصيا كاهن بيت إيل نبوءة عاموس: "يموت يربعام بالسيف، ويسبى إسرائيل عن أرضه" (٧: ١١). ورغم أن عاموس لم يقل مثل هذه الكلمات من قبل إلا أن أمصيا كان يستطيع تفسير كلماته بهذه الصورة: "فأسبيكم إلى ما وراء دمشق" (٥: ٢٧)، وصياغة أمصيا هي أكثر تأكيدًا وشدة. على أية حال يؤكد عاموس نفسه على هذه النبوءة في رده على أمصيا فيعود ويقول: "وإسرائيل يُسبى سبيًا عن أرضه" (٧: ١٧).

لم يتنبأ عاموس عن خراب أورشليم أو عن خراب بيت المقدس.

كيفية رفع البلاء

عاموس هو أول من أوجد المفاهيم الأربعة الثابتة في أقوال الأنبياء: المعصية، البلاء، التوبة، الخلاص. فالنبي يُرسل إلى الشعب ليخبره بذنبه وبالبلاء الذي ينتظره فيؤخِّر وقوع البلاء إذا عاد الشعب عن طريق الشر. ويعود عاموس ليؤكد ويطالب: "اطلبوني فتحيوا ... اطلبوا الرب فتحيوا ... اطلبوا الخير لا الشر ... أبغضوا الشر وأحبوا الخير، وثبتوا الحق في الباب، لعل الرب إله الجنود يتراءف على بقية يوسف" (٥: ٥، ٦، ١٤، ١٥).

لكن الشعب لا يتراجع "وأنا أيضًا أعطيتكم نظافة الأسنان في جميع مدنكم، وعوز الخبز في جميع أماكنكم، فلم ترجعوا إليَّ، يقول الرب" (٤: ٦، ٨، ٩، ١٠). ويكاد النبي يوقن أنه لا سبيل للنجاة لكن الرب يصفح عن الشعب مرة ومرتين، لكن "لا أعود أصفح له بعد" (٧: ٨)، "قد أتت النهاية على شعبي إسرائيل، لا أعود أصفح له بعد" (٨: ٢) "ثبتوا الحق في الباب، لعل الرب إله الجنود يتراءف على بقية يوسف" (٥: ١٥). مع ذلك فلا ضمان للخلاص حتى إذا أحسنوا سبلهم، وربما لم يعد هناك سبيل من أجل صلاحهم، أو لم يعد في الإمكان التراجع عن الحكم بالخراب والسبي.

ربما لن يدمر الرب بيت يعقوب كلهم (٩: ٨) فسوف يموت العاصون، لكن النوايا الطيبة ستصبح أساسًا لعودة الأمة.

نبوءة المواساة

كما كان عاموس أول الأنبياء الموبخين فإنه كان أيضًا أول المواسين. وعلى الرغم من وجود نبوءة مواساة واحدة في نهاية السفر لا ينسبها بعض باحثي العهد القديم إلى عاموس إلا أن هذه النبوءة القصيرة تحتوي على كثير من أسس نبوءات الخلاص عند كل الأنبياء:

١. **جمع الشتات وبناء البلاد:** "وأَرُدُّ سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدن خربة ويسكنون". (٩: ١٤)

٢. **البركة والنماء:** ستصبح تربة إسرائيل خصبة ومباركة وستنتج محاصيل كثيرة من الفواكه والحبوب: "يدرك الحارث الحاصد، ودائس العنب بادر الزرع" (١٣) (سيستمر الحصاد حتى موسم الحرث في الخريف، ويستمر دهس العنب حتى موسم الزرع) "وتقطر الجبال عصيرًا، وتسيل جميع التلال" (١٣) (تسيل من كثرة عصير فاكهة الأرض).

٣. **سيكون الاستيطان الجديد أبديًا:** "وأغرسهم في أرضهم، ولن يقلعوا بعد من أرضهم" (١٥).

٤. **عودة مُلْك داود:** و"مظلة داود الساقطة"(١١) سيعاد بناؤها من جديد، كما سيرث شعب إسرائيل أرض أدوم.

من المحتمل أن تكون الفقرات الأخيرة التي تتحدث عن مظلة داود الساقطة، وعن بقية أدوم إضافة متأخرة، لكن ليس هناك سبب لنزع نبوءة المواساة تمامًا عن عاموس فقط لكونه نبي توبيخ. بل كان ذلك من السمات المميزة لجميع أنبياء التوبيخ، الذين كانوا أنبياء مواساة أيضًا.

اللقاء بين عاموس وأمصيا

كان توبيخ عاموس في بيت، إيل أحد مراكز الدين والعبادة في مملكة السامرة، على مسمع من الكثيرين. وكان من نبوءاته فقدان المملكة والملكية. وليس غريبًا أن تثير هذه النبوءات غضب وحنق رجال السلطة المقربين؛ فأرسل أمصيا كاهن بيت إيل، الذي عينه يربعام ملك إسرائيل، إلى الملك بخبر الاتهام الشنيع: "لقد فتن عليك عاموس في وسط بيت إسرائيل، لا تقدر الأرض أن تطيق أقواله. لأنه هكذا قال عاموس: يموت يربعام بالسيف، ويسبى إسرائيل عن أرضه" (٧: ١٠-١١). وهذا الاقتباس غير دقيق لأن عاموس لم يقل أن يربعام سيموت بالسيف لكن: "وأقوم على بيت يربعام بالسيف"(٩). فلماذا تشدد أمصيا وبالغ في كلام عاموس؟ من أجل استشاطة الملك بالطبع، ودفعه إلى قتل النبي. ولماذا لم يقتل أمصيا نفسه عاموس؟ ربما خشية تحمل عاقبة مثل هذا العمل المتطرف. لذا توجه إلى الملك ليقضي هو في الأمر. لكن من المثير للدهشة أننا لا نجد في السفر رد يربعام. فيحتمل أن الحالة السياسية والأمنية ليربعام كانت قوية بدرجة كافية حتى أنه لم يعط رأيه في أقوال أحد أنبياء يهوذا، أو أنه كان يحترم عاموس ولم يرغب في إيذاء نبي الرب. على أية حال لم يكن أمصيا يوافق على السماح لعاموس بالاستمرار في الكلام في بيت إيل؛ فأمصيا لم يدرك المغزى العميق لمهمة عاموس. وعاموس لا يختلف في نظره عن بقية الأنبياء المحترفين الذي يسكنون الأماكن الدينية ويبحثون عن الطعام كأجرٍ على نبوءاتهم. لذلك يطرد أمصيا عاموس من بيت إيل ويقول له في حقد وسخرية: "أيها الرائي اذهب اهرب إلى أرض يهوذا وكل هناك خبزا وهناك تنبأ، وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد لأنها مقدس الملك وبيت الملك". وهنا يستطيع التنبوء فقط من يكون كلامه على هوى السلطة الحاكمة.

ويرد عاموس على ذلك بكلماته البسيطة الصارمة: "لست أنا نبيًا ولا ابن نبي، بل أنا راعٍ وجاني جميز. فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب: اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل". وليس لدينا هنا تعبير أبسط وأوضح عن الفرق بين النبوة الاحترافية ونبوة التكليف "لست نبيًا أنا" أي أني لست نبيًا بمفهومك، "ولا ابن نبي أنا"، وليس لي أي علاقة بالنبوة الاحترافية لا أنا ولا عائلتي، كما إني لا أنتمي إلى مجموعة "بني الأنبياء". فالنبوة ليست حرفة أو مصدر للرزق أو شأن عائلي متوارث ولا مسألة اجتماعية ترتبط بالمكانة أو بالحقوق؛ فأنا لست سوى راعي غنم وغير مهتم نهائيًا بسلب خبز الآخرين أو تبديل مصدر رزقي. أنا أقوم فقط بما كُلِّفت به من أجل شعبي ليس إلا. لقد أراد أمصيا أن يُسكت النبي لكن هل من الممكن أن يكتم النبي كلام الرب؟ "أنت تقول: لا تتنبأ على إسرائيل ولا تتكلم على بيت إسحق"، وهذا مستحيل تمامًا! "لذلك هكذا قال الرب...".

لم يُذكر إن كان عاموس قد استمر في التنبوء في بيت إيل بعد هذا الشجار مع أمصيا. ومن الواضح بحسب ترتيب النبوءات أنه استمر في التنبوء لكن ما لا يمكن معرفته بالفعل متى حدث هذا اللقاء مع أمصيا فهذا الجزء لم يكتبه عاموس نفسه لكن كتبه أحد تلاميذه ومدوِّني أقواله، ودُمِج في قصة النبوءات بواسطة محرر السِفر. ذُكرت نبوءة "وأقوم على بيت يربعام بالسيف" في رؤيا "هأنذا" لذلك تم ضم قصة أمصيا إلى رؤيا "هأنذا"، لكن لا يمكن معرفة إن كان الجدال بين الكاهن والنبي قد حدث حقًا بعد رؤيا "هأنذا" على الفور. ربما اعتبر النبي مهمته إلى إسرائيل مهمة مؤقتة وعاد لرعي أغنامه في مراعي "تقوع".

يمكن أيضًا تفسير كلام عاموس "لست نبيًا أنا" بشكل مختلف: ليس نبيًا الذي يقف أمامك هنا، لكن فكرة كبيرة، رؤية سامية، كلام الرب، الذي أخضع له أنا

نفسي. وأن الخلاف بيننا ليس شخصيًا، فنحن لا نتكلم هنا عني، عن عاموس، لكن عن مصير إسرائيل، عن جوهر الدولة الإسرائيلية. ولم يفهم أمصيا كيف من الممكن أن يتم التنبوء بالخراب والسبي في عصر قوة سياسية واحتلال وتوسع للحدود. فكانت نظرته إلى أمور الدولة نظرة مادية في الوقت الذي نادى فيه عاموس بالمثالية الأخلاقية في الحياة الاجتماعية وفي الدولة، زاعمًا أن مصير الدولة غير مرتبط بالانتصارات وبالثراء الاقتصادي لكن بالحفاظ على العدل والحق.

يرمز اللقاء بين أمصيا وعاموس إلى الصدام بين المادية السياسية للملوك وموظفيهم والمثالية الأخلاقية للأنبياء. وترجع جذور هذا الصدام إلى التناقضات بين صموئيل وشاول، وناثان وداود، وإيليا وأخآب. لكن المطالب النبوية، حتى مجيء عاموس، تقلصت في إطار المملكة فقط، أما هنا فلأول مرة يُوجِّه الطلب إلى الدولة كلها.

بموجب هذا التفسير لم يقصد عاموس التفريق بينه وبين الأنبياء المحترفين، لكنه ألغى شخصيته تمامًا. فالمشكلة لم تكمن في إذا كان مسموحًا لعاموس بالتنبوء في بيت إيل أو في يهوذا؛ حيث تخلى تمامًا عن مكانته وعن صفته النبوية؛ بل كانت المشكلة: النبوءة التي وُضِعَت في فمه، هل هي حقيقة؟ وهل يجب قولها أم لا؟ لذلك ردد عاموس على مسمع من أمصيا نبوءة جديدة أقسى من سابقتها كأنه يقول: في مقدورك قتلي وطردي لكن ليس في مقدورك أن تبطل النبوءة التي هي أقوى منك ومني معًا[١].

---

[١] تفسيرات أخرى عن أقوال عاموس انظر: מאיר וייס, המקרא כדמותו, 71- 74, 262-263؛ https://www.herzog.ac.il/vtc/0026182.html

علاقة عاموس بالعبادات

كان صموئيل قد قال لشاول: "هل مسرَّة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب؟ هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من شحم الكباش" (صموئيل الأول ١٥: ٢٢). بذلك يكون صموئيل أولمن قال بأن القرابين ليست ذات القيمة الأسمى في عبادة الرب، لكن قيمتها ثانوية. وأن طاعة الرب تفوق القرابين في الأهمية. وعاموس يوسع من هذه الفكرة ويعمقها ويُدخل عليها تغييرًا أساسيًا مُهمًا: فهو يضع في مقابل القرابين ليس طاعة الرب العمياء إنما الأخلاق؛ فالعبادة لا تحل محل العدل والحقيقة. وليس فقط أنها لا تكفر عن الذنب الأخلاقي لكنها أيضًا مقيتة ومكروهة لو استمر الإنسان في اقتراف الذنوب الاجتماعية معتقدًا أن العبادات الدينية تكفر عنها.

لم يقدم بنو إسرائيل قرابين كثيرة أثناء فترة وجودهم في الصحراء، مع ذلك فقد تمتعوا بنعم الرب، أما الآن فهم يكثرون من تقديم القرابين لكن الرب لن يكافئهم بالنِعَم لكن بالشتات والخراب (عاموس ٥: ٢١-٢٧). فالعبادة ليست هي التي ستنقذ الإنسان والشعب إنما السلوك الأخلاقي؛ فالأخلاق فقط هي صاحبة القيمة المطلقة لأن الرب يرغبها سواء كان الإنسان يقيِّم العبادات أو لا؛ في حين أن للعبادات قيمة ثانوية مرتبطة بالأخلاق. فلو أن الإنسان اتبع الطريق القويم فسوف يُتقبَّل قربانه بكل سرور، لكن لو كان الإنسان عاصيًا ومُصِرًّا على عدم اتباع الوصايا التي بين الإنسان وأخيه فلا قيمة لعبادته. فالعبادة من شأنها إضفاء القداسة والبهجة على الحياة الدينية الأخلاقية؛ لكن العبادة التي غرضها التغطية على أعمال الظلم والجور ليست سوى رياءً مقيتًا.

يطالب عاموس بديانة أخلاقية قيمها الأساسية العدل والحق وطلب الرب. وفي أقواله ثورة حقيقية في فهم الدين وعبادة الرب:

بغضت، كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم.

إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضـــي،

وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها.

أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع.

وليجر الحق كالميـــاه والبر كنهر دائـــــم. (عاموس ٥: ٢١-٢٤)

لا يتحدث عاموس عن القرابين فقط لكن كذلك عن الطقوس في أيام الأعياد، وكان لكلامه الأثر الكبير على الأنبياء الذين جاءوا من بعده، خاصة إشَعياء. ولقد كان لمطالبته بدين أخلاقي وتفضيله الأخلاق على العبادة أهمية كبيرة ليست في تطور النبوة الإسرائيلية فحسب لكن في تاريخ الديانة البشرية بشكل عام.

تأثير التوراة على أقوال عاموس

عرف عاموس التوراة ووبَّخ يهوذا "لأنهم رفضوا ناموس الله و لم يحفظوا فرائضه" (٢: ٤). ومفهوم الألوهية عنده يقوم على أحكام الشريعة. وتترسخ أسس التوبيخ ومفاهيم "الخطيئة، العقاب، التوبة، والخلاص" في آيات التوبيخ في التوراة (اللاويين ٢٦، التثنية ٢٨)، كما أن المطالبة بالعدل في القضاء ورعاية الفقراء مصدرهما التوراة. ومن الذنوب التي شكا منها عاموس والمذكورة في التوراة:

١. **تلقي الرشوة:** الخروج ٢٣: ٨، التثنية ١٦: ١٩.

٢. **التحيُّز في الحكم:** الخروج ٢٣: ٦؛ اللاويين ١٩: ١٥؛ التثنية ١٦: ٢٠.

٣. **عدم ارجاع الثياب المرهنة:** الخروج ٢٢: ٢٥؛ التثنية ٢٤: ١٢، ١٣، ١٧.

٤. **الغش في التجارة:** اللاويين ١٩: ٣٥-٣٦.

٥. **عدم طاعة الأنبياء:** التثنية ١٨: ١٩.

٦. **ذهاب الرجل وابنه إلى امرأة واحدة:** التثنية ٢٣: ١، ١٨.

تأثير الأنبياء الأوائل على عاموس

لم يكن ظهور عاموس في تاريخ النبوة بمثابة "الوجود من العدم" فقد سبقه أنبياء كثيرون، وشاهدنا أن نبوءته هي استمرار لموروث نبوي طويل وعاموس نفسه يعترف بوجود أنبياء قبله (٢: ١١-١٢). فما هي نقاط الشبه بينه وبين الأنبياء "الأوائل" الذين سبقوه؟

١. الشعور بالتكليف الإلهي. (إيليا).

٢. توبيخ يربعام – ملك إسرائيل. (صموئيل، ناثان، إيليا).

٣. التقليل من قيمة العبادة. (صموئيل).

٤. المطالبة باتباع طريق الرب وتنفيذ الوصايا الأخلاقية. (إيليا).

تجديدات في أقوال عاموس

١. عاموس هو أبو النبوة الأدبية الكلاسيكية، وهو أول أنبياء الكتابة الذي أعطوا أقوالهم في صورة شعرية.

٢. عاموس هو أول من وبَّخ الشعب بشكل مستمر و لم يكتفِ بتوبيخ الملوك؛ بذلك بدأ تقليد التوبيخ العظيم للأنبياء الأواخر والمطالبة بالمثالية الأخلاقية، على

عكس المادية السياسية للملوك والرؤساء (الوزراء)؛ فبقاء شعب إسرائيل لن تضمنه الانتصارات السياسية والعسكرية لكن الإيمان والأخلاق فقط.

٣. عاموس هو أول نبي يؤكد على عالمية الإله وسلطانه على العالم كله وعلى جميع الشعوب.

٤. عاموس هو أول نبي يتنبأ عن الشعوب الأخرى وليس على إسرائيل فقط.

٥. عاموس هو أول نبي يمنح مفهوم "اختيار إسرائيل" التفسير العميق بالالتزام وليس الحقوق، وفسَّر "يوم الرب" بأنه يوم محاكمة مذنبي إسرائيل.

٦. عاموس هو أول من طالب بالديانة الأخلاقية وألغى القيمة المستقلة والمطلقة للعبادات. وأن تكون عبادة الرب في العدل والحق ومساعدة الضعيف والفقير وليس في تقديم القرابين.

٧. عاموس هو أول من تنبأ بسبي إسرائيل.

٨. عاموس هو أول من عبَّر صراحة عن فكرة أن النبوة هي الأساس وأن النبي ثانوي خاضع ومستعبد لها، وتؤكد مجهولية عاموس على هذه الفكرة.

وضَع عاموس أسس النبوة الكلاسيكية وكان تأثيره المباشر وغير المباشر على جميع الأنبياء الذين جاءوا بعده عظيمًا جدًا.

سفر عاموس

سفر عاموس أحد الأسفار الاثني عشر الصغرى التي جُمِعت معًا؛ غير أنه من الجدير بالذكر أن الأسفار "الاثنا عشر" تضم أقوال أنبياء عظام بقيت منها أسفار صغيرة ولا شك في أن عاموس أحد هؤلاء الأنبياء وهو من ناحية أصالة أفكاره أعظم الأنبياء الأواخر.

على الرغم من أن سفر هوشع هو أول سفر في مجموعة الاثني عشر (لأنه الأكبر فيها، ولأنه ورد في الفقرة الثانية من السفر: أول ما كلم الرب هوشع)، إلا أن عاموس قد سبق هوشع حيث أن عاموس قد تنبأ في عصر عزيا ويربعام، أما في بداية سفر هوشع فيذكر أيضًا يوثام وآحاز، وحزقيا. كما يتناول هوشع بحسب مضمون كلامه فترة أكثر تأخرًا من عصر عاموس.

بناء السفر

١. الإصحاح الأول: ١. افتتاحية السفر، زمن عاموس.

٢. ١: ٢. افتتاحية أقوال النبي: ظهور الرب لعقاب العاصين.

٣. ١: ٣ — ٢: ١٦. ثماني نبوءات عن الأغيار، وعن يهوذا، وإسرائيل تبدأ وتنتهي بصيغة ثابتة. والنبوءة الأخيرة عن إسرائيل هي الأعظم، وهي الذروة والهدف من كل النبوءات السابقة.

٤. الإصحاحات ٣، ٤، ٥: ١-١٧. ثلاث نبوءات تبدأ بصيغة: "اسمعوا هذا القول".

٥. الإصحاح ٥: ١٨ — ٦: ١٤. نبوءتان تبدءان بكلمة "ويلٌ" الأولى عن يوم الرب والقرابين، والثانية عن المستريحين في صهيون.

٦. الإصحاح ٧: ١ — ٩: ٦. خمس رؤى (الجراد، النار، ميزان البناء، سلة القطاف، المذبح). وفي الرؤيا الثالثة قصة عن اللقاء بين أمصيا وعاموس. وهو جزء نثري كتبه أحد تلاميذه أو مدوني أقواله، وضُمَّ هنا بسبب النبوءة على يربعام.

٧. الإصحاح ٩: ٧-١٥. أقوال مواساة (قبلها نبوءة "ألستم كبني الكوشيين" ٧-١٠).

صور وتشبيهات في أقوال عاموس

ذُكرت نبوءات عاموس بأسلوب شعري وكعادة الشعر فهي تحتوي على صور وتشبيهات من أجل تجسيد الموضوعات وإحيائها وتعميقها.

وعلى الرغم من استخدام عاموس تشبيهات من حياة الفلاح والراعي بشكل خاص إلا أنه عرف جيدًا الحضارة المدنية وقصور الأغنياء والرؤساء. وسنعرض هنا لتشبيهاته المهمة جدًا:

١. تشبيه الرب بالأسد الذي يزمجر فيثير الفزع في الرعاة (١: ٢)

٢. صورة الراعي الذي يحاول انتزاع رجلي حمل أو قطعة أذن من فم الأسد. (٣: ١٢).

٣. تشبيه الثريات من نساء السامرة ببقرات باشان (٤: ١)

٤. وصف الوبال في يوم الرب، الذي لا مفر منه، بالرجل الذي يطارده أسد ودب وثعبان (٥: ١٩).

٥. تشبيه العدل والحقيقة بالنهر السيَّال (٥: ٢٤).

٦. وصف لحياة الأغنياء المتمددين على أسرَّة من عاج والمسترخين فوق الأرائك وطعامهم وشرابهم وعزفهم (٦: ٤-٦).

٧. الرؤى السبعة وخاصة رؤية ميزان البناء، ورؤيا المذبح؛ فميزان البناء له معنى رمزي لأن البنَّاء يسوِّى الحائط به وهكذا سيمرر الرب ميزان البناء على شعبه ويميت كل من لا يسير في الطريق المستقيم. والرؤيا الرابعة أيضًا رؤيا "سلة القطاف" لها معنى رمزي: "قد أتت النهاية على شعبي إسرائيل" (٨: ٢).

٨. يرتبط وصف البركة والنماء في نهاية السِفر بالطبيعة الزراعية: "يدرك الحارث الحاصد، ودائس العنب باذر الزرع، وتقطر الجبال عصيرًا، وتسيل جميع التلال" (٩: ١٣).

٩. وصف الضغوط الأرامية على إسرائيل كدوس النورج الحديدي (١: ٣).

١٠. تصوير قوة وارتفاع الأموري بقوة البلوط وارتفاع الأرز (٢: ٩)

١١. وصف الجفاف والضربات الزراعية (٤: ٧-٩).

وسائل فنية أخرى

١. الافتتاحية الاحتفالية للنبوءة

- "يزأر الرب من صهيون ويدوي بصوته من أورشليم" (١: ٢).
- "اسمعوا هذا القول!" (٣: ١).
- "ويل للذين يشتهون يوم الرب" (٥: ١٨).
- ويل للمستريحين في صهيون، والمطمئنين في جبل السامرة" (٦: ١).

٢. الترادف

الترادف أحد الوسائل الفنية البارزة جدًا في شعر العهد القديم حيث يتم تقسيم الفقرة إلى شطرين متقابلين؛ يتساوي الشطر الثاني في عدد النبرات (اثنتان، ثلاثة، أو أربعة) مع الشطر الأول ويؤكد على مضمون الشطر الأول بكلمات مختلفة. وإن لم يكن في الشطر الثاني أي فكرة جديدة فيعدُّ تقابل ترادفي؛ لكن إذا أضاف الشطر الثاني فكرة أو تشبيهًا فيعد تقابلًا تكميليًا. ويوجد أيضًا ترادف بالتضاد

وذلك عندما يناقض الشطر الثاني الشطر الأول (أمثلة كثيرة موجودة في سفر الأمثال). ومن النماذج الموجودة عند عاموس:

إن الرب يزمجر من صهيون   ويعطي صوته من أورشليم

(١: ٢)

التقابل الترادفي: "أورشليم" يقابله "صهيون"؛ "يعطي صوته" تقابل "يزأر"، وليس في الشطر الثاني أي إضافة في الفكرة أو التشبيه أو المعنى لكن تكرارًا يثري ويزيد من انطباع وقع الأمور ويمنحه إيقاع ووزن وتنوع. والفاعل في الشطر الثاني يُفهم من الشطر الأول.

لأنهم باعوا البار بالفضة   والبائس لأجل نعلين (٢: ٦)

وليجر الحق كالمياه   والبر كنهر دائم (٥: ٢٤)

في المثالين السابقين لا يوجد فعل في الشطر الثاني، لأنه مفهوم من الشطر الأول، لذلك فالكلمة الواحدة في الشطر الأول تقابلها كلمتان في الشطر الثاني: بالفضة — لأجل نعلين، كالمياه — كنهر دائم. فالتقابلان مكملان، وليسا مترادفين. تعدُّ صورة بيع البائس لأجل نعلين (شيء لا قيمة له) أكثر تجسيدًا من بيع البار في مقابل الرشوة. ويضيف كذلك تصوير "النهر الدائم" تشبيهًا جديدًا، وانطباعًا قويًا في مقابل التشبيه العام "كالمياه". وهنا نلاحظ أن التقابل هنا ليس مجرد تكرار وإضافة، لكن إثراء وتنويع، وتقوية الانطباع، وتعميق المعنى. وفي الفقرات الأخيرة نجد ترتيب التقابل معكوس أ، ب — ب، أ. "فالبر" يقابله "الحق"، والنهر الدائم"

يقابله "المياه". ويطلق على هذا التقابل "خياسموس"[1] فهو يؤكد على الفكرة الرئيسية في الفقرة ويبرزها. فالأساس في الفقرة الأخيرة هو البر والحق، والتشبيهان يشكلان الإطار الشعري والفني التجسيدي.

٣. الوزن

ذكرنا في التقابل أن عدد النبرات يكون متساويًا في الشطرين؛ وهذا هو الوزن في أشعار العهد القديم فإذا كان في كل شطر ثلاث نبرات يكون الوزن ثلاثيًا:

וְהִטִּיפוּ הֶהָרִים עָסִיס, וְכָל-הַגְּבָעוֹת תִּתְמוֹגַגְנָה.

وتقطر الجبال عصيرًا وتسيل جميع التلال (٩: ١٣)

וְאָבְלוּ נְאוֹת הָרֹעִים, וְיָבֵשׁ רֹאשׁ הַכַּרְמֶל.

فتنوح مراعي الرعاة، وييبس رأس الكرمل (١: ٢)

وإن كان عدد النبرات أربعة يكون الوزن رباعيًا. لكن سفر عاموس فيه صورة أخرى للفقرة، يكون فيها الشطر الثاني أقصر من الأول وهو ما يسمى بوزن الرثاء:

נָפְלָה לֹא-תוֹסִיף קוּם, בְּתוּלַת יִשְׂרָאֵל;

נִטְּשָׁה עַל-אַדְמָתָהּ, אֵין מְקִימָהּ.

سقطت عذراء إسرائيل لا تعود تقوم؛

انطرحت على أرضها ليس من يقيمها. (٥: ٢)

---

[1] كلمة يونانية Khiasmos وهي ظاهرة شعرية في الأشعار المكونة من شطرين ويكون ترتيب الكلمات في الشطر الأول مختلفًا عن ترتيبها في الشطر الثانية وذلك من أجل التأكيد على فكرة أو صورة.

وهذه هي طبيعة الراثي، حيث يكون ارتفاع صوته أطول من انخفاضه. لكن وزن الرثاء ليس موجودًا في الرثاء فحسب كما لم يكتب به كل رثاء. على أية حال علينا الانتباه إلى هذا الوزن.

٤. الاستعارة

- الأسد قد زمجر فمن لا يخاف؟
- السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ؟ (٣: ٨).
- هل يسير اثنان معًا إن لم يتواعدا؟ (٣: ٣)

٥. التكرار

- من أجل ثلاثة ومن أجل أربعة (١: ٣)
- فلم ترجعوا إليَّ (٤: ٧)
- كُفَّ، كيف يقوم يعقوب؟ (٧: ٥)

وتكرار فقرة كاملة يسمى أنشودة: "فأرسل نارًا ... فتأكل قصورها" (١: ١٠).

٦. الجناس

הַגִּלְגָּל גָּלֹה יִגְלֶה (5 : 5)، קָיִץ.. קֵץ (8 : 2). וְסָר, מִרְזַח סְרוּחִים (٦: ٧).[1] هجيلجال جالوه يجليه (٥: ٥)، قايتس.. قيتس (٨: ٢). وسار، مرزاح سروحيم (٦: ٧).

---

[1] تم وضع الأمثلة باللغة العبرية لأن التشابه بين الكلمات يظهر في العبرية فقط وليس في الترجمة.

٧. التصاعد التدريجي المفصَّل

بهذه الطريقة يتم رسم الصورة بشكل مكتمل:

١. "ويبيد المناص عن السريع، والقوي لا يشدد قوته، والبطل لا ينجي نفسه، وماسك القوس لا يثبت، وسريع الرجلين لا ينجو، وراكب الخيل لا ينجي نفسه، والقوي القلب بين الأبطال يهرب عريانًا في ذلك اليوم" (٢: ١٤-١٦).

٢. "كما إذا هرب إنسان من أمام الأسد فصادفه الدب، أو دخل البيت ووضع يده على الحائط فلدغته الحية" (٥: ١٩).

٣. "هل يزمجر الأسد.. هل يعطي شبل الأسد زئيره؟ ... هل يسقط عصفور؟ ... هل يرفع فخ؟ ... أم يضرب بالبوق؟ ... هل تحدث بلية في المدينة ...؟ (٣: ٤-٦).

٤. "منعت عنكم المطر ... ضربتكم باللفح ... أرسلت بينكم وَبَأ ... قتلت بالسيف ... قلبت بعضكم كما قلب الله سدوم وعمورة" (٤: ٧-١١).

٥. "المدينة الخارجة بألف يبقى لها مئة، والخارجة بمئة يبقى لها عشرة ..." (٥: ٣)

سلسة من الصور أو التساؤلات يتم الإجابة عنها في النهاية أو تظهر الصورة الرئيسية التي هي ذروة وهدف الفقرة. هذا الأسلوب موجود أيضًا في سلسلة النبوءات على الشعوب التي تأتي في نهايتها النبوءة على إسرائيل؛ وهو الهدف والذروة في الفقرة كلها.

أسلوب عاموس

أصاب البروفسور م. ص. سيجل في كتابه "مقدمة العهد القديم" (الجزء الثاني، ص ٤٦٦) في وصفه لأسلوب عاموس بقوله: "يتميَّز أسلوب عاموس بالبساطة والوضوح، والرقي. كما أن النثر عنده رائع وموزون يقترب في بعض الأحيان إلى الوزن الشعري. وأسلوبه بلاغي وتعبيراته موجزة والتشبيهات جذابة، والأمثلة والمشاهد. كما أن أساليبه الفنية في ترتيب الأفكار رائعة، مثل: السلسلة الطويلة للمعاصي الثلاثة والأربعة؛ والتصاعد التدريجي حتى ذروة معاصي إسرائيل.

تكمن عظمة عاموس في البلاغة والفن الذي يبهرنا به راعي الأغنام والأبقار في مدينة صغيرة وبعيدة عن مركز الحياة مثل "تقوع". وهذا دليل على التطور الأدبي الكبير في إسرائيل في عصر عاموس".

الواقع الإسرائيلي في عصر عاموس

يمكننا، عبر دراسة أقوال عاموس، الوقوف على أخبار كثيرة عن الواقع والحياة اليومية في إسرائيل في عصره:

١. القصور في إسرائيل؛ بيوت صيفية وبيوت شتوية؛ بيوت من العاج (٣: ١٥) وهي بيوت مغطاة أو مزينة بالعاج. (يفسرها البعض بنوع من الأخشاب).

٢. الحياة في داخل القصور؛ الولائم؛ والعزف؛ الأسرَّة العاجية؛ والأثاث الدمشقي الثمين؛ ونوافير النبيذ؛ وأدوات العزف (٦: ٥).

٣. الأضرار والآفات التي تصيب الزراعة كثيرًا: الجفاف (٧: ٧)، الأمراض (٩)، الجراد (٧: ١).

٤. الزراعة بشكل عام: درس الغلال (١: ٣)؛ العربة المملتئة بالمحاصيل (٢: ١٣)؛ البساتين والكروم (٩: ١٤)؛ تقسيم الأرض بالحبل (٧: ١٧)؛ الحراثة والحصاد ودهس العنب (٩: ١٣).

٥. مشكلة الراعي الذي يأخذ الوحش المفترس من قطيعه، وكان عليه أن يبرهن أن الأغنام افتُرست و لم يأكلها هو (٣: ١٢).

٦. تجارة الرقيق (١: ٦، ٩).

٧. الأماكن المقدسة والمذابح في إسرائيل (٢: ٨، ٣: ١٤، ٤: ٤، ٧: ٩).

٨. النذيرون والأنبياء في إسرائيل (٢: ١١).

٩. المقاتلون في إسرائيل (٢: ١٥).

١٠. وجود الأسود في إسرائيل (٣: ٤، ٨، ٥: ١٩).

١١. البناء بميزان البناء (٧: ٧).

١٢. إغلاق أماكن العمل في أيام السبت ورأس الشهر (٨: ٥).

عاموس والعصر الحديث

إن أقوال عاموس موجَّهة لبني عصره لكنها في نفس الوقت موجهة لعصرنا ومجتمعنا أيضًا. فنبوءة عاموس أولًا؛ ليست نبوءة تاريخية فحسب فهي عمل فني أصيل، عظيم يعيش لعصور. ثانيًا؛ المطالب الأخلاقية والاجتماعية والدينية ليست موجهة لعصر معين فقط إنما للعصور القادمة بل ولعصرنا ومجتمعنا بشكل لا يختلف عن عصر ومجتمع عاموس.

لقد كان عاموس أول المؤكدين على مطلب الدين الأخلاقي الاشتراكي، وقلَّل من قيمة الديانة الرسمية، ودعا إلى العدل وانتفض بكل قوة ضد استغلال وظلم الفقراء. هذا كله له قيمة أبدية. ثالثًا؛ التقليل من شخصية عاموس واختفائها في الأفكار التي ناضل من أجلها. فالنضال من أجل تحقيق العدل ووقوفه بصلابة في مواجهة السلطات بلا خوف؛ جعله هذا كله نموذجًا وقدوة لكل العصور.

مختصر أقوال حزقيال قويفمان عن عاموس

١. الجذور الأدبية لنبوءة عاموس ليست ضاربة في التوراة فقط إنما في أدب الحكمة والمزامير (أسفار المزامير والأمثال وأيوب) أيضًا. ويعرض قويفمان عشرات المقارنات بين أقوال عاموس وبين فقرات من هذا الأدب.[١]

٢. نبوءات الأمم في افتتاحية السفر لا تتطرق إلى أحداث عصر عاموس، لذلك يعتقد قويفمان أن عاموس استعان في بناء سفره هنا بوثيقة نبوءات قديمة.

٣. لا يتوافق ترتيب النبوءات مع ترتيب أزمنة رغبات عاموس؛ لكن السفر كله موحد من ناحية البناء الأيديولوجي ونجده موحدًا أيضًا من خلال دراسة الطريقة الشخصية المكتوب بها؛ فالسفر كله مكتوب بحماس أخلاقي عظيم وبحرص شديد وبلا شفقة. كما لو أن شخصية النبي قد ابتلعت في قوة هذا الحماس، واعتبر النبي نفسه "أداة" في يد الرب. وطبع عاموس متناقض تمامًا مع كل من هوشع وإرميا؛ فالسفر كله لا يوجد فيه فقرة واحدة ساخرة. كما أن عاموس لا يفضي بمكنون قلبه في أي مكان. كما يوبخ ويهدد من بداية السفر حتى نهايته[٢].

[١] י. קויפמן, תולדות האמונה הישראלית, כרך שלישי, ספר א' ע' 60-58.
[٢] ص ٦٥

٤. نلاحظ في أقوال الأنبياء عن إسرائيل تقديرًا جديدًا تمامًا للأخلاق الاشتراكية: فهم يهددون إسرائيل بالسبي والخراب بسبب المعاصي الأخلاقية. لكن هذا التقدير لا يعتبر استمرارًا للنهج الذي وضعه ناثان وإيليا. فقد وبَّخ ناثان داود على معصية القتل الفظيع. وإيليا وبَّخ أخآب على القتل الأبشع؛ القتل بالمحاكمة. فقد أُسمعوا صوت الدم البريء الصارخ من الأرض. ومع ذلك فهم لا يعتبرون هذه الجرائم جرائم قومية ولا يتنبأون بخراب الأمة بسببها. أما الأنبياء الجدد فليسوا هكذا، فهم يعتبرون مثل هذه المعاصي الأخلاقية العادية والأسوأ منها الموجودة منذ الأزل وحتى اليوم في كل أمة وفي كل مملكة؛ عاملًا حاسما في مصير الأمة[١]. لكننا نلاحظ في سفر عاموس، ولأول مرة، تقديرًا للأخلاق الاشتراكية كعامل تاريخي وطني في حياة إسرائيل. وهذا التقدير الجديد جلي عند عاموس بشدة لأنه يكاد يخلو من ذكر عبادة الأوثان.

إن الفكرة التي ظهرت في سفر عاموس لأول مرة هي فكرة أن المصير التاريخي القومي لإسرائيل مرتبط ليس فقط بعبادة الأوثان ولكن أيضًا بإقامة الشريعة الأخلاقية الخاصة التي مُنحوا إياها في تجسيد للأخلاق الاشتراكية[٢].

٥. لا يذكر عاموس آشور؛ فرؤيته هي ثمرة المثالية الدينية الأخلاقية وليست ثمرة رؤية تاريخية سياسية واقعية[٣].

---

[١] ص ٧٧

[٢] ٧٨-٧٩

[٣] ص ٨٧

٦. لا يوجد في نبوءة عاموس وبال يؤدي إلى التوبة ويقضي على العاصين وينجي الأبرار. و"بقية إسرائيل" تشمل الأبرار. أما الوعد بأن "البقية تعود – **שאר ישוב** - شآر ياشوب[1] التي ورد ذكرها عند إشعياء فغير موجود عند عاموس.

---

[1] وردت في الترجمات على أنها اسم علم "شآر ياشوب" إشعياء ٧: ٣.

الفصل الثالث

هُوشَع

زمن هوشع

ذُكر في افتتاحية السفر أن هوشع تنبأ في عصر عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا، وفي عصر يربعام بن يوآش ملك إسرائيل. وعاموس أيضًا تنبأ في عصر عزيا، لكنه يذكر هنا أيضًا يوثام وآحاز وحزقيا؛ من هنا نجد أن هوشع استمر في التنبوء حتى بعد عاموس. وفي عصر عزيا ملك يهوذا انتهى حكم يربعام ملك إسرائيل (الملوك الثاني ١٥: ٨)، وكذلك ابنه زكريا آخر ملوك أسرة بيت ياهو. قتل زكريا على يد شلُّوم بن يابيش الذي حكم في السامرة لشهر واحد فقط (١٥: ١٣) ثم قتله منحيم بن جادي. وبعد موت يربعام الثاني بدأت فترة من الاضطرابات والتحولات في مملكة إسرائيل ولم يشهد الحكم استقرارًا وتولَّى الملوك لفترات قصيرة وقُتِلوا على يد المتمردين من قادة الجيش، في الوقت الذي كان يقترب فيه التهديد الآشوري ويزداد بسرعة. وفي عصر منحيم جاء «فول» تغلث فلاسر الثالث، ملك آشور (٧٤٥–٧٢٧ ق.م) إلى إسرائيل، فاضطر منحيم إلى أن يدفع له مبلغًا كبيرًا من المال كي لا يحاربه (٧٣٨ ق.م) فاستُعبدت إسرائيل لآشور. ثم تولى فقحيا بعد أبيه منحيم لعامين فقط ثم قتله «فَقْح بن رَمَليا». واستمر حكم فقح في عصر يوثام وآحاز ملوك يهوذا (١٦: ١) وفي عصر فقح "جاء تغلث فلاسر ملك آشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور" (١٥: ٢٩).

هكذا تكون أجزاء كبيرة من أرض إسرائيل قد احتلت في عصر فقح وحدث أول سبي لشعب إسرائيل. لقد نزل البلاء الذي تنبأ به عاموس على إسرائيل بعد سنوات قليلة فقط من الازدهار والقوة في عصر يربعام.

وفي نبوءات هوشع تتردد أصوات واضحة من تلك الفترة التي شهدت تبديلًا للملوك والفشل السياسي وجهود إسرائيل من أجل النجاة من الخراب الكامل وذلك عبر محاولات لإقامة تحالفات مع مصر أو مع آشور. ولا نجد في المقابل أي إشارة لأحداث عصر آحاز التي تناولها سفر إشعياء كثيرًا. من هنا نجد أن هوشع قد تنبأ في الفترة بين عاموس وإشعياء. ويبدو كذلك أن ميخا تنبأ في عصر حزقيا بذلك يكون عاموس وهوشع وإشعياء وميخا قد ظهروا تباعًا في فترة زمنية واحدة. تنبأ كل من عاموس وهوشع قبل خراب السامرة بينما تنبأ إشعياء وميخا بعده. وبما أن خراب السامرة قد حدث في سنة ٧٢٢ ق.م فيعتقد أن عاموس تنبأ في الفترة بين ٧٦٠–٧٥٠ ق.م تقريبًا؛ وهوشع في الفترة بين ٧٥٠–٧٣٥ ق.م تقريبًا. وفقًا لهذا الحساب نستنتج أن هوشع لم يتنبأ في عصر حزقيا وأن افتتاحية السفر غير دقيقة (ربما نقلت خطئًا من سفر إشعياء). أما قويفمان فله رأي مختلف فيما يخص عصر هوشع سنعرضه في نهاية الفصل.

إذن فالأحداث السياسية الرئيسية في عصر هوشع هي:

١. نهاية مُلك بيت ياهو (زكريا آخر الملوك).

٢. التدهور المفاجيء لمملكة أفرايم.

٣. استعباد آشور لأفرايم وسقوط أجزاء من إسرائيل في يد آشور وحدوث السبي الأول إلى آشور.

انعكاس الأحداث السياسية في نبوءات هوشع

١. من بداية الإصحاح الأول وهوشع يتنبأ بسقوط بيت ياهو: "لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل، وأبيد مملكة إسرائيل". فماذا كانت الخطيئة الكبرى لبيت ياهو؟ دمَّر ياهو بقية أخآب في السامرة وفي يزرعيل؛ حيث أرسل إليه سبعون من بيت أخآب إلى يزرعيل (الملوك الثاني ١٠: ٧)، وبعد أن ضرب ياهو "جميع الذين بقوا لأخآب في السامر" وذبح أنبياء البعل وبعد أن وطَّد حكمه سار في طريق يربعام بن نباط (١٠: ٢٩). كما صنع ابنه يهوآحاز الشر في عين الرب (١٣: ٢)، وكذلك يوآش (١١)، ويربعام الثاني (١٤: ٢٤)، وزكريا (١٥: ٩). لقد كان جميع ملوك بيت ياهو أشرارًا وعصاة ولم يكن هناك أي مبرر أخلاقي لسفك الدماء العظيم لبيت ياهو. "ودم يزرعيل" هو بحسب التفاسير دم بيت أخآب الذي سُفِك بقسوة وبدون سبب على يد بيت ياهو ومنفذي أوامره. ومن الغريب قليلًا أن يطالب هوشع بالثأر من بيت أخآب. (فيما يلي تفسير قويفمان).

٢. يعارض النبي بشدة السياسة الخارجية الإسرائيلية التي أرادت التحالف مع مصر أو آشور: ".. وصار أفرايم كحمامة رعناء بلاء قلب، يدعون مصر، يمضون إلى آشور" (٧: ٨-١١). "ويقطعون مع آشور عهدًا" (١٢: ٢). "فمضى أفرايم إلى آشور، وأرسل إلى ملك عدو، ولكنه لا يستطيع أن يشفيكم ولا أن يزيل منكم الجرح" (٥: ١٣). ويشتكي هوشع تحديدًا من الهابطين إلى مصر "قد ساروا كقوس مخطئة، يسقط رؤساؤهم بالسيف من أجل سخط ألسنتهم هذا هزؤهم في أرض مصر" (٧: ١٦). ولقد سبق هوشع إشعياء في معارضته لسياسة إسرائيل الخارجية.

٣. يصف هوشع الولائم في بلاط الملك التي يدبر فيها الرؤساء المؤامرات لقتل الملوك، كما وصف الفساد العام بين رؤساء المملكة: "بِشَرِّهم يُفرحون الملك، وبكذبهم الرؤساء، كلهم فاسقون كتنور محمي من الخباز ... يوم ملكنا يمرض الرؤساء من سورة الخمر يبسط يده مع المستهزئين ... جميع ملوكهم سقطوا، ليس بينهم من يدعو إليَّ" (٧: ٣-٧). "جميع رؤسائهم متمردون" (٩: ١٥).

٤. يدين هوشع المؤسسة الملكية في إسرائيل: "هم أقاموا ملوكًا وليس مني، أقاموا رؤساء وأنا لم أعرف" (٨: ٤). فالملوك والرؤساء لم يأتوا برغبة الرب وبموافقته: "أنا أعطيك ملكًا بغضبي وآخذه بسخطي" (١٣: ١١). بعد فساد الملك يصل هوشع إلى حالة من المعارضة الشاملة بروح جدعون وصموئيل؛ فقد تدهور حال المملكة بشكل كبير: "إنهم الآن يقولون لا ملك لنا، لأننا لا نخاف الرب، فالملك ماذا صنع بنا؟" (١٠: ٣) فملك السامرة يشبه الـــ"غثاء على وجه الماء"(٧).

تجدر الإشارة إلى أن شئون الدولة تحتل عند هوشع مكانةً كبيرةً على عكس عاموس الذي لم يتحدث تقريبًا عن الملوك والرؤساء أو سياسة إسرائيل الخارجية باستثناء نبوءة "وأقوم على بيت يربعام بالسيف" (٧: ٩)؛ وهناك سببان لذلك: الأول؛ لم توجد في عصر عاموس مشكلات سياسية كبيرة فقد كانت مملكتا عزيا ويربعام قويتين ومستقرتين. أما هوشع فشهد التدهور السريع لمملكة السامرة. ثانيًا؛ كان عاموس راعيًا قرويًا وجانيًا للجميز، ولم يكن على اتصال مباشر بما يحدث في بلاط الملوك. فهو عرف معاصي الأغنياء والزعماء لكنه لم يشهد المؤامرات التي تحاك في بيوت الحكام. أما هوشع فكان مقربًا فيما يبدو من بلاط

الملك في السامرة، وشاهد بعينيه الرياء والنكران والمؤامرات التي هزَّت كل أركان الدولة وزعزعتها.

شخصية هوشع

نحن نعرف عن شخصية هوشع أكثر قليلًا مما عرفنا عن عاموس. فلقد ذكر اسم أبيه — بئيري – من هنا نجد أنه كان من عائلة أهم. وعلمه بما يحدث في بلاط الملك يبرهن على أنه كان مقربًا من النخبة الحاكمة. كما أن معنى اسمه واضحٌ مثل يشوع وتفسيره أن الرب خلَّص أو سيخلِّص. و لم يذكر اسم سبطه صراحة لكن جميع نبوءاته كانت على مملكة السامرة، أما يهوذا فيذكرها فقط بشكل عارض. يمكننا التخمين أنه كان من سبط أفرايم لأنه يكثر ذكره على وجه التحديد سواء بالسلب أو بالإيجاب: "أفرايم مكبَّل بعبادة الأصنام" (٤: ١٧)، "أنا أعرف أفرايم" (٥: ٣)، "فيتعثر أفرايم وإسرائيل في إثمهما" (٥: ٥)، "أفرايم مظلوم ... فأنا لأفرايم كالعث ... ورأى أفرايم مرضه ويهوذا جرحه فمضى أفرايم إلى آشور ... لأني لأفرايم كالأسد" (٥: ١١–١٤)، "ماذا أصنع بك يا أفرايم" (٦: ٤)، "زنى أفرايم تنجس إسرائيل" (١٠)، "حينما كنت اشفي إسرائيل، أعلن إثم أفرايم" (٧: ١)، "أفرايم يختلط بالشعوب، أفرايم صار خبز ملة لم يقلب" (٧: ٨)، "وصار أفرايم كحمامة رعناء بلا قلب" (٧: ١١)، "يرجع أفرايم إلى مصر" (٩: ٣)، "أفرايم منتظر عند إلهي" (٩: ٨)، "أفرايم تطير كرامتهم كطائر" (٩: ١١)، "أفرايم عجلة متمرنة" (١٠: ١١)، "كيف أجعلك يا أفرايم" (١١: ٨)، "لا أعود أخرب أفرايم" (١١: ٩)، "أحاط بي أفرايم بالكذب" (١٢: ١)، "أفرايم راعي الريح" (٢)، "لما تكلم أفرايم برعدة، ترفَّع في إسرائيل" (١٣: ١)، "يقول أفرايم: ما لي أيضًا وللأصنام؟" (١٤: ٩).

يضع هوشع سبط أفرايم نُصب عينيه طوال الوقت ويصوره في معظم الفقرات على أنه كل إسرائيل، لكن هناك فقرات يفصله فيها عن إسرائيل ويتحدث عن "إسرائيل وأفرايم". كما لا يذكر اسم أي سبط آخر نهائيًا باستثناء يهوذا. وبداية من الإصحاح الرابع وحتى الإصحاح الرابع عشر لا يوجد إصحاح واحد لم يذكر فيه أفرايم؛ فأفرايم هو السبط الرئيس والمركزي الذي يرمز إلى كل مملكة إسرائيل.

وبخلاف عاموس الذي لم يتحدث نهائيًا عن نفسه وألغى شخصيته نجد هوشع يكثر من الحديث عن حياته الشخصية، التي هي بالنسبة له أيضًا بدون قيمة في حد ذاتها إنما هي رمز لأفكاره النبوءية. فقد أنجبت له زوجته جومر بنت دبلايم ثلاثة أولاد وعلى الرغم من ذلك كانت العلاقة بينهما مشحونة ومعقدة ويبدو أنها خانته. غار هوشع على زوجته وغضب منها بشدة؛ مع ذلك فقد ظل يحبها ويخلص لها ويشتاق إلى عودتها ويملؤه الأمل بصلاح حالها وعودة حبهما. لقد اعتملت في قلب هوشع مشاعر وأحاسيس متناقضة وعاصفة: الغيرة الشديدة والرغبة في الانتقام، مع العطف والشفقة، والأمل والتوق إلى عودة الحب والعهد. لقد علم أن زوجته غير جديرة بحبه الكبير أو بعطفه واهتمامه وإخلاصه، مع ذلك استمر في حبها حب الرحمة.

حملت هذه المشاعر المختلطة عند هوشع معنىً رمزيًا نبوءيًا؛ فالعلاقة بينه وبين زوجته هي رمز حي وملموس للعلاقة بين الرب وإسرائيل؛ فالرب يحب إسرائيل ويمنحها رحماته، وإسرائيل تخون ربها وتبحث عن عاشقين وأزواج آخرين. وسيعاقب الرب زوجته الخائنة بالمصائب والضربات العظيمة، لكنه مشفق عليها ويتوق إلى توبتها، وهو واثق أن عهد الزواج الأبدي سوف يتجدد في النهاية.

وبالفعل تثير كل هذه الحكاية التي يطلب فيها الرب من هوشع اتخاذ امرأة عاهرة؛ الحيرة والدهشة فكيف يمكن أن يأمر الرب نبيه بمثل هذا الأمر؟ هناك تفسيرات لذلك:

١. كان كل ذلك في رؤيا النبوة وليس في الحقيقة.

٢. النبي يعرض مثالًا كما لو أن زوجته عاهرة ليُفهَم كلامُه أكثر، ويكون أكثر تجسيدًا وواقعية (قويفمان).

٣. يتحدث النبي هنا عن عمل حقيقي حدث له وفسَّره هو على أنه أمر إلهي.

والاحتمال الثالث هو الأكثر قبولًا لدينا لأن قوة مشاعر هوشع تظهر بشكل واضح على خلفية الحب الواقعي.

يختلف هوشع عن عاموس اختلافًا تامًا من الناحية الشخصية مما يؤثر بالطبع على طبيعة نبوءاتهما. فشخصية عاموس وأحاسيسه لا تظهر في نبوءاته نهائيًا، فهو يوبخ فقط ويطالب بالبر والحق؛ أما قلب هوشع فقد كان ممزقًا بين المحبة والكراهية، والانتقام والرحمة، لذلك نبوءاته عاصفة وتتبدل كلماته من حين لآخر من الغضب إلى الرحمة، ومن التوبيخ إلى المواساة. وتظهر المواساة عند عاموس في نهاية السفر فقط؛ أما عند هوشع فالتوبيخ والمواساة يتبادلان من بداية السفر وحتى ختامه.

إن الإحساس بالتطابق بين النبي وبين أقوال الرب موجود عند عاموس وكذلك هوشع؛ فالنبي هو ممثل الرب ورسوله لكن الشعور بالتماثل بين شعب إسرائيل وامرأة النبي هو الأمر الجديد عند هوشع. فلم يحدث عند أي نبي قبل هوشع أن

جرى تشبيه علاقة الرب بإسرائيل بميثاق الزواج وحب الرجل والمرأة. وبداية من هوشع ويعتبر هذا التشبيه أحد الأمور الشائعة جدًا في النبوَّة، وفي الوعي اليهودي.

وأبناء هوشع أنفسهم تحولوا هم أيضًا إلى رموز؛ فالابن الأول أسماه "يزرعيل" رمزًا لسفك دماء بيت ياهو في يزرعيل والبلاء الذي سيحل على إسرائيل في وادي يزرعيل. والبنت أسماها "لوروحامة" (لا رحمة) "لأني لا أعود أرحم بيت إسرائيل"، والثالث أسماه "لو عامي" (ليس شعبي)، "لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون معكم". التطور إذن واضح: الأول؛ عقاب، والثاني؛ وقف للرحمات، والثالث؛ القطيعة التامة. لكنه لا يستطيع التعايش مع هذه القطيعة، وعلى الفور تظهر في الإصحاح الثاني عملية عكسية فيتحول الابن الثالث "لوعامي" إلى "عامي" (شعبي): وتعود من جديد العلاقة بين الرجل وامرأته. وتتحول "لوروحامة" إلى "روحامة" (رحمة) فتتزايد رحمة الرب، ويتحول يوم يزرعيل من يوم محاكمة إلى يوم خلاص.

والاسم يزرعيل يحمل معنيين سلبي وإيجابي فيمكن أيضًا تفسيره على أنه كلمتين: "يزرع – إيل" ويرمز إلى الخلاص. وبذلك لن يصبح بنو إسرائيل "لو عامي" وأبناء زنى لكن "أبناء الإله الحي"، أبناء الرب المقدسين والطاهرين أُنجبوا نتيجة ميثاق مقدس أبدي "ويكون في ذلك اليوم يقول الرب أنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعد بعلي"[(١)] (٢: ١٨). حتى تعبير "الأزواج الأخرى" لن يذكر وستصبح إسرائيل مخلصة لـــ"لرجلها الأول"(٩).

---

[١] هناك اختلاف في ترتيب الفقرات بين النص الأصلي للعهد القديم باللغة العبرية والترجمة العربية. وأنا أعتمد هنا على ما ورد في النص الأصلي. وتتكرر هذه الظاهرة في مواضع عدة – المترجم.

الرب وإسرائيل عند هوشع

يظهر الرب عند عاموس كإله الشعوب والعالم من أجل عقاب الأغيار وإسرائيل؛ أما عند هوشع فيظهر لأول مرة في شأنه الشخصي كإله لهوشع. فهو لا يهتم بالأراميين والفلسطينيين لكن بشعب إسرائيل فقط. ومفهوم الألوهية عند هوشع أكثر قومية وشخصية منه عند عاموس. فالرب يوصف عند هوشع في أكثر الصور تجسيدًا وتشخيصًا. وتعتبر العلاقة بين الرب وإسرائيل كميثاق زواج، وكحب الرجل والمرأة، لذلك فإن العلاقة بين الرب والشعب والنبي أكثر أحاسيسًا وشخصية منها عند عاموس. عند عاموس لا توجد علاقة "عاطفية" خاصة مع إسرائيل، واختيار إسرائيل اختيار قائم على الأخلاق والحق والعقل، اختيار يفرض واجبات وليس حقوقًا. لكن أساس الاختيار عند هوشع في العلاقة العاطفية الخاصة، وفي الحب العميق غير العقلاني الذي لا يقوم فقط على الأخلاق والحق. إنه حبٌ أبدي يقطع الرب من أجله عهدًا خاصًا مع كل قوى الطبيعة (٢: ٢٠–٢٥).

لقد بدأ حب الرب منذ أيام الصحراء: "وجد إسرائيل كعنب في البرية رأيت أباءكم كباكورة على تينة في أولها" (٩: ١٠). "لما كان إسرائيل غلامًا أحببته، ومن مصر دعوت ابني" (١١: ١). لكن بني إسرائيل خانوا ربهم وهم لا يزالون في البرية. ويا لها من خيبة أمل! فالرب هو الذي ربَّى إسرائيل مثل الأم الرحيمة التي ترى طفلها المحبوب: "وأنا درَّجت أفرايم ممسكًا إياهم بأذرعهم، فلم يعرفوا أني شفيتهم. كنت أجذبهم بحبال البشر، برُبُط المحبة وكنت لهم كمن يرفع النير عن أعناقهم، ومددت إليه مطعمًا إياه" (١١: ٣–٤).

وعندما اضطر الرب إلى معاقبة أبنائه انفطر قلبه وكاد أن يبكي على حزن شعبه: "كيف أتخلي عنك يا أفرايم؟ وكيف أسلِّمك إلى العدو يا إسرائيل؟ وكيف أجري عليك ما أجريته على صَبُوئيم؟ إن قلبي يتلوى أسى في داخلي وتضرم في مراجمي. لن أنفِّذ فيهم قضاء احتدام غضبي، ولن أدمِّر أفرايم ثانية لأني الله لا إنسان" (١١: ٨–٩). إنه يدلِّل إسرائيل بكلمة "شعبي!": "قد هلك شعبي من عدم المعرفة ... خطية شعبي ... شعبي يسأل" (٤: ٦، ٨، ١٢).

والرب عند عاموس عالمي، بعيد، ديَّان، غاضب ومعاقب، أما عند هوشع فهو إله قريب، إله قومي وشخصي، إله الحب والرحمة، فضلًا عن كونه أيضًا إله العدل والحق والبلاء.

يخلو سفر هوشع من أي نبوءة على الشعوب الأخرى؛ ويؤكد هوشع على صفة الرب كإله للطبيعة؛ ففي آخر الأيام سيقطع عهدًا لبني إسرائيل "مع حيوان البرية وطيور السماء ودبَّابات الأرض ... ويكون في ذلك اليوم أني أستجيب، يقول الرب، أستجيب السماوات وهي تستجيب الأرض. والأرض تستجيب القمح والمسطار والزيت" (٢: ٢٠–٢٥).

ومثل عاموس يشبِّه هوشع الرب بالأسد (٥: ١٤، ١١: ١٠)، كما يشبهه أيضًا بالنمر والدب الثاكل، واللبوءة والضرغام (١٣: ٧–٨)، بالمطر، وغيث الربيع (٦: ٣)، بالطل وشجر السرو الأخضر (١٤: ٦، ٩).

معاصي إسرائيل

١. **معصية إسرائيل الكبرى هي خيانة الرب**؛ الخيانة التي يصفها هوشع بالزنى (٢: ٤–٥). فالشعب يظن أن الأصنام هي التي تمنحه الطعام والملبس، ولا

يعرف أن الرب فقط هو الذي يمنحه كل ذلك (٢: ١٠). ولا يشتكي هوشع من استغلال الفقراء وظلمهم ولا يوبِّخ الأغنياء، إنما جميع الشعب المذنب بعبادة الأصنام. "شعبي يسأل خشبة، وعصاه تخبره" (٤: ١٢). "يذبحون على رؤوس الجبال، ويبخرون على التلال" (١٣)، "صنعوا لهم من فضتهم وذهبهم أصنامًا" (٨: ٤)، "ذابحو الناس يقبلون العجول" (١٣: ٢)، "قد زنخ عجلك يا سامرة ... إن عجل السامرة يصير كسرًا" (٨: ٥-٦). ويشتكي هوشع من العجول التي صنعها يربعام بن نابوط تحديدًا، ويرفض أماكن إسرائيل المقدسة التي أصبحت مركزًا للوثنية: "ولا تأتوا إلى الجلجال ولا تصعدوا إلى بيت أون" (٤: ١٥)، "كل شرهم في الجلجال" (٩: ١٥)، "وتخرب شوامخ أون" (١٠: ٨). ولا يستطيع هوشع النظر إلى احتفالات الأماكن المقدسة التي يصعد منها ابتهاج الزنا؛ فعبادة البعل بها فجور: "لا تفرح يا إسرائيل طربًا كالشعوب، لأنك قد زنيت عن إلهك. أحببت الأجرة على جميع بيادر الحنطة" (٩: ١).

٢. **يشتكي هوشع من "لا معرفة الله في الأرض"** (٤: ١)، "وهم لا يعرفون الرب" (٥: ٤)، حتى الكهنة الذين وظيفتهم تعليم الشريعة لإسرائيل، قد مقتوا المعرفة. ومصطلح "معرفة" المقصود به معرفة الشريعة ومعرفة الرب. ويعرف هوشع الشريعة جيدًا: "ولأنك نسيت شريعة إلهك" (٤: ٦)، "لأنهم قد تجاوزوا عهدي وتعدوا على شريعتي" (٨: ١)، "أكتب له كثرة شرائعي، فهي تحتسب أجنبية" (١٢).

٣. **خطايا كبيرة اقترفتها قيادة الشعب السياسية منها والروحية:** الملوك والرؤساء والكهنة والأنبياء. فملوك إسرائيل لا يرغبهم الرب (٧: ٧، ٨: ٤، ١٣: ١١)؛ والرؤساء يضلِّلون الملوك ويُعرفون بالسكر والتهليل، والرياء والزنا

(الإصحاح ٧)؛ والكهنة بدلًا من أن يعيدوا الشعب إلى طريق الهداية يقدمون هم أنفسهم نموذجًا سيئًا ويتمنون أن يكثر الشعب من ارتكاب المعاصي ليتمتعوا هم بقرابين معاصيه (الإصحاح ٢)، وبدلًا من تعليمهم الحق يقترفون هم الآثام (٥: ١)، ويتربصون للدماء (٦: ٩).

٤. **وإذا ظهر لهم نبي حق يوبِّخهم سخروا منه**: "النبي أحمق، إنسان الروح مجنون" (٩: ٧) ويتآمرون على قتله: "النبي فخ صياد على جميع طرقه" (٨). لم يفهم جموع الشعب توبيخ الأنبياء ومطالبهم؛ فالأنبياء كانوا رجال النهايات، مثاليين، يرغبون في أن تتصرف الدولة والمجتمع وفقًا لمبادئهم التامة. لذلك اعتبرهم الملوك والرؤساء والشعب رجال روح حمقى ومجانين غير واقعيين محلِّقين في عوالم عليا ولا يفهمون المشكلات المادية والعملية للدولة غير مندمجين في المجتمع الطبيعي. وهناك اختلاف جوهري بين النبوة وبين الواقع السياسي والاجتماعي. فكيف يستطيع الإنسان أن يفهم مهمة الأنبياء الذين لم يقدروا أبدًا الثراء والقوة العسكرية، والانتصارات والاحتلال، ويطالبون بالعدل والحق والرحمة ومعرفة الرب؟

٥. **عدم الثقة في الرب**؛ فبدلا من الاعتماد على الرب الذي سيخلصهم من ضغط آرام وآشور يتوجهون إلى آشور أو إلى مصر ويبنون الهياكل والمدن الحصينة (٨: ١٤)، ويثقون في كثرة أبطالهم (١٠: ١٣)، أو في خيولهم (١٤: ٤)، ولا يدركون أنهم إذا وثقوا في ربهم لن يكونوا في حاجة إلى الخيل والحصون ورحمة الأعداء، وفي ذلك سبق هوشع إشعياء.

٦. **حتى وإن تابوا فإن توبتهم منقوصة**: "فإن إحسانكم كسحاب الصبح، وكالندى الماضي باكرًا" (٦: ٤). يصرخون إلى الرب في وقت الضيق: "إلهي،

نعرفك" (٨: ٢)، لكنهم في حقيقة الأمر مستمرون في معاصيهم وبعدهم عن ربهم، وعندما يحسن الرب إليهم يكثرون على الفور من عبادة الأصنام (٢: ١٠، ٨: ٤، ١٠: ١): "لما رعوا شبعوا وارتفعت قلوبهم، لذلك نسوني" (١٣: ٦).

٧. **لا يذكر هوشع معاصي في حق الدين والدولة فقط إنما في حق الأخلاق والمجتمع كذلك**. فالمجتمع كله ملوثٌ بالفساد: "لا أمانة ولا إحسان ولا معرفة الله في الأرض. لعن وكذب وسرقة وفسق يعتنقون، ودماء تلحق دماء" (٤: ١-٢). ويتخطون كافة محرمات الوصايا العشر، فقد أمعنوا في إفساد طريقهم كما كان الحال في أيام المخطية في الجبعة (٩: ٩).

العقوبات

١. العقوبة الأولى التي ورد ذكرها في سفر هوشع هي سقوط حكم بيت ياهو بسبب "دماء يزرعيل" (١: ٤-٥)، ويظهر في هذه النبوءة نبوءة بلاء أخرى أكثر قسوة: "وأبيد مملكة بيت إسرائيل، ويكون في ذلك اليوم أني أكسر قوس إسرائيل في وادي يزرعيل". لكن ليس لدينا بعد نبوءة صريحة عن الخراب والسبي.

٢. الضائقة الاقتصادية: جفاف وقحط، جوع وعطش (٢: ٥)، وتحويل الأرض الخصبة إلى صحراء مقفرة (٢: ١٤).

٣. إلغاء الاحتفالات والأفراح "وأبطل كل أفراحها وأعيادها ورؤوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها" (٢: ١٣).

٤. تعطيل الحياة السياسية والدينية: "... بني إسرائيل سيقعدون أيامًا كثيرة بلا ملِك وبلا رئيس، وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم [1]" (٣: ٤-٥).

[1] أصنام مترلية على شكل رأس إنسان.

٥. مثل عاموس يقول هوشع أيضًا: "... أرسل على مدنه نارًا فتأكل قصوره" (٨: ١٤).

٦. سبي الأصنام وخراب المذابح والمعابد (١٠: ٥-٨).

٧. موت الأبناء (٩: ١١-١٢، ١٤).

٨. السبي: "إنهم إلى مصر يرجعون" (٨: ١٣)، "بل يرجع أفرايم إلى مصر" (٩: ٣)، "فيكون تائهين بين الأمم" (٩: ١٣).

مطالب هوشع

المعاصي التي يستنكرها هوشع تحمل مطالبه في طياتها: العبادة الخالصة للرب، والإخلاص له، ومعرفته، والثقة فيه، ومعرفة الشريعة وقوانينها؛ فضلًا عن الحق والعدل، والبر والرحمة: "إني أريد رحمة لا ذبيحة، ومعرفة الله أكثر من المحرقات" (٦: ٦)، "ازرعوا لأنفسكم بالبر، احصدوا بحسب الصلاح، احرثوا لأنفسكم حرثًا، فإنه وقت لطلب الرب حتى يأتي ويعلمكم البر" (١٠: ١٢). ومثلما يحب الرب إسرائيل حب رحمة، حب "الفضل" (١٤: ٥) هكذا يجب على بني إسرائيل أن يفعلوا؛ فالحب لا يكون بحسب الشريعة لكن "بعين الرحمة"، فأعمال البر والرحمة ليست أعمال تستوجب الأجر؛ من فِهْم مصطلح الرحمة يمكننا أن نفهم المطالبة بمعرفة الرب فمعرفة الرب تعني محبته والقيام بأعمال الرحمة مثله، وإن العلاقة بين الإنسان وأخيه لا يجب أن تقوم على حسابات الثواب والعقاب واعتبارات الحقوق والواجبات لكن على الرحمة التي لا ترتبط بالحقوق والواجبات، وعلى الحب الذي لا يرتبط بشيء. فالحب هو حلقة الوصل بين الرحمة وبين معرفة الرب، وهوشع هو نبي الحب والرحمة في العهد القديم.

ويأمل هوشع في مواضع كثيرة في توبة الشعب: "بعد ذلك يعود بنو إسرائيل ويطلبون الرب إلههم" (٣: ٥)، "هلم نرجع إلى الرب أنه هو افترس فيشفينا" (٦: ١)، "وأنت فارجع إلى إلهك. احفظ الرحمة والحق، وانتظر إلهك دائمًا" (١٢: ٧)، "ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك، لأنك تعثرت بإثمك" (١٤: ٢).

وكيف تكون التوبة؟ ليس من خلال تقديم القرابين، لكن عبر الثقة المطلقة في الرب، ومن خلال الصلوات والتضرع إليه، وعبر أعمال البر والرحمة.

النظرة إلى العبادات

كعاموس يؤكد هوشع على أن الرب لا يرغب في القرابين "إني أريد رحمة لا ذبيحة، ومعرفة الله أكثر من المحرقات" (٦: ٦). لكن هوشع يضع الرحمة ومعرفة الرب بدلًا من البر والعدل، و"الرحمة" معناها الأعمال الطيبة التي يقوم بها الإنسان من منطلق الحب والرحمة وليس ملزمًا بالقيام بها. و"معرفة الرب" معناها معرفة سبل رحمة الرب، واتباعها.

يظن الشعب أنه من الممكن أن نجد الرب عبر تقديم الذبائح: "يذهبون بغنمهم وبقرهم ليطلبوا الرب ولا يجدونه. قد تنحى عنهم" (٥: ٦). "أما ذبائح تقدماتي فيذبحون لحما ويأكلون. الرب لا يرتضيها" (٨: ١٣). ويعلمهم النبي أن هذه ليست هي طريق التوبة: "خذوا معكم كلامًا وارجعوا إلى الرب، قولوا له: ارفع كل إثم واقبل حسنًا، فنقدم عجول شفاهنا" (١٤: ٣). فلا يجب الذهاب إلى الرب بالأبقار والغنم لكن بالإيمان والصلاة وبطلب العفو والمغفرة.

نبوءات الخلاص

١. خلاص إسرائيل لن يتحقق من خلال التحالفات مع الشعوب الأجنبية ولا من خلال القوة المادية والعسكرية. فهوشع يبطل تمامًا قيمة التجهيزات العسكرية والقوة الحربية، فالخلاص مرتبط بإرادة الرب وحده: "... وأخلصهم بالرب إلههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب وبخيل وبفرسان" (١: ٧). ويعدُّ الاعتماد على التحالفات السياسية وعلى العتاد العسكري معصية؛ وعندما يعود بنو إسرائيل إلى الرب سيقولون له: "لا يخلصنا آشور، لا نركب على الخيل، ولا نقول أيضًا لعمل أيدينا: آلهتنا. إنه بك يرحم اليتيم" (١٤: ٤). فهكذا لن تخلِّص الدبلوماسية أو الاستراتيجية إسرائيل إنما رحمة الرب: "أحبهم فضلًا، لأن غضبي قد ارتد عنه" (١٤: ٥). فالرب لن ينتظر حتى يتوب أبناؤه توبة كاملة، لكنه هو نفسه سيشفي ارتدادهم؛ فخلاصه غير مرتبط بهم لكنه نتيجة حبه ورحمته.

٢. بخلاف سفر عاموس الذي به نبوءة مواساة واحدة فقط في نهايته، نجد نبوءات المواساة موجودة عند هوشع في بداية السفر ونهايته وتشغل مساحة أكبر في نبوءاته وهي أكثر ثراء في مضمونها.

٣. يجب أن تمر الأمة قبل الخلاص بمرحلة من التطهر وتجديد العهد مع الرب. غير أن الرب لا ينتظر مبادرة امرأته الخائنة فيخاطب قلبها بنفسه ويقودها إلى الصحراء كي يطهرها وتعود إلى أيام صباها. فالتوبة والتطهر غير ممكنين في داخل الحضارة المدنية وعلى أرض إسرائيل التي تم تدنيسها. والخلاص مصدره في صحراء السبي (٢: ١٦-١٧).

٤. الخطبة الجديدة ستقوم على الحب والرحمة من جانب الرب، وعلى العدل والحق والإيمان ومعرفة الرب، من جانب إسرائيل: "أخطبك لنفسي بالحق والعدل

والإحسان والمراحم ... أخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب" (٢: ٢١-٢٢). ويمكن تفسير ذلك بصورة أخرى: تقوم علاقة الخطبة على العدل والحق والرحمة والإحسان ومعرفة الرب من قبل إسرائيل، وعلى الوعد بالعهد الأبدي والحب الأبدي من جانب الرب. وستولد من جديد العلاقة الشخصية العائلية بين الرب وشعبه، وسيكون هذا العهد أبديًا وسيضمن للشعب السلامة والأمن والرخاء الاقتصادي. (٢: ٢٠-٢٥).

٥. سيكون عدد بني إسرائيل بعد الخلاص مثل رمل البحر الذي لا يحصى ولا يعد، وسيصبح إسرائيل ويهوذا شعبًا واحدًا تحت قيادة واحدة (٢: ١-٢).

٦. وسيصعدون إلى أرضهم من مصر ومن آشور، أرض سبيهم "فإنه يزمجر فيسرع البنون من البحر. يسرعون كعصفور من مصر وكحمامة من أرض آشور، فأسكنهم في بيوتهم، يقول الرب" (١١: ١٠-١١).

٧. وفي آخر الأيام سيرجع بنو إسرائيل إلى الرب وسيقبلون سلطانه عليهم وسلطان الملِك من بيت داود (٣: ٥)؛ وقتها سيصبح الرب كالندى على إسرائيل وستزهر إسرائيل كالسوسن ويكثر عددها: "ويكون بهاؤه كالزيتونة، وله رائحة كلبنان. يعود الساكنون في ظله، يحيون حنطة ويزهرون كجفنة" (١٤: ٧-٨).

من الجدير بالذكر أن نبوءات هوشع لا تتضمن أي محتوى إنساني عام؛ فقد تنبأ كل من عاموس وهوشع بخلاص إسرائيل، أما النبوءة الكونية بخلاص البشرية فهي من التجديد التام لإشعياء.

العلاقة مع يهوذا

على الرغم من كون هوشع من سبط أفرايم وحبه الشديد لسبطه إلا أنه كان على دراية بأن الوضع الديني والأخلاقي ليهوذا كان أفضل منه عند أفرايم، فقد ورد في الإصحاح الأول أن الرب لن يرحم إسرائيل "وأما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بالرب إلههم" (٧). وأنهما سيتحدان في آخر الأيام معًا لكن لن يكون ملكهم من سبط أفرايم إنما من بيت داود، من سبط يهوذا كما (٣: ٥). يوبخ هوشع يهوذا أيضًا (٥: ١٠، ١٢: ٣)، لكن توبيخ يهوذا يشغل مساحة أقل في سفره.

ذكريات تاريخية

ورد ذكر الكثير من أحداث تاريخ بني إسرائيل في نبوءات هوشع:

١. تاريخ يعقوب: مولده، فراره إلى أرام، عمله من أجل راحيل، صراعه مع ملاك الرب. (١٢: ٤-٤، ١٣-١٤).

٢. الخروج من مصر وزعامة موسى (١١: ١، ١٢: ١٤).

٣. فترة الصحراء.

تتجلى رحمة الرب مع بني إسرائيل في هذه النماذج الثلاثة خاصة أيام الصحراء التي كانت أيام رحمة لإسرائيل. لذلك يقول النبي إن تجديد العهد بين الرب وشعبه سيكون في الصحراء (٢: ١٦-١٧).

٤. معصية «بعل فغور» (٩: ١٠).

٥. صنيع «عخان» في أرض «عخور» (٢: ١٧).

٦. الجارية في جبعة (٩: ٩، ١٠: ٩).

٧. تدمير بيت أخآب (١: ٤). كل ذلك ذكريات معاصي.

٨. فاجعة شلمان بيت أربئيل[1] (١٠: ١٤)، وهو حدث غير معلوم لدينا.

الطبيعة وإسرائيل

الطبيعة ليست ساكنة وغير مبالية بحياة إسرائيل ومصيرها؛ فعندما تعصي إسرائيل تحزن الأرض "تنوح الأرض ويذبل كل من يسكن فيها مع حيوان البرية وطيور السماء، وأسماك البحر أيضًا تنتزع" (٤: ٣). وعندما تخون إسرائيل الرب تزني الأرض (١: ٢). وضربات الطبيعية هي أحد السبل التي يعاقب بها الرب الشعب. وعندما تخلص إسرائيل للرب تجود الطبيعة بالرحمات على إسرائيل. وتشارك عناصر الطبيعة في العهد الأبدي الذي يقطعه الرب مع شعبه: السماء والأرض اللتان تستجيبان لرغبة إسرائيل (٢: ٢٣ — ٢٤).

بناء سفر هوشع

ينقسم سفر هوشع إلى قسمين واضحين مختلفين في شكلهما؛ القِسم الأول: الإصحاحات ١-٣، وهو مكتوب كله بالنثر ويحكي عن امرأة هوشع وأبنائه. أما القسم الثاني: الإصحاحات ٤ -١٤؛ فمكتوب كله بأسلوب شعري لا تُذكر فيه عائلة النبي نهائيًا. القسم الأول؛ بداية نبوءة هوشع — في نهاية عصر يربعام الثاني قبل سقوط بيت ياهو. أما القسم الثاني ففي عصر الاضطرابات السياسية بعد

---

[1] يرى البعض أن شلمان هو شلمنأصر ملك آشور، بينما يقول آخرون إنه شالمانو الملك المؤابي المذكور في نقوش تجلث فلاشر. غزا شلمان جلعاد عام ٧٤٠ ق.م تقريبًا ودمر بيت أرئيل وقتل الكثيرين بينهم نساء وأطفال، وقال هوشع إن هذا سيكون مصير إسرائيل.

يربعام. والاختلافات بين القسمين عظيمة بالدرجة التي جعلت قويفمان يتوصل إلى استنتاج مفاده أن السفر يحتوي على أقوال نبيين.

ذكرنا من قبل أن سفر هوشع هو السفر الأول في الأسفار الإثني عشر ليس لأن هوشع تنبأ قبل عاموس إنما لأنه السفر الأكبر بينها، ولأنه ورد في افتتاحيته "قول الرب الذي صار إلى هوشع".

تجديدات هوشع في تاريخ النبوة

١. تشبيه العلاقة بين إسرائيل والرب بالعلاقة بين الرجل والمرأة.

٢. طلب الرحمة والتوبة ومعرفة الرب.

٣. معارضة الحرب والقوة العسكرية. ورفض التحصينات والتجهيزات العسكرية.

٤. الشتات سيؤدي إلى الخلاص.

مقارنة بين هوشع وعاموس

١. عاموس من يهوذا وهوشع من أفرايم. عاموس قروي وهوشع مقرب من بلاط الملك.

٢. تشغل شئون الدولة عند هوشع مساحة أكبر بكثير.

٣. التوبيخ ليس موجه ضد الأثرياء فقط لكن ضد الشعب أيضًا وخاصة الزعماء: الملوك، الرؤساء والكهنة.

٤. لا يطالب هوشع بالعدل والحق فحسب إنما بالرحمة ومعرفة الرب كذلك.

٥. الخطايا الاجتماعية ليست أساس توبيخ هوشع فاعتراضه الأساسي على خيانة الرب، وعدم معرفة الرب، والشريعة.

٦. ليس لدى عاموس ذكريات تاريخية كما هو الحال عند هوشع.

٧. ليس في كلام عاموس رفض للتحصينات والتجهيزات العسكرية.

٨. لا يوجد عند هوشع أي نبوءة عن يوم الرب أو الأمم الأخرى؛ فهوشع مرسل إلى إسرائيل فقط.

٩. نبوءات آخر الزمان تشغل عند هوشع مساحة أكبر، وهي أكثر ثراء في مضمونها.

١٠. يختلف مفهوم الألوهية عند هوشع عنه عند عاموس: إله الرحمة في مقابل إله القضاء. إله أكثر إنسانية وشخصي وقومي.

١١. اختيار إسرائيل يأتي من منطلق حب خاص غير عقلاني، وليس بسبب الأخلاق والحق فقط.

١٢. يختلف أسلوب هوشع وشخصيته عن عاموس تمامًا؛ فهو نبي شعري صاحب أسلوب انفعالي، امرأته وأبناؤه يمثّلون رمزًا وموضوعًا في نبوءته.

أسلوب هوشع

يعتقد م.ص. سيجل في كتابه "مقدمة العهد القديم"، (الجزء الثاني ص ٤٢٢)، أن أسلوب هوشع صارم وجريء، مركّز ومقتضب، يصل إلى درجة الالتباس أحيانًا. والنثر فيه موزون وواضح تملؤه المشاعر المنضبطة. غير أن هوشع في شعره لا يكبح مشاعره الجياشة التي تتفجر من قلبه في مقولات قصيرة غير متصلة ببعضها

البعض أحيانًا، وتكون بمثابة صرخة غضب وتنهدات وحزن وأنين. أقوال هوشع بها أيضًا شعر موسيقي مليء بالانفعال اللطيف والرقيق.

ولغة هوشع غنية بالصور البلاغية الراقية والتشبيهات؛ لكن يبدو أن النبي الحسَّاس المُعَانِي كانت تنقصه السلوى والتمهل من أجل تفصيل الوصف والمَثَل؛ لذلك اكتفى بالإشارات أو بالخطوط البارزة، وبكلمات قليلة. وتحاول أفكار النبي ومشاعره الانطلاق في الكلام دون أن يكبحها أو يهذبها أو يرتبها وفقًا للقواعد الفنية لأشعار العهد القديم.

صور وتشبيهات في نبوءات هوشع

صور هوشع مقتبسة في معظمها من الطبيعة الزراعية ومن مناحي الحياة الأخرى. وسنذكر أجملها:

١. تلاشي توبة إسرائيل "كسحاب الصبح، وكالندى الماضي باكرًا" (٦: ٤).

٢. مكائد الرؤساء ودسائسهم "كتنور محمي من الخبَّاز" (٧: ٤).

٣. تشبيه ملك السامرة بـــ "غثاء على وجه الماء" (١٠: ٧).

٤. تشبيه أفرايم بخبز لم يقلب (٧: ٨)، وبحمامة رعناء بلا قلب (١١).

٥. تشبيه الرب بالأسد المفترس "إني أنا أفترس وأمضي وآخذ ولا منقذ، أذهب وأرجع إلى مكاني" (٥: ١٤).

٦. تشبيه إسرائيل بالبقرة الجامحة (٤ :١٦)، والجفنة الممتدة (١٠: ١)، وبالعنب في البرية، وكباكورة على تينة في أولها (٩: ١٠).

صور من الطبيعة الزراعية: يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة، زرع ليس له غلة لا يصنع دقيقًا (٨: ٧)، يرث القريص نفائس فضتهم، يكون العوسج في منازلهم

(٩: ٦)، ازرعوا لأنفسكم بالبر، احصدوا بحسب الصلاح، احرثوا لأنفسكم حرثًا. حرثتم النفاق حصدتم الإثم (١٠: ١٢)، كعصافة تخطف من البيدر، وكدخان من الكوة (١٠: ١٣).

وسائل فنية أخرى

١. الرموز: امرأته وأبناؤه.

٢. التقابل:

إذا صرتم فخًا في مصفاة — وشبكة مبسوطة على تابور (٥: ١)

أنا أعرف أفرايم — وإسرائيل ليس مخفيًا عني (٥: ٣)

فمضى أفرايم إلى آشور — وأرسل إلى ملك عدو (٥: ١٣)

بِشَرِّهم يفرحون الملك — وبكذبهم الرؤساء (٧: ٣)

هم أقاموا ملوكًا وليس مني — أقاموا رؤساء وأنا لم أعرف (٨: ٤)

قد أحاط بي أفرايم بالكذب — وببيت إسرائيل بالمكر (١٢: ١)

وتجدر الإشارة إلى أن عدد التقابلات في سفر هوشع ليس كثيرًا، ولا نجد في معظم الفقرات تقسيمًا متقنًا سواء لوزن أو تقابل.

٣. تساؤلات انفعالية

ماذا أصنع بك يا أفرايم؟ — ماذا أصنع بك يا يهوذا (٦: ٤)

كيف أجعلك يا أفرايم، — أصيرك يا إسرائيل (١١: ٨)

أين أوباؤك يا موت؟ — أين شوكتك يا هاوية (١٣: ١٤).

٤. عبارات لاذعة تعبر بإيجاز عن فكرة كاملة:

- شعبي يسأل خشبة، وعصاة تخبره. (٤: ١٢)
- ذابحو الناس يقبّلون العجول. (١٣: ٢)
- النبي أحمق، إنسان الروح مجنون. (٩: ٧)
- إني أريد الرحمة لا ذبيحة؛ ومعرفة الله أكثر من محرقات. (٦: ٦)
- ازرعوا لأنفسكم بالبر، احصدوا بحسب الصلاح. (١٠: ١٢)
- نسيت شريعة إلهك، أنسى أنا أيضًا بنيك. (٤: ٦)

٥. التكرار

فتتعثر في النهار ويتعثر أيضًا النبي معك في الليل (٤: ٥). قد هلك شعبي من عدم المعرفة، لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا حتى لا تكهن لي (٦). ربطت كلمة "معرفة" هنا العبارة الثانية بالأولى، وربط الفعل "رفض" العبارة الثانية بالثالثة. ويسمي قويفمان هذه الظاهرة بالتسلسل. فهوشع يخلق سلسلة من الكلمات مثل: أعطهم يا رب. ماذا تعطي؟ أعطهم رحمًا مُسْقِطًا ... (٩: ١٤) ويضرب أصوله كلبنان ... وله رائحة كلبنان ... ذكرهم كخمر لبنان (١٤: ٦-٨). فإني أنا أفترس وأمضي ... هلم نرجع (٥: ١٤، ٦: ١). غلة لا يصنع دقيقًا، وإن صنع فالغرباء تبتلعه. قد ابتُلع إسرائيل (٨: ٧-٨). لأن أفرايم كثّر مذابح للخطيئة، صارت له المذابح للخطية (٨: ١١). فهوشع يستخدم الكلمة نفسها بأشكال مختلفة ويكررها كثيرًا. كما يكرر التوجه "إسرائيل وأفرايم". وفي الاصحاح الخامس تتكرر كلمة يهوذا خمس مرات، وكلمة إسرائيل ست مرات، وأفرايم تسع مرات.

ويكرر في بعض الأحيان عبارة: أكل الغرباء ثروته وهو لا يعرف، وقد رُشَّ عليه الشيب وهو لا يعرف (٧: ٩).

طبيعة الحياة في سفر هوشع

كما هو الحال في سفر عاموس فإننا نجد في سفر هوشع معلومات كثيرة تتحدث عن طبيعة الحياة اليومية والزراعية في عصره، سنذكر بعض نماذج منها:

١. شراء المرأة "فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضة وبحومر ولثك شعير" (٣: ٢).

٢. الترافيم في زمن هوشع (٣ : ٤).

٣. صنع الملابس من الصوف والكتان (٢: ١١).

٤. حُلي المرأة (٢: ١٥).

٥. رأس الشهر عيد ثابت مثل يوم السبت (٢: ١٣).

٦. النفخ في البوق للتحذير عند اقتراب العدو (٥: ٨، ٨: ١).

٧. عمل الخبَّاز، وخبز العجين في التنور (٧: ٤-٧).

٨. صنع التماثيل من الخشب ومن الفضة والذهب (٨: ٤-٦).

٩. الاحتفالات الشعبية عند بيادر الحنطة (٩: ١).

١٠. التجارة الكنعانية "مثل الكنعاني في يده موازين الغش، يحب أن يظلم" (١٢: ٨).

مختصر أقوال قويفمان عن هوشع

١. تشكل الإصحاحات الثلاثة الأولى وحدة أدبية متفردة في شكلها وتختلف عن بقية إصحاحات السفر. والاختلاف بينها وبين الإصحاحات ٤-١٤ جوهري للغاية لدرجة أنه يمكننا افتراض أن هذين القسمين من سفر هوشع ليسا نتاج عمل

نبي واحد إنما نبيان: هوشع الأول، وهوشع الثاني اللذان عاشا في زمنين مختلفين. "هوشع الأول" قصة نبوية من عصر يهورام، وكلمات "دم يزرعيل" معناها: دم نابوت اليزرعيلي الذي كان يحتضن بيت أخآب. لذلك كان يجب أن نقرأ بدلا من "على بيت ياهو" "على بيت يهورام" بن أخآب، الذي تم في عهده الانتقام لدم يزرعيل[١].

٢. قصة المرأة البغي وأطفال الزنى ليست قصة رمزية أو واقعية لكن نبوءية درامية؛ مسرحية جاءت لتعبِّر عن أفكار النبي بشكل لائق[٢].

٣. بما أن هوشع الثاني لم يذكر أرام نهائيًا لكن مصر وآشور فقط، فإننا نعلم من ذلك أن نبوءاته قد ذُكرت بعض خراب دمشق (٧٣٢ ق.م)، وبعد مقتل فقح قبل بداية حصار السامرة على يد شلمنصر. وتعكس نبوءات هوشع الثماني سنوات الأخيرة من فترة مُلك أفرايم (٧٣٢ ق.م – ٧٢٥ ق.م).

٤. هوشع هو النبي الوحيد الذي يذكر غضب صموئيل على الملكية، ويشير إلى الفكرة المنسية بأن الملكية نشأت بالخطية، وأن بها نوعًا من العصيان، لكنه لا يرفض مبدأ الملكية، والنموذج السياسي عنده هو بلا شك الملكية التي تستشير النبوة[٣].

---

[١] י. קויפמן, תולדות האמונה הישראלית, כרך שלישי, ספר א' ע' 99-93.

[٢] ص ١٠٢-١٠٣

[٣] ص ١٣٧-١٣٨.

٥. هوشع أول نبي في العالم أجمع يتهم العسكرية بأنها معصية دينية أخلاقية، ويتبعه في ذلك كل من إشعياء وميخا. ويجب اعتبار هذا التوبيخ في عصر تغلث فلاسر وشلمنأسر قمة المثالية الدينية والأخلاقية[1].

---

[1] ص ١٣٨ – ١٣٩.

الفصل الرابع

إِشَعْيَــــاء

زمن إشعياء وشخصيته

نعرف عن شخصية إشعياء أكثر مما نعرف عن عاموس وهوشع. أبوه هو آموص، أخو أمصيا ملك يهوذا، بحسب أدب الحاخامات. إشعياء إذن من بيت داود، من العائلة الملكية. تم تكليفه بالنبوة في السنة التي مات فيها الملك عزيا (عام ٧٤٠ ق.م تقريبًا)، بذلك يكون قد ولد في عام ٧٦٠ ق.م وبما أن إشعياء قد عمل وتنبأ في زمن حملة سنحريب عام ٧٠١ ق.م فإنه يكون قد تنبأ حتى سنة ٧٠٠ ق.م أي: على مدار أربعين سنة على الأقل. قُتل على يد منسي ملك يهوذا، بحسب رواية المدراش.

عرف إشعياء بالتأكيد أقوال الأنبياء الذين سبقوه، خاصة أقوال عاموس، لأنه تأثَّر به وأخذ عنه الكثير من أفكاره؛ لكن لم يصل أي نبي إلى مستواه البلاغي وفي قوة تعبيره الفني ونبوءة آخر الأيام؛ فهو يتفوق فيهما على جميع الأنبياء.

تنبأ إشعياء في نهاية عصر عزيا وفي عصر يوثام وآحاز وحزقيا، لذلك يعدُّ شاهدًا على الأحداث السياسية العظمى التي وقعت في عصرهم:

١. صعود آشور واستيلائها على جميع بلدان الشرق الأوسط، بل وعلى إسرائيل ويهوذا.

٢. حرب رصين ملك أرام، وفقح بن رمليا ضد آشور ومحاولة ضم يهوذا إلى هذه الحرب. (٧٣٤ ق.م)

٣. سقوط أرام دمشق (٧٣٢ ق.م) واستعباد إسرائيل وتمزيق آشور لأجزاء كبيرة من أرضه.

٤. انهيار ملك أفرايم، التمرد ضد آشور، وحصار السامرة في عصر شلمنأسر الخامس وخراب السامرة على يد سرجون الثاني. (٧٢٢ ق.م)

٥. حملة سنحريب في إسرائيل وحصار أورشليم في عصر حزقيا ونجاة أورشليم (٧٠١ ق.م)

يذكر إشعياء في أقواله اثنين من أبنائه: "شآر ياشوب" (٧: ٣)، و"ماهير شلال حاش بز" (٨: ١). وربما كان لديه ابن ثالث اسمه "عمانوئيل" (٧: ١٤). أما امرأته فيسميها "نبية"، وتطرق إليها أحيانًا بـــ "العذراء" (٧: ١٤).

يتضح مما وَرَد وذُكِر في سفر إشعياء أن النبي كان ذا مكانة رفيعة في أورشليم، وكان يستطيع في مرحلة نبوءته الأولى أن يلتقي آحاز ملك يهوذا ويوبِّخه (الإصحاح السابع). وفي عصر حزقيا ظهر إشعياء كنبي أعلى يلجأ إليه الملك في وقت الشدة؛ فيرسل إليه حزقيا وفدًا من الرؤساء والكهنة لطلب المساعدة (٣٧). ويدخل إشعياء ويخرج من بيت الملك، ويشفي حزقيا من مرضه (٣٧)، بل ويوبخه بشدة على استقباله الحار لوفد مرودخ بلادان، ملك بابل (٣٩). وبرغم رواية قتله على يد منسي إلا أنه لا يوجد في سفر إشعياء أي إشارة إلى معاناته من أي اضطهاد في عصر الملوك الذين تنبأ في عهدهم. وكان لديه أيضًا زمرة من التلاميذ الذين درسوا أقواله ودوَّنوها (٨: ١٦)، وكان ميخا فيما يبدو من بينهم.

بخلاف عاموس كان إشعياء رجل أورشليم، ابن المدينة، وكانت خلفية نشاطه ونبوءاته سياسية وملكية في الأساس. عرف جيدًا حياة المدينة وما يجري في بلاط

الملك والرؤساء، غير أن عمل الفلاحين والمناظر الطبيعية للقرى لم تكن غريبة عليه، وكثيرٌ من تشبيهاته وصوره مقتبسة من حياة الفلاحين.

إن كثيرًا مما نعرفه عن طبيعة إشعياء هو من رؤيا "التكليف" في الإصحاح السادس.

تكليف إشعياء بالنبوة

العهد القديم به الكثير من الوصف والتفصيل لعملية التكليف لدى خمسة أنبياء: موسى وصموئيل وإشعياء، وإرميا وحزقيال. ويجب الإمعان في كل وصف جيدًا؛ لأن تكليف النبي به الكثير عن شخصيته ووجهته وجوهر نبوته. وهناك بعض الخطوط المشتركة في وصف التكليف: التجربة العميقة للتجلي الإلهي، التردد والخوف من المهمة، الوعد الإلهي بمساندة النبي، غير أننا نجد في كل وصف ما يميز النبي وشخصيته ونبوته.

أولًا؛ نشير إلى أن تكليف إشعياء لم يظهر في افتتاحية سفره (كما هو الحال عند إرميا وحزقيال)، إنما في الإصحاح السادس. وهناك ثلاثة احتمالات لتفسير هذه الظاهرة: الأول؛ اعتقاد محرِّر السفر أن بداية السفر يجب أن تذكر الرؤى الأساسية السامية للنبي وليس رؤيا تكليفه. وهو ما يقوله راشي عن رؤيا إشعياء في الإصحاح الأول الذي لا يعده بداية السفر إنما الإصحاح السادس "في سنة موت الملك عزيا ..." غير أنه لا يوجد تقديم وتأخير في الترتيب". كما يقول رابي داود قمحي أن قصة الإصحاح السادس "كان يجب أن تكون بداية السفر، غير أنه لا يوجد تقديم وتأخير في التوراة". ويعرض هو أيضًا للاحتمال الثاني وهو أن إشعياء كان قد تنبأ قبل هذه القصة. لكن شاهد في سنة وفاة الملك عزيا المشهد العظيم الذي لم يشهده من قبل. لذلك فزع من هذا المشهد"، وما قاله "هأنا أرسلني" ليس تفسيره أنه لم

يتنبأ حتى ذلك الحين، إنما: "إن لم تكن بي فائدة حتى الآن، فربما أفيد الآن" وفي المستقبل. إذن فبحسب الرأي الثاني فإن الإصحاح السادس ليس هو بداية نبوءة إشعياء. وقريب منه الرأي الثالث الذي قال به قويفمان الذي يزعم بأن الإصحاح السادس ليس رؤيا التكليف نهائيًا، لكن ملخص نبوءة النبي حتى ذلك الوقت. ونحن نأخذ بالرأي السائد الأول (رأي راشي)، بأن الإصحاح السادس به رؤيا تكليف إشعياء، على الرغم من أنه ليس الإصحاح الأول في السفر.

نعلم من الفقرة الأولى أن إشعياء بدأ يتنبأ "في سنة موت الملك عزيا"، لذلك ورد في افتتاحية السفر أنه تنبأ أيضًا في عصر عزيا، لكن لا شك في أنه كان أصغر من عاموس (الذي كان أساس نبوءته في عصر عزيا)، ومن هوشع (الذي تنبأ قبل خراب السامرة)، وأساس نبوءته في عصر الملوك الذين حكموا بعد عزيا: يوثام، وآحاز، وحزقيا.

ينقسم الإصحاح السادس إلى قسمين أساسيين: ١. وصف التكليف (١-٨)، ومضمون التكليف (٩-١٣). وإشعياء هو أول نبي يصف في رؤيا التكليف التجلي الظاهر للرب. فلا يوجد مثل هذا التجلي عند صموئيل أو عاموس؛ فصوت الرب فقط هو الذي يسمع. وكذلك مع موسى يتحدث الرب من العليقة، ولا يصف موسى أي صورة، أما هنا فقد ذكر صراحة: "ورأيت السيد جالسًا على كرسي عال ومرتفع، وأذياله تملأ الهيكل"، ويستمر النبي في وصف الحاشية: "السرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة". غير أن إشعياء لم يكن هو أول من رأى الرب "يجلس على كرسيه" في وسط جيشه، فقد سبقه ميخا بن يَمْلَة (الملوك الثاني ٢٢: ١٩). إذن فقد استخدم تشبيهات شائعة (كرسي الرب، جيش السماء)، لكن من الواضح أنه لم يرَ شخصية إنسانية حقيقية، فقد ملأت أهداب الرب

الهيكل وملأ جلاله العالم. إن مصطلح الرب عند إشعياء (كما سنرى فيما بعد) أقل إنسانية منه عند موسى وإرميا. فالكرسي العالي والمرتفع يرمز إلى سمو الرب وارتفاعه فوق العالم، وليس تقليصه في بيت المقدس، كقول النبي في الإصحاح ٦٦: "السماء عرشي والأرض موطيء قدمي، فأي بيت تشيدون لي".

وعلى عكس موسى الذي تجلى له الرب في البرية خارج أي مكان سكني، فإن الرب يظهر لإشعياء في هيكل الرب، في وسط المدينة، لكن يتم التأكيد على الفكرة بأن "الشخينة"[1] ليست قاصرة على الهيكل، فخلفية الصورة تتسع وتملأ العالم: "مجده ملأ كل الأرض". لا يوجد هنا حدث محلي لكن حدث كوني، من الماء لا يرى النبي منه إلا أقل القليل. فضلا عن أن هذه الصورة ليست صورة هادئة وثابتة لحالة جلوس أو وقوف يمكن احتوائها بنظرة العين أو بنظرة واحدة، إنما كل شيء في حركة مستمرة فالسرافيم (ملائكة النار) ترفرف بأجنحتها وتسمع أصواتها بشكل مستمر وهي تردد: "قدوس، قدوس، قدوس". فاهتزت أسس أركان الهيكل وامتلأ الهيكل بالدخان (من السرافيم أو من المذبح). هذه الصورة العظيمة تثير كل حواس النبي، فهو يرى بعيني روحه جيش السماء، ويسمع أصوات السرافيم بأذنيه، ويتصاعد الدخان إلى أنفه، حتى حاستي التذوق واللمس تعملان عبر جمرة النار التي تمس شفتيه.

ماذا كان أول ما شعر به إشعياء؟ أصيب بدهشة وقال في خوف وفزع: "ويل لي لأني هلكت"، لقد نزل به الخوف الشديد من أن يهلك لثلاثة أسباب: الأول؛ "لأني إنسان نجس الشفتين" (سبب داخلي، شخصي). وأمام الرب القدوس والسامي يشعر النبي بنجاسته خاصة نجاسة شفتيه الشفتين اللتين يحتاجهما من أجل

---

[1] التجلي الإلهي في اليهودية؛ وهي الصورة التي يتجلى فيها الرب.

تبليغ كلام الرب. الثاني؛ "أسكن وسط قوم دنسي الشفاه" (سبب اجتماعي، خارجي). الثالث؛ "لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود" (سبب ميتافايزيقي، رباني)، "لأن الإنسان الذي لا يراني لا يعيش" (الخروج ٣٣: ٢٠). فكيف يستطيع الإنسان الصغير النجس والمذنب، أن يتصل بالرب السامي والقدوس والنقي، أن يكون في حضرته ويسمع كلامه وينفذ ما يكلفه به؟

ولكي يستطيع إشعياء قبول المهمة كانت هناك حاجة لتطهيره وجعله مختلفًا عن بقية البشر. إن إدراك إشعياء لنجاسته قد جعله مختلفًا عن بقية أبناء جيله. كما يشير الاتصال الجسدي بجمرة النار إلى أمرين: الأول؛ المصدر الإلهي للكلام الخارج من فم النبي. الثاني؛ تطهر إشعياء. فإمكانية كلام الرب مع الإنسان غير مرتبطة بالإنسان إنما بالرب؛ فالرب السامي يستطيع التجلي للإنسان الصغير والنجس إذا أراد.

وبعد أن يشعر إشعياء بالاتصال الإلهي ويسمع سؤال الرب: "من أُرسل ومن يذهب من أجلنا؟" لم يكن في مقدوره الرفض. فقد تم تأهيله للمهمة بواسطة الرب نفسه، لذلك لا يتردد فيقول: "ها أنا أرسلني!". إنه النبي الوحيد المستعد للقيام بالمهمة على الفور، غير أن هذا الرد الإيجابي لا ينبع من التفاخر والتقدير الذاتي الزائد. فليس هناك نبي يطلب التواضع مثل إشعياء؛ فالتفاخر هو رأس كل خطيئة، إنما رده الإيجابي نابع من منطلق الرغبة في التواضع. فهو لم يظن مثل موسى من قبله وإرميا من بعده أنه مناسب للمهمة النبوية فقال: "ويلٌ لي لأني هلكت"، لكن بعد الاتصال بجمرة النار شعر بكل كيانه: "تكلم الرب، فمن لا يتنبأ؟" (عاموس).

لن يجد من يظن أن الإصحاح السادس ليس نبوءة إشعياء الأولى؛ أي غرابة في الكلمات "ها أنا أرسلني"، فقد كان إشعياء مبعوث الرب من قبل. ويمكننا أيضًا أن

نضيف مفسرين أن مقولة "ها أنا أرسلني" لم تأت من منطلق الثقة الزائدة في النفس إنما من منطلق إلغاء شخصية النبي. فتردُّد موسى وإرميا أمر محتمل لأن مفهوم الربوبية عندهما كان أكثر إنسانية منه عند إشعياء. فقد سمحا لأنفسهما بمجادلة الرب. ولا نجد في أي موضع في سفر إشعياء هذا الجدال بين النبي والرب؛ إنما يدل تردد موسى وإرميا على القرب الشديد الذي شعرا به تجاه الرب. أما إشعياء فيشعر بالبعد ويؤكد على الهوة القائمة بين الإنسان والرب؛ سمو الرب في مقابل ضآلة الإنسان وضعفه ونجاسته. إن شخصية النبي ملغية لا قيمة لها في مقابل كلام الرب. لذلك فإن تعبير "ها أنا أرسلني" إنما هو تعبير عن الإلغاء التام لشخصيته. وإن كان قد كلف بمهمة والرب اختاره فسوف يذهب دون أي تردد لأنه ليس سوى أداة في يد الرب، مهما كان مصيره.

إن وصف التكليف يُظهر على الفور الصفات الفنية لإشعياء كنبي فنان وشاعر يتمتع بمشاعر يقظة، وبخيال خصب، وبرؤى سامية مليئة بالحياة والحركة والصور والأصوات.

ويحتوي القسم الثاني من الإصحاح السادس على مضمون مهمة النبي ويشير باختصار إلى ثلاثة موضوعات رئيسية في نبوءته:

١. وصف الحالة الأخلاقية والدينية للشعب؛ فالشعب أعمى وأصم، ثقيل السمع، ضعيف البصر، قاسي القلب، لا يدرك ما ينتظره ولا يفهم توبيخ الأنبياء. بحسب هذا التفسير فالفقرتان التاسعة والعاشرة ليستا أوامر إنما وصف للواقع بأسلوب ساخر فيقول إشعياء: "اسمعوا سمعًا ولكن لا تفهموا"، مثلما قال عاموس: "تعالوا إلى بيت إيل وارتكبوا المعاصي. وأقبلوا إلى الجلجال وكثروا ذنوبكم" (عاموس ٤: ٤). لكن من يمكن تفسير ذلك بالواقع الحقيقي لأنهم أكثروا من

ارتكاب المعاصي، ولم يعد في الإمكان إصلاح أحوالهم؛ فقسوة قلوبهم وبلادة مشاعرهم هي العقاب على أخطائهم. فنجد في عدة مواضع في العهد القديم فكرة أن الرب يمنع المذنب من التوبة عقابًا له على خطاياه السابقة (كما حدث مع فرعون ملك مصر).

٢. رؤيا السبي والخراب. إلى أي حد ستستمر بلادة المشاعر وقسوة القلب؟ حتى يحل البلاء "إلى أن تصبح المدن خربة مهجورة، والبيوت خالية من الرجال، والحقول خرابًا مقفرًا". فحجم الخطيئة كبير للدرجة التي لا يمكن العفو عنها ومغفرتها، كقول عاموس: "من أجل ذنوب إسرائيل الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه". (وتعتبر بلادة مشاعر الشعب نقيضًا ليقظة مشاعر النبي).

٣. فكرة البقية. لكن العقاب لن يؤدي إلى القضاء على الشعب وفنائه كله، لأن الجذع الذي سيبقى في الأرض سينبت فروعًا جديدة "كالبطمة والبلوطة التي إن قطعت يبقى ساقها قائمًا، هكذا يبقى ساقها زرعًا مقدسًا". فيوصف الشعب كما لو سقطت أوراقه الذابلة وبقي عاريًا في فصل الصيف، لكن الأوراق الجديدة النضرة سوف تنبت في فصل الربيع.

هكذا تشير رؤيا التكليف إلى مضامين أساسية في نبوءة إشعياء: قدسية الرب، نجاسة الإنسان، حالة الشعب، التوبيخ، البلاء، فكرة البقية. كما تتضح كذلك طباع النبي وخصاله الفنية والنبوءية واستعداده لقبول التكليف.

مفهوم الألوهية في أقوال إشعياء

في رؤية التكليف ينادي السرافيم قائلين: "قدوس، قدوس، قدوس رب الجنود مجده مِلء كل الأرض". إذن فالصفة الأولى للرب هي القداسة، فما معنى هذه

القداسة؟ الشيء المقدس له صفتان رئيسيتان: الأولى؛ إنه يتميز ويختلف عن الأشياء الأخرى العادية العلمانية. الثانية، إنه يرتبط بالإله؛ فيوم السبت على سبيل المثال يوم مقدس لأنه يختلف عن بقية الأيام في الأغراض المخصص لها، وفي أنه يرتبط بالرب. كذلك يختلف الإنسان المقدس عن سائر المخلوقات فهو يتنازل عن جميع ملذَّات الحياة ويكون كل عمله من أجل الله. وعندما يطلق إشعياء على الرب اسم "قدوس" فإنه يقصد بذلك اختلافه في جوهره عن أي شيء آخر، فهو ليس أحد الأشياء أو العناصر الطبيعية وليس بإنسان، إنما يسمو فوق الطبيعة والإنسان. وسبق أن رأينا عند هوشع أن مفهوم الألوهية به صفات بشرية، أما عند إشعياء فالرب متعالٍ يسمو فوق الإنسان والعالم. وهو أيضًا "رب الجنود"، أي؛ رب السماء وجيش السماء يخدمه؛ لذلك فإن "مجده ملء كل الأرض". إن إشعياء يؤكد على قداسة وسمو وعظمة وقوة ورقي الرب في مقابل ضعف ونجاسة وصغر وخطيئة الإنسان.

يسمي إشعياء الرب "قدوس إسرائيل"؛ الرب القدوس الخاص بإسرائيل. وهكذا يصبح شعب إسرائيل أيضًا شعبًا مقدَّسًا؛ لأنه مختلف تم اختياره من بين الشعوب، وهو يرتبط بالرب بعلاقة خاصة. كما أن الرب هو "عزيز إسرائيل" (١: ٢٤) أي قوة إسرائيل وعظمتها.

ولكون الرب، قدوس إسرائيل، سامٍ ومتعالٍ، لذلك فالنبي يعتبر تكبُّر الإنسان وتعاليه خطيئة في حق الرب: "فإن للرب القدير يومًا يوضع فيه كل متعظم ومتكبر ومتغطرس" (٢: ١٢)، "ويتعظم الرب وحده في ذلك اليوم" (٢: ١١، ١٧)؛ "الرب الكريم يُمجَّد بالعدل، ويُبدِي الرب القدوس قداسته بالبر" (٥: ١٦).

يتقدَّس الرب ويتعالى من خلال أعمال بره وعدله في العالم. وتعتبر القداسة هنا صفة أخلاقية.

يشمل مفهوم القداسة أيضًا التنوع بين الخوف والخشية. فبما أن الرب قدوسٌ متعال فهو يثير الخوف؛ فإشعياء في رؤية القداسة يرتعد من منظر الرب ويقول: "ويل لي إني هلكت ... لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود". ويقول كذلك: "ادخل إلى الصخرة واختبيء في التراب من أمام هيبة الرب ومن بهاء عظمته". ويتكرر هذا التعبير ثلاث مرات في الإصحاح الثاني (١٠، ١٩، ٢١). فالإنسان ليس له أي قيمة أمام الرب: "كفوا عن الاتكال على الإنسان المعرض للموت، فأي قيمة له؟" (٢٢).

الخلفية السياسية لنبوءات إشعياء

الحدثان الأكثر أهمية في الخلفية السياسية لنبوءات إشعياء هي صعود مملكة آشور واستيلائها على بلدان البحر المتوسط، من ناحية، وتدهور أحوال مملكتي أفرايم ويهوذا من ناحية أخرى. فعندما بدأ إشعياء التنبوء كانتا هاتان المملكتان تتمتعان بازدهار سياسي لم تشهداه منذ عصر داود وسليمان؛ إلا أنه في نهاية أيام إشعياء لم يعد هناك وجود لمملكة السامرة، وأصبحت مملكة يهوذا مملكة صغيرة وضعيفة مستعبدة لآشور. نجحت يهوذا في الحفاظ على وجودها؛ حيث نجت عبر استعبادها لآشور طواعية، ونجت بأعجوبة في عهد حزقيا.

لم يكن الخضوع لآشور مجرد حقيقة سياسية، فقد كان لذلك مخاطر روحانية كبيرة. فصعود آشور أصاب إسرائيل بالدهشة. فكيف يمكنهم تفسير تلك الظاهرة الغريبة أن شعبًا وثنيًا قاسيًا وشريرًا يحقق هذا النجاح الكبير؟ فهم منذ خروج إسرائيل من مصر لم يقابلوا أو يتعاملوا مع شعب وثني بهذه القوة. فالكنعانيون

والمؤابيون والأدوميون والعمونيون وحتى الفلسطينيون لم يستطيعوا التفوق على إسرائيل في القوة. فواجه بنو إسرائيل ضغوطهم بل وانتصروا عليهم، لكن تظهر أمامهم فجأة قوة عظمى غريبة وعظيمة، لم يعرفوا مثلها من قبل، لا تستطيع قوة مجابهتها، وتتساقط الممالك أمامها الواحدة تلو الأخرى دون أن تجد من يخلصها. فكيف تُفسَّر هذه الحقيقة المفزعة من الناحية الدينية؟ هل آلهة آشور أقوى من إله إسرائيل، وتستحق العبادة؟ لو تم قبول هذه النتيجة لوضع ذلك نهاية لوجود الشعب الإسرائيلي. لقد كان هناك بالطبع الكثيرون ممن فكَّروا بهذا الشكل، ولولا الأنبياء لسيطرت الحضارة والديانة الآشورية على يهوذا، ولما اختلف مصير يهوذا عن مصير سائر الشعوب القديمة.

لقد نجح الأنبياء بالفعل في إنقاذ وجود شعب إسرائيل من خلال رؤاهم التي فسرت تعاظم آشور (ومن بعدها بابل) تفسيرًا مهمًا للغاية. فآشور لم يتعاظم شأنه بفضل آلهته إنما بفضل إله إسرائيل الذي هو إله كل الشعوب بما فيهم آشور. وكل الأحداث التاريخية تخطط لها قوة عليا وحيدة وهي أيضًا سببها ألا وهي إله إسرائيل. وإن كانت آشور قد أصبحت قوة عالمية عظمى فإنما ذلك بإرادة الرب، لأن الرب يحتاج أحد الشعوب كي يعاقب سائر شعوب العالم بما فيهم إسرائيل. ومن الممكن أن يكون عقاب الشعب عبر الكوارث الطبيعية بشكل مباشر (مثل "ضربات مصر")، لكن الطريقة الأساسية الأخرى التي يختارها الرب هي: ضرب الشعوب بواسطة أحد الشعوب التي يختارها. وبالتأكيد يجب أن يكون هذا الشعب قويًا وقاسيًا قادرًا على ضرب الشعوب الأخرى. وآشور نموذج لهذا الشعب، أداة يضرب بها الرب شعوب العالم وإسرائيل.

وجذور هذه الرؤية التاريخية موجودة في أقوال عاموس، لكنها حصلت عند إشعياء على تعبير أوضح وصريح: "ويل للآشوريين قضيب غضبي، الحاملين في أيديهم عصا سخطي. أُرسلهم ضد أمة منافقة وأوصيهم على شعبي الذي غضبت عليه" (١٠: ٥-٦). ويتم التأكيد على هذه الحقيقة في كل نبوءة عن آشور، وهي أن آشور يصنع ما كلفه به الرب: "فرفع راية لأمم بعيدة، ويصفر لمن في أطراف الأرض، فيقبلون مسرعين" (٥: ٢٦). فالرب هو الذي ينادي آشور. يقول إشعياء لآحاز: "وسيجلب الرب عليك وعلى شعبك ... ملك آشور" (٧: ١٧). "في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة عبر النهر، بملك آشور" (٢٠). إذن فآشور موس مستأجرة في يد الرب، قضيب غضبه، وعصا سخطه.

بالطبع لا يحظى آشور (أو بابل) بالعظمة والقوة بسبب أعمالهم الطيبة وبرِّهم، على العكس؛ فالرب في حاجة إلى قضيب قوي يفوق في قوته وليس في أخلاقه كل الشعوب، لكن نظرًا لكون هذا الشعب شريرًا ووثنيًا لا يدرك أنه مجرد رسول للرب فلا يكتفي بمهمته وتكليفه إنما يبالغ في أفعاله السيئة فسيُطبَّق عليه هو أيضًا نفس القانون، وفي النهاية سيتم عقابه وسيضرب ويضيع بواسطة شعب قوي آخر مكلف بنفس المهمة.

ارتكب آشور إثمين عظيمين: الأول، القسوة المفرطة. فالرب أرسله ليعاقب ويضرب لكن "لا يفتكر هكذا، ولا يحسب قلبه هكذا بل في قلبه أن يبيد أُممًا ليست بالقليلة" (١٠: ٧). الثاني، غروره وتفاخره. فهو يظن أنه قد تعاظم بقوته وحكمته "لأنه قال: بقدرة يدي صنعت، وبحكمتي لأني فهيم" (١٣). ويتساءل النبي: "أتزهو الفأس على من يقطع بها، أم يتعظم المنشار على من ينشر به؟" (١٥). فآشور ليس سوى أدوات عمل، فأس ومنشار، يصنع بهما الرب صُنعه التاريخي.

لذلك سيأمر الرب: "سيعاقب ملك آشور على غرور قلبه وتشامخ عينيه" (١٢). وبعد أن ينتهي آشور من مهمته ويضرب إسرائيل وسائر الشعوب الآثمين، سيوجه إليه الرب سهام غضبه، وسيفوز من نجا من إسرائيل بالخلاص.

إن التاريخ وفقًا لرؤية إشعياء وأنبياء إسرائيل عامة ليس عبارة عن سلسلة من الأحداث التي تحدث مصادفة إنما تطور ممنهج ومخطط بإشراف الرب. ومراحل التطور التاريخي في عصر إشعياء هي كالتالي:

١. شعب إسرائيل مذنب ويقرر الرب عقابه.

٢. الرب يعظم آشور ويستخدمه كقضيب غضب من أجل ضرب إسرائيل.

٣. آشور يتخطى صلاحياته ويخطيء، وفي النهاية يستحق هو نفسه ضربة كبرى.

٤. يخلص الرب بقية إسرائيل الذين يعودون إلى الرب، ويجلب البلاء على آشور.

ماذا يجب على إسرائيل أن تصنع الآن وقت تعاظم آشور؟ كيف يجب أن تكون سياسة مملكة يهوذا الخارجية في تلك الأزمة والضائقة التي يهدد فيها آشور وجود إسرائيل؟

لقد قررت مملكة السامرة محاربة آشور بالتحالف مع أرام دمشق. ويقرر آحاز التحالف مع آشور والاستعباد له. فما هو السبيل الصحيح؟ يقول إشعياء: لا هذا ولا ذاك. وسبب هذا الموقف ليس سياسيًا إنما ديني وتاريخي. فقطع عهد مع آشور سيؤدي إلى الاستعباد السياسي والروحي والديني، ومن بعده ضياع إسرائيل. كما أن محاربة آشور لن تفيد لأن آشور هو رسول الرب، ولا جدوى من محاربته، أو

التحالف ضده. فما هو الطريق العملي الذي يجب اتباعه؟ العودة إلى الرب والإيمان به والثقة فيه، حينها سيقلِّص الرب من الضربة ويضمِّد الجراح وينقذ البقية ويحمي أورشليم. وعلى إسرائيل أن تتلقى ضرباتها فهي لن تنجو بالحرب والتحالفات، ولا بالخيل والفرسان إنما "بالرجوع والسكون تخلصون" (٣٠: ١٥). "فتفدى صهيون بالحق، وتائبوها بالبر" (١: ٢٧).

غير أن رؤية إشعياء "السياسية" لم يعتبرها آحاز ورؤساؤه حلًا سياسيًا عمليًا، لكن أقوال روحانية لا تقوم عليها الدول. هكذا بدت أقوال عاموس أيضًا في نظر أمصيا، كاهن بيت إيل، وأقوال هوشع في نظر ملوك ورؤساء السامرة. لم يكن الأنبياء دبلوماسيين خاضعين لنظام المملكة، إنما روحانيون، مثاليون، آمنوا بأن وجود شعب إسرائيل مرتبط فقط بقوته الأخلاقية والدينية، وبعقيدته وبرِّه.

إشعياء وآحاز

"وفي أيام آحاز بن يوثام بن عزيا ملك يهوذا صعد رصين ملك أرام مع فقح بن رمليا ملك إسرائيل على أورشليم لمحاربتها" (٧: ١). لقد صنعت أزمة أرام-دمشق وإسرائيل المشتركة من الخصوم شركاء، فتحالف رصين ملك أرام دمشق مع فقح بن رمليا من أجل محاربة آشور (٧٣٤ ق.م). وأرادا استمالة يهوذا إليهما بالقوة (الملوك الثاني ١٥: ٣٧). ويبدو أن يهوذا الصغيرة لن تستطيع الصمود أمام هاتين المملكتين القويتين. فطردوا رجال يهوذا من إيلات وعادت إيلات إلى الأدوميين (١٦: ٦). وضرب الأدوميون والإسرائيليون يهوذا وأسروا منها عشرات الآلاف من الجنود (أخبار الأيام الثاني ٢٨: ٥-٦). وبفضل النبي عوديد فقط لم يصبح الأسرى عبيدًا لكن أُعيدوا إلى أريحا. والفلسطينيون أيضًا أغاروا على يهوذا في السهل والنقب واستولوا على مدنٍ وأخذوا أسرى. وأصبح وضع آحاز سيئًا

فاضطر إلى الخضوع لملك آشور تغلث فلاسر الثالث (٧٤٥ –٧٢٧ ق.م) وإرسال الكثير من الهدايا إليه. ولم يكن خضوع آحاز سياسيًا فقط إنما دينيٌ وثقافيٌ أيضًا. فقد أدخل إلى أورشليم ويهوذا عبادة الأوصنام الآشورية والأرامية. غير أن أورشليم نجت من مصير دمشق "وصعد ملك آشور إلى دمشق وأخذها وسباها إل قير وقتل رصين" (الملوك الثاني ١٦: ٩). واحتل آشور دمشق عام ٧٣٢ ق.م بعد سنتين من إغارة أرام وإسرائيل على يهوذا. وكان مصير إسرائيل أيضًا سيئًا للغاية. وعلى الرغم من عدم سقوط السامرة بعد؛ إلا أن أجزاء كبيرة منها قد انتزعت منها: في عصر فقح بن رمليا "هاجم تغلث فلاسر ملك آشور البلاد واستولى على مدن عيون، وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسبى أهلها إلى آشور (الملوك الثاني ١٥: ٢٩). وكان هذا أول سبي لإسرائيل. وقُتل فقح بن رمليا على يد هوشع بن أيلة آخر ملوك مملكة إسرائيل. وعندما تولى شلمنأصر الخامس الحكم في آشور (٧٢٧ — ٧٢٢ ق.م) حاول هوشع بن أيلة التمرد على آشور بمساعدة مصر؛ فقام ملك آشور بحصار السامرة التي صمدت لثلاث سنوات لكنها سقطت في النهاية على يد سرجون الثاني (٧٢٢ — ٧٠٥ ق.م.

إذن، ما الدور الذي لعبه إشعياء في الأحداث السياسية التي شهدها تلك الفترة؟ رفض تمامًا "السياسة الآشورية" لآحاز؛ فيهوذا عليها أن تثق في الرب، حينها ستنجو من الخراب. وعلى الرغم من أن البلاء سيترل بها إلا أن المؤمنين سينجون. ويشجع النبي آحاز على معارضته تحالف أرام — السامرة لكنه لا يؤيد لسبب ما تحالف آحاز مع آشور ويطالب بالحياد التام.

ويحكي الإصحاح السابع عن لقاء إشعياء مع آحاز؛ فالنبي يذهب إلى الملك بأمر الرب. "فقال الرب لإشعياء: امض لملاقاة آحاز" (٣)، وهذا التكليف يأتي في نبرة حربية. ويأمره إشعياء باصطحاب ابنه شآر ياشوب معه الذي يرمز اسمه إلى وجهة نظر إشعياء حول "بقية"؛ فأورشليم يجب أن تعاني لكن البقية ستنجو. ويصعد آحاز إلى طرف البركة العليا في طريق حقل القصار (ليتفقد على ما يبدو تزويد المدينة بالمياه)، وهناك يقول له إشعياء: "احترز واهدأ ولا تخف ولا يضعف قلبك من أجل ذنبي هاتين الشعلتين المدخنتين" (٤) أي لا تنضم إلى أرام والسامرة، فملوكهما غير قادرين على إشعال النار، لكن الدخان فقط مثل الشعلتين المدخنتين، اللتين لا تشعلان نارًا. فقد أرادا أرام وإسرائيل اقتحام أورشليم وقتل آحاز وتولية ابن طبئيل. فمن كان هذا الرجل؟ هناك ثلاثة احتمالات: الأول؛ أنه كان رئيس لجماعة في أورشليم تؤيد فكرة التحالف بين أرام والسامرة ضد آحاز. والثاني؛ أنه كان موظفًا كبيرًا في مملكة إسرائيل وكان سيتولى الحكم في يهوذا بدلًا من آحاز. الثالث؛ أنه لقب فقح بن رمليا.

ويقول إشعياء عن هذا المخطط بأسلوبه الصارم: "لا تقوم! لا تكون!" (٧). فلن يتغلب رصين وفقح على أورشليم. فرصين هو ملك دمشق فقط، وفي غضون عدة سنوات سيتحطم أفرايم وستبقى يهوذا. وعدد السنوات المحدد لخراب أفرايم — بعد خمس وستين سنة — لا يتفق مع الواقع. فبحسب التفسير التقليدي مرَّت خمس وستون سنة منذ نبوءة عاموس بالخراب وحتى سقوط السامرة. ويفسر قويفمان ذلك ب"ستة وخمسة" أي أحد عشر سنة وهذا يناسب عدد السنوات التي مرت منذ تلك النبوءة عام ٧٣٣ ق.م وحتى خراب السامرة عام ٧٢٢ ق.م.

ليس هناك خلاف فيما يبدو بين إشعياء وآحاز فكلاهما يعارض تحالف أرام-السامرة، لكن الاختلاف بينهما كبير وأساسي. فآحاز اتخذ موقفه لأسباب سياسية وأمنية؛ فهو يعتقد أن قوة آشور تفوق قوة الآراميين والإسرائيليين لذلك قرر التوجه إلى آشور. أما إشعياء فيعارض سياسة آحاز المؤيدة لآشور بشكل لا يقل عن معارضته السياسة المؤيدة للأراميين. ولا يوجد هنا أي تعارض بين طريق سياسي وطريق سياسي آخر، لكن اختلاف بين وجهتي نظر: السياسة والمثالية الدينية. فمعارضة إشعياء ليست من أجل أسباب سياسية أو عسكرية، لكن من منطلق وجهة نظره التاريخية الدينية. فآشور لن يساعد يهوذا، على العكس، فمهمة آشور هي ضرب يهوذا وعقابها على ذنوبها وجرائمها. لذلك لا يريد آحاز أن يطلب إشارة من الرب لأنه لا يرغب في إدخال العنصر الديني في المشكلة السياسية: "لا أطلب ولا أجرب الرب" (١٢). وعلى أساس هذا التفسير يمكننا تفهم غضب إشعياء من آحاز؛ لأن إشعياء أراد أن يكون العنصر الديني هو المحدِّد لسياسة يهوذا وليس المبررات السياسية. فآحاز يمثل الناحية السياسية العملية الواقعية، وإشعياء يمثل الناحية الدينية الروحية. كما يرى إشعياء أن وجهة نظره عملية هي أيضًا وأنه لا سبيل آخر أمام يهوذا على المدى البعيد، فبهذه الطريقة فقط ستنجو، وإذا بقيت حيادية ووثقت في الرب وعبدته بتواضع مثل "مياه شيلوه الجارية بسكوت" (٨: ٦) حينها سيرحم الرب يهوذا الصغيرة، الفقيرة والمدمرة، وسيخرج من البقية القليلة يهوذا قوية وعظيمة.

أيام حصار سنحريب

بعد موت سرجون الثاني، ملك آشور، وتولي سنحريب (٧٠٥ ق.م) تجددت آمال الشعوب المستعبدة لآشور في الحصول على الحرية، وقام المتمردون، ومن

بينهم حزقيا ملك يهوذا؛ بإقامة تحالف كبير فيما بينهم، ووعدت مصر بتقديم المساعدة. وبُعث إلى مصر بوفد خاص ليعقد معها تحالفًا سياسيًا وعسكريًا ضد آشور، كما أيد مردوخ بلادان ملك بابل حركة التمرد تلك (٣٩).

لكن كما عارض إشعياء تحالف آحاز–آشور، فإنه يعارض الأن أيضًا وبشدة تحالف حزقيا—مصر—بابل. ولم تكن تلك المعارضة أيضًا لأسباب سياسية وعسكرية، ومن منطلق تقدير قوة سنحريب في مقابل قوة يهوذا ومصر. فالرب يريد صعود آشور وسلطانه، لذلك لا داع لمحاولة قتاله.

إن الشعب لا يفهم الأحداث التاريخية وبصره مشوش، وكذلك لا يدرك الحكماء أيضًا أن السبيل الوحيد هو الثقة في الرب. فهم يعملون "في ظلمة أعمالهم" (٢٩: ١٥)، ويتآمرون سرًا، ويعدون خططًا حمقاء بتحالفات سرية، فيصرخ فيهم النبي: "ويلٌ للبنين المتمردين الذين ينصاعون لمشورة لم تصدر عني، ويبرمون عهدًا ليس من روحي، لتضيفوا خطيئة إلى خطيئة، الذين يتأهبون للانحدار إلى مصر من غير أن يلجأوا إلى مشورتي" (٣٠: ١–٢). فمصر لن تساعد إسرائيل لأن المصريين "شعب لا جدوى منه"، "القصبة المرضوضة"، "رهب الجلوس" [1] (٣٠: ٥–٧). فلا يجب الاعتماد على عون مصر "ليس المصريون آلهة بل بشرًا، وخيولهم مجرد أجساد وليست أرواحًا" (٣١: ٣). "ويلٌ للمنحدرين إلى مصر طلبًا للعون. المتوكلين على الخيل الواثقين بكثرة المركبات وبأس الفرسان من غير أن يلفتوا إلى قدوس إسرائيل أو يطلبوا مشورة الرب" (٣١: ١–٢). حتى وإن

[1] في ترجمة التفسير التطبيقي للكتاب المقدس وردت "التنين العاصي"، وتفسير الكلمة: "رهب" كانت في الأساطير القديمة أنثى وحش بحري يرتبط بلويثان، وكان اسمًا يرتبط بمصر حيث فرس النهر، الذي ربما كان شبيهًا برهب، يجلس على شاطيء النيل لا يفعل شيئًا. (ص ١٤١٩).

أظهرت مصر النوايا الطيبة وهبَّت لمساعدة يهوذا فلن تفيد مساعدها، لأن إشعياء لا يثق في خيول ولا عربات ولا فرسان مصر. فما هو السبيل الذي يعرضه على يهوذا؟ "إن خلاصكم مرهون بالتوبة والركون إليَّ، وقوتكم في الطمأنينة والثقة" (٣٠: ١٥). والطريق العملي الصحيح ليس القيام بأي عمل، لكن باللا عمل؛ فإشعياء يرفض أي نشاط سياسي وعسكري لحزقيا ورؤسائه. لكن الشعب لا يفهم مثل هذه السياسة المثالية ويسلك طريقًا آخر: التمرد ضد آشور، والتحالف مع مصر، والاستعدادات العسكرية، والثقة في الخيل والفرسان. ويهزأ النبي بهم في مرارة: "وقلتم: لا بل نهرب على الخيل. أنتم حقًا تهربون، وقلتم سنركب على متون جياد سريعة، لهذا فإن مطارديكم يسرعون في تعقبكم" (٣٠: ١٦).

سرعان ما ظهر صدق إشعياء، فقام سنحريب بطرد مردوخ بلادان، وصعد من آشور لإخضاع الملوك الذين تمردوا عليه فضرب جيش مصر بقيادة ترهاقة ملك كوش (الملوك الثاني ١٩: ٩، إشعياء ٣٧: ٩). ودفع حزقيا ضرائب باهظة (الملوك الثاني ١٨: ١٤)، وزاد اقتراب جيش آشور، وسقطت جميع مدن يهوذا في يد سنحريب وضُرب الحصار على أورشليم.

تحتوي نبوءات إشعياء على الكثير من الوصف للغزو العسكري الآشوري ولحصار أورشليم؛ فيصف إشعياء في الإصحاح الخامس خفَّة حركة الجيش الآشوري، واستعداده وصرامته وتنظيمه وسرعته وتجهيزاته وتفوقه وقوته. وفي الإصحاح العاشر نجد وصفًا لحملة سنحريب واقترابه السريع من أورشليم، وفي الإصحاح التاسع والعشرين وصف للحصار نفسه.

لكن على الرغم من معارضة إشعياء التمرد والتحالف مع مصر إلا أنه كان واثقًا من نجاة أورشليم من أيدي ملك آشور، وعندما طفح الكيل شجع النبي

حزقيا وشعب يهوذا بترنيمته: "احتقرتك، استهزأت بك العذراء ابنه صهيون"، وبنبوءته بالمعجزة التي ستقذ المدينة: "لذلك هكذا يقول الرب عن ملك آشور لا يدخل هذه المدينة، ولا يرمي هناك سهمًا، ولا يتقدم عليها بترس، ولا يقيم عليها مترسة. في الطريق الذي جاء فيه يرجع، وإلى هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي" (٣٧: ٣٣-٣٥).

لماذا كان إشعياء واثقًا من نجاة أورشليم (بخلاف إرميا، الذي تنبأ بالخراب فقط أثناء الحصار البابلي)؟ ذلك لسببين: الأول؛ أن حال يهوذا في عصر حزقيا كان أفضل بكثير منه في عصر يهوياكين، وصدقيا. وبرغم أن إشعياء أحصى خطايا وذنوبا كثيرة إلا أن حزقيا كان واحدًا من ملوك يهوذا الأبرار جدًا، وليس من المعقول أن تخرب أورشليم في عصر ملكٍ بار صنع الكثير من أجل صلاحها وطهارتها. لكن الخراب سوف يأتي في المستقبل وليس في عصره. "فقال إشعياء لحزقيا: اسمع قول رب الجنود. هوذا تأتي أيام يُحمل فيها كل ما في بيتك، وما خزَّنه أباؤك إلى هذا اليوم، لا يترك شيء. يقول الرب ... فقال حزقيا لإشعياء: جيد هو قول الرب الذي تكلمت به. وقال: فإنه يكون سلام وأمان في أيامي" (٣٩: ٥-٨). ويكتفي حزقيا بالحاضر، أما المستقبل البعيد فليس في مجال اهتمامه. فالنبي يرى القادم، لكنه مؤمن وواثق بأن حزقيا سينجو وأن المدينة لن تخرب في أيامه.

السبب الآخر لثقة إشعياء هو سلوك آشور نفسه الذي بالغ في القسوة والغرور. وكنا قد وقفنا على خطايا آشور المذكورة في الإصحاح العاشر (الرغبة في التدمير بدلًا من العقاب وتفاخر آشور وتباهيه بقوته). وفي رده على حزقيا يستنكر النبي غرور ملك آشور الشديد: "مَن عيَّرت وجدَّفت، وعلى من علَّيت صوتًا، وقد

رفعت إلى العلاء عينيك؟ على قدوس إسرائيل. عن يد عبيدك عيرت السيد، وقلت بكثرة مركباتي قد صعدت إلى علو الجبال، عقاب لبنان ..." (٣٧: ٢٣-٢٤). ليس فقط أن آشور يعزو نجاحه إلى قوته (مثلما ورد في ١٠: ١٣)، إنما يهين إسرائيل وإلهها (مثل جليات الفلسطيني). لذلك يبدأ رد النبي بالسخرية والاستهزاء، وهو الرد المناسب على الكلام المغرور لملك آشور، وينتهي بالنبوءة بسقوط آشور ونجاة بقية يهوذا. لقد تنبأ إشعياء بسقوط آشور ليس لأن طريق أورشليم هو السليم، ولا لأن حزقيا صدق في التمرد على آشور أو في التوجه إلى مصر إنما لأن آشور أخطأ وأذنب والرب لا يرغب في إعطاء جبل صهيون لملك آشور. ثم يأتي الخلاص فجأة بمعجزة (٢٩: ٥). "ويسقط آشور بسيف غير رجل، وسيف غير إنسان يأكله" (٣١: ٨). وينكسر جيش آشور على جبال يهوذا (١٤: ٢٥)، ويصبح "كالغبار الدقيق، كالعصافة المارة" (٢٩: ٥).

جميع هذه الأحداث العاصفة تتماشى مع المخطط الإلهي العالمي: "هذا هو القضاء المقضي به على كل الأرض، وهذه هي اليد الممدودة على كل الأمم، فإن رب الجنود قد قضي فمن يبطل؟ ويده هي الممدودة فمن يردها؟" (١٤: ٢٦-٢٧).

علاقة إشعياء بمصر

رفض إشعياء أي تحالف سياسي ليهوذا مع دولة أجنبية عظمى، لكن معارضته للتحالف مع مصر تنبع من منطلق نظرة سلبية خاصة إلى مصر فقد عرف جيدًا طبيعة المصريين وقدراتهم واستعدادهم لتقديم المساعدة. فعاد وأكد في نبوءته على الوفد المسافر إلى مصر أن مصر لن تستطيع إفادة إسرائيل فهو يسمي المصريين "شعب لا ينفعهم" (٣٠: ٥). وأن المصريين سيجلبون عليهم الخزي والعار بدلًا

من المساعدة والخلاص: " ... ليس للمعونة ولا للمنفعة، بل للخجل والخزي ... فإن مصر تعين باطلًا وعبثًا لذلك دعوتها رهب الجلوس" (٣٠: ٤-٧). فالمصريون يتميزون بغرورهم وتفاخرهم، لكنهم يحبون البطالة، والجلوس بلا عمل، من أجل تبرير غطرستهم، وهو ما يصف به ربشاقي الآشوري مصر "أنت تتكل على عكاز هذه القصبة المرضوضة مصر، التي تثقب كف كل من يتوكأ عليها" (٣٦: ٦).

لقد حمل إشعياء بشدة على سقوط مصر وخضوعها (الإصحاح ١٩)، لكنه لم يتنبأ لها بالخراب التام بل العكس فمصر ستعود إلى الرب وستصبح في آخر الزمان عضوًا في تحالف ثلاثي مكون من آشور ومصر وإسرائيل (١٩: ٢٣-٢٤). وتختتم النبوءة على مصر بالفقرة: "مبارك شعبي مصر، وصنعة يدي آشور، وميراثي إسرائيل". كم كانت نفس إشعياء النبي اليهودي عظيمة فاستطاع التنبوء بأقوال مواساة وأمل لآشور ومصر.

خطايا إسرائيل في توبيخ إشعياء

١. هَجْر الرب وشريعته: "ربَّيت بنين ونشَّأتهم أما هم فعصوا علي" (١: ٢). يظهر هنا تأثير ترنيمة "أصغوا" حتى في أسلوب افتتاحية الإصحاح ("أصغي أيتها السماء فأتكلم ولتنصت الأرض إلى أقوال فمي"[١]؛ "اسمعي أيتها السماء وأصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم"[٢]؛ وكذلك في فكرة "فسمَّن يشورون ورفس"[٣]. "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين! تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتَّدوا إلى وراء." (إشعياء ١: ٤). "لأنهم رذلوا

[١] التثنية ٣٢: ١

[٢] إشعياء ١: ٢

[٣] التثنية ٣٢: ١٥

شريعة رب الجنود، واستهانوا بكلام قدوس إسرائيل" (٥: ٢٤). "لأنه شعب متمرد، أولاد كذبة، أولاد لم يشاءوا أن يسمعوا شريعة الرب" (٣٠: ٩).

٢. سفك الدماء: "أيديكم ملآنة دمًا" (١: ١٥)، "أما الآن فالقاتلون" (٢١).

٣. تشويه الأحكام، وانتشار الرشاوي، ونهب اليتامى والأرامل (١: ٢٣، ٥: ٧، ٢٣، ١٠: ٢).

٤. خطايا الزعماء: لا يعمل الحكام لصالح الشعب بل يقمعونه وينهبون الفقراء ويظلمونهم: "وأنتم قد أكلتم الكرم، سلْب البائس في بيوتكم، ما لكم تسحقون شعبي، وتطحنون وجوه البائسين" (٣: ١٤-١٥). "أصبح رؤساؤك عصاة وشركاء لصوص، يولعون بالرشوة، ويسعون وراء الهِبات لا يدافعون عن اليتيم، ولا تُرفع إليهم دعوة الأرملة" (١: ٢٣). "آه يا شعبي! إن قادتكم يضلونكم، ويقتادونكم في مسالك منحرفة" (٣: ١٢). "فمرشدو هذا الشعب يضلونه، والمرشدون يبتلعون" (٩: ١٥). وفي التوبيخ الاجتماعي يسير إشعياء على درب عاموس. وعلى الرغم من أن عاموس قد وبخ الأثرياء وتوبيخ إشعياء لكل الشعب إلا أن غضب إشعياء شديد كذلك على حكام الشعب. "الرب يدخل في محاكمة ضد شيوخ شعبه وقادتهم" (٣: ١٤).

٥. الغش في التجارة: "صارت فضتك مزيفة، وخمرك مغشوشة بماء" (١: ٢٢).

٦. نهب البيوت والمزارع (٥: ٨).

٧. ازدهار الثقافة المادية الأجنبية في مقابل انحطاط الثقافة الروحانية: "امتلأت أرضهم فضة وذهبًا، وكنوزهم لا نهاية لها، واكتظت بلادهم بالخيل ومركباتهم لا

تحصى" لكن ماذا كانت نتيجة هذا الثراء والخيل؟ "غضت أرضهم بالأصنام، وعبدوا صنعة أيديهم، وسجدوا لعمل أصابعهم، لذلك ينحط الإنسان، ويذل البشر.." (٢: ٦-٩). وعن عبادة الأصنام بشكل عام: ٢: ٨، ١٨، ٢٠؛ ١٧: ٨، ٢٧: ٩، ٣٠: ٢٢، ٣١: ٧.

٨. خطيئة التفاخر: "لأن بنات صهيون متغطرسات" (٣: ١٦). "فخر سكارى أفرايم" (٢٨: ١). "فيعلم الشعب كله، أفرايم وسكان السامرة القائلون بزهو وكبرياء قلب: قد تساقط اللبن ولكننا سنبني بحجارة منحوتة" (٩: ٩).

٩. التهليل، والسكر والاستهزاء: (٥: ١١-١٢، ١٨-٢٢)، "ولكنكم انهمكتم بالفرح والسرور، وذبح الثيران وتضحية الغنم وأكل اللحم وشرب الخمر قائلين لنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت" (٢٢: ١٣)، خاصة سُكر أفرايم (٢٨: ٧-٨)، والمسهزئون يقولون: "قد أبرمنا عهدًا مع الموت، وعقدنا ميثاقًا مع الهاوية" (٢٨: ١٤-١٥).

١٠. الحرب الأهلية: "كل واحد منهم يأكل لحم أخيه. منسي ضد أفرايم، وأفرايم ضد منسي، ولكنهما يتحدان ضد يهوذا" (٩: ١٩-٢٠).

١١. تبلُّد المشاعر: فالشعب أعمى وأصم لا يريد أن يفهم أقوال الأنبياء وما يحدث في العالم وإسرائيل (٦: ٩-١٠، ٢٩: ٩-١٤).

١٢. عدم الثقة في الرب لكن في القوة المادية من خلال تجهيز الجيوش والتحالف مع مصر (٢٢: ١١، ٣٠: ١-٧، ٣١: ١-٣).

الموقف من العبادة

عبَّر كل من عاموس وهوشع قبل إشعياء عن فكرة أن الرب لا يريد الذبائح لكن الأعمال الطيبة، لكن لم يقدم أي منهما التعبير الشامل والصارم والسامي الذي قدمه إشعياء. فهو لا يتحدث عن الذبائح فقط إنما على أشكال العبادات: الذبائح والصلوات، والأعياد والحج إلى بيت المقدس. فيقول عن الذبائح: "ماذا تجديني كثرة ذبائحكم، يقول الرب. أُتخمت من محرقات كباش وشحم المسمنات، ولا أُسرُّ بدم عجول وخرفان وتيوس" (١: ١١). وعن الصلوات يقول: "وإن أكثرتم الصلاة لا أستجيب، لأن أيديكم مملوءة دمًا" (١: ١٥). فالرب لا يريد أن يستمع إلى صلواتكم (على الرغم من أنه "يسمع الصلاة")، لأن أيديهم امتلأت بالدماء، وعندما يرفعون أكفُّهم فإنه يتجاهلها، لأنه لا يريد أن يرى قطرات الدم التي تقطر من أكفهم. وعن الأعياد يقول: "رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي. صارت عليَّ ثقلًا. مللت حملها" (١: ١٤). ويستخدم النبي أقسى الكلمات في كلامه عن الحج إلى بيت المقدس: "حينما تأتون لتظهروا أمامي. مَن طلب هذا مِن أيديكم أن تدوسوا دُوري" (١: ١٢).

لماذا يرفض الرب كل أعمال الشعب المقدسة، وكل أشكال العبادة التي يريدون التقرب بها إلى الرب؟ الإجابة واضحة: عبادة أهل سدوم الأمة المذنبة والشعب المثقل بالذنوب، وليس هذا عمل غير صالح فقط لا يقرب الإنسان من الرب، إنما أيضًا عمل مكروه: "هو مكرهة لي". فعبادة الرب السليمة التي يريدها هو لا يُعبر عنها في الوصايا التي هي بين الإنسان والمكان، وفي الذبائح، والصلوات والاحتفالات والحج لكن في أعمال أخرى تمامًا؛ في الوصايا بين الإنسان وأخيه.

ويسرد إشعياء عشرة مطالب يطلبها الرب كنوع من الوصايا الأخلاقية العشر: "اغتسلوا، تطهروا، أزيلوا شر أعمالكم من أمام عيني، كُفُّوا عن اقتراف الإثم، وتعلموا الإحسان، انشدوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، دافعوا عن الأرملة" (١: ١٦) (ويجب أن يضاف إلى هذه المطالب الطلب بالتوبة في الفقرة ١٨: "هلمَّ نتحاجج، يقول الرب").

لقد كان من الصعب حقًا استئصال الإيمان الساذج بأن الرب يرغب في الذبائح وفي الصلوات من قلب الشعب؛ وأن عبادة الرب سوف تكفِّر عن الخطايا بين الإنسان وأخيه. فقد أكد كل من عاموس وهوشع وإشعياء وميخا وإرميا على مطالبهم بدين أخلاقي، وبتنفيذ الوصايا بين الإنسان وأخيه، وفي عبادة الرب بقلب نقي ويدين طاهرتين. فضلًا عن تأكيدهم على تغيير المباديء التي أساسها في أقوال عاموس بأن: القيم الأخلاقية بين الإنسان وأخيه أعظم قيمة من الوصايا بين الرب والمكان. فوصايا العبادات ليس لها قيمة في ذاتها، إلا إذا صاحبتها الوصايا الأخلاقية؛ في حين أن للوصايا الأخلاقية قيمة مطلقة لأنها وصايا طيبة ومطلوبة سواء أكان الإنسان يطبِّق وصايا العبادات أو لا يطبِّقها.

إذن، ما الجديد الذي أتى به إشعياء في مقابل أقوال عاموس وهوشع؟ أولًا؛ يتحدث إشعياء عن كافة أشكال العبادات. ثانيًا؛ يفصِّل أكثر المطالب الأخلاقية. ثالثًا؛ يصيغ الكلمات بتعبير شعري قوي؛ فالكلمات تُقال في حماس في افتتاحية احتفالية وفي تقابل وفي شكل أسئلة ونداءات حماسية، تُحفر في قلب المستمع بقوتها وعظمتها وجمالها الراقي.

مطالب إشعياء

إن مطالب إشعياء متضمنة في توبيخه فعندما يشكو من أن بني إسرائيل قد تركوا الرب فهو يطالب بالطبع بالولاء للرب. لكن هناك مواضع تذكر مطالبه صراحة؛ ففي الإصحاح الأول يقول: "اغتسلوا، تطهروا، أزيلوا شر أعمالكم من أمام عيني، كفوا عن اقتراف الإثم. وتعلموا الإحسان، انشدوا الحق، أنصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، ودافعوا عن الأرملة" (١٦-١٧). من الممكن اعتبار النبي مثل الضمير الأخلاقي السامي الذي يسمو فوق الشعب ويذكره بأخطائه صباح مساء، ويرشده إلى الطريق المستقيم. فهل كان الوضع الأخلاقي في إسرائيل ويهوذا في عصر إشعياء بهذا السوء؟ وهل كان المجتمع كله مجتمع قتلة أيديه ملطخة بالدماء، كله غش وفساد وسرقة للفقراء وظلم واضطهاد وقسوة؟ أليس هذا المجتمع هو الذي أنجب، في عصر واحد، أنبياء مثل عاموس وهوشع وإشعياء وميخا الذين كانوا من أعظم رجال الأخلاق على مَر الأجيال؟! بالطبع كان في إسرائيل في عصر عاموس وإشعياء رجال طيبون، وكانت تصنع في عصرهم أعمالًا طيبة، لكنها طبيعة الضمير الأخلاقي الذي لا يضرب ولا يصرخ ولا يعذب سوى الأعمال السيئة. وصوت النبي هو صوت الضمير الأخلاقي القومي الذي يستنكر أي ذنب أو إثم بشدة وبدون شفقة، ويطالب دائمًا بفعل الخير.

تبدأ قائمة مطالب إشعياء بإزالة الشر: اغسلوا أيديكم من بقع الدم الطاهر، تطهروا من دنسكم، أزيلوا الشر من أعمالكم. يقوم إشعياء بعدها بتفصيل الأعمال الإيجابية: تعلَّموا فعل الخير (ففعل الخير يتطلب التعلم والدراسة والتعود والمثابرة)، واطلبوا العدل لليتامى والأرامل تحديدًا الذين في غير مقدورهم طلب العدل. لا

تنتظروا اليوم الذي يصرخون فيه من الظلم بل دافعوا عن قضاياهم، وأَدخلوا البهجة والسرور على بيوت المظلومين (أو ادعموا المظلومين).

تتكرر المطالبة بالعدل والبر في مواضع كثيرة في السفر: ٩: ٦، ٢٨: ١٧، ٣٢: ١٦، ٣٣: ٥. ويقول أيضًا: "ولكن الرب القدير يمجد بالعدل، ويبدي الرب القدوس قداسته بالبر" (٥: ١٦). "فتفدى صهيون بالحق" (١: ٢٧). كما لا يرتبط مصير الشعب والدولة بالقوة المادية والعسكرية؛ فالخلاص لن يأتي بالحرب ولا بالعربات والفرسان إنما بالحق والبر. كما أن قوة الملِك لا تظهر في الغنى أو في الفضة والذهب والجيش الكبير والقصور والحصون بل في العدل والإيمان: "لأنه سيرتدي البر ويتمنطق بالأمانة" (١١: ٥)، "انظروا ها إن ملكًا يملك بالبر، ورؤساء يحكمون بالعدل" (٣٢: ١).

من هو الشخص الجدير بالسكن بالقرب من الرب؟ "السالك في البر والناطق بالحق والنابذ ربح الظلم، والنافض يديه من قبض الرشوة، الصام أذنيه عن الاستماع إلى مؤامرات سفك الدماء، المغمض عينيه عن التأمل في الشر. هو الذي يسكن في الغلاء، وملجأه معاقل الصخور، يؤمن له خبزه، ويكفل له ماؤه" (٣٣: ١٤-١٦).

أما على المستوى الديني فيطالب النبي بترك الأوثان وتحطيمها وتحطيم مذابحها، والثقة في الرب والإيمان به وحده (١٠: ٢٠، ١٧: ٧-٨، ٢٧: ٩، ٣٠: ٢٢). "اتكلوا على الرب إلى الأبد، أن الرب الله هو صخر الدهور" (٢٦: ٤).

الخلاصة هي أن إشعياء يطالب بتنفيذ الوصايا بين الإنسان وأخيه؛ الوصايا الأخلاقية خاصة البر والعدل، ومساعدة الفقراء والضعفاء، وكذلك الوصايا بين الإنسان والمكان؛ الإيمان بالرب والتوكل عليه، ومعرفة الرب وخشيته. وعلى

المستوى السياسي يطالب إشعياء بالحيادية التامة والاعتماد على الرب وحده، فهو يرى في فكره المثالي أن مصير الشعب والدولة مرتبط بتنفيذ تلك المطالب. ومن الصعب حقًا فهم هذا الارتباط بين النجاح القومي وبين السلوك الأخلاقي لكن ذلك هو أساس رؤية ومطالب الأنبياء؛ فالأعمال الطيبة، والدين الأخلاقي هما الضمان الوحيد لوجود شعب إسرائيل.

ختامًا يجب أن نشير إلى أنه لا يوجد في أقوال إشعياء مطالب خاصة بالرحمة والمحبة والشفقة كما هو في أقوال هوشع.

البلاء

ما هي نتيجة عمل الشر واقتراف الذنوب والآثام؟ الشعب مجروح "من أخمص القدم إلى قمة الرأس ليس فيه عافية. كله جروح وأحباط وقروح لم تنظف" (١: ٦). والأرض قفر ومهجورة، والمدن محترقة بالنار والأجانب يغزون البلاد ويخرِّبونها (الإصحاح الأول، ٥: ٥-٦، ٦: ١١-١٢، ٧: ٢٤-٢٥، ٣٣: ٧-٩).

وصف غزو العدو الآشوري (٥: ٢٦-٣٠، ٧: ١٨-٢٠، ٨: ٧-٨، ١٠: ٢٨-٣٢. حصار أورشليم: الإصحاح ٢٢، ٢٩: ١-٤).

ويتحدث إشعياء أيضًا عن الأزمة الاقتصادية في يهوذا (٣: ١، ٤: ١، ٥: ١٠)، وعن انهيار النظم الاجتماعية وفشل الدولة؛ فليس هناك قادة حقيقيين لكن خلاف ونزاع، ووقاحة الشباب وسطوتهم. وحل الفشل محل الحكومة "لأن أورشليم عثرت، ويهوذا سقطت" (٣: ١-٨). كما يذكر السبي ("لذلك يسبى شعبي لأنهم لا يعرفون" (٥: ١٣)، لكن لا توجد في سفر إشعياء أية نبوءة خراب على أورشليم أو بيت المقدس. وأول نبوءة عن خراب أورشليم قالها ميخا.

يوم الرب

كان عاموس أول من أدخل في قلب الشعب معرفة أن يوم الرب لن يكون يوم دينونة أعداء إسرائيل فقط، فالرب سيعاقب جميع الآثمين حتى في إسرائيل نفسها. ويضيف إشعياء أن الغطرسة والتكبر هما الخطيئة الكبرى التي سيُعاقَب عليها الإنسان في يوم الرب: "فإن للرب القدير يومًا يوضع فيه كل متعظم ومتكبر ومتغطرس" (٢: ١٢)، "فيعتري الهوان غطرسة كل إنسان، ويذل تشامخ البشر، ويتعظم الرب وحده في ذلك اليوم، وتباد الأصنام كلها" (١٧-١٨). وهناك علاقة بين الغطرسة وبين الوثنية، وسيعترف الإنسان في يوم الرب بأنه يوجد شيء في مقابل الإله السامي، وفي ذلك الوقت سيحطم الإنسان أوثانه وستنتهي الوثنية في العالم.

إن يوم الرب عند إشعياء له أبعاد كونية فسيفزع فيه العالم كله ويهلع جميع البشر "من أمام هيبة الرب ومن بهاء عظمته وعند قيامه ليرعب الأرض" (٢: ٢١)، ويرتبط هذا المفهوم برؤيا آخر الأيام.

وتحتوي نبوءات إشعياء أيضًا على مفهوم آخر ليوم الرب القريب فيقول في نبوءته عن ملك بابل: "ولولوا فإن يوم الرب بات وشيكًا قادمًا من عند الرب ... ها هو يوم الرب آت مفعمًا بالقسوة والسخط والغضب العنيف ليجعل الأرض خرابًا ويبيد منها الخطاة" (١٣: ٦، ٩). إن يوم دينونة الأشرار، خاصة الآشوري، يرتبط أيضًا بتحول عالمي: "والشمس تظلم عند بزوغها والقمر لا يشع بضوئه ... وأزلزل السماوات فتزعزع الأرض في موضعها" (١٣: ١٠، ١٣)، وهنا أيضًا تأكيد على خطيئة الغطرسة: "وأضع حدًا لصلف المتغطرسين، وأذل كبرياء العتاة" (١٣: ١١).

شآر ياشوب

فكرة "البقية" فكرة رئيسية في أقوال إشعياء ظهرت في رؤيا التكليف في الإصحاح العاشر وكذلك في الإصحاح الأول؛ فالنبي يعلم أنه لم يعد في الإمكان منع الحكم بوقوع البلاء؛ لكن الفناء لن يكون كاملًا. فيشبه الشعب بجذع الشجرة الذي يوشك أن تسقط أوراقه ثم تنبت فيه في المستقبل فروع جديدة أجمل وأفضل من الأولى. ولسوف ينقّي الرب الشعب ويخلصه من الخبث والقصدير العالق به، ويصنع من الفضة الخالصة أداة جديدة "عندئذ تدعين مدينة العدل. المدينة الأمينة" (١: ٢٦). "ويدعى كل من يبقى في صهيون ممَّن مكث في أورشليم قدُّوسًا، كل من كُتِب للحياة في أورشليم" (٤: ٣).

كما كانت فكرة البقية المقدسة عظيمة في نظر إشعياء ونلاحظ ذلك من تسمية ابنه بذلك الاسم الرمزي "شآر ياشوب"[١]، الذي كان يصطحبه معه إلى آحاز (٧: ٣). وكانت هذه الفكرة مثل فكرة "يوم الرب" ليست مجرد رؤيا آخر الأيام إنما شيء سوف يتحقق في المستقبل القريب بعد الغزو الآشوري: "في ذلك اليوم لا تعود بقية إسرائيل، والناجون منهم يتوكلون على من ضربهم بل يعتمدون على الرب قدوس إسرائيل بالحق. وترجع بقية ذرية يعقوب إلى الرب القدير. مع أن شعبك يا إسرائيل كرمل البحر، فإن بقية فقط ترجع" (١٠: ٢٠-٢٢).

وبطبيعة الحال ستختلف البقية عن الشعب الآثم حاليًا، وسيكون المجتمع مجتمعًا مقدسًا معتمدًا على الرب، ويسلك سبل العدل والبر. وتبرز هذه الفكرة أيضًا في نبوءة جمع الشتات: "فيعود الرب ليمد يده ثانية ليسترد البقية الباقية من شعبه، من

[١] معنى الاسم باللغة العربية "البقية تعود".

آشور ومصر وفتروس وكوش وعيلام وشنعار وحماة ومن جزائر البحر ... وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من آشور" (١١: ١١، ١٦).

لم يكن إشعياء أول من قال بفكرة البقية فهي موجودة عند إيليا (الملوك الأول ١٩: ١٨)، وعند عاموس: "المدينة الخارجة بألف يبقى لها مئة، والخارجة بمئة يبقى لها عشرة من بيت إسرائيل" (٥: ٣، ١٩: ٨-٩). وتعدُّ رؤيا الأنبياء بضرورة وجود بقية لشعب إسرائيل أساس عقيدة أبدية الأمة.

رؤيا آخر الأيام

إن نبوءات المواساة ورؤيا آخر الأيام موجودة بالفعل في أقوال عاموس وهوشع لكن إشعياء أدخل عليها مضمونًا جديدًا، قوميًا وإنسانيًا عامًا، تاركًا بصمة أسلوبه عليها. ولقد أصبحت أساليب إشعياء أنماطًا لغوية تعبِّر عن الرؤيا النبوية الإسرائيلية بشكل عام.

لكننا سنبدي أولًا ملحوظة عن مصطلح "آخر الأيام" غير الموجود عند عاموس أو هوشع. يقول عاموس: "ها أيام تأتي" (٩: ١٣)، وهوشع يقول: "ويكون في ذلك اليوم" (٢: ١٨، ٢٣). ورد ذكر مصطلح "آخر الأيام" بالفعل في بركة يعقوب لبنيه (التكوين ٤٩: ١)، لكن لم يكن الحديث عن رؤيا خلاص الشعب أو البشرية. أما مصطلح "آخر الأيام" بمفهوم الأيام الأفضل التي من المنتظر أن تأتي على إسرائيل والعالم فقد كان من عمل إشعياء. ويجب أن نؤكد أن "آخر الأيام" ليس معناه نهاية الأيام إنما الأيام التي ستأتي بعد هذه الأيام. فوصف "الأخير" في العهد القديم ليس تفسيره "النهائي". ورد على سبيل المثال أن يعقوب وضع "الجاريتين وأولادهما أولًا، وليئة وأولادها وراءهم. وراحيل ويوسف أخيرًا" (التكوين ٣٣: ٢). بذلك كانت ليئة وأبناؤها من وراء الإماء، لكن ليسوا

الأخيرين في الصف، لأن راحيل ويوسف وراءهم. كما يقول الجامعة: "ليس ذكر للأولين والآخرون أيضًا الذين سيكونون، لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم" (١: ١١). ولا شك في أن "الآخرين" ليسوا "الآخرين" بمفهومنا نحن، كما أن "آخر الأيام" ليس الأيام الأخيرة في التاريخ، ولو أن الأمر كذلك فما قيمة الخير العظيم، وما هي المواساة؟

التجديد الرئيس لإشعياء هو في أن رؤياه لا تشمل إسرائيل فقط، كما هو الحال في رؤيا عاموس وهوشع، إنما جميع البشرية وإسرائيل في مركزها. والأحلام الثلاثة الكبرى لإشعياء هي:

١. **على المستوى الديني**: نهاية الوثنية، وسلطة الرب المطلقة على الإنسان.

٢. **على مستوى البشرية**: نهاية الحروب، والسلام العالمي والسعادة الشاملة للإنسان.

٣. **على المستوى القومي**: صهيون هي المركز الأخلاقي والديني والقضائي للبشرية كلها، وجمع الشتات ووحدة الشعب المخلَّص والقدوس تحت سلطة ملك مثالي من بيت داود.

إن أحلام إشعياء هي بالفعل أحد العجائب الكبرى في التاريخ البشري؛ ففي القرن الثامن قبل الميلاد في الوقت الذي لم تعرف فيه البشرية سوى قانون واحد في العلاقات الدولية — "البقاء للأقوى" — وعندما كان يحدد السيف عدل القوي؛ كان هناك يهودي يتنبأ في أورشليم يحلم بالسلام العالمي، وبنهاية الحروب وبالأخوة وبالسعادة للبشرية كلها.

وأول إصحاح تظهر فيه رؤيا آخر الأيام عند إشعياء هو الإصحاح الثاني وهو ذروة نبوءة إشعياء. جاءت النبوءة بأسلوب شعري تزيِّنه الأساليب الفنية الكثيرة لأشعار العهد القديم بأفكار بسيطة وواضحة:

١. سيصبح جبل صهيون مركزًا روحيًا للبشرية كلها. وستهرول جميع الأمم إلى جبل بيت الرب؛ ليتعلموا فيه شريعة إسرائيل وكلام الرب:

لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب.

٢. ستأتي جميع الشعوب لدراسة سبل الرب أي العدل والبر:

فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين.

٣. سيكون لشريعة إسرائيل تأثير عظيم على كل العالم. وإذا سادت العالم كله قوانين العدل والسلام، فإنه لن تندلع حروبٌ أخرى:

لا ترفع أمة على أمة سيفًا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد.

سيصبح إيمان إسرائيل بإله واحد إيمان كل العالم، وسيصبح إله إسرائيل إلهًا لكل الشعوب.

إنها بالطبع رؤيا قومية تضع جبل الرب على رأس الجبال وبيت يعقوب دليلًا وقاضيًا ساميًا لكل الشعوب، لكن تبرز في هذه الرؤيا القومية فكرتان: الأولى؛ سمو جبل صهيون وبيت يعقوب سموًا روحيًا فقط وليس سياسيًا. وليس هناك أي حديث عن أي صورة لحكم إسرائيل للأمم الأخرى. فالنبي يتحدث هنا بالفعل عن سمو الرب فحسب. ثانيًا؛ الرؤيا القومية رؤيا عالمية في الأساس؛ فالنبي لا يحلم بخلاص إسرائيل ومجده في العالم فقط؛ إنما يحلم بالسلام العالمي وبنهاية الوثنية وانتصار معرفة الرب؛ فغرض هذه النبوءة إنساني عام.

ويجب أن ننتبه ليس فقط إلى الأفكار لكن أيضًا إلى الصور الفنية التي تزين هذه النبوءة السامية: الصورة الأولى؛ جبل الرب الذي يرأس كل الجبال، على الرغم من أنه ليس أعلاهم. الصورة الثانية؛ جميع الشعوب تتدفق مثل مياه النهر إلى جبل الرب؛ وهي صورة عظيمة تشمل العالم والبشرية كلها. والصورة الثالثة؛ يحطم الإنسان آلات الحرب ويحولوها إلى أدوات زراعية:

فيطبعون سيوفهم محاريث ورماحهم مناجل

فالمحراث والمنجل رموز للسلام والعمل الهادىء والسكينة المباركة عند الفلاح.

والصورة كلها صورة ديناميكية جدًا؛ فالشعوب ليست في وضع سكون فهم يذهبون ويتدفقون ويقولون: "تعالوا لنذهب إلى جبل الرب". والشريعة أيضًا ليست ساكنة: "لأن من صهيون تخرج الشريعة". تخرج إلى العالم: ويعم تأثيرها ونورها وأشعتها كل ركن وكل شعب. ولا يصور النبي الوضع الساكن الذي لم تعد فيه أدوات الحرب لكن الصورة الحية الرائعة التي يحطم فيها الإنسان أسلحته. ويُعبِّر عن كل هذه الأفكار والصور الساحرة في ثلاث فقرات فقط.

غير أن رؤيا آخر الأيام لا تنتهي إلى هذا الحد فبقيتها في الإصحاح الحادي عشر الذي ينقسم إلى قسمين واضحين: الأول؛ عبارة عن رؤيا عالمية لآخر الأيام يتم الحديث فيها عن صفات الملك المثالي الملك المسيح، وعن السلام بين الحيوانات (١-١٠). والثاني؛ رؤيا الخلاص القومي في المستقبل القريب الذي تتناول جمع الشتات ونجاح شعب إسرائيل الموحد في إخضاع أعدائه. ومن الناحية المنطقية كان يجب أن يسبق القسم الثاني القسم الأول. فبعد أن يتغلب على أعدائه ويستقر في أرضه سيكون في مقدور جبل صهيون أن يكون في مقدمة الجبال، وستستطيع شريعة الرب الخروج من صهيون. لكن الأساس في الرؤيا بالنسبة للنبي هو الخلاص

الروحي والديني والأخلاقي للبشرية (التي يتوسطها بيت يعقوب)؛ وليس الخلاص السياسي والمادي لإسرائيل على الرغم من أهميته بصورة لا تقل عن الخلاص الروحي العالمي؛ فبدون خلاص إسرائيل لن يأتي الخلاص العالمي.

والملك المسيح سيكون من "جذع يسَّى"، وهو الذي سيحكم بوحي الرب ورحمته العليا: "ويحل عليه روح الرب". ويعدد النبي عشرة خصال يمتاز بها الملك المثالي؛ حيث يكون صاحب "حكمة وفهم" — والحكمة ثروة نظرية، ومنطقية تُكتسب بالدراسة وبالتجربة الحياتية، وتشمل العلوم والثقافة. والفهم هو القدرة الطبيعية الداخلية للتمييز بين الخير والشر وبين الحقيقة والكذب، وبين الإدراك والاستيعاب. فالحكمة هي الإدراك العقلي تحديدًا، والإدراك هو الحكمة العملية، والفِطنة والموهبة الحدسية في اختراق حقيقة الأشياء، وتعلُّم شيئًا من شيء آخر. كما سيكون الملك صاحب مشورة وبطولة؛ فالمشورة بأسلوب إشعياء هي مخطط، وحكمة سياسية (على سبيل المثال: تشاوروا مشورة فتبطل" ٨: ١٠، "هذا هو الحكم الذي قضيت به على كل الأرض" ١٤: ٢٦). والبطولة مطلوبة للمِلك من أجل قيادة الدولة والسيطرة عليها. كما تحل به أيضًا معرفة الرب وخشيته؛ فالمعرفة موجهة إلى معرفة الرب، ومعرفة الشريعة (الحكمة الميتافيزيقية، الثيولوجية [١]. ومعرفة الرب ستملأ روحه ويعيش بمخافة الرب، ويتنفسها، أو سيشعر بالحق ويميزه عبر مخافة الرب، "فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه"، لأنه قيل عن الرب: "لأن الإنسان ينظر إلى المظهر الخارجي، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب" (صموئيل الأول ١٦: ٧). وسيطلب هو أيضًا مثل الرب الحقيقة

---

[١] الثيولوجيا أو اللاهوت هو علم يهتم بدراسة الدين، فهو يفحص التجربة الإنسانية للإيمان وكيف يعبر الناس والثقافات.

الداخلية لذلك سيقضي بالعدل والإنصاف للبؤساء والمساكين وسيساعدهم في أزمتهم؛ أما الأشرار فسيميتهم. وعلى الرغم من أنه لم يذكر أنه سيميت الشرير بالسيف (أليس في مملكة عدل الملك المسيح لن تكون هناك حاجة إلى آداة حرب)، لكن "بنفخة شفتيه"، أي: "إنه سيقنع الشرير بكلامه وبعدل قضائه، ولن يصبح هناك شر في الأرض. فهو على أية حال لن يكتفي بمعرفة الحقيقة والعدل فحسب، بل سيحقق العدل ويحكم الدولة في بطولة، كما لن يسمح للشر بالوجود في مملكة السلام والعدل. ولن تكون قوته في السيف والمبارزة لكن في العدل والإيمان: "لأنه سيرتدي البر ويتمنطق بالأمانة". (ويقول راشي في تفسير ذلك أن الأبرار سوف يلزمونه).

بذلك يكون إشعياء قد عدَّد ما يشبه "الوصايا العشر" للملك المثالي: الحكمة، الفهم، المشورة، المعرفة، مخافة الرب، الحق، العدل، الإيمان، وتحقيق العدل". (لا توجد هنا أيضًا الرحمة ولا الشفقة). إن الحكم المثالي الذي لا تكفيه الصفات الروحانية والدينية والأخلاقية، يحتاج أيضًا إلى البطولة والقدرة الفعلية على الحكم. وعليه أيضًا معاقبة الشرير الذي يشكِّل خطرًا على السلام الاجتماعي، بل وقتله. فهذا النوع من الحكم الروحي السياسي والعملي هو القادر على ضمان تحقيق الرؤيا القومية والإنسانية العامة: "في ذلك اليوم ينتصب أصل يسى راية الأمم، وإليه تسعى جميع الشعوب، ويكون مسكنه مجيدًا". لا توجد هنا رؤيا ثيوقراطية لحكم الرب أو حكم أنبياء وكهنة إنما رؤيا سياسية لملك إسرائيلي من بيت داود سيحكم بوحي من الرب وبروحه وبمخافته، لكن حكمه سياسي ملكي.

وعندما يحكم صهيون مثل هذا الملك المثالي الذي سيكون معجزة للشعوب، وسيصبح جبل الرب على رأس الجبال؛ ستمتلأ الأرض من"معرفة الرب كما تغمر

المياه البحر". وستعترف كل البشرية بالرب وستأتي إلى صهيون لدراسة طرق الرب وشريعته. يعبِّر التشبيه بمياه البحر عن فكرة أن معرفة الرب ستنتشر بين كل الشعوب وفي كل البلاد كافة، ولن تكون معرفة سطحية عابرة إنما معرفة متعمقة مستمرة وأبدية.

حينها سيعم السلام العالم، حتى عالم الحيوان، ولن تسئ المفترسات إلى فرائسها. فيسود السلام والسكينة بين الأسد والنمر والذئب والدب، وبين الأبقار والغنم. والصِّلُ والأفعوان لن يؤذيا حتى الأطفال وسيرعى الفتى الصغير الحيوانات المفترسة مع بهائم البيت.

هل قصد إشعياء أن طبيعة الحيوانات المفترسة ستتبدل تمامًا وتتحول إلى آكلات عشب "والأسد كالبقر يأكل تبنًا"؟ إن المكتوب نفسه يحدد مجال الرؤيا: "لا يسوؤن ولا يفسدون في كل جبل قدسي". بذلك لا يكون المقصود هنا العالم أجمع إنما الأرض المقدسة، أو الجبل المقدس فقط. وربما يمكننا نحن تفسير هذه الصورة المثيرة على أنها صورة رمزية فقط ترمز إلى السلام بين الشعوب الشريرة القاسية وبين الشعوب الصغيرة الضعيفة التي تقع فريسة لها. على أية حال فقد أسهب إشعياء في صورة السلام العالمي وضم إليها ليس إسرائيل والشعوب فحسب إنما كل عالم الحيوان والبهائم. فالسلام والعدل يجمعان كل عالم الأحياء، الإنسان والبهيمة. وفوق كل هذه الوحدة العالمية يسمو الرب الذي يغدق من رحمته ومن روحه على بيت يعقوب وعلى الملك المسيح الذي يرأسه.

أما من الناحية الأدبية فهناك اختلاف كبير بين رؤيا الملك المسيح وبين رؤيا السلام. فالأول فكري، والثاني تصويري. فالارتقاء فوق أجنحة السلام السامي العالمي لا يُنسي النبي مشاكل إسرائيل في الحاضر وواقعها الكئيب المحبط؛ فشعب

إسرائيل غير متحد، وأفرايم ويهوذا متناحرن، وأعداء إسرائيل يتربصون بها من كل اتجاه، ومملكة أفرايم على وشك الخراب، حتى رجال يهوذا سيُسبون ويشردون في الأرض. لذلك تنبأ إشعياء أيضًا بالخلاص القومي، المادي، السياسي لشعب إسرائيل الذي سيتحقق قبل تحقيق الأهداف العظيمة السامية التي تحدث عنها في البداية.

ويتحدث القسم الثاني من الإصحاح الحادي عشر عن جمع بقايا شتات إسرائيل ويهوذا من جميع بلدان سبيهم. وتعايش أفرايم مع يهوذا وإخضاعهم لأعدائهم القدامى: الفلسطينيون، والأدوميون، والمؤابيون، والعمونيون. وسيصنع الرب المعجزات لإسرائيل ثانية، وسيصعد بقايا شعبه من آشور ومن مصر وسيعبرون أنهار مصر وآشور كما كان في الخروج من مصر. غير أن خلاص إسرائيل لن يكون هذه المرة بالمعجزة كما حدث في مصر؛ إنما عليه محاربة أدوم ومؤاب وعمون وإخضاعهم. فمثالية السلام العالمي لا تتناقض مع ضرورة القتال من أجل ضمان وجود إسرائيل في الوقت الحاضر.

كان يجب أن تضم إلى نبوءة جمع الشتات النبوءة الواردة في الإصحاح ٢٧: ١٣: "في ذلك اليوم يُنفخ في بوق عظيم فيأتي التائهون في أرض آشور، والمنفيون إلى ديار مصر، ليسجدوا للرب في جبل قدسه، في أورشليم". وكذلك النبوءة المدهشة في ١٩: ٢٤-٢٥ عن التحالف الثلاثي بين إسرائيل ومصر وآشور:

"في ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالث ثلاثة مع مصر وآشور، وبركة في وسط الأرض. فيباركهم الرب القدير قائلًا، مبارك شعبي مصر، وصنعة يدي آشور، وميراثي إسرائيل".

هنا أيضًا يتم التأكيد في رؤيا قومية سياسية على عالمية إشعياء؛ فحتى الدول الوثنية الكارهة لإسرائيل التي تعاملت بشَرٍ وقسوة معها وأرادت القضاء عليها ستكون غالية ومباركة مع إسرائيل.

ختامًا؛ يجب أن نشير إلى أن نبوءات المواساة عند إشعياء لا تشكل وحدات منفصلة تظهر في نهاية السفر (كما هو الحال عند عاموس أو حزقيال) أو في إصحاحات منفردة (مثل هوشع وإرميا)، إنما متشابكة مع نبوءات التوبيخ في فقرات كثيرة، مثل: ١: ٢٦-٢٧، ٢: ١-٥، ٤: ٢-٦، ٨: ١٠، ٩: ١-٦، ١٠: ٢٠-٢٧، الإصحاح الحادي عشر كله، ١٩: ٢٤-٢٥، ٢٥: ١-٥، ٢٥: ١-٥، ٢٧: ١٢-١٣، ٢٩: ٥-٨، ٣٠: ١٩-٢٦، ٣٢: ١٥-٢٠، ٣٣: ١٧-٢٤، الإصحاح ٣٥ كله.

ويرجع سبب ذلك إلى حقيقة أن نبوءات مواساة إشعياء غير موجهة إلى آخر الأيام فقط؛ بل إلى خلاص قريب لأورشليم من بلاء آشور. فتاريخ إسرائيل لا يتطور بخط مستقيم من: "خطيئة – عقاب – توبة – خلاص نهائي" لكن في خط ديناميكي عاصف صاعد وهابط إلى أن يجيء الخلاص العظيم القومي والإنساني.

نبوءات على الأمم

تتركز هذه النبوءات في الإصحاحات: ١٣-٢٤ (باستثناء الإصحاح ٢٢)، كالتالي:

- الإصحاح: ١٣-١٤: النبوءة عن بابل والمَثَل عن ملك بابل.
- الإصحاح ١٤: ٢٨-٣٢: النبوءة عن فلسطين.

- الإصحاح: ١٥-١٦: النبوءة عن مؤاب، وكذلك الإصحاح ٢٥: ١٠-١٢.
- الإصحاح ١٧: النبوءة عن دمشق.
- الإصحاح ١٨: النبوءة عن كوش.
- الإصحاح ١٩: النبوءة عن مصر.
- الإصحاح ٢٠: النبوءة عن كوش ومصر.
- الإصحاح ٢١: نبوءة عن بابل، ونبوءة عن أدوم، ونبوءة عن بلاد العرب.
- الإصحاح ٢٢: نبوءة عن أورشليم (وهي استثنائية في هذه الإصحاحات).
- الإصحاح ٢٤: نبوءة عامة عن خراب مملكة الشر الوثنية في كل الأرض.

وتسمى النبوءة على الأمم "משא – ماسًّا"، وتفسيرها بحسب جذر الكلمة: رفع الصوت أو الجهر، وبحسب مضمون النبوءات، وبحسب مواضع أخرى في العهد القديم، يجب تفسيرها على أنها نبوءة بلاء ورثاء.

وتشمل النبوءات الشعوب المجاورة لإسرائيل وكذلك أعداء إسرائيل في عصر النبي؛ وعمون فقط هي التي لا يوجد لها نبوءة بل إشارة إلى خضوعها في الإصحاح ١١: ١٤. وتنتشر النبوءات عن آشور في كل السفر: ٥: ٢٦-٣٠، ١٠: ٥-١٩، ١٤: ٢٤-٢٧، ١٧: ١٢-١٤، ١٩: ٢٣-٢٥، ٢٩: ٥-٨، ٣٠: ٢٧-٣٣، ٣١: ٨-٩، ٣٣: ١-٦، ٣٧: ٢٢-٣٥.

يكمل إشعياء بنبوءاته على الأمم تقليد عاموس؛ أما هوشع فلم يتنبأ عن الشعوب الأخرى نهائيًا.

والذنوب التي تُعاقب عليها الأمم ليست خطايا ضد إسرائيل تحديدًا، إنما خطايا عامة ضد الأخلاق وضد مخافة الرب، والقسوة، والغطرسة، وعبادة الأوثان. فآشور يتهم بشهوة التدمير وتأليه الذات. لكن لا يوجد في جميع النبوءات أي تعبير عن رغبة في هلاك آشور على العكس! فقد رأينا من قبل أن إشعياء قد تنبأ باتحاد ثلاثي بين آشور ومصر وإسرائيل، وسمىَّ آشور: "عمل يدي" (١٩: ٢٥). فإشعياء لا يكره الأمم ولا حتى الآشوريين، وقلبه الطيب يحمل الخير للشعوب كافة.

وفي النبوءة عن بابل يتوجه الرب لعقاب الأشرار في الأرض على ذنوبهم وآثامهم (١٣:١١) وليس الحديث هنا عن أعمال سيئة ضد إسرائيل ولكن ضد معاصي جميع الشعوب: "كيف باد الظالم ... كسر الرب عصا الأشرار ... الضارب الشعوب بسخط ... المتسلط بغضب على الأمم ... الذي جعل العالم كقفر وهدم مُدُنَه" (١٤: ٤-٦، ١٧). فكل ملوك الأمم سعداء لسقوطه. بل ذكر هنا إلى جانب خطيئة الاستبداد والظلم خطيئة غطرسة ملك بابل ورغبته في أن يكون كالإله العَلِي (١٣-١٥). وفي أقواله عن بابل نبوءة تدمير كامل: "أما بابل ... فتصبح كسدوم وعمورة اللتين قلبهما الله. لا يسكن فيها لا تُعمر إلى الأبد، ولا تعمر من جيل إلى جيل" (١٣: ١٩-٢٠)، "وأقطع من بابل اسمًا وبقية ونسلًا وذرية ... وأكنسها بمكنسة الهلاك يقول رب الجنود" (١٤: ٢٣).

وفي النبوءة عن مؤاب يشارك النبي مؤاب آلامهم: "يصرخ قلبي من أجل مؤاب" (١٥: ٥)، لذلك أبكي بكاء يعزيز (١٦: ٩)، لهذا تئن روحي على مؤاب (١٦: ١١). وخطايا مؤاب هي: "غطرستها وكبريائها وصلفها" (١٦: ٦). لكن إشعياء تنبأ لمؤاب ببقاء بقية مثل إسرائيل (١٤). وفي ختام نبوءة البلاء على صور ذُكر: "ويكون من بعد سبعين سنة أن الرب يتعهد صور فتعود إلى أجرتها" (٢٣:

١٧). وكذلك عن مصر: "ويضرب الرب مصر ضاربًا فشافيًا، فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم" (١٩: ٢٢).

وأوضح تعبير على نقاء سريرة إشعياء وأصالته ونبله نجده في رؤياه عن التحالف الثلاثي: آشور، مصر، إسرائيل، الذي يبارك فيه نبي إسرائيل ألد أعداء شعبه: "مبارك شعبي مصر، وعمل يدي آشور، وميراثي إسرائيل" (١٩: ٢٥). فمصر وآشور وإسرائيل متساوون أمام الخالق. فهل هناك عالمية أعظم من هذا؟ وهل هناك محبة للإنسان أعظم من تلك؟

التجديدات الأساسية عند إشعياء

عرض إشعياء التعبير الأمثل للأفكار النبوءية التي سبقته: سمو الأخلاق فوق العبادات، المطالب الأخلاقية، التوبيخ، يوم الرب وغيرها، لكنه كان مجددًا عظيمًا في قضايا كثيرة أخرى:

١. التأكيد على قداسة مفهوم الألوهية وسموه.

٢. محاربة الغطرسة والمطالبة بالتواضع تجاه الرب.

٣. رؤيا نهاية الوثنية، وسيادة ملك الرب على العالم أجمع.

٤. فكرة البقية ورمزية "شآر ياشوب".

٥. رؤيا آخر الأيام — أعظم نبوءات إشعياء: السلام العالمي، وكون صهيون مركزًا أخلاقيًا ودينيًا للبشرية.

٦. المكانة الرئيسية التي تحتلها شئون الدولة والمطالب السياسية في نبوءاته: الحيادية التامة والتوكل على الرب. معارضة التحالف مع الشعوب الأجنبية، ورفض الاعتماد على القوة المادية والعسكرية.

٧. وصف آشور بأنه عصا غضب في يد الرب.

٨. رؤية تاريخية كاملة حول تطور الأحداث السياسية في عصره: صعود آشور وسقوطه، خلاص يهوذا وخلاص العالم.

٩. نبوءات عظيمة ومفصَّلة عن الشعوب، وهي نبوءات لا نظير لها عند هوشع. أما عاموس فهناك بعض الفقرات عن كل شعب. ونجد مثل هذه النبوءات بعد إشعياء فقط عند إرميا وحزقيال.

١٠. نجد لأول مرة في سفر إشعياء وصفًا مفصلًا لتكليف النبوة، وهو ما لا نجده عند سابقيه، باستثناء موسى. وفي المقابل نجد مثل هذا الوصف عند إرميا، وحزقيال.

بناء سفر إشعياء

يُقسِّم قويفمان سفر إشعياء الأول (الإصحاحات ١-٣٩) إلى ثمانية أقسام كالتالي:

١. الإصحاح الأول: التوبيخ الأخلاقي، وافتتاحية السفر. ويرى أن هذا الإصحاح عبارة عن وحدة مستقلة، وبمثابة مدخل يُظهر بشكل مركَّز أساس توبيخ إشعياء.

٢. الإصحاحات ٢-١٢: مجموعة نبوءات في بدايتها افتتاحية خاصة (٢: ١).

٣. الإصحاحات ١٣-٢٣: مجموعة نبوءات كلها تقريبًا بعنوان "משא — نبوءة"، وجميعها تقريبًا عن الأمم.

٤. الإصحاحات ٢٤-٢٧: نبوءات وأناشيد عن آخر الأيام.

٥. الإصحاحات ٢٨-٣١: مجموعة نبوءات وتوبيخ تبدأ بـــ"ويلٌ".

٦. الإصحاحات ٣٢-٣٣: نبوءات وأناشيد عن آخر الأيام.

٧. الإصحاحات ٣٤-٣٥: نبوءات بأسلوب إشعياء الثاني.

٨. الإصحاحات ٣٦-٣٩: قصص نبوءية يظهر فيها إشعياء.

وفي المقابل يقسم م. ص. سيجل إشعياء الأول ١-٣٩ إلى أربعة أقسام فقط:

١. الإصحاحات ١-١٢: مجموعة نبوءات عن يهوذا تحديدًا.

٢. الإصحاحات ١٣-٢٣: نبوءات بعنوان "משא - نبوءة" عن شعوب مختلفة، مع خاتمة، ٢٤-٢٧: ١: تشمل نبوءة عن تدمير هذا العالم وتأسيس ملكوت السماء في العالم الآخر.

٣. الإصحاحات ٢٧: ٢-٣٥: نبوءات عن إسرائيل تحت عنوان "ويلٌ"، وخاتمة مسيحانية عن سقوط أدوم والأمم وخلاص إسرائيل.

٤. الإصحاحات ٣٦-٣٩: خاتمة تاريخية.

يعدُّ هذا التقسيم أقل تفصيلًا على الرغم من أنه يشبه في خطوطه العامة التقسيم الأول. فالنبوءات في الإصحاحات ١-١٢ قد قالها إشعياء الشاب في أيام عزيا، ويوثام وآحاز. أما النبوءات من الإصحاح ٢٨ وما بعده فقد قيلت في أيام حزقيا. وقيلت النبوءات عن الأمم في أزمنة مختلفة فيما يبدو؛ فسنجده يحكي في المجموعة الأولى -الإصحاح السابع- بأسلوب نثري عن لقاء إشعياء بآحاز، وفي نهاية المجموعة الأخيرة حكايات عن حزقيا.

ومن ناحية الخلفية السياسية تدور نبوءات إشعياء حول محورين: الأول، حرب أرام وإسرائيل ضد آحاز. والثاني، غزو سنحريب ليهوذا في عصر حزقيا.

مختصر من أقوال قويفمان عن إشعياء

١. جميع إصحاحات إشعياء ١-٣٣، ذات طابع أيديولوجي خاص تصنع منه وحدة واحدة لا نظير لها في كل أدب العهد القديم. ولا توجد نهائيًا في هذه الإصحاحات فكرة الانتقام القومي؛ فكرة "اسكب غضبك"[١]، و"النقمة والجزاء"[٢]. وهذه الفكرة الرئيسية لتطلع الشعب إلى الانتقام القومي موجودة في التوراة، وفي سفر المزامير وفي الأدب النبوي، وفي سفر إشعياء أيضًا لكن بعد الإصحاح ٣٣؛ أي في الإصحاحات ٣٤-٣٥. كما تحتوي الإصحاحات ٤٠-٦٦ على نبوءات انتقام من جميع الأنواع؛ غير أن فكرة الانتقام والجزاء تغيب تمامًا عن الإصحاحات ١-٣٣؛ فلا يعدُّ البلاء الذي حل على الأمم انتقامًا بسبب شر صنعوه لإسرائيل[٣]. لذلك لا يجب أن ننسب لإشعياء الفقرات ١، ٢ في الإصحاح ١٤. والمثيرُ للدهشة أيضًا الفرق الواضح جدًا بين إشعياء ١-٣٣، و٣٤-٦٦[٤]. لذلك يستنتج قويفمان أن الإصحاحين ٣٤-٣٥ لا يخصان إشعياء.

٢. لم تُذكر نبوءة بابل في الإصحاحات ١٣-١٤ عن بابل لكن عن آشور والدليل على ذلك: ١. لم يذكر في الإصحاحين ١٣-١٤ الشر الذي صنعه بابل ضد إسرائيل نهائيًا: خراب أورشليم، حرق الهيكل، السبي والشتات. ٢. لا تتوافق

---

[١] إرميا ١٠: ٢٥

[٢] التثنية ٣٢: ٣٥

[٣] ص ١٥٧-١٦٠

[٤] ص ١٦٢

صورة "ملك بابل" مع أي ملك بابلي؛ لكنها تتوافق مع ملك آشور بشكل مثير للدهشة. ٣. ملوك آشور هم أيضًا ملوك بابل في زمن إشعياء. ٤. هكذا يمكننا تفسير الحقيقة العجيبة بغياب نبوءة عن آشور في مجموعة النبوءات؛ فالنبوءة عن آشور موجودة في الإصحاحات ١٣-١٤، والنبوءة عن بابل في الإصحاح ٢١[١].

٣. ذروة نبوءة إشعياء الشاب هي الرؤيا السامية لآخر الأيام في الإصحاح الثاني وهي بداية فترة جديدة في تاريخ العقيدة الإسرائيلية، وكذلك بداية عِلْم آخر الزمان[٢] النبوي الذي لا مثيل له في الأدب المقرائي القديم أو في نبوءات عاموس وهوشع؛ حيث يبدو لنا إشعياء كمبدع أصلي وكرجل رؤيا عبقري[٣]. وهي أول رؤيا في الأدب المقرائي عن نهاية الوثنية، وبداية العالمية في الرؤى، ومن التعبيرات السامية للغاية في العقيدة الإسرائيلية[٤]. ينظر إشعياء إلى الوثنية باعتبارها الغطرسة البشرية، وغرور الإنسان من أجل السيادة والسيطرة على العالم ورغبته في التحكم في أخيه الإنسان. وبعد إذلال الرب لكل "متعظم ومتكبر"، واختفاء الوثنية من الأرض، تأتي نهاية تطلع الإنسان إلى الثراء والظلم، وبذلك تنتهي الحروب بين الشعوب وبعضها البعض؛ فالحرب بين الشعوب ظاهرة وثنية مصدرها الرغبة في الثراء والظلم وغطرسة الإنسان من أجل التحكم في أخيه الإنسان[٥].

---

[١] ص ١٧٥ – ١٨١.

[٢] الإسخاتولوجيا أو علم الأخرويات. هو جزء من علم اللاهوت والفلسفة يهتم بما يعتقد أنه الأحداث الأخيرة قبل نهاية العالم.

[٣] ص ١٩٩.

[٤] ص ٢٠٢.

[٥] ص ٢٠٤.

٤. لا يعدُّ الإصحاح السادس أول رؤيا لإشعياء أو رؤيا تكليف؛ إنما هو تلخيص لفترة نبوءته الأولى[١].

٥. التاريخ العالمي: رؤيا إشعياء بها أساس قومي خالص، لكنها الأساس القومي ذاته ولها قيمة تاريخية عالمية؛ فالرب أقام آشور كعصا غضب لكنه لم يرسله على إسرائيل فقط؛ إنما على جميع الشعوب. فيحتل آشور العالم من منطلق غطرسة وثنية، وملكوت عالم آشور هو ذروة الحكم الوثني، وسقوطه يعتبره النبي سقوطًا للوثنية في العالم كله. فالفصل الأول في الدراما الألوهية العالمية لآشور وإسرائيل هو: سيطرة آشور على العالم. والفصل الثاني: انهيار آشور على جبال إسرائيل؛ ولن يعاقب آشور بسبب أنه أزعج إسرائيل إنما لإبادة الأمم، وللغطرسة الوثنية. وهو الحكم الذي يقضى به على العالم الوثني كله لوثنيته وليس حكم العدو القومي. والفصل الثالث: مُلْكُ بيت داود الجديد الذي هو حكم العدل والسلام. فخلاص إسرائيل سيكون خلاص العالم كله[٢]. وإشعياء هو أول من رأى في رؤياه سلطة عقيدة التوحيد في آخر الزمان، الفكرة التي أصبحت أسيرة التاريخ العالمي؛ حيث أصبحت إسرائيل مركز أحداث العالم كله[٣].

٦. طبع إشعياء كل ما أخذه عن الأدب الذي سبقه بطابع جديد، وبقوة أفكاره الجديدة: رؤيا نهاية الوثنية، السلام الأبدي، والتاريخ العالمي[٤].

---

[١] ص ٢٠٧.

[٢] ص ٢١٦-٢٢١

[٣] ص ٢٢٢.

[٤] ص ٢٤٩

أسلوب إشعياء

أسلوب إشعياء أسلوب راقٍ، وقدرته على التعبير عظيمة، ونبرة حديثه مرتفعة وعاصفة، وحماسه يثير الانفعال والتأثر، وأسلوبه ليس بالأسلوب الرقيق الهادىء مثل: "مياه شيلوه الجارية بسكوت"، لكن أسلوب عاصف ينسكب مثل تدفق المياه في الشلال: "ماذا تجديني كثرة ذبائحكم، يقول الرب. أتخمت من محرقات كباش وشحم المسمنات، ولا أسر بدم عجول وخرفان وتيوس. حين جئتم لتمثلوا أمامي مَن طلب منكم أن تدوسوا دوري؟!" فشخصيته تضيف إلى أقواله بُعد العمق؛ فهي تنطلق من قلب النبي المنحاز إلى مرسله انحيازًا تامًا: "ربيت أبناء وأنشأتهم ولكنهم تمردوا علي". إنها صرخة خيبة أمل أب، ربَّى أبناءه بحب وإخلاص ورحمة، وهم الجاحدون – هجروه. "وعندما انتظرت أن يثمر لي عنبًا، أنتج حصرمًا؟"– وهنا أيضًا صرخة ألم فلاح عمل واجتهد على مر السنين لإنتاج العنب الطيب، وبذل فيه كل جهده ومحبته وأمله وإذا بخيبة الأمل المريرة. إن أقوال إشعياء عبارة عن قصيدة شعرية شخصية نارية في نداءاتها وتساؤلاتها الانفعالية.

مع ذلك تظهر فصاحة إشعياء في التشبيهات والصور وفي كل جماليات القصيدة؛ فهو يحب رسم صور عريضة وعظيمة وكاملة، وملموسة وحية. أما أسلوبه ففيه مزج وخلط رائع لقوة المشاعر مع موهبة التشكيل الوصفي، التي تشكل وتبلور تشبيهاته وصوره بكل تفاصيلها.

سوف نتناول بعض النماذج البارزة للصور والتشبيهات ونقف على الوسائل الفنية في أسلوب إشعياء الرائي والشاعر الموهوب:

البركانُ يقذف الأحجار الكريمة،

ساحرٌ كبيرٌ في سحر الألفاظ،
وهيب الكلمات.[1]

صور وتشبيهات

١. يصور إشعياء الشعب بالإنسان المريض والمصاب: "إن الرأس بجملته سقيم والقلب بكامله مريض. من أخمص القدم إلى قمة الرأس ليس فيه عافية. كله جروح وأحباط وقروح لم تنظف، و لم تضمد و لم تُليَّن بالزيت" (١: ٥-٦). يجب أن نشير هنا إلى كمال الصورة وتفاصيلها؛ فالإنسان مريض من الداخل ومن الخارج: القلب والرأس سقيمان، والجسد كله تغطيه الجروح من أخمص القدم وحتى الرأس. ويذكر أنواع الجروح الثلاثة بشكل تصاعدي: الجروح والأحباط والقروح؛ أما أنواع العلاج فيذكرها بشكل تنازلي: لم تنظف، لم تضمد، لم تنظف بالزيت — وهو أبسط أنواع العلاج. هكذا تصبح لدينا صورة كاملة لإنسان مصاب ومريض، ومثخن بالجراح، بلا طبيب يداويه أو مضمِّد لجراحه.

٢. التشبيه بالتضاد:

الثور يعرف قانيه	والحمار معلف صاحبه
إسرائيل لا يعرف	شعبي لا يفهـــــم. (١: ٣)

بهذه الصورة يزيد الانطباع بنكران إسرائيل للجميل ولخيانته لربه؛ فالثور والحمار يعرفان صاحبيهما اللذين يعتنيان بهما، أما إسرائيل فلا يعرف.

٣. "فبقيت ابنة صهيون كمظلة في كرم، كخيمة في مقثأة، كمدينة محاصرة" (١: ٨). هنا يشبِّه أورشليم بالمظلة المهجورة في الكرم بعد الجني. فقد كانت قبل

[1] الشاعر تشرنحوفسكي من قصيدة "أنا لا أملك شيئًا مما عندي".

ذلك كرمة مليئة ببهجة جُنَاة المحصول، وكان يقف في المظلة مشرفٌ على الجناة وعلى عناقيد العنب. أما الآن فلا يوجد جاني ولا حارس، وتقف المظلة وحيدة بلا حراسة.

وتعبر هذه الصورة عن ضعف المدينة؛ حيث أن المظلة بناءٌ ضعيفٌ لا يجب الاعتماد عليه، مثل ضُعف وعزلة مبيت حارس القثاء في المقثأة، بعد انتهاء موسم جمع القثاء، فلا تكون هناك حاجة إلى وجود حارس ليبيت ليلًا في مبيته. والصورة الثالثة – المدينة المحاصرة — تذكِّر على الفور بكل فظائع الحصار: الجوع والعطش، الأوبئة والموت. نجد هنا أيضًا ثلاثة تشبيهات بترتيب تصاعدي ترسِم معًا صورة كاملة ومفصَّلة لوضع أورشليم.

٤. التفصيل والتكرار والصعود من مرحلة إلى مرحلة بنغمة تصاعدية، يترك انطباعًا عظيمًا على المستمع والقارئ: "ويلٌ للأمة الخاطئة!" لكنه لا يكتفي بذلك فيضيف وصفًا بعد وصف وكل وصف أشد وأقوى من سابقه: "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد المفسدين". وحتى في إثمهم هناك تدرج في قربهم من الرب: "الأمة، الشعب، نسل، أولاد. والتعبير الأخير "أولاد المفسدين" هو ذروة المرارة والإحباط. وكذلك: "تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى الوراء". وبالتأكيد "استهانوا" أشد من "تركوا" و"ارتدوا" أقساهم جميعًا. و"احتقروا" تفسيرها: أغضبوا، أما "ارتدوا إلى الوراء" فمعناها تراجعوا من أمام الرب وأداروا له ظهورهم.

وفي الإصحاح الأول كذلك: "محرقات كباش، وشحم مسمَّنات، ودم عجول، وخرفان وتيوس"؛ "شبعت ... لا أُسرُّ ... من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا

دوري؟"؛ "اسمعوا ... أنصتوا"؛ "ربيت ونشَّأت"؛ بغضت نفسي، صارت على ثقلًا، مللت حملها".

ربما كان ذلك السبب الأسلوبي في عدم اكتفاء إشعياء بطلب واحد أو اثنين مثل عاموس، أو هوشع، لكنه يعدِّد ويفصل تسعة عشر طلبًا: "اغتسلوا، تنقوا، اعزلوا ..." (١: ١٦).

٥. يشبه الخطايا بلون "القرمز" الأحمر، والدودي، والنقاء بلون الثلج والصوف. (١: ١٨).

٦. يشبه أورشليم الخائنة بالمرأة الزانية (١: ٢١)، مثل هوشع.

٧. يشبه إبعاد الأشرار عن صهيون بتنقية الفضة بإزالة الشوائب والقصدير منها (٢٥).

٨. وقفنا عند الحديث عن رؤيا آخر الأيام في الإصحاح الثاني على ثلاث صور لإشعياء: جبل الرب على رأس الجبال؛ هرولة الشعوب إلى بيت رب يعقوب؛ وتحطيم الأسلحة وتحويلها إلى أدوات زراعية.

٩. في وصف يوم الرب مثال بارز ومهم للتدريج التنازلي؛ فهو يبدأ بـــ"أرز لبنان العالي والمرتفع"، ثم "بلوط باشان"، ثم "الجبال العالية" ثم "التلال المرتفعة". ويستمر في النزول: برج عال، سور منيع، سفن ترشيش، الأعلام البهجة، الموجودة في داخل السفن والقصور. وفي كل صورتين تكون الأولى أعلى من الثانية: الأرز والبلوط، الجبل والتل، البرج والسور، السفن والأعلام، انتهاءً بالإنسان الذي توجه إليه النبوءة تحديدًا: "فيخفض تشامخ الإنسان وتوضع رفعة الناس،" ثم التناقض التام الذي هو ذروة كل الفقرة: "ويسمو الرب وحده في ذلك اليوم". فيوصف يوم

الرب بأنه مثل الرياح العاتية التي تمر على الجبال والتلال مخضعة لكل شيء مرتفع وعال. والشيء الجميل على وجه الخصوص والذي يحمل الكثير من المعاني هو العلاقة بين إخضاع الجبال والتلال المرتفعة بالرؤيا السابقة لـــ"يوم الرب" الذي يرتفع فوق "كل الجبال العالية، وعلى كل التلال المرتفعة". فتذل الجبال والتلال ويسمو هو.

١٠. وفي الإصحاح الثالث مثال آخر لتفصيل كل مصوغات بنات صهيون، وعلى رأسه الوصف الجميل لخطواتهن المتمايلة، وغمزات عيونهن، وأعناقهن الممدودة؛ حيث أمامنا صورة متكاملة لبنات صهيون النبيلات والثريات، المتفاخرات المتزينات، ولكل وسائل الجمال والأناقة في المدينة الكبيرة: الملابس الفاخرة، الحُلَل والمحارم والخواتم والأقراط والعطور والحلي.

١١. الإصحاح الخامس، في مثال الكرمة، صورة متكاملة ومفصَّلة لغرس الكَرْم وتدميره. فغارس الكرم يختار قطعة أرض خصبة "على تل خصيب". وينظف الأرض من الحجارة، ثم يجهزها (يحرثها وينقيها من الحجارة)، ثم يبنى سورًا (من الحجارة) وحوله حاجزًا من الشوك، ثم يغرس شتلات منتقاة من العنب "سَوْرق" ممتاز، ويبنى برجًا في داخله (وليس مظلة ضعيفة، كما ذكرنا في ١: ٨)، وينقر في الصخرة معصرة. وبعد أن نعلم عن كل عمله المتفاني، ندرك السؤال الأليم: "ماذا يُصنَع لكرمي وأنا لم أصنعه له؟" ومن المثير للاهتمام كثيرًا تشبيه شعب إسرائيل بكرمة رب الجنود؛ فمهمة شعب إسرائيل هي زراعة العنب الطيب (الأعمال الطيبة) ليعم بالخير والفائدة على العالم كله، لكن بدلًا من الحق والعدل يقدم الشعب مثالًا للظلم والاضطهاد.

١٢. في نهاية الإصحاح الخامس وصف لجيش آشور: خفَّة حركته، وصرامته، وسرعته، وتنظيمه، وتجهيزه، وبطولاته وانتصاراته، وعظمته وفظاعته.

١٣. في الإصحاح السادس، في رؤيا التكليف، وصف للرب وحاشيته، وتشبيه الشعب بـــ"البطمة والبلوطة" في فصل الخريف.

١٤. في الإصحاح السابع تشبيه "رصين" ملك أرام، و"فقح بن رمليا" ملك إسرائيل بالشعلتين المدخنتين اللتين لا تشعلان نارًا إنما يخرج منهما الدخان فقط؛ فيتحرك قلب آحاز فيه خوفًا "كأشجار الغابة تهزها ريح عاصفة".

١٥. تشبيه ملك آشور بالموسي المستأجرة (٧: ٢٠) بالعصا والقضيب، والبلطة والمنشار (١٠: ٥، ١٥).

١٦. في الإصحاح الحادي عشر الصورة المثالية الساحرة للسلام والسكينة بين حيوانات الغابة وبهائم البيت والإنسان: أبناء الحيوانات والبهائم رابضة تلعب معًا على الحشائش، وغلام يسوق البقر والغنم مع الحيوانات المفترسة. والأسد يربض أمامه ورأسه في كومة التبن، والأطفال يمرحون مع الثعابين. هناك حاجة بالفعل إلى خيال مبدع وجريء من أجل رسم هذه الصورة الخيالية الحية.

١٧. ستمتلأ الأرض بمعرفة الرب "كما تغمر المياه البحر". نتعلم من هذا التشبيه أن معرفة الرب ستحيط العالم كله بشكل دائم وبكمال وتعمق.

١٨. يشبه سياسة النبي إشعياء بـــ"مياه شيلوه الجارية بسكوت"، وملك آشور بـــ"مياه النهر القوية والكثيرة" نهر الفرات العظيم الذي يفيض على ضفتيه (٨: ٦-٧).

١٩. صورة الهاوية في الإصحاح ١٤: ليست هاوية صامتة وحزينة؛ إنما هاوية يقظة وسعيدة بسقوط ملك بابل الشرير. ويفيق الموتى من غفوتهم الأبدية، ويقوم الملوك من على عروشهم. وفي الهاوية أيضًا يظل الفرق بين الملوك الجالسين على عروشهم وبين الأموات الآخرين. (صورة مختلفة تمامًا نجدها في أيوب ٣)؛ فالملوك الذين أسقطهم ملك بابل في الهاوية سعداء بسقوط الطاغية ويسخرون منه. ويشبه ملك بابل بـــ"زُهرة بنت الصبح" (نجم الصباح)، ووصف السقوط المفاجيء المدهش من القمة إلى القاع وصف جميل للغاية.

٢٠. وصف حصار أورشليم (٢٢: ٥-٧): المعارك خارج المدينة في الجبال والأودية، ونقب السور، والحرب عند بوابة المدينة، والفوضى والهزيمة، والاضطرابات. ثم وصف كل استعدادات يهوذا قبل الحصار: تحصين السور، الحرص على التزود بالمياه والسلاح.

٢١. سقوط السامرة في أيدي الأعداء "كباكورة التين قبل موسم الصيف التي يراها الناظر فيقطفها ويبتلعها" (٢٨: ٤).

٢٢. في الإصحاح ٢٨ وصف لعمل الفلاح بكل تفاصيله على مدار السنة: الحرث، الزرع، شق الأرض، الدرس، الطحن، وطرق الزراعة والدرس والخبط بحسب اختلاف أنواع الحبوب (٢٣-٢٨).

٢٣. آمال جيش آشور الذي عسكر حول أورشليم أيام سنحريب، فيصوره إشعياء بالحلم الهباء: "وكما يحلم الجائع أنه يأكل ثم يستيقظ من غير أن يشبع جوعه، وكما يحلم الظامئ أنه يشرب ثم يفيق من غير أن يرتوي عطشه، هكذا يكون جمهور الأمم كلها المتألبين على جبل صهيون" (٢٩: ٨).

٢٤. وفي الإصحاح الثلاثين يصور جدار ينهار ويتحطم إلى قطع صغيرة مثل الفخار المكسور "فلم تبق منه شفقة لالتقاط نار من الموقد أو لغرف ماء من الجب" (١٤).

٢٥. سيحمى الرب صهيون مثلما يحمي الأسد فريسته، وكالعصافير التي تحمي صغارها (٣١: ٤-٥).

لا تلخص هذه القائمة بالطبع جميع تشبيهات وصور النبي إشعياء، لكنها تعطينا لمحة عن خياله وعن طرق تصويره.

التأنيس والتجسيد

ككل شاعر يُكثر إشعياء أيضًا من تجسيد المفاهيم المجردة ومن تأنيس أشياء غير بشرية؛ فعندما يقول: "لأنه سيرتدي البر ويتمنطق بالأمانة"، فإنه يجسد مفاهيم البر والأمانة. وعندما يقول: "فإنه هو ذا السيد رب الجنود يترع من أورشليم ومن يهوذا السند والركن" (٣: ١)، فهو يجسد مفهوم "المساعدة". وكذلك عند وصفه خوف آحاز "كأشجار تهزها ريح عاصفة" (٧: ٢). وعند رغبته تجسيد غطرسة بني أفرايم وضع في فمهم صورة تجسيدية: "لقد تساقط اللبن ولكننا سنبني بحجارة منحوتة، قد قطع الجميز ولكننا نعتاض عنه بخشب الأرز" (٩: ٩). ويشبه احتلال آشور السريع والسهل "كما يجمع الإنسان البيض المهجور" (١٠: ١٥).

لا حاجة إلى الإكثار من أمثلة التجسيد، فالأهم هو النظر إلى التأنيس الذي يُعدُّ أحد الوسائل الفنية الطبيعية جدًا في الشعر والنبوءة. أولًا؛ يصور النبي الشعب كله بشخص واحد له أعضاء وحواس خاصة به: "غلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّل أذنيه" (٦: ١٠)، "في ذلك اليوم يخبو مجد يعقوب وتذوب سمانة بدنه" (١٧: ٤)، "تعالوا

يا شعبي وادخلوا إلى مخادعكم، وأوصدوا أبوابكم خلفكم. تواروا قليلًا حتى يعبر السخط" (٢٦: ٢٠)، "من أخمص القدم إلى قمة الرأس، ليس فيه عافية" (١: ٦)، "ها العذراء ابنة صهيون قد احتقرتك واستهزأت بك" (٣٧: ٢٢).

وكذلك تحدث عن الشعوب الأخرى؛ فقال عن آشور: "ويل لك أيها المخرب وأنت لم تخرب" (٣٣: ١)؛ وعن مصر: "وتهراق روح مصر داخلها" (١٩: ٣)؛ وعن صُور: "خذي عودًا، طوفي في المدينة ... أحسني العزف، أكثري الغناء" (٢٣: ١٦)؛ وعن مؤاب: "لذلك تولول مؤاب" (١٦: ٧).

حتى المدينة والأرض والطبيعة تعتبر جميعًا مخلوقات ذات صفات بشرية: "اسمعي أيتها السماوات، وأصغي أيتها الأرض" (١: ٢)؛ "ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة" (٢٤: ٤)، "انتحبت الخمرة وذبلت[1] الكرمة"(٧)، "ترنحت الأرض ترنحًا كالسكران" (٢٠)؛ وقال البحر: "لم أتمخض ولا ولدت ولا ربيت شبابًا" (٢٣: ٤)، "حتى السرو يفرح عليك، وأرز لبنان" (١٤: ٨). وحتى الموت والهاوية شخصيات حية: "قد عقدنا عهدًا مع الموت، وصنعنا ميثاقًا مع الهاوية" (٢٨: ١٥)؛ "ثارت الهاوية من أسفل لاستقبالك" (١٤: ٩).

وأهم عملية تأنيس على الإطلاق هي بالطبع تأنيس الرب ذاته؛ فيصفه إشعياء يتألم من أجل شعب إسرائيل (ربيت بنين ونشَّأتهم)؛ والرجل يمتلك أعضاء وحواسًا ورغبات: "أتخمت من محرقات كباشكم ... حينما تأتون لتظهروا أمامي ... بغضتها نفسي ... أستر عيني عنكم ... لا أسمع" (١: ١١-١٦)؛ "وأرد يدي عليك" (٢٥)؛ "ويهز يده على النهر" (١١: ١٥)، "هزة يد رب الجنود" (١٩:

[1] الكلمة العبرية אומללה بمعنى تعست.

١٦)؛ "ويده هي الممدودة فمن يردها؟" (١٤: ٢٧). "هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر" (١٩: ١)؛ "في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه" (٢٧: ١)؛ "لأنه قد روى في السماوات سيفي" (٣٤: ٥)؛ "هوا ذا اسم الرب يأتي من بعيد، غضبه مشتعل ... شفتاه ممتلئتان سخطًا، ولسانه كنار آكلة ... ويسمع الرب جلال صوته، ويرى نزول ذراعه ..." (٣٠: ٢٧-٣١).

وفي مثال الكرمة يوصف الرب على أنه صاحب الكرمة، وفي إصحاح حارسًا لها (١٧: ٢-٤). وفي رؤيا التكليف يجلس الرب على عرش مرتفع وأهدابه تملأ الهيكل. والرب أيضًا قائد جيش حرب (١٣: ٤). كل هذه التشبيهات مجرد وسائل شعرية للتعبير عن أفكار مجردة واضحة المعنى؛ فالرب يقود العالم، ويعاقب الأشرار، وينتقم للأبرار. ويتصرف كما لو كان يمتلك مشاعر ورغبات، وحب وكراهية، وغضب ورحمة؛ لكن الرب في الحقيقة ليس كالإنسان، ولا يمتلك جسدًا، ولا صفات بشرية؛ فهو يسمو فوق كل شيء ومجده يملأ العالم.

التقابل والوزن[1]

"التقابل" من السمات الشعرية الرئيسية لأشعار العهد القديم وموجود في أقوال إشعياء في كل إصحاح تقريبًا (السفر به أيضًا بعض الإصحاحات المنثورة). ولن نعرض هنا لكل ما ورد إنما سنكتفي ببعض النماذج فقط:

١. **التقابل الترادفي** (ازدواج بكلمات مختلفة):

יָדַע שׁוֹר קֹנֵהוּ   וַחֲמוֹר אֵבוּס בְּעָלָיו

[1] من الضروري أن نعلم أن أمثلة تقسيم البيوت الشعرية بحسب الوزن أساسها النص العبري وليس الترجمة العربية.

יִשְׂרָאֵל לֹא יָדַע   עַמִּי לֹא הִתְבּוֹנָן.

الثور يعرف قانيه   والحمار معلف صاحبه

إسرائيل لا يعرف   شعبي لا يفهـــــم. (١: ٣)

- (وزن ثلاثي: أي ثلاث نبرات فوق كل شطر).

שִׁמְעוּ דְבַר יְהוָה קְצִינֵי סְדֹם הַאֲזִינוּ תּוֹרַת אֱלֹהֵינוּ עַם עֲמֹרָה.

اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم أصغوا إلى شريعة إلهنا

يا شعب عمورة (١: ١٠)

- (وزن خماسي، غير عادي، فالوزن عادة ما يكون ثلاثيًا أو رباعيًا).

כִּי מִצִּיּוֹן תֵּצֵא תוֹרָה   וּדְבַר יְהוָה מִירוּשָׁלִָם

لأنه من صهيون تخرج الشريعة   ومن أورشليم كلمة الرب (٢: ٣)

- (وزن ثلاثي على الرغم من وجود أربع كلمات في الشطر الأول، لأنه ليس به سوى ثلاث نبرات).

וְכִתְּתוּ חַרְבוֹתָם לְאִתִּים,   וַחֲנִיתוֹתֵיהֶם לְמַזְמֵרוֹת

فيطبعون سيوفهم سككًا   ورماحهم مناجل (٢: ٤)

- (الوزن هنا أيضًا ثلاثي على الرغم من أن الشطر الثاني به كلمتين فقط).

قد هبط اللبن فتبنى بحجارة منحوتة قُطع الجميز فنستخلفه بأرز (٩: ٩ — وزن رباعي)

٢. **التقابل التكاملي** (الشطر الثاني يكمل الشطر الأول عبر إضافة فكرة أو معنى):

يكون أصلهم كالعفونة　　　ويصعد زهرهم كالغبار (٥: ٢٤)

أنزع سياجه فيصير للرعي　　　أهدم جدرانه فيصير للدوس(٥: ٥)

فتبيد حكمة حكمائه　　　ويختفي فهم فهمائه (٢٩: ١٤)

ويكون البر منطقة متنيه　　　والأمانة منطقة حقوبه (١١: ٥)

٣. **وزن الرثاء:** ويطلق على أوزان الفقرات التي لا تنقسم إلى شطرين متساويين في عدد الكلمات والنبرات، ويكون الشطر الثاني أقصر من الشطر الأول. وعلى الرغم من وجود هذا الوزن في أشعار الحزن، إلا أن أشعار الرثاء في العهد القديم لم تأتِ جميعها على هذا الوزن لكنه هو موجود في أشعار أخرى، وفي إشعياء أيضًا:

إن كانت خطاياكم كالقرمز　　　تبيض كالثلج

إن كانت حمراء كالدودي　　　تصير كالصوف (١: ١٨)

لأنه على قطافك وعلى حصادك　　　قد وقعت جلبة

لا يدوس دائس خمرًا في المعاصر　　　أبطلت الهتاف (١٦: ٩-١٠)

ولقد استخدم إشعياء وزن الرثاء على وجه الخصوص في نبوءة بابل (١٣-١٤) التي فيها رثاء على ملك بابل:

استراحت اطمأنت كل الأرض　　　هتفوا ترنموا

حتى السرو يفرح عليك　　　وأرز لبنان

أأنت أيضًا قد ضعفت نظيرنا　　　وصرت مثلنا

اهبط إلى الهاوية فخرك　　　رنّة أعوادك. (١٤: ٧-١١)

كما نجد في إشعياء أسلوب الرثاء، مع وزن الرثاء:

كيف صارت القرية الأمينة زانية؟ (١ :٢١)

كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح؟ (١٤: ١٢)

كيف باد الظالم بادت المغطرسة (١٤: ٤)

التقابل التقاطعي (أ ب، ب أ)

يطلق على التقابل الذي يقابل فيه الجزء الأول من الشطر الأول، الجزء الثاني من الشطر الثاني، والجزء الثاني من الشطر الأول، الجزء الأول من الشطر الثاني، على سبيل المثال:

וְשִׁעֲשַׁע יוֹנֵק עַל חֻר פָּתֶן
וְעַל מְאוּרַת צִפְעוֹנִי גָּמוּל יָדוֹ הָדָה.

(أ) ويلعب الرضيع (ب) على سرب الصل

(ب) وعلى جحر الأفعوان (أ) يمد الفطيم يده (١١: ٨)[١]

ومعنى الفقرة أن الطفل الرضيع سيلعب على سرب الصل، والفطيم سيمد يده على جحر الأفعوان. ولا شك في أن "يمد الفطيم يده" تقابل "ويلعب الرضيع"، وكذلك "وعلى جحر الأفعوان" تقابل "على سرب الصل". ويمكن القول إن هذا التقابل تقاطعي ويسمى khiasmos في اليونانية لأن له شكل حرف "خي" اليوناني.

---

[١] الترجمة العربية هنا جاءت بعكس الواردة في النص الذي أنقل عنه ترجمة الفقرات، وذلك لتُوافق الترتيب العبري؛ لأنه كما ذكرت فإن الأمثلة الواردة في الشعر تعتمد في الأساس على النص العبري وليس على الترجمة العربية المعتمدة.

הַשְׁמֵן לֵב הָעָם הַזֶּה וְאָזְנָיו הַכְבֵּד וְעֵינָיו הָשַׁע
פֶּן יִרְאֶה בְעֵינָיו וּבְאָזְנָיו יִשְׁמָע וּלְבָבוֹ יָבִין

غلظ قلب هذا الشعب، وثقل أذنيه، واطمُس عينيه
لئلا يبصر بعينيه، ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه (٦: ١٠)

لا شك في أن ترتيب التقابل هنا هو: أ، ب، ج — ج، ب، أ. "ويفهم قلبه" تعود على "غلظ قلب هذا الشعب"، و"لئلا يبصر بعينيه" تعود على "واطمس عينيه".

وهناك فقرات لا يمكن فهمها بدون ملاحظة شكل هذا التقابل مثل:

ويل لإكليل فخر سكارى أفرايم وللزهر الذابل جمال بهائه
الذي على رأس وادي سمائن المضروبين بالخمر (٢٨: ١)

"المضروبين بالخمر" هي وصف "سكارى أفرايم"، والشطر الأول في الفقرة الثانية "الذي على رأس وادي سمائن" هو وصف للسامرة المبنية على رأس تل في وادي سمائن، والذي يسمى في الشطر الثاني من الفقرة الأولى: "للزهر الذابل جمال بهائه".

(أ) هوذا شديد وقوي للسيد (ب) كانهيال البرد، كنوء مهلك
(ب) كسيل مياه غزيرة جارفة (أ) قد ألقاه إلى الأرض بشدة

(الشعب القوي سيلقي إلى الأرض بقوة يده إكليل فخر سكارى أفرايم، مثل انهيال البرد العاصف والمميت وكسيل المياه الغزيرة الجارفة).

نماذج أخرى للتقابل المتقاطع نجدها في: ٢٥: ٤-٥، ٢٥: ١١.

الجناس والتلاعب بالألفاظ

إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض

وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف (١: ١٩–٢٠)

يوجد هنا أيضًا تقابل بالتضاد؛ حيث العبارة الثانية تناقض العبارة الأولى.

رؤساؤك متمردون (١: ٢٣)

- كان لحبيبي كرم على أكمة خصبة (٥: ١).
- فانتظر حقًا فإذا سفك دم، وعدلًا فإذا صراخ (٥: ٧).
- إن لم تؤمنوا فلا تأمنوا (٧: ٩).
- ويوقد تحت مجده وقيدًا كوقيد النار (١٠: ١٦).
- بقية شعبه التي بقيت من آشور (١١: ١١).
- لأن مياه ديمون تمتلىء دمًا (١٥: ٩).
- تضج كضجيج البحر (١٧: ١٢).
- (עברו מעברה – عفروا معفيرا) عبروا المعبر، (ענייה ענתות- عنييا عناتوت) مسكينة هي عناثوث، (נדדה מדמנה – ناديدا مدمينا) اصهلي بصوتك (١٠: ٢٩–٣١).
- شَغَب ودوس وارتباك (٢٢: ٥).
- تفرغ إفراغًا، وتنهب نهبًا، ناحت ذبلت (٢٤: ٣–٤).
- رعب وحفرة وفخ (٢٤: ١٧).

- انسحقت الأرض انسحاقًا، تشققت الأرض تشققًا، تزعزعت الأرض تزعزعًا، ترنحت الأرض ترنحًا ... ويجمعون جمعًا... ويغلق عليهم في حبس (٢٤: ١٩-٢٢).
- نَوْح وحزن ... توانوا وأبهتوا ... تلذذوا وأعموا ... هأنذا أعود وأصنع بهذا الشعب عجبًا وعجيبًا (٢٩: ٢، ٩، ١٤).

إشارات ورموز وعروض تمثيلية

١. أسماء أبناء النبي عبارة عن رموز لأفكاره؛ فرأينا أن "شآر يا شوب" هو رمز لفكرة البقية، وكذلك يرمز "مهير شلال حاش بز" إلى احتلال دمشق والسامرة (٨: ٣). و"عمَّانوئيل" رمزًا لمساندة الرب ليهوذا ضد أرام وإسرائيل (٧: ١٥)، على الرغم من أنه ليس من الواضح إذا كان عمانوئيل هو ابن النبي أم ابن الملك.

٢. سير النبي حافيًا وعاريًا رمزًا وآية عن مصر وكوش (٢٠: ٣).

٣. حقيقة عدم وجود حاكم مناسب في يهوذا، وعدم رغبة أحد في المشاركة في حكومة "الفوضى"، يعبر عنها إشعياء في شكل عرض تمثيلي: "عندئذ يقبض الإنسان على أخيه في بيت أبيه قائلًا له: إن عندك ثوبًا، فاملك علينا لتنقذنا من هذه الفوضى. فيجيبهم: لست طبيبًا، ولا أملك طعامًا أو ثيابًا في بيتي، فلا تجعلوني رئيسًا للشعب" (٣: ٦-٧).

٤. يصور النبي حقيقة موت معظم الرجال في الحرب في عرضٍ تمثيلي حي: "في ذلك اليوم تشبثت سبع نساء برجل واحد قائلات: تزوج منا ودعنا ندعى على اسمك، وأزل عارنا ونحن نتكفل بطعامنا وثيابنا" (٤: ١).

٥. يصور لنا إشعياء في عرض تمثيلي حي ضعف حواس الشعب: "وصارت لكم هذه الرؤيا جميعها ككلمات كتاب مختوم، حين يتناولونه لمن يتقن القراءة قائلين: اقرأ هذا، يجيب: لا أستطيع إنه مختوم. وعندما يناولونه لمن يجهل القراءة قائلين: اقرأ هذا، يجيب: لا أستطيع القراءة".

٦. أكل "الزريعة" و"الخلفة" علامة على نجاة بقية يهوذا (٣٧: ٣٠).

المثـــال

يحتوي العهد القديم على ثلاثة أنواع من الأمثال: النوع الأول؛ المثال الشعبي القصير الذي تنقصه الصورة الأدبية المتقنة. والنوع الثاني؛ المثال الأدبي (ويضم سفر الأمثال مئات الأمثال الأدبية. والنوع الثالث؛ القصة المأخوذة من حياة النباتات أو الحيوانات أو الإنسان. والأنواع الثلاثة موجودة في سفر إشعياء:

نموذج على المثال الشعبي: "لنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت" (٢٢: ١٣). ونموذج على المثال الأدبي: "لأن السرير أقصر من أن تتمددوا عليه، والغطاء أضيق من أن تلتفوا به ..." (٢٨: ٢٠). ونموذج على مثال القصة: قصة صنع الكرم في الإصحاح الخامس.

ومثال القصة نفسه موجود في العهد القديم على صورتين: نثرًا وشعرًا. فمثال يوثام و"نعجة الفقير" من القصص النثرية؛ أما مثال "الكرمة" فهو مثال مكتوب بأسلوب شعري فهو يبدأ بكلمة "سأشدو"، وهو أيضًا أغنية الكرم، وفيه كل الملامح الفنية لشعر العهد القديم.

بالإمكان التمييز بين المثال القصصي الواقعي؛ الذي من الممكن أن يكون كل ما يحكى فيه حقيقي، وبين القصة الخيالية التي قد لا تكون أحداثها واقعية، مثال: مثال

يوثام. أما مثال الكرمة فينتمي إلى نوع القصة الواقعية؛ فالنبي يحكي عن أحداث طبيعية عادية ممكنة في الواقع فالإنسان يغرس الكرمة ويراعيها بعناية وحب وإذا بها حُصرما.

يعدُّ مثال الكرمة رمزًا وعرضًا تمثيليًا؛ فالنبي يفتتح بأنشودة عن الكرم، والمستمعون لا يعرفون بعد شيئًا عمَّا يقصد. فيعتقدون أنها قصيدة خمر عادية في آذانهم، عن الكرمة التي غرسها الإنسان في أرض خصبة. ويقوم صاحب الكرمة باتخاذ كافة الوسائل المطلوبة من أجل نجاحها، لكن الكرمة لا تثمر عنبًا بل حُصرُما. حينئذ يسأل صاحب الكرمة المستمعين: "أي شيء يمكن أن يُصنع لكرمي و لم أصنعه؟ وعندما انتظرت أن يثمر لي عنبًا، لماذا أنتج حصرمًا؟" هنا ينتقل النبي من المثال إلى المُمثَّل عندما يتوجه إلى الشعب بطلب الحق: "احكموا بيني وبين كرمي!" فيجعل من المتهمين أنفسهم قضاة؛ فالكرم هو مثال على شعب إسرائيل، لكن الشعب لا يرد، ربما لم يفهم بعد معنى المثال وربما يفهم جيدًا، لذلك لا يريد أن يحكم على نفسه. كذلك الحال في "نعجة الفقير" حيث جعل النبي ناثان من داود المتهم قاضيًا، لكن هناك يصدر داود الحكم على نفسه، أما هنا فالشعب يصمت، ويستمر النبي في إطلاق الحكم ويوضح للممثل له: "إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل، وغرس لذاته رجال يهوذا. فانتظر حقًا فإذا سَفْك دم، وعدلًا فإذا صراخ". لقد كان أمل الرب في أن يثمر الكرم (شعب إسرائيل) العنب (العدل والبر، والأعمال الطيبة) وإذا به يثمر الحصرم (الظلم، وتشويه الحكم، والرشوة وغيرها)؛ لذلك سيعاقب الرب الشعب لأنه هدم الكرم.

إن مثال الكرم هو عمل فني كامل ورائع في ذاته. فهو مكتوب على صورة جدل حماسي بين الرب وشعبه وفيه الكثير من الوسائل الفنية من شعر إشعياء:

الرابط الشخصي، التقابل، الاستعارة، التكرار، الجناس، وصور حية حقيقية (غرس الكرم وتدميره) وما إلى ذلك. وينظر إلى الكرم هنا على أنه شخصية (تأنيس): فالنبي يطالب بالحكم بينه وبين كرمه، كما لو كان الكرم إنسانًا مسئولًا عن أفعاله.

غير أن عمل الكرم لا يسمى صراحة "مثالًا"؛ وفي المقابل يطلق على الرثاء على سقوط ملك بابل "مثال" (١٤: ٤). فالنبوءة عن سقوط بابل (أو آشور بحسب قويفمان) ليست مثالًا ولا قصة من عالم النبات أو الحيوان أو الإنسان لكنها أشعار عن سقوط كوكب "زهرة بنت الصبح" من السماء إلى الهاوية. وفي العهد القديم نوعٌ رابع من "المثال" في شكل شعر تصويري تعليمي رمزي. وبهذا المفهوم يقول حبقوق: "فهلا ينطق هؤلاء كلهم بهجو عليه ولغز شماتة به" (٢: ٦)، هكذا يطلق إشعياء مثالًا على ملك بابل. وهذا المثال أيضًا عمل فني متكامل ورائع يحتوي على معظم الوسائل الفنية لشعر إشعياء مثل: التقابل (وزن الرثاء!)، والتجسيد والتأنيس، وتشبيهات وصور، وتعجب وتساؤلات، والتضاد القوي، والسخرية والتشفي فسقوط ملك بابل رمز ومثال لسقوط كل ممالك الشر الوثنية.

وسائل فنية أخرى

١. الافتتاحية الاحتفالية للنبوءة

- اسمعي أيتها السماوات وأصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم (١: ٢).
- اسمعوا كلمة الرب يا حكام سدوم، أصغوا إلى شريعة إلهنا يا أهل عمورة (١: ١٠).
- ويل للآشوريين، قضيب غضبي، الحاملين في أيديهم عصا سخطي (١٠: ٥).

- ويل تاج فخر سكارى أفرايم، ولزهرة جمالها المجيدة الذابلة (٢٨: ١).
- ويل لأورشليم المدينة التي استقر فيها داود (٢٩: ١).
- ويل للمنحدرين إلى مصر طلبًا للعون، المتوكلين على الخيل (٣١: ١).
- ها العذراء ابنة صهيون قد احتقرتك واستهزأت بك (٣٧: ٢٢).

٢. التضاد الشديد

- الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه؛

  إسرائيل لا يعرف، شعبي لا يفهـــــم (١: ٣).
- كان العدل يبيت فيها، وأما الآن فالقاتلون (١: ٢١).
- فانتظر حقًا، فإذا سفك دم، وعدلًا، فإذا صراخ (٥: ٧).
- الشعب السالك في الظلمة، أبصر نورًا عظيمًا (٩: ١).
- فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي (١١: ٦).
- كيف سقطت من السماء يا زهرة، بنت الصبح (١٤: ١٢).
- وعلى خيل سريعة نركب، لذلك يسرع طاردوكم (٣٠: ١٦).

٣. التساؤلات

- لماذا لي كثرة ذبائحكم؟، يقول الرب (١: ١١).
- من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري؟ (١: ١٢).
- وعندما انتظرت منه أن يثمر لي عنبًا، لماذا أنتج حصرمًا؟ (٥: ٤).

- هل تفتخر الفأس على القاطع بها، أو يتكبر المنشار على مردِّده؟ (١٠: ١٥).
- أهذا هو الرجل الذي زلزل الأرض، وزعزع الممالك؟ (١٤: ١٦).
- لمن يعلم معرفة، ولمن يفهم تعليمًا؟ أللمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي؟ (٢٨: ٩).
- ما لك ههنا؟ ومن لك ههنا حتى نقرت لنفسك ههنا قبرًا (٢٢: ١٦).

٤. الجدل والحوار

- هلم نتحاجج، يقول الرب (١: ١٨).
- احكموا بيني وبين كرمي (٥: ٣).
- جدال النبي مع المستهزئين في أفرايم (٢٨: ٩-١٥).

٥. **عبارات قصيرة** تعبر بعدد قليل من الكلمات عن فكرة كبيرة أو صورة كاملة:

- أيديكم ملآنة دمًا (١: ١٥).
- سَلَبُ البائس في بيوتكم (٣: ١٤).
- تشاوروا مشورة فتبطل (٨: ١٠).
- بالرجوع والسكون تخلصون (٣٠: ١٥).
- لنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت (٢٢: ١٣).
- ويصافحون أولاد الأجانب (٢: ٦).
- رَهَب الجلوس (٣٠: ٧).

٦. ذكر الأحداث التاريخية

من الطبيعي أن يكون النبي الذي تشغل أمور الدولة مساحة كبيرة في نبوءته؛ صاحب وعي تاريخي ويذكر الأحداث التاريخية. ولقد ورد بالفعل في أقوال إشعياء عدد لا بأس به من الأحداث التي وقعت في عصور سابقة:

– تقليب سدوم وعمورة: "لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة" (١: ٩). "وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين، كتقليب الله سدوم وعمورة" (١٣: ١٩).

– الرب الذي فدى إبراهيم (٢٩: ٢٢).

– الخروج من مصر وعبور البحر: "وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من آشور، كما كان لإسرائيل يوم صعوده من أرض مصر" (١١: ١٦) وكذلك ١٠: ٢٦.

– حرب يشوع في وادي جبعون (٢٨: ١)، والإشارة إلى احتلال كنعان (١٧: ٩).

– الإشارة إلى عامود النار وعامود السحاب في البرية (٤: ٥).

– ذكر محاربة جدعون للمديانيين مرتين: "كسرتهن كما في يوم مديان" (٩: ٣)، "كضربة مديان عند صخرة غراب" (١٠: ٢٦).

– محاربة داود للفلسطينين "كما في جبل فراصيم يقوم الرب" (٢٨: ٢١، صموئيل الثاني ٥: ٢٠).

– انقسام المملكة أيام رحبعام (٧: ١٧).

– احتلال آشور لمملكة إسرائيل في زمن منحم وزمن فقح (٥: ٢٣).

غير أن الغرض من ذكر تلك الأحداث ليس الموعظة الأخلاقية أو التأنيب أو تعلم الدرس، لكن نوعًا من تزيين النبوءة ووسيلة فنية من أجل تنويع أقوال النبي وإثراء مضموها.

الواقع والحياة اليومية في نبوءات إشعياء

يحتوي سفر إشعياء على معلومات كثيرة عن الواقع الإسرائيلي في عصر النبي. من المعلوم أن النبي لم يكن يقصد أن يخبرنا عن الحياة اليومية في عصره، لكن نبوءاته وصوره تحتوي على الكثير من التفاصيل المهمة تجعلنا نتعرف على الحياة في عصره، سنذكر بعض نماذج لها:

١. طريقة تضميد الجراح: "لم تعصر و لم تعصب و لم تلين بالزيت" (١: ٦).

٢. المظلة والخيمة في المقثأة (١: ٨).

٣. رأس الشهر كأحد الأعياد: "رأس الشهر والسبت ونداء المحفل لست أطيق الإثم والاعتكاف" (١: ١٣)، وكذلك في سفر عاموس ٨: ٥، وهوشع ٢: ١٣، وصموئيل الأول ٢٠: ٥، والملوك الثاني ٤: ٢٣.

٤. ألوان القرمز والدودي التي استخدموها في صبغ الصوف الأبيض (١: ١٨).

٥. صناعة المعادن، ونزع الشوائب والقصدير من الفضة (١: ٢٢).

٦. الحيوان والبهائم في إسرائيل في عصر إشعياء: الثور والحمار (١: ٣، ٣٢: ٢٠)، والحصان (٢: ٧، ٣١: ١)، والتيوس والجاموس، والثيران والخراف والتيوس

(١: ١١)، والبقر والغنم (٧: ٢١)، والجرذان والخفافيش (٢: ٢٠)، والقوق[1] والقنفذ، والبومة والغراب (٣٤: ١١)، والأسد واللبوءة والشبل (٥: ٢٩)، واللبوءة والليث، والأفعى والثعبان السام الطيار (٣٠: ٦)، والثعبان، والصل، والأفعوان (١١: ٨، ١٤: ٢٩)، والذئب والنمر والدب (١١)، والبقر الوحشي (٣٤: ٧)، والظبي (١٣: ١٤)، والجِحاش والجمال (٣٠: ٦، ٢١: ٧)، والذئاب وبنات النعام (٣٤: ١٣)، ووحوش القفر وبنات آوى، والنكازة والحدأة (٣٤: ١٥)، والبوم وبنات النعام (١٣: ٢١)، وبنات آوى والذئاب (١٣: ٢١)، وجوارح الجبال (١٨: ٦)، والحصان، والسنونة والحمامة (٣٨: ١٤)، والجراد (٣٣ : ٤)، والذباب والنحل (٧ : ١٨).

٧. بلوطة وأشجار فواكه، (١: ٣٠، ٢: ١٣، ٦: ١٣)، والجميز والأرز (٩: ٩)، وشجر السرو وأرز لبنان (١٤: ٨)، والزيتون (١٧: ٦)، والعنب والتين (٣٤: ٤، ٢٨: ٤، ٥، ١٦: ٨-٩)، وقرص تين (٣٨: ٢١).

٨. ملابس النساء وحُليهن ٣: ١٨-٢٤.

٩. عمل الفلاح (٢٨: ٢٣-٢٩): حراثة الأرض وتسويتها، وزراعة الشمر والكمون، والقمح والشعير، والقطاني، والدرس بالنورج، وبكرة العجل، والقضيب والعصا، والزراعة بالماء (٣٢: ٢٠). وكل أعمال غرس الكرم: الحرث وتنقية الحجارة، السور والجدران والبرج والمعصرة، والتقليم والتنقيب (٥: ١-٦). مياه التبن لتزبيل الأرض (٢٥: ١٠). تنقيب أرض الجبال بالمعول (٧: ٢٥)، وأعمال الحصاد (١٧: ٥)، وتقليم النباتات (١٨: ٥)، وجني الزيتون (١٧: ٦).

---

[1] طائر من فصيلة الغربان.

١٠. الأشواك: الشوك والحسك (٥: ٦)، غابات الشوك والمراعي (٧: ١٨–١٩). الشوك القريص والعوسج (٣٤: ١٣).

١١. أدوات العمل: الفأس والمنشار (١٠: ١٥)، والمعول (٧: ٢٥)، والمحاريث والمناجل (٢: ٤)، والرفش والمذراة (٣٠: ٢٤)، والغربال (٣٠: ٢٨)، والنورج، والعجلة (٢٨: ٢٧).

١٢. الكتابة بالنقش على اللوح وفي السِفر (٨: ١، ٣٠: ٨).

١٣. آلات العزف: العود والرباب والدف والناي (٨: ١٢)، والدفوف والعيدان (٣٠: ٣٢).

١٤. تقاليد الحزن: خلع الأحذية، وتمزيق الملابس، وارتداء المسوح (٢٠: ٢، ٣٧: ١)، والتأبين (٣٢: ١١–١٢).

١٥. صنع التماثيل وطلاؤها بالذهب والفضة (٣٠: ٢٢)، والسواري والشموس (١٧: ٨، ٢٧: ٩).

١٦. الولائم والاحتفالات وسكر أبناء السامرة (الإصحاح ٢٨).

١٧. الكراهية والغيرة بين أفرايم ويهوذا (١١: ١٣).

١٨. قيادات الشعب: رجال السلطة؛ الملك، والرؤساء، والشيوخ، والقضاة، والضباط، ورجال الحرب ورجال الفكر (كاهن، نبي، مستشار، حكيم، ساحر ٣: ١، ١٤، ١: ٢٦).

١٩. تتحدث النبوءات عن الأمم وتصف أوضاعها الاقتصادية والثقافية: كَرْم مؤاب (الإصحاح ١٦)، ومراكب كوش (الإصحاح ١٨)، والصيد في مصر

بالشصوص والشباك، وعملية غزل الكتان (الإصحاح ١٩)، والتجارة والملاحة في صور (الإصحاح ٢٣).

٢٠. حفر القبور في الصخور (٢٢: ١٦).

٢١. الاستعدادات في أورشليم قبل حصار سنحريب: فحص السلاح وإصلاح الأسوار وتحصينها، جمع مياه البركة السفلى وصنع خزان للمياه بين الأسوار (٢٢: ٨-١١). وهنا إشارة إلى قناة حزقيا المذكورة في سفر الملوك الثاني ٢٠: ٢٠، وأخبار الأيام الثاني ٣٢ :٣-٤.

٢٢. اللغة العبرية كان اسمها وقتها اللغة "اليهودية" (٣٦: ١١).

٢٣. النبوءة على شبنا (٢٢: ١٥-٢٥) والتي تُظهر جوانب خفية مثيرة في الحياة السياسية لعصر إشعياء. عيَّن الملكُ شبنا في منصب رفيع جدًا — الرئيس "الذي على البيت"- وشغل هذا المنصب من قبل يوثام بن الملك عزيا. بذلك يُعدُّ هذا المنصب أرفع منصب في بلاط الملك. غضب إشعياء من شبنا واتهمه بالغطرسة. وربما كان شبنا غريبًا وليس من أبناء يهوذا ونجح في شغل مركز قوة في الحكومة. يقول راشي إنه أراد أن يسلم حزقيا لملك آشور. ويفسِّر داود قمحي: "كان يميل إلى تسليم المدينة إلى ملك آشور، وكان على علاقة ببعض رجال المدينة ... ويبدو أن شبنا لم يكن من أبناء أورشليم، لكن جاءها وسكن فيها وأصبح موظفًا رفيعًا في بلاط الملك ... وكان يميل إلى ملك آشور وتسليم المدينة له نظرًا لكونه من وجهاء المدينة. وقال له: ماذا لك هنا ومَن لك هنا ... كي تقوم بمثل هذه الأشياء في المدينة؟". يطالب إشعياء باستبعاده عن منصبه الرفيع وتعيين ألياقيم بن حلقيا بدلًا منه. وبرغم من حصول ألياقيم على وظيفة "الذي على البيت" (الملوك الثاني ١٨: ١٨، وكذلك إشعياء ٣٦: ٣، ٣٧: ٢)، إلا أنه لم يتم استبعاد شبنا نهائيًا، بل

وحصل على وظيفة الكاتب وأصبح عضوًا في وفد ربشاقي (٣٦: ٣). وهنا نلاحظ أنه قد بقي يشغل منصب أحد الرؤساء الكبار في حكومة حزقيا. على أية حال يبدو أن إشعياء كان له تأثير كبير على أمور البلاط.

إشعياء والعصر الحديث[١]

ذكرنا في كلامنا عن عاموس أن مطالبه الأخلاقية والدينية تعتبر موجهة لجيلنا مثلما كانت موجهة لجيله. ومن الناحية الفنية أيضًا كان لإبداعه قيمة أبدية كبيرة. وينطبق هذا الكلام أيضًا على نبوءة إشعياء بشكل كبير.

ورد في وثيقة الاستقلال "تكون (دولة إسرائيل) مستندة إلى دعائم الحرية والعدل والسلام مستهدية بنبوءات أنبياء إسرائيل". أي أن الدولة تطلع إلى الأولوية الأخلاقية والثقافية والعلمية التي تعود جذورها إلى رؤيا الأنبياء بشكل عام، وإشعياء بشكل خاص.

إن رؤيا آخر الأيام عند إشعياء هي بمثابة المنارة التي تسير البشرية على هديها منذ عصره وحتى اليوم، والتي لا تزال تنير لنا الطريق؛ فالأمل في عالم أفضل وفي بشرية أسعد هو أحد أسباب وجود الإنسان بشكل عام، واليهودي بشكل خاص.

---

[١] كنت أفكر في حذف هذا الجزء الخاص بإشعياء والعصر الحديث وعدم ترجمته كي لا أتهم بالترويج لدولة إسرائيل، لكن بعد تفكير قررت الإبقاء عليه وترجمته لأن الكتاب في الديانة اليهودية في المقام الأول، وأن هذا الجزء الذي يحاول الربط بين دولة إسرائيل والأنبياء لا يمثل الديانة اليهودية فالصهيونية حركة سياسية استغلت الديانة اليهودية في الترويج لأهدافها، وكذلك ليرى اليهود أنفسهم أنهم لا يطبقون ما يدعو إليه أنبياؤهم من سمو أخلاقي وتسامح حتى مع غير اليهود بحسب نبوءات أنبيائهم. (المترجم)

كما أن الوثنية في صورها الحديثة لم تختف عن عالمنا: السجود للإنسان، والذهب والتكنولوجيا، واللهث خلف هذا العالم، وخلف الرفاهية والجشع، والقيم المادية والحُكم.

ختامًا؛ إن مطالب أنبياء إسرائيل في أن تصبح الحياة الشخصية والسياسية وفقًا للمثل العيا وليس وفقًا للدوافع المادية والجسدية فقط لأمر مهم للأجيال الحالية. وهو بلا شك أحد الأفكار الرئيسية للنبوءة الإسرائيلية الموجهة إلى كل الأجيال، حول وجود أفكار عظيمة دينية وأخلاقية أسمى من الإنسان والدولة، الأفكار التي يجب أن توجه، هي فقط، حياة الإنسان والمجتمع والشعب والدولة.

الفصل الخامس

ميخـــا

زمن ميخا وشخصيته

ورد في افتتاحية السفر أن ميخا تنبأ في أيام يوثام، وآحاز، وحزقيا ملوك يهوذا. وكان من أبناء جيل إشعياء لكنه كان يصغره، وبدأ التنبوء بعده (لم يتنبأ في عصر عزيا نهائيًا)، وربما كان من تلاميذ إشعياء لكن ذلك لم يُذكر صراحة. في المقابل لدينا دليلٌ قاطع على تنبؤ ميخا في عصر حزقيا، ورد ذكره في سفر إرميا الإصحاح ٢٦: ١٧-١٩: "ثم قام رجل من شيوخ البلاد وقالوا لجماعة الشعب: إن ميخا المورَشْتِيَّ تنبأ في عهد حزقيا ملك يهوذا، وخاطب كل شعب يهوذا قائلًا: هذا ما يعلنه الرب القدير إن صهيون ستُحرَث كحقل وتصير أورشليم كومة من الخرائب وجبل الهيكل مرتفعًا تنمو عليه أشجار الغاب". وهذا اقتباس دقيق من الإصحاح الثالث من سفر ميخا. وكانت هذه النبوءة مدهشة كثيرًا، تذكروها منذ عصر إرميا.

هكذا يكون ميخا قد تنبأ في نفس الجيل الذي تنبأ فيه إشعياء، لكن الأحداث السياسية في عصر إشعياء مذكورة صراحة في سفره: حرب رصين وفقح ضد آحاز، وغزو سنحريب ليهوذا، وحصار أورشليم؛ لكن لا توجد إشارة لتلك الأحداث في سفر ميخا؛ فميخا لم يكن مختلطًا بشئون الدولة، ولم يكن مقربًا من بلاط المُلك مثل إشعياء. وكان ميخا واحدًا من بسطاء الشعب مثل عاموس. فلم يذكر اسم أبيه، ويرجع أصله إلى بلدة صغيرة بعيدة عن أورشليم تسمَّى "مورشة"

أو "مورشة جت" وهي قرية من أرض الفلسطينيين. وشخصية النبي في سفر ميخا كما هو الحال عند عاموس شخصية بسيطة ليست ذات قيمة في مقابل نبوءته. وكانت جميع نبوءات ميخا تقريبًا عن يهوذا وأورشليم باستثناء نبوءة واحدة عن السامرة.

توبيخ ميخا

١. توبيخ ميخا هو في الأساس توبيخ اجتماعي بروح عاموس وإشعياء؛ فالوجهاء يسلبون وينهبون ممتلكات الفقراء والضعفاء: "فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها، والبيوت ويأخذونها ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه" (٢: ٢)، "فإن أغنياءها ملآنون ظلمًا" (٦: ١٢).

ويصب ميخا جام غضبه على زعماء الشعب تحديدًا: على "رؤساء يعقوب، وقضاة بيت إسرائيل"، النازعين جلود الشعب ولحمهم (٣: ٢)، "ويسعى الرئيس والقاضي وراء الرشوة، ويُملي العظيم عليهم أهواء نفسه، فيتآمرون جميعًا على الحق". وبما أنهم القائمون على رأس الدولة فقد ظنوا أن الدولة قائمة بفضلهم، وأنهم بانوها والمدافعون عنها. لكن ميخا يسميهم: "الذين يبنون صهيون بالدم وأورشليم بالظلم" (٣: ١٠). فعملهم العام لم يكن البناء لكن الهدم؛ فقيام الدولة وأمنها لا يرتبطان بعملهم السياسي والتنظيمي إنما بسلوكهم الأخلاقي. وأيًا كانت مهارة الزعماء وقدراتهم — فإن كانت أيديهم ملآنة بالدم، وأعمالهم سلب وظلم وتشويه للحق — فلن تؤدي أعمالهم إلى تقوية الدولة، لكن إلى خرابها: "لهذا من جراء أعمالكم ستحرث صهيون كالحقل، وتصبح أورشليم كومة من الخرائب، وجبل الهيكل مرتفعًا تنمو عليه أشجار الغاب" (٣: ١٢).

لقد أكد ميخا أكثر من عاموس وهوشع وإشعياء على فكرة أن مصير الدولة مرتبط بطابعها الأخلاقي فقط. وكان هو أيضًا أول من تنبأ صراحة بالخراب لأورشليم والهيكل. لكن تلك النبوءة الجريئة عن خراب أورشليم، هي التي أنقذت الشعب من الخراب، لأن ميخا والأنبياء الذين جاءوا من بعده، خاصة إرميا، قد غرسوا في لب الشعب فكرة أن مستقبل صهيون الخراب، ورغم ذلك سيستمر الشعب في الوجود، وسيخلص الرب شعبه وأرضه. إن نبوءة الأنبياء عن الخراب حصَّنت الشعب من الخراب ومنحته قوة البقاء في السبي بدون دولة وبدون هيكل.

٢. خطايا القضاة والكهنة: "يحكم رؤساؤها بالرشوة، وكهنتها يُعلِّمون بالأجر" (٣: ١١). إن خطأ القضاة واضح، لكن ما خطأ الكهنة؟ لا يزعم ميخا أنهم يدنسون العمل المقدس، لكن للكهنة وظيفة أخرى: "يعلِّمون يعقوب أحكامك وإسرائيل ناموسك" (التثنية ٣٣: ١٠). ويرسم النبي ملاخي صورة الكاهن المثالي: "نطق فمه بشريعة الحق، ولم يكن في شفتيه إثم، وسلك معي سبيل السلام والاستقامة ورد كثيرين عن المعصية. لأن شفتي الكاهن تحفظان العلم، ومن فمه يطلب الناس الشريعة لأنه رسول الرب القدير" (ملاخي ٢: ٦-٧). لكن الكهنة أيام ميخا لم تكن مثل ملائكة الرب؛ فقد علَّموا بأجر وفي ذلك إثمٌ مضاعف: أولًا، جعلوا من الشريعة فأسًا يحفرون بها. فأصبحت الشريعة تعول الكهنة عبر الهدايا، رغم أن تعليمها مفروض عليهم بدون مقابل. ثانيًا، التعليم بأجر يؤدي إلى تزييف

الحقيقة، كقول رابي داود قمحي: "من يعطيه مالًا سيصنع له تعليمًا على هواه". أو بحسب كتاب تفسير "قلعة داود"[1]: "التعليم على قدر الأجر".

٣. أخطاء أنبياء الكذب. لا يكيل ميخا الاتهامات الكبرى لأنبياء الكذب، التي ظهرت بعد فترة في أقوال إرميا وحزقيال. لكن ميخا يُعدُّ أول من وبَّخ أنبياء الكذب وأدان نبوءاتهم الكاذبة: "وهذا ما يقوله الرب بشأن الأنبياء الذين يضلُّون شعبه، الذين ينادون قائلين: سلام، لمن يعطيهم طعامًا، ويعلنون الحرب على من لا يلقِّم أفواههم" (٣: ٥). اتهامان يتهم بهما ميخا الأنبياء: الاتهام الأول؛ أنهم أنبياء من أجل الطمع في المال. والاتهام الثاني؛ أنهم يضللون الشعب عن عمد. بذلك يصبحون أنبياء كذب حقًا وليسوا أنبياء حق يؤمنون بخطأ أقوالهم؛ إنما أنبياء يتعمدون الكذب؛ فهم يعلمون أنهم لا يبلغون الشعب كلام الرب، بل كلامٌ مرتبط بالمال الذي يحصلون عليه. ويؤكد ميخا على هذا الاتهام في الفقرة (١١) في كلامه عن القضاة والكهنة: "ويتعاطى أنبياؤها العرافة لقاء المال". وهناك شيء واحد فقط مشترك بين القضاة والكهنة والأنبياء وهو إنهم لا يقولون الحقيقة المجردة للشعب، لكنهم يبيعون الحق والبر بالرشوة (القضاة)، وبأجر (الكهنة)، وبالمال (الأنبياء). وإن من لا يمنحهم الطعام يهددونه بالحرب؛ لكن من يمنحهم الطعام يتنبأون له بالسلام. لكن من يعطي المال هم الأثرياء أصحاب السيادة؛ لذلك يخفون عن رؤساء الشعب وزعمائه المخاطر المحدقة بالدولة ويطمئنونهم باللامبالاة وعدم المسئولية.

---

[1] تفسير لبعض أسفار الأنبياء والمكتوبات وضعه الحاخام داود ألطشولر من حاخامات أشكناز في القرن الثامن عشر، وأكمله ابنه الحاخام يحيئيل هيليل. والتفسير لكل أسفار العهد القديم باستثناء أسفار: راعوث، ومراثي إرميا وأستير.

وعلى عكسهم تمامًا نجد أنبياء الحق لا يستغلون النبوءة كوسيلة للتكسب بل هم أنفسهم مجرد وسيلة بسيطة للأفكار الأخلاقية الدينية التي أُرسلوا من أجل تبليغها، ومضمون نبوءاتهم ليس من أجل التهدئة والتعايش إنما للتوبيخ والتحذير. لذلك يحتاج النبي الحق إلى شجاعة وإلى قوة إلهية تدعمه في تنفيذ مهمته: "أما أنا فإني ممتلىء بقوة الرب وبالحق والعزة، لأعلن لنسل يعقوب معاصيه ولإسرائيل خطيئته" (٣: ٨).

من هم الأنبياء المحببون لدى الشعب؟ "إن جاء رجل يتنبأ بينكم بالكذب وباللغو الباطل قائلًا: إنني أتنبأ لكم بالخمر الوفير والمسكر، فإنه يصبح نبي هذا الشعب" (٢: ١١). وبالطبع أنبياء مثل عاموس وهوشع وإشعياء وميخا يوبخون الشعب ويهددونه بالسبي والخراب لا يكونون مرغوبين لدى الشعب، وخاصة ليس لدى أصحاب السلطة: "لا تتنبأوا بمثل هذه الأمور، لأن العار لن يلحق بنا" (٦). ومن يستمر في الوعظ لهم يطلقون عليه "أحمق مجنون". وفي عصر يهوياقيم كان هناك اضطهاد للأنبياء وخطر دائم محدق بحياتهم، لكن في عصر حزقيا لم يتم المساس بأنبياء الحق على الرغم من قسوة نبوءاتهم. ويتساءل الشيوخ في نفس الإصحاح الذي ترد فيه نبوءة ميخا في سفر إرميا: "فهل قتل حزقيا يهوذا وكل شعب يهوذا؟ أما أتقي الرب واستعطفه، فامتنع الرب عن الشر الذي قضى به" (إرميا ٢٦: ١٩). هكذا أصبح لكلام ميخا تأثير في جيله لكنه لم يكتفِ بالإصلاح الجزئي فيطالب بإصلاح شامل بروح مُثُلِه العليا، وطالما لا يوجد مثل هذا الإصلاح فإنه يرى الظلم والخداع والفساد من حوله.

٤. الفساد الشامل للشعب. ليس رؤساء الشعب فقط هم الذين أصابتهم الخطيئة والجريمة فجميع الشعب مذنب بالكذب والخداع؛ فالتجارة قائمة على

الخداع: موازين الكذب، حجارة الكذب، وإيفة الكذب (٦: ١٠). "قد باد الصالح من الأرض واختفى المستقيم من بين الناس، جميعهم يكمنون لسفك الدماء، وكل واحد منهم يقتص أخاه" (٧: ٢)، "ولا تأتمن جارك ولا تثق بصديق، واحترس مما تنطق به شفتاك ممن ترقد في حضنك. فإن الابن يستخف بأبيه والابنة تتمرد على أمها، والكِنَّة على حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته". المجتمع كله فاسد من الجذور وحتى الفروع ومن القاعدة حتى القمة. فالوباء متفشٍ في كل طبقات الشعب بداية من الأسرة التي هي نواة المجتمع الأولى إلى دوائر الرؤساء والقضاة فلا حق ولا عدل ولا إنسان نزيه في الأرض. لذلك حكم على الشعب بالخراب لكنه لن يكون خرابًا نهائيًا لأن الرب سينقذ بقايا إسرائيل بفضله ونعمته.

٥. نبوءات حاسمة تنبأ بها ميخا على الحضارة والمدينة المادية، وعلى التجهيزات العسكرية التي يثق فيها الشعب: "ويقول الرب في ذلك اليوم أستأصل خيولكم من بينكم وأدمر مركبات حربكم وأخرب مدنكم وأهدم جميع حصونكم." (٥: ٩-١٠). وهو في ذلك يتبع هوشع (٦: ١٤، ١٤: ٤)، وإشعياء؛ فالخيول والمركبات هي رمز لمصر وحضارتها. والحصون ترمز إلى عدم ثقة الشعب في الرب، ومثل إشعياء (٢: ٧-٨) الذي يذكر الخيول والمركبات والأوثان معًا، يذكر ميخا التماثيل والمذابح والسحر والعرافين (١١-١٢). وذكر صراحة في الفقرة ١٣: "وأفني عشتاروت من بينكم، وأهدم مدنكم". لقد مقت ميخا المدن (مثلما مقت عاموس القصور)؛ لأنها مصدر الفساد والخطيئة: "ما هو ذنب يعقوب؟ أليس هو السامرة؟ وما هي مرتفعات يهوذا (ذنب)؟ أليس

أورشليم!" (١: ٥). ويقول ميخا عن لاخيش "أول خطيئة" لإسرائيل (١٣) — ربما لأن الخيول كانت تأتي من مصر عبر لاخيش[1].

هناك نبوءة توبيخ خاصة وبلاء موجهة إلى مدينة أورشليم وربما إلى كل مدينة: "صوت الرب ينادي للمدينة" (٦: ٩). فالمدينة هي مقر الأشرار، وبيوت الأثرياء ملآنة بالظلم وثروات الشر (١٠-١٢)، لذلك سيلحق الرب بالمدينة الخراب والجوع والجفاف؛ خراب وخزي (٦: ١٤-١٦).

البلاء

يصور الإصحاح الأول ظهور الرب الذي يخرج من مكانه كي يدمر السامرة ومدن يهوذا: "فأجعل السامرة خربة في البرية، مغارس للكروم، وألقي حجارتها إلى الوادي، وأكشف أسسها" (٦). فالحجارة ستلقى إلى الوادي، وأراضي المدينة ستغرس بالكروم. ثم يصف ميخا خراب يهوذا على أيدي العدو الذي يقترب من أورشليم؛ فيبكي ويؤبن ويسير عاريًا بسبب ضربات يهوذا وبسبب المصيبة التي جاءت حتى أبواب أورشليم (٨). لكن على عكس إشعياء الذي كان واثقًا من نجاة أورشليم، يتنبأ ميخا بنبوءة خراب على أورشليم وعلى الهيكل. وتشبه صورة خراب أورشليم صورة خراب السامرة: "لهذا من جراء أعمالكم ستُحرث صهيون كالحقل، وتصبح أورشليم كومة من الخرائب، وجبل الهيكل مرتفعًا تنمو عليه أشجار الغاب" (٣: ١٢). فالمنطقة التي كانت من قبل مدينة كبيرة وبها سكان وأبنية ستتحول إلى حقل محروث، ومرتفعات غابات — منطقة قفر تغطيها بعض النباتات والأشجار.

---

[1] قويفمان ص ٢٨١

ويتحدث ميخا أيضًا عن السبي: "قوموا واذهبوا، لأنه ليست هذه هي الراحة، من أجل نجاسة تهلك والهلاك شديد" (٢: ١٠؛ فالأرض ستهلككم هلاكًا شديدًا).

يجب أن نشير كذلك إلى أن توبيخ ميخا على الأخطاء السياسية والدينية قليلٌ للغاية. فهو يتحدث في نبوءته عن خراب السامرة "تماثيلها" و"أصنامها" (١: ٧)، وكذلك في الإصحاح الخامس: "وأقطع تماثيلك المنحوتة، وأنصابك من وسطك، فلا تسجد لعمل يديك فيما بعد" (١٢). وهنا يختلف ميخا عن هوشع وإشعياء اللذين اهتمَّا كثيرًا بشئون الدولة، مع توبيخهما على عبادة الأصنام وهجر الرب. وتوبيخ ميخا أقرب كثيرًا من توبيخ عاموس، بل أشد منه.

العلاقة بالعبادات والمطالب الأخلاقية

لا يوجد تجديد فعلي في أقوال ميخا عن العبادات إنما تكرار لأفكار عاموس وهوشع وإشعياء، لكن شكل وأسلوب هذه الأفكار عنده أكثر جمالًا وأصالة. فالكلمات تقال على شكل جدل صريح بين الرب وشعب إسرائيل. والجبال والهضاب والشمس مدعوون في هذه المحاكمة العظيمة:

- اسمعوا ما قاله الرب؛
- قم خاصم لدى الجبال، ولتسمع التلال صوتك.
- اسمعي خصومة الرب أيتها الجبال، ويا أسس الأرض الدائمة.
- فإن للرب خصومة مع شعبه وهو يحاكم إسرائيل (٦: ١-٢).

تدل هذه الافتتاحية الاحتفالية ودعوة العالم كله للشهادة على أهمية هذا الجدل الذي يتناول المسألة الرئيسية للدين والعقيدة: كيف يجب عبادة الرب؟ ماذا يطلب

الرب من الإنسان؟ (يوجد تشابه بين هذه الافتتاحية وافتتاحية "ترنيمة اسمعوا"، و"رؤيا إشعياء").

يذكر الرب في بداية الجدل النِعَم التي أنعَم بها على إسرائيل في الخروج من مصر. فلماذا صنع الرب هذه النعم، ألنفسه فقط؟ "لكي تعرف إجادة الرب"، أي ليعرف الشعب سبل رحمة الرب ويسير فيها. لكن الشعب لا يعرف كيفية القيام بذلك. ويعتقد أنه سيكون مرغوبًا عند الرب من خلال تقديم قرابين كثيرة، ويسأل في سذاجة، كيف يعبر عن خضوعه للرب وكيف يرضى الرب عنه؟

- بما أتقدم إلى الرب وأنحني للإله العلي؟
- هل أتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة؟
- هل يسُر الرب بألوف الكباش، بربوات أنهار زيت؟
- هل أعطي بكري عن معيتي، ثمرة جسدي عن خطية نفسي؟

إن الشعب مستعد فيما يبدو لعبادة الرب والتكفير أمامه بقرابين كثيرة، بل حتى بتقديم قربان بشري. وهذا لا يعني أنهم اعتادوا، في إسرائيل، في زمن ميخا تقديم القرابين البشرية؛ فهم لم يقوموا بذلك في زمن حزقيا بالطبع، لكن ذُكر عن آحاز صراحة أنه قدَّم ابنه إلى النار كما هو في فواحش الأمم (الملوك الثاني ١٦: ٣، وانظر كذلك الملوك الثاني ١٧: ١٧، و٢١: ١٦). على أية حال، كان احتمال تقديم الأبناء كقرابين للرب معروفًا في إسرائيل. وهناك احتمال كبير بأن تكون هذه المقولة صيغة مبالغة، لأن كل فقرة قد ذكرت بأسلوب المبالغة: "هل يسر الرب بألوف الكباش، بربوات أنهار زيت؟ هل أعطي بكري عن معيتي، ثمرة جسدي عن خطية نفسي؟"

ويأتي رد النبي الرائع على سؤال الشعب:

- قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب؟

- **إلا أن** تصنع الحق وتحب الرحمة، وتسلك متواضعًا مع إلهك.

ويجب أن نؤكد على أن الكلمات "إلا أن" معناها: أن الرب لا يطلب شيئًا آخر سوى هذه المطالب الثلاثة: صنع الحق، وحب الرحمة، والتواضع مع إلهك. بهذه الطريقة يجمع ميخا بين المطالب الأساسية لعاموس (الحق)، وهوشع (الرحمة)، وإشعياء (التواضع مع الرب). فالحق: هو تحقيق العدل والقانون، وهو مسألة وعي وإدراك. لكن إله إسرائيل ليس إله حق فقط، فهو يطلب من إسرائيل صنع الرحمة من منطلق المحبة والرحمة. وقد رأينا في "هوشع" أن "الرحمة" ليست مسألة عقلية، إنما مسألة قلب ومشاعر، وهو عملٌ يُصنع لصالح الغير ويكون أحيانًا من أمور الحق، لكن دون أي التزام قانوني. فلا يجب حب الحق إنما تنفيذه، أما الرحمة فيجب حبها. والمطلب الثالث وهو الابتعاد عن الغطرسة والكبر والتفاخر، واتباع سُبُل التواضع عبر إدراك وضاعة الإنسان أمام الرب. ويوجد هنا خلط بين العقل والمشاعر، والتجربة الدينية والأخلاقية معًا.

وسبب الانطباع العظيم من هذه النبوءة عدة عوامل:

١. الصياغة الموجزة والمقتضبة والمركَّزة لمطالب الرب.

٢. ظهور المطالب على أنها الذروة والغرض من الجدل العلني الاحتفالي بين الرب وإسرائيل والجبال والتلال في الخلفية. وهي صورة درامية.

٣. توجه الرب المليء بمشاعر الأبوة: شعبي! ماذا صنعت بك وبماذا أضجرتك؟ أجبني.

٤. تبادل الأسئلة والردود، والنقاش الحي بين النبي وبين سامعيه.

٥. تبادل المتحدثين: النبي يتحدث مرة (اسمعوا ما قاله الرب ... قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح، وماذا يطلبه منك الرب)، والرب نفسه يتحدث مرة (يا شعبي، ماذا صنعت بك؟ يا شعبي، اذكر ...). وهناك توافق تام بين النبي وبين أقوال الرب، وهو من الخصائص الجوهرية والفنية لأشعار الأنبياء، واختفاء شخصية النبي. فالمثل الأعلى يتحدث، فيصبح كلام الرسول والمرسِل واحدًا.

٦. عرض كل هذا الجدال في صورة شعرية وفي تقابلات مترادفة ومتكاملة:

فإن للرب خصومة مع شعبه وهو يحاكم إسرائيل

إني أصعدتك من أرض مصر وفككتك من بيت العبودية.

هل أعطي بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطية نفسي؟

ويعدُّ بحق الإصحاح السادس من سفر ميخا أحد أهم وأجمل الأشياء في النبوءة.

نبوءات المواساة

كل نبي تأنيب هو نبي مواساة، حتى ميخا الذي تنبأ بخراب أورشليم رأى هو أيضًا الخلاص. وتأتي نبوءة المواساة بعد كل نبوءة بلاء (الإصحاحات ٢: ١٢-١٣، ٤: ١-١٣، ٥: ١-١٤، ٧: ٧-٢٠). والنقاط الرئيسية في نبوءات الخلاص عند ميخا كالتالي:

١. **بقية إسرائيل**. يتحدث ميخا مثل إشعياء عن بقية إسرائيل؛ فالرب سيجمعه مثل قطيع الغنم، ثم سيقتحم القطيع بوابات السبي "ويجتاز ملكهم أمامهم، والرب في رأسهم" (٢: ١٣). وستصبح بقية يعقوب مثل البركة بالنسبة للشعوب،

وكالندى، وكالوابل، لكن البقية ستكون على كارهيها كالأسد "الذي إذا عبر يدوس ويفترس وليس من ينقذ" (٥: ٦-٧).

٢. **سبيل الخلاص**. لن يأتي الخلاص في أرض إسرائيل إنما في السبي، وليس في المدينة إنما في البرية: "وتسكنين في البرية وتأتين إلى بابل، هناك تُنقذين، هناك يفديك الرب من يد أعدائك" (٤: ١٠). ففي السبي تجلس الأمة في الظلمة وتتطلع إلى الرب الذي يقيم دعواها ويخرجها إلى النور.

لا تشمتي بي يا عدوتي، إذا سقطت أقوم!
إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي.
أحتمل غضب الرب لأني أخطأت إليه،
حتى يقيم دعواي ويجري حقي،
سيخرجني إلى النور سأنظر بره (٧: ٨-٩).

ولأن الرب قد أظهر لإسرائيل رحمته وعجائبه في الماضي، في الخروج من مصر، هكذا سيصبح خلاصه برحمة ربانية. فالشعب لا يرى الخلاص، لذلك يصلي النبي لكي يغفر لشعبه، ويرحمه ويذكره بحق آبائه:

من هو إله مثلك غافر الإثم،
وصافح عن الذنب لبقية ميراثه.
لا يحفظ إلى الأبد غضبه فإنه يسر بالرأفة.
يعود يرحمنا يدوس آثامنا،
وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم.

تصنع الأمانة ليعقوب   والرأفة لإبراهيم،

اللتين حلفت لآبائنا   منذ أيام القدم.

٣. **انتقام إسرائيل**. تظهر في نبوءة الخلاص عند ميخا الفكرة القومية بالانتقام من الأمم لما أساءوا به إلى إسرائيل: "وبغضب وغيظ أنتقم من الأمم الذين لم يسمعوا" (٥: ١٤). "وهم لا يعرفون أفكار الرب، ولا يفهمون قصده. أنه قد جمعهم كحزم إلى البيدر" (٤: ١٢). كي تدوس إسرائيل أعداء إسرائيل، ويكون الدوس كطين الأزقة (٧: ١٠)، يلحسون التراب كالحيَّة، كزواحف الأرض (١٧).

٤. **الوعود الطيبة لإسرائيل**. ستصير البقية أمة عظيمة، وسيملك الرب عليهم، وسيملك عليهم في جبل صهيون إلى الأبد (٤: ١٣). سيكون الحاكم المنتظر لإسرائيل من بيت لحم؛ من بيت داود (٥: ١)، وستمتد حكومته حتى أطراف الأرض. وسيخضع آشور بالسيف، وسيدوس ويفترس أعداء إسرائيل كالأسد مع بهائم الغاب، وكالشبل مع قطعان الغنم (٥: ٥-٧).

٥. **النبوءة عن آخر الأيام**. لا تتماشى كل الوعود المذكورة مع نبوءة آخر الأيام في الإصحاح الرابع، والموجودة كذلك في الإصحاح الثاني من سفر إشعياء، باستثناء بعض التغييرات اللغوية البسيطة. لذلك يُعتقد أن هذه النبوءة تنسب إلى إشعياء وليس إلى ميخا (انظر لاحقًا مبررات قويفمان). الفقرة الخامسة: "لأن جميع الشعوب يسلكون كل واحد باسم إلهه ونحن نسلك باسم الرب إلهنا إلى الدهر والأبد"، وهو ما يناقض المضمون الكوني لنبوءة إشعياء، التي يقول فيها عن الأمم: "هلم نصعد إلى جبل الرب، إلى بيت إله يعقوب، فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله" (إشعياء ٢: ٣). ومن الممكن حقًا تفسير أن ميخا يصور، في الفقرة

الخامسة، الوضع الراهن في عصره، وفي الفقرات السابقة وصف لرؤيا المستقبل لكن لا يتماشى هذا التفسير مع أسلوب الفقرة وموضعها في داخل النبوءة.

إذن، كيف يمكن تفسير واقع هذه النبوءة في سفر ميخا؟ يبدو أن ميخا قد وضع أمامه نبوءة إشعياء التي أثرت فيه كثيرًا فقام بصقل لغتها بعض الشيء. ولقد تم العثور على النبوءة في سفره لأن المحررين لم يعرفوا تحديدًا من هو كاتب هذه النبوءة، كما لم يجرؤا على نزعها.

وأضاف ميخا إلى نبوءة إشعياء فقرتين من عنده. وتحدثنا عن الفقرة الخامسة، وذُكر في الفقرة الرابعة: "بل يجلسون كل واحد تحت كرمته، وتحت تينته، ولا يكون من يرعب، لأن فم رب الجنود تكلم"، وتظهر قروية ميخا في هذه الصورة.

الذكريات التاريخية

أهم حدث في تاريخ بني إسرائيل هو الخروج من مصر الذي تجلت فيه رحمات الرب بكل عظمتها لإسرائيل؛ وكذلك في الجدل الكبير بين الرب وشعبه. ولقد ذكرت هذه الرحمات في الإصحاح السادس:

١. لقد أخرجتك من ديار مصر، وافتديتك من ديار العبودية.

٢. وأرسلت أمامك موسى وهارون ومريم.

٣. اذكر يا شعبي ما تآمر به عليك بالاق ملك مؤاب، وما أجابه به بلعام بن بعور (تحولت لعنة بلعام إلى بركة).

٤. واذكر ما أحسنت به إليك في رحلتك من شطيم إلى الجلجال (المقصود به عبور نهر الأردن مع يشوع). لكن الشعب لا يستحق حاليًا الرحمة الإلهية، لذلك يصلي النبي إلى الرب: "كأيام خروجك من أرض مصر، أريه عجائب" (٧: ١٥).

كما يطلب النبي أن يذكر الرب للشعب حق آبائه ويفي بعهده لإبراهيم ويعقوب (٢٠).

تجديدات ميخا

لا يحتوي توبيخ ميخا على أفكار جديدة لم ترد في توبيخ عاموس، وهوشع، وإشعياء، لكنه عبَّر عن مطالب الرب من الإنسان في صيغة جديدة واضحة مركزة وسامية في بساطتها واقتضابها. حتى نبوءة آخر الأيام لا توجد بها فكرة جديدة باستثناء صَلاته وأمله في الرب بأن يغفر ذنوب إسرائيل ويخلص شعبه برحمته مثلما كان في الخروج من مصر.

وفي توبيخه الاجتماعي يقترب ميخا من عاموس، لكن مفهومه للإله أقرب بكثير لهوشع. فهو لم يتنبأ مثل هوشع على أي شعب آخر غير إسرائيل، كما أن مفهوم الألوهية عنده أكثر قومية من العالمية على الرغم من اعتباره إله إسرائيل إله العالم. وحتى مدى الرحمة في مفهوم الألوهية وفي مطالب الرب من الإنسان مأخوذ من هوشع.

إن التجديدين الرئيسين لميخا هما: محاربته أنبياء الكذب، والنبوءة عن خراب أورشليم. فقد سبق ميخا فيهما إرميا. ويقول البروفسور سيجل في مقدمته عن ميخا: "إن الفقرة ٦: ٦ كافية لوضع هذا القروي في مصاف عظماء البشرية ومرشديها الخالدين".

بناء سفر ميخا

١. ١:١ افتتاحية عن عصر ميخا.

٢. ١: ٢–١٦ افتتاحية احتفالية عن ظهور الرب والنبوءة على خراب السامرة ومدن يهوذا.

٣. ٢–٣ نبوءة توبيخ وبلاء وفيها أقوال مواساة عن بقية إسرائيل — ٢: ١٢–١٣.

٤. ٤–٦ نبوءات الخلاص.

٥. ٦–٧: ٦ التوبيخ الذي يبدأ بجدل الرب مع شعبه.

٦. ٧: ٧–٢٠ صلوات لتكفير الذنوب ولرحمة الرب.

مختصر أقوال قويفمان عن ميخا

١. نبوءة جبل الهيكل في سفر ميخا إشكالية صعبة ليس من أجل التناقض بينها وبين نبوءة البلاء إنما من أجل عدم التوافق بينها وبين بقية نبوءات الخلاص في السفر. فالنبوءة توافق الشكل العام لسفر إشعياء الذي تنبأ بإبطال الوثنية وأخوة الشعوب لكنها لا توافق نبوءة الخلاص في سفر ميخا، لأنه لا يوجد أي ذكر في بقية النبوءة في السفر لإبطال الوثنية في العالم، وأن صهيون هي ليست مركز السلام، لكن مدينة محاربة تطأ "شعوبًا كثيرة". وختام النبوءة في الفقرة الخامسة يتناقض هو أيضًا مع النبوءة. فتلك النبوءة هي بمثابة جسم غريب في هذا السفر ومن الواضح أنها مأخوذة من سفر إشعياء. أما بقية نبوءات الخلاص في سفر ميخا فهي ذات طابع خاص غير خلاصي: نبوءات نمطية عن الحرب والانتقام[1].

٢. ميخا وإشعياء: هناك بعض التشابه في الأفكار واللغة بين سفري ميخا وإشعياء، لكن لا يمكننا القول إن ميخا كان تلميذ إشعياء؛ فهو يختلف عن إشعياء

[1] ص ٢٧١–٢٧٢.

تمام الاختلاف، وحتى ما أخذه عن إشعياء بقي كما لو كان من الخارج، ولم يحدث أي ترتيب شكلي في نبوءته(١).

٣. تعدُّ نبوءة خراب أورشليم تجديدًا تامًا في هذا السفر؛ فلأول مرة يظهر نبي يتنبأ بخراب المدينة والهيكل بسبب الخطايا الأخلاقية. وهكذا ظهرت "الفكرة" عن خراب أورشليم والهيكل الذي كان قيمة تاريخية قومية. و"استوعبت" العقيدة الإسرائيلية للمرة الأولى فكرة الخراب كاحتمال حقيقي؛ واتحدا سويًا غضب الخراب ورحمة الخلاص الذي أصبح شعارًا جديدًا. لذلك يعد سفر ميخا سفرًا أثريًا تاريخيًا. وعندما أصبح الخراب واقعًا، استمدت الأمة القوة والمواساة من هذه النبوءة القديمة كي تتغلب على هذه الصدمة الكبيرة(٢).

٤. لم تُذكر فكرة التوبة في سفر ميخا نهائيًا؛ فالرب سيدمر الأصنام، وسيغفر لبقية ميراثه ويلقي بذنوبها في أعماق البحار. وبقية إسرائيل عند ميخا هي ليست بقية الأبرار، إنما المغفور لهم؛ وسيحدث الخلاص برحمة إله العفو والمغفرة(٣).

أسلوب ميخا والوسائل الفنية

تتساوى افتتاحية نبوءة ميخا الأولى: "اسمعوا أيها الشعوب جميعكم" (١: ٢)، مع ختام أقوال "ميخا بن يَمْلَة": "اسمعوا أيها الشعوب جميعكم" (الملوك الأول ٢٢: ٢٨). ومن المثير أن النبيين يحملان اسمًا متشابهًا، لكن لا يجب أن ننسى أن نبوءة

---

١ ص ٢٧٩.

٢ ص ٢٨٤، ٢٨٨-٢٨٩.

٣ ص ٢٨٦.

ميخا بن يَمْلَة الذي عاش في أيام الملك أخآب قد ذكرت قبل نبوءة ميخا بمئة وعشرين سنة تقريبًا.

إن النداء بـــ"اسمعوا" كافتتاحية للنبوءة، وكذلك الافتتاحية "ويلٌ" موجود في سفر عاموس. ووصف ظهور الرب في الإصحاح الأول متأثر بافتتاحية ترنيمة دبورة: "يا رب بخروجك من سعير، بصعودك من صحراء أدوم، الأرض ارتعدت، السماوات أيضًا قطرت، كذلك السحب قطرت ماء" (القضاة ٥: ٤)، وذكر هنا: "فإنه هوذا الرب يخرج من مكانه وينزل ويمشي على شوامخ الأرض، فتذوب الجبال تحته ..." (١: ٣-٤). وكلمات: "لا تخبروا في جت" (١: ١٠)، تذكرنا بكلمات "في جت لا تخبروا" في رثاء داود لشاول (صموئيل الثاني ١: ٢٠). والفقرة الرابعة من الإصحاح الرابع: "بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته" موجودة في الملوك الأول ٥: ١، والتي تصف الأمن الذي تمتعت به إسرائيل في أيام الملك سليمان. والنبوءة عن تدمير الخيول، والعربات، والسحر والعائفون، متأثرة في مضمونها وفي أسلوبها بإشعياء ٢: ٦-٧. والتعبير "كالوابل على العشب" (٥: ٦) مأخوذ من "أنشودة أنصتي" (التثنية ٣٢: ٢).[1]

ليس هناك مجال للشك في أن ميخا قد تأثر بالأنبياء الذين سبقوه ليس فقط في مضمون كلامه إنما في الأسلوب أيضًا، وفي أنه قد عرف الشعر العبري الذي سبق النبوءة (أنشودة "أنصتي"، وأنشودة دبورة ورثاء داود) وتأثَّر بأسلوبه. لكن ميخا يمتلك أسلوبه الخاص الذي يتميز بالصورة الحية المجسدة جدًا والمصورة بالكامل بأدق التفاصيل، وبشكل مبالغ أحيانًا ومن أمثلة ذلك:

---

[1] عن التقارب اللغوي بين ميخا وإشعياء انظر قويفمان ص ٢٧٩، الملحوظة ٢٤.

١. يوصف رؤساء يعقوب على أنهم آكلي لحوم بشر حقيقيين، ينزعون الجلد عن الشعب ويأكلون لحمه المطهي في قدر. وهي صورة مجسدة ومفصلة جدًا: "والذين يأكلون لحم شعبي، ويكشطون جلدهم عنهم، ويهشمون عظامهم، ويشققون كما في القدر، وكاللحم في وسط المقلى" (٣: ٣).

٢. يقول عن الأنبياء الكذبة: "الذين ينهشون بأسنانهم، وينادون سلام، والذي لا يجعل في أفواههم شيئًا، يفتحون عليه حربًا" (٣: ٥).

٣. يصور النبي نفسه بشخص يقطف ثمرات التين الأخيرة في نهاية فصل الصيف، ويرثي: "ويل لي! فقد صرت كرجل جائع جاء يبحث عن جَني الصيف، وبقايا قطاف العنب، فلم يجلب عنقودًا للأكل ولا شيئًا من باكورة التين مما تشتهيه نفسي" (٧: ١).

٤. يصور مغفرة الذنب بالرمي في أعماق البحر (٧: ١٠).

٥. يلحسون التراب كالحية (٧: ١٧).

٦. "وأُلقي حجارتها إلى الوادي، وأكشف أسسها". هكذا لن يبقى في المكان حجر واحد ولا بيت واحد. وكذلك: "تُفلَح صهيون كحقل". فهل هناك صورة لمثل هذا الدمار الشامل والمروع؟

وربما وصل ميخا بعد تلك الموهبة من التصوير إلى تعبيرات متشددة جدًا مثل: "قد باد الصالح من الأرض واختفى المستقيم من بين الناس. جميعهم يكمنون لسفك الدماء. فإن الابن يستخف بأبيه، والابنة تتمرد على أمها. والكنَّة على حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته" (٧: ٢، ٦). وتشير هذه التعبيرات المتشددة إلى طريقة التعبير والأسلوب وليس إلى الواقع الخارجي الحقيقي.

إن أسلوب ميخا واضح للغاية على الرغم من وجود بعض الفقرات المبهمة في السفر. فالنبوءات مكتوبة بأسلوب شعر العهد القديم، وبها الكثير من الوسائل الفنية لهذا الشعر. ولا حاجة للإطالة في هذا الموضوع وسنكتفي ببعض النماذج من أقواله:

١. **التقابل:**

رؤساؤها يقضون بالرشوة، وكهنتها يعلِّمون بالأجرة (٣: ١١)

الذين يبنون صهيون بالدماء، وأورشليـــــم بالظلـــــم (٣: ١٠)

كالأسد بين وحوش الوعر، كشبل الأسد بين قطعان الغنم (٥: ٧)

هل أعطي بكري عن معصيتي، ثمرة جسدي عن خطيئة نفسي (٦: ٧)

٢. **الافتتاحية الاحتفالية:** ١: ٢؛ ٣: ١، ٩؛ ٦: ١-٢.

٣. **الجِنَاس:**

- تمرغي في التراب في بيت عفرة (١: ١٠) (לעפרה עפר - لعافراه عافار).
- تصير بيوت أكزيب كاذبة (١: ١٤) (אכזיב לאכזב - أخذيف لأخذاف).
- آتي إليك أيضًا بالوارث يا ساكنة مريشة (היורש، מרשה -هايوريش — ماريشا).

٤. **أسئلة انفعالية:**

ما هو ذنب يعقوب؟ - أليس هو السامرة!

وما هي مرتفعات يهوذا؟ - أليست هي أورشليم! (١: ٥).

يا شعبي ماذا صنعت بك، وبماذا أضجرتك؟ (٦: ٣).

٥. **الجدل والحوار**: الإصحاح ٦: ١-٨.

٦. **وزرن الرثاء**:

فأجعل السامرة خربة في البرية، مغارس للكروم،
وألقي حجارتها، وأكشف أسسها (١: ٦)
لأن شرًا قد نزل من عند الرب، إلى باب أورشليم (١: ١٢)
شدي المركبة بالجواد، يا ساكنة لاخيش (١: ١٣)

٧. **الرثاء**: ١: ٨؛ ٧: ١

٨. **الصلوات**: ٧: ٧، ١٤، ١٨

الفصل السادس

إِرميَا

الأحداث الرئيسية في زمن إرميا

ذُكر في افتتاحية سفر إرميا أنه بدأ التنبوء "في السنة الثالثة عشرة" من مُلْك يُوشِيَّا، كما تنبأ في أيام يَهُويَاقِيم وصِدْقِيَّا "إلى سبي أورشليم". بذلك يكون إرميا قد تنبأ في أيام آخر خمسة ملوك ليهوذا: يوشيا، ويهوآحاز، ويهوياقيم، ويهوياكين، وصدقيا. ولم يُذكر اسمَيّ يهوآحاز ويهوياكين في بداية السفر، لأن كل منهما حكم لثلاثة شهور فقط. وسنقف على الأحداث الرئيسية التي شهدتها مملكة يهوذا من أيام يوشيا وحتى الخراب.

١. الجدول الزمني

- ٦٣٩-٦٠٩ ق.م: أيام مُلْك يوشيا.
- ٦٢٦ ق.م: السنة الثالثة عشرة لحكم يوشيا؛ موت آشوربانيبال وبداية انهيار السيادة الآشورية؛ غزو السكوثيين من الشمال؛ تكليف إرميا بالنبوة.
- ٦٢١ ق.م: السنة الثامنة عشرة لحكم يوشيا؛ العثور على كتاب الشريعة، وإصلاحات يوشيا.
- ٦١٢ ق.م: سقوط نينوى في يد بابل والميديين؛ بداية السيادة البابلية (حتى ٥٣٨ ق.م).
- ٦٠٩ ق.م: حرب مجدو ووفاة يوشيا؛ حكم يهوآحاز.

- ٦٠٨ق.م-٥٩٧ ق.م: فترة حكم يوهياقيم.
- ٦٠٥ ق.م: انتصار بابل على الفرعون "نَخُو" في كركميش؛ تولي نبوخذ نصر الحكم (٦٠٥ ق.م – ٥٦٢ ق.م).
- ٥٩٧ ق.م: سبي يهوياكين.
- ٥٩٧ ق.م: ٥٨٦ ق.م: حكم صدقيا.
- ٥٩٣ ق.م: السنة الرابعة لحكم صدقيا والتي يحضر فيها إلى أورشليم ملوك البلدان المجاورة لترتيب تمرد شامل ضد بابل، إرميا والأمم (الإصحاح ٢٧).
- ٥٨٦ ق.م: خراب أورشليم، وحرق الهيكل، والسبي إلى بابل، ومقتل جداليا.

٢. انهيار آشور وصعود بابل

إن عام ٦٢٦ ق.م الذي بدأ فيه إرميا بالتنبوء؛ هو عام حدوث تحول مهم جدًا في التاريخ القديم؛ فبعد وفاة آشوربانيبال آخر الملوك الآشوريين العظام بدأ انهيار الحكم الآشوري وبدأت سريعًا تنتقل السيادة على بلدان الشرق الأوسط إلى الكلدانيين. ومن المثير للاهتمام أن ظهور الأنبياء: عاموس وهوشع وإشعياء، وميخا وكذلك إرميا كان في هذه الفترة الزمنية لهذا التحول التاريخي العالمي. فأعظم أربعة أنبياء في القرن الثامن قبل الميلاد قد عملوا في فترة صعود مملكة آشور وازدهارها. أما إرميا فقد عمل في فترة صعود وازدهار مملكة بابل. وكان الحكم الآشوري هو الخلفية السياسية لنبوءة كل من عاموس وهوشع وإشعياء وميخا. أما الحكم البابلي فكان الخلفية التاريخية العامة لنبوءة حبقوق وإرميا وحزقيال. وفي السنة التي بدأ فيها إرميا بالتنبوء تخلص ملك بابل نبوفلاسر من الحكم الآشوري، كما انتفض

الميديون. وفي سنة ٦١٢ ق.م احتلت نينوي، وجمع الآشوريون ما تبقى من قواتهم في حاران. في ذلك الوقت يهبُّ "نخو" ملك مصر لمساعدة آشور لمحاربة الكلدانيين، وليرث بلدان البحر المتوسط التي كانت من قبل تحت الحكم الآشوري.

ورد في سفر الملوك الثاني ٢٣ أن في أيام يوشيا "زحف فرعون نخو ملك مصر نحو نهر الفرات لمحاربة ملك آشور، فهبَّ يوشيا لمساعدة ملك آشور عند مجدو، فقتله ملك مصر" (٢٩). وهذا لا يفسرِّ سبب ذهاب يوشيا نحو الفرعون نخو. لكن السبب واضح للغاية وهو أن ذلك كان عملًا واضحًا جدًا من أجل مساندة الكلدانيين؛ فقد كان أمل يوشيا بالتأكيد هو أنه إذا نجح في عرقلة المصريين أو صدهم إلى مصر مرة أخرى فسيعتبره الكلدانيون حليفًا مخلصًا، وبذلك تحصل يهوذا على الاستقلال السياسي واعتراف الكلدانيين بالجميل. غير أن يوشيا أصيب في مجدو إصابة مميتة، وكان نتيجة فشله أن حلَّت الكوارث بيهوذا؛ حيث استمر "نخو" في حملته إلى الفرات بدون أي عائق، وحكم موظفوه يهوذا على مدى أربع سنوات، حتى هزيمته في كركميش على يد نبوخذ نصر ابن نبوفلاسر في سنة ٦٠٥ ق.م.

كان ليوشيا ثلاثة أبناء: يهوآحاز ويهوياقيم وصدقيا. كان يهوآحاز وصدقيا ابنيّ حموطل بنت إرميا من لبنة (الملوك الثاني ٢٣: ٣١، ٢٤: ١٨)، وكان يهوياقيم ابن امرأة أخرى وهي زبيدة بنت فداية من رومة. ويبدو أنه كان ينتمي إلى الحزب المؤيد لمصر الذي عارض سياسة يوشيا تجاه بابل. وبموت يوشيا "أخذ شعب الأرض يهوآحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضًا عن أبيه" (٢٣: ٣٠). و"شعب الأرض" مؤسسة شعبية قانونية مشكلة من شيوخ يهوذا. ولقد اعتبرت هذه المؤسسة يهوآحاز الوريث المناسب لعرش يوشيا؛ لكن المصريين أطاحوا به

ووضعوا يهوياقيم مكانه. ولقد أسر الفرعون نخو يهوآحاز في ربلة في أرض حماة وفرض جزية كبيرة على البلاد. ثم حُمل يهوآحاز إلى مصر حيث مات هناك، وكُلِّف يهوياقيم بجمع الجزية من الشعب ودفعها للفرعون نخو (الملوك الثاني ٢٣: ٣٣-٣٥).

٣. إصلاحات يوشيا

تمتع يوشيا ويهوذا بسنوات سعيدة من الحرية والتعاظم السياسي والصحوة القومية الدينية، لم يشهدا مثلها منذ عصر داود وسليمان إلى أن وقعت معركة مجدو المشئومة. وليس هناك مجالًا للشك في وجود علاقة داخلية وثيقة بين التحرر السياسي من نَيْر آشور، وبين الإصلاحات الدينية في أيام يوشيا؛ ففي عصر منسي وآمون آباء يوشيا وقت سيطرة الآشوريين على يهوذا، انتشرت الديانة الآشورية في يهوذا أيضًا. ويُحكى أن منسي عاد وبنى المنصات التي دمرها حزقيا، وشيد المذابح للبعل، وأدخل في يهوذا عبادة جند السماء (عبادة آشورية بابلية)، وصنع تمثالًا لعشتاروت ووضعه في داخل الهيكل "وأجاز ابنه في النار، ورصد الأوقات ولجأ إلى أصحاب الجان والعرافين وأوغل في ارتكاب الشر مما أثار عليه غضب الله الرهيب" (٢١: ٣-٧). لكن في أيام يوشيا حدثت ثورة دينية صاحبت التحرر السياسي.

يحكي سفر الملوك الثاني أن إصلاحات يوشيا بدأت فقط بعد العثور على كتاب الشريعة في الهيكل في السنة الثامنة عشرة لحكمه؛ أي في سنة ٦٢١ق.م لكن سفر أخبار اليام الثاني يقول إن عملية تطهير يوشيا بدأت قبل ذلك بست سنوات، في السنة الثانية عشرة لحكمه (٣٤: ٢) مما يجعلنا نتصور أن إصلاحات يوشيا تمت على مرحلتين. في السنة الثانية عشرة لملكه (٦٢٦ ق.م) بدأ تطهير يهوذا من العبادة الآشورية، وبالتزامن بدأ توسيع نفوذه على جزء كبير من ميراث أسباط

أفرايم (مملكة إسرائيل)، المسبيين إلى آشور في أيام حزقيا: مدن منسي وأفرايم وشمعون وحتى نفتالي (أخبار الأيام الثاني ٣٤: ٦). ولم يكن في استطاعة ملك آشور الذي كان مشغولًا بحروبه مع البابليين أن يزعج يوشيا في توسيع حدود يهوذا؛ فمملكة يهوذا التي اعتبرت نفسها وريثًا شرعيًا لأرض إسرائيل، توسعت ووصلت حتى جبال نفتالي شمالًا، لذلك كان على يوشيا أن يسير بجيشه حتى مجدو في داخل الأراضي الخاضعة لحكمه. وفقط بعد عدة سنوات من التوسع والتحصن وتطهير يهوذا من العبادات الآشورية بدأت المرحلة الثانية الرئيسية من إصلاحات يوشيا والتي كان سببها العثور على سفر الشريعة بحسب ما هو مذكور في سفر الملوك الثاني.

لن ندخل هنا في استيضاح القضايا الكبرى المثارة بخصوص مسألة سفر الشريعة الذي عثر عليه الكاهن الأكبر حلقيا في الهيكل (بيت المقدس) في السنة الثامنة عشرة من حكم يوشيا (الملوك الثاني ٢٢: ٨): هل كان ذلك سفر الشريعة كله، وكان موضوعًا في مكان خفي في الهيكل، ونُسي في أيام منسي وآمون؟، أم أنه كان سفر التثنية فقط الذي كتب في عصر يوشيا، أو الذي كان موجودًا قبل ذلك في الهيكل وظهر فقط في أيام يوشيا؟ من المعلوم أن كثيرًا من باحثي العهد القديم يظنون أن سفر التثنية هو المقصود، والذي تم تأليفه أو الانتهاء منه في نفس الفترة بين دائرة الكهنة والأنبياء الذين طالبوا بتركيز العبادات في أورشليم. وأن هذا الطلب الأساسي في سفر التثنية غير موجود في أسفار التوراة الأخرى، كما لا توجد أي إشارة له في أقوال الأنبياء حتى زمن يوشيا. كما يوجد تقارب كبير بين أسلوب إرميا وأسلوب سفر التثنية ويمكن تفسير هذه الحقيقة إذا افترضنا أن اللغة العبرية في سفر إرميا وكذلك في سفر التثنية هي لغة نهاية عصر الهيكل الأول، أو

اللغة العبرية التي كانت سائدة بين الكهنة والأنبياء في عصر يوشيا. على أية حال فقد بدأ عمل إرميا النبوئي قبل العثور على السفر بخمس سنوات، وأن إرميا لم يكن معروفًا في أورشليم ولا في بلاط الملك في سنة العثور على السفر؛ حيث أرسل يوشيا وفدًا كريمًا (حلقيا الكاهن، شافان الكاتب، وغيرهما) إلى "خَلدة" النبية لسؤال الرب؛ وليس إلى إرميا (الملوك الثاني ٢٢: ١٢-١٤). ويعتقد أن نشاط إرميا على مدار السنوات الخمس التي سبقت الإصلاحات قد اقتصر على مسقط رأسه وفي بيت أبيه في عناثوث في أرض بنيامين.

وبعد أن يستمع الملك إلى رد خلدة يجمع الشعب كله ويعيد قطع العهد معهم: "أن يتبع الرب حافظًا وصاياه وشهاداته وفرائضه من كل القلب والنفس لتطبيق كلام هذا العهد المدون في هذا السفر. فوعد الشعب بالوفاء بهذا العهد" (٢٣: ١-٣). فيدمِّر يوشيا مراكز العبادة الوثنية وعبادة جند السماء في يهوذا بل وفي بيت إيل والسامرة (٢٣: ٤-٢٠)، ويقيم احتفالًا بعيد الفصح لم يُشهد له مثيل من قبل "منذ أيام القضاة الذين حكموا على إسرائيل، ولا في كل حقبة ملوك إسرائيل وملوك يهوذا" (٢٢).

شارك إرميا قطعًا في قطع العهد وسعد كثيرًا بإصلاحات يوشيا، لكن أصابته خيبة الأمل بعد فترة قصيرة لأن الإصلاحات لم تكن كاملة ومكتملة بما يتماشى مع مطالبه المثالية المتشددة.

٤. مُلْك يهوياقيم ويهوياكين وصدقيا

"وكان يهوياقيم في الخامسة والعشرين من عمره حين ملك، ودام حكمه إحدى عشرة سنة في أورشليم ... وارتكب الشر في عيني الرب على غرار ما فعل آباؤه" (الملوك الثاني ٣٢: ٣٦-٣٧). كان يهوياقيم ملكًا سيئًا بالطبع؛ لذلك

سنرى كلمات توبيخ إرميا له، لكن لم يُذكر إن كان قد أعاد الوثنية إلى يهوذا، وهذا من الشواهد على أنه لم يبطل إصلاحات يوشيا على الرغم من أعمال يهوياقيم السيئة.

يحكي سفر أخبار الأيام الثاني أن ملك بابل نبوخذ نصر قد أسره وحمله إلى بابل: "ثم هاجمه نبوخذ نصر ملك بابل وأخذه أسيرًا مقيدًا إلى بابل" (٣٦: ٦). وفي المقابل نجد سفر الملوك الثاني يقول: "ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه، وملك ابنه يهوياكين عوضًا عنه" (٢٤: ٦). فليس واضحًا كيف كانت نهايته، إن كان قد مات ملكًا في أورشليم أو أسيرًا في بابل. كما أن الأحداث السياسية في عصره ضبابية؛ فإلى أن اندلعت حرب كركميش كان يحكم بفضل مصر، واضطهد الشعب كي يدفع للفرعون "نخو" الجزية الكبيرة المفروضة على يهوذا. غير أنه بعد معركة كركميش في السنة الرابعة لحكم يهوياقيم، والسنة الأولى لحكم نبوخذ نصر (إرميا ٢٥: ١)، صعد ملك بابل: "في أيامه صعد نبوخذ نصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبدًا ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه" (الملوك الثاني ٢٤: ١). وبذلك يكون يهوياقيم قد خضع للبابليين من عام ٦٠٥ ق.م وحتى عام ٦٠٢ ق.م، لكنه تمرد في عام ٦٠٢ ق.م معتمدًا على عون مصر. لم يذهب نبوخذ نصر بكل جيشه العظيم لمحاربة يهوياقيم، لكنه أرسل كتيبة الكلدانيين التي انضمت إليها كتائب آرام ومؤاب وعمون (٢٤: ٢). وفقًا لذلك فقد كانت حملة نبوخذ نصر العظيمة ضد يهوياقيم ومصر في نهاية حكم يهوياقيم في سنة ٥٩٨ ق.م – ٥٩٧ ق.م وبحسب رواية سفر الملوك الثاني فقد مات يهوياقيم قبل حصار أورشليم، لكن بحسب رواية سفر أخبار الأيام الثاني فقد حدث السبي الأول لبابل في أيام يهوياقيم. كما أن نبوخذ نصر بحسب سفر دانيال الإصحاح الأول قد حاصر أورشليم في عصر

يهوياقيم، بل وأخذ معه بعض أدوات بيت الرب وعدد من الرجال "من بني إسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء"، من بينهم دانيال وحنَنيا وميشائيل وعَزَريا.

في عصر يهوياقيم تخلَّت يهوذا عن عظمتها فقد وطأها المصريون والموالون لهم في أورشليم (يهوياقيم ورؤساؤه)، ومن بعدهم الكلدانيون وجيرانهم، أعداؤهم، الذين اشتركوا مع البابليين ليعاونوهم على القضاء على شعب يهوذا. وفي النهاية جاء ملك بابل وحاصر أورشليم وسبى "كل أورشليم، وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والأقيان، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض" (الملوك الثاني ٢٤: ١٤). كما أخرج جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك (١٣). وأصبحت يهوذا مملكة صغيرة مستعبدة وخاضعة لبابل، ضعيفة لا حول لها ولا قوة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا.

تولى يهوياكين الحكم بعد يهوياقيم أثناء حملة نبوخذ نصر. وإذا كان الحصار قد بدأ في أيام أبيه فإن أورشليم كانت طوال فترة حكمه التي استمرت ثلاثة شهور تحت الحصار، ولم يكن يهوياكين نفسه آثمًا بتمرد أبيه. وهو أيضًا لم يحارب الجيش البابلي طويلًا: "فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه، وأخذه ملك بابل" (١٢). ولم يقتل ملك بابل يهوياكين، لكن وضعه في السجن الذي ظل فيه سبعة وثلاثين سنة (٢٥: ٢٧). وربما احتفظ به ملك بابل كورقة ضد صدقيا. على أية حال كان صدقيا بن يوشيا وفيًّا له أكثر من ابن يهوياقيم، لذلك سبى يهوياكين ووضع عمه صدقيا في الحكم بأمل أن يكمل سياسة آبائه حزقيا ويوشيا البابلية.

في بداية حكمه أرسل صدقيا إلى ملك بابل وفد خضوع (إرميا ٢٩: ٣)، وربما يكون قد سافر هو بنفسه إلى بابل بحسب إرميا (٥١: ٥٩). لكن كثيرًا من

الرؤساء طالبوه بالتمرد على بابل. ولم يكن صدقيا الذي كان ملكًا ضعيفًا قادرًا على مقاومة تحريض ومكائد مصر والموالين لها من بين رؤسائه وعبيده. وفي السنة الرابعة من حكمه (٥٩٣ ق.م) حضر إلى أورشليم وفد من الشعوب المجاورة للتأثير على صدقيا كي ينضم إلى التمرد الشامل ضد بابل. وبتأثير من إرميا لم ينضم صدقيا إلى هذا التمرد الذي أشعله ملك مصر بسمتيك الثاني (٥٩٤ ق.م — ٥٨٨ ق.م). لكن في السنة التاسعة من حكم صدقيا في عام ٥٨٨ ق.م جلس الفرعون خفرع على عرش ملك مصر ونجح في إقناع أورشليم بالتمرد على بابل بعد وعده بتقديم الدعم الكبير لها. صعد نبوخذ نصر إلى أورشليم (٢٥: ١)، وحُسم مصير المدينة. وبالفعل هبَّ فرعون لمساعدته فأوقف الكلدانيون الحصار لبعض الوقت (إرميا ٣٧: ٥)، لكن الكلدانيين ضربوا كتائب المصريين ثم عادوا إلى أورشليم. وتم اقتحام المدينة في التاسع من تموز[١] (٣٩: ٢)، وفي اليوم السابع من شهر آب (الملوك الثاني ٢٥: ٨)، أو اليوم العاشر (إرميا ٥٢: ١٢) احترق الهيكل وتخربت المدينة.

فترة حكم جدليا القصيرة

بعد خراب أورشليم قام نبوخذ نصر بسبي الباقين في المدينة إلى بابل، لكنه أبقى على الضعفاء "كرّامين وفلاحين" (الملوك الثاني ٢٥: ١٢)، كي لا تصبح الأرض قفرًا وولّى عليهم جدليا بن أحيقام بن شافان في المصفاة في أرض بنيامين. غير أن حكم جدليا لم يستمر سوى شهرين فقط لأنه في الشهر السابع شهر تشري، "جاء إسماعيل بن نثنيا بن أليشمع من النسل الملكي، وعشرة رجال معه وضربوا جدليا فمات، وأيضًا اليهود والكلدانيين الذين معه في المصفاة" (٢٥). وهرب من بقي

١ بحسب التقويم العبري.

على قيد الحياة في يهوذا إلى مصر خوفًا من الكلدانيين (٢٦)، ومن بينهم إرميا وتلاميذه باروخ بن نيريا الذين هبطوا إلى مصر على عكس رغبتهم (إرميا ٤٠: ٦، ٤٣: ٢-٣).

نبوءات وإصحاحات في سفر إرميا تتناول حقائق تاريخية

١. الإصحاح الأول ٢: تكليف إرميا في عصر يوشيا "في السنة الثالثة عشرة من ملكه".

٢. الإصحاح ٣: ٦: "وقال الرب لي في أيام يوشيا الملك" (قبل الإصلاحات فيما يبدو).

٣. الإصحاح ٢١: صدقيا يرسل وفدًا إلى النبي في بداية حصار المدينة.

٤. الإصحاح ٢٢: سجل الملوك الذي يتحدث فيه إرميا عن يوشيا، وشالوم (=يهوآحاز)، ويهوياقيم، ويهوياكين.

٥. الإصحاح ٢٤: عن سبي يهوياكين.

٦. الإصحاح ٢٥: نبوءة عن بابل "في السنة الرابعة ليهوياكين ... هي السنة الأولى لنبوخذ نصر" (بعد نصر كركميش في سنة ٦٠٥ ق.م).

٧. الإصحاح ٢٦: بداية ملك يهوياقيم (المحاكمة العلنية لإرميا).

٨. الإصحاح ٢٧: نبوءة رسل أدوم ومؤاب وعمون وصور وصيدون الذين جاءوا إلى أورشليم للتأثير على صدقيا لينضم إلى التمرد العام ضد بابل.

٩. الإصحاح ٢٨: في السنة الرابعة لصدقيا (إرميا وحننيا).

١٠. الإصحاح ٢٩: إرميا يرسل كتابًا إلى سبي يهوياكين.

١١. الإصحاح ٣٢: إرميا يشتري حقلًا في عناثوث في السنة العاشرة لصدقيا، أثناء الحصار.

١٢. الإصحاح ٣٣: نبوءات أثناء الحصار.

١٣. الإصحاح ٣٤: تحرير العبيد ثم استعبادهم مرة أخرى في سنوات التمرد.

١٤. الإصحاح ٣٥: العودة إلى عصر يهوياقيم (بيت الركابيين).

١٥. الإصحاح ٣٦: سجل إرميا "في السنة الرابعة ليهوياقيم".

١٦. الإصحاح ٣٧: وقف البابليين للحصار لمحاربة القوات المصرية.

١٧. الإصحاح ٣٨: صدقيا وإرميا في نهاية الحصار.

١٨. الإصحاح ٣٩: قصة الخراب.

١٩. الإصحاح ٤٠: إرميا وجدليا في المصفاة.

٢٠. الإصحاحات ٤١-٤٣: مقتل جدليا والهبوط إلى مصر.

٢١. الإصحاح ٤٤: نبوءة إرميا في مصر.

٢٢. الإصحاح ٤٥: باروخ بن نيريا في السنة الرابعة ليهوياقيم (٦٠٥ ق.م).

٢٣. الإصحاح ٤٦: نبوءة على مصر في السنة الرابعة ليهوياقيم (معركة كركميش).

٢٤. الإصحاح ٤٩: نبوءة على عيلام في بداية مُلك صدقيا.

٢٥. الإصحاح ٥١: ٥٩: الوفد إلى بابل في السنة الرابعة لصدقيا.

٢٦. الإصحاح ٥٢: قصة الخراب.

نلاحظ على الفور أن إصحاحات سفر إرميا غير مرتبة ترتيبًا تاريخيًا؛ فالإصحاحات الأولى هي من زمن يوشيا، والنبوءات التي ذكرت صراحة في أيام يهوياقيم موزعة على الإصحاحات: ٢٥، ٢٦، ٣٥، ٣٦، ٤٥، ٤٦. أما النبوءات في أيام صدقيا فموجودة في الإصحاحات ٢١، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٩، ٥١. أما الإصحاحات الأخرى فلا يمكن دائمًا تحديد زمنها.

بناء سفر إرميا وتقسيمه

يلاحظ البروفسور م. ص. سيجل وجود ثلاثة أقسام أساسية في سفر إرميا:

١. نبوءات وتوبيخات: الإصحاحات ٢-٢٤.

٢. قصص عن إرميا: الإصحاحات ٢٥-٤٤.

٣. نبوءات عن الأمم: الإصحاحات ٤٥-٥١.

والإصحاح الأول مدخل، والإصحاح ٥٢ ملحق يحتوي على كل قصة الخراب الموجودة في معظمها في سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٥.

ويتشابه تقسيم هارتم[1]-كاسوتو[1] مع تقسيم سيجل إلا أن تقسيم قويفمان مختلف تمامًا:

[1] إيلي شموئيل هارتم ١٨٨٧-١٩٦٥؛ رجل دين ومعلم في إيطاليا وإسرائيل؛ ومدير مدرسة دينية لرجال الدين في روما، وضع كتاب "العهد القديم لكاسوتو" وهو عبارة عن تفسير علمي شعبي للعهد القديم يعرف بـــ"تفسير كاسوتو".

١. الإصحاحات ١-١٨: نبوءات ليس لها أساس قصصي، معظمها في عصر يوشيا.

٢. الإصحاحات ١٩-٣٦: نبوءات من عصر يهوياقيم وصدقيا امتدت فترة مقولتها ومناسبة مقولتها، وحكاية بعض الحكايات إلى جانبها.

وفي هذا الجزء يمكننا ملاحظة وجود سجلٍ عن الملوك تحديدًا (الإصحاحات ٢١: ١١-٢٣: ٨)، وسجلٍ عن الأنبياء (الإصحاحات ٢٣: ٩-٤٠، ٢٧-٢٩)، ونبوءات مواساة (الإصحاحات ٣٠-٣٣).

٣. الإصحاحات ٣٧-٤٤: قصصٌ تاريخية مرتَّبة تاريخيًا عن آواخر أيام صدقيا وعن الأحداث بعد الخراب.

٤. الإصحاحات ٤٥-٥١: نبوءات عن الأمم من أزمنة مختلفة وفي نهايتها القصة الختامية عن الخراب في الإصحاح ٥٢.

وبمفهوم أشمل يُقسَّم سفر إرميا إلى "مجموعتين" كبيرتين:

١. الإصحاحات ١-٩: عدم ذكر بابل؛ نبوءات من التكليف وحتى معركة كركميش (٦٢٦ ق.م — ٦٠٥ ق.م).

٢. الإصحاحات ٢٠-٥١: ظهور بابل في معظم الإصحاحات.

---

[١] موشه دافيد كاسوتو ١٨٨٣-١٩٥١. رجل دين في إيطاليا وأستاذ في الجامعة العبرية بالقدس. تخصص في نقد العهد القديم وتفسيره، وعلم الآشوريات. بعد وفاته استكمل تلميذه هارتم عمله.

يضم سفر إرميا نبوءات بأسلوب شعري ونثري خطابي، وفضلا عن هذه النبوءات يوجد حوالي ١٢ إصحاحًا لقصص عن النبي وعن أحداث عصره. أما من ناحية الأسلوب فيمكن تقسيم السفر كالتالي:

١. نبوءات بأسلوب شعري (معظمها أقوال توبيخ): الإصحاحات ٢-٦، ٨: ٤-١٠: ٢٥، ١١: ١٥-١٢: ١٧، ١٣: ١٥-١٤: ١٠، ١٤: ١٧-١٧: ١٨، ١٨: ١٣-٢٣، ٢٠: ٧-١٨، ٢١: ١١-٢٣: ٤٠، ٢٥: ٣٠-٣٨، الإصحاحات ٣٠-٣١، ٤٦ -٥١: ٥٨.

٢. نبوءات نثرية: الإصحاحات ١، ٧: ١-٨: ٣، ١١: ١-١٤، ١٣: ١-١٤، ١٤: ١١-١٦، ١٧: ١٩-٢٧، ١٨: ١-١٢، ١٩: ١-٢٠: ٦، ٢١: ١-١٠، ٢٤-٢٤: ٢٩، الإصحاحات ٢٧-٢٩، الإصحاحات ٣٢-٣٥، الإصحاح ٤٥.

٣. قصص: الإصحاحات ٢٦، ٣٦، ٣٧-٤٤، ٥١: ٥٩-٦٤، ٥٢.

أصل إرميا وموطنه

لا يوجد نبي نعرف عن حياته وعن أحواله وعن زمنه أكثر من إرميا وذلك لسببين: الأول؛ كثرة الحكايات التي كتبها عنه، فيما يبدو، تلميذه باروخ بن نيريا. والثاني؛ حقيقة إظهار إرميا لشخصيته أكثر من أي نبي آخر.

وتعرفنا الفقرة الأولى في السفر بأصل النبي وموطنه: "كلام إرميا بن حلقيا من الكهنة الذين في عناثوث في أرض بنيامين". يحكي سفر الملوك الأول أن سليمان طرد أبياثار الكاهن الذي ساند أدونيا من أورشليم (١: ٧): "وقال الملك لأبياثار الكاهن اذهب إلى عناثوث إلى حقولك لأنك مستوجب الموت ... وطرد سليمان

أبياثار عن أن يكون كاهنًا للرب لإتمام كلام الرب الذي تكلم به على بيت عالي في شيلوه" (٢: ٢٦-٢٧).

يمكننا التخمين أن إرميا كان من نسل أبياثار من بيت عالي. و لم تخدم عائلته في الهيكل في أورشليم، لكنها كانت تعيش على الزراعة ورعي الأغنام في عناثوث. يحكي الإصحاح ٣٢ من سفر إرميا أن عم إرميا حنمئيل بن شلوم أراد بيع حقله. بذلك لا يكون أبوه فقط بل كل أفراد عائلة النبي فلاحين يمتلكون أراض في عناثوث. ويعتقد أن إرميا أيضًا عمل، في فترة شبابه على الأقل، في فلاحة الأرض وفي الرعي مع أبيه وإخوته وبقية أفراد العائلة.

تقع عناثوث في أرض بنيامين على مسافة سبعة كيلو مترات شرقي أورشليم على الحدود الصحراوية عند بداية منحدرات جبال بنيامين إلى وادي الأردن. ويقع بالقرب منها ينبوع الفرات المسمى في العربية "عين فارة". وهي إحدى المدن اللاوية التي منحت لأبناء هارون في عصر يشوع (يشوع ٢١: ١٨). ولقِّب إرميا "العناثوثي" على اسم مسقط رأسه (إرميا ٢٩: ٢٧). لا شك أن تأثير الطبيعة في عناثوث لم يكن بسيطًا على أسلوبه وصوره وتشبيهاته. فعناثوث تقع على الحدود بين الصحراء المقفرة شرقًا، وبين أرض زراعية تهب منها الريح غربًا. وفي كل مرة كان يخرج فيها إرميا لرعي غنمه أو يذهب إلى أورشليم كان يرى أمامه — الحقول المحروثة والمزروعة والمزهرة لجبال أورشليم في الغرب؛ وهضاب صحراء بنيامين المقفرة في الشرق. لذلك تشغل الصحراء حيزًا كبيرًا في نبوءاته. وتدل كثرة المشاهد عن الصحراء وعن ورعي الأغنام في الصحراء على أن إرميا عمل في رعي الأغنام؛ فلم يوجد نبي انشغل كثيرًا بأمور المياه والأمطار وآبار المياه ونقص المياه مثل إرميا (انظر فيما بعد: صور وتشبيهات إرميا، وكذلك كتاب هارؤبيني:

"إضاءة جديدة على سفر إرميا"(١)). ومن هذه الزاوية نجد وجود تشابه بين إرميا وبين عاموس؛ فكلاهما عاش في طبيعة متشابهة (فتقوع أيضًا تقع على حدود الصحراء شرق مزارع بيت لحم)، وكلاهما أُتِيَ بهما من وراء الأغنام وأُرسلا إلى الشعب ليتنبئا له.

التكليف

ينقسم الإصحاح الأول من سفر إرميا والذي يضم وصف التكليف بالنبوة إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١. التجلي لإرميا وتكليفه نبيًا (٤-١٠).

٢. رؤيا قضيب اللوز (١١-١٢).

٣. رؤيا القدر المنفوخة ووعود الرب لإرميا (١٣-١٩).

يعدُّ القسم الثاني أقصر بكثير مقارنة بالقسمين الأول والثالث؛ لكن كل قسم من الأقسام الثلاثة يبدأ بنفس الافتتاحية: "ثم صارت كلمة الرب إليَّ". ويحتوي القسم الأول على رؤيا التكليف كاملة. ويمكن اعتبار القسمين الآخرين رؤيتين إضافيتين ذُكِرا في أوقات أخرى؛ لكن من الأفضل النظر إلى الإصحاح الأول كله على أنه رؤيا واحدة وقعت في زمن واحد وفي مكان واحد.

---

(١) נגה הראובני, אור חדש על ספר ירמיהו. הוצאת עם עובד 1950. كتاب يتناول العلاقة بين البيئة التي عاش فيها إرميا، وبين المفاهيم المختلفة المتكررة في السفر. ويعرض تفسير رجال الدين لهذه المفاهيم، ثم يقدم تفسيره الخاص لها، اعتمادًا على معرفته بالبيئة الجغرافية لمنطقة عناثوث، التي كان يسكنها إرميا.

تبدأ الرؤيا بإعلان ترنيمي للإله: "قبلما صورتك في البطن، عرفتك (أحببتك، اخترتك)، وقبلما خرجت من الرحم قدستك (جعلتك مقدسًا، أصبحت رجلًا متفردًا ومؤهلًا لآداء مهمة معينة)، نبيًا للشعوب (جعلتك رسولًا)". تحتوي هذه البشرى على ثلاث نقاط مهمة: أولًا؛ مفهوم النبي منذ الولادة. ثانيًا؛ العلاقة الحميمة بين الرب وإرميا، والتي بدأت قبل ولادته فكلمة "عرفتك" تدل على علاقة عاطفية: اختيار وحب. ثالثًا؛ مفهوم نبي للشعوب.

من المثير أن إرميا تحديدًا الذي هو "نبي منذ مولده"، الأمر الفريد في العهد القديم، لا يتلقى بشرى الرب من منطلق الجهوزية والاستعداد النفسي لكن من منطلق المفاجئة، والخوف والأسف، والتحفظ والنكوص: "آه يا سيد الرب، إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد" (٦). وعلى الرغم من أن كلمة ولد لا تدل على كونه ولدًا؛ ففي العهد القديم استخدمت بعض معاني كلمة "ولد" في أعمار مختلفة، لكن لا شك في أنه كان صغيرًا ولم يعتبر نفسه مستعدًا لهذه المهمة الإلهية. فخوفه لم يكن من الرب، على عكس إشعياء: "ويل لي إني هلكت" (إشعياء ٦: ٥)، لكن من العالم الخارجي والمجتمع. كيف يستطيع شاب قروي من عناثوث أن يمثل أمام الكهنة والأنبياء، والرؤساء والملوك ويوبخهم، على الرغم من تجهيز إرميا للنبوة منذ ولادته. فكل كيانه ووجوده نبوئي منذ تكوينه حتى وإن لم يكن يشعر بذلك حتى وقت تكليفه؛ فبذرة النبوة مغروسة في داخله ولا يمكن استئصالها. فكما قال موسى: "لست أنا صاحب كلام" (الخروج ٤: ١٠). لقد علم إرميا أن تكليفه ليس بالأمر الهين الذي سيجلب له العظمة والفخر، لكن النضال الشديد والمرارة مع كل المحيطين، لكن الرب يقنعه بكلمات تشجيعية قائلًا: "لا تقل إني ولد، لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به. لا تخف من وجوههم،

لأني أنا معك لأنقذك، يقول الرب". وهذه الكلمات بها نوع من الأمر: عليك الذهاب، لا مفر من مهمتك؛ لكن لا تخف فإني سأخلصك. إن المرسِل يضع رسوله أمام المعركة لكنه يعدُ بتخليصه.

ولا يستطيع إرميا رفض القرار الإلهي بعد سماع هذه الكلمات. ويحتمل أنه قد شعر بالمهمة في قرارة نفسه قبل التكليف، لكنه خاف منها. والآن، يعترف النبي الشاب ويقبل حقيقة أنه ليس في مقدوره فعل شيء فيسكت. وفي كل قسم من أقسام رؤيا التكليف يقول إرميا كلمات قليلة فقط. وطوال الوقت نسمع كلام الرب؛ أما كلمات إرميا فقصيرة ومترددة ومتقطعة. والرب كلماته طويلة، وواثقة، وشعرية واحتفالية. بداية الكلام إعلان وبشرى، وتكملته أمر، وآخره وعد.

تتجسد العلاقة الحميمة بين النبي وربه عبر التواصل الملموس عبر وضع الرب يده على فم النبي. ويرمز هذا التواصل الإلهي إلى حقيقة أن فم النبي إنما يقول كلام الرب فقط، الموضوع فيه: "ومد الرب يده ولمس فمي، وقال الرب لي ها قد جعلت كلامي في فمك" (٩). هذا التواصل الشخصي الحي بين إرميا والرب تبرزه كلمة "لي" التي تتكرر في الإصحاح سبع مرات: "وقال الرب لي ... وقال الرب لي ..." فيشعر النبي بقرب الرب ويشعر بلمس يده. هو مستعد الآن لمهمته، ويسمو فجأة راعي الأغنام الشاب من حقول عناثوث إلى مكانة سامية كرسول للرب يحدد مصير الشعوب والدول: "انظر قد وكّلتك هذا اليوم على الشعوب، وعلى الممالك، لتقلع وتهدم، وتهلك وتنقض وتبني وتغرس" (٩). القلع – خلع النباتات، وهو تشبيه قروي، والهدم — هدم المباني، وهو تشبيه مدني. والترتيب معكوس في الجزء الأخير من الفقرة: أولًا البناء ثم الغرس. فالفقرة مبنية بشكل التقابل التقاطعي (khiasmos). إن القسم الأول الذي يهدم أكبر وأثقل بكثير من القسم الثاني

الذي يبني. وأساس مهمة إرميا هي الاستئصال والهدم. وحتى موسيقى الكلمات "לנתוש, לנתוץ، لِنتوش، لنتوتس – القلع والهدم" أقوى بكثير من "לבנות, לנטוע. لفنوت، لنطواع – البناء والغرس". لكن البناء والغرس سيأتيان في النهاية. وربما تساعد نبوءات الهدم، نفسها في البناء والغرس. والنبي لا يعمل بيديه بالطبع لكن بفمه غير أن هناك من الكلام ما هو أقوى من العمل. فمهمة النبي هي إخبار العالم بحكم الخالق وإعلان مصير الشعوب والدول. ونبوءاته تدعو الشعب إلى التوبة، حتى إن لم يكن لها تأثيرٌ فوري، فالأجيال التالية عرفت جيدًا من كان المذنب في الخراب، وعرفت كيفية تحاشي الفَنَاء. إن التوبيخ والتحذير والنبوءات عن الخراب والسبي هي نفسها مصدر النجاة والخلاص.

يحتاج مفهوم "نبي على الشعوب" إلى بعض التوضيح. فما معنى كلمة "الشعوب"؟ يقول "راشي" إن المقصود بها إسرائيل "الذين كانوا يتصرفون هم أنفسهم مثل عبدة النجوم والكواكب". وقد ورد بالفعل في تكليف حزقيال: "أنا مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمردة قد تمردت عليَّ" (حزقيال ٢: ٣). لكنه يقول هنا: "انظر قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك". ولم تكن هناك "ممالك" في إسرائيل في عصر إرميا. وفي رؤيا الخمر يقول: "وسقيت كل الشعوب الذين أرسلني الرب إليهم" (٢٥: ١٨). وفي ذلك إشارة صريحة إلى التكليف. وكذلك في رؤيا "بيت الفخاري" في الإصحاح ١٨، يكرِّر ما جاء هنا: "تارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والإهلاك ... وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس" (٧-٩). إذن لا شك في أن الحديث في رؤيا تكليف إرميا حديثٌ عن الشعوب فعلًا. غير أن القسم الثالث من الرؤيا يتحدث عن يهوذا

وأورشليم (١٥). لقد كانت مهمة إرميًا مخصصة لكل الشعوب منذ بدايتها، وهي الحقيقة التي تجعله متفردًا على سائر الأنبياء.

ويحب إرميا استخدام التضاد بين "القلع والهدم"، وبين "البناء والغرس"، انظر كذلك ١٨: ٧-٩؛ ٣١: ٢٧؛ ٤٥: ٤.

وينقسم القسم الأول نفسه من وصف التكليف إلى خمسة أجزاء:

١. ٤-٥؛ التجلي الإلهي والبشرى للنبي.

٢. ٦: رد فعل إرميا؛ الخوف من المهمة.

٣. ٧-٨؛ أمر الرب ووعده.

٤. ٩؛ اللمسة الإلهية.

٥. ١٠؛ مهمة إرميا (بعد أن اكتملت حقيقة رسالته).

وهنا كان من المنتظر أن ينتهي وضع التكليف؛ لكن نظرًا لكون دور إرميا صعب للغاية، كانت هناك حاجة إلى عملية إقناع أخرى. لذلك أراه الرب مشهدين رمزيين لتقريب أمر النبوة إلى قلبه: قضيب اللوز، والقدر المنفوخة.

"قضيب اللوز" أو عصا اللوز ليس تفسيره فرع مثمر لشجرة اللوز إنما عصا مصنوعة من شجرة اللوز. فلو كان ذلك فرعًا مثمرًا لم تكن هناك حاجة إلى المدح الخاص: "أحسنت الرؤية"! حيث لم تكن هناك أي صعوبة في ملاحظة فرع اللوز. لكن إن كان إرميا يعلم أن العصا مصنوعة من فرع اللوز ففي ذلك "رؤية حسنة" وفاز النبي بمدح الرب له، وهي صورة غير طبيعية نهائيًا، تدل على الشعور الخاص بالقرب والحميمية بين الرب وإرميا. وعصا اللوز لها معنى رمزي مزدوج: الأول؛

رمز لقضيب الغضب، والعقاب. الثاني؛ التلاعب بالألفاظ "شاقيد – شوقيد"[1] "لأني أنا ساهر على كلماتي لأجريها. وسرعان ما ستتحقق النبوءة؛ فاللوز يزهر في أول الشتاء حتى قبل تفتحته. فضلًا عن أنه من وقت الإزهار وحتى ظهور الثمار تمر فترة قصيرة مقارنة بالثمار الأخرى. إن عصا اللوز رمز ملموس ممتاز (سواء في الاسم أو في الجوهر) فالرب ينوي التنفيذ السريع لأحكامه. كما تُذَكِّر العصا أيضًا بعصا موسى وعصا هارون اللتين أثمرتا لوزًا (العدد ١٧: ٢٣).

"القدر المنفوخة" هي القدر التي تكون النار ضعيفة عليها "ووجهها" أي فتحتها من جهة الشمال. والمعنى هنا مزدوجٌ أيضًا: الأول؛ حيث ترمز النار إلى الاضطرابات والثورات في داخل البلاد. والثاني؛ الوجهة نحو الشمال تدل على "من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض". وربما ترمز القِدرُ أيضًا إلى مدينة أورشليم (حزقيال ١١: ٤).

هذان المشهدان مقتبسان من العالم الواقعي الذي يعيش فيه النبي ويشيران إلى الواقع التاريخي في عصر النبي. فالأدوات "المحلية" تشير إلى الأحداث التاريخية التي ستحدث في المستقبل القريب. وهي مشاهد ليست خيالية (كما هو الحال عند زكريا على سبيل المثال)، وليس فيها أي إعجاز (كما هو مع معجزات موسى)؛ إنما تُشبه رؤيا "سلة القطاف" عند عاموس (٨: ١)، يشير فيه أيضًا شيء بسيط في جوهره واسمه إلى حدث تاريخي مستقبلي.

وفي القسم الثالث والأخير من التكليف يشجع الرب النبي ويسانده: "لا ترتع من وجوههم لئلا أريعك أمامهم. هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود

[1] كلمة "لوز" بالعبرية شاقيد שקד وكلمة شوقيد שוקד تعني ساهر، حريص.

حديد وأسوار نحاس على كل الأرض، لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض. فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأني أنا معك، يقول الرب، لأنقذك" (١٧-١٩). المصطلحات التي يستخدمها الرب في التشجيع مقتبسة من المعجم العسكري: "تأهب ... جعلتك مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس". فحياة إرميا من المنتظر أن تصبح حياة رجل محارب في حاجة إلى القوة والدعم في نضاله الدائم من أجل الحق. ومهمته ستكون الأكثر مأساوية والأكثر تعاسة من أي مهمة أخرى. فمن المنتظر أن يرى بعيني رأسه تجسيد نبوءاته المفزعة، وستصبح روحه ممزقة ومنقسمة دائمًا بين معرفة الحق الفظيع لرؤياه وبين الألم والحزن على تحقق هذه الرؤيا. وتتسم حياة إرميا كلها ورسالته بهذا التناقض بين مضمون رسالته النبوية وبين ألمه ومعاناته من أجل حقيقة نبوئته.

ولم يذكر صراحة في التكليف نفسه حتى الآن من هي "ممالك الشمال" التي سوف "تقلع، وتهدم، وتهلك وتنقض"؟، حتى في النبوءات التالية لم يفسر من هو العدو القادم من "الشمال" (٤: ٦)، "أُمةٌ من بُعد" (٥: ١٥). ويبدو أنه لم يتضح لإرميا على مدى عشرين سنة حتى اندلاع حرب كركميش المعنى الحقيقي لذلك الشعب من الشمال (٦: ٢٢). ويحتمل أنه لم يكن يقصد بابل نهائيًا في نبوءاته الأولى إنما قبائل السكوثيين التي غزت سوريا وأرض فلسطين ووصلت حتى مصر. أما بابل نفسها فقد ذُكرت لأول مرة في الإصحاح العشرين. لذلك يقسِّم قويفمان كما رأينا السفر إلى مجموعتين الإصحاحات: ١-١٩ (لم يذكر فيها بابل نهائيًا)، والإصحاحات٢١-٥١.

تم التأكيد في التكليفات الثلاثة لموسى وإشعياء وإرميا على مفهوم الإرسال في حد ذاته وعلى مساندة الرب؛ لكن خوف وتردد موسى وإرميا لم يكن موجودًا

عند إشعياء. وتردد موسى كان أقوى من تردد إرميا. وذُكر التواصل الإلهي عند إرميا وإشعياء. وظهرت المعجزات عند موسى وإرميا لكن ليس عند إشعياء؛ لكن هناك فرق بين معجزات موسى ومعجزات إرميا، فقد طلب من موسى طلب أن يشارك بفاعلية في المعجزات: إلقاء العصا والإمساك بطرفها وغيرها، في حين أن إرميا شاهد فقط، فضلًا عن عدم وجود أي شيء خارق للطبيعة في معجزات إرميا، أو أي معجزات وعجائب كما في معجزات موسى (الثعبان، اليد المصابة بالجذام). وعلى عكس موسى وإشعياء لا يوجد عند إرميا أي رؤية للرب، فهو لا يرى هيئة الرب مثل إشعياء، ولا عليقة النار مثل موسى، إنما يسمع صوت الرب فقط ليس أكثر.

لقد بُعث موسى لإنقاذ الشعب من مصر وإدخاله إلى أرضه. وأُرسل إرميا للتنبوء بالخراب والسبي. وكان إشعياء نبي الخلاص أما إرميا فنبي الخراب. ويختلف مضمون رسالة إرميا عن موسى وإشعياء، وهناك أيضًا اختلاف شخصي أساسي بين إرميا وبين موسى وإشعياء نابع من عملية التكليف نفسها كي يكون نبي خراب. فقد منعه هذا الدور عن أي حياة طبيعية فلم تكن لإرميا حياة خارج نبوءته؛ أما موسى وإشعياء فكانت لهما حياتهما العائلية والعامة. وأُمر إرميا بألَّا يتخذ زوجة وألَّا ينجب أولادًا وبناتًا لأن الموت المروع ينتظر كل الأولاد والبنات الذين سيولدون في هذا المكان (١٦: ١-٤). وعلى الرغم من أن موسى هو سيد الأنبياء إلا أنه لم يكن نبيًا منذ مولده مثل إرميا الذي قدَّس كل حياته للنبوة فقط وظلَّ في صراع مستمر مع النار الموقدة في داخله.

تكشف لنا رؤيا التكليف خصالًا أساسية في شخصية إرميا: كونه نبيًا منذ الولادة، نبيًا للأمم؛ العلاقة الشخصية الخاصة بين الرب وبينه، وعدة خصال

أخرى. كما نشاهد في شخصيته مثالًا آخر لعدم التجانس الكامل بين النبي ونبوءته. فعلى الرغم من تحطم قلب النبي إلا أنه تخرج منه نبوءات خراب فظيعة، هو نفسه يقشعر لسماعها. هذا التناقض الشديد في نبوءة إرميا وفي نفسه يجعل من سفره وثيقة أدبية تاريخية مؤلمة ومتفردة في تاريخ البشرية.

ختامًا يجب أن نشير إلى الخصائص الفنية في رؤيا التكليف:

١. الحوار الحي بين الرب والنبي، في شكل سؤال وجواب.

٢. التقابل. (وزن أربع نبرات في كل شطر).

בטרם אצרך בבטן ידעתיך, ובטרם תצא מרחם הקדשתיך

قبلما صورتك في البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك

٣. القافية: عرفتك، قدستك، جعلتك.

٤. التقابل التقاطعي: "لنتوش، لنتوتس، (القلع والهدم)"، "لفنوت لنطواع (البناء والغرس)".

٥. التلاعب بالكلمات. لنتوش، لنتوتس، شاقيد، شوقيد، تحت أحتيخا.

٦. الرموز والمشاهد. العصا، القدر، الاتصال الإلهي. جميعها وسائل لتجسيد أفكار.

٧. تشبيه النبي برجل الحرب والمدينة الحصينة، وعمود الحديد، وسور النحاس.

إرميا في عصر يوشيا

وُلد إرميا في عام ٦٤٥ ق.م تقريبًا، في عصر منسى ملك يهوذا. قضى طفولته في عناثوث وتلقى تعليمه في بيت والده وبين دوائر كهنة عناثوث. وبالطبع كان يزور أورشليم في الأعياد، كما كان يزور بيت الرب (الهيكل). كُلِّف بالنبوة في بداية المرحلة الأولى من إصلاحات يوشيا، و لم تكن أرض يهوذا تطهرت من الوثنية حتى وقت العثور على كتاب الشريعة وقطع العهد - أي في السنوات الخمسة الأولى من نشاطه (٦٢٦ ق.م — ٦٢١ ق.م)؛ وتتناول الإصحاحات الأولى عند إرميا تلك الفترة الزمنية في حياته. كان إرميا في ذلك الوقت قد تنبأ عن الشر القادم من الشمال وعن الخراب القريب: "قد برز أسد من أجمته وزحف مدمِّر الشعوب، قد أقبل من خدره ليخرب أرضكم، فتصبح مدنكم أطلالًا مهجورة من السكان" (٤: ٧)؛ "نظرت وإذا البستان برية، وكل مدنها نقضت من وجه الرب، من وجه حمو غضبه" (٢٦). لكن النبي لم يفسر بعد من هو "الأسد" القادم من الشمال حاملًا الشر؛ وهو ما سيتضح له فقط بعد نصر كركميش.

وفي الإصحاح السابع نجد النبوءة الصريحة عن خراب الهيكل: "أصنع بالبيت الذي دعي باسمي عليه الذي أنتم متكلون عليه، وبالموضع الذي أعطيتكم وآباءكم إياه، كما صنعت بشيلوه. وأطرحكم من أمامي كما طرحت كل إخوتكم كل نسل أفرايم" (١٤).

لم يكن إرميا معروفًا في أورشليم في سنوات نشاطه الأولى، وعندما عُثر على كتاب الشريعة في الهيكل أرسل الملك يوشيا وفده إلى خلدة النبية وليس إليه. على أي حال لم تتوقف نبوءات التوبيخ والخراب والسبي حتى بعد العثور على كتاب الشريعة وإصلاحات يوشيا. فالنبي لم ترضيه إصلاحات العبادات، وطلب من

الشعب: الحقيقة، ومعرفة الرب، وصنع الرحمة، والعدل والبر، وهو ما لم يجده في الحياة الشخصية والاجتماعية في عصره. فاستمر يرثي ويصرخ بأن العهد قد نُقِضَ (١١: ١٠)، وأن الرب لا يريد عبادته في بيت المقدس (٦: ٢٠، ٧: ١١)، وأن المجتمع كله من صغيره لكبيره يعيش في فساد وغش (٦: ١٣، ٨: ١٠)؛ لذلك فالدمار والخراب يقتربان بسرعة. أغضبت هذه الكلمات السامعين فكرهوا النبي؛ حتى أبناء عناثوث أنفسهم المقربين منه أرادوا قتله (١١: ٢١)، حتى إخوته وأهل بيت أبيه خانوه (١٢: ٦). هذه الحقائق أدهشته كثيرًا وأثارت غضبه، فهو قد أُرسل لينقذهم، وقد أراد النجاة والخير لهم، لكنهم ناكرون للجميل، يبادلونه الخير بالشر: "هل يجازى عن خير بشر؟ لأنهم حفروا حفرة لنفسي، أذكر وقوفي أمامك لأتكلم عنهم بالخير لأرد غضبك عنهم" (١٨: ٢٠). فيشتكي النبي من سوء المصير ومن مهمته، ويلعن أعداءه ويطلب من الرب أن ينتقم منهم انتقامًا شديدًا (١١: ١٨-٢٣، ١٢: ٣، ١٨: ٢١-٢٣).

لقد أراد إرميا أن يجد في مهمته كل مضمون حياته وسعادته وبهجته: "وُجِدَ كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي لأني دعيت باسمك يا رب إله الجنود" (١٥: ١٦). وكرَّس كل حياته لعبادة الرب: "لم أجلس في محفل المازحين مبتهجًا. من أجل يدك جلست وحدي، لأنك قد ملأتني غضبًا" (١٧). كما يتنازل عن حياته الأسرية والاجتماعية، فلم يتزوج ولم ينجب أبناء (١٦: ٢)، لكن هذا الإخلاص التام لمهمته النبوية لم يجلب له الراحة بل العزلة التامة والمعاناة والحزن. فيرثي النبي الشاب ويبكي آلامه: "ويل لي يا أمي لأنك ولدتني إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض!" (١٥: ١٠). "لماذا كل وجعي دائمًا وجرحي عديم الشفاء؟" (١٨). وكان إرميا يسير دائمًا كدرًا غضبًا ووحيدًا في داخل مجتمع

عدائي يريد قتله، أو على الأقل التخلص من توبيخه ومن سماع كلامه. فكان يتشاجر مع الكهنة والأنبياء ووبخ الشعب كله. ولم يحمل توبيخه طابعًا طبقيًا واجتماعيًا مثل عاموس وميخا، فلا أحد يصلح في عينيه: "كلكم عصيتموني. يقول الرب" (٢: ٢٨). "طوفوا في شوارع أورشليم وانتظروا، واعرفوا وفتشوا في ساحاتها، هل تجدون إنسانًا أو يوجد عامل بالعدل طالب للحق فأصفح عنها" (٥: ١). "لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم كل واحد مولع بالربح ومن النبي إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب" (٦: ١٣، ٨: ١٠).

لقد عانى إرميا مأساة مزدوجة: الأولى؛ الاختلاف الشديد بينه وبين البيئة المحيطة به؛ الذي هو إرث أنبياء كثيرين وإرث كل مجدِّد. الثانية وهي الأصعب؛ الألم والأسف الشديدين على أن نبوءاته حقيقية وأنها ستتحقق سريعًا. فهو قد أحب ابنة شعبه كثيرًا وأراد إنقاذها، لكنه أدرك أنه لا مفر من الخراب. وأصبح في نفسه، ما وصفه البروفسور تسفي آدار: "تناقض صارخ بين إحساسه الشخصي وبين كلام النبوءة. فإنسانيته لم تستطع الخضوع لنبوءته. وهو لا يستطيع تحمل نبوءته؛ ونتيجة لذلك تتحول نبوءته إلى معاناة دائمة يصعب تحملها. ويحتمل أن يكون هناك أنبياء آخرون قد شعروا بذلك أيضًا، لكنهم عبرَّوا عن هذا الشعور، لأنهم استطاعوا التغلب عليه. أما إرميا فلا يستطيع التخلص من هذا الشعور الشخصي الذي يسيطر على نبوءته إلى حد ما". "فهو موجود دائمًا بين مطرقة الرب وسندان الشعب الموجودان في قلبه".

يحاول إرميا التغلب على حزنه لكن قلبه يظل متألمًا مُوعكًا: "من مفرِّج على الحزن؟ قلبي فيَّ سقيم. هو ذا استغاثة بنت شعبي من أرض بعيدة" (٨: ١٨). "من أجل سحق بنت شعبي. انسحقت. حزنت. أخذتني دهشة" (٢١). "فإن نفسي

تبكي في أماكن مستترة من أجل الكبرياء، وتبكي عيني بكاء وتذرف الدموع لأنه قد سُبي قطيع الرب" (١٣: ١٧).

وصل إرميا إلى ذروة الشكوى والتألم بعد الصدام مع فشحور بن إمير الكاهن الذي كان "الناظر أول" على بيت الرب (رئيس نظَّار بيت المقدس). وقع هذا الصدام بعد أن قال إرميا علنًا في وادي بن هنُّوم واحدة من نبوءات غضبه الشديدة:

"هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا جالب على هذا الموضع شرًا ... ولا يدعى بعد هذا الموضع توفة ولا وادي ابن هنوم بل وادي القتل ... وأجعلهم يسقطون بالسيف أمام أعدائهم وبيد طالبي نفوسهم. وأجعل جثثهم أكلًا لطيور السماء ولوحوش الأرض ... (١٩: ٣-٩).

عندما سمع فشحور هذا الكلام ضرب النبي "وجعله في المقطرة التي في باب بنيامين الأعلى الذي عند بيت الرب" (٢٠: ١-٢). ولا نعرف بالضبط ما هي المقطرة لكن بحسب سياق الموضوع نستطيع أن نخمن أنها كانت آداة تعذيب للأسرى، يكون فيها الجسد ملتويًا أو مقلوبًا. وفي اليوم التالي أُخرج إرميا من المقطرة فرثى للرب شاكيًا:

يا رب قد أقنعتني فاقتنعت   أنت أقوى مني فغلبت (٢٠: ٧).

لقد أقنعتني كي أقبل المهمة، وأنا سمحت لنفسي بأن تقتنع. وكنت أقوى مني واستطعت أن تجبرني على الذهاب في المهمة. (ويقول راشي مفسرًا: لقد أثقلت عليَّ بيدك القوية للذهاب رغمًا عني، وانتصرت"). وهنا إشارة صريحة إلى التكليف. لكن الرب لم يفِ بوعده بالوقوف إلى جانبه بأن يجعله مدينة حصينة وسور من نحاس. "لأني كلما تكلمت صرخت ناديت: ظلم واغتصاب. لأن كلمة

الرب صارت لي للعار والسخرة كل النهار" (٨). لكنه لا يستطيع إيقاف مهمته ونبوءته، لأنها أقوى منه: "فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه، فكان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي، فمللت من الإمساك ولم أستطع" (٩). ولا شك في أن كلمة "لم أستطع" هي عكس كلمة "فغلبت" في الفقرة السابعة. فهو من ناحية لا يستطيع التخلص من النبوءة التي فرضت عليه بواسطة قدرة الرب، ومن ناحية أخرى غير قادر على تحمل الآلام النفسية عند رؤيته أنه أصبح هو نفسه محل الظلم والاغتصاب، وأن كلام الرب أصبح يجلب عليه السخرية والعار.

لذلك تحطم قلبه ولَعَن يومَه، فقال الرب له: "قبلما خرجت من الرحم قدستك". ويسأل النبي الرب: "لماذا خرجت من الرحم لأرى الحزن والعذاب؟" فكان من الأفضل له أن يميته الرب في رحم أمه "فكانت لي أمي قبري ورحمها حبلى إلى الأبد" (٢٠: ١٧-١٨). العلاقة برؤيا التكليف واضحة تمامًا هنا أيضًا.

كان إرميا وفقًا لطبيعته وخصاله يستطيع أن يصبح نبي محبة ومواساة، لكنه هو تحديدًا أرسل "لتقلع وتهدم، وتهلك وتنقض"، لذلك كان بائسًا جدًا. ونعرف من إصحاحات المواساة وعدد غير قليل من فقرات التأنيب عن رقة نفس إرميا، وعن عظَم حبه لشعبه:

قد ذكرت لك غيرة صباك محبة خطبتك (٢: ٢).

ومحبة أبدية أحببتك من أجل ذلك أدمت لك الرحمة (٣١: ٣).

(في الفقرة الثانية تقابل تقاطعي مع الفقرة الأولى).

"من أجل سحق بنت شعبي انسحق، حزنت. أخذتني دهشة. أليس بلسان في جلعاد أم ليس هناك طبيب؟ فلماذا لم تغضب بنت شعبي؟ يا ليت رأسي ماء،

وعيني ينبوع دموع، فأبكي أنهارًا وليلًا قتلى بنت شعبي" (٨: ٢١-٢٣). وفي رثائه القصير ٨: ١٨-٢٣، ينادي النبي إسرائيل بكنية "بنت شعبي" أربع مرات".

"أحشائي أحشائي، توجعني جدران قلبي، يئن في قلبي، لا أستطيع السكوت" (٤: ١٩). "هل أفرايم ابن أثير لدي؟ أليس هو ابنًا مسرًا؟ لأني مع كثرة تنديدي به فإني ما زلت أذكره، لذلك يشتاق قلبي إليه، وأكن له بالرحمة، يقول الرب" (٣١: ٢٠).

إن قلب النبي وداخله ممتليء بالحب والرحمة لشعبه، وهو تحديدًا الذي اضطر إلى سماع صوت أبواق الحرب ورؤية قتلى بنت شعبه أمام عينيه، المُلقى بهم في الشوارع بلا مقابر تأويهم (١٤: ١٦).

حتى متى أرى الراية وأسمع صوت البوق (٤: ٢١).

"لتذرف عيناي دموعًا، ليلًا ونهارًا ولا تكفًا. لأن العذراء بنت شعبي سُحقت سحقًا عظيمًا، بضربة موجعة جدًا. إذا خرجت إلى الحقل فإذا القتلى بالسيف، وإذا دخلت المدينة، فإذا المرضى بالجوع" (١٤: ١٧-١٨).

إرميا في عصر يهوياقيم

إن المخاطر التي تعرض لها إرميا في عصر يوشيا من قبل أبناء عناثوث الذين أرادوا قتله قد زادت في عصر يهوياقيم الملك المتغطرس والمستبد. والإصحاح السادس والعشرون يحكي لنا عن حادثة فريدة من نوعها ليس فقط في تاريخ إرميا إنما في تاريخ النبوة كذلك: فقد اتهم النبي بسبب كلامه أمام محكمة شعبية. وعلى الرغم من أن العهد القديم يحكي لنا في مواضع كثيرة عن اضطهاد الأنبياء إلا أننا لا نجد في أي موضع آخر فيه محاكمة نبي بسبب نبوءته. وقصة هذه المحاكمة مهمة

ومثيرة من عدة نواحٍ، خصص لها البروفسور جويطاين مقالًا طويلًا في كتابه "دراسات في العهد القديم"، قال فيه إن الإصحاح السادس والعشرين هو أحد أسمى القصص ليس في العهد القديم فقط إنما في الأدب العالمي بشكل عام.

وتلقي القصة الكثير من الضوء على شخصية إرميا، كما تعرفنا على طرق المحاكمة في إسرائيل وعلى الأحداث المهمة في ذلك الجيل. تُعقد المحاكمة في بداية عهد يهوياقيم، في الفترة التي كانت تخضع فيها يهوذا لنفوذ مصر، ولحكم يهوياقيم الشرير، الظالم القاتل، الذي حكم بفضل مصر.

ما سبب المحاكمة؟ نبوءة إرميا العلنية في فناء بيت الرب: "فإني أجعل هذا الهيكل نظير شيلوه، وهذه المدينة لعنة جميع أمم الأرض" (٢٦: ٦، وكذلك ٧: ١٢-١٥، ١٩: ٨). تلك النبوءة التي كررها إرميا مرات كثيرة قد أخافت وأرعبت جميع السامعين خاصة الكهنة والأنبياء الذين عملوا في الهيكل؛ فأبغضوا إرميا تحديدًا لمحاربته أنبياء الكذب ولكلامه القاسي ضد الكهنة. "فما فرغ إرميا من الإدلاء من كل ما أمره الرب أن يخاطب به الشعب، قبض الكهنة والأنبياء وسائر الشعب عليه قائلين: لابد أن تموت" (٢٦: ٨) معتمدين في ذلك بالتأكيد على أحكام أنبياء الكذب في التوراة (التثنية ١٨: ٢٠): "وأما النبي الذي يتجبر وينطق باسمي بما لم آمره أن يتكلم به، أو يتنبأ باسم آلهة أخرى، فإنه حتمًا يموت".

ومن كانوا القضاة؟ يحكي المكتوب أن رؤساء يهوذا استمعوا إلى الكلام "أقبلوا من قصر الملك إلى هيكل الرب". بذلك لا يحاكم الكهنة والأنبياء أنفسهم؛ فهم الذين دعوا إلى انعقاد محكمة رسمية شعبية. وحضر المحاكمة أيضًا بالإضافة إلى وجود الرؤساء والقضاة عددٌ لا بأس به من شيوخ البلاد كممثلين للشعب. عُقدت جلسة المحاكمة عند المدخل الجديد لباب هيكل الرب. وتلى الادعاء أمام المحكمة

التهم وطلب من المتهم الرد على ما هو منسوب إليه. وبالفعل يقوم إرميا بالرد! ولا يرفض صلاحية المحكمة الشعبية الرسمية ولا يسخر من قضاتها ولا بمتهميه، لكنه يرفض أساس الادعاء. يزعمون أنه يستوجب الموت كنبي كذب، لكنه يعلن في بداية كلامه: "الرب قد بعثني لأتنبأ على هذا الهيكل وعلى هذه المدينة الذي سمعتموه". بذلك يكون نبي حق وكلمة الرب في فمه. فهو لا يريد الخراب لكن توبة الشعب، وإذا سار الشعب في الطريق القويم فسيندم الرب على الإساءة. هم يستطيعون قتله لكنهم يعلمون جيدًا "إنكم تجلبون دمًا بريئًا على أنفسكم"، فهم لن يترلوا الشر به إنما بأنفسهم. وإن الغرض من إرساله لهم من أجل إنقاذهم، لكنهم يعظِّمون من ذنبهم ويُدنون من نهايتهم. فلا يتراجع إرميا عن كلامه ولا يعد بالكف عن التنبوء لشعبه بل ويؤكد على دعوته وعلى تحذيره بلا خوف أو إحجام.

تذكرنا هذه المحاكمة بالطبع بمحاكمة سقراط في أثينا بعد مائتي سنة تقريبًا. لا يتحدث إرميا إلى القضاة مطولًا، ولا بأسلوب ساحر، ولا يتحدث عن نفسه نهائيًا، ولا عن حياته أو معاناته. وعلى الفور يضع المحكمة والشعب كله أمام المعنى الكبير لحقيقة إرساله. فنضاله من أجل الحقيقة، وعدم خوفه من الموت، وحبه لشعبه، وعظمته الأخلاقية ترك انطباعًا طيبًا لدى الحاضرين فقام من يدافع عنه من دعاة الاستقامة من شيوخ الأرض الذين شهدوا أن نبوءة خراب مشابهة قد قالها ميخا قبل حوالي مائة سنة في عصر حزقيا، ولم يُقتل النبي بسببها. وذِكْر هذه السابقة سينقذ إرميا من موت شبه مؤكد؛ فقد قتل في هذا الوقت على يد يهوياقيم النبي أوريا بن شمعيا الذي قال مثل كلام إرميا. ولقد هرب أوريا إلى مصر وظن أنه يستطيع الاختباء هناك، لكن يهوياقيم أرسل الناثان بن عكبور برفقة مجموعة من

الناس إلى مصر وقبضوا عليه هناك وأحضروه أمام الملك "فقتله بالسيف وطرح جثته في مقابر عامة الناس" (٢٠-٢٣).

لا يمكن معرفة إن كان ذكر الادعاء لقصة موت أوريا يعتبر ذكر لسابقة ليست في صالح إرميا – بخلاف سابقة ميخا التي ذكرها المدافعون عنه؛ وهو رأي الحاخام راشي (شلومو يتسحاقي) والحاخام داود قمحي (رادق). أم أنا هذا الحدث مزجه الرواي باروخ بن نيريا بالقصة كي يقف القاريء على الخطر الذي كان يحدق بالنبي. على أية حال فقد قبلت المحكمة مزاعم النبي ودفاع أنصاره وحكمت "هذا الرجل لا يستحق حكم الموت لأنه خاطبنا باسم الرب إلهنا" (١٦). ولا يزال الخطر الذي يهدد حياة إرميا قائمًا، لكنه نجا بمساعدة مؤيديه.

ولقد ساعد إرميا الرئيس أحيقام بن شافان بالتحديد. ورد ذكر شافان الكاتب في عهد يوشيا (الملوك الثاني ٢٢: ٣) وكان معه ولدين من أتباع النبي: ألعاسة بن شافان (إرميا ٢٩: ٣)، الذي أرسل معه إرميا رسالة إلى سبي يهوياكين، وجَمريا بن شافان الكاتب (٣٦: ١٠). كما ذكر في عصر صدقيا أيضًا حفيد شافان جدليا بن أحيقام الذي ساعد أيضًا إرميا (٣٩: ١٤). وبما أن بيت شافان ساعد إرميا واتبع على ما يبدو سياسة مؤيدة لبابل، فقد قام نبوخذ نصر بتعيين جدليا حاكمًا على بقية يهوذا.

حظي إرميا أيضًا بتلميذ مخلص وهو باروخ بن نيريا الذي كتب عنه كل كلام الرب (٣٦: ٤). ونعرف من الإصحاح الخامس والأربعين أن باروخ بن نيريا كان أيضًا مثل سيده ومعلمه إرميا يتألم ويحزن بسبب محنة شعبه: "ويل لي لأن الرب قد أضاف حزنًا إلى ألمي، وأعييت في أنيني، ولم أجد راحة" (٤٥: ٣). لكنه استمر في مصاحبة إرميا، واتباعه وكان شريكًا له في المعاناة وفي المخاطر منذ عصر يهوياقيم

وحتى الهبوط إلى مصر (٤٣: ٦)، وبفضله تم الحفاظ على أقوال إرميا وعلى القصص التي تحكي عن حياته.

وفي السنة الرابعة من حكم يهوياقيم يأمر الرب إرميا بكتابة كتاب "خذ لك درج كتاب ودوِّن فيه كل الكلام الذي أمليته عليك عن إسرائيل ويهوذا وعن جميع الأمم، منذ اليوم الأول الذي أوحيت فيه إليك في عهد يوشيا إلى الآن ... فاستدعى إرميا باروخ بن نيريا فدوَّن باروخ عن فم إرميا في درج كتاب جميع وحي الرب الذي أوحى إليه به" (٣٦: ٢-٤).

لماذا أُمر إرميا بكتابة كلامه في كتاب؟ هناك سببان لذلك على ما يبدو: الأول خارجي والثاني داخلي؛ فالسنة الرابعة ليهوياقيم هي سنة ٦٠٥ ق.م التي حقق فيها البابليون نصرًا عظيمًا على المصريين في كركميش، فكانت سنة تحول تاريخي. فالآن فقط، بعد عشرين سنة، أصبح لرؤيا التكليف معنى واقعي واضح. واتضح الآن من تكون "عائلات ملوك الشمال" ومن أين "سيأتي الشر على جميع سكان البلاد". وانتهت في هذه السنة المرحلة الأولى في تاريخ نبوة إرميا. فسرعان ما سيقترب العدو الكلداني إلى أورشليم. لذلك يجب أن يتم تسجيل نبوءة التوبيخ وأن تُعرف وتُنشر بين الكثيرين في صورة كتاب، كي تصبح شاهدًا ونذيرًا. ثانيًا؛ كان الوضع الداخلي في يهوذا في عصر يهوياقيم سيئًا بشكل لا يقارن بعصر يوشيا، كما كان هناك خطر تعرض النبي وتلميذه للموت. هذان التغييران الحاسمان في تاريخ العالم وفي تاريخ يهوذا دفعا إرميا إلى سرعة العمل في أيام يهوياقيم شفاهةً وكتابةً.

وبعد أن انتهى باروخ من تدوين الكتاب أرسله إرميا إلى بيت الرب لقرائته هناك على مسمع من الشعب "في الشهر التاسع" في يوم صوم (٣٦: ٩). ولم يذكر

أي صوم هذا في شهر طيبيت؟ ربما كانت هناك دعوة للصوم، من أجل الابتهال بألا يقوم نبوخذ نصر بغزو يهوذا. وكانت هذه فرصة طيبة لدعوة الشعب إلى التوبة. ولم يكن إرميا يستطيع القيام بذلك بنفسه لأنه كان "معتقلًا"، ولا نعرف سبب هذا الاعتقال. على أي حال من المثير أنه تم السماح لباروخ بن نيريا بقراءة كلام إرميا في مخدع جمريا بن شافان الكاتب "في الدار العليا عند المدخل الجديد لباب هيكل الرب، على مسامع الشعب". ولقد تأثر ابن جمريا كثيرًا بالكلام وذهب على الفور وأخبر به رؤساء المدينة الذين كانوا يجلسون في قاعة الاجتماع بقصر الملك. فيرسل الرؤساء ليأتوا بباروخ إليهم. ولا شك في أنهم استمعوا إلى كلام إرميا في خوف وتشجيع لأنهم طلبوا من باروخ أن يختبيء مع إرميا، وسيقومون هم بعرض الكتاب على الملك، وربما يؤثر عليه ذلك للأفضل.

كان الملك يهوياقيم يجلس في حجرته الشتوية أمام نار كانون متأجج أمامه فقام الرئيس يهودي بقراءة كتاب إرميا "في أذني الملك وفي آذان كل الرؤساء الواقفين لدى الملك" (٢١). أمامنا مشهد درامي للغاية: ملك يهوذا يجلس على عرشه والرؤساء من حوله، ويتلو الرئيس أمامهم كلام إرميا في الكتاب، المكون من أقسام أقسام، وبعد أن يقرأ يهودي ثلاثة أو أربعة أجزاء يتناول يهوياقيم مبراة الكاتب وبدون أي تأنيب للضمير يقوم بتمزيقها ويلقي بها "في النار التي في الكانون، حتى فنى كل الدرج" (٢٣).

وكان هناك بالفعل بعض الرؤساء الذين "ترجوا الملك أن لا يحرق الدرج" (٢٥). لكنه لم يتراجع عن هذا العمل البربري واستمر في عمله في هدوء "ولم يخف الملك ولا كل عبيده السامعين كل هذا الكلام، ولا شققوا ثيابهم" (٢٤).

وبدلًا من أن يصوب طريقه أمر الملك بالبحث عن باروخ وإرميا والقبض عليهما، لكنهما نجحا في الاختباء منه.

لدينا هنا شهادة على أن سفر إرميا لم يكتب في نسخة واحدة لكن في عدة نسخ. احتوت النسخة الأولى على نبوءاته على مدار ٢٣ سنة، ثم أضيفت إليها أجزاء جديدة. وهذه الحقيقة من شأنها أن تفسر عدم الترتيب الزمني للسفر؛ حيث ضُمت إليه أقسام جديدة في أزمنة مختلفة: "فأخذ إرميا درجًا آخر ودفعه لباروخ بن نيريا الكاتب فكتب فيه عن فم إرميا كل كلام السفر الذي أحرقه يهوياقيم ملك يهوذا بالنار وزيد عليه أيضًا كلام كثير مثله" (٣٦: ٣٢).

إرميا والتمرد على بابل

منذ أن اتضح لإرميا أن ملك بابل هو الآداة التي سينفذ بها الرب قضاءه، وهو يناديه بـــ"عبد الرب" (٢٥: ٩) وتنبأ له أن يدوم سلطانه على جميع الأمم سبعين سنة (١٢)؛ ولم يعد إرميا يستخدم لقب "قضيب الغضب" الذي استخدمه إشعياء إنما استخدم رمزًا آخر: "كأس خمر السخط" (١٥). فالسُم الذي في هذا الخمر سيسكر ويسبب الجنون ويميت الأمم. وأول من يذوقونه هم أهل أورشليم ومن بعدهم بقية الشعوب وفي النهاية سيشرب منه ملك بابل نفسه (١٩-٢٩).

مبدئيًا لا يوجد اختلاف بين نظرة إرميا إلى بابل وبين نظرة إشعياء إلى آشور؛ فهما اعتبرا الدولتين العظميين الوثنيتين آداة في يد الرب يعاقب بها الشعوب الآخرى. لكن هناك فرق آخر جوهري وحاسم بينهما. فإشعياء كان واثقًا أنه على الرغم من خطايا أورشليم إلا أنها ستنجو من يد سنحريب، وسيحمي الرب مدينته وهيكله؛ أما إرميا فكان واثقًا من أن الرب لن يفعل ذلك. وقام إرميا بتشجيع حزقيا ومساندته وقت الحصار، أما معارضة إرميا لتمرد بابل فقد كانت

شديدة وحاسمة حتى آخر يوم لأورشليم. ولم يسخر إرميا من بابل أو يهينها لكنه طالب بالاستسلام لها وفتح أبواب المدينة للجيش البابلي؛ فالولاء البطولي للمدينة وللدفاع عنها معناه الموت، أما الخروج إلى البابليين فمعناه الحياة (٢١: ٩)، ونصح الملك أيضًا بهذه النصيحة (٣٨: ١٧).

يحكي الإصحاح السابع والعشرين عن وفود أدوم ومؤاب وعمون وصور وصيدون التي جاءت إلى أورشليم لتطالب صدقيا بالانضمام إلى التمرد العام ضد بابل. ويأمر إرميا بصنع المناشير والقضبان رمزًا للاستعباد لبابل، ويرسل نبوءته ضد التمرد إلى كل الوفود. فجميع الأمم بما فيها حيوانات الحقل عليها أن تخدم نبوخذ نصر ملك بابل وعبد الرب "ويكون أن الأمة أو المملكة التي لا تخدمه ... إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء" (٥-٨). "والأمة التي تدخل عنقها تحت نير ملك بابل وتخدمه أجعلها تستقر في أرضها، يقول الرب، وتعملها وتسكن بها" (١١).

لماذا اتخذ إرميا هذا الموقف المتشدد جدًا من التمرد على بابل؟ لأن الواقع السياسي والاجتماعي والديني والأخلاقي في يهوذا في عصر يهوياقيم وصدقيا كان مختلفًا تمامًا عنه في عصر حزقيا. فلم تكن هذه حسبة سياسية أو عسكرية إنما معرفة وعقيدة دينية راسخة بأن أورشليم يجب أن تلقى عقابها على جرائمها وآثامها. لذلك فالطريقة الوحيدة لنجاة المدينة هي الخضوع لبابل. يبدو لوهلة أن هناك تناقض منطقي. فهل الخضوع لبابل يكفِّر عن أخطاء أورشليم؟ فلو أن الخضوع لبابل ينقذ المدينة فسيكون فيه نوع من التكفير والعفو. ولا يجب الاعتقاد أن إرميا اعتبر الخضوع وسيلة لتحرير أورشليم من مسئوليتها عن آثامها. إنما كان يظن بالتأكيد أن الاستعباد لبابل على الرغم من اعتباره عقابًا على آثامها – أورشليم –

إلا أنه أقل وطأة من الخراب. لأن الاختيار المتاح أمام يهوذا لم يكن: الحرية أو الخضوع، إنما الخراب أو الخضوع. لذلك فضَّل إرميا الخضوع ودعا له من أجل إنقاذ المدينة. وقد علم جيدًا أنه إذا لم تقبل يهوذا بنير بابل فإنها ستُدمَّر تدميرًا.

وفي المقابل كان حننيا بن عزور من جبعون يؤمن أن الرب سيفعل الآن أيضًا مثلما فعل في عصر سنحريب. فيرفع النير من حول عنق إرميا ويحطمه أمام أعين الشعب ويعلم باسم الرب أنه بعد عامين سيدَّمر نير ملك بابل. و لم يرد عليه إرميا أثناء قيامه بهذا الأمر، لكنه سار في سبيله (٢٨: ١١). ربما يكون الرب قد تجلى لحننيا وأخبره بنبوءة جديدة، لم يكن يعرفها. فإرميا لم يكن حتميًا. فقضاء الرب ليس مطلقًا، فهناك حالات تاريخية كان فيها احتمال للنجاة. ألم ينجح عاموس في إبطال تهديدات الرب "فندم الرب على هذا، لا يكون" (عاموس ٧: ٣، ٦). وإرميا نفسه سيكون سعيدًا إذا تحققت نبوءة حننيا. "وقال النبي إرميا: آمين. هكذا ليصنع الرب ليقيم الرب كلامك الذي تنبأت به" (٢٨: ٦). لكن بعد فترة تجلى الرب لإرميا وأخبره بعدم حدوث أي تغيير في رغبته وفي مخططته. فأصبح إرميا واثقًا أن حننيا يقول كذبًا وأن الرب لم يرسله.

إن الاختلاف بين حننيا وإرميا إنما يأتي من رؤيتهما الشاملة؛ فحننيا يعتقد أنه من غير الممكن أن يتخلى الرب عن مدينته وهيكله، لأنها أماكن مقدسة لها قيمة أبدية مطلقة. كما سيعيد الرب يهوياكين وأدوات الرب من السبي إلى أورشليم؛ لكن إرميا لا يعتبر أورشليم أو الهيكل قيمة أبدية مطلقة لا يتخلى عنها الرب بأي حال، ولو حتى لفترة قصيرة، بل العكس. ففي حالة يهوذا فإن في الخراب والسبي تحديدًا أو الاستسلام، قيم إيجابية يستطيع الشعب من خلالها التراجع عن نزواته السيئة. بهذه الطريقة فقط سيحصل الشعب على قلب وعهد جديدين مع ربه.

بعد الاصطدام بحننيا أدرك النبي أن قضاء الرب نهائي ولم يعد مرتبطًا بأي واقع تاريخي جديد. وأن أي أمل في التحرر من نير بابل هو مجرد وهم. فأورشليم حصلت على هدنة زمنية أثناء الحصار عندما هب ملك مصر لمساعدتها لكن إرميا يحذر الشعب من الثقة في هذا الوهم: "لذلك يقول الرب لا تخدعوا أنفسكم قائلين سينسحب عنا الكلدانيون فإنهم لا ينسحبون. وحتى لو قضيتم على محاربيكم من جيش الكلدانيين بأسره، ولم يبق منهم سوى الجرحى القابعين في خيامهم فإنهم سيهبون ويحرقون هذه المدينة بالنار" (٣٧: ٩-١٠). تعدُّ هذه النبوءة دليلًا دامغًا على أن موقف إرميا ليس مصدره مبررات سياسية واستراتيجية فنصر الكلدانيين غير مشروط بأي تفوق عسكري. حتى أكبر هزيمة لن تستطيع تغيير قضاء الرب بإعطائهم المدينة.

إرميا أيام الحصار والخراب

في أيام الحصار أيضًا لم يتراجع إرميا قيد أنملة عن موقفه تجاه التمرد وتجاه مسألة الاستسلام لبابل، لذلك كان هناك رد واحد فقط على كل توجهات صدقيا المتكررة له. فالرب لن يرحم شعبه فقط بل سيحاربهم بنفسه "وأحاربكم بنفسي بيد ممدودة وذراع شديدة، بغضب وحنق وسخط عظيم ... هأنا أعرض أمامكم طريق الحياة وطريق الموت. فمن يمكث في هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء، ومن يلجأ إلى الكلدانيين الذين يحاصرونكم ويستسلم لهم يحيا ويغنم نفسه" (٢١: ٥، ٨-٩).

ويصور الإصحاح ٣٧ لقاءً دراميًا مفزعًا بين صدقيا وإرميا؛ حيث يتم إحضار النبي من السجن الذي كان معتقلًا فيه؛ إلى الملك خفية. وكان صدقيا مثله مثل حننيا بن عزور يأمل في حدوث معجزة في اللحظة الأخيرة، مثلما حدث مع

حزقيا، وينقذ الرب مدينته، فيسأل في خوف وترقب: "هل توجد كلمة من قبل الرب؟"؛ أي هل هناك جديد من عند الرب؟ "فقال إرميا: توجد. فقال: إنك تُدفع ليد ملك بابل". وتكرر كلمة "وقال" مرتين، وذلك ليعلمنا أن بعد رد إرميا بـــ"يوجد" كان هناك توقف لبعض الوقت. فالنبي لا يريد الرد الفوري على سؤال الملك، لأنه يعلم أن رده سيسوءه كثيرًا مثل ضربة السيف، لذلك يؤخر رده.

لقد كانت مطالبة إرميا بالاستسلام معروفة في شوارع أورشليم "وكان إرميا يدخل ويخرج في وسط الشعب" (٣٧: ٤). ولم يكن كلامه هذا يشجع المحاربين بالطبع؛ لذلك حاول الرؤساء منع تأثير النبي على الشعب وطالبوا باعتقاله. لكن إرميا كان قد أصبح في أيام صدقيا نبيًا معروفًا ومقدَّرًا. بل وصار له معجبين ومحبين بين الدوائر الحكومية. حتى الملك صدقيا عامله باحترام، ومال إليه واحترمه، وتوجه إليه هو نفسه المرة تلو الأخرى بأسئلة وبمطالب وجعله كاتم أسراره. لذلك لم يجرؤ رؤساؤه على قتله أو اعتقاله، إنما انتظروا اللحظة المناسبة التي أتيحت لهم في الوقت الذي توقف فيه جيش الكلدانيون عن الحصار لمحاربة جيش فرعون. حينها حاول إرميا الخروج من المدينة والذهاب إلى مسقط رأسه في أرض بنيامين. لكن الحارس المعين على بوابة بنيامين في أسوار أورشليم قبض عليه وسلمه للرؤساء بادعاء كاذب أن إرميا حاول الانضمام إلى الكلدانيين. حينئذ اعتبرها الرؤساء اللحظة المناسبة للانتقام من النبي فضربوه واعتقلوه في بيت يوناثان الكاتب (٣٧: ١١-١٦) في ظروف اعتقال قاسية جدًا. وُضع النبي في زنزانات الجب وفي وقت اللقاء السري مع الملك توسل النبي من أجل إخراجه من هناك، ولقد حاول الملك أن يكون لطيفًا معه، فنقله إلى دار الحرس وأمر بتقديم رغيف خبز له في اليوم. وهناك أيضًا استمر إرميا في نشاطه النبوي، واشترى حقل حنمئيل (٣٢: ٩)،

ليرمز بعمله هذا إلى "أن بيوتًا وحقولًا وكرومًا ستشترى بعد في هذه الأرض" (١٥).

لم يتقبل الرؤساء حقيقة ان إرميا يواصل كلامه ودعوته إلى الاستسلام في دار الحرس؛ فتوجهوا إلى الملك مطالبين بقتله (٣٨: ٤). و لم يكن الكهنة هذه المرة هم المطالبين بقتله إنما الرؤساء، لأنهم كانوا المسئولين عن هذه المعركة البائسة. لم يستطع الملك الضعيف الذي يسيطر عليه الرؤساء مقاومة الضغوط فسلمهم إياه. فقاموا بإلقاء النبي في جب عميق "و لم يكن في الجب ماء بل وحل، فغاص إرميا في الوحل" (٦). هنا وصل إرميا إلى ذروة آلامه وأصبح قريبًا جدًا من الموت. لكن في اللحظة الأخيرة ينقذه «عبد ملك الكوشي» بموافقة الملك. فيُحضر الملك النبي المعذَّب إلى بيته مرة أخرى خفية، ليسمع منه ربما حدث تغيير في مخطط الرب. و لم يكن لدى إرميا سوى نفس الرد: "إن كنت تخرج خروجًا إلى رؤساء ملك بابل، تحيا نفسك، ولا تحرق هذه المدينة بالنار" (١٧). وكان هذا هو اللقاء المأساوي الأخير بين الملك المسكين والنبي الشيخ. حاول الملك الهرب لكن قُبض عليه، وتم اقتحام المدينة، وسقطت وحرقت كما حرق بيت المقدس. وتم سبي أهل يهوذا إلى بابل، وكان النبي أيضًا من بين المكبلين بالسلاسل معهم "وهو مقيد بالسلاسل في وسط كل سبي أورشليم ويهوذا" (٤٠: ١).

قام نبوزرادان رئيس شرطة نبوخذ نصر بحل قيود إرميا بأمر من ملكه وتخييره بين مرافقته إلى بابل أو البقاء في البلاد. لكن إرميا لم يرغب في رحمة الكلدانيين وعطفهم؛ فهو لم يطالب بالاستسلام والخضوع حبًا في بابل. فقد كان يحب أرضه حبًا شديدًا بزهورها وقفارها. وحتى بعد مقتل جدليا طلب إرميا من بقايا يهوذا

البقاء في الأرض تحت نير بابل، لكنهم لم يسمعوا له وأخذه هو وتلاميذه معهم إلى مصر.

لا يوجد تناقض بين النبوءة العظيمة في نهاية السفر عن خراب بابل (٥٠–٥١) ونبوءة إرميا عن سلطان بابل والاستسلام للكلدانيين. فكما كان ينظر إشعياء إلى آشور، هكذا نظر إرميا إلى عظمة بابل واعتبارها أمرًا وقتيًا عابرًا، حتى أنه حدد موعدًا نهائيًا بعد سبعين سنة. فبعد انتهاء هذه الفترة يجب أن تنال بابل نفسها عقابها: "لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل هأنذا أعاقب ملك بابل وأرضه كما عاقبت ملك آشور (٥٠: ١٨). "وأكافيء بابل وكل سكان أرض الكلدانيين على شرهم الذي فعلوه في صهيون أمام عيونكم، يقول الرب" (٥١: ٢٤).

دُوِّنت نبوءة الخراب على بابل في سِفْر في السنة الرابعة من حكم صدقيا، وأرسلها النبي إلى سرايا بن نيريا (شقيق باروخ)، رئيس معسكر الملك (المسئول عن سفر صدقيا إلى بابل)، وأوصاه بقرائته في بابل وبعدها يربطه في حجر ثم يلقي به في الفرات: "هكذا تغرق بابل ولا تقوم من الشر الذي أنا جالبه عليه" (٥١: ٥٩–٦٤).

إرميا وسبي يهوياكين

بما أن السبي فيه عقاب وتكفير للذنوب فالمسبيون في بابل مُفضَّلين إذن على الباقين في أورشليم. فأهل أورشليم لا يزالون ينتظرون السيف، والجوع والوباء. أما المسبيون فقد تم سبيهم، وإذا أنابوا إلى ربهم فسوف يعيدهم إلى أرضهم (٢٤: ٦). لذلك يشبه النبي الباقين بالتين السيء، والمسبيين في بابل بالتين الطيب (٢٤: ٥، ٨). يُعتقد أن أهل أورشليم تكبروا واعتقدوا أنهم إذا كانوا قد نجوا من السبي فهم أفضل ممن تم سبيهم. لذلك يؤكد إرميا أن المسبيين هم الأفضل (وكذلك حزقيال

١١). ولا شك في أن المسبيين مرَّوا بأزمة نفسية كبيرة فأراد النبي تشجيعهم وبث الأمل في قلوبهم.

أرسل إرميا رسالة من أورشليم إلى ملك بابل مع وفد رؤساء صدقيا (نلاحظ هنا مكانة إرميا في عصر صدقيا الذي يستطيع الاستعانة بوفد ملكي). يكتب النبي في رسالته "إلى كل مسبي": "ابنوا بيوتًا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولِدوا بنين وبنات ... واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلُّوا لأجلها إلى الرب، لأنه بسلامها يكون لكم سلام ... لأنه هكذا قال الرب إن عند تمام سبعين سنة لبابل، أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضع ... فتدعونني وتذهبون وتصلون إليَّ فأسمع لكم. وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم. فأوجد لكم، يقول الرب وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التي طردتكم إليها" (٢٩: ٤-١٤).

لن تكون الإقامة في السبي قصيرة والأمل في العودة الفورية إلى أورشليم وهْمٌ روَّجه أنبياء الكذب في أورشليم (حننيا بن عزور) وفي بابل (أخآب بن قولايا، صدقيا بن معسيا، شمعيا النحلامي)، لكن إرميا يؤكد على أن السبي سيستمر سبعين سنة. كما أنه ليس من الممكن أن يعود سبي يهوياكين في الحال، لأن أورشليم نفسها توشك على الخراب؛ لذلك فإن على المسبيين التكيُّف مع حياتهم في بابل واعتبار أنفسهم هناك ليس كمقيمين مؤقتين إنما كمقيمين دائمين يشاركون في الحياة المادية والاقتصادية للمكان ويهتمون بسلامته. ولا يعتبر إرميا إقامتهم في السبي إقامة دائمة، ويتحدث على الفور عن العودة إلى أرضهم؛ لكن طالما هم موجودون في السبي، فعليهم العيش فيه حياة طبيعية، كما لو كانت إقامتهم دائمة، بدون تقديم تقدمات وبدون هيكل. ولا يجب اعتبار السبي نهاية

لوجودهم القومي. بل العكس فالشعب يجب أن يواصل حياته ويتكاثر (٦)، ويعود ويصلي إلى الرب ويطلبه بكل قلبه، حينها سيخلصهم الرب ويعيدهم إلى أرضهم. إذن، ففي السبي أيضًا مباديء وأسس إيجابية، لأنه يحفز على العودة والخلاص. وآلام السبي والغربة سوف تطهر القلب. ولقد كان لتلك الرؤية حول القيمة الإيجابية للسبي قيمة تاريخية كبيرة في حياة الأمة؛ حيث تعلم الشعب واعتاد عدم اعتبار السبي نهاية لوجوده القومي. واستبدلت التقدمات بالصلوات، واستبدل الهيكل بالكنيس. لقد منح الإيمان النبوي بأن الخلاص سيظهر من السبي، الشعب القوة لاحتمال آلام السبي والحفاظ على أنفسهم من الاندماج ومن اليأس. وإرميا هو أول نبي يمنح السبي اليهودي أسسه الأيديولوجية، والاستعداد النفسي من أجل مواصلة الحياة الاقتصادية والبيولوجية في داخل شعب أجنبي وفي داخل دولة أجنبية، وأن يطلبوا لها السلامة، وفي نفس الوقت يتطلعون إلى العودة إلى صهيون وإلى الخلاص والعيش حياة يهودية روحيًا ودينيًا. وهناك من اعتبره؛ أي إرميا الأب الروحي للكنيس.

وفي نهاية الإصحاح التاسع والعشرين يُحكى أن شمعيا النحلامي أرسل من بابل رسالة إلى أورشليم اشتكى فيها من صفنيا الكاهن الأكبر، لماذا لم يصرخ في إرميا ولم يضعه في المقطرة والقيود. من المثير للاهتمام كثيرًا أن الكاهن الأكبر لم ينفذ "توصيات" شمعيا النحلامي، بل قرأ رسالته على إرميا. وهنا نلاحظ المكانة الرفيعة التي تمتع بها إرميا في عصر صدقيا؛ حيث كان له أنصار بين دوائر الرؤساء، وكذلك الكهنة في الهيكل. وباستثناء الأيام التي سجن فيها إرميا في بيت يوناثان الكاتب وألقي فيها في الجب، فقد حظي إرميا بمساندة الملك طوال أيام الحصار وبتشجيع الكثيرين من بين الرؤساء والكهنة والشعب كله. ولقد صدق قويفمان في

قوله إن إرميا ليس واحدًا من معذبي العالم الذي عانى طوال حياته. وعلى الرغم من تعرضه للاضطهاد من وقت لآخر وسجنه لفترة قصيرة إلا أنه تمتع بحرية التنبوء في عصر يهوياكين وفي عصر صدقيا أيضًا[1].

علاقة إرميا بالملكية والملوك

على الرغم من وجود كثير من المزاعم لإرميا ضد الملوك الذين حكموا في عصره، إلا أن كلامه لم يكن فيه أي اعتراض أساسي على الملكية؛ فموقفه من الملكية كان مثل قانون الملِك في سفر "التثنية" (١٧: ١٣-٢٠). وهذا القانون لا يرفض الملكية إنما يفرض عليها سلسلة من القيود والالتزامات الأخلاقية والدينية. ولو نفذ الملك هذه الالتزامات فستطول أيام مملكته هو وأبناؤه في إسرائيل. ولقد قال إرميا لملوك يهوذا:

"هكذا قال الرب أجروا حقًا وعدلًا، وأنقذوا المغضوب من يد الظالم، والغريب واليتيم والأرملة لا تضطهدوا ولا تظلموا، ولا تسفكوا دمًا زكيًا في هذا الموضع. لأنكم إن فعلتم هذا لأمر يدخل في أبواب هذا البيت ملوك جالسون على كرسيه راكبين في مركبات وعلى خيل هو وعبده وشعبه. وإن لم تسمعوا لهذه الكلمات فقد أقسمت بنفسي، يقول الرب: إن هذا البيت يكون خرابًا". (٢٢: ٣-٥).

كما أراد إرميا أيضًا نجاح الملكية والدولة، لكن الدولة والملكية لا تعلو في رأيه فوق الأخلاق والدين؛ فالدولة ليست قيمة مطلقة. وإذا أقاموا فيها العدل والبر فسوف تستمر وتنجح.

---

[1] ص ٤٠٣

والرب أيضًا لا ينظر إلى أرضه، وإلى جبل الرب وإلى هيكله كقيم مطلقة. فتلك الأماكن المقدسة ما هي إلا أدوات ووسائل لتحقيق العدل والبر والرحمة على الأرض. وإن كانت لا تقوم بدورها ووظيفتها فإنها تستحق الدمار والخراب.

والملوك أيضًا عليهم مسئولية خاصة تجاه مصير الدولة والشعب، لأن في أيديهم القوة لقيادة الدولة طبقًا لمباديء العدل أو الشر؛ لذلك يتوجه إرميا تحديدًا إلى "بيت ملك يهوذا" مكملًا في ذلك تقليدًا نبويًا منذ عصر صموئيل ومن تلاه:

"ولبيت ملك يهوذا تقول: اسمعوا كلمة الرب. يا بيت داود، هكذا قال الرب: اقضوا في الصباح عدلًا وأنقذوا المغصوب من يد الظالم لئلا يخرج كبار غضبي فيحرق وليس من يطفيء، من أجل شر أعمالكم" (٢١: ١١-١٢).

وإلى جانب توبيخه تنبأ إرميا كذلك بأبدية ملك بيت داود: "هكذا قال الرب إن نقضتم عهدي مع النهار وعهدي مع الليل لا يكون نهار ولا ليل في وقتهما، فإن عهدي أيضًا مع داود عبدي ينقض، فلا يكون له مالكًا على كرسيه" (٣٣: ٢٠-٢١). إن أبدية بيت داود أكيدة وقوية مثل قوانين الطبيعة. ومع أن ملوك يهوذا بعد يوشيا لم يكونوا مثاليين فعلًا، لكن "في تلك الأيام وفي ذلك الزمان أنبت لداود غصن البر فيجري عدلا وبرا في الأرض. في تلك الأيام يخلص يهوذا، وتسكن أورشليم آمنة وهذا ما تتسمى به الرب: الرب بِرُّنا" (٣٣: ١٥-١٦، ونبوءة مشابهة في ٢٣: ٥-٦). المقصود في هذه الفقرات هو "الملك المسيح" بالطبع، الملك المثالي في نهاية الزمان، وليس صدقيا (في رأي قلويزنر).

لم تكن نظرة إرميا للملوك الذين حكموا في عصره واحدة؛ فقد كان يبجِّل يوشيا وقال عنه ليهوياقيم: "أما أكل أبوك وشرب وأجرى حقًا وعدلًا حينئذ كان له خير. قضى قضاء الفقير والمسكين، حينئذ كان خير. أليس ذلك معرفتي، يقول

الرب" (٢٢: ١٥-١٦). ويمكن تفسير الأمر بطريقتين: التفسير العادي يقول إن يوشيا عاش هو أيضًا في رغد وأكل وشرب لكنه كان يصنع البر والعدل. لكن التفسير الأكثر قبولًا هو الذي يقول إن التعبير "أكل وشرب" ليس تعبيرًا عن حياة البذخ لكن حياة التواضع. فقد أكل وشرب مثل أي إنسان، عاش في تواضع، لم يبن أبنية فاخرة ليتباهى بها، مثل يهوياقيم، لكنه أقام البر والعدل وعرف الرب؛ لذلك نجح في أعماله. ووفقًا لسفر أخبار الأيام الثاني (٣٥: ٢٥) فقد رثى إرميا يوشيا. لكنه يقول هنا: "لا تبكوا ميتًا ولا تندبوه، أبكوا من يمضي لأنه لا يرجع بعد فيرى أرض ميلاده" (٢٢: ١٠). ومن المثير أن راشي ورادق يعتبرون "الميت" هو يهوياقيم و"من يمضي" هو يهوياكين وصدقيا. من الصعب حقًا الظن أن إرميا قال عن الملك الصدِّيق: "لا تبكوا الميت"، لكن مكتوب بعد ذلك أن الكلام عن شلوم بن يوشيا "الذي خرج من هذا الموضع". فمن شلوم المقصود؟ يقول راشي هو صدقيا. ويقول رادق أن شلوم هو يهوياكين. يذكر سفر أخبار الأيام الأول (٣: ١٥) أربعة أبناء ليوشيا: يوحانان، يهوياقيم، صدقيا، شلوم. ويهوآحاز تحديدًا لم يتم ذكره. أما في سفر الملوك الثاني (٢٣: ٣٠)، وكذلك في أخبار الأيام الثاني (٣٦: ١) فيُحكى أن شعب الأرض نصَّب يهوآحاز بدلًا من يوشيا. ومن المقبول أكثر أن يكون شلوم هو الاسم الثاني ليهوآحاز، كقول إرميا "عن شلوم بن يوشيا ملك يهوذا، المالك عوضًا عن يوشيا أبيه" (٢٢: ١١)، وأن كلمات "لا تبكوا الميت ... ابكوا من يمضي" إنما تقصد يوشيا ويهوآحاز. والهدف من الفقرة هو إنه لا حاجة إلى بكاء يوشيا، لأن مصيبة يهوآحاز الذي نفي إلى مصر وسيموت هناك هي أكبر وأعظم من مصيبة يوشيا الذي سيموت ويدفن في البلد.

على أية حالة فلا مجال للشك فيما يخص نظرة إرميا إلى يهوياقيم؛ حيث يصوره كملك ظالم جشع سافك لدماء الأبرياء. اضطهد يهوياقيم الشعب كي يدفع مبالغ طائلة لمصر. وهو يرغب في تقليد ملوك مصر الذين حكم بفضلهم ضد رغبة الشعب، فبنى له مبانٍ فاخرة. ولم يكن يمتلك الموارد المالية لهذا الغرض فقام بتشغيل العمال بدون مقابل وظلم واضطهد بدون وجه حق وبدون محاكمة. ويقول عنه إرميا كلمات جريئة وصارمة (بأسلوب شعري):

ويل لمن يبني بيته بغير عدل وعلالية بغير حق!

الذي يستخدم صاحبه مجانًا ولا يعطيه أجرته.

القائل أبني لنفسي بيتًا وسيعًا وعلالي فسيحة،

ويشق لنفسه كوى ويسقف بأرز ويدهن بمغرة.

هل تملك لأنك أنت تحاذي الأرز؟ ...

لأن عينيك وقلبك ليست إلا على خطفك

وعلى الدم الزكي لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما.

(٢٢: ١٣-١٧)

لقد ظنَّ يهوياقيم أنه عبر مباني الأرز سيعلو مقامه ويستطيع منافسة الممالك الأخرى، ولم يدرك أن الظلم وسفك دماء الأبرياء لن يحققوا له العظمة والمجد إنما المصير القاسي والبائس: "لا يندبونه قائلين: آه يا أخي! أو آخ يا أختي! لا يندبونه قائلين: آه يا سيد! أو آه يا جلالة! يدفن دفن حمار مسحوبًا ومطروحًا بعيدًا عن أبواب أورشليم" (٢٢: ١٨-١٩).

من أقوال إرميا عن يهوياكين (٢٢: ٢٤-٣٠) يصعب تحديد نظرته إليه؛ فيهوياكين قد حكم ثلاثة شهور فقط و لم يكن لحكمه شكلًا واضحًا. فقد ملك في أيام حصار وأنقذ أورشليم من الدمار بعد استسلامه للكلدانيين وذهابه في السبي. وكان من الممكن أن يحارب مثل صدقيا حتى آخر يوم لأورشليم، لكنه سلك الطريق الذي أوصى به إرميا وخرج إلى الكلدانيين (الملوك الثاني ٢٤: ١٢). ويمتدح يوسف بن متتياهو يهوياكين على هذا العمل وحكي أن ذكرى يهوياكين كانت عطرة بين اليهود. ويقول قلويزنر "يتحدث النبي إرميا عنه في حبٍ وفي أسف على مصيره المؤلم". أسف إرميا بالطبع على مصير يهوياكين (٢٢: ٢٨)، لكن هناك شك في ما إذا كانت نبوءته قد قيلت عنه من منطلق الحب. فهي تنتهي بمشهد قاسٍ عن المستقبل البعيد أيضًا: "يا أرض، يا أرض، يا أرض! اسمعي كلمة الرب: اكتبوا هذا الرجل عقيمًا، رجلًا لا ينجح في أيامه، لأنه لا ينجح من نسله أحد جالسًا على كرسي داود وحاكما بعد في يهوذا" (٢٩-٣٠). ويرفض إرميا تمامًا احتمال وجود نسل من بيت يهوياكين.

وفي مقاله عن "إرميا وآخر ملوك يهوذا" يذكر ملماط أنه كانت هناك بعض الدوائر في أورشليم تحلم بعودة يهوياكين منها حننيا بن عزور (٢٨: ٣-٤). ساند إرميا حكم صدقيا ورفض حق يهوياكين بن يهوياقيم في الحكم. ويظهر موقفه الصريح ضد شرعية ملك يهوياكين في: "حي أنا يقول الرب، ولو كان كنياهو بن يهوياقيم ملك يهوذا خاتمًا على يدي اليمنى فإني من هناك أنزعك" (٢٢: ٢٤-٢٥). ومن الطبيعي أنه لو عاد يهوياكين إلى أورشليم (بحسب نبوءة حننيا) لكان على صدقيا التنازل عن عرشه. ويعتقد البعض أنه تم الاحتفاظ بيهوياكين في بابل كورقة ضغط ضد صدقيا. وتفسر هذه الحقيقة حالة صدقيا الصعبة الذي اضطر إلى

التمرد على بابل على عكس رغبته وعلى عكس نصيحة إرميا وذلك من أجل تهدئة أنصار يهوياكين المعارضين لسياسته البابلية.

أما فيما يخص صدقيا فإننا لم نجد إرميا في أي موضع يوبخ صدقيا على آثامه الدينية والأخلاقية. وذنبه الوحيد عدم مقاومته نصائح الرؤساء وعدم استسلامه لبابل. لقد كانت هناك بالفعل علاقات طيبة بين صدقيا وإرميا طوال فترة حكمه بخلاف عصر يهوياقيم الذي تم فيه اضطهاد النبي وكاد يُقتل. أما في عصر صدقيا فقد حظي إرميا بحرية العمل الكاملة ورُددت كلماته علنًا في أروقة أورشليم وفي قصر الملك وفي بيت الرب. وعلى الرغم من حديثه ضد سياسة الملك والرؤساء إلا أن الملك لم يطارده ولم يقتله، لكن شاوره وقابله وتحدثا كصديقين. وبرغم تشجيعه لصدقيا إلا أن إرميا لم يكن في وسعه خداعه بكلمات كذب لطيفة، بل تنبأ له بسقوطه في أيدي البابليين (٢١: ٧، ٢٤: ٨-١٠، ٣٤: ٢١، ٣٨: ١٨).

خلاصة القول أن نظرة إرميا إلى يهوياقيم كانت سلبية تمامًا، أما يوشيا فكان يحترمه ويبجِّله، وشجَّع صدقيا، وأشفق على يهوآحاز. وفيما يتعلق بنظرته إلى يهوياكين فلم تكن واضحة، لكنه رفض حقه في كرسي داود.

مفهوم الألوهية

منذ نبوءة التكليف ونحن نرى قرب النبي من الرب، وعلاقة الرب الحميمة بإرميا. لذلك كان إرميا يستطيع في أي وقت التوجه إلى الرب بالصلوات والطلبات بل وحتى الشكوى. إن مفهوم الألوهية عند إرميا غير متأثر بإشعياء، الذي يؤكد على قداسة الرب وسموه وبُعده، إنما تأثَّر بهوشع. فهو "إله قريب" شخصي، على شاكلة الإنسان. وهوشع عنده تطابق تام بين النبي والرب؛ فهو لا يقول: "هكذا قال الرب، كلام الرب، اسمعوا قول الرب" فقول النبي وكلام الرب

واحد، لكن الأمر ليس كذلك عند عاموس وإشعياء. أما عند إرميا فلا يوجد مثل هذا التطابق الكامل، وفي بعض الأحيان يجادل النبي الرب. وأحيانًا يتبدل عنده قول الرب بقول النبي، على سبيل المثال في: ٤: ١٩-٢٢، ٥: ١-٣، ٦: ٩-١٠، وغيرها. وكهوشع يشبِّه إرميا العلاقة بين الرب وإسرائيل بعلاقة الرجل بالمرأة. فالرب يتحدث إلى شعبه الخائن مثل الزوج المشتاق إلى أيام الخطبة: "قد ذكرت لك غيرة صباك، محبة خطبتك" (٢: ٢)، "هل تنسى عذراء زينتها، أو عروس مناطقها؟ أما شعبي فقد نسيني أيامًا بلا عدد" (٢: ٣٢). كما يشبِّه النبي الرب بأبي الأمة: "وقلت تدعينني يا أبي، ومن ورائي لا ترجعين" (١٠: ٢٠، ٣: ١٩، ٢٢).

إذا أراد الإنسان التشبه بالرب وسلك سبله فعليه أن يتعرف على الرب وخصاله: "بهذا ليفتخرن المفتخر، بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلًا في الأرض، لأني بهذا أُسرُّ، يقول الرب" (٩: ٢٣). وبذلك فإن خصال العدل والرحمة والبر، وكذلك: "أما الرب فالإله الحق، هو إله حي، وملك أبدي" (١٠: ١٠)، يراقب الإنسان (١٠: ٢٣)، ويعرف ما تخفيه الصدور: "فيا رب الجنود، القاضي العدل، فاحص الكلى والقلب" (١١: ٢٣).

ومن منطلق الرؤيا التي تعتبر الرب كمالًا أخلاقيًا فإن من حق إرميا أن يشكو إلى الرب من الظلم الموجود في العالم ومن نجاح الأشرار (١٢: ١). وكان أول من طالب الرب بتفسير أعماله هو إبراهيم في مسألة سدوم (التكوين ١٨: ٢٥). وفي كل موضع يتردد فيه مثل هذا الطلب (إبراهيم، إرميا، حبقوق، أيوب، شعراء المزامير)، يصرخ القلب ألمًا ومؤمنًا بالعدالة الإلهية مع ذلك فإنه لا يستطيع استيعاب الواقع الحقيقي. ومن الممكن طرح السؤال: "لماذا تنجح طريق الأشرار؟" فقط إذا

كان السائل واثقًا أن الرب عادل وأن هناك رقابة أخلاقية على العالم؛ بل أن سؤال إرميا هذا يدل على شعوره الكبير بقربه من الرب.

والرب لا يجيب إرميا على سؤاله ولا يكشف له مخطط رقابته؛ فهو لا يمتلك مخططًا تقليديًا منطقيًا يمكن للإنسان استيعابه فإرادة الرب تتغير بحسب الواقع التاريخي، ولا يستطيع الإنسان تخمينها سلفًا. ولقد رفضت التوراة والنبوة تخمين السحرة والمنجمين، وكذلك قدرة الإنسان على التأثير على إرادة الرب عبر وسائل وأعمال مختلفة؛ فإرادته ترتبط بالواقع التاريخي الأخلاقي رغم أن هذا الارتباط ليس حتميًا أو مُلزمًا. فإرادة الرب لا ترتبط بالفعل بأي عامل خارجي: "تارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والإهلاك. فترجع تلك الأمة التي تكلمت عليها عن شرها، فأندم عن الشر الذي قصدت أن أصنعه بها. وتارة أتكلم عن أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس، فتفعل الشر في عيني فلا تسمع لصوتي فأندم عن الخير الذي قلت إني أحسن إليها به" (١٨: ٧-١٠). وبما أن إرادة الرب من الممكن أن تتبدل في أي لحظة بما يتماشى مع الواقع التاريخي الأخلاقي وليس لها أي مخطط يجب الالتزام به، لذلك لا يعرف الإنسان ولا أي نبي نية الرب، بل عليه الانتظار والاستماع إلى صوت الرب. فإذا أراد الرب فسيكشف للنبي نيته كما فعل من قبل في قصة دكّ مدينتي سدوم وعمورا: "فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله" (التكوين ١٨: ١٧). وكذلك قول عاموس: "إن السيد الرب لا يصنع أمرًا إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء" (عاموس ٣: ٧). لكن السر يظل سرًا على النبي قبل أن يكشفه له الرب. وهو سبب عدم إنكار إرميا كلام حننيا أمامه لكنه تركه وذهب في طريقه (٢٨: ١١)؛ لأنه ظنَّ أنه ربما قد حدث تغيير في إرادة الرب قبل

أن يكشف له سره. ويسأل إرميا كل أنبياء الكذب، أنبياء السلام: "من وقف في مجلس الرب ورأس وسمع كلمته؟ من أصغى لكلمته وسمع؟" (٢٣: ١٨).

تشير الكلمات الأخيرة إلى الازدواجية في رؤية إرميا لمفهوم الألوهية. ونظرًا لوجود تناقضات في نفسية النبي فإن هناك أيضًا جوانب مختلفة في رؤية الألوهية. فمن ناحية هناك المفهوم الشخصي الأخلاقي الذي يستطيع الإنسان استيعابه، وهناك "الإله القريب" الذي يتحدث إليه إرميا كحديث صديق مع صديقه ويتوجه إليه بالأسئلة، والشكاوى والصلوات. لكن من ناحية أخرى هناك الجانب الخفي السري غير المنطقي الذي لا يستطيع النبي نفسه فهمه أو استيعابه: "ألعلي إله من قريب، يقول الرب. ولست إلها من بعيد. إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة أفما أراه أنا، يقول الرب؟ أما أملأ أنا السماوات والأرض، يقول الرب؟" (٢٣: ٢٣–٢٤).

إن الرؤية الازدواجية للإله القريب صانع الرحمة والعدل والبر الذي يأمر الإنسان بناء على رأيه ويسلك سبه، والإله البعيد الذي يملأ مجده العالم، وسبله سر لا يدركه الإنسان؛ هي أساس التجربة والعقيدة الدينية العميقة جدًا. فمن المنتظر أن تنير هذه الرؤية أيضًا علاقة إرميا بالسلطة في بابل وإصراره في طلبه الاستسلام لبابل. هنا أيضًا أثرت عقيدة غير عقلانية على المصير الإلهي المحتوم الذي لا يخضع للقواعد المنطقية. فلو بقي حتى بعض الجنود الكلدانيين من الجرحى والمطعونين فسيقومون ويحرقون المدينة. وهو حكم يفوق المنطق والعقل البشري تمامًا. والمبررات العقلية لم تساند إرميا بل الإيمان غير المنطق بقضاء الخالق الذي يستطيع هو وحده تبديله. وطالما لم يُطلع الخالق النبي على نيته تغيير قضائه فإن الحكم باقٍ وسارٍ.

لم تصل بالفعل التجربة الدينية للإيمان بالرب عند أي نبي إلى هذا القدر من التعبير العميق والكامل حيث الرب هو الإله القريب والبعيد، إله العدل والبر، وإله الرحمة والمعجزات، وإله الشعب وإله الإنسان.

العلاقة الخاصة بين الرب وإسرائيل

لقد قطع العهد بين الرب وشعبه في البرية، وكانت فترة البرية فترة رحمة: "قد ذكرت لك ولاء صباك، ومحبتك كعروس لي، وكيف تبعتني في البرية في أرض لا زرع فيها" (٢: ٢). وإرميا هو النبي الوحيد الذي في كلامه تقدير إيجابي صريح لجيل البرية. (توجد إشارات إلى هذا التقدير عند عاموس وهوشع كذلك، لكن التقدير العام في العهد القديم خاصة في التوراة وفي سفري حزقيال والمزامير سلبي). كان شعب إسرائيل في بدايته حسنًا: "وأنا غرستك ككرمة مختارة ومن بذور سليمة كاملة" (٢: ٢١). لذلك يزال الأمل موجودًا في أن يحظى الشعب مرة أخرى في المستقبل بعلاقة الرحمة والمحبة بينه وبين ربه. يشبه النبي الإنسانية كلها بحقل الغلال. وشعب إسرائيل هو "باكورة محصوله"، ومقدَّس مثل الهبات، وكل من يمسه يكون آثمًا كمن يأكل من مقدسات الرب (اللاويين ٥: ١٥)، فيجلب عليه الرب الشر (٢: ٣)؛ لا شك هنا في ظهور معاملة خاصة لإسرائيل؛ فالرب يحب شعبه حب العريس لعروسه، وهو ليس بالحب العابر: "ومحبة أبدية أحببتك" (٣١: ٣)؛ لذلك فإن نجاة إسرائيل وخلاصه مؤكد ولا يرتبط بسلوك الشعب أبدًا، وأن عهد الرب مع شعبه أبدي رغم خيانات الشعب وأخطائه.

وكما يثق النبي في حتمية القضاء الإلهي "تهلك وتنقض"، فهو يثق أيضًا في وعده "وتبني وتغرس". فالعودة إلى الرب والعهد الجديد مرتبطان برغبة الرب غير الموجودة في تلك اللحظة. لكن النبي يرى في رؤياه الأيام الطيبة التي سيمنح فيها

الرب شريعته لشعبه ويكتب على قلبه: "وأكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا ... لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم" (٣١: ٣٣)، "وأعطيهم قلبًا واحدًا وطريقًا واحدًا ليخافوني كل الأيام" (٣٢: ٣٩).

الأمر يبدو عجيبًا، فكيف بذلك الرب الذي ترك أبناءه للخزي وللسيف والجوع، أن يحسن إليهم ويفرحهم ويغرسهم في هذه الأرض (٣٢: ٤١)؟ أبسط رد على هذا التعجب: "هأنذا الرب إله كل ذي جسد، هل يعسر علي أمر ما؟" (٣٢: ٢٧).

ويظهر تأثير هوشع في هذه الفكرة أيضًا حيث التوبة والخلاص مرتبطان بإرادة الرب فقط وليس بالشعب؛ وخاصة تأثيره في العلاقة الخاصة بين إرميا وسبط أفرايم.

يظهر إرميا علاقة مودة خاصة بالأسباط العشرة لسببين: الأول؛ ذهاب الأسباط العشرة إلى السبي وعقاب الرب لهم (قياسًا بسبي يهوياكين). وكان على يهوذا الاستفادة من هذه الحقيقة فبعد خراب السامرة أصبح لتوبيخ الأنبياء معنى جديد. وكان الشعب قادرًا على مناقشة تحقُّق تحذيرات الأنبياء؛ لكن يهوذا لم تتعلم الدرس من شقيقتها. "قد بررت العاصية إسرائيل أكثر من الخائنة يهوذا" (٣: ١١). الثاني؛ عاش إرميا في أرض بنيامين، وكان في قلبه حب لسبطي بنيامين ويوسف ولدا راحيل، وتجلى هذا الحب في سبط أفرايم: "هل أفرايم ابن عزيز لدي، أو ولد مُسَرٌّ؟ لأني كلما تكلمت به أذكره بعد ذكرًا. من أجل ذلك حنَّت أحشائي إليه، رحمة أرحمه، يقول الرب" (٣١: ١٣).

إن أحد المضامين الرئيسية في رؤيا إرميا لآخر الأيام هو خلاص أفرايم، والوحدة بين كل الأسباط والعودة الجماعية إلى صهيون: "في تلك الأيام يذهب بيت يهوذا

مع بيت إسرائيل، ويأتيان معًا من أرض الشمال" (٣: ١٨). "لأني صرت لإسرائيل أبًا وأفرايم هو بكري" (٣١: ٩). ونبوءة خاصة نابعة من أعماق قلب المحب على بكاء راحيل: "صوت سُمع في الرامة، نوح بكاء مر، راحيل تبكي على أولادها ..." (٣١: ١٥). ثم يعزيها الرب بحب: "هكذا قال الرب، امنعي صوتك عن البكاء، وعينيك عن الدموع لأنه يوجد جزاء لعملك، يقول الرب، فيرجعون من أرض العدو. ويوجد رجاء لآخرتك، يقول الرب. فيرجع الأبناء إلى تُخمهم" (٣١: ١٦-١٧).

يلقي حب إرميا لجميع أسباط إسرائيل ضوءًا آخر على مأساته الشخصية، فهو تحديدًا كُتب عليه أن يتنبأ لشعبه بالخراب والدمار ويرى تحقيق نبوءته بعينيه.

إرميا والعبادات

يضيف إرميا إلى التطور العام في علاقة الأنبياء بالعبادة مرحلة جديدة مهمة للغاية. فليس فقط أن القرابين لها قيمة ثانوية في عبادة الخالق، لكن مركز العبادة كذلك؛ الهيكل نفسه ليست له قيمة مطلقة وأن الدين الحقيقي لا يرتبط بالمكان المقدس ولا بالمؤسسة المقدسة؛ الدين الحقيقي موجود في قلب الإنسان. بذلك يكون إرميا قد وصل إلى ذروة عملية التقليل من قيمة العبادات في عبادة الرب.

وفيما يخص تقديم القرابين، يقول إرميا كسابقيه: "لماذا يأتي لي اللبان من شبا، وقصب الذريرة من أرض بعيدة؟ محرقاتكم غير مقبولة، وذبائحكم لا تلذ لي" (٦: ٢٠). "ضموا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحمًا. لأني لم أكلم أباءكم ولا أوصيتهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة محرقة وذبيحة. بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلًا: اسمعوا صوتي فأكون لكم إلها، وأنتم تكونون لي شعبًا، وسيروا في كل الطريق الذي أوصيكم به ليُحسَن إليكم" (٧: ٢١-٢٣).

إن العهد بين الرب والشعب غير مرتبط بمحرقات وذبائح؛ فيؤكد النبي على أنه في يوم الخروج من مصر وفي الموقف على جبل سيناء لم يأمر الرب بالمحرقة والذبيحة. كما لا يوجد ذكر للتقدمات في الوصايا العشر، وكذلك عندما عرض الرب على بني إسرائيل، قبل موقف جبل سيناء، أن يكونوا شعبه المختار لم يأمرهم بأي تقدُمات: "فالآن إن سمعتم لصوتي، وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب فإن لي كل الأرض. وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة" (الخروج ١٩: ٥-٦). كما سأل عاموس أيضًا: "هل قدمتم لي ذبائح وتقدمات في البرية أربعين سنة، يا بيت إسرائيل" (عاموس ٥: ٢٥). إن الفضل الإلهي مغدق على إسرائيل دون أي حاجة إلى تقدمات. ويقول إرميا ساخرًا: "ضموا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحمًا"؛ أي أن المحرقات، المحروقة تمامًا من أجل الرب، لن تنفعكم، وخسارة ضياع لحمها. ومن الأفضل أن تأكلوا لحم المحرقات مثل لحم الذبائح.

تجدر الإشارة إلى أن إرميا لا يقارن بين القرابين والأخلاق، لكن الحفاظ على العهد في مجمله؛ فهو لا يضع التقدمات في مقابل العدل مثل عاموس، ولا في مقابل الرحمة مثل هوشع، بل في مقابل الوصايا العشر: "أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذبًا وتبخِّرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها. ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دعي بإسمي عليه وتقولون: قد أنقذنا حتى تعملوا كل هذه الرجاسات؟ هل صار هذا البيت الذي دعي باسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم؟ (٧: ٩-١١). فالأعمال المقيتة ليست فقط في مجال الوصايا بين الإنسان وأخيه، لكن أيضًا في الوثنية وفي يمين الزور. ولننتبه أيضًا إلى أنه في كل مرة يذكر فيها النبي بيت المقدس يقول: "البيت الذي اسمي عليه" (١٠، ١١،

١٤، ٣١)، وليس البيت الذي أسكنه. وكذلك عن مسكن شيلُوه يقول: "اذهبوا إلى موضعي الذي في شيلُوه". ومن هذا التعبير نقف على رؤية إرميا العميقة المجردة لمفهوم الألوهية. فالرب لا يسكن في بيت المقدس، لكن اسمه فقط هو الذي يطلق عليه. وأن قداسة المكان لا تنبع من ساكنها، لكن من أعمال مرتادينه. فإذا اجتمع فيه القتلة واللصوص والزناة الذين يعتبرون المكان مثل مغارة اللصوص، فإن قداسته قد دُنست.

إن الشعب واثق من نجاته بفضل قداسة الهيكل ويسمعون طوال الوقت توبيخ النبي ويقولون: "هيكل الرب" هيكل الرب سينقذنا! وإذا بإرميا يقف عند بوابة الهيكل ويحذرهم من الاعتماد على الهيكل. فالاعتماد على الهيكل اعتمادًا واهيًا؛ فلا القرابين ولا الهيكل ضمان لنجاة الشعب، إنما أعمالهم فقط: "لأنكم إن أصلحتم إصلاحًا طرقكم وأعمالكم، إن أجريتم عدلًا بين الإنسان وصاحبه، إن تظلموا الغريب واليتيم والأرملة، ولم تسفكوا دمًا زكيًا في هذا الموضع ولم تسيروا وراء آلهة أخرى لأذائكم. فإني أسكنكم في هذا الموضع، في الأرض التي أعطيت لآبائكم من الأزل وإلى الأبد" (٧: ٥–٧). مرة أخرى الكلام هنا ليس عن وصايا أخلاقية فقط، إنما عن اتباع آلهة أخرى.

إن لكل شيء رسمي خارجي للدين قيمة ثانوية حتى تابوت العهد. لذلك ففي آخر الأيام، عندما يحظى بنو إسرائيل بإيمان داخلي كامل "لا يقولون بعد تابوت عهد الرب، ولا يخطر على بال ولا يذكرونه ولا يتعهدونه ولا يصنع بعد" (٣: ١٦). لكن إذا وصل بنو إسرائيل إلى هذا الوضع المثالي، لن تكون هناك أمور مرفوضة في العبادات، فقد ذُكر في أقوال مواساة النبي: "لأنه هكذا قال الرب لا ينقطع لداود إنسان يجلس على كرسي بيت إسرائيل. ولا ينقطع للكهنة اللاويين

إنسان من أمامي يصعد محرقة ويحرق تقدمة، ويهيء ذبيحة كل الأيام" (٣٣: ١٧-١٨). بذلك لا يكون إرميا رافضًا للعبادات نهائيًا، إنما يؤكد على أن الدين ليس في العبادات، وأن العبادة وحدها لا قيمة لها.

ختامًا، نشير إلى أقوال إرميا عن يوم السبت في الإصحاح ١٧ (١٩-٢٧)؛ حيث لا تعتبر قداسة السبت هنا قضية خارجية عن الدين، لكن كأحد أسسه، يرتبط به فلاح الأمة كلها: "ويكون إذا سمعتم لي سمعًا يقول الرب، ولم تدخلوا حملا في أبواب هذه المدينة يوم السبت، بل قدستم يوم السبت ولم تعملوا فيه شغلا ما ... وتسكن هذه المدينة إلى الأبد ... ولكن إن لم تسمعوا لي لتقدسوا يوم السبت ... فإني أشعل نارًا في أبوابها فتأكل قصور أورشليم ولا تنطفيء". إن تحريم العمل والتجارة في يوم السبت وتقديسه هو الذي يمنح الإنسان القدرة على السمو النفسي، والعبادة الحقيقية الداخلية للرب. لذلك لا يوجد أي تناقض بين كلام إرميا عن السبت وكلامه عن العبادات وبيت المقدس. فالسبت ليس وصية دينية مؤسسية إنما قضية نفسية داخلية، قيمة مطلقة، يرتبط به فلاح الشعب والدولة.

معاصي إسرائيل الأساسية

معصية إسرائيل الرئيسية هي الذهاب وراء آلهة أخرى. ويحب إرميا استخدام الفعل "ذهب، سار". فعندما يخلص إسرائيل لربه فإنه "يذهب وراء الرب". "قد ذكرت لك غيرة صباك، محبة خطبتك، ذهابك ورائي في البرية". وعندما يخون إسرائيل الرب "وساروا وراء الباطل وصاروا باطلًا" (٢: ٦، الباطل = الأوثان)، "وذهبوا وراء ما لا ينفع" (٨)، "كيف تقولين لم أتنجس، وراء بعليم لم أذهب؟" (٢٣) وغيرها أمثلة كثيرة. وتمتليء الإصحاحات الأولى من سفر إرميا، التي قيلت قبل إصلاح يوشيا، بالتأنيب الشديد على عبادة الأوثان في إسرائيل: "على كل

أكَمَة عالية وتحت كل شجرة خضراء أنت أضجعت زانية" (٢: ٢٠. وهذا الأسلوب متأثر بسفر التثنية ١٢: ٢، والتشبيه من هوشع)؛ "قائلين للعود: أنت أبي، وللحجر: أنت ولدتني" (٢: ٢٧)، "قد أحببت الغرباء وراءهم أذهب" (٢٥)، "هل بدَّلت أمة آلهة وهي ليست آلهة، أما شعبي فقد بدَّل مجده بما لا ينفع" (٢: ١١)، "لأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا" (١١: ١٣)، "لماذا أغاظوني بمنحوتاتهم، بأباطيل غريبة؟" (٨: ١٩). ويجب أن تُضم معصية الهجر الكامل للرب إلى معصية الذهاب وراء آلهة أخرى: عدم معرفة الرب، وعدم الثقة في الرب، وخيانة الرب، والجحود، والثقة الواهية في أباطيل الأمم، ونقض العهد مع الرب: "ماذا وَجَدَ فيَّ آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عني" (٢: ٥)، "تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارًا، آبارًا مشققة لا تضبط ماءً" (١٣)، "تركك الرب إلهك شر ومر" (١٩). "ولأن شعبي أحمق. إياي لم يعرفوا" (٤: ٢٢). "خيانة خانني بيت إسرائيل" (٥: ١١). "أما شعبي فلم يعرف قضاء الرب" (٨: ٧).

في الخروج من مصر قطع الرب عهدًا مع شعبه قائلًا: "اسمعوا صوتي واعملوا به حسب كل ما آمركم به، فتكونوا لي شعبًا. وأنا أكون لكم إلهًا. لأقيم الحَلِف الذي حَلَفت لآبائكم أن أعطيهم أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا" (١١: ٤-٥). ولقد وفَّى الرب بوعده أما الشعب فنقض عهده: "وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها، قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدي الذي قطعته مع آبائهم" (١٠).

ويختلف توبيخ إرميا عن توبيخ عاموس في أنه لا يركِّز على المعاصي الاجتماعية. لكن من المعلوم أن مخالفة وصايا الإنسان وأخيه تشغل حيزًا كبيرًا في توبيخ إرميا وإليكم بعض النماذج الأساسية:

١. سفك الدماء: "أيضًا في أذيالك (وفي الترجمة السبعينية: كَفَّيك)، وُجد دم نفوس المساكين الأزكياء. لا بالنقب وجدته بل على كل هذه" (٢: ٣٤، وكذلك ٧: ٩، ٢٢: ٣).

٢. الظلم والنهب: "ظلم وخطف يُسمع فيها" (٦: ٧)، "ظلم في وسطها" (٦: ٦)، "كل واحد مولع بالربح" (٦: ١٣). ظلم الغريب واليتيم والأرملة (٧: ٦).

٣. الزنا والدعارة: ٥: ٧-٨، ٧: ٦، ٩: ١، ٢٣: ١٠.

٤. الكذب والغش والخيانة: "مثل قفص ملآن طيورًا هكذا بيوتهم ملآنة مكرًا" (٥: ٢٧)، "ومن النبي إلى الكاهن، كل واحد يعمل بالكذب" (٦: ١٣)، "لأنهم جميعًا زناة، جماعة خائنين" (٩: ١).

٥. تشويه الحق والبر: "لم يقضوا في الدعوى ... وبحق المساكين لم يقضوا" (٥: ٢٨، ٥: ١، ٧: ٥).

٦. استعباد العبيد مرة أخرى بعد تحريرهم: الإصحاح ٣٤.

والرب يرسل إليهم الأنبياء ليحذرهم لكنهم لا يسمعون تحذير الأنبياء: "ها إن أذنهم غَلْفَاء فلا يقدرون أن يصغوا. ها إن كلمة الرب صارت لهم عارًا لا يسرون بها" (٦: ١٠)، "وأقمت عليكم رقباء قائلين: أصغوا لصوت البوق. فقالوا: لا نصغي" (١٧)، وكذلك في ٢٣: ٣٨، ٢٦: ٥، وتحديدًا في ٧: ٢٥: "فمن اليوم الذي خرج فيه آباؤكم من أرض مصر إلى هذا اليوم، أرسلت إليكم عبيدي الأنبياء، مبكرا كل يوم ومرسلا. فلم يسمعوا لي و لم يميلوا أذنهم بل صلبوا رقابهم، أساءوا أكثر من آبائهم".

يذكر إرميا في الإصحاح السابع خطيئتين يجب توحيد الحديث فيهما: الأولى؛ عبادة ملكة السماوات: "الأبناء يلتقطون حطبًا، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجنَّ العجين، ليصنعن كعكًا لملكة السماوات" (١٨). والثانية؛ حرق الأبناء والبنات في مرتفعات توفة في وادي ابن هنوم. يقول بعض الباحثين إنه بعد عصر منسي لم تصنع مثل هذه الأعمال وأن التوبيخ موجه لما كان يحدث في الماضي وليس إلى حقائق في الحاضر. وباستثناء بعض الإصحاحات لا يوجد في توبيخ إرميا بعد الإصلاح أي شاهد على العودة إلى عبادة الأوثان في إسرائيل أو عبادة جيش السماء على المستوى الشعبي. وتدل هذه القصة تحديدًا عن عبادة ملكة السماوات على عدم كونها عبادة وثنية معلنة في أماكن عامة إنما عبادة بقيت في عدة عائلات من الأجيال السابقة. كما لا يتهم إرميا يهوياقيم أو صدقيا بالوثنية، ولا أنبياء الكذب كذلك. من هنا نجد أن إصلاحات يوشيا قد ضربت جذورًا قوية.

ضربات قوية وقاسية ستنزل بالشعب بسبب كل هذه المعاصي: السيف والجوع والوباء، الحصار والضيق، السبي والخراب وضربات أخرى فظيعة مذكورة في إصحاح التوبيخ في سفر التثنية: ٢٨.

يؤكد قويفمان على ثلاث نقاط مهمة في توبيخ إرميا:

١. عدم وجود أساس طبقي في توبيخه؛ فهو يهاجم الشعب كله[1].

٢. ليس صحيحًا أن الفساد الأخلاقي وانحطاط روح الأمة قد زاد في جيل إرميا، على العكس؛ ففي جيل الخراب هذا كانت روح الأمة حية وموجودة وتعمل بقوة وإيمان. ففي هذا الجيل تحديدًا ظهر في يهوذا أنبياء الحق العظام:

---

[1] ص ٤٤٨.

حبقوق وصفنيا وإرميا وحزقيال. ومعظم أسماء المواليد في هذا الجيل كان يذكر فيها اسم الرب صراحة، وهو ما يشير إلى زيادة الإيمان بالرب. وإرميا نفسه كان لديه أنصار ومؤيدين. إنما توبيخ النبي فيأتي من منطلق المثالية الدينية الأخلاقية المتشددة والشعور بالإحباط عند رؤية الهوَّة الكبيرة بين إسرائيل الواقع وإسرائيل المثالية[١].

٣. لأول مرة نجد لدى إرميا فكرة اعتبار الوثنية معصية لا ترتبط بإسرائيل فقط إنما بالأمم أيضًا: "اسكب غضبك على الأمم التي لم تعرفك، وعلى العشائر التي لم تدع باسمك" (١٠: ٢٥)، وكذلك دعوة الأمم إلى ترك الوثنية (١٣: ١٧، ١٦: ١٩). وللمرة الأولى يرد ذكر لكلمات عن الوثنية إلى الأمم بلسان الأمم (١٠: ١١). ومن هنا تبدأ الحرب الفعلية مع وثنية الأمم[٢].

بماذا يطالب الرب الإنسان؟

إن كانت الخطيئة الرئيسية هي السير خلف آلهة أخرى وترك الرب، فإن المطلب الأول سوف يكون العودة إلى الرب. وبما أن إرميا يكثر من استخدام التعبير اللغوي "اذهب وراء"، فإنه يكثر كذلك من استخدام الفعل "ارجع". ففي بداية تاريخ إسرائيل سار الشعب وراء الرب، وكان متمسكًا به مثل التفاف المِنطَقَة حول حَقْوَى الإنسان (١٣: ١١)، بعدها ابتعد الشعب عن الرب وهجره؛ لذلك عليه أن يعود إليه: "שובה משובה ישראל ارجعي رجوعًا يا إسرائيل" (٣: ١٢. يوجد هنا تلاعب في الألفاظ بين الرجوع إلى الرب والرجوع بالمعنى العكسي:

---

١ ص ٤٤٩.

٢ ص ٤٦٤.

خيانة الرب). "ارجعوا أيها البنون العصاة" (١٤)، "ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفي عصيانكم" (٢٢). يُنظر إلى الرجوع هنا على أنه مرض، وتأثير هوشع واضح فيه: "أنا أشفي ارتدادهم. أحبهم فضلًا" ١٤: ٥). "فارجعوا كل واحد عن طريقه الرديء، وأصلحوا طرقكم وأعمالكم" (١٨: ١١) وغيرها. والعودة يجب أن تكون داخليه نفسية وليست خارجية: "وانزعوا غُرَل قلوبكم" (٤: ٤)، "اغسلي من الشر قلبك يا أورشليم، لكي تخلصي" (١٤)، "وصار لهذا الشعب قلب عاص ومتمرد، عصوا ومضوا ولم يقولوا بقلوبهم لنخف الرب إلهنا" (٥: ٢٣-٢٤)، "وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم" (٢٩: ١٣)، "وأكتبها على قلوبهم" (٣١: ٣٣).

يصاحب المطالبة بالعودة إلى الرب طلب معرفة الرب؛ لكن كيف يمكن معرفة الرب؟ الإجابة عن هذا السؤال نجدها في الإصحاح ٩: ٢٢-٢٣: "هكذا قال الرب: لا يفتخرن الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته، ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليفتخرن المفتخر. بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلا في الأرض، لأني بهذه أُسرُّ يقول الرب". بذلك تكون الحكمة في حد ذاتها، والجبروت والغنى ليسوا قيمًا مطلقة، إنما معرفة الرب هي القيمة السامية التي يجب التفاخر بها. فالرب يتجلى في أعماله وفي صفاته الأخلاقية، والإنسان الذي يعرف الرب يجب أن يحاول أن يتشبه به ويسلك سبله. واتباع الرب معناه سلك سبله، وسلك سبله معناه صنع الخير والعدل والبر.

نلاحظ أن إرميا يجمع هنا بين القيمة الدينية السامية: معرفة الرب، وبين القيم الأخلاقية: الخير والعدل والبر. وكذلك في كلامه عن الهيكل في الإصحاح السابع: "إن أصلحتم إصلاحًا طرقكم ... وإن أجريتم عدلًا بين الإنسان وصاحبه. إن لم

تظلموا الغريب واليتيم والأرملة، ولم تسفكوا دمًا زكيًا في هذا الموضع ولم تسيروا وراء آلهة أخرى أذاكم. فإني أسكنكم في هذا الموضع ..." (٥-٧).

وفي آخر الأيام سيحظى كل بني إسرائيل بمعرفة الرب، ولن تكون هناك حاجة إلى تعليم هذه المعرفة "لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الرب" (٣١: ٣٤).

توبيخ العظماء

الزعماء عليهم مسئولية خاصة فيما يتعلق بمصير الشعب؛ فعليهم أن يكونوا مثالًا وقدوة، وعليهم تعليم الشعب وتوجيهه في الطريق السليم. لكن خيبة أمل النبي من العظماء كانت كبيرة جدًا: "أما أنا فقلت: إنما هم مساكين قد جهلوا لأنهم لم يعرفوا طريق الرب، قضاء إلههم. أنطلق إلى العظماء وأكلمهم لأنهم عرفوا طريق الرب، قضاء إلههم. أما هم فقد كسروا النير جميعًا وقطعوا الرُبُط" (٥: ٤-٥). ويكشف لنا إرميا كيف وقف على الحالة الدينية والأخلاقية في المجتمع؛ حيث ذهب من رجل إلى رجل، وتجول في شوارع أورشليم، وتحدث مع الناس، وعرف طرق حياتهم، فكانت استنتاجاته ثمرة تجربته الشخصية. فكل زعماء الشعب غير جديرين بمناصبهم: "كخزي السارق إذا وجد هكذا خزي بيت إسرائيل، هم وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم" (٢: ٢٦).

رعاة الشعب قادوه إلى مصر وآشور، ولم يدركوا أن هذه السياسة لن تأتي على الدولة بأي فائدة. فهم يخدِّرون الشعب بأوهام التراخي والسلام في الوقت الذي فيه خطر الموت قريب ويحلق فوقهم. وبدلًا من مداواة كسر الشعب من خلال قيادة سليمة يقولون له: "سلام سلام ولا سلام" (٦: ١٤، ٨: ١١)، ولا يدركون أنه بهذه الأوهام تحديدًا يعجلون من النهاية. ويشبه إرميا زعماء الشعب بالرعاة

"الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي" (٢٣: ١)، "لأن الرعاة بلُدوا، والرب لم يطلبوا، من أجل ذلك لم ينجحوا، وكل رعيتهم تبددت" (١٠: ٢١).

ويلخِّص إرميا في فقرة واحدة دور القيادة الروحية: "لأن الشريعة لا تبيد عن الكاهن، ولا المشورة عن الحكيم، ولا الكلمة عن النبي" (١٨: ١٨)، فمهمة الكاهن هي تعليم الشريعة، ومهمة الحكيم هي تقديم المشورة الطيبة، ومهمة النبي هي قول كلمة الرب. يظن الشعب أنه لا حاجة إلى كلام إرميا؛ لأنه يمتلك عددًا كافيًا من الكهنة والحكماء والأنبياء. وعن "الحكماء" يقول إرميا: "كيف تقولون: نحن حكماء وشريعة الرب معنا؟ حقًا إنه إلى الكذب حوَّلا قلم الكتبة الكاذب. خَزِي الحكماء. ارتاعوا وأخذوا. ها قد رفضوا كلمة الرب فأية حكمة لهم؟" (٨: ٨-٩). والأنبياء سنتحدث عنهم لاحقًا بالتفصيل. لكن سنضيف إلى الكهنة بعض الملاحظات؛ الكهنة لديهم مسئولية غير هينة عن مصير الشعب. فقد كان عليهم أن يعلِّموا الشعب الشريعة ومعرفة الرب لكن "الكهنة لم يقولوا، أين هو الرب؟ وأهل الشريعة لم يعرفوني" (٢: ٨). أغضبت هذه الكلمات الكهنة كثيرًا فاضطهدوا إرميا؛ فضربه فشحور بن إمير الكاهن وجعله في المقطرة (الإصحاح ٢٠). وفي محاكمة إرميا العلنية في عصر يهوياقيم طالب الكنهة والأنبياء تحديدًا بموت إرميا، وأنقذه الرؤساء من أيديهم (٢٦: ٨، ١١). لكن يحدث تغيير في عصر صدقيا فيما يخص علاقة الكهنة بإرميا؛ حيث يسانده صفنيا الكاهن (٢٩: ٢٩) وتتبدل الأمور في أيام الحصار فيصبح الرؤساء هم الذين يطاردون إرميا، وهو أمر مفهوم لأنه فيما يخص التمرد في بابل كان خلاف إرميا مع الرؤساء وليس الكهنة. وإرميا ليس أول نبي يصطدم بالكهنة فقد سبقه في ذلك عاموس (مع أمصيا، كاهن بيت إيل)، وهوشع الذي تحتوي نبوءته على توبيخ شديد خاص من أجل الكهنة.

إرميا وأنبياء الكذب

أول من بدأ بمحاربة أنبياء الكذب هو ميخا؛ فهو يتهم الأنبياء المحترفين بالكذب الفعلي وهم يعلمون أن كلامهم كذلك (ميخا ٣: ٥). لكن لا يوجد نبي تشغل محاربة أنبياء الكذب مكانة كبيرة ورئيسية في كلامه مثل إرميا فكلامه عنهم وصدامه بهم يظهر في إصحاحات كثيرة: ٢، ٥، ٦، ١٤، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩. والإصحاح ٢٣ تحديدًا مهم. ومن أجل فهم كلامه علينا تقسيم مزاعمه إلى نواحٍ مختلفة:

١. الناحية الأخلاقية: على النبي نفسه أن يكون شخصية أخلاقية، لكن إرميا يتهم الأنبياء بالمعاصي والجرائم: متملقون، زانون، أشرار، سارقي كلمات بعضهم البعض (٦: ١٣، ٢٣: ١٠، ١١، ١٤، ٣٠، ٢٩: ٢٣). ليس هناك أدنى شك في أن إرميا لا يعتبر أنبياء الكذب أناس مخطئين يتحدثون بحسن نية من منطلق محبة الشعب والبلد، بل هم كاذبون متعمدون من أجل التكسب.

٢. ناحية الرسالة: هذا الفارق بين أنبياء الحق وأنبياء الكذب واضح وبسيط؛ فالإنسان الذي يتنبأ باسم آلهة أخرى هو نبي كذب بالتأكيد، وكذلك الذي يدعو إلى الوثنية. ولقد أوجبت التوراة قتل الأنبياء من هذا النوع (التثنية ١٣: ٣، ١٨: ٢٠). وهذا القول موجود أيضًا في كلام إرميا: "والأنبياء تنبأوا ببعل" (٢: ٨)، لكنه لا يشغل مكانة رئيسية. وورد في الإصحاح ٢٣: "وقد رأيت في أنبياء السامرة حماقة. تنبأوا بالبعل وأضلوا شعبي إسرائيل" (١٣). بذلك نجد أنه لم يكن في يهوذا أنبياء تنبأوا باسم آلهة أخرى أو دعوا إلى الوثنية. كما تنبأ أنبياء الكذب باسم الرب؛ لهذا السبب كان من الصعب جدًا التمييز بينهم، ومن أجل ذلك يؤكد إرميا على أن هؤلاء الأنبياء ليسوا رسل الرب: "لم أرسل الأنبياء بل هم

جروا. لم أتكلم معهم بل هم تنبأوا" (٢٣: ١٣)، "يتكلمون برؤيا قلبهم، لا عن فم الرب" (٢٣: ١٦، ٣٢). لكن كيف يمكن معرفة أنهم ليسوا رسل ربهم وأنهم يتحدثون برؤيا قلبهم؟ من أجل هذا السبب هناك حاجة إلى اختبارات أخرى تنبع من مضمون كلامهم ومن طبيعته.

٣. مضمون نبوءة الكذب: لا يوبخ أنبياء الكذب الشعب من أجل إعادته إلى الطريق القويم وإنقاذه من دماره: "فقلت آه، أيها السيد الرب هوذا الأنبياء يقولون لهم لا ترون سيفًا، ولا يكون لكم جوع بل سلامًا ثابتًا أعطيكم في هذا الموضع. فقال الرب لي: بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي ... والشعب الذي يتنبأون له يكون مطروحًا في شوارع أورشليم من جري الجوع والسيف وليس من يدفنهم ..." (١٤: ١٣-١٦). لقد ارتفع عدد أنبياء السلام في البلاد وفي بابل أيضًا بعد وصول سبي يهوياكين إلى هناك، ولم يستطع أبناء الجيل التمييز والتحديد الأكيد أن أنبياء السلام يتحدثون بالكذب. فلو كان الكلام في أمور الدين والأخلاق فسوف يتضح الكلام الحقيقي لكن إن كان في أمور الدولة فكيف يمكن تحديد ذلك؟ أليس هناك إمكانية في مقارنته بكلام التوراة؟!!

٤. جوهر النبوة وطبيعتها: لقد جعلنا إرميا نقف على العظمة الداخلية للنبوة الحقيقية التي تسيطر على النبي وتستحوذ على كل قلبه وروحه. فلم يكن هناك نبي مثله وصف بوضوح، وجسَّد وصوَّر جوهر النبوة الحقيقية والصراع بين النبي والنبوة:

أليست هكذا كلمتي كنار، يقول الرب وكمطرقة يحطم الصخر (٢٣: ٢٩).

انسحق قلبي في وسطي ارتخت كل عظامي،

صرت كإنسان سكران ومثل رجل غلبته الخمر،

من أجل الرب ومن أجل كلام قدسه (٢٣: ٩).
فكان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي
فمللت من الإمساك و لم أستطع (٢٠: ٩).

فماذا يعرف أنبياء الكذب عن تلك النار المشتعلة التي تحرق وتحطم وتُسكِر وتفجر قلب النبي الذي لا يستطيع احتوائها، فتخرج وتقتحم وتُسكَب على رؤوس السامعين كالعاصفة؟ (٢٣: ١٩) أما النبوة بالنسبة لأنبياء الكذب فهي مصدر للرزق؛ فهم يتحدثون برؤيا قلبهم ويعدون بالسلام السلام دون أي مسئولية، ويحلمون أحلامًا، ويسرقون كلامًا وعندما يرغبون في الكلام "يأخذون لسانهم ويقولون" (٢٣: ٣١). ويُشبِّه إرميا النبوءة الحقيقية بالحنطة، القمح المغذِّي، الذي فيه حياة وبركة؛ أما نبوءة الكذب فهي مثل التبن، أباطيل ثرثرة اللسان.

٥. تحقُّق النبوءة: هناك اختبار آخر للنبوءة الحقيقية التي من شأنها المساعدة أيضًا في شئون الدولة وهو: تحقق النبوءة في المستقبل. ولقد حدد سفر التثنية: "وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب و لم يحدث و لم يصر، فهم الكلام الذي لم يتكلم به الرب" (١٨: ٢١-٢٢). وإرميا نفسه يوجز هذا الاختبار في: "النبي الذي تنبأ بالسلام، فعند حصول كلمة النبي عُرف ذلك النبي أن الرب قد أرسله حقًا" (٢٨: ٩). لكننا لا يمكننا اختبار حقيقة كلام نبوءة البلاء لأنه من المحتمل أن يكون الرب قد أسف على الشر. لكن النبوءة الطيبة يجب أن تتحقق. وعلى الرغم من أن الاختبار التاريخي لتحقق النبوة هو أهم وأضمن شيء إلا أنه لا يمكن دائمًا مشاهدة هذا التحقق على مدى جيل واحد أو عدة أجيال. فالنبي يتحدث إلى بني جيله وعليهم معرفة كيفية التصرف: هل الاستمرار في محاربة بابل، كما نصح حننيا، أو الاستسلام لبابل كما

نصح إرميا؟ فحننيا وطني يريد خلاص شعبه، ولا يعد بتحطم نير بابل من أجل الحصول على أجر لكن من أجل تشجيع الشعب على محاربة البابليين. فكيف يستطيع الشعب معرفة أنه نبي كذب؟ أليس إرميا نفسه عندما سمع كلام حننيا لم ينكره على الفور بل أراد أن يتحقق كلامه. (٢٨: ٦).

خلاصة القول أنه يصعب كثيرًا على أبناء جيل النبي التمييز بين أنبياء الحق وأنبياء الكذب، غير أن نبوءة الحق التي كانت فيها كل الإشارات التي ذكرها إرميا قد بقيت لأجيال، أما نبوءات الكذب فقد ضاعت وفقدت.

مسئولية الفرد ومسئولية الجماعة

رأينا أن إرميا يلقي بمسئولية شخصية خاصة على الملوك والكهنة والأنبياء وأن لديه نبوءات موجهة إلى الجزاء الشخصي، على سبيل المثال: النبوءة عن حننيا بن عزور (١٨: ١٦)، وعن فشحور بن إمير (٢٠: ٤-٦)، وعن رجال عناثوث (١١: ٢٢-٢٣)، وعن بيت الركابيين (٣٥: ١٩). لكن لا شك أن على إرميا أيضًا مسئولية عامة متبادلة مع الشعب كله على الأعمال والمعاصي التي ارتكبت بواسطة معظم الشعب في ذلك الجيل، وكذلك عن أعمال الأجيال السابقة؛ فقد عوقب جيل إرميا على خطيئة منسي، يقول إرميا: "وأدفعهم للقلق في كل ممالك الأرض من أجل منسي بن حزقيا ملك يهوذا، من أجل ما صنع في أورشليم" (١٥: ٤)، بالضبط كما قال صاحب سفر الملوك الثاني (٢٤: ٣).

لكن يجب أن نؤكد أن الجيل الجديد عوقب بسبب معاصي الأجيال السابقة لأنه هو نفسه قد استمر في ارتكاب المعاصي: "وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من أبائكم" (١٦: ١٠-١٣). لذلك لا يوجد تناقض بين فكرة أن المعاصي تتراكم من جيل إلى جيل وأن الأبناء يعاقبون على أعمال أبائهم ("الآباء أكلوا حصرمًا وأسنان

الأبناء ضرست" ٣١: ٢٩) وبين رفض إرميا هذا المثل. فإرميا يقول صراحة أنهم "لن يقولوا في تلك الأيام هذا المثل، فكل إنسان سيموت بذنبه، وكل إنسان يأكل حصرمًا تضرس أسنانه هو". فمتى ستأتي هذه الأيام؟ عندما يقطع العهد الجديد بين الرب وشعبه، ويسير الشعب في سُبُل الرب؛ حينها لن تنتقل خطيئة الآباء إلى أبنائهم.

لقد كانت فكرة "الإنسان يموت بذنبه" مطلوبة في جيل الخراب تحديدًا من أجل تقوية الإيمان في قلب الشعب بإمكانية التوبة والخلاص. وإنه كان لا مفر من مسئولية أخطاء منسي، فما فائدة التوبة؟ لقد ساد في ذلك الجيل إحساس بأنهم يعاقبون على ذنوب الأجيال السابقة: "آباؤنا أخطأوا وليسوا بموجودين، ونحن نحمل آثامهم" (مراثي إرميا ٥: ٧)، وهو الإحساس الذي سبب لهم اليأس والاكتئاب. ألم يكونوا هم أفضل من أبناء جيل منسي. فلو أن جيل يهوياقيم أسوأ من جيل منسي لما كانت هناك حاجة إلى ربط الخراب بخطيئة منسي. وحقيقة أن سفر الملوك الثاني وكذلك إرميا لا يزعمان أن الخراب حدث بسبب آثام يهوياقيم، تثبت أنه حدث تحسن في الوضع الديني ليهوذا مقارنة بعصر منسي بسبب إصلاحات يوشيا. لكن من الناحية الأخلاقية والعقدية وفي فرائض القلوب لم يحدث أي تغيير جوهري. فلو حدث مثل هذا التغيير ورجع الشعب حقًا إلى الطريق القويم بكل قلبه حينئذ "كل واحد يموت بذنبه" ولن يتحمل الأبناء أخطاء الآباء. ولقد أكد حزقيال على هذه الفكرة في كلامه إلى أهل السبي، لأن شعورهم بالضياع وبلا أمل بسبب فظائع أعمال آبائهم كان شعورًا خطيرًا جدًا على استمرارية الوجود القومي.

إذن فالمسئولية الفردية لا تناقض المسئولية المتبادلة، وكلاهما موجود في سفر إرميا وفي العهد القديم كله، وفي ذلك لم يأت إرميا بأي تجديد أو تغيير.

إرميا والمجتمع

كان إرميا "إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض"، عاش في عزلة بدون عائلة أو أصدقاء وخلّان، مع ذلك لم يكن المنعزل الذي يتجنب الناس ويعيش خارج المجتمع. فقد كان يرثي قائلًا: "يا ليت لي في البرية مبيت مسافرين فأترك شعبي وأنطلق من عندهم" (٩: ١)، لكنه لا يترك شعبه ولا يذهب عنه. على العكس فهو يعيش في وسط شعبه ويعمل في داخله بجد ومثابرة دون كلل أو ملل، على الرغم من معاناته وتعذيبه. فهو على دراية كاملة بما يحدث في المجتمع الإسرائيلي، وفي الشارع وفي البيت والعائلة. ولقد شاهدنا أن توبيخه قائم على تجربة شخصية فهو يتجول في شوارع أورشليم ويطلب في شوارعها رجل يصنع البر، ويطلب الإيمان (٥: ١)، وبعدما لم يعثر على مثل هذا الرجل ذهب "إلى العظماء" وتحدث معهم، ودرسهم وخبر أعمالهم وآرائهم. فهو لم يهرب إلى حوريب كإيليا، ولم يُفزع أحدًا بظهوره المفاجيء. فهو متأهب دائمًا ويؤدي مهمته الخطيرة في أورشليم. كما يقوم بأعمال رمزية درامية أمام الشعب ويتحدث علانية، ويأخذ الشيوخ معه إلى وادي بن هنوم، ويحضر بيت الركابيين إلى بيت المقدس، ويلقي العصي على رسل الشعوب الذين جاءوا إلى أورشليم، ويبعث برسالة إلى سبي يهوياكين عن طريق وفد رسمي للرؤساء، ويشتري حقل حنمئيل وهو في السجن، ويوبخ الأنبياء والكهنة ويخرج ويدخل في أروقة بيت الرب. كما أن له علاقات وطيدة مع بيت الركابيين ومع بيت شافان، ومع الملك في عصر صدقيا. باختصار، لم يكن إرميا شخصية نبي انعزالي يعيش خارج المجتمع وفوقه،

بل رجل عمل ورؤيا يعيش في داخل شعبه ويساهم في الحياة العامة، والسياسية والروحية.

لا يمكننا حقًا أن نرى في إرميا شخصية الزعيم القومي مثل موسى ويشوع وصموئيل؛ لكن من الناحية الروحية فقد كان زعيم الجيل بالتأكيد، الذي يكمل تراث الأنبياء العظام الذين لم ينغلقوا على ركائز الشريعة الأربعة لكنهم ذهبوا إلى الشعب وإلى الملوك والرؤساء من أجل تصحيح وإنقاذ وبناء الشعب والدولة. وليس مصادفة أن يذكر إرميا موسى وصموئيل (١٥: ١) كأهم ممثلين للشعب على الإطلاق ("إن وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب")، لأن إرميا لم يعتبر الملوك آباء الأمة، لكن الأنبياء موسى وصموئيل اللذين كانا مثله رجال رؤيا وعمل الشعب وشكلا شخصيته، وهم فقط الذين لهم الحق في الوقوف أمام الرب والطلب من أجل شعبهم.

لقد كان إرميا على دراية بحياة القرية (عناثوث)، والمدينة (أورشليم)، وتشبيهاته مأخوذة أيضًا من الطبيعة الزراعية القروية، وكذلك من الطبيعة المدنية، وهناك العشرات من التشبيهات المأخوذة من الحياة المجتمعية اليومية، مثل: ٢: ٢٦، ٢: ٣٢، ٣: ١، ٢، ٤: ٣٠، ٩: ٣، ١٣: ٢٣، ١٤: ٨، ١٥: ١٧، ٢٣: ٩، ٣١: ٢١ وغيرها.

وعلى الرغم من كونه غير متزوج إلا أن المشاعر الأسرية لم تكن بالغريبة عنه، على العكس، فليس هناك نبي مثله قدم تعبيرًا عاطفيًا عميقًا لمشاعر الحب بين الرجل وزوجته وبين الوالدين والأبناء: ٢: ٢، ١٥: ١٠، ٢٠: ١٥، ٣٠: ١، ٣١: ٢، ١٤، ٢١، ٣٣: ١٠. ويكفينا أن نذكر الفقرات: "ومحبة أبدية أحببتك ... راحيل تبكي على أولادها، وتأبى أن تتعزى عن أولادها ... هل أفرايم ابن

عزيز لدي، أو ولد مُسرّ ... ويل لي يا أمي لأنك ولدتني". ويؤكد إرميا أنه لن يُسمع في الأرض في أيام الخراب صوت فرح وصوت بهجة وصوت عريس وصوت عروس (٧: ٣٤). بذلك يكون غياب الزواج أحد اللعنات الكبرى في الخراب لكن في رؤيا آخر الأيام يسمع إرميا أصوات الفرح وحفلات الزفاف مرة أخرى (٣٣: ١٠).

لمست آلام المخاض شغاف قلب إرميا واستخدم هذا التشبيه أكثر من مرة للتعبير عن الأوجاع والآلام: "لأني سمعت صوتًا كماخضة، ضيقًا مثل ضيق بكرية ... أمسكنا ضيق ووجع كالماخض ... أما تأخذك الأوجاع كامرأة ماخض ... الوجع كوالدة" (٤: ٣١، ٦: ٢٤، ١٣: ٢١، ٢٢: ٢٣).

ويُظهر التمعن في شخصية إرميا عظمة مأساة النبي الشخصية الذي اضطر إلى التخلي عن حياته الأسرية والاجتماعية من أجل غايته النبوية.

شكاوى النبي وصلواته

لم يكن إرميا أول نبي يصلي للرب، فقد سبقه موسى وصموئيل (صموئيل الأول ٧: ٩، ٨: ٦، ١٢: ٢٣)، وعاموس (٧: ٢، ٥)، وإشعياء (٣٧: ٤، والإصحاح ١٢ كله)، وميخا (٧: ٨-١٠، ١٤-٢٠). لكننا لم نجد عند أي نبي قبل إرميا صلوات شخصية وشكاوى شخصية. فإرميا أول نبي يسأل الرب: "لماذا تنجح طريق الأشرار؟"، وكنَّا قد تطرقنا إلى هذا السؤال في حديثنا عن "مفهوم الألوهية"، لكننا لم نتناوله من جميع جوانبه؛ فإرميا صاغ السؤال على صورة دعوى قضائية حقيقية. ورغم أنه يعلن في الحال عند توجهه إلى الرب: "أَبَرٌّ أنت يا رب من أن أخاصمك"، أي إني أعلم وأثق أنك عادل، وأني لا أستطيع أن أخاصمك، لأنك عادل دائمًا، مع ذلك "أحدثك بشأن أحكامك"، وأطلب إجابة كي أتخلص

من حيرتي الكبيرة. ولأني لا أشك في عدلك فأنت مطالب بأن تفسر لي "لماذا تنجح طريق الشرار؟".

ما الأسباب التي جعلت إرميا يطلب هذا الطلب؟ أولا؛ معاناة النبي المستمرة وإحباطه من المجتمع المحيط به. ثانيًا؛ شعوره بخيبة الأمل من وعد الرب بالتكليف؛ حيث وعده الرب بأن يجعله "مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس"، لكن النبي لم يرَ نفسه دائمًا قويًا مثل المدينة الحصينة فلم يحصل على الاحترام لكن السخرية والخزي: "صرت للضحك كل النهار. كل واحد استهزأ بي" (٢٠: ٧-٨). أكثر من ذلك، فقد أراد أصدقاؤه وأقرباؤه قتله، فأحس في نفسه "وأنا كخروف داجن يُساق إلى الذبح" (١١: ١٩)؛ أما الأشرار، تحديدًا الذين يطلبون روحه فينعمون بحياة هادئة وهم مثل الشجرة القوية الضاربة بجذورها في العمق وفروعها كثيفة ومثمرة: "أنت غرستهم فتأصَّلوا ونموا وأثمروا" (١٢: ٢).

لا قيمة لسؤال النبي لو كان الرب يقود عالمه بعدل، أو أنه كان يعرف الحقيقة من وراء تصرفه مع خلقه؛ لكن الرب "فاحص الكُلَى والقلب (١١: ٢٠) يعرف رياء الأشرار "اسمك يتردد على أفواههم، ولكنه بعيد عن قلوبهم" (١٢: ٢)، وكذلك قلب النبي البريء ("وأنت قد عرفتني ورأيتني، وامتحنت قلبي" — ٣). "إذن، لماذا هم في خير وأنا في شر"؟[1].

تتكون شكوى النبي كالتالي:

١- التوجه إلى الرب: الفقرة ١، الشطر الأول.

[1] قول الحاخام داود قمحي.

٢- السؤال عن نجاح الأشرار ووصف نجاحهم: ١: الشطر الثاني، ٢: الشطر الأول.

٣- التناقض بين رياء الأشرار وبراءة النبي: ٢: الشطر الثاني- ٣ الشطر الأول.

٤- المطالبة بعقاب الأشرار: ٣: الشطر الثاني.

من الجدير بالذكر أن شكوى النبي تنبع من معاناته الشخصية، على عكس سفر أيوب الذي تكون الشكوى فيه من الرقابة الإلهية أكثر شمولًا. وليس من قبيل الصدفة أن تثار مسألة الرقابة لأول مرة في جيل إرميا؛ فموت يوشيا في مجدو على الرغم من كونه ملكًا عادلًا جدًا، وتدهور يهوذا والصعود السريع لمملكة بابل الوثنية قد أدهش وهزَّ المؤمنين. ونجد أحد أنبياء تلك الفترة وهو حبقوق يشكو إلى الرب نجاح بابل الشريرة. وإرميا لا يعبر هنا عن شكاوى يهوذا ضد بابل، لكن عن شكواه الشخصية فقط. فلماذا يتعذب وهو الصدِّيق، وينجح أعداؤه، فيطلب من الرب الانتقام الشخصي ممن يرغبون في قتله.

ماذا كان رد الرب على شكوى نبيه ورسوله؟ هو يجيبه فعليًا. الرد ضبابي غير واضح؛ فالرب، بحسب المفسرين، لا يفسر لماذا تنجح طريق الأشرار ولا يعد بالانتقام منهم كما يطلب النبي. على العكس، فهو يخبر النبي أنه سيلاقي معاناة أكبر: "إن كنت قد باريت المشاة فأعيوك، فكيف إذا تباري الخيل؟" (الآن يطاردك المشاة فقط، وهم إخوتك وبيت أبوك وأقرباؤك، وأهل عناثوث، لكن في المستقبل ستطاردك الخيل التي تحسن الركض، وهم رؤساء أورشليم والكهنة والأنبياء) "وإن كنت تتعثر في أرض مطمئنة، فكيف تفعل في أجمات نهر الأردن؟" (وكيف ستحارب في أجمات الأردن — أورشليم — التي تعيش فيها المفترسات؟).

هذا الرد ليس فيه بالطبع إجابة عن مسألة "الصدِّيق سيء الحظ، والشرير حظه جيد"[1]. فلا توجد هنا لا الفكرة الشائعة في سفر "المزامير" أن نجاح الشرير مؤقت وعابر، ولا أيضًا الفكرة الأساسية في رد الرب على أيوب، بأن الإنسان قادر على فهم سبل الخالق بعقله بوجود سر غير منطقي في قيادة العالم. وأدب الحكمة فيه مشكلة عامة حاول "الحاخامات" الإجابة عنها. لكن المشكلة هنا ليست مسألة "حكمة" وإنسانية عامة، إنما مشكلة شخصية نبوية. فالكلام هنا ليس عن إنسان المعاناة جزء لا يتجزأ من جوهر غايته النبوية. فهل الذي يعاني على حق حقًا (وأيوب مجرد مثال واحد عليه)، أم على النبي الرسول أن يعاني في مهمته كنبي؟ لا يسأل إرميا عن معاناة الإنسان، المعاناة البشرية، لكن عن المعاناة التي يعاني النبي المكلَّف بمهمة معينة بسببها. وعن هذا السؤال المحدد يحصل على الرد: الرسالة النبوية تستلزم الآلام؛ فليس من المتوقع أن يكون طريق النبي طريق نجاح، بل عليه المعاناة! والسؤال تحديدًا هو أن يتألم جسديًا ونفسيًا النبي الذي يقوم بمهمة سامية ورفيعة، مهمة إلهية؟ ولا توجد إجابة عن ذلك، لكن دهشة واستغراب: كيف للنبي أن يشكو آلامه؟

رد آخر على شكاوى أخرى لإرميا نجدها في الإصحاح ١٥؛ فإرميا غير متعايش مع المأساة الخاصة برسالته. فهو يتوجه إلى الرب بشكوى شديدة: "ويل لي يا أمي لأنك ولدتني إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض ... أنت يا رب عرفت. اذكرني وتعهدني وانتقم لي من مضطهدي ... أعرف احتمال العار لأجلك ... لم أجلس في محفل المازحين مبتهجًا. من أجل يدك جلست وحدي، لأنك قد ملأتني غضبًا. لماذا كان وجعي دائمًا وجرحي عديم الشفاء، يأبى أن يشفى؟ أتكون

[1] ברכות ז' א'

لي مثل كاذب مثل مياه غير دائمة؟" (١٠ — ١٨). تتسع الشكوى هنا، فلماذا أدت الرسالة النبوية إلى خلق فجوة بينه وبين البيئة المحيطة به؟ فقد ابتعد النبي عن الحياة الأسرية والاجتماعية ليس لكرهه لها. إنما اضطر إلى التخلي عن كل هذا بسبب رسالته. ويحتمل أن تكون لدى إرميا رغبة داخلية قوية في الفرح واللعب في "محفل المازحين" (مجموعة من الناس الفرحين، وليس في ذلك أي معنى سلبي)، لكنه اضطر إلى التخلي عن الفرح وعن اللعب والجلوس وحيدًا، غاضبًا ومكروهًا من جميع أصدقائه وحتى من أبناء عائلته. لذلك يشتكي النبي إلى الرب. فإن كانت حياته كلها قد خصصت للرسالة وكلام الرب هو بهجته الوحيدة فلماذا لم يعُد الرب يساعده؟

وعن هذه الشكوى يحصل النبي على رد أكثر تشجيعًا من شكواه السابقة: "إن رجعت أرجعك فتقف أمامي (إن عدت إليَّ وتقبلت رسالتك بدون شكوى سأساعدك على العودة والوقوف أمامي)، وإذا أخرجت الثمين من المرذول فمثل فمي تكون" (١٥: ١٩). وهذه الإجابة تثبت أن الإحباط وخيبة الأمل قد زادت في نفس إرميا حتى حدث وهن وضعف في قوة نبوءته وفي تواصله مع الرب. وهذا نوع من تجديد التواصل وتجديد التكليف. لذلك يكرر الرب كلماته في رؤيا التكليف ويعد بمساندة النبي ثانية: "وأجعلك لهذا الشعب سور نحاس حصينًا، فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأني معك لأخلصك وأنقذك، يقول الرب. فأنقذك من يد الأشرار وأفديك من كف العتاة" (٢٠–٢١).

تعبِّر شكوى إرميا عن ضعف النبي مقارنة بالأنبياء الذين سبقوه: عاموس وهوشع وميخا. على أية حال، يجب أن نشير إلى حقيقة أنه حتى عصر إرميا لم يظهر الإنسان الذي في النبي في كلام النبوة. فشخصية الأنبياء متروعة من النبوة

لكن الوضع مختلف تمامًا في نبوءة إرميا حيث تبدو لنا انطباعات النبي الشخصية بدون أي علاقة بحدث شعبي قومي وكلامه كله فيه صراع مستمر بين النبي والنبوة. وهذا الصراع هو الشيء المميز وربما الأهم في كلام إرميا.

في سفر إرميا صلوات كثيرة، صلوات جماعية (٣: ٢٤-٢٥، ١٠: ١٩-٢٠، ٢٣-٢٥، ١٤: ٧-٩، ١٧-٢٢، ٣٣: ١١) ورثاء جماعي (٩: ١٦-١٨، ١٢: ٧-١٣) وكذلك صلوات فردية (١٥: ١٥-٢١، ١٧: ١٥-١٨، ١٨: ١٩-٢٣، ٢٠: ٧-١٣، ٣٢: ١٦-٢٥). وكان إرميا طبيعيًا في الصلاة، ويقول له الرب عدة مرات: "وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء، ولا صلاة، ولا تلح عليّ" (٧: ١٦، ١١: ١٤، ١٤: ١١). من هنا نلاحظ أن إرميا أكثر من الصلاة لأجل شعبه. ولقد وقف الباحثون على التقارب والتشابه بين صلوات إرميا والمزامير في سفر المزامير، خاصة في طبيعتها اللغوية وفي الصياغة. والفريد في صلاة النبي هو التعبير الأصلي عن تجربته الشخصية النبوية.

نبوءات المواساة

دمج إرميا في نبوءاته الأولى نبوءات مواساة في نبوءات التوبيخ: "ارجعوا أيها البنون العصاة، يقول الرب، لأني سُدت عليكم فآخذكم واحدًا من المدينة واثنين من العشيرة، وآتي بكم إلى صهيون، وأعطيكم رعاة حسب قلبي، فيرعونكم بالمعرفة والفهم. ويكون إذ تكثرون وتثمرون في الأرض في تلك الأيام، يقول الرب إنهم لا يقولون بعد: تابوت عهد الرب، ولا يخطر على بال، ولا يذكرونه ولا يتعهدونه ولا يصنع بعد. في ذلك الزمان يسمون أورشليم كرسي الرب، ويجتمع إليها كل الأمم، إلى اسم الرب، إلى أورشليم ولا يذهبون بعد وراء عناد قلبهم

الشرير. في تلك الأيام يذهب بيت يهوذا مع بيت إسرائيل، ويأتيان معًا من أرض الشمال إلى الأرض التي ملّكت آباءكم إياها" (٣: ١٤-١٨).

نجد في هذه النبوءة كل الأفكار الأساسية في رؤيا خلاص إرميا: البقية، عودة صهيون، وحدة يهوذا وإسرائيل، التوبة، القادة الصالحين الذين سيعلمون الشعب معرفة الرب، كثرة الشعب، إصلاح الشعب، أورشليم كمركز ديني عالمي، وأخيرًا فكرة أنه لن تكون هناك حاجة إلى التابوت (ولا الهيكل أيضًا)، فستصبح أورشليم كلها مقدسة.

الطابع القومي العالمي في رؤيا إرميا واضح جدًا، وليس في ذلك تجديد بعد إشعياء وميخا. لكن التجديد في كلام إرميا هو في التأكيد على العهد الجديد بين الرب وشعبه، العهد الذي سيكون محفورًا في القلوب وليس على الألواح الحجرية. وعلى الرغم من أن إرميا لا يلغي الديانة المؤسسية، والعبادة الدينية تمامًا إلا أنه يؤكد على الإيمان الداخلي وعلى فرائض القلوب: "وأعطيهم قلبًا ليعرفوني، أني أنا الرب فيكونوا لي شعبًا وأكون لهم إلها، لأنهم يرجعون إليّ بكل قلبهم" (٢٤: ٧)، "وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم ... أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم" (٣١: ٣١-٣٣)، "وأعطيهم قلبًا واحدًا وطريقًا واحدًا ليخافوني، كل الأيام لخيرهم وخير أولادهم بعدهم. وأقطع لهم عهدًا أبديًا لا أرجع عنهم لأحسن إليهم، وأجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحيدون عني وأفرح بهم لأحسن إليهم، وأغرسهم في هذه الأرض بالأمانة بكل قلبي وبكل نفسي" (٣٢: ٣٩-٤١).

لقد نودي شعب إسرائيل إلى التوبة لكن مصدر الخلاص والمبادرة في الرب وحده؛ فهو الذي سيمنح الشعب قلبًا جديدًا، وسيجعل الشريعة ومخافة الرب في

قلوبه. لذلك سيكون هذا العهد أبدي لارتباطه بإرادة الرب وحده. والتوبة وحدها لا توجب الخلاص. فلو كان الأمر كذلك، لاستطاع الإنسان أن يفرض بعمله إرادته على الرب. لكن الخلاص غير مرتبط بالتوبة لكن بالرب الذي يستطيع تحويل قلب الإنسان، وإصلاحه وتبديله بقلب أفضل كثيرًا.

وأجمل نبوءات المواساة موجودة في الإصحاح ٣١ الذي يصوِّر فيه إرميا في مشاهد رقيقة وفي حب شديد بناء الشعب والأرض، وفرحة الخلاص، ومحبة الرب لإسرائيل بشكل عام وأفرايم بشكل خاص، ومواساة الأم راحيل، وينتهي الإصحاح بضمان أبدية العهد، وأبدية الأمة وأبدية أورشليم (٣٤-٣٩).

وحتى رفض المثال "الآباء أكلوا حصرمًا وأسنان الأبناء ضرست"، يخص رؤيا الخلاص، لأن الغرض منه هو أن يخرج من قلب هذا الجيل فكرة اليأس وعدم وجود أمل في خلاصهم بسبب آثام آبائهم.

ولا يكتفي إرميا بكلمات المواساة، لكنه يجسد عقيدته (كنبي خراب) في الخلاص في أيام حصار أورشليم، بشرائه "حقل حنمئيل" (الإصحاح ٣٢). كم هي مشجعة ومواسية نبوءات إرميا خاصة في أيام الحصار "المتاريس قد أتوا إلى المدينة ليأخذوها، وقد دفعت المدينة ليد الكلدانيين الذين يحاربونها" وفي كل ركن يتحكم فيها "السيف والجوع والوبا" (٣٢: ٢٤).

ونبي الغضب والحزن تحديدًا هو الذي يؤكد كثيرًا على فرحة الخلاص:

تتزينين بعد بدفوفك   وتخرجين في رقص اللاعبين (٣١: ٤).

رنِّموا ليعقوب فرحًا   واهتفوا برأس الشعوب (٣١: ٧).

وأحوِّل نوحهم إلى طرب   وأعزيهم وأفرحهم من حزنهم (٣١: ١٣).

"سيسمع بعد في هذا الموضع الذي تقولون إنه خرب بلا إنسان وبلا حيوان، في مدن يهوذا وفي شوراع أورشليم الخربة بلا إنسان ولا ساكن ولا بهيمة صوت الطرب وصوت الفرح صوت العريس وصوت العروس" (٣٣: ١٠-١١).

النبوءات على الشعوب

إرميا "نبي للأمم" لسببين: ١- أنه تنبأ على الأمم والممالك وبشَّر بمحاربة الوثنية في بلاد الأمم. ٢- كلامه عن إسرائيل به رؤية إنسانية عامة؛ فتاريخ إسرائيل هو جزء من منظومة كونية واحدة يديرها الرب، ومن لا يرى وما لا يفهم تلك المنظومة فإنه لا يفهم أيضًا ما يحدث في إسرائيل على ما يبدو. فعبودية بابل لإسرائيل هي جزء من مخطط إلهي شامل.

ونبوءات إرميا فيها مقارنات بين إسرائيل والأمم؛ فامتحان إسرائيل يكون وفقًا للمعايير الأخلاقية العامة: "فاعبروا جزائر كتيم، وانظروا وأرسلوا إلى قيدار وانتبهوا جيدًا، وانظروا هل صار مثل هذا؟ "هل بدلت أمة آلهة ..." (٢: ١٠-١١). فهو يقارن غرلة قلب إسرائيل بغرلة لحم الأمم ويتحدث في إحدى الفقرات عن فساد الأمم (٩: ٢٥)، ومن كلامه هذا يتم توجيه دعوة لهجر عبادة الأوثان وتطهير القلوب، وكذلك إلى الأمم. ويتحدث في سخرية عن عبادة الأوثان (١٠: ٢-٥)، ويحذر الشعب بعدم تعلم سُبُل الأمم، ويأمل أن تتعلم الأمم سُبُل إسرائيل (١٢: ١٦). ويطلب النبي من المسبيين المقيمين في داخل الأمم مجادلة عبدة الأوثان وأن يبرهنوا لهم عدم قيمة الأوثان في مقابل قوة وحكمة وأبدية الخالق (١٠: ١١-١٦، ١٤: ٢٢).

وفي نبوءة "في بيت الفخاري" لا يكون الكلام عن إسرائيل فقط إنما على كل الأمم والممالك (١٨: ٧)، التي هي كالطين في يد صانع الإنسان. وكذلك في

نبوءة "كأس الغضب" يسقي النبي في رؤياه جميع الأمم (٢٥: ١٥) وعندما تأتي وفود الأمم المجاورة إلى أورشليم يرسل إليهم "رُبُطًا وأنيارًا" وينقل من خلالهم نبوءاته إلى ملوكهم (٢٧: ٢-٤). أقام إرميا في عناثوث أو في أورشليم وتنبأ على الأمم بواسطة الرسائل والرسل، ومثل هذه الظاهرة غير موجودة عند أي نبي آخر.

حتى في النبوءات عن آخر الأيام لم تغب الأمم؛ فمستقبل الأمم مرتبط بعاملين اثنين: علاقتها بالرب، وعلاقتها بإسرائيل. فغضب الرب سيصب على الأمم "التي لم تعرفك وعلى العشائر التي لم تدع باسمك لأنهم أكلوا يعقوب، أكلوه وأفنوه وأخربوا مسكنه" (١٠: ٢٥)، ورحمة الرب موعودة لهم إذا تعلموا سبل إسرائيل (١٢: ١٧). وسيأتي اليوم الذي ستجيء فيه الأمم من أطراف الأرض ويقولون للرب "إنما ورث آباؤنا كذبًا وأباطيل وما لا منفعة فيه" (١٦: ١٩، وكذلك ٣: ١٧).

إن معرفة مجريات الأحداث على الساحة الدولية ليس معناه أن على إسرائيل الاندماج في تلك السياسة. وفي هذا الاتجاه لم يطرأ أي تغيير على موقف إرميا في مقابل هوشع وإشعياء. فهو يؤكد أيضًا أن إسرائيل لا يجب أن تعتمد على الشعوب الأجنبية والمشاركة في السياسة الدولية: "ما لك وطريق مصر لشرب مياه شيحور؟ وما لك وطريق آشور لشرب مياه النهر؟" (٢: ١٨)، "من مصر أيضًا تخزين كما خزيت آشور، من هنا أيضًا تخرجين ويداك على رأسك، لأن الرب قد رفض ثقاتك، فلا تنجحين فيها" (٢: ٣٦).

لم يكن الخضوع لبابل طلبًا موجهًا لإسرائيل فقط إنما لجميع الشعوب؛ فقيادة التاريخ وقيادة العالم مرتبطان ببعضهما البعض وكلاهما نتاج عمل الرب خالق العالم وخالق الإنسان: "إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه

الأرض، بقوتي العظيمة وبذراعي الممدودة، وأعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذناصر ملك بابل عبدي" (٢٧: ٥-٦). لكنه ليس سلطانًا أبديًا "ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك بابل، وتلك الأمة، يقول الرب على إثمهم وأرض الكلدانيين، وأجعلها خربًا أبدية" (٢٥: ١٢).

وباستثناء النبوءات عن غزو السكوثيين في الإصحاحات ٤: ١٣، و٢٢ -٢٣، وعن مصر في الإصحاح ٤٣، تتركز جميع النبوءات عن الأمم في مجموعة واحدة في نهاية السفر، الإصحاحات ٤٦-٥١.

- الإصحاح ٤٦: نبوءة عن مصر "في السنة الرابعة ليهوياقيم" أي في سنة ٦٠٦-٦٠٥ ق.م قريبًا من حرب كركميش. يصف النبي هزيمة المصريين، لكنه يشفق عليهم ويواسيهم قائلًا: "ثم بعد ذلك تسكن كالأيام القديمة" (٢٦).

- الإصحاح ٤٧: عن الفلسطينيين. الإصحاح ٤٨: عن المؤابيين. ويعبر هنا بقوة عن الرغبة الشديدة في الانتقام القومي: "ملعون من يعمل عمل الرب برخاء، وملعون من يمنع سيفه من الدم" (١٠). مع ذلك يقول النبي في نهاية الإصحاح: "ولكنني أَرُدُّ سبي مؤاب في آخر الأيام. يقول الرب" (٤٧). وكذلك عن عمون: "ثم بعد ذلك أرد سبي بني عمون. يقول الرب" (٤٩: ٦)، وعن عيلام (٤٩: ٣٩).

- يحتوي الإصحاح ٤٩ على نبوءات عن عمون (١-٦)، وأدوم (٧-٢٢)، ودمشق (٢٣-٢٧)، وقيدار (٢٨-٣٣)، وعيلام (٣٤-٣٩)، أما النبوءة عن بابل فتحتل إصحاحين كاملين (٥٠-٥١). فلماذا ستخرب بابل؟ لأنها أخطأت في الرب وفي إسرائيل (٥٠: ١٤-١٥، ١٧، ٥١: ٢٤). وسيكون خراب بابل

مصدر بهجة لإسرائيل، وبداية عودة صهيون وخلاص إسرائيل (٥٠: ٤-٨، ١٩-٢٠، ٣٤، ٥١: ٥-٦، ١٠).

فقرات كثيرة مشابهة موجودة في النبوءات عن مؤاب عند إشعياء (١٥-١٦)، وإرميا (٤٨)، وكذلك في النبوءات عن أدوم عند إرميا وعوبديا. ويبدو أنه كانت توجد نبوءات قديمة شائعة بين الشعب بما فيها لعنات عن أعداء إسرائيل واستخدمها الأنبياء بصيغتها المعروفة. ولبعض هذه النبوءات خلفية تاريخية واضحة (مصر، فلسطين، بابل). وهناك نبوءات ليس لها مثل هذه الخلفية (مؤاب، عمون، أدوم).

مشاهد وأعمال رمزية

لا يوجد عند أي نبي آخر أي أعمال نبوية رمزية كما عند إرميا؛ فنشاط إرميا النبوي لم يقتصر على الخطابات. فكان له نشاط عملي ديناميكي من أجل إحياء وتجسيد الأفكار النبوية. ومن هذه المشاهد والأعمال:

أ. مشاهد رمزية

١. عصا اللوز (١: ١٢).

٢. القدر المنفوخة (١: ١٤).

٣. سلتا التين (٢٤).

وشرحنا من قبل المعنى الرمزي لها. ومشاهد إرميا ليست وليدة خياله، لا أساس لها على أرض الواقع؛ إنما هي أشياء من داخل البيئة الطبيعية للنبي نفسه.

ب. الأعمال الرمزية

١. مثال مَنطقَة الكتان (الإصحاح ١٣): وللمنطقة معنى مزدوج: القوة والالتصاق؛ فالرب ألصق شعبه إليه مثل الإنسان الذي يربط منطقة على خصره. والاتصاق بالرب الغرض منه منح القوة والبطولة، والاسم، والمجد والتفاخر؛ لكن إسرائيل الخائنة تتحول إلى منطقة فاسدة عفنة، لا فائدة منها. وهذا التناقض بين المنطقة الجيدة والمنطقة السيئة يرمز إليه النبي في سلسلة من الأعمال التي تستمر لأيام طويلة؛ حيث بقوم بإخفاء المنطقة في شق صخرة بجوار الفرات - "عين فارة" القريبة من عناثوث — وهو نبع موجود بين الصخور وليس نهر الفرات العظيم. فليس من المعقول أنه من أجل عرض المنطقة أمام الشعب أن يذهب إرميا مرتين إلى نهر الفرات (٤، ٦)، وإن كنَّا لا نعلم بقيام إرميا بالذهاب إلى بابل. وهذا العمل أيضًا يصاحبه توبيخ لأهل يهوذا وأورشليم. ومن المعلوم أنه قد حدث بالقرب من أورشليم.

ويلفت هذا العمل الغريب الذي قام به النبي الانتباه كثيرًا؛ حيث طاف بالتأكيد مع المنطقة لعدة أيام وأراها للناس. ثم تحولت هذه الكلمات إلى عرض رائع؛ فهو يمسك المنطقة بيد مرتفعة ويرفع صوته قائلًا: "هكذا أُفسِدُ كبرياء يهوذا، وكبرياء أورشليم العظيمة" (٩) فيلتف الشعب حوله من منطلق الفضول فيفاجيء النبي سامعيه بهذا العمل الرمزي.

٢. لا يتخذ إرميا زوجة ولا ينجب أبناء: فابتعاده عن الحياة العائلية هو تقصير رمزي يترك انطباعًا لا يقل عن العمل الرمزي. فالانسحاب من الحياة العائلية كان بلا شك مشهد مألوف في إسرائيل، ولقد سُئِل النبي بشكل يومي عن سبب هذا التقصير.

٣. الذهاب إلى بيت الفخاري (١٨): فشعب إسرائيل مثل الطين في يد الخالق، أراد الرب أن يصنع منه آنية بركة من أجل اسمه ومن أجل البشرية، لكن إذا فسدت الآنية فيحقَّ عليها التدمير. وفي ذلك التشبيه معنى آخر: ارتباط الشعب الكامل بالخالق، مثل ارتباط الطين التام بالفخاري.

٤. تحطيم وعاء الفخاري في وادي بن هنُّوم أمام شيوخ الشعب: ولقد جاء هذا العمل ليجسِّد تحذير الرب: "هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة" (١٩: ١١). والانطباع الذي يتركه هذا العمل أشد تأثيرًا من النبوءة العادية، ونتيجة له يقبض فشحور على إرميا ويضربه ويضعه في السجن.

٥. كأس السخط: يسقي النبي في كأس خمر السخط (خمر مسمم) جميع الأمم التي أرسله الرب إليها (٢٥: ١٥-١٨). ولا يعمل النبي هنا بشكل حقيقي لكن في الرؤيا. فهو يمنح معنى نبوءي رمزي لرؤيا التكليف.

٦. النبي يضع على عنقه رُبُطًا وأنيارا: وهو رمز لفكرة أن كل الشعوب سوف تضع رقابها في نير ملك بابل (٢٧)، ويرسل النبي الأنيار إلى رُسُل الشعوب الذين تجمعوا في أورشليم. فيحطم حننيا بن عزور في مشهد درامي نير إرميا الذي كان مصنوعًا من خشب، فيستبدله النبي بنير حديدي (٢٨: ١٣)، "قد جعلت نيرًا من حديد على عنق كل هؤلاء الشعوب ليخدموا نبوخذناصر" (١٤).

٧. شراء الحقل من حنمئيل في أيام الحصار وقبل الخراب: وهو يرمز إلى إيمان النبي بعودة صهيون، وبالخلاص وبإحياء الأرض، ولم تكن أي نبوءة لتجسد هذا الإيمان كما في هذا العمل الرمزي (الإصحاح ٣٢).

٨. يحضر إرميا بيت الركابيين إلى أحد المخادع في بيت الرب ويطلب منهم شرب الخمر (الإصحاح ٣٥)، فيرفض بنو الركابيين لأن أباهم أمرهم بعدم شرب

الخمر. هم يمثلون نموذجًا إيجابيًا لطاعة الآباء في تناقض واضح مع شعب إسرائيل الذي لا يصغي إلى كلام الأنبياء.

٩. في مصر، في تحفنحيس، يأمر الرب إرميا بأن يأخذ حجارة كبيرة ويطمرها في الملاط الذي عند بيت فرعون. ومن المنتظر أن تصبح تلك الحجارة أساس عرش نبوخذ نصر الذي سيأتي ويضرب أرض مصر (٤٣: ٩-١٠).

١٠. الكتاب عن سقوط بابل والذي أعطي إلى رؤسائها، رئيس المحلة عند صدقيا، ليحمله إلى بابل ويقرأه بجوار الفرات ثم يربطه بعدها في حجر ويلقيه في النهر. ويُفسَّر المعنى الرمزي لهذا العمل: "هكذا تغرق بابل ولا تقوم" (٥١: ٥٩-٦٤).

ملحوظة فيما يخص بيت الركابيين: أبو الركابيين هو يهوناداب بن ركاب الذي ذُكر في الملوك الثاني ١٠؛ حيث يحكى أنه شارك في عملية القضاء على أنبياء البعل عند ياهو. ولقد عَرَف ياهو يهوناداب كواحد من الغيورين على الرب. وكنا قد عرفنا عن واقع النذيرين في إسرائيل من التوراة (العدد ٦)، ومن الأنبياء الأوائل (قصة شمشون)، ومن الأنبياء الآواخر: "وأقمت من بنيكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين" (عاموس ٢: ١١-١٢). غير أن بيت الركابيين حرَّم على نفسه أشياء أخرى لم تكن شائعة عند نذيرين آخرين: تحريم بناء البيوت، وتحريم العمل في الأرض. فقد ظنُّوا بالتأكيد أن فقط حياة الرعاة الذين يسكنون الخيام هي التي تمنح الطهارة والقداسة الحقيقية. ولا شك في أن إرميا كان قريبًا جدًا في روحه من بيت الركابيين، وكان له معهم صلة ود وصداقة.

إرميا وهوشع

تأثير هوشع النبي، من أفرايم، على إرميا، من أرض بنيامين، ظاهرٌ للعين، سواء في الأسلوب أو في المضمون، وتحديدًا في النقاط التالية:

١. تشبيه علاقة الرب بإسرائيل بعلاقة الرجل والمرأة. وحب الرب غير العقلاني لإسرائيل.

٢. تشبيه خيانة الشعب بالزنا.

٣. المحبة الخاصة لأفرايم.

٤. طلب الرحمة، وفضيلة الرحمة في مفهوم الألوهية.

٥. المطالبة بمعرفة الرب.

٦. التقدير الإيجابي لبداية الأمة وجيل البرية.

٧. المطالبة بالتوبة.

٨. فكرة أن خلاص إسرائيل سيتحقق بواسطة الرب نفسه، بفضل محبته ورحمته.

٩. الأساس الشعري والشخصي في النبوة.

١٠. غياب الطابع الاجتماعي للتوبيخ عندهما؛ فهما ينتقدان الشعب كله. كما أن قائمة المعاصي متشابهة.

١١. كلاهما على خلاف مع الكهنة.

١٢. شئون الدولة تشغل عندهما مكانة كبيرة، والاثنان يعارضان التوجه لآشور ومصر.

١٣. وجود تشابه كبير في شكل أسلوب الاثنين: أسلوب حماسي مع انتقالات فجائية، الكثير من التكرار والتلاعب بالألفاظ، والإكثار من التشبيهات، لكن قليل من الصور الكبيرة الكاملة.

إرميا وإشعياء

أ. نقاط التشابه

١. كل منهما تنبأ في الفترات التي وقعت فيها أحداث كبيرة حاسمة في التاريخ العالمي.

٢. قضايا الدولة تشغل مكانة أساسية في نبوءاتهما، ولكليهما رؤية واحدة حول قيادة الرب للتاريخ، وتقدير واحد حول صعود آشور أو بابل. ويعارض الاثنان السياسة المصرية التي اتبعتها يهوذا.

٣. تنبأ كل منهما لفترة طويلة تفوق الأربعين سنة في عصر أربعة –خمسة ملوك، ووبَّخا الملوك في عصرهما.

ب. نقاط الاختلاف

١. كان إشعياء واحدًا من نبلاء أورشليم، وربما من العائلة الملكية. أما إرميا فكان قرويًا، بدأ التردد على بلاط الملك في نهاية حياته فقط.

٢. يغيب عن رؤيا تكليف إشعياء عنصران مهمان في تكليف إرميا: نبي منذ ولادته، ونبي للأمم.

٣. يغيب عند إشعياء الصراع بين النبي والنبوة، الذي هو أحد الخطوط الرئيسية في طابع نبوة إرميا. ومن ناحية قوة النبوة فقد كان هناك قدر من التدهور عند إرميا.

٤. يغيب عن نبوءة إشعياء الأساس الشعري الشخصي الموجود في نبوءة إرميا.

٥. الاختلافات في الأسلوب؛ فأسلوب إشعياء أكثر رقيًا، وبلاغة وصوره أكثر تفصيلًا وكمالًا.

٦. تأثر إشعياء بعاموس، أما إرميا فتأثر بهوشع.

٧. زوجة إشعياء وأبناؤه (وكذلك هوشع) رموز في أفكاره. أما إرميا ففي عدم اتخاذه زوجة وأبناء رمزية.

٨. لا توجد عند إشعياء الحرب الضروس التي بين إرميا وأنبياء الكذب.

٩. لا يوجد عند إرميا نبوءات عن يوم الرب الموجودة في إشعياء وعاموس.

١٠. تنبأ إشعياء بنهاية الوثنية؛ أما إرميا فحارب الوثنية، بل ونقل الحرب إلى أرض الأمم الأخرى.

١١. تنبأ إشعياء بنجاة أورشليم وجبل الرب؛ أما إرميا فتنبأ لها بالخراب. والطابع الأساسي لإشعياء هو أنه نبي الخلاص؛ أما إرميا فهو نبي البلاء.

١٢. توبيخ إرميا ليس اجتماعيًا مثل إشعياء.

١٣. وجود اختلافات في مفهوم الألوهية وفي علاقة النبي مع الرب. وإشعياء ليس له أي شكاوى للرب.

١٤. طالب إرميا بالاستسلام في أيام حصار أورشليم؛ أما إشعياء فقد شجع المدافعين عن أورشليم ضد سنحريب.

١٥. لا يوجد في نبوءات إرميا رؤيا إشعياء للسلام الدولي.

التجديدات الأساسية في نبوءات إرميا

١. النظرة الأعمق لمفهوم الألوهية وأبعاده.

٢. سلب القيمة المطلقة من هيكل الرب ومن تابوت العهد.

٣. الأساس الشعري والشخصي في النبوءة، والصراع بين النبي والنبوءة، والتجارب الشخصية.

٤. شكاوى وصلوات شخصية وتحديدًا الشكوى من فلاح الأشرار.

٥. رفض مثال "الآباء أكلوا حصرمًا وأسنان الأبناء ضرَّست".

٦. المحاربة الصارمة لأنبياء الكذب.

٧. التقدير الإيجابي لجيل البرية.

٨. فكرة العهد الجديد المحفور في القلب، والتأكيد على فرائض القلوب.

٩. القيمة الإيجابية للسبي والتعامل الإيجابي مع المسبيين.

١٠. بداية محاربة الأوثان بأبعاد عالمية.

١١. إرميا عبارة عن جسر من النبوءة الكلامية إلى النبوءة المكتوبة في كتاب. فتظهر عنده لأول مرة ظاهرة كتابة النبوءات في سفر بشكل ممنهج على يد تلاميذه. إرميا لا يتحدث دائمًا بنفسه، فيرسل أحيانًا تلميذه ليتلو كلامه، كما يرسل إرميا بكتاب إلى سبي يهوياكين عن سقوط بابل. وفي ذلك بداية واضحة لعملية الانتقال من نبوءات التوبيخ العلنية عند البوابة إلى كتابة النبوءات وتوزيعها في شكل أسفار.

١٢. يعتبر البعض إرميا أبو الكنيس اليهودي.

أسلوب إرميا، التكرار والمجاز

إن أسلوب إرميا غير مركَّز، بل أسلوب صارم ورفيع، كما هو عند إشعياء. وفي المقابل فتوجد فيه رقة أكثر ومشاعر أعمق وأكثر دفئًا. فنبوءاته النثرية متأثرة بسفر التثنية تحديدًا، ويميزها الخطاب السلس والشامل، ونبوءاته الشعرية متأثرة بهوشع والمزامير وتتميز بأنه يفضي فيها بكل أحاسيسه، وبحماسه الشديد. كما نجد في أسلوب إرميا الشعري كل الوسائل الفنية لأشعار العهد القديم، والسمتان البارزتان في هذا الأسلوب هما: كثرة التكرار، والمجاز. فأسفار العهد القديم ليس فيها الكثير من الكلمات والتعبيرات والفقرات المكررة.

ومن نماذج تكرار الكلمات والتعبيرات: "أحشائي، أحشائي!" (٤: ١٩)، "سلام، سلام، ولا سلام" (٦: ١٤)، "يا أرض، يا أرض، يا أرض" (٢٢: ٢٩). "هيكل الرب، هيكل الرب، هيكل الرب" (٧: ٤)، "كسر على كسر" (٤: ٢٠)، وتتكرر الكلمة نفسها في ٨: ١ خمس مرات. وكلمتا "أكسر، وأسحق" تتكرر عشر مرات في ٥١: ٢٠–٢٣، وكلمتا "نظرت ... وإذا هي " تتكرر ٤ مرات في ٤: ٢٣–٢٦، وكلمة "أمة" تتكرر ٤ مرات في ٥: ١٥، والجذر "أكل" ٤ مرات في ٥: ١٧. وتتكرر كلمة "وحي الرب" ٨ مرات في ٢٣: ٣٣–٤٠.

وهناك تعبيرات يحب إرميا استخدامها:

- "عناد القلب": ٣: ١٧، ٩: ١٣، ١٦: ١٢، ١٨: ١٢، ٧: ٢٤، ١١: ٨، ١٣: ١٠، ٢٣: ١٧.
- "خوف من كل جهة": ٦: ٢٥، ٢٠: ٣، ١٠، ٤٦: ٥، ٤٩: ٢٩.
- "أنت عرفت": ١٥: ١٥، ١٧: ١٦، ١٨: ٢٣، ١٢: ٣.

- "كسر على كسر، كسر كبير": ٤: ٢٠، ١٤: ١٧، ٤: ٦، ٦: ١، ٤٨: ٣، ٥٠: ٢٢، ٥١: ٥٤.
- "كلمتكم مبكرًا، مبكرًا ومرسلًا": ٧: ١٣، ٢٥، ٢٥: ٤، ٢٩: ١٩، ٢٦: ٥، ٣٥: ١٤، ١٥.
- "السيف الصارم": ٤٦: ١٦، ٥٠: ١٦، ٢٥: ٣٨.
- "العاصية إسرائيل والخائنة يهوذا": ٣: ٦، ٨، ١٠، ١١، ١٢.

كذلك: "رجال يهوذا وسكان أورشليم" ١٥ مرة. و"سنة عقابهم" ٨ مرات، و"مأوى بنات آوى" ٤ مرات، "الأعداء وطالبي النفس" ٦ مرات، و"مدن يهوذا وشوراع أورشليم" ٧ مرات، وغيرها.

وهناك فقرات كاملة تتكرر عدة مرات، مثل: ٦: ١٣-١٤، تتكرر في ٨: ١٠-١١، و٧: ٣٤ تتكرر في ١٦: ٩، و٧: ٣٣ تتكرر في ١٦: ٤، و١٠: ١٢-١٦ تتكرر في ٥١: ١٧-١٩. وعبارة: "القلع والهدم" تتكرر في: ١، ١٨، ٣١، ٤٢، ٤٥. وعبارة "وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ..." ٧: ١٦، ١١: ١٤، ١٤: ١١ وغيرها.

كما يحب إرميا أسلوب السؤال كثيرًا؛ ففي الإصحاح الثاني وحده يوجد حوالي ٢٠ سؤالًا بعضهم بلاغي فقط مثل: "هل تنسى عذراء زينتها، أو عروس مناطقها؟ (٢: ٣٢)، "هل يغير الكوشي جلده أو النمر رقطه؟" (١٣: ٢٣)، "أليس بلسان في جلعاد أم ليس هناك طبيب؟" (٨: ٢٢)، "هل يجازى عن خير شر؟" (١٨: ٢٠). لكن الكثير من الأسئلة حقيقية:

- "أعبد إسرائيل أم مولود البيت هو؟ لماذا صار غنيمة؟" (٢: ١٤).

- "ماذا وجد فيَّ أباؤكم من غور حتى ابتعدوا عني؟" (٢: ٥).
- "حتى متى أرى الراية، وأسمع صوت البوق؟" (٤: ٢١).
- "لماذا تنجح طريق الأشرار، اطمأن كل الغادرين غدرًا؟" (١٢: ١).
- "هل صار هذا البيت مغارة لصوص؟" (٧: ١١)
- "ما للتبن مع الحنطة؟" (٢٣: ٢٨)

الأسلوب الافتتاحي

نجد في سفر إرميا أيضًا نبوءات تبدأ بفقرة شعرية احتفالية مثل: ١: ٥، ٢: ٢، ٦: ١٦، ٢٣: ٩، ٣١: ١ وغيرها. لكن معظم النبوءات تبدأ بلغة الأمر للقيام بعمل ما؛ وهذا الأسلوب أيضا يميز إرميا.

هناك أوامر موجهة إلى النبي نفسه: "قف في باب بيت الرب ونادِ" (٧: ١)، "قم انطلق إلى الفرات" (١٣: ٦)، "قم انزل" (١٨: ٢)، "اذهب وقف" (١٧: ١٩)، "اذهب واشتر" (١٩: ١)، "اذهب وكلم" (٣٤: ٢)، "اذهب إلى بيت الركابيين" (٣٥: ٢)، "اصنع لنفسك رُبُطًا" (٢٧: ٣)، "اكتب كل الكلام الذي تكلمت به إليك في سفر" (٣٠: ٢)، "انزل إلى بيت ملك يهوذا" (٢٢: ١) وغيرها.

وهناك أوامر موجهة إلى كل الشعب: "قفوا على الطرق وانظروا، واسألوا عن السبل القديمة" (٦: ١٦)، "تأملوا وادعوا النادبات" (٩: ١٦)، "اسمعوا كلام هذا العهد" (١١: ٢)، "ابنوا بيوتًا واسكنوا" (٢٩: ٥)، وغيرها.

كما تشير أيضًا ظاهرة الإكثار من الأعمال الرمزية إلى الطابع العملي النشط والديناميكي في نبوءات إرميا؛ فهو عادة ما يرفق العمل بالكلام، والعمل بالرؤيا. وترتبط معظم رؤاه بالأفعال.

البكاء والرثاء، النداء والصراخ

لا يوجد في أسفار العهد القديم كلها كل هذ الكم من البكاء والرثاء الموجود في سفر إرميا. يقول البروفسور سيجل إن إرميا هو الراثي الأعلى في شعب إسرائيل، وليس هباء أن نسبت له المراثي في سفر "مراثي إرميا". فقد بكى إرميا ورثا مصيره ومصير شعبه، وانفجرت الدموع من قلبه وانسكبت من عيونه بشكل مستمر:

- "لتذرف عيناي دموعًا ليلًا ونهارًا، ولا تكفًّا، لأن عذراء بنت شعبي سحقت" (١٤: ١٧).

- "يا ليت رأسي ماء، وعيني ينبوع دموع فأبكي نهارًا وليلًا قتلى بنت شعبي" (٨: ٢٣).

- "فإن نفسي تبكي في أماكن مستترة من أجل الكبرياء، وتبكي عيني بكاء وتذرف الدموع (١٣: ١٧).

- "يا ابنة شعبي، تنطقي بمسح وتمرغي في الرماد، نوح وحيد اصنعي لنفسك مناحة مُرَّة" (٦: ٢٦).

- "ابنة صهيون تزفر، تبسط يديها" (٤: ٣١).

- "صوت سُمِع في الرامة، نوح بكاء مر، راحيل تبكي على أولادها" (٣١: ١٥).

كذلك بهجة الخلاص يصاحبها بكاء (بكاء الفرح):

- "بالبكاء يأتون، وبالتضرعات أقودهم" (٣١: ٩)، "يسيرون سيرًا ويبكون" (٥٠: ٤).

وتكثر كذلك النداءات الجيَّاشة في كلام النبي:

- "فقلت، آه يا سيد الرب!" (١: ٦، ٤: ١٠، ١٤: ١٣).

- "أبهتي أيتها السماء من هذا!" (٢: ١٢)، "صار في الأرض دهش وقشعريرة" (٥: ٣٠).

- "ياليت رأسي ماء!" (٨: ٢٣)، "يا ليت لي في البرية" (٩: ١).

- "ويل لمن يبني بيته بغير عدل" (٢٢: ١٣)، "ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي" (٢٣: ١).

- "ويل لي، لأن نفسي قد أغمي عليها بسبب القاتلين" (٤: ٣١).

- "ويل لي من أجل سحقي" (١٠: ١٩).

- "ويل لي، يا أمي، لأنك ولدتني!" (١٥: ١٠).

- "ويل لنا لأننا قد أخربنا" (٤: ١٣)، "ويل لنا لأن النهار مال" (٦: ٤).

ويجب أن نذكر أيضًا أن نبوءات إرميا مليئة كذلك بالأصوات والنداءات والصراخ. وليس هو وحده الذي يبكي ويصرخ ويرثي، لكنه يسمع أصواتًا. وتتكرر كلمة صوت عنده حوالي سبعين مرة! منها سبع مرات في الإصحاح الرابع فقط. ويكفي أن نعرض لبعض النماذج: "سمع صوت على الهضاب" (٣: ٢١)، "سمعت صوت البوق" (٤: ١٩)، "صوت ابنة صهيون" (٤: ٣١). "صوت صراخ

الرعاة" ٢٥: ٣٦)، "صوت ارتعاد سمعنا" (٣٠: ٥)، "صوت سمع في الرامة" (٣١: ١٥).

لقد سمع إرميا بالفعل الكثير من صوت البكاء والارتعاد، وصوت البوق (ما يرمز إلى الحرب)، لكن آذانه الداخلية سمعت أيضًا "صوت فرح وصوت بهجة، وصوت عريس وصوت عروس" وتتكرر هذه الفقرة في السفر أربع مرات: ٧: ٣٤، ١٦: ٩، ٢٥: ١٠، ٣٣: ١١.

طباق وتضاد

هناك طريقة خاصة شائعة في أسلوب إرميا للتضاد أو الطباق في شكل سؤال وإجابة، على سبيل المثال: "هل يغير الكوشي جلده أو النمر رقطه؟" فالسؤال بليغ، والإجابة واضحة: لن يغير! ثم يأتي الطباق، فكما لا يستطيع الكوشي أن يغير جلده، "أنتم أيضًا تقدرون أن تصنعوا خيرًا أيها المتعلمون الشر" (١٣: ٢٣).

وكذلك: "هل تنسى عذراء زينتها، أو عروس مناطقها؟" والرد بالطبع، لا تنسى! لكن "أمَّا شعبي فقد نسي أيامًا بلا عدد" (٢: ٣٢). أو: "هل بدَّلت أمة آلهة، وهي ليست آلهة؟ – أمَّا شعبي فقد بدل مجده بما لا ينفع" (٢: ١١). الطباق بهذه الطريقة يظهر كثيرًا معصية إسرائيل؛ فخيانتها حدث نادر غير طبيعي، يخرج عن المألوف، وغير مفهوم. وكذلك: "هل يُجازى عن خير بشر؟ (كلا!) لكنهم "حفروا حفرة لنفسي" (١٨: ٢٠)؛ "هل يخلو صخر حقلي من ثلج لبنان؟ – لأن شعبي قد نسيني، بخروا للباطل" (١٨: ١٤).

وهناك أيضًا الكثير من التضاد بصورة مبسطة: "لأنهم حولوا نحوي القفا لا الوجه" (٢: ٢٧)، "هم بنون جاهلون، وهم غير فاهمين" (٤: ٢٢)، "وأعطوا القفا

لا الوجه" (٧: ٢٤)، "للشر لا للخير" (٢١: ١٠)، "لم أرسل الأنبياء بل هم جروا، لم أتكلم معهم بل هم تنبأوا" (٢٣: ٢١)، وغيرها.

تحصل المقارنة على قوة خاصة عندما يستخدم النبي الظواهر الطبيعية أو قوانين الطبيعة الأبدية: "إن كانت السماوات تقاس من فوق وتفحص من أساسات الأرض من أسفل، فإني أنا أيضًا أرفض كل نسل إسرائيل" (٣١: ٣٧). "إن نقضتم عهدي مع النهار، وعهدي مع الليل حتى لا يكون نهار ولا ليل في وقتهما. فإن عهدي أيضًا مع داود عبدي ينقض" (٣٣: ٢٠).

إن حب الرب لإسرائيل وعهده معها ومع بيت داود أبدي ومتين مثل قوانين الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم (٣١: ٣٥-٣٦).

صور وتشبيهات

لا يوجد في أسلوب إرميا كما ذكرنا من قبل صور عظيمة ومكتملة كما هو الحال عند إشعياء (مثال الكرمة، على سبيل المثال). فإرميا لا يمتلك النظرة الهادئة والهدوء النفسي المطلوب من أجل رسم صورة شاملة ومكتملة، ويستعين في المقابل بعشرات التشبيهات المأخوذة من الطبيعة ومن بيئته المحيطة. فقد أكثر في نبوءاته الأولى من استخدام التشبيهات القروية الزراعية، ثم أثرى أسلوبه بتشبيهات من المدينة (بيت الفخاري، آنية الفخار، منفاخ صهر المعادن، وغيرها).

وفي كتابه "إضاءة جديدة على سفر إرميا" يضعنا نوجاه هارؤبيني أمام التأثير الكبير للطبيعة في عناثوث على أسلوب إرميا. فلا يوجد عند أي نبي مكان تشغل فيه المياه والأمطار والجفاف مكانًا كبيرًا كما هو الحال عند إرميا. فصور الصحراء الكثيرة وحياة القطعان والرعاة تبرهن على أن إرميا قد عمل في رعي الأغنام في

البرية، فعناثوث تقع على حدود الصحراء. كما عرف جيدًا الحيوانات المفترسة التي تهاجم الأغنام، والرياح التي تهب على الهضاب في الصحراء، وآبار المياه المحطمة، واقتحام رعاة الأغنام للحقول، والتيه في الصحراء بين الجبال والهضاب بدون العثور على الطريق الصحيح.

وتذكر عشرات الأسماء من الحيوانات والبهائم والطيور والأشجار في نبوءات إرميا. وتوجد تشبيهات كثيرة مأخوذة من العمل في الأرض (٤: ١١-١٢، ٦: ٩، ١٢: ١٣)، الفلاحة (٤: ٤)، الحصاد (٩: ٢١)، الصيد وصيد الأسماك (١٦: ١٥)، غرس الكروم (٣١: ٤).

ومن أمثلة هذه الصور والتشبيهات:

١. تشبيه النبي بالمدينة الحصينة، وعمود الحديد، والسور النحاسي (١: ١٨)، وتشبيه كلام الرب بالنار المحرِقة (٢٠: ٩)، وبالمطرقة تحطم الصخر (٢٣: ٢٩).

٢. تشبيه شعب إسرائيل بالعروس (٢: ٢)، والزوجة الخائنة (٢: ٢٠)، حبيبة نفس الرب (١٢: ٧)، بالجفنة (٦: ٩)، بالناقة الجامحة الهائمة في طرقها (٢: ٢٣)، وآتان الفرا في البرية (٢: ٢٤)، والفضة المرفوضة (٦: ٣٠)، وزيتونة خضراء (١١: ١٦)، وكرمة الرب (١٢: ١٠).

٣. تشبيهات الرب: بنبع مياه الحياة (٢: ١٣، ١٧: ١٣)، والأب، رفيق الصبا (٣: ٤)، وزارع الكرمة (٢: ٢١، ١١: ١٧)، ورجاء إسرائيل (١٤: ٨)، وراعي إسرائيل (٣١: ٩)، ومسكن البِر (٥٠: ٧).

٤. الأوثان: "آبارًا متصدعة لا تضبط ماء" (٢: ١٣).

٥. بيت المقدس: مغارة لصوص (٧: ١١).

٦. اللسان: قوس مشدود، وسهم قتال (٩: ٢، ٧).

٧. المتوكل على الرب والمتوكل على الإنسان: يشبِّه إرميا الأول بالشجرة المغروسة على المياه، والثاني بالعرعر في البادية.[١]

٨. وصف الجفاف: الإصحاح ١٤.

٩. وصف العدو: الغزو، وهجومه على البلاد. ٤: ١٣، ٢٩، ٦: ٣، ٢٢.

١٠. تصوير عمل السماء العائلي: ٧: ١٨، وصنع التماثيل: ١٠: ٣-٥، ٩.

١١. وصف الخراب: ٢: ٢٣-٢٦. وغيرها.

١٢. وصف الخلاص: ٣١: ١-١٣.

وعلى الرغم من عدم اكتمال الصور عند إرميا إلا أن تفصيل الصورة موجود في بعض المواضع، مثل: "الذي سار بنا في البرية في أرض قفر وحفر، في أرض يبوسة وظل الموت، في أرض لم يعبرها رجل و لم يسكنها إنسان" (٢: ٦). أو: "من أجل ذلك يضربهم الأسد من الوعر. ذئب المساء يهلكهم. يكمن النمر حول مدنهم. كل من خرج منها يُفترس" (٥: ٦). أو: "ويبسطونها للشمس وللقمر ولكل جنود السماوات التي أحبوها والتي عبدوها والتي ساروا وراءها والتي استشاروها والتي سجدوا لها" (٨: ٢)، "الذين للموت فإلى الموت، والذين للسيف فإلى السيف، والذين للجوع فإلى الجوع، والذين للسبي فإلى السبي" (١٥: ٢).

[١] عن تفاصيل الاختلافات بين التشبيه هنا والتشبيه في سفر المزامير الإصحاح الأول، راجع: מ. וייס "המקרא כדמותו" (98-82).

وسائل فنية أخرى

١. التقابل

كما هو الحال في شعر الأنبياء بشكل عام فلدى إرميا عشرات الفقرات المكتوبة في شكل تقابل ترادفي أو تكاملي، ولا حاجة إلى تقديم نماذج. كما يوجد عنده أيضًا تقابل تقاطعي: ١: ١٠، ٩: ٣. ويرى فايس أن الإصحاح ٧: ٩ فيه تقابل تقاطعي للوصايا العشر.

٢. التلاعب بالألفاظ

שקד – שוקד- شاقيد – شوقيد (لوز – ساهر) (١ : ١٢). שמו שמים - شمو شامايام (ابهتي أيتها السماوات) (٢: ١٢) שובה משובה ישראל. شوبا مشوبا يسرائيل (ارجعي أيتها العاصية إسرائيل (٣: ١٢). ישור כשך יקושים - يشور كشخ يقوشيم (يرصدون كمنحني من القانصين) (٥: ٢٦)، בתקוע תקעו שופר - بتقواع تاقعوا شوفار (اضربوا بالبوق في تقوع) (٦: ١)، שמה לשממה אבלה עלי שממה, נשמה כל הארץ, כי אין איש שם על לב - ساما لشماما أفيلاه عالاي شماما ناشما كل هآرتس، كي إين إيش سام عل ليف (جعلوه خرابا ينوح عليَّ وهو خرب، خربت كل الأرض لأنه لا أحد يضع في قلبه) (١٢: ١١)، כי מנאפים מלאה הארץ, כי מפני אלה אבלה הארץ - كي منآفيم مالئاه هآرتس، كي مفني إيليه أفلاه هآرتس (لأن الأرض امتلأت من الفاسقين أمامي) (٢٣: ١٠). وغيرها.[١]

---

[١] كتبت الفقرات بالعبرية، والقراءة الصوتية لها بالعبرية لتوضيح التلاعب بالألفاظ.

كلمات بأسلوب أ — ت، ب — ش: الكلدانيين = وسط القائمين (٥١: ١)، بابل = شيشك (٢٥: ٢٦).

صور قديمة: مُفَرِّج عني (٨: ١٨)، فظائع، صنعتِ الشر (١١: ١٥)، يوبخك شرك، خشيتي ليست فيك (٢: ١٩). كتابة صيغة الحاضر مثل: (למדתי, למדה) – تعلمت (٢: ٣٣) بدلا من علَّمت، وكذلك: קראתי – ناديت (٣: ٤)، שמעתי – سمعت (٤: ١٩)، הלכתי – ذهبت (٣١: ٢١)، ואתי – وأنت (٤: ٣٠)، יושבתי — יושבת – أجلست بدلا من جلست (١٠: ١٨، ٢٢: ٢٣) מקוננת – يشفق (٢٢: ٢٣)، وغيرها.

٣. الحوار والجدل

الإصحاح الثاني كله تقريبًا عبارة عن جدل حماسي بين الرب والشعب، وكذلك: ٣: ٦–٧، ٢٢، ١٠: ٢٢–٢٦، وغيرها.

الواقع والحياة اليومية

١. النطرون والإشنان لغسل وتنظيف الأوساخ (٢: ٢٢).

٢. الحُلي وزي العروس (٢: ٣٢، ٤: ٣٠).

٣. أحكام الطلاق ووثيقة الطلاق (٣: ١، ٨).

٤. عادات الحداد (٤: ٨، ١٦: ٦)، النادبات (٩: ١٦).

٥. مقابر أبناء الشعب (٢٦: ٢٣)، دفن الحمار (٢٢: ١٩)، الإحراق من أجل الملك الميت (٣٤: ٥)، النادب له (٢٢: ١٨).

٦. علامات الحر

٧. ب: الراية والبوق، والمشاعل (٤: ٥، ٢١، ٦: ١)، المدن الحصينة، الخيل والعربات الحربية (٤: ١٣)، الفرسان والرماة (٢٩)، الحصار والمتارس (٦: ٣-٥).

٨. جلب العطور من البلدان البعيدة من أجل العبادة في الهيكل (٦: ٢٠)، وإحضار "اللسان" والأطباء من جلعاد (٨: ٢٢).

٩. تشكيل المعادن بمنفاخ النار (٦: ٢٩).

١٠. جمع الحطب لإشعال النيران (٧: ١٨).

١١. استخدام الكتبة للقلم الحديدي، ورأس الماس في الكتابة (١٧: ١)، الكتابة بالحبر (٣٦: ١٨)، مبراة الكاتب (٣٦: ٢٣)، اللفائف، الرسائل، والكتب (٢٩، ٣٦، ٥١).

١٢. بيت الوليمة وبيت النوح (١٦: ٥، ٨). وبيت النوح هو ليس بيت الشراب (٢١) إنما البيت الذي يصرخون فيه أي بيت الحداد.

١٣. بيت الفخاري (١٨: ١)، آنية الفخار (٩: ١)، زِق الخمر (١٣: ١٢).

١٤. المقطرة (٢٠: ٢)، القيود (٢٩: ٢٦)، دار السجن (٣٢: ١٢)، وبيت السجن (٣٧: ١٥).

١٥. البيوت والعلالي الفسيحة التي يمتلكها الأغنياء (٢٢: ١٤)، بيت شتاء الملك، والكانون المتقد (٣٦: ٢٢)، وعكسها:

١٦. بيت الركابيين وطريقة حياتهم (٣٥).

١٧. الخاتم على اليد اليمنى (٢٢: ٢٤).

١٨. صوت الأرحية ونور السراج (٢٥: ١١).

١٩. المحاكمة الشعبية العلنية عند بوابة بيت الرب (الإصحاح ٢٦).

٢٠. محاكمة الخلاص، طريقة شراء حقل، صك الشراء المختوم والمشهر (الإصحاح ٣٢).

٢١. قطع العهد عبر قطع عجل جزءين والمرور بينهما (٣٤: ١٨).

٢٢. وجود العبودية في أورشليم (الإصحاح ٣٤).

٢٣. اجتماع الشعب في بيت الرب أيام الصوم، الأيام التي أعلنت في وقت الأزمات (٣٦: ٦).

٢٤. سوق الخبازين في أورشليم (٣٧: ٢١).

٢٥. بناء المباني بالحجارة والملاط في قوالب (٤٣: ٩).

إرميا والعصر الحديث

تتجلى أهمية إرميا في موضوعين أساسيين:

١. شخصية النبي. فشخصية إرميا التراجيدية تعتبر نموذجًا فريدًا من نوعه في التاريخ؛ فهو إنسان مناضل طوال حياته، حتى مع الحقيقة العليا التي يتحدث باسمها ومرسل من قبلها، وكذلك مع المجتمع والشعب المرسل إليه. ولا يظهر تفانيه من أجل الحقيقة مرة واحدة أو مرتين في وقت سمو نفسي أو بمناسبة حدث معين غير عادي لكن بشكل يومي طوال حياته. وعلى مدى عشرات السنين يؤدي مهام رسالته بكل بسالة ويناضل من أجل معتقده مع الأقرباء والأصدقاء، ومع الكهنة والأنبياء والرؤساء والملوك دون كلل أو ملل. بل ويتنازل عن متع الحياة بشكل كامل، وعن الأسرة والمجتمع، وعن السعادة والبهجة، ويتقبل الوحدة والعزلة

والبكاء والحزن والحسرة بشكل مستمر وبدون تعب؛ من أجل تبليغ كلمة الرب المشتعلة في عظامه (وقلبه ونفسه يقاومانه) كل ذلك من أجل إنقاذ شعبه وبلده.

كما لا يوجد أي نبي آخر يمكن تشبيهه بإرميا من ناحية المثال الشخصي للنضال من أجل الحقيقة العليا، التي يخضع هو نفسه لها. ولا يوجد أي نبي مثل إرميا يظهر لنا مأساة مهمته ونفسه. وتعدُّ شخصيته العظيمة قدوة تعليمية أبدية راقية للبشرية كلها ولشعب إسرائيل تحديدًا.

٢. فلسفة إرميا. لن نتطرق هنا إلى القيمة التاريخية الكبيرة لأقوال إرميا في التاريخ اليهودي والإنساني، وسنذكر فقط أن القيمة الأبدية لفلسفة إرميا لا تبرز في الكفاح من أجل العدالة الاجتماعية مثل عاموس أو في رؤيا السلام وآخر الأيام كما عند إشعياء؛ لكن في مجال الإيمان الديني، وفي تأكيده على فرائض القلوب، والإيمان الداخلي الشخصي غير المرتبط بالمؤسسات الدينية أو بالأماكن المقدسة لكن بتطلعات الإنسان ومحاولته التشبه بالرب وسلك سبل رحمته وعدله وبره.

إن الجيل الحالي لا يستطيع اتباع آراء إرميا السياسية التي كانت ضرورة ذلك الجيل، لكن حتى في المجال السياسي القومي يجب أن نؤكد على إيمان نبي الخراب بأبدية الأمة وبخلاص الشعب والأرض: "لأنه هكذا قال الرب: كما جلبت على هذا الشعب كل هذا الشر العظيم، هكذا أجلب أنا عليهم كل الخير الذي تكلمت به إليهم"(٣٢: ٤٢). "ويكون كما سهرت عليهم للاقتلاع والهدم والقرض والإهلاك والأذى، كذلك أسهر عليهم للبناء والغرس، يقول الرب" (٣١: ٢٨).

تلك العقيدة القوية التي أضاءت نفس النبي المكتئبة والمتألمة في أيام السبي والخراب، كانت وستظل مصدرًا لعدم اليأس والإحباط النفسي والروحي لكل يهودي، وللأمة كلها.

الفصل السابع

حَزْقِيَال

الرجل، الزمان، المكان

يثير التمعن في افتتاحية السفر عدة إشكاليلات:

أولًا؛ لا تشير الافتتاحية إلى زمن نبوءات حزقيال، بخلاف الحال عند إشعياء (١: ١)، وعند إرميا (١: ٢-٣).

ثانيًا؛ الفقرة الأولى مكتوبة بضمير المتكلم – وهي الصيغة التي تحدث بها حزقيال في السفر كله – لكن نجد الفقرتين الثانية والثالثة بضمير الغائب، وتقطعان كلام النبي. والترتيب المنطقي للفقرات هو: ٣، ١، ٢، ٤.

ثالثًا؛ ورد في الفقرة الثانية أن رؤيا التكليف حدثت "في الخامس من الشهر، وهي السنة الخامسة من سبي يهوياكين الملك"، بينما تذكر الفقرة الأولى: "كان في سنة الثلاثين، في الشهر الرابع، في الخامس من الشهر". نخلص من ذلك إلى أن هذين التاريخين – السنة الخامسة لسبي يهوياكين، والسنة الثلاثين – تاريخٌ واحد؛ لكن لم يتم تفسير أي إحصاء كان يقصده النبي بقوله: "في الثلاثين سنة". هناك ثلاثة تفسيرات لذلك: ١. ثلاثون سنة لإحصاء اليوبيل؛ ٢. عمر النبي؛ ٣. ثلاثون سنة منذ العثور على سفر الشريعة في أيام يوشيا. وبما أن سبي يهوياكين كان في

سنة ٥٩٧ ق.م يصبح تكليف حزقيال في سنة ٥٩٢ ق.م بعد حوالي ثلاثين سنة من اكتشاف سفر الشريعة (٦٢٢ ق.م).

رابعًا: لا يمكن فهم سبب تكرار كلمات "في الخامس من الشهر" مرتين (في الفقرتين الأولى والثانية).

هذه المشكلات وغيرها تثير الظن بأنه قد حدث خلط في الفقرات وعدم وجود وحدة أدبية واحدة. ولقد أحس راشي بذلك حينما قال: "أبهم النبي كلامه، ولم يفسر اسمه ولا من هو، ولم يفسر ما أحصاه؟ لذلك فقد أوقفته روح القدس، في اثنين من التفاسير، لتعرف بالنبي وبالإحصاء الذي أحصاه". فالفقرتان الثانية والثالثة في رأي راشي هما أقوال النبي ويجب اعتبارهما عنوانًا عامًا للسفر، "كما لو كان آخر يتحدث عنه".

بذلك يكون النبي حزقيال قد تنبأ قبل ست سنوات من خراب أورشليم (٥٩٢ ق.م — ٥٨٦ ق.م)، واستمر في التنبوء حتى بعد الخراب. وفي الإصحاح الأربعين هناك نبوة تعود إلى السنة "الخامسة والعشرين من سبيه" (سبي يهوياكين)، وفي الإصحاح ١٩ : ١٧ — السنة "السابعة والعشرون" (٥٧٠ ق.م). استمر العمل النبوي لحزقيال حوالي ٢٢ سنة منها ١٦ سنة بعد الخراب.

وإذا قارنا تواريخ نبوءات حزقيال بنبوءات إرميا سنجد أن حزقيال بدأ التنبوء بعد إرميا بـــ ٣٤ سنة، ولا شك في أنه قد سمع إرميا في أورشليم، وسنرى أيضًا أنه تأثر به كثيرًا.

لا نعلم كم كان عمر حزقيال وقت سبيه من أورشليم، لكن إذا خمَّنَّا أنه بدأ التنبوء في الثلاثين من عمره فإنه يكون قد سبي منها وهو في الخامسة والعشرين،

وكان في مقدوره الاستماع إلى أقوال إرميا على مدار عشر سنوات، في أيام حكم يهوياقيم.

يُعدُّ حزقيال بن بوزي الكاهن هو أول نبي يتنبأ بالسبي، ويقول البعض أنه تنبأ في أورشليم أيضًا، وأن نبوءاته تضم طبقتين: الأولى أورشليمية، والثانية بابلية. يشير راشي أيضًا إلى رأي "حازل" بأن حزقيال قد تنبأ في أورشليم أولًا ثم تنبأ في بابل بعد ذلك، "لأن الوحي لا يتجلى لنبي خارج إسرائيل إلا إذا كان قد تجلى له في داخلها أولًا". على أي حال فمعظم نبوءاته قد قيلت في السبي البابلي.

تشير حقيقة أن حزقيال قد سبي مع سبي يهوياكين إلى أنه لم يكن من "مساكين شعب الأرض" (الملوك الثاني ٢٤ : ١٤-١٦)، لكن من عائلة كريمة النسب. ويقول حزقيال في رؤياه عن آخر الأيام إن بني صادوق فقط هم الذين سيخدمون في بيت المقدس، "الذين حرسوا حراسة مقدسي حين ضل عني بنو إسرائيل" (٤٤ : ١٥، ٤٨ : ١١). ونعتقد أن حزقيال نفسه كان من بني صادوق وأنه لعب دورًا في شبابه - قبل سبيه - في العمل المقدَّس في أورشليم، لذلك كانت خدمة الهيكل مهمة له وغالية عليه كثيرًا. وبخلاف إرميا الكاهن القروي من عناثوث، من نسل إبياثار، الذي أُبعد عن أورشليم، كان حزقيال أحد كهنة بيت المقدس من بين صادوق. فهو من أهل هيكل الرب ويعرف كل مخادعه، وأفنيته وبواباته وكل ما يحدث فيه جيدًا، (انظر الإصحاحات ٤٠-٤٦).

تركز سبي يهوياكين في بابل عند "نهر خابور" (١ : ٣) — وهي قناة كبيرة لنهر الفرات — في المكان الذي يطلق عليه "تل أبيب" (٣ : ١٥). ومعنى الاسم باللغة البابلية : تل الخرائب، أو تل الطوفان. والمعنى بالعبرية: تل السنابل الصغيرة

الغضة. ومن المحتمل أن يكون المسبيون قد وجدوا في المعنى العبري للكلمة إشارة إلى أملهم في أن تنبت من الخرائب حياة جديدة.

لم يحدث تكليف حزقيال في داخل تل أبيب، فقد ورد أن روحًا حمله وجاء "إلى المسبيين عند تل أبيب" (٣ : ١٥). ومن خلال التعبيرات "قم اخرج إلى البقعة" (٣ : ٢٢)، "وأنزلني في وسط البقعة" (٣٧ : ١)، يمكننا أن نعرف أن البقعة كانت غير بعيدة عن تل أبيب؛ وقد اعتاد النبي الذهاب إليها للاختلاء بالخالق، وهناك شهد رؤى الرب. لكن حزقيال كان يحظى أحيانًا بتجلي الوحي في بيته: "وكان في السنة السادسة، في الشهر السادس، في الخامس من الشهر، وأنا جالس في بيتي، ومشايخ يهوذا جالسون أمامي، أن يد السيد الرب وقعت عليَّ هناك" (٨ : ١). ونحن نعلم بالمناسبة أن ظروف تسكين المسبيين لم تكن سيئة بالدرجة؛ حيث كان النبي يسكن في بيت وكذلك المسبيون الآخرون كانوا في بيوت (٣٣ : ٣٠).

ورد في الإصحاح ٢٤ أن حزقيال كان متزوجًا وأن امرأته ماتت فجأة بسبب وباء. ويُطلق على المرأة "بهجة عين" النبي. من هنا يتضح أنها كانت عزيزة عليه كثيرًا، وأنه قد رأى في موتها رمزًا على خراب الهيكل. فيأمره الرب بالتوقف عن الحزن عليها، رغم حزنه الشديد؛ فقد كان الغرض من الامتناع عن الحزن هو أن تصبح مثالًا للمسبيين، ليفعلوا كذلك عندما يتلقون خبر خراب أورشليم. يمكن أيضًا تفسير طلب الكف عن الحزن بتفسيرين مختلفين: الأول؛ عدم الحزن على الخراب بسبب كثرة المصائب (رادق)، أو لعدم وجود من يواسيهم في حزنهم، لأن الجميع سيكونون حزانى (راشي). الثاني؛ أن التعبيرات الخارجية والصوتية للحزن تنفِّس عن الحزن، والرب يأمره ويأمرهم بالصمت وكتم ألمهم في داخلهم كي لا

ينفسوا عنه؛ ليصبح حزنهم أكبر بكثير ولفترة أطول، ولكي تنصهر النفس في آلامها الداخلية.

ومن حقيقة أن حزقيال لم يستخدم في أي موضع أبناءه كرمز ومثال، على الرغم من استخدامهما هو وزوجته كرموز؛ نخلص إلى أن حزقيال لم يكن لديه أبناء. وربما تأثر في ذلك الأمر بإرميا، رغم اتخاذه زوجة على عكس إرميا.

إن التفاصيل المتاحة لنا عن حياة حزقيال قليلة جدًا، وتظهر هنا أيضًا نفس الظاهرة المعروفة في أسفار الأنبياء، وهي اختفاء شخصية النبي أمام نبوءته، وأن النبي ليس سوى أداة وقناة ينقل الرب كلامه من خلالها. وتبرز هذه الظاهرة بشكل خاص في سفر حزقيال؛ ففي التكليف يأكل النبي وثيقة الرب "الدرج" وهو عمل يرمز إلى أن كلامه الذي يتفوه به هو كلام الرب (٣ : ١-٣). فالرب يحظر على النبي الكلام الذاتي ويلصق لسانه في حنكه: "لا تكن لهم رجلًا موبخًا، لأنهم بيت متمرد. فإذا كلمتك افتح فمك" (٣ : ٢٦-٢٧). وذلك ليس سوى رمز لحقيقة أن النبي لا يفتح فمه إلا إذا تحدث معه الرب وأمره بالكلام. وبعد الخراب فقط يُفتح فم حزقيال و لم يسكت بعدها (٢٤ : ٢٧، ٣٣ : ٢٢).

لقد كان خراب أورشليم نقطة تحول حاسمة في حياة النبي، فحتى وقت حدوث الخراب كان النبي قد تنبأ بالوبال على شعبه في غضب شديد، لكن بعد الخراب بدأ يتنبأ بنبوءات غضب عن كارهي إسرائيل، وبنبوءات الخلاص لشعبه.

لم يكن حزقيال في حاجة إلى الذهاب إلى مراكز الشعب ليلقي عليهم خطبه؛ إنما اتبع أساليبًا جديدة أحضرت الشعب إليه. لقد كان شيوخ المسبيين يحضرون إلى بيت النبي حقًا ويجلسون أمامه طلبًا للرب (٨ : ١، ١٤: ١، ٢٠ : ١). غير أن النبي يشكو من أن زائريه يتعاملون مع كلماته على أنها أشعار جميلة "قصائد حب"،

وأنهم لا يصححون سبلهم السيئة (٣٣ : ٣٠-٣٢). ونعرف من ذلك أن النبي كان يتحدث بصوت عذب، وأن كلماته كانت تجلب البهجة والمتعة الفنية على سامعيه.

لا شك أن حزقيال كان شخصية فريدة حتى بين الأنبياء، وأنه امتلك صفات غير عادية تمامًا.

السِفْر

من الممكن تقسيم سفر حزقيال إلى جزءين كبيرين يضم كل جزء ٢٤ إصحاحًا، وإلى ستة أقسام فرعية كالتالي:

الجزء الأول: نبوءة توبيخ إسرائيل قبل خراب أورشليم، ١-٢٤:

١. رؤيا التكليف والبعثة، ١-٣.

٢. نبوءة الغضب والوبال، ٤-٢٤.

الجزء الثاني: نبوءة المواساة وخلاص إسرائيل بعد الخراب، ٢٥ – ٤٨:

٣. نبوءات الوبال على الأغيار، ٢٥ – ٣٢، ٣٥.

٤. نبواءات مواساة إسرائيل، ٣٣-٣٧.

٥. حرب مأجوج وسقوطه، ٣٨-٣٩.

٦. رؤيا الهيكل، ٤٠-٤٨.

يجب أن نذكر أن الجزء الأول يضم أيضًا بعض نبوءات المواساة (١١ : ١٧-٢٠، ١٦ : ٦٠-٦٢، ١٧ : ٢٢-٢٤، ٢٠ : ٤٠-٤٢)، ويضم الجزء الثاني أيضًا بعض نبوءات التوبيخ (في الإصحاحات ٣٣-٣٤).

لم يثر سفر حزقيال حتى بداية القرن العشرين أية مشكلات في علم نقد العهد القديم، ولم يشكك أحد في وحدته أو في هوية مؤلفه. لكنه أصبح في الأجيال المتأخرة أكثر جدلًا: هل ذكرت النبوءات في أورشليم أم في بابل؟ (ربما تنبأ أولًا في أورشليم ثم بعدها في بابل؟) هل دوَّن حزقيال السفر كله، أم بعض أجزائه؟ هل كان حزقيال نبيًا أم كاتبًا؟ هل عانى من أي مرض نفسي أو جسدي؟ هناك من أنكروا وجوده نهائيًا زاعمين أنه سفر منحول تم تدوينه في عصر الهيكل الثاني. لكن قويفمان يرفض بالبراهين والقرائن كل هذه الآراء والتخمينات ويؤكد على وحدة السفر وكماله. وذكر كاسوتو (في دائرة معارف العهد القديم) أن كثرة الآراء تدل على عدم اليقين. ويرى أنه يجب اعتبار أساس السفر موثوقًا فيه، على الرغم من مروره بعملية تحرير. وهكذا يظن أيضًا البروفسور سيجل أن السفر قد دوَّنه حزقيال بترتيب زمني، لكن النبي نفسه حرر السفر وأكمل نبوءاته في آخر أيامه، بل وأضيف إلى السفر بعض الإضافات لمحررين آخرين.

من المثير للاهتمام أن سفر حزقيال كان عند "حازل" الوحيد بين أسفار الأنبياء الذي أثار مشكلات كبيرة وكان مِن بينهم مَن طالب بإخفائه نظرًا للتناقض الموجود بين بعض تشريعات حزقيال (في الإصحاحات ٤٠–٤٨) وشرائع التوراة. وقال رابي يهوذا: "حقًا، ذُكر هذا الرجل بالخير، واسمه حننيا بن حزقيا. ولولا أنه أخفى سفر حزقيال الذي كانت أقواله تناقض أقوال التوراة. ماذا صنع؟ أعطوه ثلاث مائة برميل من الزيت، وجلس وطلب منه " (مناحوت ٤٨ : ٧١). وبذلك أنقذ حننيا بن حزقيا الكتاب من الإخفاء بكثير من الجهد من خلال تسويته للتناقضات عبر التأويل. كما ورد في البرايتا[١] في فصل بابا باثرا (١٥ : ٧١) أن

١

"رجال المجمع الأكبر[1] (كنيست جدولاه) كتبوا حزقيال والإثنا عشر". وهكذا يظن "حازل" أيضًا أن التحرير النهائي للسفر لم يقم به حزقيال نفسه إنما رجال المجمع الأكبر بعده بأجيال.

إن السفر مرتب بشكل عام ترتيبًا زمنيًا (بخلاف سفر إرميا)، وفي كثير من النبوءات تذكر تواريخ النبوءات (السنة، لإحصاء سبي يهوياكين، الشهر، بل وحتى اليوم):

١ : ٢ — السنة الخامسة لسبي يهوياكين؛ ٥٩٢ ق.م.

٨ : ١ — في السنة السادسة؛ ٥٩١ ق.م.

٢٠ : ١ — في السنة السابعة؛ ٥٩٠ ق.م.

٢٤ : ١ — في السنة التاسعة (في الشهر العاشر، في بداية حصار أورشليم)؛ ٥٨٨ ق.م.

٢٦ : ١ — في ١٢ سنة (ضد صور)؛ ٥٨٦ ق.م.

٢٩ : ١ — في السنة العاشرة (ضد مصر)؛ ٥٨٧ ق.م.

٢٩ : ١٧ — في السنة السابعة والعشرين (التاريخ متأخر كثيرًا)؛ ٥٧٠ ق.م.

٣٠ : ٢٠، ٣١ : ١ — في السنة الحادية عشرة (ضد مصر)؛ ٥٨٦ ق.م.

٣٢ : ١، ١٧ — في السنة الحادية عشرة (ضد مصر)؛ ٥٨٥ ق.م.

٣٣ : ٢١ — في السنة الثانية عشرة على سبينا (الإعلان عن خراب أورشليم)؛ ٥٨٥ ق.م.

١

٤٠ : ١ — في السنة الخامسة والعشرين على سبينا؛ ٥٧٢ ق.م.

إن النبوءات على إسرائيل مرتبة ترتيبًا زمنيًا دقيقًا، والأمر ليس كذلك فيما يخص مجموعة النبوءات على الأغيار؛ ففي الإصحاح ٢٩: ١٧ النبوءة الأخيرة لحزقيال، بما أنها كانت نبوءة ضد مصر، تم ضمها هي أيضًا إلى النبوءات السابقة ضد مصر، التي قيلت ورتبت قبل نبوءات مواساة إسرائيل في الإصحاحات ٣٣ : ٤٨.

رؤيا الكائنات الحية الأربعة

تشمل الإصحاحات ١-٣ رؤيا تكليف حزقيال وإرساله، ويمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام:

١. ا: ٤-٢٨ — التجلي الإلهي: التجلي الظاهري، والبصري للإله (رؤيا الكائنات الحية الأربعة).

٢. ٢: ١-٧ — التجلي الصوتي للإله، الكلام الإلهي، الذي يشمل التكليف. ويحدث التحول من الشق البصري إلى الشق الكلامي في نهاية الإصحاح الأول: "خررت على وجهي وسمعت صوت متكلم".

٣. ٢: ٨-٣:٣ — أكل الدَرَج الإلهي[1].

٤. ٣: ٤-١١: تكرار واستمرار التكليف والإرسال.

٥. ٣: ١٢-١٥: انصراف مجد الرب، أو نهاية الرؤيا.

---

[1] في هذه الرؤيا أكل حزقيال رسالة الله ووجد هذا الغذاء الروحي ليس طيبًا فقط بل كان حلوًا كالعسل (التفسير التطبيقي للكتاب المقدس).

إن حزقيال هو الوحيد من بين الأنبياء الذين يشكل التجلي الإلهي عندهم وحدة مستقلة في رؤيا التكليف. فضلًا عن أن "رؤيا الكائنات الأربعة" كان لها أهمية كبيرة في تاريخ الفكر والتصوف اليهودي، وهو ما يجب مناقشته بشكل خاص.

● **رؤيا الحيوانات:** أولًا وقبل كل شيء يجب التأكيد على أن حزقيال لم يذكر في أي موضع أنه رأى الرب رأي العين. إنما رأى "رؤى الله" (١: ١)، أي: صورة سامية من العالم الأعلى. وفوق المركبة تمتد السماء، وفوق السماء "شبه عرش" (وليس عرشًا حقيقيًا)، وعلى شبه العرش شبه إنسان، وهو شبه مجد الرب (٥: ٢٨). وتتكرر كلمة "شبه" في الإصحاح عشر مرات. ولم يشاهد النبي إنسانًا، ولا منظر إنسان، إنما شبه منظر إنسان. وكذلك فإن مجد الرب هو بمثابة تجربة مرحلية، تفصل بين الرب الموجود فوق العالم، وبين عالمه. والجانب الإلهي الذي يتجلى للنبي ليس جزءًا من الرب نفسه، إنما "مجد" الرب، الذي يسمع منه صوت الرب.

ليست هناك ضرورة إلى شرح تفاصيل المركبة الإلهية، وهناك شك ما إذا كان من الممكن القيام بذلك أصلًا. ولقد استخدم هذا الوصف كمصدر لدراسات لاهوتية وفلسفية، وتصوفية كثيرة، لكن جميع المفسرين امتنعوا عن تفسير تفاصيل "المركبة" حتى النهاية. وسوف نقف فقط على الأمور الأساسية المهمة:

١. بما أن العالم قد خلقه الرب وينبع منه؛ فإنه من المنطقي أن توجد في المركبة بعض من جذور وأسس عالمنا. وهذه الأسس أربعة: الماء والهواء (السحاب)، النار والنور. ويسبق ظهور الرب "فأبصرت ريحًا عاصفة تهب من الشمال مصحوبة بسحابة هائلة، ونار متواصلة متوهجة بهالة محيطة من الضياء ومن وسطها يتألق

مثل النحاس اللامع البارق من وسط النار" (٤). ومن داخل الريح تظهر هيئة الحيوانات الأربعة. وهذه الحيوانات ليست واقعية إنما أشكال تمثل أنواع مختلفة من الحيوانات: الإنسان، الأسد، الثور، النسر. فالنسر هو ملك الطيور، والثور هو ملك البهائم، والأسد هو ملك الحيوانات. والإنسان هو المتسلط على جميع الحيوانات. وكل هيئة مكونة من أربعة عناصر: إنسان وطائر، بهيمة وحيوان، ولكل حيوان أربعة وجوه وأربعة أجنحة. ويسيطر العدد أربعة على كل وصف المركبة: أربعة حيوانات، أربعة أجنحة، أربع أيادي. وتتحرك المركبة مع كل رياح السماء الأربعة، لأنها ترمز وتشمل العالم كله.

٢. كل أجزاء المركبة ليست أشياء جامدة، إنما كائنات حية، تملؤها الحياة والحركة. وليس فيها أي جزء ساكن في حالة راحة أو توقف إنما المركبة كلها في حالة حركة، حية وتشع نورًا ودفئًا لكل العالم بدون توقف: "والكائنات الحية تتراكض ذهابًا وإيابًا في سرعة لمح البرق" (١٤). كما تظهر هذه الحركة أيضًا في كثرة الأعمال في الإصحاح خاصة في تكرار أشكال الفعل "سار": "لم تدر عند سيرها، يسير إلى جهة وجهة" (٩)، "إلى حيث تكون الروح لتسير تسير" (١٢)، "سارت على جوانبها الأربعة" (١٧)، "وإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها" (١٩)، وغيرها. كما يظهر الفعل "سار" في الإصحاح الأول ١٦ مرة، منها ٤ مرات في الفقرة ١٢ فقط.

٣. الحيوانات غريبة جدًا سواء في شكلها أو في حركتها. أقدامها مستقيمة وبدون مفاصل، وليس في أقدامها أصابع، ومستديرة كقدم العجل. ولها أيضًا أجنحة وكذلك أيادي. ويتكون كل حيوان في حقيقة الأمر من أربع حيوانات: إنسان، أسد، ثور، نسر. كما أن هذه الحيوانات لا تحتاج في حركتها إلى أي

توجيه، أو استدارة رأس يمينًا أو يسارًا، إنما المركبة كلها تتحرك بحرية في كل اتجاه: "وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهة، إلى حيث تكون الروح لتسير تسير، لم تدر عند سيرها" (١٢).

٤. ما هي القوة التي تحرك هذه الحيونات والمركبة بشكل عام؟ الريح والنار: "إلى حيث تكون الروح لتسير تسير" (١٢)، "لأن روح الحيوانات كانت في البكرات" (٢٠)، والنار "سالكة بين الحيوانات" (١٣).

٥. ويطلق على هذه الصورة "المركبة" لأنه فضلًا عن الحيوانات فإن بها بكرات، لكنها ليست بكرات عادية إنما كهيئة العجلات، تستطيع التحرك في كل اتجاه: "ومنظرها وصنعتها كأنها كانت بكرة وسط بكرة" (١٦). لذلك فإنها "لم تدر عند سيرها"، وتشبه حركة البكرات حركة الحيوانات "فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها" (١٩). والبكرات أيضًا تحركها الروح الإلهية لكن لم يذكر أن النار تسير أيضًا بين البكرات. والبكرات أيضًا كائنات حية، "لأن روح الحيوانات كانت في البكرات" (٢٠)، وكل منها محاط بالعيون، ربما رمزًا على المراقبة الألوهية التي يظهر أمامها كل شيء.

٦. تأتي المركبة من الشمال لسببين. الأول؛ الطريق من أورشليم إلى مهجر تل أبيب يبدأ أولًا نحول الشمال، غير أنه من شمال سوريا وحتى "تل أبيب" تنحدر نحو الجنوب". ثانيًا؛ كان هناك اعتقاد في العصر المقرائي، بأن مقر الآلهة في الشمال (إشعياء ١٤: ١٣، المزامير ٤٨: ٣)؛ لذلك فإن روح القدس تأتي من الشمال.

٧. لا يجب السؤال عن معنى كل جزء في المركبة، لكن النظر إلى الرؤيا كلها كصورة خيالية واحدة، لها استقلالها وحياتها الخاصة. فأمامنا مركبة رائعة وسامية مصنوعة من الحيوانات والبكرات وهي في حالة حركة مستمرة ومحاطة بالأنوار

اللامعة. وتحملها أيضًا الرياح العاصفة، وتسير النيران بالقرب منها. وتشع النيران بريقًا، وبرقًا و"نحاسًا" (٥): "كمنظر النحاس المصقول" (٧).

٨. ومن فوق هذه المركبة تمتد السماء البيضاء، التي يرى النبي من خلالها السماء العليا، التي لونها "كمنظر البلور الهائل"، ومن فوقها العرش، ومن فوق العرش شبه مجد الرب.

● **الصورة والصوت:** من الممكن ملاحظة أمرين أساسيين في جميع التجليات الإلهية في العهد القديم: العنصر البصري، المرئي – وهو كيف أن النبي يرى الرب، والعنصر الصوتي، السمعي – وهو ما هي الكلمات التي يسمعها النبي؟ وهناك تجليات يكون فيها العنصر السمعي فقط مثل: تكليف إرميا (إرميا ١)، وصموئيل (صموئيل الأول ٣). وفي تكليف موسى يكون العنصر السمعي أقوى بكثير، لكن العنصر المرئي موجود أيضًا: "أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم" (الخروج ٣: ٣). وفي تكليف إشعياء يكون العنصران قويان على حد سواء. لكن الشق المرئي يشغل فقرتين فقط (٦: ١-٢)، وفي الفقرة الثالثة نسمع أصوات: "ونادى أحدهم الآخر ..". أما عند حزقيال فيشكل الشق الرئيس لتجلي الرب وحدة مستقلة تحتل إصحاحًا كاملًا.

ولقد أدرك الحكماء "حازل" هذا الاختلاف بين إشعياء وحزقيال وقالوا: "إن كل ما شاهده حزقيال، شاهده إشعياء؛ ويشبه إشعياء ابن المدينة الذي شاهد الملك، ويشبه حزقيال القروي الذي شاهد الملك" (حجيجا ١٣). ويضيف موسى بن ميمون مفسرًا: "فالذي من أهل الحاضرة لعلمه بأن أهل البلد عالمون بهيئة ركوب السلطان لم يصف هيئة ركوبه، بل قال رأيت السلطان فقط. والآخر لكونه يريد يصف لأهل البادية الذين لا علم لهم بشيء من هيئاته فصَّل لهم كيف

هيئة ركوبه، وصفة أجناده ومتصرفيه والذين ينفذون أوامره ... إن إشعيا لم يكن أهل عصره محتاجين ليبين لهم ذلك التفصيل، بل كفاهم قوله: ورأيت الله إلخ. وأبناء المهجر كانوا محتاجين لهذا التفصيل، ويمكن أن يقول هذا القائل اعتقد أن إشعيا أكمل من حزقيال، وأن هذا الإدراك الذي اندهش له حزقيال واستهوله كان عند إشعيا معلومًا علمًا لا يقتضي الإخبار به بإغراب لكونه أمرًا معلومًا عند الكاملين"[1].

غير أنه تجدر الإشارة إلى أنه لا يغيب عن الشق المرئي أيضًا العنصر السمعي: "سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة، كصوت القدير، صوت ضجة، كصوت جيش ... فكان صوت من فوق المقبب الذي على رؤوسها" (٢٤-٢٥). وهكذا ترد كلمة "صوت" ست مرات متتالية. فالأصوات تنتج عن تلامس أجنحة الحيوانات، وليس ذلك حديثًا إلهيًا، ولا كلامًا، إنما أصوات غير واضحة. إن كثرة وصف الأصوات (صوت مياه كثيرة، صوت ضجيج، صوت جيش) لا تقربنا من فهم طبيعة جوهر الصوت، لكن نعرف منها أن النبي لم يكن في وسعه تمييز معنى الصوت، إنما يبرز فقط قوته. ويصفه في نهاية الرؤيا مرتين بـ"صوت رعد عظيم" (٣: ١٢-١٣).

- **المصادر**: يستخدم النبي بالفعل صور وتشبيهات مأخوذة من بيئته، وعلينا أن نظن أيضًا أن حزقيال قد تأثر من الفن البابلي إلى حد ما. لكن لا شك في أن المصادر الرئيسية في تصوير المركبة لا حاجة في العثور عليها في حضارة بلاد النهرين، لكن في الثقافة الإسرائيلية، خاصة في وصف موقف جبل سيناء وفي

[1] دلالة الحائرين، موسى بن ميمون القرطبي الأندلسي، ترجمة: حسين آتاي، مكتبة الثقافة الدينية، الجزء الثالث، الفصل السادس، ص ٤٧٥.

تكليف إشعياء؛ ففي وصف خلق العالم في سفر التكوين ١، تظهر لأول مرة "وروح الله يرف على وجه الماء" (٢)، وأن الخلق الأول كان النور (٣). لكن يغيب عن ذلك العنصر الرابع وهو النار، الذي يتم التأكيد عليه بشدة في وصف المركبة. فتجلي الرب في النار لا يتأثر بوصف الخلق إنما بالتجلي الإلهي لموسى في عليقة النار (الخروج ٣: ٢)، ومن موقف جبل سيناء: "وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الآتون" (الخروج ١٩: ١٨). حتى في عهد الله مع إبراهيم يوصف التجلي الإلهي بـــ"تنور دخان ومصباح نار" (التكوين ١٥: ١٧).

وليس في الشق المرئي فقط، إنما في الشق السمعي أيضًا يظهر تأثير موقف جبل سيناء: "صارت رعود وبروق ... وصوت بوق شديد جدًا (الخروج ١٩: ١٦)، وكل الشعب يشهد الأصوات والمشاعل وصوت البوق (١٨). ونجد في الفقرة الأخيرة الظاهرة المثيرة للاهتمام جدًا وهي رؤية الأصوات — وهو خلط بين عنصر الرؤية وعنصر السمع في التجلي الإلهي.

ومن المثير للاهتمام كذلك العلاقة بين وصف التجلي الإلهي عند حزقيال وموقف جبل سيناء، وهو المزج الرائع بين الماء والنار. فحزقيال يرى السحاب (١: ٤)، و"منظر القوس التي في السحاب يوم مطر" (١: ٢٨)، ويسمع "خرير مياه كثيرة" (٢٤). كما أن الرب يأتي في موقف جبل سيناء "في ظلام السحاب" (الخروج ١٩: ٩)، "صارت بروق ورعود وسحاب ثقيل على الجبل" (١٩: ١٦).

العرش والروح معروفان لنا جيدًا من رؤيا ميخا بن يَمْلَة (الملوك الأول ٢٢: ١٩-٢٢)، كما أن تأثير إشعياء جلي للعين (الإصحاح ٦: ١-٤).

• **الكروبيم**: تظهر المركبة الإلهية أمام حزقيال مرات عدة (١، ٨: ٤، ١٠: ١٥، ٢٠، ٤٣: ٢، ٣). وتجدر الإشارة إلى أنه في الإصحاح الأول تحتوي المركبة على حيوانات وبكرات، لكن ليس هناك أي ذكر للكروبيم. وفي المقابل نجد في الإصحاح العاشر حديث عن الكروبيم وليس عن حيوانات. "وارتفع مجد الرب عن الكروب" (١٠: ٤)، "وسمع صوت أجنحة الكروبيم" (١٠: ٥). ولا يوجد أدنى شك في أن الحيوانات والكروبيم هي شيء واحد. فورد في الفقرة ١٥ صراحة: "ثم صعد الكروبيم هذا هو الحيوان الذي رأيته عند نهر خابور". لكنه يتحدث في الفقرة ١٤ عن أربعة أوجه للكروبيم- ولا يذكر الانسان، الأسد، الثور، النسر (كما هو الحال في ١: ١٠)، إنما: إنسان، أسد، نسر، كروب. ويحل الكروب محل الثور. فالكروب له معنيان: الأول؛ يشمل الحيوان كله، بكل أوجهه، والثاني؛ يتطرق إلى الثور فقط.

ويبدو أن هناك روايتين مختلفتين راسختين في وصف الحيوانات أو الكروبيم: رواية بابلية ورواية إسرائيلية. ففي أساطير وفنون الشرق القديم تعتبر مثل هذه الصور المركبة اعتيادية، مثل: الثيران والأسود، بوجه إنسان ولديهم أجنحة. وهذه الصور موجودة في قصر سرجون الثاني ملك آشور (٧٢١-٧٠٥ ق.م) "كانت مهمتها، حراسة الهيكل من الأرواح الشريرة، وفرض سيادتها على كافة الآفات المختلفة"[١]. غير أن موتيف الكروبيم الحارسة موجود كذلك في التوراة في قصة جنة عدن: "فأقام شرقي جنة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"(التكوين ٣: ٢٤). وكان في داخل هيكل سليمان اثنان من الكروبيم فوق تابوت العهد (الملوك الأول ٦: ٢٣). وامتدت أجنحتها من الجدار إلى

[١] פני עולם המקרא ג' 159.

الجدار، وشغلت كل مساحة القاعة. كما أظلت الكروبيم التابوت "وكانت أجنحتهما في وسط البيت يمس أحدهما الآخر" (الملوك الأول ٦: ٢٧).

لكن كروبيم حزقيال لا تحرس الهيكل، أو الرب، ولا تظله. إنما مهمتها مختلفة تمامًا، فهي تحمله فوق أجنحتها. فكأن الرب يمتطيها. ويمكن العثور على إشارة لذلك في صنع الهيكل (الخروج ٢٥)؛ حيث وصف للكروبيم التي تظل الغطاء، ويقول الرب لموسى: "وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك، من على الغطاء من بين الكروبيم الذين على تابوت الشهادة" (الخروج ٢٥: ٢٢). على أية حال فإن تقليد الكروبيم تقليد إسرائيلي قديم، ولا يحتاج حزقيال إلى استعارته من فنون بلاد النهرين. كما توجد أيضًا في العهد القديم صورة الرب كالجالس فوق الكروبيم (صموئيل الأول ٤: ٤، المزامير ٩٩: ١، وغيرها)، وكمن يمتطي الكروب (صموئيل الأول ٢٢: ١١، المزامير ١٨: ١١)، كما تعرف مركبة النار، وجياد النار التي صعد بها إلياهو إلى السماء (الملوك الثاني ٢: ١١).

● **الغموض في نبوءة المركبة:** ختامًا تجدر الإشارة إلى أنه ليس هناك وسيلة ما لفهم معنى تفاصيل المركبة فهمًا كاملًا. فمفهوم "نبوءة المركبة" أصبح له في التراث اليهودي معنى محددًا: أسرار جوهر الإله – بخلاف "صنع التكوين" الموجه إلى أسرار خلق العالم. ولقد ورد في فصل "حجيجا"[١]: "אין דורשים בעריות בשלושה، ולא במעשי בראשית בשנים, ולא במרכבה

---

[١] واحد من ستة أوامر في المشناه، وهي مجموعة من التقاليد اليهودية المدرجة في التلمود. تتعامل مع مهرجانات الحج الثلاثة وعروض الحج التي كان من المفترض أن يحضرها الرجال إلى القدس.

ביחיד אלא אם כן היה חכם ומבין מדעתו"(פרק ב', ה"א).[1] وكذلك لا يتم تعليم "أعمال التكوين للجمهور (خشية فهم هذه الأمور بطريقة غير سليمة)، لكن للأفراد فقط، أما عمل المركبة فلا يجب تفسيره حتى للفرد، إلا إذا كان تلميذًا نابغة، لديه قدرة على الفهم من تلقاء نفسه، ولا يحتاج إلى شرح كل تفصيل لنهايته. والإصحاح الأول من سفر حزقيال لا يقرأ في الكنيس كجزء من الصلوات، حتى لا تسمع كلماته على الملأ[2].

يقول قويفمان إن حزقيال موجود في المنفى على أرض نجسة. ومن هنا يأتي موتيف تجلي الرب في عربة، لأنه يأتي من بعيد[3]. وصورة حزقيال صورة مركبة وفريدة من نوعها، وهي رمز كوني؛ فالحيوانات والبكرات مليئة بالعيون — رمز لرؤية ومعرفة كل شيء. والإنسان — رمز للفهم، والأسد — رمز للبطولة، والثور — رمز للقوة، والنسر — رمز للسرعة؛ وفوق السماء (القباب)، عرش النور وهيئة النور — رمز الملكوت والعدل[4].

---

[1] أن رجل الدين الذي يناقش قضايا المحارم لا يفعل ذلك أمام الجمهور لكن أمام أقل من تلميذين، ليكونوا سويًا ثلاثة، ولا تناقش قضايا تكوين الكون وأسرار الخلق أمام اثنين، ولا المركبة التي هي من أسرار قيادة العالم أمام شخص واحد إلا إذا كان ذلك الشخص ذكيًا ويفهم وحده معظم الأمور.

[2] "لا يصلى بالمركبة" — مجيلا، د، ي؛ انظر أيضًا رامبام — הלכות יסוד התורה, ד', י"א. وكذلك افتتاحية كتابه "دلالة الحائرين".

[3] ص ٥٤٤.

[4] ٥٤٥-٥٤٦.

التكليف، المهمة

١. يختتم الجزء المرئي من التجلي الإلهي بالعبارة: "ولما رأيته خررت على وجهي، وسمعت صوت متكلم" (١: ٢٨). وذلك رد فعل حزقيال على منظر مجد الرب الخاص له. ورغم أن إرميا نادى أيضًا: "آه، يا سيد الرب، إني لا أعرف أن أتكلم" (١: ٦)، بل إن إشعياء فزع وقال: "ويل لي إني هلكت" (٦: ٥)، إلا أنه لم يُقل عن أي نبي آخر أنه خرَّ على وجهه. لذلك فإن أول شيء يقوله الرب لحزقيال هو: "يا بن آدم، قم على قدميك فأتكلم معك" (٢: ١). كما أن تعبير "ابن آدم" من سمات حزقيال، ويعتبر صيغة ثابتة عند توجه الرب إليه. وفي عملية التكليف نفسها يظهر تعبير "ابن آدم" ثماني مرات (٢: ١، ٣، ٦، ٨؛ ٣: ١، ٣، ٤،١٠) وما يقرب مائة مرة في السفر كله! ويبرهن هذا التعبير من ناحية على الشعور بضعفه من ناحية، وعلى ضآلة النبي مقارنة بالرب، ومن ناحية أخرى فيه تعبير عن علاقة الرب بالنبي. فهو ليس توجهًا ودودًا، وشخصيًا كما هو الحال مع إرميا: "ماذا أنت راء، يا إرميا؟" — وتبرز هنا شخصية النبي؛ فالرب يتوجه إليه باسمه. ويميزه عن سائر المجتمع؛ أما هنا فالرب يتوجه إلى حزقيال — ليس كشخصية مستقلة لها اسمها، إنما كواحد من الناس.

لقد أدهش ظهور الرب حزقيال كثيرًا، حتى أصبح بلا حول ولا قوة، وأصبح يحتاج إلى المساعدة ليستطيع الوقوف على قدميه. فلم يملك حتى القدرة على النهوض بنفسه. "فدخل في روح لما تكلم معي، وأقامني على قدمي" (٢: ٢). وبخلاف الديناميكية التي تميز عمل المركبة، بقي حزقيال سلبيًا تمامًا في كل رؤيا التكليف. وتعدُّ هذه أيضًا سمة خاصة بحزقيال وحده؛ فعند موسى، وإشعياء، وإرميا كان هناك حوار بين الرب والنبي. وعلى الرغم من أنه في التكليفات الثلاثة

كان كلام الرب هو الأساس، وكلام الأنبياء أقصر ومجزء؛ إلا أن موسى تحدث، وحاول التهرب من التكليف، وطرح تساؤلات (الخروج ٣: ١١، ١٣؛ ٤: ١، ١٠، ١٣). وقال إشعياء: "هأنذا أرسلني"، وتساءل: "إلى متى؟" (٦: ٨، ١١). كما ردد إرميا أيضًا بعض العبارات؛ أما عند حزقيال فلا يوجد أي حوار؛ فالتكليف عبارة عن حوار فردي فقط. فقد ظل سلبيًا تمامًا، ومن كلام الرب فقط يمكننا الوقوف على بعض مشاعر النبي.

قام حزقيال ووقف على قدميه بقوة الروح. ورأينا أن الروح الإلهية هي التي تحرك المركبة، كما أنها تحرك وتحيي أيضًا العظام الجافة (٣٧)، وتحمل النبي (٣: ١٢، ٨: ٣). فروح الرب هي أساس ومصدر الحركة والحياة في العالم، كما أنها تحرك الرؤية النبوية.

ثم يسمع النبي كلام تكليفه "إلى بني إسرائيل، إلى أمة متمردة، قد تمردت عليَّ" (٢: ٣). إن كلمة "أمة" هنا ليس معناها كما هو في التعبير "نبي إلى الأمم" التي قيلت لإرميا؛ فحزقيال لم يرسل إلى الأمم، رغم تنبؤه عن الشعوب الأخرى أيضًا. فإرساله هو إلى إسرائيل فقط، وكلمة "أمة" المقصود بها "بيتي إسرائيل، الذين يقيمون في أورشليم، والذين تم سبيهم ويقيمون مع النبي في بابل، أو إلى أسباط إسرائيل الشمالية والجنوبية (فقد ورد صراحة في الإصحاح ٣٧: ٢٢ من أسباط إسرائيل "ولا يكونون بعد أمتين").

تجدر الإشارة إلى أن سلبية النبي وقت التكليف تظهر أيضًا في مضمون تكليفه. فموسى أُرسل من أجل إخراج بني إسرائيل من مصر، وإرميا أُرسل "لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبني وتغرس"؛ أما حزقيال فقيل له: "والبنون القساة الوجوه والصلاب على القلوب، أنا مرسلك إليهم فتقول لهم: هكذا قال السيد الرب.

وهم إن سمعوا وإن امتنعوا، لأنهم بيت متمرد، فإنهم **يعلمون أن نبيًا كان بينهم**" (٢: ٤-٥). وبذلك يكون أرسل فقط كي يسمع الشعب تحذيره ويعرف أنه كان يوجد نبي في وسطهم قد أنذرهم، وهذا الإنذار يحمِّلهم المسئولية الكاملة عن مصيرهم.

كما نجد في تكليف حزقيال أيضًا كلمات الرب التشجيعية: "فلا تخف منهم، ومن كلامهم لا تخف" (٢: ٦)، كما من الممكن استنتاج أن قلب حزقيال كان فيه شيء من الخوف من مهمته النبوية، على الرغم من عدم قوله ذلك".

٢. أكل الدرج (٢: ٨ — ٣: ٣) — يعطي الرب للنبي درج سفر ويأمره بأكله. يجب أن نتوقف هنا عند ثلاث نقاط مهمة: أ. أكل الدرج؛ ب. مضمون الدرج؛ ج. تقديم كلام الرب مكتوبًا.

أ. إن أكل الدرج هو شيء ملموس، يرمز إلى أن أقوال النبي التي يتفوه بها هي كلمات الرب وأن كلام الرب أصبح جزءًا من مكونات النبي؛ وأن التواصل الجسدي بين كلام الرب وبين النبي كان موجودًا أيضًا قبل حزقيال، عند إرميا (١: ٩)، وعند إشعياء (٦: ٧). فعند إشعياء لَمْس الفم له يُطهِّر النبي من نجاسته. لكن عند حزقيال فإنه يحقق التواصل بشكل أكثر تجسيدًا. فالنبي يأكل بالفعل كلام الرب. و"المركبة" وأكل الدرج يبرهنان على أن حزقيال كان لديه رؤية تجسيدية للرب، والنبي كان لديه شعور بالوحي الإلهي.

ب. مضمون الدرج؛ فالدرج مكتوب فيه من على الناحيتين، الوجه والظهر، ومكتوب فيه "مراثٍ ونحيب وويل" — مراثٍ، ونحيب وبكاء. وعلى الرغم من ذلك يقول النبي: "فأكلته فصار في فمي كالعسل حلاوة" (٣: ٣)، وعلى الرغم من المعاناة النفسية التي عانى منها الأنبياء بسبب مضمون أقوالهم المر، إلا أنه كان

لديهم إحساس بالرضا من حقيقة أن كلام الرب يسكن فيهم. وحتى إرميا، النبي العابس، يقول: "وُجد كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأني دُعيت باسمك يا رب إله الجنود" (١٥: ١٦). بل إن البعض يجد علاقة وثيقة جدًا بين حزقيال وإرميا في هذا الأمر؛ فحزقيال قد سمع وعرف بالطبع بحرق درج نبوءات إرميا على يد يهوياقيم في السنة الخامسة لملكه (إرميا ٣٦: ٩)، وربما يكون شاهد ذلك في خياله، وكأن نبوءته هي استمرار لنبوءة إرميا.

ومن كلام الرب: "لا تكن متمردًا كالبيت المتمرد، افتح فمك وكل ما أنا معطيك" (٢: ٨)، يمكن استنتاج أن حزقيال قد أظهر تراجعًا في البداية من أكل الدرج ومعارضة لدور الموبخ للبيت المتمرد، على الرغم من أنه لم يقل شيئًا يعبر عن هذا التردد مثلما فعل موسى (الخروج ٣: ١٣)، أو إرميا (١: ٦)، ففي وقت التكليف لم ينطق حزقيال بكلمة واحدة؛ لكن فيما بعد، بعدما تناول الدرج وقبل التكليف، فرح به فرحًا شديدًا. ومنذ هذه اللحظة وهناك تكامل تام بين النبي وكلام الرب الذي يملأ روحه.

ج. تبليغ كلام الرب كتابة — ذكرنا في حديثنا عن إرميا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن "إرميا يعد جسرًا بين النبوءة الخطابية والنبوءة المدونة في سفر". وهاهو في سفر حزقيال فإن كلام الرب قد أعطي له في درج سفر. إن الانتقال من من الخطاب العلني إلى الصيغة المكتوبة قد وصل إلى منتهاه عند حزقيال. ومن المحتمل أن يكون حزقيال أيضًا قد سار أحيانًا إلى أماكن عامة علنية ليخطب في المنفيين، لكنه بشكل عام كان يكتب كلامه على درج سفر، وكان الذين يرغبون في سماعه يذهبون إليه في بيته (٨: ١، ١٤: ١ إلخ). فنبؤاته لا تترك انطباعًا على كونها نبوءات تلقائية، لكنها تظهر فيها مظاهر التحرير الأدبي.

٣. تكرار كلمات التكليف (٣: ٤-١١). — بعد تناول الدرج يكرر الرب كلمات التكليف ويؤكد مرة أخرى على أن "بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك" (٧). وفي التوجهين يسمي الرب إسرائيل "بيت التمرد" (٢: ٥، ٧، ٨؛ ٣: ٩)، لذلك يحذر الرب النبي من أن يخاف أو يرتعد منهم ومن كلامهم (٢: ٧؛ ٣: ٩). وسوف نرى فيما بعد أن التكرار سمة أساسية في أسلوب حزقيال.

٤. نهاية الرؤيا — بعد التكليف تغادر المركبة الإلهية مكانها. وتحمل الروح الإلهية، التي هي مصدر الحركة والحياة، النبي من مكان التجلي "إلى المسبيين عند تل أبيب"، وعندما تحمل الروح النبي يسمع خلفه "صوت رعد عظيم، مبارك مجد الرب من مكانه" (١٢). وصوت الرعد نتيجة "أجنحة الحيوانات، المتلاصقة الواحد بأخيه"، ونتيجة "صوت البكرات معها".

وتثير كلمات "مبارك مجد الرب من مكانه" عدة إشكاليات. أولًا؛ كيف سمعت الكلمات من الحيوانات ومن البكرات؟ فأجنحة الحيوانات لا تنطق بكلمات واضحة لها معنى، لكن حركتها تصدر "صوت رعد عظيم". ثانيًا؛ إن كلمة "رعد" لا تنطبق على الكلام. فهل من الممكن تعريف كلمات "مبارك مجد الرب من مكانه" على أنها "صوت رعد عظيم"؟ ثالثًا؛ لماذا لم يذكر "في مكانه" وما تفسير الصيغة "من مكانه"؟ ولحل هذه الإشكاليات اقترح شموئيل دافيد لوتساتو[١] قراءة: "فسمعت خلفي صوت رعد عظيم، في الملكوت مبارك مجد الرب من مكانه". وهو تعديل بسيط للغاية لكنه يزيل كافة الإشكاليات. مع ذلك يفضل

[١] ١٨٠٠- ١٨٦٥؛ شاعر ومفسر للعهد القديم، وعالم لغة عبرية، وفيلسوف وباحث أدبي، ومترجم. كان من أتباع حركة التنوير اليهودية "الهسكالاه"، ومن أوائل رجال حكمة إسرائيل، ورئيس المدرسة الدينية لرجال الدين، في مقاطعة بادوفا الإيطالية.

بوبر في كتابه طريق العهد القديم (ص ٣٣٤-٣٣٦)، الصيغة التقليدية.ويعترف بوجود صعوبة بنسب مقولة "مبارك مجد الرب من مكانه" إلى الحيوانات، لذلك يقترح تفسير أن النبي نفسه هو الذي قال هذه الكلمات، وفقًا لصيغة "مبارك الرب من صهيون" (المزامير ١٣٥: ٢١). فالنبي يوقف حكايته ويردد هذا النداء. فليس في صهيون فقط، إنما هنا أيضًا، في بابل، يوجد "مكان" للرب.

إن حزقيال على أي حال هو النبي الوحيد الذي يصف انصراف مجد الرب، بعد التكليف وعودته إلى مكانه. ولدينا هنا في الحقيقة عودة مزدوجة للرب وللنبي. فالرب يعود إلى بيته إلى قدسه في أورشليم، لكن النبي أيضًا ترك مكانه. ورؤيا التكليف كلها عن المكان الذي يسمو فوق الطبيعة، الخيالي، غير الواقعي. فالنبي ينفصل عن بيئته الاجتماعية والطبيعية، ولا يرى أي شيء واقعي، بخلاف إشعياء وإرميا اللذين شاهدا حولها، وقت التكليف، أشياء واقعية (بيت المقدس، أو عصا اللوز والقدر المنفوخ). لذلك يجب على النبي أن يعود إلى عالمه الطبيعي. غير أن هذا التحول غير سهل، فالنبي يجلس "سبعة أيام متحيرًا في وسطهم" بدون قدرة على العمل أو الكلام (٣: ١٥).

مقارنة بين تكليف حزقيال وتكليف إشعياء وإرميا

يشبه تكليف حزقيال في شقه المرئي تكليف إشعياء، وفي شقه السمعي تكليف إرميا. وسوف نقف فيما يلي على تفاصيل التشابه والاختلاف:

حزقيال وإشعياء

نقاط التشابه

أ. مشاهدة الرب فوق كرسي مرتفع وشامخ.

ب. الملائكة وأجنحتها (الحديث عند حزقيال عن الحيوانات).

ت. امتلاء البيت بالدخان من نيران الملائكة، أو بنيران المذبح (عند حزقيال – النيران).

ث. الخوف الذي أصاب إشعياء عند مشاهدة الرب.

ج. ملامسة الرب لفم النبي.

ح. المعرفة منذ البداية، ألا يسمع الشعب كلام الرب.

نقاط الاختلاف

أ. الوصف التفصيلي للمركبة عند حزقيال.

ب. التجلي الإلهي يشكل وحدة كبيرة مستقلة في رؤيا التكليف.

ت. التكليف ليس في أورشليم، إنما في المنفى، لذلك يظهر الرب في المركبة عن بعد.

ث. ملائكة إشعياء تقف من فوق الرب أو حوله: "السرافيم واقفون فوقه"، وأجنحة السرافيم تغطيه. أما عند حزقيال فالحديث عن حيوانات وبكرات، ووظيفة أجنحة الحيوانات مختلفة تمامًا: حمل السماء فوق رءوسها (١: ٢٢–٢٥).

ج. عدد أجنحة السرافيم عند إشعياء ستة، وعدد أجنحة الحيوانات عند حزقيال أربعة.

ح. العدد المهيمن في تكليف إشعياء هو العدد ثلاثة. فالسرافيم تناديه ثلاث مرات "قدوس، قدوس، قدوس". والأجنحة الستة هي مضاعفات العدد ثلاثة. أما في تكليف حزقيال فالعدد أربعة هو المهيمن.

خ. الإله عند إشعياء جالس، والسرافيم واقفون. أما عند حزقيال فكل شيء يتحرك. كما يظهر الإله وهو محمول فوق الحيوانات.

د. ورد في إشعياء "مجده ملأ كل الأرض" (٦: ٣). غير أن "المجد" لا يعتبر هناك كيانًا وسيطًا بين الرب وبين العالم؛ فرؤية الرب مباشرة وبشكل واضح: "رأيت السيد جالسًا ... لأن عيني رأتا الملك رب الجنود" (٦: ١، ٥). أما عند حزقيال فهناك تأكيد خاص على الرؤية غير الواضحة، التي تفصل بين النبي والرب. و"المجد" الإلهي يعتبر كيانًا مستقلًا وهو أمر واضح أكثر في الإصحاح العاشر: "فارتفع مجد الرب عن الكروب" (٤)، "وخرج مجد الرب من على عتبة البيت" (١٨)، وفي الإصحاح الثالث: "وإذا بمجد الرب واقف هناك" (٢٣).

ذ. إشعياء يرى الرب أولًا ثم السرافيم من بعده؛ أما حزقيال فيفتتح بالحيوانات ويختتم بمنظر مجد الرب.

ر. إشعياء لا يخر على وجهه.

ز. تكليف إشعياء — حوار؛ أما تكليف حزقيال فحوار فردي للرب.

س. لمس الفم يطهر إشعياء؛ لكن التلامس الجسدي عند حزقيال فيأخذ صورة أكل الدرج.

ش. السرافيم ينادون عند إشعياء "قدوس، قدوس، قدوس"! وهي كلمات واضحة تؤكد عبر تكرارها ثلاث مرات على القدسية السامية للرب، التي لا نظير لها، وعلى مفهوم الألوهية عند إشعياء. أما عند حزقيال فيسمع صوت رعد شديد غير واضح. وإذا قبلنا كذلك الرواية التقليدية فلن نجد فيها أي كلمة تصف مفهوم الألوهية، لكن مباركة لمجده فقط.

ص. لا يوجد عند إشعياء رؤيا انصراف روح القدس (الشخيناه).

ض. هناك بالطبع اختلاف في مضمون التكليف؛ فكل نبي مرسل إلى أبناء جيله.

حزقيال وإرميا نقاط التشابه

أ. التشجيع الإلهي: "لا تخف من وجوههم ... لا ترتع من وجوههم" (١: ٨، ١٧).

ب. الاتصال الإلهي: "ها قد جعلت كلامي في فمك" (١: ٩).

ت. الخوف من المهمة.

نقاط الاختلاف

أ. لا يوجد عند إرميا تجلي مرأي للرب.

ب. إرميا لا يخر على وجهه.

ت. لا يوجد عند حزقيال العلاقة الودودة بين الرب والنبي.

ث. لم يتم تكليف حزقيال منذ ولادته و لم يبعث ليكون "نبيًا للأمم".

ج. الرب لا يريه إشارات.

ح. مهمة حزقيال ليست الهدم والبناء.

خ. لذلك يصور الرب إرميا بـــ "مدينة حصينة وعمود حديد واسوار نحاس" (١: ١٨)، أما تشبيه حزقيال فمختلف تمامًا: "قد جعلت جبهتك كالماس أصلب من الصوان" (٣: ٩). ولا يحارب حزقيال بيئته، مثل إرميا، ولا يطارد نهائيًا بواسطة أي شخص.

د. تكليف إرميا؛ حوار، وليس مونولوج.

ذ. لا يوجد لديه رؤية انصراف روح القدس (الشخيناه).

ما يميز تكليف حزقيال عن سائر التكليف في العهد القديم

أ. عمل المركبة المفصل والمعقد.

ب. السقوط على وجهه.

ت. الخلفية فوق الطبيعية غير الواقعية للرؤيا.

ث. وصف انصراف مجد الرب بعد التكليف.

ج. الهدف من إرسال النبي إلى بني جيله (سيتضح في نهاية الفصل).

ح. لا يوجد عند أي نبي تلك الرؤية الملموسة جدًا للرب.

الخصائص الفنية لرؤيا التكليف

تظهر في رؤيا التكليف الكثير من الخصائص الفنية عند حزقيال:

١. خياله المتطور والجريء.

٢. طريقة التشكيل الفني؛ فحزقيال لا يرسم على القماش، إنما يصور مخلوقات خيالية مثل النحَّات الذي ينحت في الصخر. وصوره ثلاثية الأبعاد؛ فنحن نرى الحيوانات من كل زاوية ومن كل روح؛ كما أن الدرج مكتوب على الناحيتين الوجه والظهر.

٣. حب التفصيل والتدقيق في الوصف.

٤. التجسيد الزائد؛ فكلام الرب يتجسد في شكل درج سفر، يأكله النبي فعليًا: "أطعم بطنك وأملأ جوفك من هذا الدرج". (٣: ٣).

٥. الأشياء تعرض علينا في عرض حي، في حركاتها وأفعالها: حركة الحيوانات، ارتفاع البكرات، سقوط النبي، الروح التي توقفه على قدميه، حمل الروح له، جلوسه متحيرًا في بيته، أكله الدرج وغيرها.

٦. تكرار الكلمات والتعبيرات (على سبيل المثال: الإنسان، بيت المردة وغيرهم)، وكذلك تكرار الموضوع كله (مسألة المهمة في الإصحاح ٢: ٣-٧، وفي الإصحاح الثالث ٤-١١).

٧. التشبيهات الأصيلة: على سبيل المثال، تشبيه بني إسرائيل بالقريس والسلاء (أنواع أشواك)، والعقارب (٢: ٦).

٨. صياغة كلام الرب لإشعياء بلغة العهد القديم الشعرية: "اسمعوا سمعًا ولا ولا تفهموا، وأبصروا إبصارًا ولا تعرفوا". وفي تكليف إرميا أيضًا توجد فقرات شعرية: "قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك". أما رؤيا التكليف عند حزقيال فمكتوبة كلها نثرًا؛ لكن في هذا النثر إيقاع يقربها كثيرًا من اللغة الشعرية:

أما أنت يا ابن آدم!

فلا تخف منهم! ومن كلامهم لا تخف!

لأنهم قريس وسلاء لديك، وأنت ساكن بين العقارب.

من كلامهم لا تخف! ومن وجوههم لا ترتعب!

لأنهم بيت متمرد! (٢: ٦).

٩. ختامًا يجب القول هنا (وسوف نسهب في الحديث عن ذلك فيما بعد)، أن حزقيال كان نبيًا فنَّانًا بمفهوم خاص؛ فالفن عند حزقيال ليس فقط وسيلة

طبيعية تصاحب التعبير النبوي التلقائي، كما هو الحال عند بقية الأنبياء، الذين كانوا هم أيضًا فنانين. فهو يسعى كي يمنح أقوال نبوءته شكلًا فنيًا يحتوي على لمسته الشخصية. لذلك لا يمكن فهم المعنى الرمزي لكل تفصيل من تشبيهاته وأعماله الرمزية، خاصة المركبة التي هي نموذجًا خالصًا لذلك، لأن التشبيهات والرموز عند حزقيال يكون لها أحيانًا معنى فني مستقل بها.

النبي كرقيب

في النبوءات الأولى بعد التكليف يعين الرب حزقيال رقيبًا. ونجد هنا أيضًا تعبيرًا أصيلًا لحزقيال عن دور النبي؛ فالنبي عليه أن يكون واعيًا، وعند رؤيته العدو يقترب عليه أن ينفخ في البوق على الفور لتحذير أهل المدينة (٣٣: ١-٦). وإذا لم يقم بدوره على أكمل وجه لخربت المدينة بسببه. فتشبيه النبي بالرقيب يجسد المسئولية الشخصية الثقيلة للنبي: "إذا قلت للشرير موتًا تموت، وما أنذرته .. فذلك الشرير، يموت بإثمه. أما دمه فمن يدك أطلبه. وإن أنذرت أنت الشرير ولم يرجع عن شره ولا عن طريقه الرديئة، فإنه يموت بإثمه. أما أنت فقد نجيت نفسك" (٣: ١٨-١٩).

لم يُخبر نبي من قبل أنه مسئول بشكل شخصي عن حياة وموت أبناء جيله. ونحن نفهم الآن أكثر معنى رسالة حزقيال؛ فعلى الرغم من معرفته بأن بني إسرائيل لن يسمعوا له، إلا أن عليه الحديث معهم، سواء "إن سمعوا وإن امتنعوا" (٢: ٥، ٧، ٣: ١١)، ليعلموا "أن نبيًا كان بينهم"، لأن مسئولية مصيرهم سوف تقع عليهم، بعد تحذير النبي لهم.

وكعادته يفصِّل حزقيال الفكرة بكل تفاصيلها ويعرض أربعة نماذج: الشرير الذي لم يتم تحذيره، والشرير الذي تم تحذيره، والبار الذي أذنب ولم يتم تحذيره، والبار الذي تم تحذيره". (٣: ١٨-٢١).

ومن المثير للاهتمام أن حزقيال تحديدًا، الذي أُمِر بتحذير الشعب وتحددت مسئوليته الشخصية بالفعل عن مصير أبناء جيله، لم يؤمر بالذهاب إلى الشعب. فحزقيال ليس نمطًا للموبخ عند الأبواب. وبخلاف الأنبياء الذين سبقوه، الذين توجهوا إلى القصور ودور العبادة، والأسوق والأبواب، لتوبيخ الكهنة والأنبياء، والرؤساء والملوك، لا يوصَى حزقيال بالقيام بمثل نشاط مماثل. ويجب الانتباه إلى فقرات مثل:

- وأنت ساكن بين العقارب (٢: ٦).
- أنت ساكن في وسط بيت متمرد (١٢: ٢).
- هناك سكنت سبعة أيام متحيرًا في وسطهم (٣: ١٥).
- وأنا جالس في بيتي، ومشايخ يهوذا يجلسون أمامي (٨: ١).
- فجاء إلي رجال من شيوخ إسرائيل وجلسوا أمامي (١٤: ١، ٢٠: ١).
- ثم كلمني وقال لي اذهب أغلق على نفسك في وسط بيتك (٣: ٢٤).

تشهد هذه الفقرات على أن حزقيال لم يذهب للتوبيخ، لكنه جلس في بيته وكتب كلامه في لفائف سفر – كلمات موزونة ومصاغة – توراة مكتوبة. وربما قام بنشر لفائفه من خلال من كانوا يحضرون إليه.

ورد في الإصحاح ٢٤ الذي يحكي عن بداية حصار أورشليم: "وكان كلام الرب إليَّ في السنة التاسعة، في الشهر العاشر، في العاشر من الشهر قائلًا: " يا ابن آدم، اكتب لنفسك اسم اليوم، هذا اليوم بعينه، فإن ملك بابل قد اقترب إلى أورشليم" (١-٢). نجد هنا فعليًا عملية كتابة كلام النبوءة من فم الرب، لَّما سمع النبي كلام الرب فإنه لم يذهب إلى الشعب ليسمعه، إنما يجلس أولًا ويكتب.

على أية حال فإننا نرى أن الشعب كان هو الذي يذهب إلى النبي ليسمع كلام الرب: "وأنت يا ابن آدم، فإن بني شعبك يتكلمون عليك بجانب الجدران، وفي أبواب البيوت، ويتكلم الواحد مع الآخر، الرجل مع أخيه قائلين: هلم اسمعوا ما هو الكلام الخارج من عند الرب. ويأتون إليك كما يأتي الشعب، ويجلسون أمامك كشعبي، ويسمعون كلامك .. (٣٣: ٣٠-٣١).

قد يخرج حزقيال من بيته أحيانًا للقيام بعمل رمزي (١٢: ٣)، لكن لا يرتبط خروجه بمكان محدد أو رجل بعينه. فهو محمول على أجنحة مخيلته، وروح الرب تحمله في رؤى الرب (٨: ٣، ٤٠: ٢) بين الأرض والسماء إلى الهيكل في أورشليم، أو إلى الوادي المليء بالعظام (٣٧)، أو إلى "جبل عالٍ جدًا" (٤٠: ٢) — ولا نعرف أي جبل هذا. فهذا الخروج مختلف تمامًا عن خروج إشعياء، على سبيل المثال، الذي يخرج إلى آحاز (إشعياء ٧: ٣)، أو إرميا الذي ينزل إلى بيت الفَخَّاري (١٨: ١).

النبي والرب

هناك أنبياء حظوا بتقارب كبير مع الرب (إبراهيم، موسى، إرميا). فهم يتحاورون معه، ويطرحون الأسئلة عليه، ويتوجهون إليه بالمطالب والشكاوى. وحزقيال لا ينتمي إلى هذا النوع من الأنبياء. فهو لا يحظى بكلمات استحسان

مثل: "قبلما صورتك في البطن عرفتك" (إرميا ١: ٤)، أو "أحسنت الرؤية" (١٢). بل إن الرب لا يتوجه إليه باسمه. ولقب "ابن آدم" خير دليل على التناقض التام بين النبي وبين الشخصية السامية، المحاطة بالنار، واللمعان لدرجة أن النبي لا يستطيع الوقوف على قدميه عندها. (على عكس إبراهيم تمامًا، على سبيل المثال، الذي يقف قويًا أمام الرب ويطلب منه العدل لأهل سدوم — التكوين ١٨: ٢٢). وحزقيال تحديدًا — الذي كانت لديه رؤية تجسيدية جدًا للرب — فقد شعر وأحس تمامًا بالاختلاف التام بين الرب والإنسان. لذلك بقي حزقيال سلبيًا في كل رؤيا التكليف؛ فلا يفتح فمه، ولا يقول ولو كلمة واحدة. ففمه يُفتح ويُغلق وفقًا لأمر الرب: "وألصق لسانك بحنكك فتبكم، ولا تكون لهم رجلًا موبخًا، لأنهم بيت متمرد. فإذا كلمتك أفتح فمك ..." (٣: ٢٥-٢٧).

يحتاج الأمر "لا تكون لهم رجلًا موبخًا" إلى تفسير إضافي، ويمكن تفسيره: لا تكون لهم رجلًا موبخًا، طالما أنا لم أفتح فمك. ويقول البروفسور سيجل إنه يجب التمييز بين مفهوم "النبي" وبين مفهوم "الموبخ". فقد كانت هناك مكانة خاصة للموبخ في إسرائيل ولقد ورد ذكره في مواضع كثيرة في العهد القديم، على سبيل المثال: "قد أبغضوا من ينذر بالجور" (عاموس ٥: ١٠)، "ونصبوا فخًا للمنصف في الباب" (إشعياء ٢٩: ٢١)، وخاصة في سفر الأمثال (١: ٢٣، ٥: ١٢، ٦: ٢٣، ٩: ٧، ٤٧: ١٢، ٢٤: ٢٥ وغيرها). وبحسب هذا التمييز يمكننا تفسير ذلك بأن حزقيال كان "يوبخ" حتى تم تكليفه نبيًا، وتحول بعد التكليف من موبخ إلى نبي، وأمره الرب بألا يستمر في كونه رجلًا موبخًا يقول ما يريد. (انظر سيجل: نبي، رقيب، موبخ").

وبالفعل حدث بعد رؤيا التكليف تغييرًا حاسمًا في العلاقة بين الرب والنبي. فقد اعتاد النبي يد الرب القوية، وجرؤ أحيانًا على الرد على كلام الرب بسؤال، أو نداء (٤: ١٤، ٩: ٨). على أية حال نحن لا نجد في سفر حزقيال، كما هو الحال في سفر إرميا، أي توجه مباشر من النبي للرب؛ صلوات وشكاوى.

من المهم أن نقف كذلك على صورة توجه الرب للنبي وعلى الصيغة الافتتاحية في نبوءاته؛ فالصيغة في رؤيا التكليف هي: "فقال لي" (٢: ١، ٣، ٣: ١، ٤، ١٠). وتظهر هذه الصيغة أيضًا فيما يلي (٤: ١٦، ٨: ٥، ٩: ٩، ١١: ٢ وغيرها). لكن الصيغة الأساسية لافتتاحية نبوءاته مختلفة؛ فالنبوءة تبدأ بإعلان النبي:

"أن كلمة الرب صارت إليَّ قائلة"! (٣: ١٧، ٦: ١، ٧: ١، ١٢: ١، ١٣: ١ وغيرها). ثم يؤمر النبي بعدها بالقيام بعمل ما، أو يذكر المكان وزمن النبوءة وخلفيتها. وبعدها فقط يبدأ النبي ذكر كلام رسالته للشعب بلغة: "هكذا قال السيد الرب"، أو: "يقول السيد الرب".

أمثلة:

١. الإصحاح السادس: "١. وكان إلي كلام الرب قائلًا (إعلان النبي)؛ ٢. يا ابن آدم اجعل وجهك نحو جبال إسرائيل، اسمعي كلام السيد الرب (الأمر للنبي)؛ ٣. هكذا قال السيد الرب للجبال وللآكام، للأودية، وللأوطئة ..إلخ (افتتاحية النبوءة نفسها).

٢. الإصحاح ١١: ١٤-١٧: "وكان إليَّ كلام الرب قائلًا (إعلان النبي)؛ يا ابن آدم، إخوتك، إخوتك ذوو قرابتك، وكل بيت إسرائيل بأجمعه، هم الذين قال لهم سكان أورشليم: ابتعدوا عن الرب، لنا أعطيت هذه الأرض ميراثًا (خلفية النبوءة)؛ لذلك قل: هكذا قال السيد الرب: إني أجمعكم من بين الشعوب ..".

٣. الإصحاح ١٣: ١-٣: "وكان إليَّ كلام الرب قائلًا (إعلان النبي)؛ يا ابن آدم، تنبأ على أنبياء بني إسرائيل الذين يتنبأون. وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم، اسمعوا كلمة الرب (الأمر للنبي)؛ هكذا قال السيد الرب، ويل للأنبياء الحمقى .. إلخ".

وكذلك: ١٢: ١٧-١٩، ٢٦-٢٨، ١٥: ١-٦، ١٦: ١-٣، ١٧: ١-٣، ٢٠: ٢-٣، ٢١: ١-٣، ٢٢: ١-٣، ٢٤: ١-٣ وغيرها.

في غالبية الحالات يكون الأمر الإلهي للنبي قصيرًا والنبوءة نفسها تكون طويلة. ففي الإصحاح ١٦ على سبيل المثال يشغل الأمر فقرة واحدة فقط أما النبوءة فستين فقرة. لكن في بعض الأحوال يكون الأمر أطول من النبوءة، كما هو الحال في ١٥: ١-٨ (الأمر خمس فقرات، والنبوءة ثلاث). والإصحاح ١٤ مثالًا مهمًا يشغل فيه إعلان النبوءة للنبي الفقرات من ١٢-٢٠، (عن نوح ودانإل وأيوب)، وفقط بعد تسع فقرات يبدأ كلام الرب: "هكذا قال الرب". وبحسب الصيغ الافتتاحية يمكن القول إن في السفر نبوءات قصيرة للغاية (مثل، ٢١: ١-٥)، ونبوءات طويلة جدًا (مثل، كل الإصحاح ١٦).

الصيغة الافتتاحية "وكان كلام الرب إليَّ"، موجودة كذلك عند إرميا (٢: ١، ١٦: ١، ١٨: ٥ وغيرها). ويتحدث إشعياء باسم الرب مباشرة: "هكذا قال الرب" (٧: ٧، ١٠: ٢٤، ٢٨: ١٦). يوجد عند إشعياء تطابق أكبر بين النبي والرب. وأكبر تطابق موجود لدى هوشع (٤-١٤) حيث لا يوجد فرق نهائيًا بين كلام النبي وكلام الرب. لكن الرؤية التجسيدية جدًا للرب لا توجد عند أي نبي كما هي عند حزقيال.

أنبياء الكذب

نعرف جيدًا من سفر إرميا بوجود أنبياء الكذب في أورشليم وبابل في عصر حزقيال؛ فمسبيو بابل قد تاقوا وتطلعوا إلى عودتهم إلى صهيون. وغرس أنبياء الكذب في قلوبهم أمل الخلاص القريب. وحزقيال لا يتهمهم بالآثام والجرائم كما فعل إرميا. ويتحدث عن أنبياء أبطال أرادوا تشجيع الشعب بكلمات سلام. كما لا يتهمهم بتحويل النبوءة إلى مصدر للرزق كما هو الحال مع ميخا، ومزاعمه الأساسية ضدهم هي:

١. أنهم ليسوا رسل الرب: "الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئًا" (١٣: ٣). "القائلون وحي الرب، والرب لم يرسلهم" (٦). لذلك فإن كلامهم باطل وكذب (٦-٩).

٢. أنبياء سلام: "من أجل أنهم أضلوا شعبي قائلين: سلام! وليس سلام" (١٠). وهم بذلك يقربون الخراب. ولو أنهم حذروا الشعب من الوبال القريب. ربما صحح الشعب طريقه ونجا.

وتلك المزاعم معلومة من سفر إرميا، لكن يوجد في كلام حزقيال تحديدات مثيرة للاهتمام:

١. التشبيهات التي يستعين بها؛ فهو يشبه أنبياء الكذب بالثعالب في الخَرِب (٤). وكما هي الثعالب تزيد من الدمار هكذا أيضًا الأنبياء. فهم لم يحرصوا على تقوية الحوائط والجدران: "لم تصعدوا إلى الثغر، ولم تبنوا جدارًا لبيت إسرائيل للوقوف في الحرب في يوم الرب" (٥). فالشعب يتكيء على جدران ضعيفة للحماية (وثقته في أسوار أورشليم وهيكل الرب)، ولم يكشف الأنبياء للشعب

ضعف الحاجز إنما طلوه بملاط سيء، لإخفاء الحقيقة المرة. غير أنه في اللحظة التي تسقط فيها الأمطار وتهب فيها الرياح، سوف يدمر الجدار وسيسقط مع الملاط، الذي طلاه أنبياء الكذب.

٢. العقاب المرتقب لأنبياء الكذب. تنبأ لهم إرميا بالشتات والفناء (١٤: ١٥، ٢٣: ١٢، ٣٩، ٢٨: ١٦). وهددهم حزقيال نبي الشتات بعقابين آخرين: الأول؛ أنهم أنفسهم لن يطأوا أرض إسرائيل؛ والثاني؛ "في مجلس شعبي لا يكونون، وفي كتاب بيت إسرائيل لا يكتبون" (٩). ولهذه الفقرة معنيان: الأول؛ إنهم لن يكونوا على قائمة المخلَّصين. الثاني؛ لن تحفظ كلمات نبوءاتهم ولن تكتب في إسرائيل. وبالفعل، قد اقتطعت أقوالهم وضاعت. و لم يحفظ الشعب أعمالهم، على الرغم من أنه كان من بينها بالتأكيد أعمال جميلة من الناحية الفنية.

كما يعرف حزقيال أيضًا نبوءات الكذب البائسة والوضيعة للكاذبين عمدًا من أجل مصلحتهم الشخصية. ومن المثير أن كلامه عن هذا النوع من "النبواءت" موجه بشكل خاص إلى نبيات الكذب، اللائي تخمن لطالبيهن مستقبلهم في مقابل القليل من الخبز والشعير ("لأجل حفنة شعير، ولأجل فتات من الخبز"). وفي هذه النبوءة وصف حي ومثير للنساء الساحرات، اللاتي يتنبأنَّ مستعينات بـــ "وسائد" و"مخدَّات" (١٣: ١٨-١٩).

ختامًا، يجب الإشارة إلى أن حزقيال يهدد بعقوبة الموت، ليس فقط أنبياء الكذب إنما أيضًا كل من يطلبهم؛ فإثم من يذهب إلى نبي الكذب، كإثم النبي نفسه: "كإثم السائل يكون إثم النبي" (١٤: ١٠).

الغضب من إسرائيل وأورشليم

إن اتهامات حزقيال الرئيسية ضد إسرائيل ليست في مجال الأخلاق تحديدًا؛ وهو لا يتبع في ذلك عاموس وإشعياء وميخا. فهو لا يردد صراخ الفقراء ولا يحارب حرب المظلومين. وادعاءاته الرئيسية هي أن شعب إسرائيل خائن ومتمرد ضد الرب، عابد للأوثان ولا يحافظ على وصايا التوراة. ويكرر بأشكال مختلفة كلمات: "لأن أحكامي رفضوها وفرائضي لم يسلكوا فيها" (٥: ٦)، "لم تسلكوا في فرائضي، ولم تعملوا حسب أحكامي" (٧). لذلك سيترل الرب على "بيت التمرد" ضربات شنيعة: "تأكل الآباء الأبناء في وسطك، والأبناء يأكلون آباءهم .. وأجعلك خرابًا وعارًا بين الأمم التي حواليك ... إذا أجريت فيك أحكامًا بغضب وبسخط وبتوبيخات حامية .. وإذا أرسلت عليكم الجوع والوحوش الرديئة فتثكلك، ويعبر فيك الوبأ والدم، وأجلب عليك سيفًا. أنا الرب تكلمت" (٥: ١٠-١٧).

يرسل حزقيال على شعبه كل الفواجع التي في العالم بلغة التوراة التوبيخية (اللاويين ٢٦، التثنية ٢٨). وأن خراب أورشليم المنتظر حتمي، وليس هناك أي فرصة للنجاة؛ "لأرض إسرائيل نهاية! قد جاءت النهاية على زوايا الأرض الأربع (٧: ٢).

تحمِل الروح حزقيال في خياله إلى أورشليم حيث يرى الفواحش ترتكب في الهيكل؛ فشيوخ بيت إسرائيل يبخرون سرًا لصور زواحف وبهائم، ويقولون:

"الرب لا يرانا، الرب قد ترك الأرض" (٨: ١٢)؛ والنساء تبكين تموز[١] (٨: ١٤)، والرجال يسجدون للشمس (٨: ١٦). فيبعد الرب سكينته عن هيكله ويرسل ستة ملائكة لتدمير المدينة وأهلها (الإصحاح التاسع). والنبي نفسه يفزع، ويخرّ ساجدًا ويصرخ: "آه، يا سيد الرب! هل أنت مهلك بقية إسرائيل؟" فيرد عليه الرب: "إن إثم بيت إسرائيل ويهوذا عظيم جدًا جدًا، وقد امتلأت الأرض دماء، وامتلأت المدينة جَنفا، لأنهم يقولون: الرب قد ترك الأرض، والرب لا يرى" (٩: ٨-٩).

ويصور حزقيال خيانة إسرائيل للرب، مثل هوشع وإرميا بالزنا والدعارة، لكنه لا يحسن اختيار الكلمات، ولا يرتدع عن أوصاف الزنا الفظة. وتتميز أوصافه بالكشف والتجريد، دون أي ضوابط. وأسلوبه ينقصه التلطف والترفق الموجودان عند هوشع وإرميا. ويظهر جذر الكلمة "ز ن ى" أكثر من عشرين مرة في الإصحاح السادس عشر.

كما يتهم حزقيال أورشليم بذبح الأبناء وتقديمهم كقرابين لمولوخ[٢] (١٦: ٢١). إن مفاسد أورشليم أعظم من مفاسد السامرة، ومفاسد سدوم وعمورة

---

[١] إله الربيع في بابل، وكان زوجًا أو عاشقًا للإلهة عشتاروت. وكان أتباع هذه العبادة يعتقدون أن النبتة الخضراء تذبل وتموت في الصيف الحار لأن تموز قد مات ونزل إلى العالم السفلي. وهكذا كانوا يبكون وينعون موته. أما في الربيع ومع ظهور النبات الجديد فكانوا يخرجون معتقدين أن تموز قد عاد إلى الحياة.

[٢] إله كنعاني كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه بتمريرهم في النار. وكان الكنعانيون يمارسون تقديم الأطفال كذبائح قبل أن يغزو العبرانيون أرضهم بفترة طويلة. إلا أن الشعب وقت حزقيال كانوا يقدمون أولادهم ذبائح بشكل كبير.

(١٦: ٤٨-٥٢). وأخبار إسرائيل هي قصة واحدة طويلة من التمرد والخيانة وعبادة الشجر والحجر وتدنيس يوم السبت (الإصحاح العشرون).

كما أنه يطلق على أورشليم "مدينة الدماء" (٢٢: ٢، ٢٤: ٦، ٩). هكذا أطلق ناحوم على نينوى (٣: ١)؛ فأورشليم مدينة مليئة بالمفاسد، ولا يوجد فيها رجل واحد طاهر. فهي مدينة النجاسة، كل ساكنيها مذنبون ومجرمون، وكذلك كبراؤها وزعماؤها:

أ. كهنتها خالفوا شريعتي ونجسوا مقادسي، لم يميزوا بين المقدَّس والرجس، ولم يعلموا الفرق بين الطاهر والنجس، وحجبوا عيونهم عن أيام سبوتي، فصرت مدنسًا في وسطهم (٢٢: ٢٦).

ب. رؤساؤها فيها كذئاب خاطفة تمزق فرائسها (٢٧).

ت. أنبياؤها قد طَلُوا لهم بماء الكلس، إذ يرون لهم رؤى باطلة، ويعرفون لهم عرافة كاذبة (٢٨).

ث. رؤساء إسرائيل (بحسب التوراة السبعينية تأتي في الفقرة ٢٥ بدلًا من "أنبياؤها")، مثل أسد مزمجر يمزق الفريسة. التهموا نفوسًا، واستولوا على نفائس الناس وكنوزهم، وكنوز أراملها فيها. كما يقول صراحة عن رؤساء إسرائيل: "كل واحد حسب استطاعته، كانوا فيك لأجل سفك الدماء، فيك أهانوا أبًا وأمًا، في وسطك عاملوا الغريب بالظلم، فيك اضطهدوا اليتيم والأرملة" (٢٢-٦-٧).

ج. شعب الأرض (ليس المقصود كثرة الشعب، لكن المؤسسة القضائية الشعبية) ظلم شعب الأرض واغتصبوا سالبين، واضطهدوا الفقير والمسكين وظلموا

الغريب جورًا. فالتمست من بينهم رجلًا واحدًا يبني جدارًا ويقف في الثغرة أمامي مدافعًا عن الأرض حتى لا أخربها فلم أجد (٢٩-٣٠).

لا يوجد نبي في إسرائيل وبَّخ إسرائيل بمثل هذه الشدة وبمثل هذا الغضب، ورسم صورة قاتمة للغاية لأورشليم وأهلها. وعن شدة غضب النبي على أورشليم نجده أيضًا في مَثَل الكور والنفاية في الإصحاح الثاني والعشرين. وهذا المَثَل موجود أيضًا عند إشعياء. لكن هناك يُدخل الرب الشعب في داخل الكور لتنقيته من الشوائب ومن القصدير "وأرد يدي عليك، وأنقي زغلك كأنه بالبورق، وأنزع كل قصديرك. وأعيد قضاتك كما في الأول، ومشيريك كما في البداءة" (إشعياء ١: ٢٥-٢٦). وتأتي هذه التنقية من أجل الإنقاذ: "صهيون تفدى بالحق، وتائبوها بالبر" (٢٧). أما هنا فالتصوير مختلف تمامًا. فالرب يجمع كل أهل أورشليم في كور "لنفخ النار عليها لسبكها. كذلك أجمعكم بغضبي وسخطي وأطرحكم وأسبككم. فأجمعكم وأنفخ عليكم في نار غضبي، فتسبكون في وسطها. كما تسبك الفضة في وسط الكور، كذلك تسبكون في وسطها فتعلمون أني أنا الرب سكبت سخطي عليكم" (٢٠-٢٢). ولا يقصد النبي نهائيًا التنقية من أجل التطهير والنقاء لكن الصهر من أجل التدمير (يجب بالمناسبة الانتباه إلى استخدام حروف ح، ك، ت والتلاعب اللفظي بالكلمات "תוך, נתך").

كما علَّمَنا المثل عن القدر وشرائح اللحم (الإصحاح ٢٤) أن كل أهل أورشليم بلا استثناء، سيحرقون بالنار ولن يبقى منهم أحد. فالنبي لم يؤمن بإمكانية تطهير أورشليم وتخليصها. فهذه المدينة التي تدنست برجسها، لا يمكن أن تتطهر إلا بالنار الحارقة المفنية، وبالخراب التام.

ما الغرض من الضربات الفاجعة والخراب؟ - غرس مخافة الرب، ومعرفة الرب في قلب الشعب:

- يعلمون أني أنا الرب — ٥: ١٣، ٦: ١٠، ١٤، ٧: ٢٧ وغيرها.
- فتعلمون أني أنا الرب — ٦: ٧، ١٣، ٧: ٤، ٩، ١٢: ٢٠، ١٣: ٢٣، ١٤: ٨، ١٧: ٢١ وغيرهم.

غير أن قويفمان لا يقبل توبيخ حزقيال كدليل على الأوضاع الدينية والأخلاقية لأورشليم في تلك الفترة؛ فزحقيال — حسب قويفمان — يميل إلى المبالغة. ويرى الأمور من منظور أعوج لخيال شرقي حماسي ملتهب. ويرفض تمامًا الرؤية التاريخية، فيرى ظلال الماضي من عصر منسَّى. وأن الإصحاحات ١٦، ٢٠، ٢٣ عن فواحش أورشليم، ليست إلا إصحاحات شعرية خيالية، بمقدمات ملتوية يصعب إيجاد الواقع فيها. فالمعلومات التاريخية المعتمدة في الأدب المقرائي تنكر تمامًا هذه "الفواحش" التي يعددها حزقيال في أورشليم.[١]

أهل أورشليم ومسبيو بابل

بعد سبي يهوياكين ظن البقية في أورشليم أن الأرض قد أورثت لهم، وأن أسوار المدينة وقداستها سوف تحميهم مثل القدر الذي يحفظ اللحم في دخله (١١: ٣). لكن النبي ينذرهم بقوله إن المدينة لن تكون لهم قدرًا، وأنهم لن يكونوا فيها لحمًا. "وأخرجتكم من وسطها، وأسلمكم إلى أيدي الغرباء، وأجري فيكم أحكامًا" (١١: ٩). إن عدم تعرضهم للسبي أوجد فيهم شعورًا بالتعالي على مسبيي بابل؛ فهاهم يسكنون المدينة المقدسة، وهيكل الرب موجود في وسطهم. غير أن النبي

[١] قويفمان ٤٩٨-٥١٦

يفضل مسبيي بابل عليهم، فالهيكل في أورشليم قد تدنس بفواحشهم. وشيوخ أورشليم يقولون: "الرب قد ترك الأرض" (٩: ٩)، وعندما ظنوا أن الرقابة الإلهية قد غابت عنهم، أذنبوا بلا خجل، لكن النبي يعطي كلماهم معنى جديدًا. لقد ترك مجد الرب بالفعل الهيكل (١٠: ١٨)، والمدينة (١١: ٢٣)، بكل ما تحمله الكلمة من معاني، وليس لديهم من يخلصهم ويحميهم.

لقد قال أهل أورشليم عن مسبيي بابل: "ابتعدوا عن الرب، لنا أعطيت هذه الأرض ميراثًا" (١١: ١٥، ٣٣: ٢٤). لكن النبي يشجع إخوانه المسبيين بقوله إنه على الرغم من أنهم قد أُبعدوا عن أورشليم، إلا أن السكينة (الشخينة)[١] معهم: "فإني أكون لهم مقدسًا صغيرًا في الأراضي التي يأتون إليها" (١١: ١٦) .. "وأعطيكم أرض إسرائيل" (١٧).

يتساوى التطرق إلى مسبيي بابل عند نبيي الجيل: إرميا وحزقيال (انظر إرميا ٢٤، ٢٩). فكلاهما أراد أن يستئصل من قلب المسبيين وهم أن سبيهم قصير وأنهم سرعان ما سيعودون إلى أرضهم. وأنه ليس هم الذين سيعودون إلى أورشليم، لكن بقايا خراب أورشليم هم الذين سيلحقون بهم في القريب. ولقد أوجد كلاهما أيديولوجية إمكانية الحياة اليهودية في السبي. فالسكينة (الشخينة) في السبي هي بمثابة "مقدس صغير" ومع ذلك، فإنها موجودة هناك أيضًا. وتنبأ كلاهما كذلك أن الخلاص سيأتي من السبي.

---

١ في القبالة، حضرة الله أو الشيكينة؛ هي الترجمة لكلمة عبرية تعني "مسكن" أو "تسوية" ويشير إلى مسكن أو استقرار الوجود الإلهي لله. هذا المصطلح ليس موجودًا في الكتاب المقدس، وهو من الأدب الحاخامي. والمعنى المجازي هو حضر الله بين جماعات تنشطه مثل في المعابد أو الهيكل أو خلال الصلوات.

علاقة حزقيال بالتمرد في بابل

عارض حزقيال مثله مثل إرميا تمرد أورشليم في بابل، وعبَّر عن ذلك في صورة مَثَل عن نسرين، وشجرة أرز وكرمة في الإصحاح السابع عشر.

إن النسر كبير وجميل (وهو ملك بابل) قد اقتطف قمة شجرة الأرز العالية (ملك بيت داود، أو يهوياكين ورؤساءه)، وغرس مكانها كرمة قصيرة (باب شعب الأرض، أو صدقيا) في حقل مروي بالماء (أورشليم). لم تكن هذه الكرمة شجر أرز عظيمة، لكنها ضربت جذورها ونمت وانتشرت، وكان من الممكن أن تصبح مع الأيام كرمة عظيمة. لقد سمح لها النسر بالنمو والتطور، لتكون وفية له، لكنها لم تبق وفية له، ومدت أغصانها إلى نسر آخر بدون أي داع، نسر جميل وعظيم هو أيضًا (مصر). كيف سيكون مصيرها؟ هل ستنجح؟ سوف يأتي بالطبع النسر الأول ليقتلعها من جذورها.

يقوم النبي نفسه بتفسير المَثَل (١٢–١٥). وخطيئة صدقيا الكبرى هي احتقار القسم ونقض العهد الذي قطعه مع نبوخذ نصر. لقد صنع ملك بابل خيرًا عظيمًا معه وقطع معه عهدًا "لتكون مملكة حقيرة ولا ترتفع، لتحفظ العهد فتثبت"، لكن صدقيا نقض العهد و لم يوف بالقسم.

هذا المَثَل مأخوذ من عالم الحيوان والنبات وهو ما يشبه الأحاجي الأخرى في العهد القديم مثل: أحجية كرمة إشعياء، العوسج والأرز ليهوآش (الملوك الثاني ١٤: ٩)، ومَثَل يوثام وغيرهم. وهذه ليست بقصة حقيقية، لكنها قصة من الخيال بخلاف مَثَل الكرمة. ولأن المَثَل معقد فإن النبية يطلق عليها أيضًا اسم "أحجية".

والإصحاح السابع عشر هو من أجمل إصحاحات سفر حزقيال، فيه الكثير من الفقرات المكتوبة شعرًا. غير أن حزقيال لا يحرص في شعره على شكل التقابل التقليدي لأشعار العهد القديم، وأبياته مزيج من الشطرات الطويلة والقصيرة:

نسر عظيم، كبير الجناحين،
طويل القوادم، واسع المناكب،
ذو تهاويل،
جاء إلى لبنان وأخذ فرع الأرز؛
قصف رأس خراعيبه، وجاء به إلى أرض كنعان،
وجعله في مدينة التجار.
وأخذ من زرع الأرض، وألقاه في حقل الزرع،
وجعله على مياه كثيرة، أقامه كالصفصاف ..
فصارت كرمة، وأنبتت فروعًا، وأفرخت أغصانًا ..
في حقل جيد، على مياه كثيرة، هي مغروسة،
لتثبت أغصانها وتحمل ثمرًا، فتكون كرمة واسعة.

الإصحاح كله غني بأسلوبه، ومفرداته (عدد الكلمات يظهر هنا فقط في العهد القديم)، وبصوره الحية، وذروته — كلمات المواساة في ختامه. ويستخدم النبي نفس الرموز لكن بمعنى عكسي:

وآخذ أنا (وليس ملك بابل) من فرع الأرز العالي (بيت داود)، وأغرسه (في أرض إسرائيل وليس في بابل)؛ وأقطف من رأس خراعيبه (ليس من أجل نفيه، لكن

من أجل غرسه في أرضه)؛ وأغرسه على جبل عال وشامخ، في جبل إسرائيل العالي أغرسه (إبراز جبال إسرائيل العالية والجميلة، على عكس أراضي بابل المستوية). فينبت أغصانًا ويحمل ثمرًا، ويكون أرزًا واسعًا (وليس "كرمة منتشرة") .. فتعلم جميع أشجار الحقل (الشعوب القصيرة) أني أنا الرب. (١٧: ٢٢-٢٤).

وضعت الشجرة الرفيعة، ورفعت الشجرة الوضيعة،

وييست الشجرة الخضراء وأفرخت الشجرة اليابسة،

انا الرب تكلمت وفعلت

شريعة الأخلاق عند حزقيال

الأساسان الرئيسان في شريعة الأخلاق عند حزقيال هما: المسئولية الشخصية، والتوبة.

ويظهر مبدأ المسئولية الشخصية في عدة صور:

١. كل شخص مسئول عن أفعاله، عن أفعاله هو فقط؛ فالبار لا يعاقب على أفعال الأشرار، والشرير لن يستغل بسبب الأبرار، إنما "النفس التي تخطيء هي تموت" (١٨: ٤، ٢٠). "بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون" (٢٠).

٢. كل جيل مسئول عن أفعال، عن أفعاله هو فقط. فالأبناء غير مسئولين عن أفعال آبائهم، والآباء غير مسئولين عن أفعال أبنائهم الكبار. وقد وقفنا عند ذلك في حديثنا عن إرميا، بأن هذه الفكرة كانت مطلوبة بشكل خاص في جيل الخراب، من أجل تقوية الإيمان بإمكانية الخلاص في قلب الشعب. وكان هناك إحساس لدى هذا الجيل أنه يعاقب على ذنوب الأجيال السابقة (مراثي إرميا ٥: ٧)، ولقد سبب هذا الشعور اليأس والإحباط. وكانت هناك حاجة إلى التأكيد

على أن الجيل الجديد غير مسئول عن فواحش الجيل السابق. ومثله مثل إرميا يرفض حزقيال أيضًا المثل الشعبي: "الآباء أكلوا حصرما، وأسنان الأبناء ضرست" (إرميا ٣١: ٢٩)، بل يؤكد ويفصل شريعة الثواب الشخصي، ويقدم ثلاثة نماذج: (أ) البار، الذي لديه ابنًا شريرًا؛ (ب) الابن الشرير للأب البار؛ (ج) الابن البار للأب الشرير (١٨: ٩-١٧).

لقد كان مبدأ أن الأبناء لا يحملون آثام الآباء جديدًا على سامعيه، وعلم النبي أن سامعيه سيدهشون ويتساءلون: "لماذا لا يحمل الابن إثم الأب؟" فقد تربَّى بنو إسرائيل في فترة الهيكل الأول على الاعتراف بالمسئولية المتبادلة المستمرة والمتراكمة من جيل إلى جيل. فجيل صدقيا عوقب ليس على آثامه هو فقط إنما على آثام منسَّى. لذلك يؤكد حزقيال على الفكرة ويوضحها من كافة جوانبها، ونواحيها (١٤-٢٠).

٣. خواتيم الأعمال هي الفاصلة — لا يكفي أن يكون جيل واحدٌ مسئولًا عن أفعال الأجيال الأخرى. حتى في محاسبة الإنسان لنفسه لا يجب أن يحاسب على أفعاله الماضية، بل عن أفعاله الأخيرة فقط؛ فالتائب "يحيا لا يموت؛ كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، في بره الذي عمل يحيا" (٢١، ٢٢). وكذلك أيضًا بالعكس: فالبار الذي أصبح شريرًا "كل بره الذي عمله لا يذكر، في خيانته التي خانها وفي خطيَّته التي أخطأ بها يموت" (٢٤).

ويبدو أن هذه الفكرة أذهلت السامعين. فكيف يمكن أن الرب لا يحاسب الإنسان على أعماله نهائيًا، لكن فقط على أفعاله الأخيرة؟ ويقتبس النبي سؤال سامعيه مرتين، بل ويجيب عنه مرتين: "وأنتم تقولون ليست طريق الرب مستوية، فاسمعوا الآن يا بيت إسرائيل: أطريقي هي غير مستوية؟ أليست طرقكم غير

مستوية؟ إذا رجع البار عن بره وعمل إثما ومات فيه، فبإثمه الذي عمله يموت" (٢٥، ٢٦، ٢٩).

إذن المسئولية الأخلاقية لا تنتقل من رجل إلى رجل، ولا من جيل إلى جيل، بل وليس إلى ما بعد الحاضر في حياة شخص واحد. وتقع المسئولية على هذا الجيل فقط، وعلى رجل هذا الرجل، وعلى هذه الأفعال الأخيرة التي نواجهها الآن.

إن شريعة الأخلاق عند حزقيال تلقي بالضوء على قضيتين مهمتين جدًا في النبوة بشكل عام: جوهر الرسالة النبوية، وجوهر الإرادة الإلهية. فالنبي مرسل إلى جيله. والنبوة محددة في إطار زمنه ومكانه. وقد كانت هناك حاجة في جيل حزقيال إلى التأكيد على هذه الأفكار، لتستأصل اليأس من قلب الشعب وتغرس فيه الإيمان بقوة التوبة وبإمكانية الخلاص. إن مبدأ الأفعال الأخيرة هي الحاسمة، شرط ضروري لاحتمالية التجديد، والإيمان بالمستقبل، والتوبة والخلاص. يجب على الجيل المتعب أن يتحرر من أزمة الماضي الكئيب والسير إلى الأمام في طريق جديد نحو ضوء النهار الجديد.

المسألة الثانية التي لها أهمية أساسية في هذه القضية، هي جوهر الإرادة الإلهية. فهذه الإرادة ليست حكمًا مسبقًا غير قابل للتغيير. فالإرادة تتغير بحسب أفعال البشر. وبحسب كلام بوبر فإن شريعة حزقيال نفسها ليست أساس عقيدة شامل، لكنه أساس مطلوب لذلك الجيل نظرًا لظروفه الخاصة. فوحدة الشعب قد تمزقت في هذا الجيل، و لم يتحدث النبي إلى الشعب المتحد، بل إلى جمع من الأفراد. فلا يضمن أحد الآخر. وكل شخص يقف الآن بمفرده أمام الرب. والشعب كحليف غير موجود مرة أخرى إلا إذا قطع الرب معه عهدًا جديدًا. لكن في المرحلة الانتقالية فإن التعامل مع الرب متاح، وهو بمثابة عهد خاص بينه وبين الرب. ولمثل

هذه المرحلة الانتقالية أرسل حزقيال من أجل إقامة مفهوم الرب الذي يجازي الفرد؛ على الرغم من أنه في موضع آخر وفي وقت آخر سوف يحل الهلاك بالبار والشرير معًا؛ ولا تناقض بين مبدأ المسئولية الشخصية وبين ما ورد في الإصحاح ٢١: ٨-٩: "وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب، هآنذا عليك وأستل سيفي من غمده فأقطع الصدِّيق والشرير ..". وأن خراب أورشليم، وقطع أهلها هو عمل عقابي متبادل نابع من المسئولية المتبادلة، لكن هذا العقاب لا يتناقض مع مبدأ إنقاذ الفرد وخلاصه.

إن التأكيد على الأعمال الأخيرة للإنسان يفسر الأهمية الكبيرة للتوبة. فما عظمة قوة التوبة، التي تمحو كل الأعمال السيئة السابقة للإنسان: "كل معاصيه التي فعلها لا تذكر" (١٨: ٢٢). ولافرق بين البار الذي لم يخطيء، وبين الشرير التائب. فحزقيال يقدم تعليلًا مهمًا جدًا لمبدأ التوبة: "هل مَسَرَّة أُسَرُّ بموت الشرير؟ يقول السيد الرب؟ ألا برجوعه عن طرقه فيحيا!" (٢٣). إن الرب لا يتعجل بإماتة الشرير، لأنه يريد توبته. ومن هذا المنطلق الفكري يمكن التوصل بسهولة إلى إحدى الإجابات عن إشكالية "الشر والخير له". إن الرب لا يعجِّل بعقابه، لأنه ينتظر توبته. لذلك لا يطرح حزقيال السؤال الذي طرحه إرميا: "لماذا تنجح طريق الأشرار؟" فمبدأ التوبة يجيب عن هذا التساؤل.

تشرح وجهة نظر حزقيال حول قوة التوبة فكرة أخرى في شريعته، وهي: الإفشال الموجه للإنسان أو للشعب، وإيقاع الرب له في الخطيئة، كي لا يتوب وكي لا تمحى آثامه الماضية. إن منع إمكانية التوبة هو من العقاب الذي ينزله الرب على الإنسان أو الشعب أحيانًا، الذين لا يستحقون النجاة، بعد أن كثرت آثامهم.

بهذه الطريقة يمكننا فهم كلمات حزقيال عن أنبياء الكذب: "وإذا ضل النبي وتكلم كلامًا، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبي، وسأمد يدي عليه وأبيده من وسط شعبي إسرائيل" (١٤: ٩). فنبي الكذب لا يستحق النجاة، لذلك يوقع به الرب لكي يُدمَّر.

لذلك تنبأ حزقيال على لأورشليم بالخراب التام، بدون أي إمكانية للنجاة (على عكس إرميا)، لأنه آمن أن الكيل قد طفح من آثام أورشليم، وأن الرب لن يسمح لها بالتوبة. وإن الخلاص من الممكن أن يتحقق فقط من وسط الشتات. أما إرميا فقد خيَّر أورشليم وصدقيا بين الحياة (الخضوع لبابل، كعقاب)، وبين الموت (التمرد في بابل). ولا يقدم حزقيال مثل هذا الاختيار؛ فالخضوع لبابل ليس بالعقاب الكافي، إنما العقاب الوحيد هو الخراب.

هكذا يمكن أيضًا تأويل كلام حزقيال الغامض: "وأعطيتهم أيضًا فرائض غير صالحة، وأحكامًا لا يحيون بها ... لأبيدهم حتى يعلموا أني أنا الرب" (٢٠: ٢٥-٢٦). ويمكن تفسير هذا الفقرة بعدة طرق:

أ. إذا كان النبي يعتبر إسرائيل شعبًا شريرًا منذ صغره، فمن الضروري أن يظن أن هذا الشعب قد حصل على فرائض شديدة وقاسية، وقيود، لمنع روحه الشريرة، وللحد من شهواته ومن أخلاقه السيئة وتقييدها[1].

ب. يفسرها رادق: "بما أنهم مقتوا شرائعي ووضعوها في يد أعدائي، ليضعوا شرائعهم فيها، لا تكون جيدة لهم". الحديث هنا ليس عن شرائع الرب نهائيًا إنما عن شرائع الشعوب الأجنبية، التي ستستعبد إسرائيل.

---

[1] קלויזנר, הנביאים, 144.

ت. بحسب راشي: "وضعتها في يد صانعها ليفشلوا بذنبهم". وهو أكثر التفاسير قبولًا؛ فالرب يفشلهم كي لا يستطيعوا التوبة مرة أخرى. تلك الشرائع الجيدة "التي إن عملها الإنسان يحيا بها" (٢٠: ١١)، من الممكن أن تتحول إلى غير طيبة، عندما لا ينفذها الإنسان، فهو سوف يعاقب لعدم تنفيذها. ومن الممكن أن تصبح هذه الشرائع أيضًا مصدرًا للحياة، وكذلك مصدرًا للموت. فعندما ينقض الشعب العهد، فإن هذه الشرئع الطيبة نفسها تجلب عليه الموت، وتكون بمثابة شرائع غير طيبة، كما قال هوشع: "فإن طرق الرب مستقيمة، والأبرار يسلكون فيها، وأما المنافقون فيعثرون فيها" (١٤: ١٠). ويقول حزقيال كذلك: "من أجل ذلك أقضي عليكم يا بيت إسرائيل، كل واحد كطرقه ...توبوا وارجعوا عن كل معاصيكم التي عصيتم بها، ولا يكون لكم الإثم مهلكة" (١٨: ٣٠). فيجب الإسراع والتوبة، قبل أن يعظم الإثم ويصبح عثرة لا يمكن محوها.

إن عظمة التوبة هي نفسها سبب الخطر الكامن فيها، لأن في مقدورها تطهير الأشرار. وأحيانًا تكون هناك حاجة أخلاقية إلى منع توبة إنسان، أو شعب وإفشاله.

"وبيت إسرائيل يقول: ليست طريق الرب مستوية. أطرقي غير مستقيمة، يا بيت إسرائيل؟ أليست طرقكم غير مستقيمة!" (٢٩). إن ما يتناقض مع المنطق والعدل ليس منع توبة الشرير لكن جريمتهم نفسها!

لكن بعد الخراب (الذي لم يعد في الإمكان منعه!) يصبح في مقدور المسببين بدء حياة جديدة، وصنع قلب جديد وروح جديدة (٣١). وليس من قبيل المصادفة أن يؤكد حزقيال كثيرًا على كلمة "جديد". فالماضي لا يستعبد المستقبل.

وأمام الجيل الجديد حياة جديدة، ونجاة وخلاص. وكانت هذه مهمة حزقيال الكبيرة مع جيله!

نوح ودانِيال وأيوب (الإصحاح الرابع عشر)

وكمثال على شريعته عن المسئولية الشخصية يعرض حزقيال لثلاثة صدِّيقين عظام معروفين: نوح ودانِيال وأيوب؛ فعندما يحل الوبال على بلد عاصٍ، يعيش فيها هؤلاء الصديقون ولن ينجو سواهم؛ حتى أبناءهم لن ينجو بفضلهم.

ولتوضيح الفكرة والتأكيد عليها يكرر حزقيال أربع مرات الأمر نفسه في أربع نماذج للكوارث: الجوع، الوحوش الرديئة، السيف، الوباء. كثرة الأمثلة لا تضيف شيئًا من الناحية المبدأية، لكن من المهم مقارنتها ببعضها البعض؛ لذلك سوف نقوم بتقسيم كل مثال إلى خمس وحدات كالتالي: ١. الرجال الثلاثة؛ ٢. نوح ودانِيال وأيوب؛ ٣. قَسَم الرب؛ ٤. عدم نجاة الآخرين؛ ٥. نجاة الصدِّيقين.

المثال الأول: كارثة: الجوع (١٤: ١٢-١٤) :

١. وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة،

٢. نوح ودانِيال وأيوب،

٣. ________

٤. ________

٥. إنما يخلصون أنفسهم ببرهم.

المثال الثاني: كارثة: الوحوش الرديئة (١٤: ١٥-١٦):

١. وفي وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة،

٢. ________

٣. حي أنا، يقول السيد الرب،

٤. إنهم لا يخلصون بنين ولا بنات.

٥. هم وحدهم يخلصون والأرض تسير خربة.

المثال الثالث: كارثة: السيف (١٤: ١٧–١٨):

١. وفي وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة،

٢. ________

٣. حي أنا، يقول السيد الرب،

٤. إنهم لا يخلصون بنين ولا بنات.

٥. هم وحدهم يخلصون.

المثال الرابع: كارثة: الوباء (١٤: ١٩–٢٠):

١. ________

٢. وفي وسطها نوح ودانِإل وأيوب،

٣. فحي أنا، يقول السيد الرب،

٤. إنهم لا يخلصون ابنًا ولا ابنة،

٥. إنما يخلصون أنفسهم ببرهم.

جلي للناظرين أن كل مثال له لون خاص به، وأن هناك قدر من التطور في الأمثلة؛ ففي المثال الأول الحديث فقط عن أن الصديقين سيخلّصون، ولا تجديد في ذلك، لذلك لا حاجة إلى إضافة قسم الرب لإثبات هذا المبدأ. وفي الأمثلة الأخرى

ذكر أن الآخرين لا يخلَّصون، وهذا هو التجديد في النبوءة لذلك أضيف القسم كي يعضد الفكرة. وفي المثال الثاني لم يذكر: "وقطعت منها الإنسان والحيوان"، لأن الحيوان هناك هو الذي يجبر الإنسان. والتطور واضح في القسم الرابع على وجه التحديد (عدم تخليص الآخرين): في المثال الأول لم يذكر الوباء نهائيًا، وفي المثال الثاني — لا يخلصون لا البنين ولا البنات. وفي المثال الثالث — لن يخلص البنين والبنات (نفي صريح). وفي المثال الرابع — لن يخلص لا الابن ولا الابنة — في صيغة المفرد، فحتى الابن الواحد أو الابنة الواحدة لن يخلص.

يعدُّ هذا الإصحاح نموذجًا ممتازًا حول كيف جلس حزقيال وصاغ كلماته بصور مختلفة وصيغ متنوعة من أجل رسم وتجسيد الفكرة من كافة جوانبها. ويترك هذا الإصحاح انطباعًا عن مجموعة روايات حول فكرة رئيسية، ولا شك في أن هذه النبوءة كانت ارتجالية، فجميع هذه الأمثلة لم تكن كلامًا إلهيًا، والذي يبدأ فقط في الفقرة رقم ٢١ "هكذا قال السيد الرب"- إنما هي خلفية للنبوءة. كما يجب أن نشير إلى أن الخلفية في هذا الإصحاح أطول من النبوءة نفسها، كما أن الرابط بينهما ضعيف للغاية.

ختامًا يجب أن نشير إلى أنه غني عن البيان أن دانإل المذكور هنا ليس المذكور في سفر دانيال وتعليل ذلك:

١. في سفر دانيال كُتِب الاسم بحرف الياء، والياء مشكولة بالإمالة الطويلة، أما هنا فالاسم ليس فيه ياء، والإمالة الطويلة تحت حرف الألف. بذلك يكون الاسمان مختلفان، ولقد وقف الحاخام داود قمحي على ذلك.

٢. في الثلاثي نوح ودانإل وأيوب، دانإل هو الشاذ. فنوح وأيوب ليسا إسرائيليين، وعاشا في العصور القديمة، قبل حزقيال بمئات السنوات، وقبل نشأة

الأمة العبرية. وعلى عكسهم فإن دانيال خاصتنا يهودي، وليس كافيًا أنه كان صديقا قديمًا، لكنه كان أصغر من حزقيال؛ فدانيال هو من الأبناء المسبيين إلى بابل في عصر يهوياقيم، وقد عمل في عصر بلشاصر أي حتى عصر الحكم البابلي؛ فكيف؛ يمكن أن يذكر حزقيال دانيال الشاب اليهودي مع صدِّيقَين قديمين شهيرين من الأتقياء؟

كانت ستظل هذه الإشكالية بدون إجابة لولا الاكتشاف المهم لكتابات أوجاريت التي ورد فيها بالفعل اسم دانإل الرجل الكنعاني، الحكيم الصدِّيق؛ وهو أيضًا غير إسرائيلي كنوح وأيوب، وعاش كذلك في عصر قبل تكوُّن الأمة الإسرائيلية.

كان حزقيال يقصد دانإل الكنعاني، وليس دانيال اليهودي. كما يذكر حزقيال في كلامه إلى ملك صور: "هآنت أحكم من دانإل" (٢٨: ٣). والاسم هنا أيضًا لحكيم شهير معروف لدى شعوب كنعان، ويفترض حزقيال أن ملك صور سيفهم من يقصد.

البار والشرير

من بين كلماته عن المسئولية الشخصية في الإصحاح الثامن عشر وصف حزقيال لصورة البار وصورة الشرير. إن وصف وتعريف البار والشرير موجود في العهد القديم بأقسامه الثلاثة. كما يوجد في كلام الأنبياء القدامى صيغ مركزة تلخص صفات الإنسان المرغوب لدى الرب، ومطالب الرب الأساسية من الإنسان. فبحسب عاموس الرب يطلب العدل والبر بشكل خاص (٥: ٢٤). وبحسب هوشع فإنه يطلب الحقيقة والرحمة ومعرفة الرب (٤: ١، ٦: ٦)؛ وبحسب ميخا فإنه يطلب "أن تصنع الحق، وأن تحب الرحمة، وتسلك متواضعًا مع إلهك"

(٦: ٨)؛ وبحسب إرميا فمعرفة الرب، والرحمة والقضاء والعدل (٩: ٢٣). ويفسر إشعياء ذلك أكثر: "اغتسلوا، تنقُّوا، اعزلوا شرَّ أفعالكم من أمام عيني. كُفُّوا عن الشر. تعلموا فعل الخير. اطلبوا الحق. انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة" (١: ١٦-١٧)؛ وفي موضع آخر يقول: "السالك بالحق المتكلم بالاستقامة، الراذل مكسب المظالم، النافض يديه من قبض الرشوة، الذي يسد أذنيه عن سمع الدماء، ويغمض عينيه عن النظر إلى الشر" (٣٣: ١٥).

لا شك في أن الأنبياء المذكورين قد أكدوا بشكل خاص على الفضائل الأخلاقية للبار. لكن الأمر ليس هكذا بالنسبة لحزقيال؛ فالبار يوصف عنده كالتالي:

- وفعل حقًا وعدلًا (التثنية ١٦: ١٩-٢٠)،
- لم يأكل على الجبال (التثنية ١٢: ٢) — المقصود ذبائح عبادة الأوثان،
- ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل (اللاويين ١٩: ٤)،
- ولم ينجس امرأة قريبه (اللاويين ١٨: ٢٠)،
- ولم يقرب امرأة طامثًا (اللاويين ١٥: ١٩، ٢٥، ١٨: ١٩)،
- ولم يظلم إنسانًا (اللاويين ١٩: ٣٣، ٢٥: ١٤)،
- رد للمديون رهنه (الخروج ٢٢: ٢٥) يرد الدين للدائن،
- لم يغتصب اغتصابًا (اللاويين ١٩: ١٣)،
- بذل خبزه للجوعان،
- وكسا العريان ثوبًا،

- ولم يعط بالربا، ولم يأخذ مرابحة (الخروج ٢٢: ٢٤، اللاويين ٢٥: ٣٦، التثنية ٢٣: ٢٠).
- كفَّ يده عن الجور،
- أجرى العدل الحق بين الإنسان والإنسان (اللاويين ١٩: ١٥، ٣٥)،
- وسلك في فرائضي وحفظ أحكامي ليعمل بالحق، فهو بار، حياة يحيا (حزقيال ١٨: ٥-٩).

ويمكن إيجاز هذه القائمة في عشرة عناصر، وهي بمثابة الوصايا العشر لمطالب حزقيال:

١. صنع الحق والعدل،
٢. تحريم عبادة الأوثان،
٣. طهارة الحياة الجنسية،
٤. الامتناع عن الغش،
٥. إعادة الرهن،
٦. تحريم اغتصاب الأشياء،
٧. الرحمة بالفقراء،
٨. تحريم التعامل بالربا،
٩. الامتناع عن كافة أفعال الظلم،
١٠. مطلب عام بتنفيذ كافة الأحكام والفروض.

وإذا قارنًّا بين هذا الوصف وبين وصف الأنبياء الآخرين يمكننا أن نقول:

أ. إن حزقيال، كعادته، يطيل ويفصِّل أكثر في وصفه ومطالبه.

ب. إنه لا يتجاهل بالطبع المطالب الأخلاقية والوصايا بين الإنسان وأخيه، لكنه يضم إلى قائمته مطالب أخرى: الابتعاد عن عبادة الأوثان، طهارة الحياة الجنسية؛ والمطالب العامة بحفظ فروض وأحكام الرب. ويشمل هذا الطلب كذلك أحكام العبادات، وهي مكتوبة بصيغة سفر اللاويين: "فتحفظون فرائضي وأحكامي، التي إذا فعلها الإنسان يحيا بها، أنا الرب" وبصور متعددة في: اللاويين ١٨: ٤، ٥، ٢٦، ١٩: ٣٧، ٢٠: ٢٢، ٢٦: ٣).

لا يوجد عند حزقيال تفريق بين الوصايا التي بين الإنسان وأخيه، وبين وصايا الإنسان والمكان. فهو لا يؤكد بشكل خاص على أهمية الفضائل الأخلاقية ولا يقول إن الأخلاق مفضلّة على العبادات؛ فحزقيال هو نبي الشريعة، تحديدًا نبي سفر اللاويين، وتتسق شخصية البار عنده مع مطالب الشريعة. فضلًا عن أنه لم يرفض في أي موضع عبادة القرابين، لكن على العكس، فهو يشتاق إلى العبادة المقدسة: "وهناك أطلب تقدماتكم وباكورات جزاكم مع جميع مقدساتكم برائحة سروركم أرضى عنكم" (٢٠: ٤٠-٤١). وفي رؤيا آخر الأيام عند حزقيال يحتل مبنى الهيكل وترتيبات العبادة المقدسة الحيِّز الأكبر (الإصحاحات ٤٠-٤٨).

يقول قويفمان إن حزقيال هو نبي العبادات. فلا يوجد في سفره أي جدال ضد الثقة في العبادة ولا يوجد تناقض بين الأخلاق والعبادات. ويعدد الأخطاء الاجتماعية، لكنه يدمجها مع سائر المخالفات. فحزقيال الوحيد الذي يهدد بالخراب

القومي جراء المخالفات الشعائرية. وهو الوحيد الذي يقدم بنفسه الشرائع الدينية، وشرائع القرابين، والنجاسة والطهارة[1].

ويأتي في مقابل البار أو الصدِّيق الشرير، سافك الدماء، الذي أكل على الجبال، ونجس امرأة قريبه، وظلم الفقير والمسكين، واغتصب اغتصابًا، ولم يرد الرهن، ورفع عينه إلى الأصنام، وفعل الرجس، وأعطى بالربا وأخذ المرابحة (١٨: ١٠-١٣).

وهذه القائمة مقابلة لأخلاق البار الصدِّيق، لكن لم يذكر عن البار الصدِّيق إنه "سفك الدماء" وأنه "لم يفعل الرجس". وفي المقابل لم يذكر في قائمة الشرير كل تفاصيل البار الصدِّيق. وهناك قائمة ثالثة موازية موجودة في نفس الإصحاح عن الصدِّيق؛ ابن الشرير (١٥-١٧)، وينقصها أيضًا بعض المطالب، مقارنة بالقائمة الأولى، وبذلك تكون أمامنا الظاهرة التي وقفنا عليها في الإصحاح الرابع عشر، حول كيفية كتابة حزقيال لروايات مختلفة حول فكرة رئيسية واحدة. من الناحية المبدئية ليست هناك أي حاجة إلى العودة وتفصيل فضائل البار والشرير سلبًا وإيجابًا أربع مرات.

وإذا تمعنا مرة أخرى في القائمة الكاملة الأولى، سنتمكن من الوقوف على بعض التشابهات في العهد القديم، فضلًا عن التأثير الواضح للتوراة بشكل عام، وسفر اللاويين بشكل خاص:

١. وفعل حقًا وعدلًا – عاموس ٥: ٢٤، إشعياء ١: ٢٨،

٢. ولم يقرب امرأة طامثًا – إرميا ٢٩: ٣ (عن أنبياء الكذب في بابل)

[1] قويفمان ٥٣٠-٥٣١.

٣. رد للمديون رهنه – عاموس ٢: ٨.

٤. لم يغتصب اغتصابًا — إشعياء ٣: ١٤.

٥. بذل خبزه للجوعان، وكسا العريان ثوبًا — إشعياء ٥٨: ٧، أيوب ٣١: ١٩.

٦. ولم يعط بالربا، ولم يأخذ مرابحة — المزامير ١٥: ٥.

٧. أجرى العدل الحق — زكريا ٧: ٩.

كما اهتم حزقيال كثيرًا بوصية يوم السبت؛ ففي كلامه عن الشرائع والقوانين التي أعطاها الرب لشعبه " التي إن عملها الإنسان يحيا بها" (اللاويين ١٨: ٥)، فيذكر يوم السبت بشكل خاص: "وأعطيتهم أيضًا سبوتي لتكون علامة بيني وبينهم، ليعلموا أني أنا الرب مُقدِّسهم" (٢٠: ١٢، ٢٠، بحسب الخروج ٣١: ١٣). وفي استعراضه لأخبار أيام إسرائيل يذكر بشكل خاص خطيئة تدنيس السبت أربع مرات (٢٠: ١٣، ١٦، ٢١، ٢٤). فتدنيس السبت يقابل عبادة الأوثان؛ فيوم السبت هو علامة العهد بين الرب وإسرائيل، وهو الشاهد على قداسة إسرائيل. والحفاظ على يوم السبت هو اعتراف بالعهد، وتدنيسه نقضًا للعهد. ومن المثير للدهشة أنه في قائمة الأعمال الطيبة والشريرة للبار الصديق والشرير لم يذكر يوم السبت نهائيًا، وربما تم تضمينه في العبارة الشاملة: "سلك في فرائضي وأحكامي ليعمل بالحق" (١٨: ٩)، غير أن يوم السبت يُذكر بشكل خاص في قائمة معاصي أورشليم (٢٢: ٨، ٢٦).

العلاقة بالملوك

اعتاد حزقيال مناداة ملوك يهوذا "رؤساء" وليس ملوكًا: "أما أنت فارفع مرياة على رؤساء إسرائيل" (١٩: ١، وكذلك ٢٢: ٦-٧). كما ينادي صدقيا أيضًا باسم "رئيس" (١٢: ١٢، ٢١: ٣٠). ويتهم ملوك يهوذا الأخيرين باقتراف المعاصي، ويشبههم بالحيوانات المفترسة آكلة البشر (الإصحاح ١٩). أما عن علاقته بصدقيا فسلبية تمامًا، على عكس إرميا، ويتهمه بخراق أرض يهوذا (١٩: ٧). وفي الإصحاح ٣٤ يشبه حزقيال ملوك يهوذا ورؤساءها برعاة الأغنام الذين لا يهتمون بأغنامهم نهائيًا لكن بأنفسهم فقط.

ما هي معاصي الرعاة الأشرار؟

١. إنهم لا يهتمون بأغنامهم، لكن بأنفسهم (٢، ٨) "تأكلون الشحم، وتلبسون الصوف، وتذبحون السمين، ولا ترعون الغنم" (٣٤: ٣).

٢. لا يفعلون شيئًا من أجل الفقراء والضعفاء، والأيتام والأرامل: "المريض لم تقووه، والمجروح لم تعصبوه، والمكسور لم تجبروه" (٤).

٣. لايفعلون شيئًا من أجل إعادة الضالين عن الطريق المستقيم: "والمطرود لم تستردوه والضال لم تطلبوه" (٤).

٤. "بل بشدة وعنف تسلطتم عليهم" (٤)، نظام حكم قاس واستبدادي.

٥. وبما أن الرعاة لا يهتمون بوجود مرعى لأغنامهم، فتبحث الأغنام بنفسها عن طعامها "في كل الجبال، وعلى كل تلٍ عالٍ وعلى كل وجه الأرض" (٦). فلا تجد الطعام، لكنها تصبح هي نفسها طعامًا للحيوانات المفترسة. والمثل واضح:

الزعماء لا يحافظون على الشعب، لكنهم يتخلون عنه للأعداء، وهم سبب ضعفه، وخرابه وسبيه.

٦. أما المرعى الطيب القليل فتستولى عليه الكباش والتيوس القوية، وما يتبقى من مرعى تطأه أقدامهم وتخرِّبه كي لا يبقى شيء للأغنام الضعيفة (١٧-١٨). أما الأقوياء فقد سلبوا الضعفاء وظلموهم، ولم يحرك الحكام ساكنًا من أجل فرض النظام والعدل في الدولة.

إن مشكلة الأغنام لها ثلاثة أبعاد: الأول؛ الرعاة ينهبوها. والثاني؛ الحيوانات المفترسة تفترسها. والثالث؛ الأغنام الضعيفة تظلمها الكباش والتيوس.

وفي مقابل جرائم وإخفاقات الرعاة الأشرار يعرض حزقيال بالتفصيل الأعمال الطيبة للراعي المخلص:

١. "هأنذا على الرعاة وأطلب غنمي من يدهم .. فأخلص غنمي من أفواههم فلا تكون لهم مأكلًا" (١٠).

٢. "أرعاها في مرعى جيد .. في مراح حسن وفي مرعى دسم يرعون على جبال إسرائيل" (١٣-١٤).

٣. "وأطلب الضال وأسترد المطرود" (١٦).

٤. "وأجبر الكسير وأعصب الجريح" (١٦).

٥. "وأبيد السمين والقوي، وأرعاها بعدل .. فأخلص غنمي فلا تكون من بعد غنيمة، وأحكم بين شاة وشاة" (١٦، ٢٢).

٦. "وأخلصها من جميع الأماكن التي تشتت فيها في يوم الغيم والضباب. وأخرجها من بين الشعوب، وأجمعها من الأراضي وآتي بها إلى أرضها .. وأقطع

معهم عهد سلام، وأنزع الوحوش الرديئة من الأرض .. ويكونون آمنين في أرضهم، ويعلمون أني أنا الرب ..." (١٢-١٣، ٢٥-٢٨).

من المثير للاهتمام أن النبي في كلامه عن الرعاة الأشرار لا يقوم بدمج المُمثَّل بالمَثَل، أما في أقواله عن الراعي المخلص فإنه يدخل الممثل في داخل المثل (خاصة في ١٣-١٤). ويتسم هذا المثل بالجمال الفني؛ فنحن أمام صورة كاملة وجميلة لحياة الرعاة والغنم وأفعالها؛ فالطرفان بارزان وواضحان بفضل التناقض الشديد بين طرق رعي الرعاة الأشرار، وطريق رعي الراعي الطيب. وهذا التقابل التضادي في أعمال الفريقين من الرعاة يتم التأكيد عليه بواسطة الترتيب المتقاطع للفقرتين ٤ و١٦.

إن مضمون المثل عالمي يناسب كل العصور وكل الشعوب؛ فهو مثل شعري عن طرق الحكومة والحكم. وتشبيه الشعب بالغنم الذي يقوده الراعي ليس بالتجديد عند حزقيال؛ فإرميا أيضًا وبَّخ الرعاة الذين يفقدون ويبددون رعية الرب (٢٣: ١-٦). كما كان يستطيع حزقيال مشاهدة، ببصيرته، الرعاة الطيبين في الماضي: إبراهيم ويعقوب وموسى وداود. وربما كان على دراية أيضًا بالمزمور الشهير في سفر المزامير رقم ٢٣: "الرب راعيَّ، فلا يعوزني شيء".

ويمكننا أن نعرف من هذا المثل أن إسرائيل لا يعارض المؤسسة الملكية من الناحية المبدئية، على الرغم من عدم حبه لها ويقلل من وزنها ومن قيمتها. فالملك الطيب هو الراعي المخلص الذي يقود شعبه على حسب رغبة الرغب ووصاياه.

وعلينا أن نذكر أن قيمة الإصحاح الرابع والثلاثين تكمن في المثل، وليس في الممثل. لذلك ركَّز حزقيال على وصف الغنم وصفات الراعي كراعٍ، لكن لا توجد هنا صورة كاملة للممثل المثالي وصفاته الأخلاقية، كما نجدها في سفر إشعياء ١١، وإرميا ٢٣: ١-٦. فقد أعطى حزقيال اهتمامًا أقل منهم للمَلِك

بشكل عام. فالرب وحده هو الملك الحقيقي: "وأقيم عليها راعيًا واحدًا فيرعاها عبدي داود، هو يرعاها وهو يكون لها راعيًا، وأنا الرب أكون لهم إلهًا، وعبدي داود رئيسًا في وسطهم". (٣٤: ٢٣-٢٤).

لا شك في أن مكانة الرئيس هامشية في هذه الصورة المثالية. لذلك يقول في الإصحاح ٣٧: "وأطهِّرَهم فيكونون لي شعبًا، وأكون لهم إلهًا، وداود عبدي يكون ملكًا عليهم، ويكون لجميعهم راعٍ واحد، فيسلكون في أحكامي، ويحفظون فرائضي ويعملون بها ... وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد" (٢٢-٢٥).

بالتأكيد يحتل الملك المسيح من بيت داود (يسمى أحيانًا "رئيس" وأحيانًا "ملك") مكانة كبيرة في رؤيا الخلاص، لكن ليست مركزية؛ فمهمته هي الحرص على أن تقوم الدولة بتنفيذ قوانين الرب وأحكامه – الذي له هو فقط السلطة والملكية.

رؤيته حول تاريخ شعب إسرائيل

كانت بداية شعب إسرائيل متواضعة للغاية، بحسب حزقيال؛ فيشبهه في الإصحاح السادس عشر في بدايته بطفلة رضيعة ولدت في أرض كنعان لأب أموري وأم حيثية. وأن الوالدين لم يرغبا في طفلتهما (ولم يذكر لماذا؟ ربما بدت لهما قبيحة جدًا)، وفور خروجها إلى هواء العالم ألقيت في الحقول، وهي تسبح في دمها؛ كي تموت وحدها أو يفترسها حيوان بري. وإذا بالرب يمر على الحقل ويرى الطفلة المتروكة. ويقرر من فرط رحمته أن ينجِّيها من الموت "فقلت لك بدمك عيشي! قلت لك، بدمك عيشي" والتكرار يؤكد على التحول المفاجيء المدهش. فكيف يمكن التوقع أن هذه الطفلة البائسة (التي لم يقطع حبلها السري بعد)، أن تبقى على قيد الحياة؟ لكن الرب لا يكتفي بتنجيتها؛ بل يقسم أن يتزوجها ويعقد

معها ميثاق زواج. فأخذها معه، وربَّاها ودلَّلها، وأطعمها من الخير كله "السميد والعسل والزيت"، وزيَّن جسدها بملابس فاخرة وحلي ثمينة. وصارت هذه اللقيطة الصغيرة فتاة جميلة، وازدهر اسمها في كل الشعوب. لكن عوضًا أن تكون شاكرة ومخلصة للذي منحها حياتها، وجمالها وبهائها، بدأت في مغازلة أسياد آخرين والزنا عند كل الشعوب المحيطة، وخاصة مصر وآشور وبابل. إنها أسوأ من أي زانية تحصل على أجر من عشَّاقها، لأن هبة الرب منحتها أجرًا لعشاقها، و لم تتذكر نهائيًا أيام صباها عندما كانت عارية، وغارقة في دمائها.

إن قصة الطفلة اللقيطة التي خانت من أحسن إليها، وولي نعمتها، تبرز أمرين محددين: الأول؛ الأصل البائس للطفلة اللقيطة، التي لم يرغب فيها أو يحنو عليها أحد، لذلك فإن كل ما حصلت عليه فقط هو رحمة الرب. الثاني؛ شدة نكران الجميل، وعظم الأعمال المقيتة للمرأة. المغزى واضح وقاطع.

إن تشبيه عبادة الأصنام والسياسية الإسرائيلية بالزنا والدعارة غير موجود عند حزقيال، إنما أخذه من هوشع وإرميا؛ غير أن حزقيال أضاف أمرين أصيلين: حكاية اللقيطة، من أجل إبراز نكران أورشليم للجميل، والصورة المفصلة، الجريئة والفظة لأعمال المرأة الزانية، التي لا تخدم المغزى. ويجب التأكيد على ضرورة فهم مثل اللقيطة بمفهومه الشامل فقط، وعدم البحث في أي تفصيل عن معنى رمزي مستقل. فتفاصيل المثل لا تنطبق على تفاصيل المغزى. ويحتمل أن يكون حزقيال قد استخدم هنا قصة شعبية شائعة في عصره عن فتاة لقيطة خانت ولي نعمها، لكن لا يجب بالطبع البحث عن مقارنة مفصلة ودقيقة بين تفاصيل أفعالها وبين أخبار أيام إسرائيل.

يُشكِّل مَثَل اللقيطة استعراضًا تاريخيًا واقعيًا لأصل شعب إسرائيل. وفي قوله "أبوك أموري، وأمك حثية" لا يقصد النبي بذلك أن الأموري والحثية كانوا آباء الأمة. إنما هو يتوجه في هذا الإصحاح إلى أورشليم، لذلك يستنكر أصلها وآباء المدينة الأولين. وفي القصص عن إبراهيم ورد من بين بقية الشعوب أيضًا الكنعانيين ("وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض" — التكوين ١٢: ٦)، الأموريين (١٤: ٧، ١٣)، والحثيين (٢٣)، لذلك كان مسموحًا لحزقيال اعتبارهم آباء المدينة ويناطح بهم أهل أورشليم اليهود في عصره، لكن لا يجب الظن أنه كان لديه رواية أخرى عن أصل شعب إسرائيل. ومن المؤكد أنه عرف أيضًا أن آباء إسرائيل ليسوا كنعانيين، إنما آراميون (التثنية ٢٦: ٥)، لكنه لو كان قال "مخرجك ومولدك من أرض آرام"، لما كان في ذلك توبيخًا. وعلى الرغم من أنه لم يفسر ماا كانت أخطاء الأموري والحثي، إلا أن كل شعوب كنعان القديمة كانت مشهورة في إسرائيل بسوء السمعة وارتكاب الرذائل (خاصة زنا المحارم)، لذلك أكد حزقيال على أن شعب إسرائيل أسوأ في زناه من الكنعانيين الذين أبادهم الرب، ليخلي الأرض المقدسة لشعبه المختار. ولو أنهم ليسوا أفضل من الأموريين فهم أيضًا يستحقون التدمير. وكان عاموس قد سبقه في هذا الفكر: "هأنذا قد أبدت من أمامهم الأموري .. وسرت بكم في البرية أربعين سنة لترثوا أرض الأموري"(٢: ٩-١٦)؛ لكن إذا لم يكن بنو إسرائيل يختلفون عن الأموري، فهم أيضًا يستحقون التدمير والإبعاد عن الأرض، فضلًا عن كون أهل أورشليم أسوأ من الأموري. إن أورشليم أسوأ من السامرة، بل وحتى سدوم. فالسامرة وسدوم كانتا أبر منها

(١٦: ٥١-٥٢). فخطايا سدوم (التفاخر وعدم تقديم العون للفقير والمعدم) وهي أقل من رذائل أورشليم، التي نقضت العهد مع ربها وغازلت أعدائها[1].

كان هناك أنبياء قدَّروا جيل الصحراء تقديرًا إيجابيًا واعتبروا هذا الجيل العصر الذهبي الذي سادت فيه المحبة والإخلاص بين قاطعي العهد. فإرميا يقول: "ذكرت لك غيرة صباك، محبة خطبتك، ذهابك ورائي في البرية في أرض غير مزروعة .." (٢: ٢). وهذا التقدير غير موجود عند حزقيال. فاختيار الرب لإسرائيل، بحسب المثل، اختيار بمحض المصادفة، بدون أي سبب. ليس من أجل آبائها ولا من أجل نفسها، فقد التقطت واختيرت الطفلة الملقاة لتكون حليفة الرب، لذلك لم تذهب الفتاة وراء عريسها بحب وسرور. وكل تاريخ إسرائيل من بدايته عبارة عن قصة واحدة من التمرد والخيانة. ففي مصر لم يرغبوا في الاستماع إليه ولم يتركوا أصنام مصر (٢٠: ٥-٨). وحتى في الصحراء تمرد عليه بيت إسرائيل (٢٠: ١٠-١٣) ولم يقيموا وصاياه. وعند دخولهم الأرض ساروا على الفور وراء عبادة الأصنام وتنجسوا بعبادة الخشب والحجر وبتقديم الأبناء تقدمة لمولخ (٢٠: ٢٧-٣١).

لم يكن شعب إسرائيل يستحق رحمة الرب في أي عصر، ومع ذلك لم يدمرهم الرب وحافظ على وجودهم. والسؤال هو: لماذا؟ إن كان شعب إسرائيل سيئًا بهذه الدرجة، فلماذا لا يبيده الرب؟ ولماذا يحافظ عليها وينجينه ويضمن أبديته؟ الإجابة عن هذا السؤال مهمة ومبتكرة للغاية: الرب لا يحافظ على إسرائيل بفضل من إسرائيل ولا من أجل إسرائيل، لكن من أجل اسمه هو فقط، لأن اسمه يتقدَّس عند الأغيار بواسطة شعب إسرائيل. وكما أن إسرائيل في حاجة إلى مساعدة الرب، فكذلك الرب يحتاج شعب إسرائيل؛ كي تعرف البشرية بوجوده وبمراقبته. إن حياة

---

[1] انظر م. فايس عن "أبوك الأموري وأمن الحثية" – **המקרא כדמותו**, 70-68.

شعب إسرائيل هي شاهد على حكمه للتاريخ البشري. ويكرر النبي مرات كثيرة وبصور مختلفة الفقرة: "صنعت لأجل اسمي، لكي لا يتنجس أمام عيون الأمم الذين هم في وسطهم" (٢٠: ٩، ١٤، ٢٢، ٢٤).

إن التاريخ الإسرائيلي هو تاريخ للإرادة الإلهية، وليس إرادة الشعب؛ فالشعب لا يصنع تاريخه. وإن العهد بين الرب وإسرائيل من هذه الناحية عهدٌ من جانب واحد؛ فالشعب اختير على غير رغبته أو بمبادرة منه، وأخرج من مصر ليس بمبادرة منه أو بقوته، وهو حي وموجود بفضل الرغبة الإلهية فقط. لذلك لا يوجد انسجام أو تعاون بين طرفي العهد، لكن تناقض مستمر، ومأساوي جدًا. إن جوهر تاريخ شعب الرب هو التمرد ضد الرب. وهو تاريخ متناقض؛ فالشعب قد اختاره الرب ليقدس اسمه (اسم الرب)، لكنه يتمرد على غايته. لذلك يضطر الرب إلى فرض غايته على شعب إسرائيل:

"والذي يخطر ببالكم لن يكون، إذ تقولون: نكون كالأمم، كقبائل الأراضي فنعبد الخشب والحجر. حتى أنا يقول السيد الرب، إني بيد قوية وبذراع ممدودة، وبسخط مسكوب أملك عليكم. وأخرجكم من بين الشعوب، وأجمعكم من الأراضي التي تفرقتم فيها بيد قوية وبذراع ممدودة وبسخط مسكوب". (٢٠: ٣٢-٣٤).

من الغريب أن نسمع في نبوءات الخلاص نبرة تعدٍّ وإكراه، لكن هذا هو رد حزقيال المبتكر على مشكلة، كيف يضمن تنفيذ العهد مع الرب؟ العهد سينفذه الرب، حتى لو لم يرغب الشعب في ذلك. لن يسمح لشعب إسرائيل بالتحرر والتهرب من غايته الإلهية؛ تقديس اسم الرب في الأمم. لذلك فهو مضطر ومكره

على الخلاص والعودة إلى أرضه. والرب سوف يخلصه بالقوة حتى يستطيع القيام بمهمته.

إن مكانة شعب إسرائيل بين الشعوب تُقاس بمكانة النبي في إسرائيل؛ فالنبي يتمتع بشرف أن يكون رسول الرب. وكذلك يتمتع شعب إسرائيل بحقيقة كونه مع الرب، وبمراقبة الرب له؛ لكن مع ذلك على النبي والشعب أيضًا تحمل المسئولية والآلام المرتبطة بمهمتهما، ولا يستطيعان التملُّص منها أبدًا.

لا تظهر محبة الرب لشعبه في القسم الأول من نبوءات حزقيال، على الرغم من أنها تظهر وتطل من خلف الغضب، على سبيل المثال: ١٧: ٢٢-٢٤. لكن بعد الخراب تتغير معاملة النبي مع إسرائيل؛ فليس هناك توبيخ غضب ووبال لكن أمل ومواساة وخلاص بأسلوب لطيف وبكثير من المحبة. في الماضي "حجب الرب وجهه" عن شعبه وسلَّمهم ليد مضايقيهم، لكن "الآن أرد سبي يعقوب، وأرحم كل بيت إسرائيل .. ولا أحجب وجهي عنهم بعد" (٣٩: ٢٣-٢٩). ويناديهم بكنية التدليل "شعبي" (٣٧: ١٢، ١٤؛ ٣٨: ١٤، ١٦) ويمنح الحياة لعظامهم البالية.

حب أرض إسرائيل

من الطبيعي أن يتذكر نبي الشتات أرض وطنه بحب واشتياق؛ وبالفعل أحب حزقيال أرض إسرائيل بشدة. سنشير بداية إلى أن اسم "أرض إسرائيل" لم يذكر في أي سفر من أسفار "الأنبياء الآواخر"، لكن ورد ذكره في سفر حزقيال ثلاث مرات (٢٧: ١٧، ٤٠: ٢، ٤٧: ١٨). كما يتكرر تعبير "أرض إسرائيل" و"جبال إسرائيل" عشرات المرات. فأراضي بابل المستوية لم تسحره، في حين أن أرض

إسرائيل بوركت بجبالها الشاهقة والجميلة: "وأغرسه على جبل عالٍ وشامخ، في جبل إسرائيل العالي أغرسه" (١٧: ٢٢-٢٣، وكذلك ٢٠: ٤٠، ٣٤: ١٤).

ويمتدح الأرض بأنها "الأرض التي تفيض عسلًا ولبنًا، هي فخر كل الأراضي" (٢٠: ٦، ١٥). وفي مثل الرعاة تذكر فضائل أرض إسرائيل: "وأرعاها على جبال إسرائيل وفي الأودية وفي جميع مساكن الأرض، أرعاها في مرعى جيد، ويكون مراحها على جبال إسرائيل العالية، وفي مرعى دسم يرعون على جبال إسرائيل" (٣٤: ١٣-١٤).

وتشمل رؤيا الخلاص نبوءة خاصة عن جبال إسرائيل (الإصحاح ٣٦): "أما أنتم يا جبال إسرائيل، فإنكم تنبتون فروعكم، وتثمرون ثمركم لشعبي إسرائيل .." (٨-١١). وستتحول الأرض القفر إلى جنة عدن (٣٤-٣٥)، ولن تصبح أبدًا "أكالة للناس" (١٣)، لكن "ملآنة غنم أناس" (٣٨).

من أحلام حزقيال الرائعة رؤيا إحياء البحر الميت والعربة؛ ففي آخر الأيام سيخرج نهر عجيب غزير المياه أسفل الهيكل، وستنمو على ضفتيه أشجار كثيرة جدًا. وستتدفق مياهه شرقًا إلى صحراء العربة وستعالج مياه البحر الميت. حينها سيمتلىء بحر الموت بالأسماك الحية "ويكون السمك كثيرًا جدًا" (٤٧: ١٠). و"على النهر ينبت على شاطئه هنا وهناك كل شجر للأكل، لا يذبل ورقه ولا ينقطع ثمره ... ويكون ثمره للأكل وورقه للدواء" (١٢).

وهناك رؤى مشابهة لدى كل من يوئيل (٤: ١٨)، وزكريا (١٤: ٨).

النبوءات ضد الشعوب الأخرى

بين نبوءات الغضب على إسرائيل (الإصحاحات ١-٢٤)، وبين مجموعة نبوءات الخلاص (الإصحاحات ٣٣-٤٨)، توجد مجموعة صغيرة في سفر حزقيال (الإصحاحات ٢٥-٣٢)، تتركز فيها نبوءات الغضب ضد الأمم.

ويمكن تقسيم هذه الإصحاحات إلى ثلاثة أقسام:

١. الإصحاح الخامس والعشرون: نبوءات قصيرة تبشر بوقوع الكوارث ضد عمون ومؤاب وأدوم والفسطينيين، لشماتتهم في أورشليم وللأعمال الانتقامية في يهوذا.

٢. الإصحاحات ٢٦-٢٨: نبوءات ضد صور.

٣. الإصحاحات ٢٩-٣٢: نبوءات ضد مصر؛ والنبوءة في الإصحاح ٢٩: ١٧-٢١ هي الأكثر تأخرًا في السفر (في السنة السابعة والعشرين لسبي يهوياكين). وفي الإصحاح ٣٥ نبوءة أخرى ضد أدوم.

يتحدد مصير الشعوب بحسب تعاملهم مع إسرائيل؛ فحزقيال لا يتهمهم بعبادة الأصنام، لكن بكراهية إسرائيل وبالفرح بخراب أورشليم. فلدينا هنا فكرة "النقمة والجزاء" (التثنية ٣٢: ٣٥)؛ فالأمم الأخرى تعاقب على معاملتها مع إسرائيل، ولكي يعرفوا ويعلموا أنه بالرغم من خراب أورشليم فإن الرب إله إسرائيل هو إله العالم والمسيطر على جميع الشعوب. لذلك تختتم جميع النبوءات بإعلانات متشابهة: "فعتلمون أني أنا الرب" (٢٥: ٥، ٧)، "فيعرفون نقمتي، يقول السيد الرب" (١٤)، "فيعلمون أني أنا الرب، إذ أجعل نقمتي عليهم" (١٧).

ولقد اقترف ملك صور خطأ آخر: التعالي والتعجرف: "من أجل أنه قد ارتفع قلبك وقلت: أنا إله. في مجلس الآلهة أجلس في قلب البحار، وأنت إنسان لا إله، وإن جعلت قلبك كقلب الآلهة .." (٢٨: ١-٧). وهذا الادعاء بتأثير من إشعياء: فتعبير "وأنت إنسان لا إله" ورد في سفر إشعياء ٣١: ٣. والخطأ الثالث خطأ صور نفسها: "بكثرة تجارتك ملأوا جوفك ظلمًا" (٢٨: ١٦).

وتشبه أخطاء مصر أخطاء صور (٢٩: ٦-١٠)، لكنها بخلاف الشعوب الأخرى، التي تنبأ لهم النبي بالخراب فقط، تحظى مصر بنبوءة مواساة: "عند نهاية أربعين سنة، أجمع المصريين من الشعوب الذين تشتتوا بينهم وأرد سبي مصر" (٢٩: ١٣-١٤). وسبب ذلك على ما يبدو أن مصر كانت حليفة مع أورشليم ولم تشمت فيها في نهاية عصر حكم يهوذا. وعلى الرغم من كونها "عكاز قصب مرضوض" — لا يعتمد عليها — (٢٩: ٦، بتأثير من إشعياء ٣٦: ٦)، لذلك ستعاقب وتخرب، لكنها لا تستحق الدمار التام.

من المثير للاهتمام أنه لا توجد عن حزقيال نبوءة وبال ضد بابل (ربما لأنها دمَّرت أورشليم برغبة الرب)؛ غير أن قويفمان يرى أن هناك مثل هذه النبوءة، وهي النبوءة ضد عمون في الإصحاح ٢١: ٣٣-٣٧.

إن إجراء الأحكام على كارهي إسرائيل وتخليص إسرائيل أمران متلازمان: "هكذا قال السيد الرب، عندما أجمع بيت إسرائيل من الشعوب الذين تفرقوا بينهم وأتقدس فيهم أمام عيون الأمم .. ويسكنون في أمن عندما أجري أحكامًا على جميع مبغضيهم من حولهم" (٢٨: ٢٥-٢٦)، وإن الهدف منهما واحد: فيعلمون أني أنا الرب إلههم" (٢٦).

- النبوءة ضد عمون موجودة أيضًا عند الأنبياء: عاموس (١: ١٣-١٥)، وإرميا (٤٩: ١-٦)، وصفنيا (٢: ٨-١٠).

- وضد مؤاب عند الأنبياء: عاموس (٢: ١-٣)، وإشعياء (١٥-١٦)، وإرميا ٥٨، وصفنيا (٢: ٨-١٠).

- وضد أدوم عند الأنبياء: عاموس (١: ١١-١٢)، وإشعياء (٣٤، ٦٣: ١-٦)، ويوئيل (٤: ١٩)، وإرميا (٤٩: ٧-٢٢)، وعوبديا.

- وضد فلسطين عند الأنبياء: عاموس (١: ٦-٨)، وإشعياء (١٤: ٢٨-٣٢)، وإرميا ٤٧، وصفنيا (٢: ٥-٧)، وزكريا (٩: ٥-٨).

- وضد صور وصيدون عند الأنبياء: عاموس (١: ٩-١٠)، وإشعياء (٢٣)، ويوئيل (٤: ٤-٨)، وزكريا (٩: ٢-٤).

- وضد مصر عند الأنبياء: إشعياء ١٩-٢٠، وإرميا ٤٣، ٤٦.

يشير قويفمان إلى الغياب التام لرؤيا نهاية الوثنية في نبوءات حزقيال. فإرميا يشعر بالحرب الكبرى القادمة: حرب شعب الرب ضد الوثنية على أرض الغربة، لكن حزقيال لا يشعر بهذه الحرب. فالرب يحدد مستقبل كل الشعوب، لكن توراته أعطاها لإسرائيل فقط. والأمم الأخرى ليس لها نصيب في ذلك[1].

رؤيا العظام البالية

تنقسم الرؤيا إلى أربع صور:

---

[1] ص ٥٧٤.

١. الافتتاحية (١-٤). روح الرب تحضر النبي إلى "البقعة"، وهي ملآنة بعظام كثيرة جدًا ونخرة جدًا. ليس الحديث هنا عن ساحة القتال الحقيقية لمدينة تل أبيب، لكن عن البقعة التي يعرفها النبي والتي حظي فيها بالتجلي الإلهي (٣: ٢٣)؛ وهذه المرة تظهر في رؤياه صورة مدهشة لعظام إنسان تغطي كل البقعة. وفجأة يسمع سؤال الرب: "يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟" لو أن ذلك مجرد سؤال بلاغي لما كانت هناك حاجة ليجيب عليه؛ لكن النبي يعلم أنه ليس كذلك. أليس من أجل ذلك أحضره الرب، كي يسمع منه الإجابة: كلا! بالطبع العظام البالية لا تحيا! لكن حتى الإجابة الإيجابية لا يجرؤ النبي على قولها؛ فيتهرب من الإجابة ويقول: "يا سيد الرب أنت تعلم!" فالرد الإيجابي الرب وحده هو القادر على تقديمه. وبالفعل سرعان ما يأتي الرد بشكل مفاجيء. ليس فقط أن العظام ممكن أن تحيا، إن أراد الرب ذلك، بل إن الرب يريه في الحال إحياء العظام، ويلعب النبي نفسه دورًا مهمًا في التحول المفاجيء والمدهش؛ فالرب يأمره بالتنبوء إلى العظام.

٢. النبوءة للعظام (٥-٨). تفصِّل النبوءة كل مراحل عملية البعث: "العصب واللحم، والجلد والروح. وما أن أنهى النبي كلامه حتى بدأت تحدث المعجزة الكبرى أمام عينيه. فبدأت العظام تتحرك وتقترب من بعضها البعض، وسُمعت جلبة شديدة، وترابطت العظام بالعصب واكتست باللحم والجلد، لكن الحياة لم تدب بعد في هذه الأجسام. لقد اكتملت المرحلة الأول من الإحياء: عودة الجسم.

٣. النبوءة إلى الروح (٩-١٠). إن مصدر الحركة والحياة هو الروح الإلهية. وفقط بعد أن دخلت الروح تحولت الأجساد الميتة إلى أناس حية يقفون على أقدامهم "جيش عظيم جدًا جدًا".

٤. كلام الرب للنبي (١١-١٤): "يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل". الكلام هنا إذن عن كل بيت إسرائيل، والمعنى الرمزي يفسر على الفور: "ها هم يقولون: يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا". لقد يأس الشعب من الأمل، ويصبح نبي الخراب والموت تحديدًا، نبي الأمل والحياة. ويتم الإحياء بواسطة عاملين: كلام النبي، ودخول الروح الإلهية. فقد خلق الكلام جسدًا، وأدخلت الروح الحياة في الجسد.

إن رؤيا العظام النخرة هي إحدى الرؤى الشعرية الرائعة والسامية جدًا في العهد القديم. وخصائصها الفنية الأساسية هي:

١. الأصالة، التجديد والمفاجئة في هذه الصورة الرمزية؛ فهناك أنبياء خلاص سبقوا حزقيال، لكن لم يقدِّم أي منهم لرؤيا الإحياء صورة ملموسة ومبهرة جدًا. وتتحول الرؤيا إلى مسرحية كبيرة تعرض أمام أنظارنا.

٢. المشاركون في المسرحية أربعة هم: الرب، والنبي، والعظام، والروح. الصورة الأولى: الرب والنبي أمام العظام. والصورة الثانية: النبي والعظام. والصورة الثالثة: الروح تبعث الحياة في العظام، فتنتصب واقفة. الصورة الرابعة: الرب والنبي أمام الجيش العظيم.

٣. وجود صراع دائم أثناء المسرحية بين الموت والحياة، ينتصر الرب على هذا الصراع بواسطة كلمة النبي وحركة الروح. فالنبي يقول ثلاث نبوءات: إلى العظام (٧)، وإلى الروح (١٠)، وإلى بيت إسرائيل الذي يبعث من جديد (١٢).

٤. وكما هو الحال في رؤيا التكليف تظهر هنا أيضًا عناصر بصرية وسمعية تشغل حاستي السمع والبصر. فنرى في البداية النبي يتجول في البقعة، بعدها نسمع الحوار بين الرب والنبي، والنبوءة للعظام. ثم نشهد بعدها حركة العظام ونسمع

الجلبة الصاعدة منها، ثم تظهر الروح في هبوب قوي. ونسمع كلام النبي للروح وللعظام التي بعثت من جديد ونرى أمامنا جيشًا عظيمًا من البشر الأحياء. إنها لمسرحية درامية عظيمة وكبيرة.

٥. يعطي تفصيل مراحل البعث تجسيدًا وروحًا للصورة. فهذه الصورة ليست صورة ثابتة تدرك بنظرة واحدة، إنما هي عملية ديناميكية تتطور أمام أعيننا، مرحلة تلو الأخرى.

٦. المسرحية لا تُعمل فقط حاستي السمع والبصر كما ذكرنا، بل تعمل كذلك الفكر، والمشاعر والخيال؛ فالمضمون العميق للفكرة يمنح رؤيا العظام وزنًا خاصًا في تاريخ إسرائيل. فقد أصبح دائمًا مصدرًا للإيمان القوي بإحياء الأمة من جديد، وتلهب هذه الرؤيا الخيال، وتهز القلب.

٧. انطباع قوي يتركه التناقض الشديد بين بداية الرؤيا ونهايتها. ففي البداية عظام "نخرة جدًا"، أرض مقابر لعظام الأجيال السابقة، أكوام وأكوام من الهياكل العظمية البالية، تنهض فجأة وتصبح أمام أعيننا معسكرًا كبيرًا من الأحياء.

٨. ليس لدينا هنا تقابل ووزن دقيق، لكن الرؤيا مكتوبة بأسلوب شعري وفي إيقاع، ويمكن كتابتها في صورة أبيات متقابلة:

كانت على يد الرب، فأخرجني بروح الرب،
وأنزلني في وسط البقعة، وهي ملآنة عظامًا
هأنذا أدخل فيكم روحًا، فتحيون!
وأضع عليكم عصبًا، وأكسيكم لحمًا،
وأبسط عليكم جلدًا، وأجعل فيكم روحًا، فتحيون!

٩. وكما هو في الشعر، لدينا هنا الكثير من التكرار المقصود:

أ. كلمة "**הנה** – إذا" – **והנה רבות מאוד** – وإذا هي كثيرة جدًا .. **והנה יבשות מאוד** – وإذا هي يابسة جدًا" (يدل التكرار هنا على التوقف المؤقت بين مشاهدة العظام وبين ملاحظة جفافها). "**הנה אני מביא בכם רוח** ... – هأنذا أدخل فيكم روحًا، **והנה רעש** – وإذا رعشٌ ... **והנה עליהם גידים** ... – وأضع عليكم عصبًا، **הנה אומרים** – ها هم يقولون، **יבשו עצמותינו**... – **הנה אני פותח את קברותיכם** – هأنذا أفتح قبوركم". إن كلمة "**הנה** – ها" تسبق كل مرة وضعًا جديدًا مفاجئًا.

ب. كلمة "عظام" تتكرر ثماني مرات لتؤكد أن أمامنا عظامٌ فقط، ليس حتى هياكل عظمية، وهل من الممكن أن تصبح هذه العظام النخرة بشرًا أحياء مرة أخرى؟

ت. في هذا الإصحاح صراع مستمر بين العظام النخرة الميتة وبين الروح والحياة. لذلك تتكرر كلمة "روح" ٩ مرات، وكلمة "حياة" ٦ مرات. كما تتكرر صور "ليحيوا"، "فتحيون" خمس مرات.

ث. قائد المسرحية كلها هو الرب نفسه؛ لذلك يتكرر اسمه ١١ مرة. وكذلك "فتعلمون أني أنا الرب" ثلاث مرات (٦، ١٣، ١٤).

ختامًا تجدر الإشارة إلى أن هناك خلاف بين الحاخامات (حازل) حول ضرورة فهم هذا الإصحاح على أنه مَثَل فقط على بعث الأمة من جديد، أو كاعتقاد في بعث الأموات بالفعل[1]. كما يقول راشي: "رمز ومثال لكل بيت إسرائيل في

---

[1] انظر تفسير الحاخام داود قمحي.

ضائقتهم". ويقول الحاخام داود قمحي: "كل شيء كان في رؤيا النبوءة، وليس حقيقة؛ حيث أطلعه الرب على أن بني إسرائيل قد خرجوا من السبي الذي هم فيه، الذي كانوا فيه كعظام نخرة، كمثال". من الصعب قبول الرأي القائل بأن حزقيال كان يقصد بعث الموتى، على الرغم من وجود بعض الإشارات إلى ذلك: "عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم، يا شعبي!" (١٢-١٣).

نبوءات المواساة

أ. تتركز نبوءات المواساة عند حزقيال في القسم الأخير من سفره، من الإصحاح ٣٤ وما بعده، لكن يوجد في القسم الأول، في التوبيخ، بعض نبواءت المواساة: ١١: ١٧-٢١، ١٦: ٥٩-٦٣، ١٧: ٢٢-٢٤، ٢٠: ٣٢-٤٤، ٢٨: ٢٥-٢٦. ومن المثير للاهتمام أن نبوءة المواساة الأولى تأتي إلى جانب وصف انصراف مجد الرب من أورشليم. ففكرة الخلاص نشأت في الوقت الذي بدأ فيه السبي (١١: ١٧-٢١). وتشتمل هذه النبوءة على بعض عناصر نبوءات الخلاص:

١. خلاص الشعب، جمع المسبيين وإعادتهم إلى إسرائيل: "إني أجمعكم من بين الشعوب، وأحشركم من الأراضي التي تبددتم فيها وأعطيكم أرض إسرائيل" (١٧).

٢. خلاص الأرض، التخلص من الأصنام وإقامة الشريعة: "ويزيلون جميع مكرهاتها، وجميع رجاستها منها" (١٨). "لكي يسلكوا في فرائضي، ويحفظوا أحكامي ويعملوا بها" (٢٠). لقد تدنست أرض إسرائيل عبر الرذائل التي اقترفها بيت إسرائيل، وبعد الخلاص سوف تطهر الأرض من رجسها.

٣. استئناف العهد مع الرب. ولكي لا يتم نقض هذا العهد مرة أخرى، سوف يمنح الرب إسرائيل قلبًا وروحًا جديدين (١٩، وكذلك ٣٦: ٢٦-٢٨). والتطلع إلى روح وعهد جديدين موجود أيضًا عند إرميا (٢٤: ٧، ٣١: ٣٠-٣٢، ٣٢: ٣٩-٤١)؛ غير أن الفكرة تأخذ عند حزقيال تعبيرًا جديدًا تمامًا. وكي لا يتكرر التاريخ مرة أخرى، وكي لا يصبح المستقبل مثل الماضي، هناك حاجة في ألا يكون العهد الجديد مرتبطًا بالطابع المتمرد للشعب، لكن بالرب وحده، وسوف يتحقق العهد حتى لو يكن الشعب يستحقه أو يريده. من هنا نجد خطوة واحدة لفكرة الخلاص بالقوة، التي كنا قد وقفنا عليها فيما سبق، في حديثنا عن نظرة حزقيال للتاريخ الإسرائيلي (٢٠: ٣٢-٣٤).

كانت فكرة الخلاص التام غير المشروط برغبة الشعب، مهمة جدًا في جيل حزقيال المقموع واليائس. وبالرغم من أن حزقيال هو "نبي التوبة"؛ إلا أن خلاص إسرائيل مرتبط بعودته إلى الرب، وهي بالفعل الفكرة الأساسية والأهم في نبوءات المواساة عند حزقيال. يعدُّ خلاص إسرائيل حدثًا تاريخيًا ضروريًا غير مرتبط نهائيًا بإسرائيل، لكن بالإرادة الإلهية فقط كما ذكرنا، والخلاص ليس مخصصًا لإسرائيل إنما للرب، لأنه من خلاله سوف يقدِّس الرب اسمه لدى الأمم (٢٠: ٤١-٤٤، ٢٨: ٢٥-٢٦). فالخلاص يقدِّس الرب والسبي يدنسه؛ ففي السبي تشير الأمم إلى بني إسرائيل وتقول: "هؤلاء شعب الرب وقد خرجوا من أرضه" (٣٦: ٢٠). "لذلك فقل لبيت إسرائيل، هكذا قال السيد الرب: ليس لأجلكم أنا صانع يا بيت إسرائيل بل لأجل اسمي القدوس، الذي نجستموه في الأمم حيث جئتم. فأقدس اسمي العظيم المنجس في الأمم الذي نجستموه في وسطهم فتعلم الأمم إني أنا الرب" (٣٦: ٢٢-٢٤). لذلك لن ينتظر الرب حتى يتوب بنو إسرائيل، لكنه سيطهِّر

شعبه بنفسه من كل آثامه: "وأرش عليكم ماءً طاهرًا، فتطهرون من كل نجاساتكم، ومن كل أصنامكم أطهِّركم" (٢٥). والتوبة ليست شرطًا للخلاص، لكن من رحمة الرب على شعبه مثل الخلاص نفسه.

وتشمل نبوءات المواساة عند حزقيال، مثل النبوءات الأخرى، ضمانات ببركة نزول الأمطار في وقتها، والوفرة الاقتصادية، وبحصاد البركة (٣٤: ٢٦-٢٧). ويشمل الإصحاح ٣٦ على نبوءة خاصة لجبال إسرائيل المهجورة والقفر: "أما أنتم يا جبال إسرائيل، فإنكم تنبتون فروعًا وتثمرون ثمركم لشعبي إسرائيل ... فتحرثون وتزرعون وأكثر الناس عليكم ... فتعمر المدن وتبنى الخرب، وأكثر عليكم الإنسان والبهيمة فيكثرون ويثمرون، وأسكنكم حسب حالتكم القديمة، وأحسن إليكم أكثر مما في أوائلكم ..." (٨-١٥). كما تشمل رؤيا الخلاص عند حزقيال أيضًا إحياء الشعب والأرض. فالأرض والشعب يعتبران معًا كيانين مجسدين يحملان الصفات البشرية. ورذائل إسرائيل (الدم الطاهر المسفوك، والأصنام) قد دنست الأرض. لقد حملت الأرض تعيير الأمم، ولقد "صارت للنهب والاستهزاء لبقية الأمم" (٣٦: ٤-٥). والرب سوف يعيد لأرض إسرائيل مجدها، "ولا أسمع فيك من بعد تعيير الأمم، ولا تحملين تعيير الشعوب بعد" (١٥).

الحاكم المثالي للشعب المخلص سيكون من بيت داود (٣٤: ٢٣، ٣٧: ٢٤-٢٥). ويسمى أحيانًا "ملك" (٣٧: ٢٢، ٢٤)، وأحيانًا "رئيس" (٣٤: ٢٤، ٣٧: ٢٥). وليس فقط أن يهوذا ستتخلص، إنما كل مملكة أفرايم، "ولا يكونون بعد أمتين، ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين" (٣٧: ٢٢). إن رؤيا وحدة الأمة يرمز إليها تجسيدًا بالشجرتين (الإصحاح ٣٧).

ب. **حرب جوج.** من أجل تقديس اسمه عند الأمم لا يكتفي الرب بمعجزة واحدة وهي إحياء إسرائيل في أرضه، إنما ينوي عمل معجزة كبيرة ثانية، كي يثبت قوته العظيمة وانتصاره التام على جميع أعداء إسرائيل. وتلك المعجزة هي الهزيمة النهائية لأمم كثيرة، كبيرة وقوية، على أرض إسرائيل أمام العالم كله. فهذه الأمم سوف تغزو الأرض، بقيادة جوج، وستسبب لها الخوف والفزع. وقبل الخلاص النهائي سيحتاج شعب إسرائيل إلى المرور بكارثة كبيرة على أرض إسرائيل، غير كارثة السبي التي نجا منها. وأسماء الأمم التي ستغزو الأرض: ماجوج، ماشك وتوبال، وفارس، وكوش، وفوط، وجومر، وبيت تُوجَرْمَة، ذكر معظمهم في قائمة أبناء يافث التي انشقت منهم "جزائر الأمم" (التكوين ١٠: ٢-٣). وكوش وفوط من أبناء حام، ذكر بعضهم أيضًا في نبوءة حزقيال ضد صور (الإصحاح ٢٧): "فارس وفوط (١٠)، ماشك وتوبال (١٣)، وتوجرمة (١٤).

وعلى رأس تلك الأمم – التي يأتي معظمها من الشمال ومن جزر البحر (٣٨: ٦)- جوج الذي هو رئيس ورأس ماشك وتوبال (٣٨: ٢، ٣٩: ٢)، وينضم إليهم "سكان الجزائر"، و"شعوب كثيرة" (٣٨: ٦، ٣٩: ٦). ولا شك أن جوج ليس الاسم الحقيقي لملك موجود لكنه اسم خيالي. وبلاد جوج تسمى ماجوج. ومن الأفضل أن نطلق على هذه الحرب اسم "حرب جوج" (وليس جوج وماجوج"). ويتوجه النبي دائمًا إلى جوج كمن يقف على رأس الأمم الغازية، وهو يرمز لهم ويمثِّلهم: "اجعل وجهك على جوج" (٣٨: ٢)، "لذلك تنبأ يا ابن آدم وقل لجوج (١٤)، "يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل" (١٨)، "تنبأ على جوج" (٣٩: ١).

ويحكي النبي أن الشعوب الأجنبية الغريبة ستأتي في "جماعة عظيمة"، وستكون مسلحة كالمعتاد بالخيل والفرسان وأسلحة كثيرة: "أتراس ومجان، وقسي، وسهام، وحراب ورماح" (٣٨: ٤، ٣٩: ٩)، لابسين "أفخر الملابس". إن هذه عملية هجوم لكتائب سالبين، محبي الحرب، وليس الشعوب المرتحلة الذين يجيئون من أجل احتلال أراضٍ جديدة من أجل الاستيطان. هم يهاجمون البلاد "كزوبعة"، "كسحابة تغشى الأرض، لسلب السلب ولغنم الغنيمة ... لحمل الفضة والذهب، لأخذ الماشية والقنية، لنهب نهب عظيم" (٣٨: ٩، ١٢، ١٣). لقد كانوا يظنون أن عملية السلب والنهب ستكون سهلة يسيرة؛ حيث يغيرون على شعب مزراع هاديء مسالم، يسكن في أرضه في سلام، في مدن مفتوحة "بغير سور وليس لهم عارضة ولا مصاريع" (١٠-١١).

لقد علم حزقيال بهجمات مماثلة في الماضي على أرض إسرائيل: غزو المديانيين في عصر القضاة، أو غزو الإسكوثيين[1] (الإصقوث) في عصر يوشيا، لكن الحديث هنا ليس عن حدث تاريخي معين، إنما عن غزو في "الأيام الأخيرة" (٣٨: ١٦)، عندما يستقر شعب إسرائيل في أمان في أرضه. إن غزو جوج لكارثة ستحل بإسرائيل على أرضه، بعد عودة صهيون، لكن قبل الخلاص الكامل والنهائي.

---

[1] **السكوثيون** أو**الإصقوث** من اليونانية (*Σκυθία Skythia*): هم شعب بدوي متنقل ينحدر من أصول إيرانية وهم من مملكة سيثيا (سكيثيا)، حل محل السيريين الذين كانوا قد جاؤا من سهول روسيا، وقد نزح السكوثيون من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن الثامن قبل الميلاد، واستقروا بغربي نهر الفولجا شمال البحر الأسود حيث كانوا علي صلة بالمستعمرات الإغريقية حول البحر الأسود، تعرف اليوم بشبه جزيرة القرم (أوكرانيا حاليًا). تمكن السكوثيون من تأسيس إمبراطورية غنية وقوية استمرت لقرون عديدة قبل أن يخضعوا للسارماتيين بين القرنين الرابع قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي.

يرى حزقيال في هذا الغزو تحقيقًا لنبوءات الأنبياء الذين سبقوه عن يوم الرب (٣٨: ١٧)، حيث سيكون يوم ظلام وظلمة، يوم وبال وخراب: عاموس (٥: ١٨-٢٠)، وإشعياء (٢: ١٢-٢٢، ١٣: ٦-١٣، الإصحاح ٣٤)، وإرميا (٢٥)، ويوئيل (١، ٢، ٤)، وصفنيا (١: ١٤-١٦). يقول إشعياء إن الأرض ستتزعزع في يوم الرب (١٣: ١٣)؛ ويقول حزقيال إنه "في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل" (٣٨: ٢٠). وكما أن "يوم الرب" حدث كوني، هكذا أيضًا حرب جوج: "وتندك الجبال وتسقط المعاقل، وتسقط كل الأسوار إلى الأرض .. وأعاقبه بالوبأ وبالدم، وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطرًا جارفًا وحجارة برد عظيمة ونارًا وكبريتًا" (٢٠-٢٢)؛ كل هذا من أجل تعظيم وتقديس اسم الرب أمام أمم كثيرة (٢٣).

مقاييس حرب جوج عظيمة من عدة نواحي: أولًا؛ عدد الشعوب. ثانيا؛ عدد الناس. ثالثًا؛ السلاح الكثير (يمكن أن يستخدم للتدفئة لسبع سنين — ٣٩: ٩). رابعًا؛ سيستمر دفن ضحايا جوج سبعة شهور (١٢). ستترك مقاييس الغزو العظيمة، والهزيمة والمذابح، والموت تأثيرًا قويًا ومدهشًا على الأمم وعلى إسرائيل. وسيعرف العالم كله عظمة وقوة وقداسة الرب (٣٩: ٢١-٢٩).

ج. في الإصحاحات ٤٠-٤٨؛ يُحمَلُ النبي في خياله إلى بيت المقدس ومن المنتظر أن يتنبأ من جديد في أورشليم، ويصف بلغة جافة، وبتفصيل ودقة زائدة، المقاييس، وشكل كل أجزائه، وأفنيته ومكاتبه وبواباته. ثم يحدد النبي التشريعات والأحكام المختلفة المرتبطة بتنظيم العبادات وتقديس الكهنة الذين يخدمون في العبادة المقدسة (التي لا تتماشى دائمًا مع شرائع التوراة)، وقواعد تقسيم الأرض بين الأسباط، والكهنة والرئيس. لا توجد هنا صورة شاملة لتنظيم الدولة المثالي في

عهد المسيح، لذلك لا يمكن القول إن حزقيال يطور هنا أسلوبًا ثيوقراطيًا كاملًا لحكم الكهنوت. من الطبيعي أن حزقيال كنبي كاهن من بيت صادوق، يوجه نظره وانتباهه إلى الجوانب الدينية والعبادية والكهنوتية، لدولة إسرائيل المستقبلية. فوجود الرب في الهيكل يستلزم حرصًا شديدًا على تقديس الهيكل وأحكام طهارة وقداسة الكهنة. ولا يكون على رأس الدولة ملكًا لكن رئيسًا، تكون سلطاته محدودة، ولا يسمح له بالدخول إلى داخل الهيكل (٤٦: ٢). ويجب الحفاظ على قداسة المنطقة كلها التي حول الهيكل (٤٣: ١٢). "ابن الغريب أغلف القلب، وأغلف اللحم لا يدخل مقدسي" (٤٤: ٩)، أبناء صادوق فقط هم الذين سيسمح لهم بتقديم القرابين الإلهية (٤٤: ١٥)، بل إنهم يحرصون على لباسهم وعلى عادات خاصة.

تبرهن عملية القياس الدقيقة لشكل الهيكل على أن النبي كان واثقًا من واقعية الرؤيا. ويحتمل أن هذا الوصف الجاف لشكل الهيكل قد أقنع أبناء جيل النبي بأكادة الخلاص أكثر من الرؤى الشعرية مثل رؤيا العظام البالية. إن الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة "العملية" لترتيبات الهيكل والعبادة المقدسة يشير صراحة إلى أنه لا يوجد هنا شيء تجريدي وبعيد؛ إنما حقائق واقعية، سوف تتحقق في القريب.

مع ذلك يشتمل هذا القسم النثري الجاف لسفر حزقيال على أمرين نبوءيين رائعين: الأول؛ رؤيا نهر العجائب، الذي وقفنا عليه (الإصحاح ٤٧). والثاني؛ عودة مجد الرب إلى الهيكل؛ فتلك العودة هي نقيض انصراف مجد الرب المذكور في الإصحاح العاشر (١٨-١٩).

ختامًا، توجد في نبوءات المواساة عند حزقيال بعض التجديدات المهمة في مقابل سابقيه:

١. رؤيا العظام النخرة، التي ترمز إلى بعث الأمة من جديد؛

٢. عمل الأشجار المتحدة، الذي يرمز إلى وحدة الأمة؛

٣. نبوءة خاصة عن جبال إسرائيل ورؤيا نهر العجائب، الذي يشفي صحراء العربة والبحر الميت؛

٤. حرب جوج وهزيمته على أرض إسرائيل؛

٥. رؤيا الهيكل (بيت المقدس) كرؤيا تجسيدية على أن الخلاص هو مسألة عملية وواقعية؛

٦. فكرة الخلاص بالقوة غير المرتبطة بالشعب نهائيًا؛ إنما بالرب فقط؛

٧. فكرة أن خلاص إسرائيل ليست من أجل إسرائيل، إنما من أجل الرب.

الأعمال الرمزية عند حزقيال

١. الإصحاح ٣: ٢٥ — النبي مقيد بالأربطة — رمزية ذلك أنه لم يخرج لتأنيب الشعب.

٢. ٣: ٢٦ — الرب يغلق فم النبي، ويأمره بأن يكون أبكمًا — ورمزية ذلك أن فمه سيقول كلام الرب فقط بناء على أمره.

٣. ٤: ١–٣ — رسم حصار أورشليم على الحجر — رمز لأورشليم المحاصرة.

٤. ٢: ٤–٨ — رقود النبي كمريض على جانبيه — رمز لآثام إسرائيل ويهوذا ومشاكلهما.

٥. ٤: ٩-١٧ — صنع الخبز النجس، والأكل بالوزن، والشرب بالكيل — رمز على جوع وعطش أورشليم وعلى الخبز النجس الذي سيأكله بنو إسرائيل عند الأمم.

٦. ٥: ١-٤ — حلق الرأس واللحية وتدمير هذا الشعر بثلاثة طرق — رمز على فقدان المحاصرين في أورشليم بالنار والسيف والريح.

٧. ١٢: ١-١٦ — تحضير متاع السبي وإخراجه في العتمة — رمز على سبي أهل أورشليم وفرار صدقيا.

٨. ١٢: ١٧-٢٠ — الأكل بارتعاش والشرب في ارتعاد وخوف — رمز على أكل وشرب أهل أورشليم.

٩. ٢١: ١١-١٢، ١٩ — الصراخ والعويل والضرب باليد على السيف الذي يقترب وعلى شهدائها الكثيرين.

١٠. ٢١: ٢٣-٢٨ — رسم طريقين يخرجان من مكان واحد ومتجهان إلى عمان وأورشليم — رمز للمشكلة التي يواجهها ملك بابل؛ عندما وقف عند مفترق الطرق وسأل سحرته، إن كان يتجه إلى عمون أم إلى يهوذا؟

١١. ٢٤: ١٥-٢٧ — الامتناع عن الحزن على موت زوجته — رمز على خراب أورشليم وموت أبنائها.

١٢. ٣٧: ١٥-٢٨ — الإمساك بالعصي معًا. عصا ليهوذا وأخرى لبيت إسرائيل — رمز على توحد جميع الأسباط في مملكة واحدة.

يمكن تقسيم الأعمال الرمزية إلى أربعة أنواع:

أ. الأعمال الشخصية والتي ترمز إلى طريقة تصرف النبي، على سبيل المثال: سكوته أو ربطه بالأربطة.

ب. أعمال شخصية تستخدم نموذجًا ومثالًا لمصير الشعب، على سبيل المثال: حلق اللحية، والامتناع عن الحزن.

ت. أعمال غير شخصية تظهر مستقبل الشعب بشكل تجسيدي؛ على سبيل المثال: رسم حصار أورشليم؛ الطريقان.

ث. عمل الغرض منه تجسيد فكرة مجردة، على سبيل المثال: عمل العصي.

لقد سبق إرميا حزقيال في كثرة الأعمال الرمزية؛ حيث نجد عنده أيضًا كل الأنواع المختلفة لأعمال حزقيال. يقول قويفمان إنه بخلاف الأعمال الرمزية المجردة عند إرميا، فإن عمل حزقيال أكثر تعقيدًا، ونوع طقوس العبادات أكثر تفصيلًا ودقة[1]. لكن يجب التأكيد على أن أعمال حزقيال أيضًا ليست أعمال خارقة؛ فالأعمال الخارقة يكون الغرض منها التأثير على إرادة الإله، أما الأعمال هنا فتتم برضا الرب. وترمز أعمال النبي إلى نوايا الرب وليست وسيلة لفرض إرادة الإنسان على الرب. لذلك فإن هدفها ليس خارقًا لكن تعليميًا من أجل تعليم الشعب.

يظهر حزقيال بأعماله الرمزية كصاحب موهبة تمثيلية؛ فإخراج المتاع في المساء، والسعي وحمل الأدوات على الكتف – كلها مسرحية لممثل واحد. ولا شك في أن هذه الأعمال قد أثارت اهتمامًا كبيرًا لدى الشعب، ولا نعجب في أن جاء أناس كثيرون إلى النبي للاستمتاع بعروضه، وعلى هذا تحديدًا يتذمر حزقيال، بأنهم يتعاملون معه كما لو كان ممثلًا، وليس كنبي (٣٣: ٣٢).

---

[1] ص ٤٩٦.

أمثال حزقيال

١. مَثَلُ الكرمة (الإصحاح ١٥): تشبيه شعب إسرائيل بالكرمة معروف في العهد القديم؛ لكن النبي هنا لا يرى أمام عينيه ثمار الكرمة، لكن فقط أغصان الشجرة، العارية من الأوراق والثمار. ومثل هذه الأغصان ليست طيبة للأكل ولا العمل. وسوف نتخيل الآن أغصان أكلت النار طرفيها كما حرقت وسطها. فماذا تكون الفائدة منها؟ فهي لا تصلح سوى للحرق. هكذا يكون شعب إسرائيل أيضًا. فسبي السامرة وسبي يهوياكين قد أكل الشعب من طرفيه. وما تبقَّى في أورشليم فضعيف أيضًا ولا فائدة فيه، وتحدد مصيره بالحرق. "حتى إذا خرجوا من نار (سبي يهوياكين) تلتهمهم نار أخرى (الخراب)".

ويتلاعب النبي بالكلمات المتضادة: "עץ ואש - شجر ونار" وتتكرر ست مرات، وكلمة "מלאכה - عمل" أربع مرات، وكلمة "אכלה - أكلت" خمس مرات، كما يوجد في الإصحاح تقابل مهم بالتضاد بين خمس أسئلة وأجوبة.

الأسئلة:

١. ماذا يكون عود الكرم فوق كل عود؟ (٢).

٢. أو على غصن من أغصان شجر الغابة (٢).

٣. أيؤخذ منه قضيب ليصنع منه شيء ما؟ (٣).

٤. فهل يصلح لعمل (٤).

٥. أيصلح بعد لشيء؟ (٥).

والإجابات:

١. هوذا يُطرح أكلا للنار (٤).

٢. تأكل النار طرفيه (٤).

٣. إذا أكلته النار (٥).

٤. بذلتها أكلًا للنار (٦).

٥. يخرجون من النار فتأكلهم النار (٧).

في جميع الأسئلة يتم التأكيد على كلمتي: شجرة، وعمل. وفي الإجابات على كلمتي: نار (عكس الشجر)، وأكلت (عكس العمل).

٢. مَثَل الكلمة والنسران (الإصحاح ١٧): (انظر ١٢ علاقة حزقيال بالتمرد في بابل).

٣. مَثَل اللبوءة والأشبال (الإصحاح ١٩): اللبوءة هي حموطل امرأة يوشيا (الملوك الثاني ٢٣: ٣١، ٢٤: ١٨)، أم يهوآحاز وصدقيا. ويمثل أبناؤها بالأشبال. أُنزل الشبل الأول إلى مصر، والثاني إلى بابل. والمثل مكتوب بلغة شعرية في شكل مرثية (ثلاث نبرات في الشطر الأول، واثنتان في الشطر الثاني)، على سبيل المثال:

ותעל אחד מגוריה	כפיר היה,
ربت واحدًا من جرائها	فصار شبلًا،
וילמד לטרף טרף	אדם אכל.
وتعلم افتراس الفريسة	أَكَل الناس.
וישמעו אליו גוים	בשחתם נתפש.
فلما سمعت به الأمم	أُخذ في حفرتهم.

وصف الشبل الثاني (صدقيا) يقابل وصف الشبل الأول (يهوآحاز)، غير أنه أشمل. أولًا؛ أضيفت تفاصيل أفعاله السيئة "وعرف قصورهم وخرب مدنهم فأقفرت الأرض وملؤها من صوت زمجرته". ثانيًا؛ أضيفت صورة أشمل بكثير لرؤيته. والفروق في المثل سببها بالطبع الفروق في المغزى. لقد حكم يهوآحاز ثلاثة شهور فقط، و لم يقترف شرورًا كثيرة مثل صدقيا. على أي حال، لا فرق في علاقة النبي المبدئية بآخر ملوك يهوذا. فهو يشبههم بالحيوانات المفترسة التي تأكل الإنسان. لقد تم الإمساك بالشبلين المفترسين، وحُمِلوا في خزي وعار إلى سبيهما، و لم يعد صوت زئيرهما يخيف الخلق. ولا نشعر في مرثية حزقيال بوجود ترحم ومشاركة حموطل الأم العبرية البائسة أم ملوك يهوذا في أحزانها. (انظر أيضًا ١٦: "العلاقة بالملوك")

٤. مَثَل "أمك ككرمة" (١٩): يشبه النبي شعب إسرائيل بالكرمة المثمرة كثيفة الفروع المغروسة على مياه غزيرة، ولها فروع قوية، تصنع منها "صولجانًا للمتسلطين"(مثال على ملوك يهوذا). وترتفع الكرمة فوق الأشجار الكثيفة، فبدت شامخة بفضل أغصانها الكثيرة. وهاهي تقتلع ويلقى بها على الأرض، ثم تنقل إلى الصحراء، إلى أرض يابسة ظمآنة، وهناك يَبَّست ريح شرقية ثمارها وحرقتها النار (قارن المثل في الإصحاح ١٥). إن المأساة الخاصة بمصير الكرمة هي في أن النار التي قضت عليها قد خرجت منها نفسها "من فرع عصيها" (المقصود تمرد صدقيا). وهذا المثل أيضًا كاسبقه قد كتب كمرثية وبحسب الفقرة الأخيرة (١٤) انتشر بين الناس كمرثية.

٥. الأُختان الزانيتان، أهولة وأهوليبة: مثال على السامرة وأورشليم (الإصحاح ٢٣).

٦. مثل القدر واللحم (١١، ٢٤): يصور أهل أورشليم أنفسهم باللحم المحمي في داخل القدر، لكن النبي يمثل أورشليم بالقدر النحاسي الفارغ الموضوع على النار، بعد أن تم طهي كل اللحم، حتى يحترق القدر وكذلك القذارة التي فيه – وهذا كله مثل على أهل أورشليم، وأورشليم نفسها التي لا صلاح لنجاستها وقذارتها سوى بحرق المدينة وأهلها.

٧. الراعي والغنم (الإصحاح ٣٤): مثل ملوك إسرائيل والشعب.

٨. رؤيا العظام النخرة (٣٧) – مثل على بعث الأمة.

لقد أكثر حزقيال من استخدام الأمثال حتى قالوا عنه: "أما يضرب هو أمثالًا؟" (٢١: ٥)؛ ولم نقدم هنا سوى الأمثال الكبيرة، التي تعتبر كل منها قصة كاملة في حد ذاتها. وباستثناء مثل القدر فإن كل الأمثال مأخوذة من عالم النبات والحيوان. ومثل النسران (الإصحاح ١٧)، كبير ومعقد لدجة أن النبي نفسه يسميه "أحجية". بعض الأمثال واقعية (مثل: القدر، الرعاة)، وأخرى خيالية (النسران).

حزقيال وإرميا

١. عاشا وتنبئا في جيل الخراب، لكن حزقيال كان أصغر من إرميا بكثير، لذا لم يتنبأ في أيام الملوك التي سبقت صدقيا، لكنه استمر في التنبوء بعد الخراب بخمس عشرة سنة.

٢. ذكرت جميع نبوءات إرميا تقريبًا في أورشليم وعناثوث، باستثناء بعض النبوءات في مصر في نهاية أيامه. أما معظم نبوءات حزقيال (إن لم تكن جميعها) قد قيلت في بابل.

٣. كان الاثنان من الكهنة، لكن إرميا كان من أسرة قروية، أما حزقيال فقد كانت ينتمي إلى بيت صادوق الأرستقراطي الذي خدم في الهيكل؛ لذلك لم يحارب حزقيال الكهنة؛ فقد كان نبيًا كاهنًا يُقدِّر عمل الهيكل كثيرًا.

٤. رفض إرميا الأمن في بيت الرب وفضَّل الأخلاق على العبادة، وطالب بديانة داخلية؛ شخصية غير مرتبطة بالهيكل. أما حزقيال فعلاقته إيجابية بطقوس القرابين والهيكل ولا فرق عنده بين الوصايا الأخلاقية والعبادة.

٥. عانى إرميا من الاضطهاد؛ ولا توجد أية إشارة على اضطهاد حزقيال، لذلك لا نجد شكاوى شخصية عند حزقيال.

٦. كان حزقيال متزوجًا أما إرميا فكان أعذبًا.

٧. حزقيال ليس نموذجًا ساحرًا مثل إرميا، وأسلوبة ليس فيه الرقة والإحساس الموجودان عند إرميا. كما لا يوجد في سفره تدفق للمشاعر وصلوات.

٨. تأثر أسلوب إرميا بسفر التثنية تحديدًا، أما حزقيال فتأثر أسلوبه بسفر اللاويين. وفي السفرين الكثير من التكرار والازدواج.

٩. عن الفروق في رؤيا التكليف (راجع موضوع الرب).

١٠. مفهوم الإله عند إرميا: إله محبة ورحمة؛ أما عند حزقيال فإله القانون والحكم. وللإله عند حزقيال رؤية ملموسة أكثر؛ أما عند إرميا فالعلاقة أكثر عاطفية.

١١. الخلاص بحسب حزقيال سيأتي من أجل تقديس اسم الرب، وليس من أجل إسرائيل، وسوف يأتي ولو بالقوة وهو ما ليس موجودًا عند إرميا.

١٢. الاثنان يرفضان المثل: "الآباء أكلوا حصرما، وأسنان الأبناء ضرست"، لكن حزقيال أكد كثيرًا على مبدأ الجزاء الشخصي وقوة التوبة.

١٣. أكد الاثنان على أن مسبيي بابل مفضلون على أهل أورشليم، وأن الخلاص سيأتي من السبي فقط. أما إرميا فلم يكن نبي خراب تام مثل حزقيال. فقد منح صدقيا وأهل أورشليم إمكانية النجاة.

١٤. عارض الاثنان تمرد يهوذا في بابل.

١٥. كان للاثنين انتقادات شديدة لملوك يهوذا، فقد قاما بتشبيههم بالرعاة الأشرار، لكن كان لإرميا معاملة مشجعة لصدقيا.

١٦. وبخ الاثنان أنبياء الكذب. وعند حزقيال نبوءة خاصة عن نبوءات الكذب. وفي المقابل نجد إرميا يوسع ويعمق أكثر الفروق بين نوعين من الأنبياء.

١٧. لدى الاثنين رؤيا وحدة الأمة، وقلب جديد، وعهد جديد.

١٨. بدأ إرميا كفاح اليهودية ضد عبادة أصنام الأمم الأخرى؛ أما حزقيال فلم يشارك في هذا الكفاح ولا يرى نهاية الوثنية.

١٩. اهتم الاثنان كثيرًا بوصية يوم السبت، وربطوا وجود الشعب بها.

٢٠.نبوءات إرميا التلقائية كتبها تلاميذه في وثائق، ونبوءات حزقيال كتبها النبي بنفسه في لفائف سفر، فهو ليس نمط النبي الخطيب إنما النبي الفنان الذي يضفي على كلماته صورة أدبية مكتوبة.

٢١.أكثر الإثنان من الأعمال الرمزية.

تجديدات حزقيال وتفرده

١. أول نبي في السبي.

٢. الصورة التفصيلية للمركبة والملائكة (العجلات والحيوانات والكروبيم، "الرجل" المرتدي الكتان)؛ الرؤية الملموسة للوحي الإلهي.

٣. النبي الوحيد الذي يخرُّ على وجهه (١: ٢٨، ٣: ٢٣، ٩: ٨ وغيرهم) والمحمول على الروح (٣: ١٤، ٨: ٣)، والوحيد الذي يأكل درج النبوءات.

٤. مُنِحَ لقب "ابن آدم" للنبي و"بيت التمرد" لإسرائيل؛ ولقب "رؤساء" للملائكة.

٥. تشبيه النبي بالمراقب، وتشبيه أنبياء الكذب بالثعالب في الخرائب وببنائي الحوائط بماء الكلس.

٦. التأكيد على الجزاء الشخصي وقوة التوبة، ورفض المسئولية التبادلية التي تنتقل من جيل إلى جيل.

٧. النبي الكاهن — العلاقة بالعبادة، والعلاقة بالهيكل. عدم وجود تناقض بين الأخلاق والعبادة. والأهم هو تنفيذ الفرائض والقوانين، ومخافة الرب. ورؤيا الهيكل.

٨. كل التاريخ الإسرائيلي منذ بدايته هو قصة واحدة طويلة من التمرد والخيانة، وتشبيه إسرائيل بالفتاة اللقيطة الخائنة والزانية؛ فلسفة التاريخ الإسرائيلي.

٩. فكرة الخلاص بالقوة؛ نجاة إسرائيل من أجل تقديس اسم الرب.

١٠. نبي التوراة؛ تأثير سفر اللاويين.

١١. رؤيا العظام النخرة.

١٢. حرب جوج وهزيمته على أرض إسرائيل بعد عودة صهيون.

١٣. القيمة الإيجابية للسبي؛ السكينة (الشخينة) تغادر أورشليم وتظهر في السبي أيضًا؛ حيث "المقدس الصغير".

١٤. حب التفصيل والتصوير؛ الأسلوب القاسي والمجرد، مواراة. تقديم أكثر من صورة لفكرة رئيسية.

١٥. النبي الوحيد الذي يجذب الناس إلى بيته، فهم يحضرون إليه ليتمتعوا بالجمال الفني لكلماته.

١٦. رسالته الخاصة إلى أبناء جيله التي تهدف إلى زرع الأفكار التالية فيه:

أ. خراب أورشليم حتمي؛ لذلك يجب اعتبار الآمال والنبوءات بقرب العودة إلى صهيون وهم خطير وهراء وكذب.

ب. السبي سيستمر؛ لذلك يجب البحث عن القيمة الإيجابية في ذلك. مكان السكينة (الشخينة) ليس محدودًا بأورشليم أو قاصرًا عليها. فهي مسبية مع إسرائيل وسوف تعود وتُعيد الشعب إلى صهيون.

ت. لا يتحمل الجيل الجديد الشاب آثام آبائه، لذلك فمن الممكن أن يخلص، لو أراد ذلك.

ث. يستطيع الفرد في الفترة الانتقالية بين الخراب والخلاص أن يصلح من نفسه ويخلصها.

ج. شجع حزقيال الشعب كله عبر رؤيا العظام النخرة، ورؤيا العبادة المقدسة في أورشليم؛ وتشجيع فكرة الجزاء الشخصي والتوبة.

أسلوب حزقيال

إن أسلوب حزقيال غير سامٍ وصارم، وحماسي كإشعياء، وليس رقيقًا وعاطفيًا مثل إرميا. ومن ناحية الموهبة الشعرية لا تكون مكانة حزقيال على رأس النبوءة، مع ذلك فقد تمتع بخصائص فنية كثيرة في الخيال الخصب والقدرة الكبيرة على الوصف. ولغته غنية: الأمثال والرموز، وبالصور والتشبيهات. وعلى الرغم من كونه كاتبًا أكثر منه شاعرًا، ومعظم سفره مكتوب نثرًا، إلا أن هناك تنوع كبير في أسلوبه، ويمكن العثور فيه على أربعة أنواع أساسية:

١. النثر العملي، البارد والجاف، في العبارات والدقة (الإصحاحات ٤٠-٤٨).

٢. النثر التأملي ثري وواضح (المقالات الأخلاقية في الإصحاحات ١٢، ١٨، ٣٣).

٣. الشعر المنثور، الاحتفالي الذي يرتقي إلى المرتبة الشعرية، الإصحاحات: ٦، ٨، ١١، ١٢، ١٣، ٢١، ٢٤، ٣٤، ٣٧.

٤. الشعر والرثاء، الإصحاحات: ٧، ١٥، ١٧، (١-١٥، ٢٢-٢٤)، ١٩، ٢٧، ٢٨ (١١-١٩)، ٣٠، ٣٢. لكن لا يوجد أيضًا تقابل في الشعر.

ولقد تأثر أسلوب حزقيال، بشكل خاص، بالتوراة (سفر اللاويين تحديدًا)، وإرميا. فهو يحب وصف صورته بكل تفاصيلها، كذلك عند توضيحه لفكرة (على سبيل المثال: نظرة الجزاء، أو التوبة) فهو يقدم كل الاحتمالات الممكنة. ولقد وقفنا في موضوعات كثيرة على هذه الصفة، وسنذكر هنا بعض النماذج فقط:

١. ٣: ١٧-٢١ — أربع حالات للشرير والبار.

٢. ٨: ٥–١٨ — عدة صور من الأشياء المقيتة في الهيكل.

٣. ١٤: ١٢–٢٠ — أربعة أحكام (الجوع، الحيوان السيء، السيف، الوباء).

٤. ١٨ — نماذج كثيرة على نظرية الجزاء الشخصي: البار، الشرير ابن البار، البار ابن الشرير، الشرير التائب، البار الذي يصبح شريرًا.

٥. ١٦، ٢٣ — أعمال الزانية.

٦. ٢٧ — وصف تفصيلي لبضائع صور، التجارة، وخدامها، وغيرهم.

٧. ٣٤ — وصف تفصيلي لأعمال الرعاة وإخفاقاتهم.

٨. ٤٠–٤٨ — محتوى بناء الهيكل.

ومن التعبيرات المحببة للنبي بشكل خاص ويكررها مرات كثيرة:

- ابن آدم — حوالي مائة مرة!
- سيدي الرب — حوالي مائتي مرة!
- وعرفتم أني أنا الرب، وعرفوا أني أنا الرب — خمسون مرة.
- جبال إسرائيل — ١٦ مرة.
- بيت التمرد — ١٢ مرة.
- الأصنام — ٣٩ مرة
- رئيس، رؤساء — ٣٠ مرة.
- أنا الرب تكلمت وسأفعل — ١٧ مرة.
- هأنذا على — ١٤ مرة.
- صنع أحكامًا — ٩ مرات.

- اجعل وجهك نحو — ٩ مرات.
- وأذريتهم في الأراضي — ٨ مرات.
- خربة مقفرة — ٧ مرات.

وتميز هذه التعبيرات أسلوب حزقيال، وتتكرر بطول السفر وتدل على وحدة أسلوبه.

ومثله مثل إرميا يحب حزقيال التكرار: الكلمات، العبارات، بل وموضوعات كاملة. (يغرض التأكيد، والتوضيح، والمبالغة ..إلخ).

تكرار الكلمات: منقلبًا، منقلبًا، منقلبًا أجعله (٢١: ٣٢)، من أجل أنهم (١٣: ١٠، ٣٦: ٣)، سيف، سيف (٢١: ١٤)، أهيأك للدم، والدم يتبعك، إذ لم تكره الدم فالدم يتبعك (٣٥: ٦) وغيرها.

تكرار العبارات: فقلت لك بدمك عيشي، فقلت لك بدمك عيشي (١٦: ٦)، ويكونوا لي شعبًا، فأنا أكون لهم إلهًا (١١: ٢٠)، ١٤: ١١ وغيرها)، يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون؟ الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا؟ (مع اختلافات طفيفة: ٨: ٦، ٩، ١٢، ١٣، ١٥، ١٧)، آه، يا سيد الرب (٤: ١٤، ٩: ٨، ١١: ١٣)، فلا تشفق عليك عيني ولا أعفو (٧: ٤، ٩، ٨: ١٨، ١٠: ١٠، وغيرها)، لنا أعطيت هذه الأرض ميراثًا (١١: ١٤-١٦، ٣٣: ٢٣-٢٩)، وأنت إنسان لا إله (٢٨: ٢، ٩)، وتعلم افتراس الفريسة، أكل الناس (١٩: ٣، ٦)، النفس التي تخطيء هي تموت (١٨: ٤، ٢٠)، ونجسوا سبوتي (٢٠: ١٣، ١٦، ٢١)، لم تسلكوا في فرائضي و لم تعملوا حسب كلماتي (٥: ٧، ١١: ١٢، ٢٠: ١٣، ٢١)، لكي يسلكوا في فرائضي ويحفظوا أحكامي ويعملوا بها (١١:

٢٠، ١٨: ٩، ١٧، ١٩) بحسب سفر اللاويين (١٨: ٤، ٥، ٢٦، ١٩: ٣٧، ٢٠: ٢٢، ٢٦: ٣) وغيرها.

تكرار موضوعات كاملة: الإرسال إلى بني إسرائيل المتمردين (٢: ٣-٧، ٣: ٤-١١)، فكرة الرقيب (٣: ١٧-٢١، ٣٣: ١-٩)، صفات البار والشرير (١٨)، نظرية الجزاء الشخصي (١٨، ٣٣) وغيرها.

الغرض من التكرار عند حزقيال ليس فقط من من أجل التأكيد أو التوضيح إنما توجد فيه أحيانًا روايات لفكرة واحدة، ورغبة واضحة في التنويع وتقديم صور مختلفة لموضوع واحد.

وفي بعض الأحيان يرفق حزقيال كلامه بصيغ ثابتة لقسم الرب:

١. حي أنا، يقول السيد الرب، إنهم لا يخلصون بنين ولا بنات .. (١٤: ١٦، ١٨، ٢٠، وكذلك ١٨: ٣، ٣٣: ١١).

٢. حي أنا، يقول السيد الرب، إن في موضع الملك الذي ملكه (١٧: ١٦، ٢٠: ٣٣، ٣٤: ٨).

٣. هكذا قال السيد الرب، حي أنا، إن الذين في الحرب يسقطون بالسيف (٣٣: ٢٧). وصيغ مشابهة انظر: ١٧: ١٩، ٣٥: ١١، ٣٦: ٧.

في معظم الحالات جاء القسم قبل الكلام الذي فيه تجديد، أو مفاجئة مثل: الرب يقسم أنه حتى الصديقين مثل نوح ودانيال وأيوب لن ينقذوا أبناءهم؛ لأنه لا يريد موت الشرير؛ لأن سدوم أخطأت أقل من أورشليم، وهكذا.

التشبيهات والصور

شأن كل نبي استخدم حزقيال تشبيهات وصور كثيرة، بعضها أصلي، ومميزة له، سنعرض لأهمها:

١. عملية المركبة.

٢. تشبيه إسرائيل بالقريس والسلاء والعقارب (٢: ٦)، والزانية (الإصحاح ١٦، الإصحاح ٢٣)، وبالرضيعة الغارقة في دمائها (١٦)، وبالنفايات (٢٢: ١٨)، وبغنم رعي الرب (٣٤).

٣. تشبيه النبي بالرقيب.

٤. تصاوير أشكال الحيوانات والبهائم النجسة في محراب تماثيله شيوخ بيت إسرائيل في الهيكل (٨: ١٠).

٥. تشبيه أنبياء الكذب بالثعالب في الخرائب، والطالون بماء الكلس السيء (١٣).

٦. وصف رعاية الطفل الوليد (بشكل سلبي: فلم تقطع سرتك، ولم تُغسلي بالماء للتنظيف، ولم تملحي تمليحًا، ولم تقمطي تقميطًا .. ١٦: ٤-٥).

٧. تشبيه الملك المخلص بشجرة الأرز العظيمة، فيسكن تحته كل طائر، كل ذي جناح (١٧: ٢٣).

٨. تشبيه الشعب بالكرمة في الإصحاحات: ١٥، ١٧، ١٩. وفي كل إصحاح التشبيه له طابعه الخاص. في الإصحاح ١٥ — الكرمة التي أكلتها النار، وفي ١٧ — الكرمة القصيرة، وفي ١٩ — الكرمة المثمرة متفرعة الأغصان التي اجتثت من مكانها وزرعت في الصحراء.

٩. وصف ملك بابل سائل الترافيم والناظر إلى الكبد، وصاقل السهام، كي يعرف أي طريق يتخذ (٢١: ٢٦–٢٧).

١٠. وصف حصار صور واقتحام المدينة على يد البابليين (٢٦: ٧–١٤).

١١. تشبيه مدينة صور بالسفينة كاملة الجمال (٢٧: ٣–٧).

١٢. تشبيه ملك مصر بتمساح النهر (٢٩: ٣–٥).

١٣. جنة الرب تشبه صور في جمالها (٢٨: ١٣–١٦).

١٤. وصف بناء الهيكل (٤٠ — ٤٢).

١٥. وصف نهر العجائب الخارج من الهيكل، ري العرب، ومعالجة البحر الميت (٤٧).

انظر كذلك: رؤيا العظام البالية، والأمثال.

وسائل فنية أخرى

أ. **العرض**: (انظر الأعمال الرمزية عند حزقيال).

ب. **المثل**: (انظر أمثال حزقيال).

ت. **السؤال والحوار**: السؤال ليس من المميزات الخالصة لأسلوب حزقيال، لكنه استعان بها كوسيلة فنية.

الأسئلة البلاغية: أين الطين الذي طينتم به؟ (١٣: ١٢)، وينقض عهدًا ويفلت؟ (١٧: ١٥) وغيرها.

أسئلة أخرى: هل رأيت ما هم عاملون؟ (٨: ٦)، آه يا سيد الرب، هل أنت مهلك بقية إسرائيل؟ (٩: ٨)، ماذا يكون عود الكرم فوق كل عود؟ (١٥: ٢)، أتحيا هذه العظام؟ (٣٧: ٣)، وغيرها.

في الإصحاح ١٨ حوار وجدال بين النبي والمستمعين له: لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ (١٩)، وأنتم تقولون ليست طريق الرب مستوية (٢٥، ٢٩). والنبي يجيب بسؤال: فاسمعوا الآن يا بيت إسرائيل، أطريقي هي غير مستوية؟ أليست طرقكم غير مستوية؟! (٢٥).

ث. **الجناس، والتلاعب بالألفاظ والأصوات**:

ונשמו ונקמו (٤: ١٧), **שממה ומשמה** (٦: ١٤), **עזרו, אזרה** (١٢: ١٤), **הנשיא ישא** (١٢: ١٢), **להבת שלהבת** (٢١: ٣)؛ **אהלה ואהליבה** (٢٣: ٤), **גוג ומגוג** (٣٨: ٢), وغيرها.

והפלתי חלליכם לפני גלוליכם (٦: ٤)، صوت اللام يتكرر في كل كلمة من الكلمات الأربعة. وكلمة "**גלולים**" تأتي مع "**חללים**"، والتناقض كبير بينهما: فشهداؤكم سيسقطون أمام الأصنام التي آمنوا بها. وكذلك كلمتا "**הפלתי**"، "**לפני**" صامتان (حرفان) مشتركان في ترتيب معكوس.

"**ואבוא אל הגולה .. היושבים בתוכם, היושבים אל נהר כבר, ואשר המה יושבים שם, ואשב שם שבעת ימים משמים בתוכם, ויהי מקצה שבעה ימים**" (3: 16-15). لا شك في أن هناك تأكيد على ثلاثة صوامت (حروف) **מ', ש', וב'**, وبخاصة حرف **מ'** الذي يظهر ضجر النبي.

"לאדמת ישראל קץ בא, הקץ .. עתה הקץ עליך .. הנה באה. קץ בא, בא הקץ, הקיץ אליך, הנה באה. באה הצפירה ... הנה היום, הנה באה, יצאה הצפירה, צץ המטה וג' (7: 10-1). وكذلك: "לא מהם, ולא מהמונם, ולא מהמהם ולא נה בהם (11). الرغبة في التأكيد (ألا يبقى منهم أحدٌ) كانت قوية للغاية، لدرجة أن النبي يستخدم هنا كلمة غير صحيحة מהמהם.

"כן אקבוץ באפי ובחמתי והנחתי והתכתי אתכם. וכנסתי אתכם ונפחתי עליכם באש עברתי ונתכתם בתוכה, כהתוך כסף בתוך כור כן תותכו בתוכה, וידעתם כי אני ה' שפכתי חמתי עליכם". (22: 22-20). لدينا هنا محاكاة صوتية لصوت الانصار في داخل بوتقة الانصهار، وذلك عبر كثرة تكرار حرفي ח', כ'.

ج. **التقابل التقاطعي**: لا يظهر هذا التقابل عند حزقيال في شطرات متجاورات في داخل الصف الواحد أو البيت الواحد، إنما في فقرتين متباعدتين، والترتيب التقاطعي يدل على الوحدة من الناحية الأدبية، على سبيل المثال:

١. لأنهم يقولون الرب لا يرانا، الرب قد ترك الأرض (٨: ١٢).

لأنه يقولون الرب قد ترك الأرض، الرب لا يرى (٩: ٩).

٢. القائلون، هي القدر ونحن اللحم (١١: ٣).

لذلك، هم اللحم وهي القدر (١١: ٧).

٣. أبوك أموري، وأمك حثّيّة (١٦: ٣).

أمكن حثية وأبوكن أموري (١٦: ٤٥).

٤. المريض لم تقووه، والمجروح لم تعصبوه، والمكسور لم تجبروه، والمطرود لم تستردوه، والضال لم تطلبوه (٣٤: ٤).

وأطلب الضال، وأسترد المطرود، وأجبر الكسر، وأعصب الجريح (٣٤: ١٦).

ح. **وزن الرثاء**

ربت واحدًا من جرائها – فصار شبلًا (١٩: ٣).

وتعلم افتراس الفريسة – أكل الناس (١٩: ٣).

فلما سمعت به الأمم – أُخذ في حفرهم (١٩: ٤).

أخذت آخر من جرائها – وصيَّرته شبلًا ١٩: ٥).

ط. **التقابل:** نظرًا لقلة الشعر في سفر حزقيال، فإننا لا نجد في السفر الوسائل الفنية الخالصة لأشعار العهد القديم؛ لكن من الممكن العثور على بعض التقابل مثل:

التقابل بالتضاد

ضعت الشجرة الرفيعة، ورفعت الشجرة الوضيعة،

ويبست الشجرة الخضراء، وأفرخت الشجرة اليابسة (١٧: ٢٤).

التقابل التكاملي

الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن،

بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون (١٨: ٢٠).

حزقيال نبيًا وفنانًا

لقد شاهدنا في مواضع كثيرة أن كلام حزقيال لم يكن عفويًا إنما كان إنتاجًا أدبيًا، مصاغًا بناء على فكر، وتقديم أكثر من رواية لأفكار رئيسية. وربما كان ذلك هو السبب الرئيس في أنه يوجد في صوره وأمثاله نوع من الغموض غير المفهوم، لأن الأنبياء الآخرين رأوا في المغزى الأساس، في حين أن الصورة والرمز عند حزقيال لهما وجودًا مستقلًا، كعمل فني في ذاته. فالمغزى لا ينطبق على كل تفاصيل المثل، ولا يوجد لكل تفصيل من تفاصيل المثال معنى خاص به. (على سبيل المثال: عمل المركبة، اللقيطة، أفعال الزانية وغيرها). لقد تغلبت الغريزة الفنية عند حزقيال على وظيفته النبوية، وأصبح التعبير الفني غاية في حد ذاته، وليس فقط وسيلة للتعبير عن رؤيا نبوية.

وربما يمكننا على هذا الأساس تفسير غلق فم النبي (الأمر الذي لا مثيل له عند أي نبي آخر). فالبكم الذي حكم به الرب على النبي، يرمز إلى الصراع الكائن في داخله بين النبي الرسول، الذي يقول فقط ما يضعه الرب في فمه، وبين الفنان الذي يحاول صياغة كلمات الرسالة بطريقة فنية تحمل طابعه الشخصي عليها.

وحتى الأعمال الرمزية الغريبة للنبي من الممكن تفسيرها إلى حد ما على أنها وسائل فنية غير عادية لجذب انتباه الناس. لقد بحث حزقيال عن وسائل جديدة من أجل إجبار أبناء شعبه على الاستماع إليه، فاستعان بأعمال تمثيلية مسرحية، وبأوصاف جريئة، وبالتكرار والتأكيد والمبالغة. ولقد كان حزقيال في ذلك "عصريًا" للغاية.

لقد حقق حزقيال بالفعل نجاحًا كبيرًا كفنان. فقد بدأ الشعب يتردد على بيته. وأصبح نقطة جاذبة. وانتقل الكلام بين الناس بضرورة الذهاب إلى حزقيال

والاستماع إلى كلامه ومشاهدة عروضه: "أما أنت يا ابن آدم فإن أبناء شعبك يتحدثون عنك بجوار الجدران وفي مداخل أبواب البيوت ويخاطب أحدهم الآخر، والرجل آخاه قائلين: هيا تعالوا اسمعوا كلام الوحي الصادر من عند الرب. ويقبلون إليك مثل سائل الشعب ويجلسون في حضرتك نظير شعبي، ويصغون إلى كلامك" (٣٣: ٣٠-٣١). وهذه إحدى الظواهر العجيبة في تاريخ النبوة. ولا نعلم عن أي نبي آخر، جاءت إليه جموع الشعب وجلسوا أمامه ليس لتعلم التوراة منه (مثل "بنو الأنبياء")، لكن للاستمتاع والسمر.

وكانت هذه مأساة حزقيال المضاعفة. أولًا؛ الصراع بين إرساله المآساوي، الذي فرضه الرب عليه، وبين الرغبة في التعبير الفني الحر. وثانيًا؛ الشعور والإدراك بأن الشعب لا يعتبره نهائيًا نبيًا رسولا، لكن فنانًا: "ويصغون إلى كلامك ولا يعملون به. إنهم يعربون عن أشواقهم بكلامهم، أما قلبهم فقد عزى وراء مكسبهم. وها أنت لهم كقصيدة حب يتغنى بها ذو صوت عذب يحسن العزف، فيصغون إلى كلامك ولا يعملون به". (٣٣: ٣١-٣٢). لذلك يسعى النبي نحو الهدف، حيث يدرك بنو شعبه أخيرًا أنه ليس فنانًا فقط إنما نبي: "يدركون أن نبيًا كان بينهم" (٣٣: ٣٣).

أهمية حزقيال التاريخية

تناولنا من قبل أهمية حزقيال التاريخية لدى أبناء جيله؛ لكننا سنضيف بعض الكلمات عن القيم في نبوءته ذات الأهمية الخاصة والمطلقة:

أ. من الناحية الإنسانية العامة

١. شخصية حزقيال الفريدة وغير العادية كنبي وكفنان.

٢. رؤيته لمهمة النبي كرقيب مسئول مسئولية شخصية عن مصير أبناء جيله، هي خير مثال على عظمة شخصيته، التي تشعر بالمسئولية العامة العظيمة.

ب. **من الناحية الدينية**

تعد الرؤية التجسيدية للإله الحي ظاهرة فريدة في نوعها لتجربة الدينية العميقة التي تفوق الطاقة البشرية. فهذه التجربة، من ناحية، ترقى بحزقيال وترفعه من العالم المتدني؛ ومن ناحية أخرى، يشعر بضآلته أمام الرب، أكثر من أنبياء آخرين (فهو ليس سوى "ابن آدم"). إن إله حزقيال ليس إلهًا تجريديًا، يدرك بالعقل المجرد، ليس له أي تأثير على حياة الإنسان. فحزقيال خاضع دومًا لإحساس اليد الإلهية، التلامس الإلهي الحي، الذي يوجه ويحدد كل خطواته وحركاته، وكلامه وسلوكه، وأفكاره ومشاعره (٣: ٢٢، ٨: ٣، ٣٣: ٢٢، ٣٧: ١، ٤٠: ١).

ت. **من الناحية التعليمية والأخلاقية**

١. مسئولية الإنسان عن أفعاله.

٢. قوة التوبة وقيمتها، والأهمية الحاسمة لخواتيم الأعمال.

ث. **من الناحية اليهودية القومية**

١. الإيمان الميتافيزيقي القوي بأن بعث الأمة وخلودها وخلاصها غير مرتبط بالشعب نهائيًا، إنما بالرب فقط.

٢. عدم قدرة الأمة على التهرب والتخلص من مهمتها القومية الدينية بين الأمم.

٣. الأساس العاطفي والإدراكي للحياة اليهودية في السبي، والإدراك والإحساس بأن "الشخينة" موجودة في كل مكان يتواجد بنو إسرائيل فيه.

الفصل الثامن

إشعياء ٤٠– ٦٦

إشكالية وحدة سفر إشعياء

تختلف مجموعة النبوءات في الإصحاحات ٤٠–٦٦ من سفر إشعياء عن نبوءات إشعياء بن آموص (في الإصحاحات ١–٣٩) من نواحٍ عدة. ويتفق كل علماء العهد القديم وباحثوه في هذا الرأي بأن هذه المجموعة لا تنتمي إلى إشعياء بن آموص؛ لكن لنبي آخر عاش في عصر أكثر تأخرًا، واعتادوا تسميته: إشعياء الثاني.

على الرغم من أن قسمي السفر بهما أفكار متشابهة، ومفاهيم وتعبيرات مشتركة، لكن الاختلافات الجوهرية بينهما كبيرة وأكثر حسمًا. وسنستعرض الاختلافات الأساسية بين قسمي السفر:

١. **الخلفية التاريخية**: إشعياء الأول (الذي سنطلق عليه اختصارًا اسم: بن آموص) تنبأ في القرن الثامن قبل الميلاد، في عصر الصعود الآشوري، والأحداث الرئيسية في نبوءاته هي: حرب رصين ملك آرام، و فَقْح بن رَمَليا ضد آحاز ملك يهوذا؛ سقوط دمشق، وخراب السامرة، وحملة سنحريب على يهوذا ونجاة أورشليم من يديه في عصر حزقيا. ونبوءات بن آموص راسخة ومترسخة في الخلفية التاريخية لعصره. وفي المقابل لا نجد في الإصحاحات ٤٠–٦٦ أي ذكر للأحداث التي وقعت في عصره. ولا يوجد أي حديث فيها عن آشور ولا آرام ولا عن سرجون ولا سنحريب، ولا عن آحاز أو حزقيا. فالكلام كله عن أورشليم المهجورة، وعن الهيكل المحروق: "قد استحالت مدينتك المقدسة إلى قفر،

وأصبحت صهيون برية وأورشليم موحشة. واحترق بالنار هيكلك المقدس البهي، الذي شدا آباؤنا فيه بتسبيحك وصار كل ما هو أثير لدينا خرابًا (٦٤: ١٠-١١). لا يوجد ملك أو ملكة في إسرائيل. وفي أرض الكلدانيين يقيم مسبيو يهوذا، ويتوجه النبي إلى الرب بطلب الهرب: "اخرجوا من بابل! اهربوا من أرض الكلدانيين" (٤٨: ٢٠). ويكلف الرب كورش، ملك فارس والميديين، بمهمة إعادة بناء أورشليم وإعادة مسبيي يهوذا إلى أرضهم. ولقد ورد اسم كورش صراحة مرتين: "القائل عن كورش راعي، فكل مسرتي يتمم، ويقول عن أورشليم ستبنى، وللهيكل ستؤسَّس" (٤٤: ٢٨)؛ "هكذا يقول الرب لمسيحه، لكورش" (٤٥: ١): "هو يبني مدينتي ويطلق سبيي" (٤٥: ١٣).

بذلك فمن الواضح أن الخلفية التاريخية لنبوءات إشعياء الثاني ليست عن صعود آشور في القرن الثامن؛ إنما عن صعود فارس وسقوط بابل على أيدي كورش في النصف الثاني من القرن السادس ق.م؛ أي بعد عصر بن آموص بمائتي سنة.

كان كورش في بدايته ملكًا صغيرًا في عيلام، ويخضع لحكم الميديين. وفي عام ٥٥٠ ق.م تمرد على أستياجس[١]، ملك الميديين، واحتل فارس وأصبح ملك الميديين وفارس معًا. ولقد اتحد ثلاثة ملوك عظام لمحاربته: كرويسوس، ملك ليديا، في آسيا الصغرى، ونبونيد ملك بابل، وأماسيس (أحمس) ملك مصر. واحتل كورش ساردس عاصمة ليديا في عام ٥٤٦ ق.م وأسر كرويسوس، وأصبحت كل آسيا الصغرى تحت سيطرته. أما احتلال مصر فقد تركه كورش لابنه قمبيز (٥٢٥

[١] آخر ملوك الإمبراطورية الميدية حكم من سنة ٥٨٥ إلى سنة ٥٥٠ ق.م. خلف أباه سياخريس في الحكم؛ حكم إلى سنة ٥٥٠ ق.م إلى أن تم خلعه من الحكم من قبل حفيده كورش الكبير ملك فارس.

ق.م). سقطت بابل في يديه بدون حرب في شهر تشري من عام ٥٣٩ ق.م. ودخل كورش المدينة بإعلان السلام؛ فلم يدمرها و لم يخرب معابدها ولا أصنامها. وسقطت الإمبراطورية البابلية، وقام الحكم الفارسي الذي سيسيطر على جميع بلدان الشرق مستقبلًا لحوالي مائتي سنة، حتى غزو الإسكندر الأكبر.

إن إعلان كورش الذي يسمح لمسبي يهوذا بالعودة إلى أورشليم وبناء الهيكل، هو جزء من سياسة التسامح الدينية لكورش. وورد ذكره مرتين في العهد القديم: في نهاية سفر أخبار الأيام الثاني (٣٦: ٢٢-٢٣)، وبشكل أكثر في سفر عزرا ١: ١-٤. بالطبع كان هناك قيمة سياسية لهذا الإعلان — الرغبة في توطين بجوار - مصر - شعب يكون ممتنًا لفارس ومخلصًا لها. على أية حال لم يكن إعلان فارس - الأهم في تاريخ إسرائيل - سوى جزءًا صغيرًا من أعمال كورش الكبيرة.

يتحدث إشعياء الثاني عن تقدم كورش السريع وانتصاراته (٤٥: ١-٣)، وكذلك عن سقوط بابل (٤٦-٤٧). ويبدو أنه بدأ يتنبأ بعد احتلال ساردس في عام ٥٤٦ ق.م. ونظن أنه قد تنبأ في السنوات الأخيرة من الحكم البابلي تحديدًا (٥٤٠-٥٣٩ ق.م) بعد العودة الأولى إلى صهيون بزعامة شيشْبَصَّر. وفي الإصحاحات الأخيرة من السفر ينعكس الوضع البائس لأورشليم بعد العودة الأولى، ويُعتقد أن عمل إشعياء الثاني الأساسي قد استمر حتى عام ٥١٠ ق.م، أو حتى سنة ٥٠٠ ق.م.

٢. **الموضوعات الرئيسية عند إشعياء الثاني ثلاثة:** أ. مواساة مسبيي بابل و"لنائحي صهيون"، بشرى الخلاص، نبوءات حماسية عن مجد عودة صهيون. ب.تسابيح لعظمة الرب وسخرية من ضآلة الأصنام. ج. حالة "عبد الرب"، صفاته، ومهمته ومستقبله.

هذه الموضوعات الثلاثة مفهومة جيدًا على الخلفية الخاصة لسبي بابل، الساكنين بين الأمم. ويختلف مضمون الإصحاحات ٤٠-٦٦ عن الإصحاحات ١-٣٩؛ ففي كل قسم من أقسام السفر موضوعات رئيسية أخرى؛ ففي القسم الثاني لم تذكر نهائيًا فكرة بن آموص "البقية ستعود". وليس فيها أي نبوءة عن الملك المثالي؛ في حين أن القسم الأول لا يوجد فيه أي ذكر لـــ"عبد الرب".

٣. **الاختلافات في الأسلوب:** سنقف في الموضوعات الأخرى لهذا الجزء على اختلافات مهمة مفصلة بين لغة إشعياء الثاني، ولغة بن آموص. غير أنه بشكل عام يمكننا القول إن أسلوب إشعياء الثاني يختلف تمامًا عن أسلوب بن آموص، سواء في الشكل العام أو في التشبيهات، وذلك في التعبيرات والمفردات. إن أسلوب بن آموص رفيع وصارم، ومركَّز ومقتضب، وعباراته قصيرة غير متكررة؛ في حين أن أسلوب إشعياء الثاني بلاغي، وشعري، وسلس، وبه الكثير من التكرار وازدواجية المفردات، عباراته طويلة، وسهل القراءة والفهم. وسماته المميزة غير موجودة في أسلوب بن آموص.

٤. **رسالة النبي لجيله:** يزعم الذين يذهبون إلى وحدة سفر إشعياء أن الاختلافات في الأسلوب غير مقنعة وأن الخلفية التاريخية للإصحاحات ٤٠-٦٦ كان من الممكن أن يعرفها بن آموص بقوة النبوة قبل وقوع الأحداث التاريخية نفسها بوقت طويل. لكن كيف يمكنهم الإجابة عن السؤال التالي: لماذا قبل بن آموص الرسالة النبوية لجيل عاش بعده بمائتي سنة؟ لماذا كان على الرب أن يضع في فم نبي من عصر عوزيا وحزقيا كلمات تشجيع لمسبيي بابل، "لنائحي صهيون". في عصر كورش؟ وليس في كلام بن آموص أي ذكر عن أي رسالة لسبي بابل، وليس في كلام إشعياء الثاني أي رسالة لجيل حزقيا. إن الكلام المخصص لمسبيي بابل قاله

النبي الذي عاش في عصرهم. وفي القرن الثاني عشر أشار مفسر العهد القديم الحاخام أبراهام بن عزرا إلى الفرق الجوهري بين قسمي السفر (في تفسيره للإصحاح ٤٠ الفقرة الأولى).

لماذا تم دمج نبوءات إشعياء الثاني إلى نبوءات بن آموص؟ ورد في سفر يشوع بن سيراخ (١٨٠ ق.م) عن إشعياء النبي:

بروح عظيم رأى العواقب وعزَّى النائحين في صهيون
كشف عما سيكون على مدى الدهور وعن الخفايا قبل حدوثها

(سفر يشوع بن سيراخ ٤٨: ٢٧-٢٨)

إذن، فبحسب الرواية التي كانت بين يدي بن سيراخ، فإن إشعياء بن آموص هو النبي، الذي عزَّى نائحي صهيون (وهذه المواساة هي مضمون الإصحاحات ٤٠-٦٦). من هنا تم ضم أقوال إشعياء الثاني إلى سفر بن آموص حتى قبل عصر بن سيراخ؛ والسؤال هو: لماذا لم يتم الاحتفاظ بنبوءات إشعياء الثاني في سفر خاص؟ من المفهوم أنه لا يمكن تقديم إجابة شافية وواضحة عن هذا السؤال، لكن يمكننا فقط تقديم تخمينات.

يقول بوبر إن إشعياء الثاني، رأى بل وأطلق على نفسه تلميذ إشعياء بن آموص وخليفته، وكما سنرى فإنه طلب بنفسه أن يظل بلا إسم وأن يعرف على مر الأجيال بتلميذ بن آموص. إن لقب تلميذ موجود فقط عند إشعياء وورد ذكره مرة واحدة في القسم الأول: "فأدخر الشهادة، وأختم الشريعة (في قلوب) تلاميذي" (٨: ١٦)، وثلاث مرات في القسم الثاني: "كل بنيك، تلاميذ الرب" (٥٤: ١٣)؛ "أعطاني السيد الرب لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيي بكلمة.

يوقظ كل صباح، يوقظ لي أذنًا، لأسمع كالمتعلمين (٥٠: ٤). ولقد تمسك بهذا اللقب خليفة بن آموص روحيًا، الذي يعدُّ من "تلاميذ" بن آموص. ومن هنا فإن دمج كلامه مع كلام معلمه كان بحق.

نبوءات إشعياء الثاني قريبة بالفعل في روحها ومضمونها ولغتها الشعرية من نبوءات بن آموص، أكثر بكثير من إرميا وحزقيال. ففي قسمي سفر إشعياء نبوءات مواساة ورسالة نهاية العالم القومية والبشرية بشكل عام (على الرغم من أنه في القسم الثاني تشغل المواساة حيِّزًا أكبر وأكثر مركزية). إن القسمين مكتوبان بلغة شعرية، وفيهما مفاهيم مشتركة (مثل: تسمية الرب "قدوس إسرائيل")، بل وهناك فقرات متشابهة (مثل: ٦٥: ٢٥، ١١: ٦-٩). وخط الشبه هذا غير موجود نهائيًا بين إشعياء الثاني وإرميا، أو حزقيال. لذلك قام محررو العهد القديم بضم مجموعة نبوءات النبي العظيم مجهول الاسم إلى أقوال إشعياء بن آموص.

أقسام السفر

في ثلاثة إصحاحات نجد ختامًا متشابهًا، فالإصحاح ٤٨ يختتم بالفقرة: "لا سلام، قال الرب للأشرار". وبفقرة مشابهة يُختتَم الإصحاح ٥٧: "ليس سلام، قال إلهي للأشرار". وكذلك في الفقرة الأخيرة من الإصحاح ٦٦ تختتم بكلمات وبال على الأشرار: "ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوا عليَّ، .." وتماشيًا مع هذه النهايات يمكن تقسيم السفر إلى ثلاثة أقسام، كل قسم من تسعة إصحاحات كالتالي: ١. الإصحاحات ٤٠-٤٨؛ ٢. الإصحاحات ٤٩-٥٧؛ ٣. الإصحاحات ٥٨-٦٦.

وهذا التقسيم ليس تقسيمًا من ناحية الشكل فقط إنما يناسب المضمون كذلك: يعتبر القسم الأول (٤٠-٤٨) وحدة أدبية واحدة؛ فهو يضم النبوءات الأولى للنبي

التي قالها قبل الاحتلال البابلي؛ أي: في الفترة من ٥٤٥–٥٣٩ ق.م. ويعتقد الدكتور م. هاران أن هذه النبوءات قد ذكرت في الفترة الزمنية القصيرة بين الاحتلال البابلي والهجرة الأولى (٥٣٩–٥٣٨ ق.م). وأساس مضمون هذا القسم: بشرى الخلاص، مهمة كورش، سقوط بابل، الاستهزاء بالأصنام، وتمجيد عظمة الرب. ولا يوجد في هذا القسم نبوءات توبيخ.

ويشتمل القسم الثاني أيضًا على أقوال خلاص ومواساة، لكن أضيف إليها معظم كلام النبي عن عبد الرب (٤٩، ٥٠، ٥٣–٥٤) وكذلك توبيخ لاذع (خاصة في ٥٦–٥٧)، دوِّن على ما يبدو بعد الهجرة الأولى، بتأثير من الإحباط العظيم من عودة صهيون الصغيرة والضئيلة. وفي القسم الثالث تزداد نبرة التوبيخ (٥٨–٥٩، ٦٣–٦٦)، لكن يوجد فيه أيضًا إصحاحات رؤية حماسية جدًا عن مجد عودة صهيون (٦٠–٦٢)، وكل نبوءة توبيخ تتبعها على الفور نبوءة مواساة.

بما أن الإصحاحات ٥٦–٥٧ هي إصحاحات التوبيخ – فهناك من يقترح التخلي عن هذا التقسيم من ناحية الشكل (بحسب نهاية الإصحاحات)، وتقسيم السفر كالأتي:

أ. القسم الأول: ٤٠–٤٨.

ب. القسم الثاني: ٤٩–٥٥ (وليس حتى ٥٧).

ت. القسم الثالث: ٥٦–٦٦.

هناك باحثون يزعمون أن الإصحاحات ٥٦–٦٦ تنتمي إلى نبي آخر، عاش في فترة متأخرة، في عصر ملآخي، ويسمونه: إشعياء الثالث؛ غير أن هذه الادعاءات

غير حاسمة. ويظن معظم علماء العهد القديم أن القسم الثالث أيضًا من السفر ينتمي إلى إشعياء الثاني، لكن هناك خلاف حول زمن ومكان النبوءات الواردة فيه.

وهناك رأي مهم يقول بأن الإصحاحات ٥٦-٦٦ قد قالها نبي في السنوات الأولى بعد خراب أورشليم، كان يوبِّخ البقية التي بقيت في أرض يهوذا. وهذا النبي أيضًا ينتمي إلى مدرسة إشعياء واعتبر نفسه تلميذًا له.

شخصية النبي ورسالته لأبناء جيله

١- **إشكالية مكان النبي**: إن مجموعة إشعياء الثاني لا تبدأ بأي عنوان أو عنوان لمكان؛ عن شخصية النبي أو مكانه أو زمنه. لذلك تختلف الآراء كثيرًا في هذا الشأن. وكنا قد تناولنا من قبل إشكالية زمن النبي، لكن هناك خلاف أيضًا حول مكانه. ظاهريًا يبدو أن نبوءاته الأولى قد قيلت في بابل؛ لكن لا يحتمل أن يكون الرجل الذي بشَّر بعودة صهيون وأيقظ المسبيين للعودة لم يشارك هو نفسه فيها؛ لذلك من الممكن أن نخمِّن أن نبوءاته الأخيرة قد قيلت في أورشليم، لكن هناك آراء أخرى حول هذا الأمر.

يزعم قويفمان أن نبوءات إشعياء الثاني قد ظهرت كلها في السبي في بابل. والفرق بين نبوءاته الأولى ونبوءاته الأخيرة تتضح كل حاجته في أزمة سنة ٥٣٩، وليس بالضروري أن نفترض أنه هاجر من بابل إلى أرض إسرائيل (٧٠: ٦٣). وبعكس هذا الرأي تمامًا يظن البروفسور سيجل أن إشعياء الثاني قد تنبأ في أرض إسرائيل فقط. ويشير إلى أن الطبيعة والبيئة في النبوءات إسرائيلية وليست بابلية. ويتوجه النبي إلى المسبيي بنداءات: "اخرجوا من بابل (٤٨: ٢٠)، اخرجوا من هناك" (٥٢: ١١)، وهو أسلوب كلام يناسب شخص غير موجود في بابل. كما يصف النبي المسبيين بالأسرى في السجون (٤٢: ٧، ٢٢)، والحياة في الضيق (٥١:

١٤)، على الرغم أنه، بحسب المصادر الأخرى، وبحسب أقوال إرميا وحزقيال كان المسبيون يسكنون في سلام وحققوا رفاهية اقتصادية. وبذلك فإن إشعياء الثاني لم يعرف حياة السبي كما ينبغي و لم يعشها. وأنه قد سكن أرض إسرائيل وأرسل كلماته في لفائف (رسائل) إلى بابل.

غير أنه من العسير التخمين بأن إشعياء الثاني لم يعش في بابل نهائيًا. فكلامه عن الثقافة البابلية، وعن التنجيم، وعن صنع الأصنام، وما إلى ذلك، يبدو وكأنه مأخوذ من المصدر الأول. فكلامه عن ضيق المسبيين لا يثبت أنه لم يعرف حالتهم، بالعكس، فقلوزنر يرى أن هذا يبرهن على كلام إشعياء الثاني، بأن الصورة الوردية للسبي البابلي مبالغ فيها كثيرًا وأن هناك أيضًا ظلم واضطهاد، وضيق وشدة[١].

٢- **الحالة النفسية لمسبيي بابل:** لقد حصل مسبيو بابل على الرفاهية الاقتصادية، ومع ذلك كانوا مكتئبين، وحزانى ويائسين. فالخراب هزَّ وجدانهم. وكان يمكن تفسير النصر البابلية على أنه إهانة للرب. لقد ثارت في قلوبهم الشكوك والمخاوف بأن الإحياء القومي والديني المنتظر لن يتحقق. لقد أحسُّوا أنفسهم "معذَّبين" بآثامهم (حزقيال ٢٤: ٢٣)، وبدأت عملية الانغماس الثقافي والقومي واللغوي، وبدأت اللغة الآرامية تحل محل العبرية، وبدأ المسبيون في الاندماج في الثقافة الوثنية، على الرغم من عدم قبولهم لها[٢].

ومن الناحية الروحية، انقسم السبي البابلي إلى ثلاث طبقات على ما يبدو: الأولى؛ "نائحو صهيون" المؤمنون، الذين يتطلعون إلى العودة إليه، ويتوقون إلى خلاص الرب. الثانية؛ المندمجون الخائنون الذين نسوا صهيون. الثالثة؛ المسبيون

---

[١] ص ٦٦-٧٤.

[٢] قويفمان ص ٣٠.

الذين بقوا مخلصين للرب، لكن إيمانهم قد ضعف، والشكوك تأكل قلوبهم. ويظهر في كلام النبي أصداء لشكوك المسبيين: "لماذا تقول يا يعقوب، وتتكلم يا إسرائيل: لقد اختفت طريقي عن الرب، وفات حقي إلهي" (٤٠: ٢٧). "وأما منتظرو الرب فيجددون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور" (٤٠: ٣١).

٢- **مهمة النبي المواسي:** لا يوجد في سفر إشعياء أي وصف خاص لظهور الرب وتجليه للنبي، لكن توجد إشارات لتكليفه في عدة مواضع. فالنبي يسمع صوت غامض يأمره بمناداة كلام الرب: "صوت قائل ناد. فقال بماذا أنادي؟ (٤٠: ٦). وكما يسمع النبي "صوت صارخ في البرية" (٤٠: ٣). وهناك نبوءة في القسم الثالث من السفر لها طابع واضح من التكليف والإرسال:

روح السيد الرب علي، لأن الرب مسحني.
لأبشر المساكين أرسلني، لأعصب منكسري القلب،
لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق؛
لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا،
لأعزي كل النائحين: لأجعل لنائحي صهيون،
لأعطيهم جمالا عوضًا عن الرماد،
ودهن فرح عوضًا عن النوح،
ورداء تسبيح عوضًا عن الروح اليائسة،
فيدعون أشجار البِر غرس الرب للتمجيد. (٦١: ١-٣).

وفيما يتعلق بصفات عبد الرب؛ فإن تأكيد النبي على أن الرب هو إله الفقراء والمساكين، والمنسحقين ومحطمي القلوب (٤١: ١٧، ٥٧: ١٥، ٦٦: ٢)، يثبت

أن النبي نفسه كان واحدًا من نائحي صهيون المؤمنين، الفقراء المحطمين، لكن رسالته بعثت فيهم الحياة، والإيمان القوي والبهجة. فقد اعتبر نفسه مبشرًا بالخلاص ومناديًا بتحرير الأسرى والمسجونين في السبي والانتقام من الأعداء.

وعن عبد الرب يقول إشعياء الثاني: "الرب من البطن دعاني، من أحشاء أمي ذكر اسمي" (٤٩: ١). ولا شك في أن هذه الكلمات تعبر عن مشاعر النبي، التي تشبه مشاعر إرميا، بأنه قد تم تكليفه وهو في الرحم بأن يكون مبشرًا لشعبه. فقد كانت أذنه مصغية وهو في طفولته وشبابه "يسمع كالمتعلمين"، يحسن ويطور "لسان المتعلمين"، من أجل تشجيع "المعيي بالكلمة" (٥٠: ٤)؛ وعندما فتحت آذناه لسماع كلام الرب لم يتردد أو يشكك؛ "لم أعاند للوراء ولم أرتد" (٥٠: ٥).

ويقول البروفسور تسفي آدار إن المزج بين النبوة والشعر في سفر إشعياء الثاني جريء وعميق جدًا، لدرجة أننا نخطيء ونظن أحيانًا أن الذي أمامنا ليس كلام نبوءة، إنما أشعار[1]. ويقول بابيار إن إشعياء الثاني كان مفكرًا وشاعرًا أكثر من كونه نبيًا. بالتأكيد كان إشعياء الثاني شاعرًا عظيمًا، لكن الفقرات التي عرضناها سابقًا بها ما يكفي من برهان على أن هذا النبي العظيم كان نبيًا، أرسل لبني جيله لمواساتهم، وتبشيرهم بالخلاص القريب، وبث فيهم روح الحياة وأمل الخلاص. لقد قوّى إيمانهم الذي ضعف، وسخر من رغبة عابدي الأصنان في الثقة فيما تصنع أيديهم.

[1] ص ١٤٩.

عظمة الرب وضآلة الآلهة الأخرى والإنسان

أخذ إشعياء الثاني على عاتقه مهمة إقناع مسبيي بابل، الذين زعزع الخراب والسبي نفسهم وإيمانهم، بأن إله إسرائيل هو الإله الواحد الأحد الذي يعمل في العالم والتاريخ، وأن حتى انتصارات البابليين، ومن بعدها الاحتلال الفارسي، هي من عمل الرب وحده. لذلك يخصص إشعياء الثاني قسمًا كبيرًا من كلامه لتعضيد العقيدة التوحيدية التامة ومحاربة الوثنية. ولا يوجد أي نبي تشغل هذه الموضوعات في نبوءاته هذه المكانة الرئيسية البارزة. كما يدعو الأمم الأخرى إلى الجدل العلني حول تلك الموضوعات، ويتركز الجدل على ثلاثة قضايًا محددة: ١. الإله كخالق العالم والإنسان؛ ٢. الإله أبدي، وقائد للتاريخ؛ ٣. التناقض التام بين الرب والإنسان.

١. **الإله الخالق:** هكذا يقول الله الرب:

خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها،
معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحًا، (٤٢: ٥)
أنا صنعت الأرض، وخلقت الإنسان عليها،
يداي أنا نشرتا السماوات، وكل جندها أنا أمرت. (٤٥: ١٢)
خالق السماوات هو الله، مصور الأرض وصانعها،
هو قررها. (٤٥: ١٨)

(وكذلك ٤٠: ١٢-١٤، ٢٦-٢٨، ٤٨: ١٣، وغيرها).

أما الصنم فلا يخلق شيئًا، فهو نفسه من صنع الإنسان، لذلك فالرب فقط هو القادر على السيطرة على العالم وعلى الإنسان وتغيير نظام الطبيعة. يعتبر إشعياء

الثاني الوثنية عقيدة وثنية فقط، مثل عبادة الشجر والحجر، وليس تقديرًا لرموز قيم روحية. إن عبدة الأصنام يسجدون لصنع أيديهم، ويثقون في "كتلة خشبية" قطعوها بأنفسهم في الغابة، وأعدوا منها صنمهم. إنهم لا يدركون مدى حمقهم: "لا يعرفون ولا يفهمون، لأنه قد طمست عيونهم عن الإبصار وقلوبهم عن التعقل" (٤٤: ١٨). كما يسخر النبي أيضًا من المنجمين، حكماء بابل: "ليقف قاسموا السماء الراصدون النجوم، المعرِّفون عند رؤس الشهور، ويخلصونك مما يأتي عليك. ها إنهم قد صاروا كالقش، أحرقتهم النار، لا ينجون أنفسهم من يد اللهيب .." (٤٧: ١٣-١٤).

لم يحصل التناقض بين الرؤية البصرية الشكلية للإله، وبين الرؤية الروحية، السمعية على هذه الدرجة القوية من التعبير في أي موضع آخر في العهد القديم. فكل صنيع الإنسان المادي، الجسدي والملموس، وحتى الأكثر فنًا؛ باطل وزائل أمام الكلام الإلهي.

النبي يؤكد على قوة الرب العظيمة، وعلى بطولته ومقدرته العظيمة: "ارفعوا إلى العلاء عيونكم، وانظروا من خلق هذه؟ من الذي يخرج بعدد جندها، يدعو كلها بأسماء؟ لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يفتقد أحد" (٤٠: ٢٦)؛ "هوذا السيد الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له" (٤٠: ١٠)؛ "الرب كالجبار يخرج، كرجل حروب ينهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه" (٤٢: ١٣)؛ "أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السماوات وحدي، باسط الأرض من معي؟" (٤٤: ٢٤)؛ "السماوات كرسي، والأرض موطئ قدمي" (٦٦: ١) وغيرها.

وبما أن الأصنام ليست لديها قوة وعظمة كهذه، فليس لها أي تأثير على العالم أو الإنسان، ولا تستطيع بالطبع صنع المعجزات والعجائب وتغيير نظام الطبيعة. وفي

المقابل يعلن الرب: "أخرِّب الجبال والآكام وأجفِّف كل عشبها وأجعل الأنهار يبسًا، وأنشِّف الآجام" (٤٢: ١٥)؛ "هوذا بزجرتي أنشف البحر، أجعل الأنهار قفرًا" (٥٠: ٢)؛ وكذلك ٥١: ٩-١٠، وغيرها.

وعلى عكس العقيدة الفارسية يقول النبي باسم الرب: "أنا الرب وليس آخر، مصور النور وخالق الظلمة، صانع السلام وخالق الشر، صانع كل هذه" (٤٥: ٦-٧). حتى الظلمة والشر من صنع الرب فقط.

فكيف يستطيع الإنسان الثقة في التماثيل، التي ليس فيها حياة وحركة، ويجب حملها على الأكتاف من أجل تحريكها من مكانها؟ أما الرب فهو نفسه الذي يحمل شعب إسرائيل (٤٦: ٣-٧).

٢. الإله الأبدي وقائد التاريخ:

"أنا الرب الأول، ومع الآخرين أنا هو (٤١: ٤).
قبلي لم يصور إله، وبعدي لا يكون (٤٣: ١٠).
أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيري (٤٤: ٦).
أنا هو، أنا الأول، وأنا الآخر (٤٨: ١٢).

بما أن الرب أبدي – يستطيع هو وحده معرفة وتوجيه أحداث التاريخ مسبقًا: "من فعل وصنع داعيًا الأجيال من البدء؟" (٤١: ٤). فهو فقط القادر على ضمان تحقيق كلامه مستقبلًا: "يبس العشب، ذبل الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد" (٤٠: ٨). النبوءات الأولى التي قد تحققت (خراب أورشليم، سبي بابل، سقوط بابل وغيرها)، هي شاهد على أن النبوءات الجديدة (عودة صهيون ومجدها) سوف

تتحقق: "هوذا الأوليات قد أتت، والحديثات أنا مخبر بها. قبل أن تنبت أعلمكم بها" (٤٢: ٩):

"مخبر منذ البدء بالأخير ومنذ القديم بما لم يفعل؛

قائلًا: رأيي يقوم وأفعل كل مسرتي" (٤٦: ١٠).

لم يتم التأكيد في أي موضع في العهد القديم على أهمية الكلمة والمقولة الإلهية. فأبدية الإله في الدهر، ولكونه خالق العالم والإنسان هي الضمان على أن كلامه سيتحقق. ليس فقط أن المنجمين غير قادرين على التحكم في أحداث المستقبل بل إنهم لا يعرفونها، لأن التاريخ الإنساني غير مرتبط بهم ولا بالأجرام السماوية. فهل أخبروا بالمستقبل من قبل، وتحقق كلامهم؟ الرب ينتظر إجابتهم لك "لا مخبر ولا مسمع ولا سامع أقوالكم (٤١: ٢٦).

إن ضعف إسرائيل ليس دليلًا على ضعف الرب: "من دفع يعقوب إلى السلب وإسرائيل إلى الناهبين؟" أليس إله إسرائيل نفسه الذي صب غضبه على شعبه (٤٢: ٢٤–٢٥، ٥٠: ١). وبنو إسرائيل تحديدًا الذين يعذبون في السبي، هم شهود على صدق كلام الرب، وحقيقة نبوءات أنبيائه: "أنتم شهودي، يقول الرب" (٤٣: ١٠، ١٢).

يقول بوبر إن إشعياء الثاني ليس أول توحيدي في إسرائيل لكنه أول من كان التوحيد هو موضوعه الرئيس. فهذه هي أول مرة يكون فيها دور النبي هو رفض دعاوى الآلهة الأخرى، التي تطلب لنفسها قيادة العالم ومصيره. رفض ذلك كدعوة باطلة، فالمطالبون بقيادة العالم هم بني البشر الذين يصنعون الآلهة. فالأصنام هي من

تصوير الإنسان[1]. إن أصنام الشعوب الأخرى لا تعرف شيئًا، لذلك هي غير قادرة على قول شيء[2]. أما الرب فيخبر بما سيحدث مسبقًا، لأنه هو فقط الذي حدده، وصنعه. إن الرب هو الإله الحي في التاريخ[3]. وكل ما لدى إشعياء الثاني ليقوله عن الخلق يشير إلى التاريخ، لأن كل ما لديه ليقوله عن التاريخ يشير إلى أمل الخلاص[4].

٣. **الإله والإنسان:** يؤكد إشعياء الثاني بشدة ليس فقط على ضآلة الأوثان، إنما على ضآلة الإنسان نفسه أيضًا في مقابل الإله، "الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب .. الذي يجعل العظماء لا شيء، ويصير قضاة الأرض كالباطل" (٤٠: ٢٢-٢٤). ليس فقط الإنسان الفرد إنما أيضًا شعوبًا كاملة تتضاءل أمامه:

هو ذا الأمم كنقطة من دلو   وكغبار الميزان تحسب. (٤٠: ١٥).

كل الأمم كلا شيء قدامه   من العدم والباطل تحسب عنده (٤٠: ١٧).

إنه يشبه الإنسان والشعب بالعشب اليابس، قصير العمر، ويذبل خلال وقت قصير: "كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل .. حقًا الشعب عشب" (٤٠: ٦-٧). لذلك لا يجب الوثوق في رحمة الإنسان وخلاصه؛ لكن خلاص الرب لا يتبدل: "خلاصي فإلى الأبد يكون – إلى دور الأدوار" (٥١: ٦-٨)؛ "كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد" (٤٠: ٧).

---

[1] ص ١٩٢.

[2] ص ١٩٣

[3] ص ١٩٤.

[4] ص ١٩٧.

والتناقض التام بين طرق الرب وطرق الإنسان تعبر عنه الفقرات التالية: "لأن أفكاري ليست أفكاركم، ولا طرقكم طرقي، يقول الرب. لأنه كما علت السماوات عن الأرض، هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم.." (٥٥: ٨-١١). إن الاختلاف بين الرب الخالق الأبدي، وبين كل شيء آخر في العالم، الذي هو مخلوق وزائل، جوهري هنا وأساسي، لدرجة أنه لا يوجد في العالم شيء أو مخلوق يشبه الرب: "فبمن تشبِّهون الله؟" (٤٠: ١٨)، "فبمن تشبهونني فأساويه؟" (٢٥)، "بمن تشبهونني وتسوونني، وتمثلونني فنتشابه؟" (٤٦: ٥).

صفات الرب وسماته

يطلق إشعياء الثاني ألقاب وصفات عدة على الرب، وتتكرر مرات كثيرة: قدوس (٤٠: ٢٥ وغيرها)، قدوس إسرائيل (٤١: ١٤، ١٦، ٢٠، ٤٣: ٣، ١٤، ٤٥: ١١، ٤٧: ٤، ٤٨: ١٧، ٤٩: ٧ وغيرها)، إله الدهر (٤٠: ٢٨)، الخالق، الصانع، الباريء (عشرات المرات)، المخلص (٤٣: ٣، ٤٥: ١٥، ٤٩: ٢٦ وغيرها)، الفادي (٤١: ١٤، ٤٣: ١٤، ٤٤: ٦، ٤٧: ٤، ٤٨: ١٧ وغيرها)، فادي إسرائيل (٤٩: ٧)، أبو إسرائيل (٦٣: ١٦، ٦٤: ٧)، المترحِّم (٤٩: ١٣، ٥١: ٣، ٥٤: ٧، ٦٣: ٧)، كثير الغفران (٥٥: ٧).

ويذكر إشعياء الثاني تحديدًا مساعدة الرب للمنسحقين، والمساكين، ومتواضعي الروح (٤١: ١٧، ٥٧: ١٥، ٦٦: ٢):

لأنه هكذا قال العلي المرتفع، ساكن الأبد القدوس اسمه:
المقدَّس أسكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح،
لأحيي روح المتواضعين ولأحيي قلب المنسحقين (٥٧: ١٥).

وإلى هذا أنظر، إلى المسكن والمنسحق الروح (٦٦: ٢).

أما الإله القاضي والمحارب، الغاضب شديد الغضب، فيظهر قليلًا في نبوءات إشعياء الثاني (٤٢: ١٣، ٥٩: ١٧، ٦٣: ١-٣). فصفات الرب الرئيسية هي الرحمة والفضل والمحبة. فهو يحب إسرائيل (٤٣: ٤، ٦٢: ٤)، ويراقبه كالراعي الرحيم، الذي يحمل إسرائيل على كتفيه، يؤيده بيمينه وينقذه من كل ضيق (٤٠: ١١، ٤١: ١٠، ٤٢: ١، ٤٣: ٢، ٤٤: ٢٢ وغيرها).

غير أن الرب ليس فقط إله رحمة وفضل (على الرغم من أن هذه الخصلة هي المسيطرة في إشعياء الثاني)، لكن أيضًا إله الصدق والعدل والحكم: "أنا الرب متكلم بالصدق، مخبر بالاستقامة" (٤٥: ١٩)؛ "لأني أنا الرب محب العدل، مبغض المحتلين بالظلم" (٦١: ٨). ويأتي مصطلحا "العدل" و"البر" أحيانًا بمعنى الخلاص: "أنا الرب ولا إله آخر غيري، إله بار ومخلِّص، ليس سواي" (٤٥: ٢١)، "أما برِّي فإلى الأبد يكون، وخلاصي إلى دور الأدوار" (٥١: ٨).

تختلف رؤية إشعياء الثاني للرب تمامًا عن رؤية عاموس وحزقيال، لكنها تختلف كذلك عن رؤية إشعياء بن آموص، على الرغم من الخطوط المشتركة بينهما.

اختيار إسرائيل ومحبة إسرائيل

اختيار إسرائيل عند عاموس أخلاقي؛ وعند حزقيال لا يوجد سبب لاختيار إسرائيل؛ فشعب إسرائيل اختير من أجل الرب، من أجل تقديس اسمه بين الأمم. وهناك بالطبع هدف من اختياره، لكننا لا نعلم لماذا اختار الرب إسرائيل تحديدًا. وعلى عكس الاثنين يقول إشعياء الثاني- مثل هوشع وإرميا - إن الاحتيار قد تم من واقع الحب. وهو أمر غير منطقي نابع من مبررات عقلانية، أخلاقية أو

ميتافيزيقية؛ إنما أمر عاطفي، غير منطقي. "وأما أنت يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترته، نسل إبراهيم خليلي .. وقلت لك: أنت عبدي. اخترتك ولم أرفضك" (٤١: ٨-٩)؛ "جعلت في البرية ماء، أنهارًا في القفر، لأسقي شعبي مختاري. هذا الشعب جبلته لنفسي، يحدِّث بتسبيحي" (٤٣: ٢٠-٢١)؛ "إذا صرت عزيزًا في عيني، مكرمًا، وأنا أحببتك" (٤٣: ٤). لذلك على شعب إسرائيل أن يكون واثقًا دائمًا بمراقبة الرب ومساعدته وعونه له. ويعود النبي ليؤكد على أنه لا يجب على إسرائيل الخوف على مصيره: "لا تخف فإني معك" (٤٣: ٥)؛ "لا تخف لأني معك .. لأني أنا الرب إلهك الممسك بيمينك، القائل لك، لا تخف أن أعينك" (٤١: ١٠، ١٣). إن الإعلان بأن الرب موجود ويسكن إسرائيل، وأن قربه من إسرائيل ملموس بالفعل، كان له معنى خاص في السبي، خارج أرض إسرائيل وبدون الهيكل.

إن فضل الله ورحماته على إسرائيل أبدية: "فإن الجبال تزول، والآكان تتزعزع، أما حسناتي فلا يزول عنك، وعهد سلامي لا يتزعزع، قال راحمك الرب" (٥٤: ١٠). لدينا هنا نوع من التقابل مع أقوال حزقيال الذي يقول إن عهد الرب مع إسرائيل أبدي، وغير مرتبط بسلوك الشعب نهائيًا. لكن المبررات مختلفة تمامًا. فبحسب حزقيال فإن الرب يعد الأمة بالأبدية، لأنه يحتاجها لتقديس اسمه. أما عند إشعياء الثاني فأبدية إسرائيل مضمونة بسبب محبة الرب الأبدية غير المنطقية لإسرائيل. لذلك من غير المحتمل عند إشعياء الثاني وجود فكرة الخلاص بالقوة من منطلق الغضب. فوقت الغضب والحكم قد ولَّى وجاء الآن وقت المحبة والرحمات؛ فالرب لم يعد يذكر أخطاء إسرائيل: "أنا، أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي،

وخطاياك لا أذكرها" (٤٣: ٢٥)؛ "قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك، ارجع إليَّ لأني فديتك" (٤٤: ٢٢). فخلاص إسرائيل لم يعد مرتبطًا بتوبتهم:

عزُّوا، عزُّوا شعبي! يقول إلهكم:
طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها،
بأن جهادها قد كمل، أن ثمنها قد عفي عنه،
أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين من كل خطاياها (٤٠: ١-٢)

يجب ملاحظة خيط الحب والرحمات النابضة في هذا النداء. فتكرار الكلمات: "عزّوا، عزّوا!" يدل على العلاقة العاطفية، والانفعال، وضيق صدر المتحدث. فالعزاء عاجل، وهو يعجِّل بعمل سريع؛ فالرب يهتم بشعبه مثل الراعي الرحيم الطيب، ويحرص دائمًا على غنمه (٤٠: ١١، ٤٩: ٩-١٠ وغيرها). "بمحبته ورأفته هو فكَّهم ورفعهم، وحملهم كل الأيام القديمة" (٦٣: ٩). إن الخلاص ليس موضوع لآخر الأيام، فهو سرعان ما سيأتي. لقد أخفى الرب في الماضي وجهه عن شعبه، لكن غضبه كان قصيرًا وسيمر في مقابل حبه الأبدي: "بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وبإحسان أبدي أرحمك، قال وليُّك الرب" (٥٤: ٤).

يشبِّه إشعياء الثاني العلاقة بين الرب وشعبه – مثل هوشع وإرميا وحزقيال – بالعلاقة بين الرجل وامرأته: "كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" (٦٢: ٥)؛ "هكذا قال الرب: أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها؟" (٥٠: ١)؛ "لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب. وكزوجة الصبا إذا رذلت قال إلهك" (٥٤: ٦). لكن إشعياء الثاني لا يزعم نهائيًا أن زوجة الرب خانت زوجها وزنت مع الشعوب الأخرى؛ لكن العكس! فهو يزعم أن الرب هو الذي هجرها، وأنها بقيت

مثل المرأة المهجورة، والمحزونة، والوحيدة، والمهانة. والآن يعد الرب امرأة شبابه بتخليصها من خزي ترملها: "لا تخافي، لأنك لا تخزين، ولا تخجلي لأنك لا تستحين، فإنك تنسين خزي صباك، وعار ترملك لا تذكرينه بعد" (٥٤: ٤).

عبد الرب: صفاته، هويته، ومهمته

١. **الافتتاحية**: التفرد الرئيس لنبوءات إشعياء الثاني هو في فكرة "عبد الرب"؛ وعلى الرغم من ذكر المصطلح نفسه كثيرًا في العهد القديم؛ حيث لُقب به إبراهيم (التكوين ٢٦: ٢٤)، وموسى (العدد ١٢: ٨)، ويشوع (يشوع ٢٤: ٢٩)، وداود (صموئيل الثاني ٣: ١٨)، وإشعياء (٢٠: ٣)، وأيوب (٢: ٣، ٤٢: ٧)، ونبوخذ نصر (إرميا ٢٥: ٩)، وشعب إسرائيل (إرميا ٣٠: ١٠، ٤٦: ٢٧)، والأنبياء (الملوك الثاني ١٧: ١٣، إرميا ٧: ٢٥)؛ إلا أن أقوال إشعياء الثاني عن صفات ومهمة ودور عبد الرب تشمل رؤية كاملة أصيلة ومهمة عن مصير ودور شعب إسرائيل.

ومِثل كل أقوال إشعياء الثاني فهو يعبر عن أفكار عبد الرب في صورة شعرية، بمصاحبة تشبيهات، وتصويرات وأمثال، وهو ما يصعِّب كثيرًا من الفهم الدقيق للأمور. ويوجد حتى اليوم اختلاف في الآراء بين المفسرين حول من يقصد النبي بكلامه، هل شعب إسرائيل كله أو بعضه أو الأنبياء بشكل عام، أو نبي معين أو هو نفسه؟

المواضع الرئيسية التي يُتحدَّث فيها عن عبد الرب هي: أ. ٤٢: ١-٩، ١٨-١٩. ب. ١٩: ١-٧. ج. ٥٠: ٤-٩. د. ٥٢: ١٣-٥٣: ١٢؛ لكن هناك مواضع أخرى كثيرة يحب إشعياء الثاني إطلاق اسم "عبد" فيها على شعب إسرائيل: "وأما أنت يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب، الذي اخترته" (٤١: ٨)؛

"وقلت لك أنت عبدي اخترتك و لم أرفضك" (٩)؛ "الآن اسمع يا يعقوب عبدي، وإسرائيل الذي اخترته" (٤٤: ١)؛ لأجل عبدي يعقوب، وإسرائيل مختاري" (٤٥: ٤).

يستخدم النبي في معظم المواضع مصطلح "عبد" ويقصد به شعب إسرائيل الذي اختاره الرب ليكون عبده، لكن بما أن شعب إسرائيل يوصف كشخص، فبمقدور النبي الشاعر أن يرمز إلى الشعب بشخص منفرد له صفات شخصية، محسوسة وملموسة، على الرغم من أن ليس كل تفاصيل هذه الشخصية الشعرية الرمزية تنطبق على أي فرد من رجال الشعب أو حتى على الشعب كله.

يقول الحاخام أبراهام بن عزرا إن الحاخام سعديا جاؤن رأى النبي إرميا في شخص عبد الرب. أما الحاخام دافيد قمحي فيقول إن إشعياء الثاني كان يقصد الملك المسيح. لكن العبد لا يجب أن يكون شخصية تاريخية معينة عاشت في الماضي أو ستعيش مستقبلًا؛ إنما هي مجرد رمز تصويري ملموس يتبلور في شخصيه المثال القومي للنبي.

٢. **الإصحاح ٤٢**: ورد في الوصف الأول لعبد الرب: "هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيُخرِج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفيء، إلى الأمان يخرج الحق. لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته (٤٢: ١-٤). يمكننا من خلال هذه الفقرات أن نقف على عدة أمور مهمة عن العبد وعن مهمته:

أ. عبد الرب اختاره الرب، ويعيش ويعمل بوحي من روحه.

ب. لا يصنع أي شر، كما أنه لا يضر الضعفاء والمسحوقين تحديدًا. وكل أعماله طيبة ومستقيمة.

ت. هو متواضع وهادئ وصبور، كما يتمتع بعظمة نفسية كبيرة، ولا يسأم محاولته النجاح في القيام بدوره.

ث. وما هو دوره؟: "يخرج الحق للأمم، إلى الأمان يخرج الحق، حتى يضع الحق في الأرض". تدل هذه العبارات الثلاث على أن دور العبد هو تعليم العالم كله الحق والعدل والحقيقة، وتتطلع إلى شريعته أمم قريبة وبعيدة. ويفسر راشي العبارة: "لا يصيح ولا يرفع" بأنه لن يرفع صوتًا ولن يحتاج إلى التنبوء إلى الأمم الأخرى وأنهم هم الذين سيحضرون إليه بأنفسهم". هناك شبه كبير بين دور العبد هنا وبين رؤيا آخر الأيام عند إشعياء بن آموص الذي يقول: "لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب" (٢: ٣-٤). لكن لم يذكر هنا أن الشريعة سوف تخرج من صهيون تحديدًا. فالحديث ليس عن المكان الذي ستخرج منه الشريعة، إنما فقط عن موضوع هذه الشريعة؛ ومن المفهوم أن دور عبد الرب هنا هو عالمي: فعليه تعليم العالم كله طرق الحق والعدل. وبالطبع مثل هذا الدور لا يمكن أن يكون فرديًا؛ فلن يستطيع رجل واحد النجاح فيه أبدًا.

ثم يوضح النبي دور العبد: "أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك، وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم" (٤٢: ٦)، يذكِّر تعبير "نورًا للأمم" مرة أخرى بما قاله بن آموص: "يا بيت يعقوب، هلم فتسلك في نور الرب" (٢: ٥). "والنور هو الشريعة التي ستخرج لهم من صهيون" بحسب تفسير الحاخام داود قمحي. فكيف سيكون عبد الرب نورًا للأمم؟ بأن يعلمهم الإيمان بالرب وطرق عدل الرب، وعن طريق هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، من

الناحية الروحية. فضلًا عن أن العبد سيكون "عهدًا للشعب": أي أنه سيقيم العهد بين الرب وجميع الشعوب. فالرب سيقيم العهدين: الأول؛ العهد المباشر مع إسرائيل، عبده واختياره. والثاني؛ مع جميع الشعوب من خلال إسرائيل. فشعب إسرائيل بمثابة حلقة الوصل التي تربط بين الرب والإنسانية.

لدينا هنا بالطبع صورة سامية لإسرائيل المثالية، معلمة البشرية، التي يمكن اعتبارها رؤيا آخر الأيام. لكن في الواقع التاريخي لا يقوم الشعب بدوره بعد لسببين:

أ. إنه هو نفسه لا يرى ولا يفهم دوره كما ينبغي، وهو بمثابة أعمى وأصم: "من هو أعمى إلا عبدي، وأصم كرسولي الذي أرسله" (٤٢: ١٩).

ب. مكانته بين الشعوب غير كريمة بالمرة. فليس فقط أن الشعوب لا تنتظر شريعته لكن العكس: "لكنه شعب منهوب ومسلوب" الكثير من أبنائه حبيسي سجون مظلمة، وصار الشعب كله "نهبًا ولا منقذ، وسلبًا وليس من يقول رُدًّا" (٢٢).

٣. الإصحاح ٤٩: في الإصحاح ٤٩ تظهر بوضوح صفات العبد وهويته القومية. لكن مع انتقالنا إلى الوصف الثاني للعبد في الإصحاح ٤٩، نسمع كلامًا جديدًا:

أ. العبد يتحدث عن نفسه بأسلوب شخصي لتكليف نبي:

الرب من البطن دعاني، من أحشاء أمي ذكر اسمي.
وجعل فمي كسيف حاد. في ظل يده خبَّأني،
وجعلني سهمًا مبريًا، في كنانته أخفاني. (١-٢)

تذكرنا الفقرت الأولى بتكليف إرميا؛ وتعبير "من أحشاء أمي" شخصي جدًا. ويبدو أن هذه الكلمات لا تنطبق على الشعب، إنما على نبي واحد.

ب. وفي الإصحاح ٤٩ يوصف العبد بأنه رجل هادىء ومتواضع غير قادر على صنع الشر لأي أحد. وأما هناك فأمامنا شخصية محاربة، فالنبي يستخدم تشبيهات مستعارة من التجهيزات الحربية. وعلى الرغم من أن السيف والسهم هما أسلحة روحية، إلا أنها أمثلة على كلام الرب وهي موجهة ضد الأشرار فقط؛ مع ذلك نجد هنا نبرة مختلفة وجانبًا جديدًا آخر لشخصية عبد الرب. ومن الممكن بالطبع حل هذه الإشكالية والقول إن عبد الرب هذا الذي "لن يصرخ ولن يرفع" و"قصبة مرضوضة لا يقصف" من الممكن أن يصبح أيضًا وقت الضرورة، ومن أجل لعب دوره الأخلاقي السامي، سيفًا حادًا، وسهمًا مبريًا.

ت. غير أن المعضلة الكبيرة تظهر في الفقرة السادسة التي تقول: "قليلًا أن تكون لي عبدًا لإقامة أسباط يعقوب، وردَّ محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نورًا للأمم، لتكون خلاص إلى أقصى الأرض". أي أن مهمة تخليص أسباط يعقوب هو أمر هين للغاية. ولا يجب على العبد أن يكتفي بإنقاذ شعبه، بل عليه أن يجلب خلاص الرب على جميع الشعوب. وبذلك يتضح أن النبي لا يتحدث هنا عن كل الشعب، الذي يتطلع إلى الخلاص، إنما عن جزء من الشعب فقط، الذي مهمته تخليص الشعب والبشرية. وعلينا أن نستخلص أن النبي قد رأى أمامه بشخصيته المثالية صاحبة الرؤيا للعبد – شعب إسرائيل كله (كرسول الرب بين الشعوب)، وأحيانًا أيضًا لجزء فقط من شعب إسرائيل. الأخيار فيهم (الأنبياء أو الصديقين) الذين مهمتهم تخليص شعبهم ببرهم.

٤. الإصحاحات ٥٢–٥٣: في هذه الإصحاحات (وكذلك في الإصحاح ٥٠)، يوصف عبد الرب كشخصية واحدة ملموسة ومجسدة: "بذلت ظهري للضاربين، وخدي للناتفين، وجهي لم أستر عن العار والبصق" (٥٠: ٦)؛ "كما اندهش منك كثيرون، كان منظره كذا مفسدًا أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم" (٥٢: ١٤)؛ "محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمستَّر عنه وجوهنا، محتقر فلم نعتد به" (٥٣: ٣)؛ وغيرها. "أجل، طريق هذا النبي تذكر كل إسرائيل كرجل واحد" (راشي في تفسيره للفقرة الأخيرة). فهو يمثل النبي الواحد المعاني (أو البار الواحد المعاني) بكل الأنبياء والأبرار المعانين، بل بكل الأمة الإسرائيلية، ويتحدث بدون تمييز صريح، مرة عن العبد – الشعب، ومرة عن العبد– خيرة الشعب، ومرة عن العبد – النبي الواحد.

ولا يجب أن يدهشنا هذا الأمر كثيرًا، على الرغم من أن هوية العبد ليست واضحة، فإشعياء الثاني ليس فيلسوفًا تقليديًا. فهو نبي شاعر حساس، يمتلك روحًا شعرية عاصفة وحماسية، يصف ويصور شخصية نبوءية رمزية، لها استقلالها الفني الخاص بها. يرى النبي أمامه إخوانه الذين يعانون، وربما تعرض هو نفسه للآلام، وسأل نفسه بدون تردد السؤال الأبدي: لماذا يعاني الأبرار والأنبياء وشعب إسرائيل بل هو نفسه كثيرًا؟ ما مغزى هذه الآلام في الدنيا التي تخضع لإله العدل والحكم؟ وتوصل إلى الإجابة الأصلية المهمة، التي كان لها أثرًا عظيمًا على تاريخ اليهودية والبشرية على حد سواء وهي: البار يعاني لأنه ينقذ البشرية بمعاناته. وإن خلاص العالم لن يتم بدون آلام، وأن هذه الآلام قد فرضت على أحد الشعوب، الذي يكفر بآلامه عن خطايا العالم. وأن النبي يجلب الخلاص لشعبه بآلامه، وأن الأمة تجلب الخلاص للبشرية كلها بآلامها.

وسيأتي اليوم الذي ستتعرف فيه الأمم الأخرى على آلام العبد وعلى خدمته لها وتقول:

لكن أحزاننا حملها	وأوجاعنا تحمَّلها.
ونحن حسبناه مصابًا،	مضروبًا من الله ومذلولًا.
وهو مجروح لأجل معاصينا،	مسحوق لأجل آثامنا،
تأديب سلامنا عليه،	وبحبره شفينا.
كلنا كغنم ضللنا،	ملنا كل واحد إلى طريقه،
والرب وضع علينا،	إثم جميعنا. (٥٣: ٤-٦).

لقد كانت البشرية في حاجة إلى احترام وتقدير والإعجاب بعبد الرب الذي حررها من آلامها، وجراحها، وعذابها الذي كان عليها تحملها بسبب آثامها وجرائمها؛ لكن في الواقع التاريخي الأمر ليس كذلك! فهو بائس ومضروب ومضطهد، يتلقى آلامه في صمت دون أي معارضة أو تمرد "كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازِّيها، فلم يفتح فاه" (٥٣: ٧).

٥. إشكالية الجزاء: تعتبر شريعة عبد الرب حلًا مهمًا لمشكلة البار، لكنها سيئة له؛ فالإنسان أو الشعب يعانون أحيانًا من أجل تحقيق الخلاص للآخرين بمعاناتهم، والتكفير عن آثام الآخرين. لكن هذا الحل — مع كل قسوته ومعناه التاريخي الفظيع لشعب إسرائيل — لا يمكن ألا يهز الضمير الأخلاقي. فلماذا حكم على البار تحديدًا أن يكون الضحية من أجل انقاذ الأشرار، إن كان لا علاقة له بآثامهم؟ ويجيب النبي عن هذه المعضلة: أن جزاء العبد مضمون له في المستقبل: "هوذا عبدي يعقل، يتعالى ويرتقي ويتسامى جدًا" (٥٢: ١٣)؛ "يرى نسلًا تطول

أيامه، ومسرة الرب بيده تنجح" (٥٣: ١٠) "لذلك أقسم له بين الأعزَّاء ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصى مع أَثَمَة"(١٢). حتى الحكام والملوك سيسجدون له (٤٩: ٧). وهناك تناقض شديد بين مكانة عبد الرب في الوقت الحاضر وبين مكانته في المستقبل. فعظمة شعب إسرائيل ومجده في المستقبل، هي الجزاء والتوبة، التعويض والمكافأة، على آلام العبد وأوجاعه في الحاضر. لذلك يؤكد النبي في نبوءاته عن الخلاص على خدمة الأمم لإسرائيل. إن الشعوب ناكري الجميل في الحاضر سيعترفون بدينهم الكبير لإسرائيل وسيحاولون تعويض عبد الرب عن كل إثم اقترفوه في حقه.

٦. ملحوظات:

١. كما هو معروف، يقول رجال اللاهوت النصارى إن قصائد عبد الرب موجهة إلى يسوع. وبديهي أن هذا التفسير ليس له أي سند من الكتابات نفسها لكن شريعة الرب عند إشعياء الثاني أصبحت أحد أسس الديانة المسيحية. ويرفض قويفمان بشكل قاطع هذا التفسير الشخصي لـــ"العبد". ولا يوجد في أي موضع في العهد القديم أي مخلص شخصي نهائيًا. فالخلاص هو عمل إلهي خالص. كما أنه لا يوجد في العهد القديم آلام في مقابل "تضحية" مخلص، بار يعاني آلام تكفير، من أجل تخليص الأشرار من العقاب؛ لذلك يكون العبد هو إسرائيل فقط، لكن ليس كل إسرائيل، إنما شخصية واحدة من شخصية إسرائيل المتشعبة، إسرائيل البار[1]. فالأقوال عن العبد الذي يعاني من أجل الآخرين لم تذكرها الأمم الأخرى إنما الإسرائيلي المتوسط الآثم[2]. إن مشكلة الإصحاح ليست معاناة شعب إسرائيل

[1] ص ١٢٣

[2] ص ١٢٩

نهائيًا؛ حيث لا يوجد تفسير لهذه المعاناة: فالإثم أدى إلى ذلك؛ لكن معاناة إسرائيل البائس. فما سبب معاناة المخلصين؟[١]

يقول البروفسور سيجل: "لا شك في أن هذه القصائد موجهة في الأصل إلى الأمة الإسرائيلية، وأن الحديث فيها عن شخص واحد ما هو إلا طريقة من طرق البلاغة في العبرية، بوصف الأمة بأكملها كأنها شخص واحد[٢].

٢. تجدر الإشارة كذلك إلى أن شريعة عبد الرب تتناقض بشكل تام مع الشريعة الأخلاقية عند حزقيال، الذي أكد على المسئولية الشخصية للإنسان. فلا أحد يعاقب على آثام الآخرين، ولا حتى آبائه. فما مبرر أن يعاني عبد الرب بسبب آثام الآخرين؟ يقول الحاخام داود قمحي إن هذه الشريعة ليست شريعة إشعياء الثاني نهائيًا؛ إنما هذا ما تقوله الأمم عن إسرائيل. على أية حال يجب التأكيد على أن هذه الرؤية استثنائية وغريبة عن الروح العامة للعهد القديم.

٣. لماذا ظهرت هذه الرؤية في السبي البابلي فقط، وليس قبل ذلك؟ لأنه حتى ذلك الوقت لم تختبر إسرائيل بآلام خراب السبي والاستعباد. وعلى الرغم من أن حبقوق قد أثار مشكلة "البار المصاب" في نهاية عصر الهيكل الأول من الناحية القومية، لكن حصلت هذه المشكلة على أهميتها الخاصة بعد الخراب فقط.

٤. يحتوي الإصحاح ٥٣ على قصة غامضة وغير مفهومة عن الأسير البريء الذي حكم عليه بالموت "على أنه لم يعمل ظلمًا و لم يكن في فمه غش"، ودفن مع الأشرار (٨-٩). وتنسب وقائع هذا الأسير البار هي أيضًا إلى عبد الرب. ولا

---

[١] ص ١٣٣

[٢] ص ٣٣١-٣٣٢

نعرف اليوم ما مصدر هذه القصة. ويفسرها المفسرون التقليديون على أنها مثل عن إسرائيل في السبي. فربما علم النبي بمثل هذا الحادث الواقعي (أو كان معروفًا في عصره قصة عن مثل هذا البار)، ومنح هو هذا الحدث الخاص معنى رمزيًا عامًا عن مصير عبد الرب.

عودة صهيون، مجدها وأهدافها الواعدة

١. الخلاص على يد كورش

إن هبوط بني إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها تم بواسطة الرب نفسه؛ لكن سبي بابل وخروج إسرائيل من بابل ليس عملًا مباشرًا للرب. وبما أن نبوخذ نصر كان رسولًا للرب من أجل تدمير أورشليم ولسبي يهوذا، فكذلك سيكون كورش رسولًا لضرب بابل وتحرير إسرائيل. لقد ناداه الرب من الشرق، ودفع أمامه الأمم والملوك (٤١: ٢)، وأرسله إلى بابل من أجل إسرائيل (٤٣: ١٤)، وهو "القائل عن كورش: راعيَّ، فكل مسرتي يتمم" (٤٤: ٢٨). ويطلق النبي على كورش اسم "المسيح" (٤٥: ١). وهو لا يقصد الملك المثالي النبوءي، إنما الملك الذي مسحه الله بيده. ولقب "المسيح" المطلق على ملك موجود في العهد القديم في مواضع عدة: صموئيل الأول ٢: ٣٥، ٢٤: ٧، ٢٦: ٩، صموئيل الثاني ١: ١٤، وغيرها. وكورش نفسه لا يعلم تمامًا أن الرب منحه قوته (مثلما لم يعرف ذلك نبوخذ نصر): "دعوتك باسمك، لقَّبتك، وأنت لم تعرفني" (٤٥: ٤).

وكان من بين المسبيين من اشتكى للنبي، عن سبب عدم تخليص الرب لإسرائيل بطريقة أخرى، وليس عبر إمبراطورية وثنية وملك أجنبي؛ فوبخهم النبي على ذلك وقال:

ويل لمن يخاصم جابله، خزف بين أخزاف الأرض!

هل يقول الطين لجابله: ماذا تصنع،

عملك ليس له يدان؟ ... (٤٥: ٩)

أنا قد أنهضته بالنصر، وكل طرقه أسهِّل،

هو يبني مدينتي ويطلق سبيي،

لا بثمن ولا بهدية، قال رب الجنود (١٣).

٢. عجائب عودة صهيون

يبشر النبي مسبيي بابل بالخلاص القريب (٤٠: ١، ٩، ٤١: ٢٧، ٤٣: ١٩، ٥٢: ٧)، ويتوجه إليهم مناديًا: "اخرجوا من بابل، اهربوا من أرض الكلدانيين بصوت الترنيم" (٤٨: ٢٠)؛ لكن الخروج من بابل لا يجب أن يتم على عجل وفي فزع مثل الخروج من مصر: "لأنكم لا تخرجون بالعجلة، ولا تذهبون هاربين، أن الرب سائر أمامكم، وإله إسرائيل يجمع ساقتكم" (٥٢: ١٢). بالفعل هناك اختلاف بين الخروج من مصر والخروج من بابل، لكن لأن الرب صنع المعجزات لإسرائيل وهم في طريقهم من مصر إلى أرض كنعان، هكذا يصنع الآن المعجزات والعجائب للمسبيين السائرين في الصحراء؛ فهو سيمهد الطريق أمامهم: "كل وطاء يرتفع، وكل جبال وأكمَّة ينخفض، ويصير المعوج مستقيمًا، والعراقيب سهلًا" (٤٠: ٤)؛ وسيمنحهم الماء في الصحراء: "أجعل القفر أجمَّة ماء، والأرض اليابسة مفاجر مياه" (٤١: ١٧-١٩، ٤٣: ٢٠، ٤٨: ٢١، ٤٩: ١٠)؛ وسينقذهم من كل مشكلة في الطريق: "إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك، إذا مشيت في النار فلا تُلدغ، واللهيب لا يحرقك" (٤٣: ٢).

إن عودة صهيون لا تكون من بابل فقط: "من المشرق آتي بنسلك، ومن المغرب أجمعك، أقول للشمال: أعْطِ، وللجنوب: لا تمنع! ايت ببني من بعيد، وببناتي من أقصى الأرض" (٤٣: ٥-٦، ٤٩: ١٢).

٣. بهجة الخلاص

يؤكد النبي بشكل خاص على البهجة الكبيرة التي ستصاحب الخلاص؛ بهجة الشعب، بهجة أورشليم، بهجة العالم كله، بل وسيشارك فيها الرب نفسه: "ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي، ابتهاج وفرح يدركانهم، يهرب الحزن والتنهد" (٥١: ١١)؛ "الفرح والابتهاج يوجدان فيها، الحمد وصوت الترنم" (٣)؛ "افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها، يا جميع محبيها" (٦٦: ١٠): "أشيدي ترنمي معها يا خرب أورشليم" (٥٢: ٩)؛ "فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبي، ولا يسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ" (٦٥: ١٩)؛ "ترنمي أيتها السماوات، وابتهجي أيتها الأرض، لتُشِد الجبال بالترنم لأن الرب قد عزَّى شعبه، وعلى بائسيه يترحم" (٤٩: ١٣)؛ "الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنمًا، وكل شجر الحقل تصفق بالأيادي" (٥٥: ١٢)، وغيرها.

٤. بناء الأرض وازدهارها وثراؤها

"ويبنون بيوتًا ويسكنون فيها، ويغرسون كرومًا ويأكلون أثمارها" (٦٥: ٢١)؛ "ويبنون الخرب القديمة، يقيمون الموحشات الأول" (٦١: ٤)؛ "فإن الرب قد عزَّى صهيون، عزَّى كل خربها، ويجعل بريتها كعدن، وباديتها كجنة عدن" ٥١: ٣)، وغيرها.

"هأنذا أبني بالأثمد حجراتك، وبالياقوت الأزرق أؤسسك، وأجل شرفك ياقوتًا، وأبوابك حجارة بهرمانية" (٥٤: ١١-١٢)، "عوضًا عن النحاس آتي

بالذهب، وعوضًا عن الحديد آتي بالفضة، وعوضًا عن الخشب بالنحاس، وعوضًا عن الحجارة بالحديد" (٦٠: ١٧)، وغيرها.

كما سيحل الأمن والسلام في الأرض: "وتنفتح أبوابك دائمًا، نهارًا وليلًا لا تغلق" (٦٠: ١١)؛ "وأجعل وكلاءك سلامًا، وولاتك برًا، لا يسمع بعد ظلمًا في أرضك، ولا خراب أو سحق في تخومك، بل تسمِّين أسوارك: خلاصًا وأبوابك: تسبيحًا" (١٧-١٨)، حتى أن السلام سيحيط الحيوانات (٦٥: ٢٥).

٥. نماء السكان، وطول الحياة

"ارفعي عينيك حواليك وانظري. كلهم قد اجتمعوا، أتوا إليك ... إنك تكونين الآن ضيقة على السكان، ويتباعد مبتلعوك. يقول أيضًا في أذنيك بنو ثكلك: ضيق علي المكان وسعى لي لأسكن" (٤٩: ١٨-٢١)؛ "لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار، ويرث نسلك أممًا، ويعمر مدنًا خربة" (٥٤: ٣)؛ "الصغير يصير ألفًا، والحقير أمة قوية" (٦٠: ٢٢)، وغيرها. "لأن الصبي يموت ابن مئة سنة، والخاطيء يلعن ابن مئة سنة" (٦٥: ٢٠).

٦. القوة والمجد، والفخر

"عوضًا عن كونك مهجورة ومبغضة بلا عابر بك، أجعلك فخرًا أبديًا، فرح دَوْر فدور" (٦٠: ١٥)؛ "استيقظي، استيقظي! البسي عزك يا صهيون! البسي ثياب جمالك يا أورشليم، المدينة المقدسة" (٥٢: ١)؛ "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك ... فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك" (٦٠: ١-٣)؛ "ويعرف بين الأمم نسلهم، وذريتهم في وسط الشعوب" (٦١: ٩)؛ "فترى الأمم برّك وكل الملوك مجدك" (٦٢: ٢)؛ وكل الذين أهانوك

يسجدون لذي باطن قدميك، ويدعونك مدينة الرب، صهيون قدوس إسرائيل" (٦٠: ١٤)، وغيرها.

٧. الأهداف الروحية

"لا تكون لك بعد الشمس نورًا في النهار، ولا القمر ينير لك مضيئًا، بل الرب يكون لك نورًا أبديًا وإلهك زينتك. لا تغيب بعد شمسك وقمرك لا ينقص، لأن الرب يكون لك نورًا أبديًا، وتكمل أيام نوحك. وشعبك كلهم أبرار. إلى الأبد يرثون الأرض، غصن غرسي عمل يدي لأتمجَّد (٦٠: ١٩-٢١)؛ "وكل بنيك تلاميذ الرب، وسلم بنيك كثيرًا. بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين، وعن الارتعاب فلا يدنو منك" (٥٤: ١٣-١٤)؛ "استمعوا لي استماعًا، وكلوا الطيب، ولتتلذذ بالدسم أنفسكم" (٥٥: ٢)؛ "أما إسرائيل فيخلص بالرب خلاصًا أبديًا، لا تخزون ولا تخجلون إلى دهور الأبد" (٤٥: ١٧)؛ "بالرب يتبرر ويفتخر كل نسل إسرائيل" (٤٥: ٢٥)؛ "أما أنتم فتدعون كهنة الرب، وتسمون خدَّام إلهنا" (٦١: ٦)، وغيرها.

٨. الأمم الأخرى وإسرائيل

ستسعد الأمم الأخرى بخدمة إسرائيل، وتمجيدها وإعطائها من ثرواتها، تعويضًا عن الظلم الذي اقترفته في حقها في الماضي، ومن منطلق احترام إله إسرائيل: "تعب مصر وتجارة كوش والسبئيون ذوو القامة إليك يعبرون ولك يكونون. خلفك يمشون، بالقيود يمرون ولك يسجدون، إليك يتضرعون قائلين: فيك وحد الله وليس آخر، ليس إله. حقًا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلِّص" (٤٥: ١٤-١٥)؛ "ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي، فيأتون بأولادك في الأحضان، وبناتك على الأكتاف يحملن. ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم

مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك" (٤٩: ٢٢-٢٣)؛ "تغطيك كثرة الجمال، بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهبًا ولبانًا، وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قيدار تجتمع إليك كباش نبايوت تخدمك، تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي ... إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشيش في الأول، لتأتي ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم، لاسم الرب إلهك وقدوس إسرائيل لأنه قد مجَّدك. وبنو الغريب يبنون أسوارك، وملوكهم يخدمونك ... إن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد، وخرابًا تخرب الأمم" (٦٠: ٥-١٢)؛ "ويقف الأجانب ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حرَّاثيكم وكرَّاميكم (٦١: ٥) "على الأيدي تحملون، وعلى الركبتين تدلَّلون" (٦٦: ١٢)، وغيرها.

٩. خلاص إسرائيل وخلاص البشرية

إن الأهداف القومية تتماشى مع الأهداف الإنسانية العامة؛ فمن خلال خلاص إسرائيل سيأتي الخلاص للعالم كله. فكل الشعوب ستعترف بعظمة الرب إله إسرائيل وسيؤمنون به: "فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعًا، لأن فم الرب تكلم" (٤٠: ٥): "إنه لي تجثو كل ركبة، يحلف كل لسان" (٤٥: ٢٣)؛ "ويكون من هلال إلى هلال ومن سبت إلى سبت، أن كل ذي جسد يأتي ليسجد أمامي، قال الرب" (٦٦: ٢٣).

كما يشجع النبي أبناء الغريب الذين يتبعون الرب ويحفظون عهده ويريدون عبادته وخدمته. ولن يختلف المتهودون عن بني إسرائيل "إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصبًا واسمًا أفضل ... آتي بهم إلى جبل قدسي، وأفرحهم في بيت صلاتي، وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي، لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب" (٥٦: ١-٧).

١٠. ملاحظات

أ. يذكر قويفمان أن الوصف المبالغ الذي يصف فيه إشعياء الثاني مجد أورشليم وبهاءها تنقصه فكرة واحدة: الملكية. فهو لا يتحدث عن ملك أورشليم الذي من المنتظر أن يأتي، فهو يرفض الإمبراطورية، وحكم الشعب للشعب؛ فعالم المستقبل سيكون عالم الشعوب الحرة؛ فلن تكون هناك مملكة واحدة عالمية، ولا حتى لإسرائيل. فإسرائيل لن تستعبد الشعوب ولن تسخرهم. إن أورشليم مدينة عالمية، لكنها ليست عاصمة الإمبراطورية العالمية؛ فليس فيها ملك بطل، وجيش عظيم. ففي عالم المستقبل عنده لن توجد حروب، على الرغم من أن إشعياء الثاني لم يتنبأ عن السيوف والحراب[1].

ب. فيما يخص الأهداف الكونية التي تم الحديث عنها هنا يجب أن نضيف الهدف الكوني لعبد الرب (انظر الموضوع السابق).

ت. من الصعب أحيانًا التمييز عند إشعياء الثاني بين الأهداف، التي من المنتظر أن تتحقق في المستقبل القريب، وبين الأهداف الأخرى في نهاية الأيام؛ لكن النبي يقصد الخلاص القريب بشكل عام.

نبوءات التوبيخ والعلاقة بالعبادات

إن أساس نبوءات إشعياء الثاني هو المواساة والخلاص، لكنه قال أيضًا أقوال توبيخ. لا يوجد في القسم الأول من سفره (الإصحاحات ٤٠-٤٨) أي توبيخ، وبداية من الإصحاح ٤٩ وما بعده تكثر أقوال التوبيخ؛ لكن في هذه الإصحاحات يأتي بعد كل توبيخ نبوءة مواساة وعفو: ٥٦: ١٠-٥٧: ١٣، ٥٧: ١٤-١٩؛

---

[1] ص ١٥٣-١٥٥

٥٨: ١-٧، ٥٨: ٨-١٢؛ ٥٩: ١-١٥، ٥٩: ١٦-٢١؛ ٦٥: ١-٧، ٦٥: ٨-٢٥؛ ٦٦: ٣-٦، ٦٦: ٧-١٤؛ ٦٦: ١٥-١٧، ٦٦: ١٨-٢٣.

ولقد شاهدنا أن ثلاثة أقسام السفر تختتم بنبوءات كوارث على الأشرار: ٤٨:٢٢، ٥٧: ٢١، ٦٦: ٢٤. ومن أجل عدم اختتام السفر بأشياء سيئة تم تكرار الفقرة ٢٣ في الإصحاح ٦٦ مرة ثانية، بعد الفقرة الأخيرة، وكذلك أيضًا في نهاية سفر "ملاخي"، و"مراثي إرميا"، و"الجامعة".

لا يوجد في سفر إشعياء الثاني أي اعتراض على القرابين، وهو يشبه في ذلك حزقيال وبقية أنبياء الهيكل الثاني. وفي الإصحاح ٤٣ كما لو أن هناك شكوى ما من أن الشعب لم يحضر له التقدمات والذبائح (٢٣-٢٤): "لم تحضر لي شاة محرقتك، وبذبائحك لم تكرمني ... لم تشتر لي بفضة قصبًا، وبشحم ذبائحك لم تروني، لكن استخدمتني بخطاياك وأتعبتني بآثامك". وفي كلامه عن أبناء الغريب، الذين يصاحبون الرب، يعدهم، بأن "وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي" (٥٦: ٧)؛ وفي الإصحاح ٦٠ الحماسي ذُكر صراحة أن غنم قيدار وكباش نبايوت "تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي" (٧).

مع ذلك فإشعياء لا يهتم نهائيًا بالعبادات الخارجية. فضلًا عن قوله، مثل إرميا، إن الرب ليس في حاجة حتى إلى الهيكل:

السماوات كرسيّ والأرض موطيء قدمي.

أين البيت الذي تبنون لي؟ وأين مكان راحتي؟ (٦٦: ١).

يعطي الرب أهمية للإنسان "المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي" (٢) أكثر من البيت ومن الذبائح المقدمة له؛ فالروح المنسحقة، الفقيرة المتواضعة،

والطائعة هي بحسب كلام الرب أهم بكثير من العبادات الخارجية من قرابين وصلوات. فالذي يذبح الثور ليقدمه قربانًا، ومع ذلك "يضرب رجلًا" لا يمكن أن يرضي الرب.

يحترم إشعياء الثاني كثيرًا – مثل إرمياء وحزقيال – وصايا يوم السبت (٥٨: ١٣-١٤).

إن رددت عن السبت رجلك عن عمل مسرتك يوم قدسي،
ودعوت السبت لذة، ومُقدَّس الرب مكرمًا،
وأكرمته عن عمل طرقك وعن إيجاد مسرتك والتكلم بكلامك،
فإنك حينئذ تتلذذ بالرب، وأركِّبك على مرتفعات الأرض.

لكنه يبرز في وصايا السبت القيم الروحية الداخلية وليس الفرض الخارجي؛ فالسبت يجب أن يكون يومًا مقدَّسًا، يبتعد فيه الإنسان عن الأعمال المادية والدنيوية، يوم "بهجة" روحية، وبفضل الحفاظ على يوم سبت كهذا سيحقق الإنسان النجاح الروحي والأرضي.

من المثير أن نجد في أقوال إشعياء الثاني الذي ألزم بتقديم القرابين قمة التوبيخ الأخلاقي النبوي ضد العبادة الخارجية. وتوبيخه في هذا الشأن أمر مهم للغاية يستحق مناقشته بشكل خاص.

أقوال إشعياء الثاني عن الصوم

يحتوي الإصحاح ٥٨ على جدال بين النبي والشعب يذكِّر بجدال ميخا (الإصحاح السادس). فهنا وهناك أيضًا، لا يفهم الشعب لماذا لا يرغبه الرب. يزعم المستمعون إلى ميخا أنهم مستعدون لتقديم قرابين كثيرة للرب. وهنا يزعم

الشعب أيضًا: "لماذا صمنا و لم تنظر. ذلّلنا أنفسنا و لم تلاحظ؟" (٣). والجدال هنا أكثر حدة، فالحديث هنا لم يعد عن عبادة خارجية من تقديم قرابين، إنما عن عبادة داخلية روحية؛ عن الصيوم وإذلال النفس.

يظن الشعب أنه إذا أذلَّ نفسه، يجب على الرب أن يغفر له خطاياه، لكن النبي يجيب: "في يوم صومكم توجدون مسرَّة (تشتغلون بالتجارة)، وبكل أشغالكم تسخِّرون. ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون (إنكم تختلفون وتتنازعون فيما بينكم في نهار الصوم)، ولتضربوا بلكمة الشر". لكن الرب لا يرغب في مثل هذا الصوم، لأنه من ناحية العبادة الخارجية لا يقل عن القرابين. أما إذلال النفس، والخضوع، والجلوس على المسح والرماد، ليس لكل ذلك أهمية، إن كان الانسان مستمر في عمل الشر. ويشرح لهم النبي ما هو الصوم المحبب عند الرب: "أليس هذا صومًا أختاره: (كما قال ميخا: قد أخبرك أيها الإنسان: ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب): حل قيود الشر، فك عقد النير (أغلال الظلم)، وإطلاق المسحوقين أحرارًا، وقطع كل نير. أليس أن تكسر للجائع خبزك، وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عريانًا أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك (عن قريبك)".

يقول قويفمان إن التوبيخ في الإصحاح ٥٨ إنما يضع صيغة جديدة للشريعة النبوية لسمو الأخلاق؛ لكنه لا يشير إلى عبادة القرابين. هو يحاكم العبادة الجديدة في الكنيس الذي ظهر في السبي. فالشعب قد اجتمع لسماع الشريعة، والصوم والصلاة، لكن هذا أيضًا عبادة خارجية فقط، ولا قيمة لها. فالرحمة طلبت وليس

الصوم. وهذا قمة التجديد في الشريعة النبوية حول سمو الأخلاق. وكانت هذه الشريعة قاسية على المسامع أكثر من شريعة الأنبياء الأوائل[١].

كما يستنكر النبي في كلامه رياء الإنسان الذي يصنع الظلم ويتظاهر بالبر كما يريد التقرب من الرب: "وإياي يطلبون يومًا فيومًا، ويسرون بمعرفة طرقي كأمة عملت برًا، ولم تترك قضاء إلهها. يسألوني عن أحكام البر. يسرون بالتقرب إلى الله" (٢). وحتى الصلوات والصوم والكلمات الطيبة لا تقرب الإنسان من ربه أكثر من عبادة القرابين، فالإنسان لا يصنع الأعمال الأخلاقية الاجتماعية، أعمال الرحمة للفقراء، والجائعين والعراة. بل على الإنسان أن يحاكي أفعال الرب، وأن ينظر مثله إلى "الفقير، والمسحوق" (٦٦: ٢)، وأن يحيي مثله روح المتواضعين، وقلب المنسحقين (٥٧: ١٥-١٦).

ذكريات الماضي في نبوءات إشعياء الثاني

من الطبيعي أن يذكر النبي ذو الوعي التاريخي في نبوءاته شخصيات وأحداثًا مهمة في تاريخ الشعب. فنجد في إصحاحات إشعياء الثاني ذكريات كثيرة من الماضي:

١. نوح والطوفان: "لأنه كمياه نوح هذه، لي كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض" (٥٤: ٩). إن كلمة "מי – مياه" مستخدمة هنا بمعنيين: أيام، ومياه. لأن الرب أقسم أن يغرق الأرض بالطوفان مرة أخرى، مثلما أقسم الآن لإسرائيل بألا ينقض عهده ولا رحمته.

---

[١] ١٤١-١٤٢

٢. إبراهيم وساره (٤١: ٨، ٥١: ٢). توجد بين الرب وإبراهيم علاقة محبة متبادلة؛ فإبراهيم هو محبة الرب؛ لذلك اختاره الرب وباركه.

٣. اختيار يعقوب (٤١: ٨، ٤٤: ١-٢).

٤. الهبوط إلى مصر (٥٢: ٤).

٥. استعباد آشور (٥٢: ٤).

٦. موسى؛ الخروج من مصر؛ شق البحر والسير في البرية (٤٣: ١٦-١٧، ٥١: ١٠، ٦٣: ١١-١٤).

٧. الوعود لداود: "وأقطع لكم عهدًا أبديًا، مراحم داود الصادقة. هوذا قد جعلته شارعًا للشعوب، رئيسًا وموصيًا للشعوب" (٥٥: ٣-٤). ذكرنا فيما مضى أن إشعياء الثاني لا يتحدث عن ملك إسرائيل. ويقول بعض المفسرين أنه أشار في هذه الفقرات إلى عودة المملكة والملك المسيح من بيت داود.

٨. خراب أورشليم (٤٤: ٢٨، ٤٥: ١٣، ٤٩: ١٩، ٥١: ١٧-٢٠).

٩. غزوات كورش (٤١: ٢-٣، ٢٥).

١٠. سقوط بابل (٤٦-٤٧).

إن ذكريات الماضي تم عرضها لأسباب ثلاثة: أ. كمثال على الحاضر، أو المستقبل؛ ب. دليل على مراقبة الرب لإسرائيل؛ ج. لإثبات أن كل الأحداث التاريخية تحدث وفقًا لإرادة الرب وتخطيطه، وأن الرب يعرف الأحداث وأخبر بها سلفًا قبل وقوعها.

حزقيال وإشعياء الثاني

١. عاش الاثنان وتنبئا في فترة السبي البابلي، حزقيال في بدايتها، وإشعياء الثاني في نهايتها. وشجع الاثنان مسبيي بابل برؤيا الإحياء والخلاص.

٢. لا نعرف شيئًا عن شخصية إشعياء الثاني، في حين أننا نعرف غير قليل عن شخصية حزقيال.

٣. لا يوجد لدى إشعياء الثاني وصف لظهور الرب ورؤيا التكليف.

٤. رب حزقيال هو بشكل خاص رب الغضب والحكم، ورب إشعياء الثاني، رب الرحمة والرحمات.

٥. جاء اختيار إسرائيل بالمصادفة بحسب حزقيال، أما بحسب إشعياء الثاني فإن الرب اختار شعبه بحبه إياه. وحب الرب لإسرائيل أبدي.

٦. خلاص إسرائيل: عند حزقيال من أجل الرب؛ أما عند إشعياء الثاني فمن أجل إسرائيل.

٧. لا يوجد نبي غضب على أورشليم مثل حزقيال. ولا يوجد نبي محب لأورشليم مثل إشعياء الثاني.

٨. الخلاص ليس رؤيا آخر الأيام عند حزقيال؛ وهو سيأتي على الفور.

٩. الأعمال الرمزية عند حزقيال كثيرة؛ أما إشعياء الثاني فلم يصنع أعمالًا رمزية.

١٠. تتعارض شريعة عبد الرب عند إشعياء الثاني مع شريعة الأخلاق عند حزقيال.

١١. لا توجد ادعاءات ضد أنبياء الكذب عند إشعياء الثاني، كما إن فكرة التوبة لا تحتل عنده مكانة رئيسية.

١٢. تغيب عند حزقيال فكرة السمو الأخلاقي للعبادة، في حين أنها وصلت إلى ذروتها عند إشعياء الثاني. لكن الاثنين لهما موقفًا إيجابيًا من القرابين.

١٣. أساس أقوال حزقيال النكبات؛ وأساس أقوال إشعياء الثاني المواساة.

١٤. أسلوب حزقيال نثري في معظمه؛ أما أسلوب إشعياء الثاني فشعر حماسي.

تفرُّد إشعياء الثاني

١. أساس نبوته المواساة وليس التوبيخ.

٢. شريعة عبد الرب.

٣. سمو الأخلاق الاجتماعية على الصوم والزهد.

٤. المحاربة الشديدة للوثنية وصنع التماثيل، والدعوة إلى التوحيد الخالص. التأكيد على مفهوم إله التاريخ وإله العالم والقدرة الأبدية للكلام الإلهي.

٥. الأفكار البرَّاقة، القومية والعالمية في رؤيا الخلاص، والإيمان بأن الخلاص سيأتي في الحال، وليس في آخر الأيام.

على الرغم من أن أفكار إشعياء الثاني ليست أصيلة تمامًا (باستثناء شريعة عبد الرب)، إلا أنه منحها تعبيرًا جديدًا مع لمسته الخاصة. ويمكن القول أن كلامه يوجز أسس النبوة، ووصلت في بعضها إلى ذروة النبوة:

١. في مجال الدين والعقيدة: لا يوجد عند أي نبي حرب أشد من تلك التي هي ضد كل انحراف عن التوحيد الخالص. ولا يوجد عند أي نبي إبراز وتأكيد على قوة الكلام الإلهي، والكلمة الإلهية.
٢. في مجال الأخلاق: حصلت فكرة سمو الأخلاق على العبادة عند إشعياء الثاني على تعبير هو الأعمق.
٣. في المجال القومي: لا يوجد نبي تحتل أهداف الخلاص عنده مكانة أكبر. فنبوءاته هي قمة الرؤيا القومية في العهد القديم.
٤. في المجال العالمي: لا يوجد نبي عالمي مثل إشعياء الثاني، خاصة في شريعة عبد الرب.

أسلوب إشعياء الثاني

أسلوب إشعياء الثاني بلاغي سلس، مذكور بتأثر وحماس كبيرين. وهناك دلائل كثيرة على انفعاله وحماسه منها التكرار الكثير، النداءات بصوت مرتفع، الأسلوب الجدلي، المبالغة، التشبيهات الوفيرة، والكلمات المكررة وغيرها. ونجد هنا الشبه بأسلوب هوشع وإرميا أكثر بكثير منه بأسلوب إشعياء بن آموص. وعلى عكس حزقيال تمامًا الذي تكون أقواله مرتبه، ويكاد يكون كل إصحاح مخصص لموضوع واحد، مفصَّل من كل جوانبه؛ فإن إشعياء الثاني يقفز من موضوع إلى آخر. ولا يبدأ ولا ينهي موضوعًا واحدًا كاملًا. ويكرر نفس الموضوع في مواضع كثيرة، كما أن مفرداته اللغوية ليست كبيرة.

تذكر النبوءات والأشعار عند إشعياء الثاني بنبرة مرتفعة. فهذا ليس شعرًا هادئًا. فالنبي يبشر وينادي بصوت مرتفع: "طيبوا قلب أورشليم، ونادوها" (٤٠:

٢)؛ "صوت صارخ في البرية" (٣)؛ "صوت قائل: ناد" (٦)؛ "يا مبشرة صهيون، ارفعي صوتك بقوة" (٩)؛ "ناد بصوت عال، لا تمسك، ارفع صوتك كبوق" (٥٨: ١). إن رفع الصوت هو رمز للتحرير والخلاص. وعبد الرب فقط المهان في الحاضر لا يصرخ ولا يسمع في الخارج صوته، لكن النبي، المبشر، والرب نفسه، يرفعان صوتهما: "ما أجمل على الجبال قدمي المبشر، المخبر بالسلام، المبشر بالخير، المخبر بالخلاص ... صوت مراقبيك، يرفعون صوتهم يترنمون معًا" (٥٢: ٧-٨). ويقول البروفسور آدار إنه "بطول السفر كله ينادي الصوت، صوت الرب، الشعب في نفس مستمر وبدون توقف"[١].

معظم نداءات إشعياء الثاني يصاحبها توجه (إلى إسرائيل، إلى أورشليم، وغيرها): "على جبل عالٍ اصعدي، يا مبشرة صهيون" (٤٠: ٩)؛ "لماذا تقول يا يعقوب، وتتكلم يا إسرائيل" (٤٠: ٢٧)؛ "والان اسمع يا يعقوب عبدي!" (٤٤: ١، ٤٨: ١٢)؛ "لاتخف يا يعقوب عبدي" (٤٤: ٢)؛ "انهضي، انهضي! قومي يا أورشليم!" (٥١: ١٧)؛ "انزلي واجلسي على التراب، أيتها العذراء ابنة بابل؛ اجلسي صامتة وادخلي في الظلام، يا ابنة الكلدانيين" (٤٧: ١، ٥)، وغيرها.

كما يستخدم النبي لغة الأمر كثيرًا، خاصة في الافتتاحيات (انظر الأمثلة السابقة)، وفي بعض الأحيان لغة الأمر المزدوجة: "عزُّوا، عزُّوا" (٤٠: ١)، "استيقظي، استيقظي!" (٥١: ٩، ٥٢: ١)، "انهضي، انهضي!" (٥١: ١٧)، "أعِدُّوا، أعِدُّوا" (٥٧: ١٤، ٦٢: ١٠)، "اعتزلوا، اعتزلوا" (٥٢: ١١).

---

[١] ص. ١٥٠

تكرار الكلمات هو أحد سمات الأسلوب المميز لإشعياء الثاني، وهو غير موجود عند إشعياء الأول. ويظهر أيضًا في عبارات غير الأمر مثل: "أنا أنا" (٤٣: ٢٥، ٥١: ١٢)، "أنا أنا تكلمت" (٤٨: ١٥)، "هأنذا، هأنذا" (٦٥: ١)، "في الصباح في الصباح" (٥٠: ٤)، "هي هي" (٥٧: ٦)، "سلام، سلام" (٥٧: ١٩).

وليس في ازدواج الكلمات نفس المعنى في كل الفقرات. فهو يعرب عن انفعاله، وقلة الصبر، والاستعجال للعمل. وفي بعض المواضع يعرب عن التأكيد أو التقليل: أنا فقط تحدثت (٤٨: ١٥).

ظاهرة أخرى تميز أسلوب إشعياء الثاني وهي استخدام كلمة واحدة من أجل دفع بعض العبارات الملاصقة:

- "ارفعي صوتك بقوة ... ارفعي لا تخافي (٤٠: ٩).
- "ألا تعلمون، ألا تسمعون، ألم تُخبروا من البداية، ألم تفهموا من أساسات الأرض (٤٠: ٢١، وكذلك: ٥١: ٩-١٩، ٥٨: ٦-٧).
- "أجعل القفر أجمة ماء، والأرض اليابسة مفاجر مياه" (٤١: ١٨-١٩).
- "من كال بكفه المياه .. من قاس روح الرب" (٤٠: ١٢-١٣).

وكذلك كلمات: القائل (٤٤: ٢٧-٢٨)، من أجل (٤٥: ٣، ٤، ٦)، ويل (٤٥: ٩-١٠)، اذكروا (٤٦: ٨-٩)، اكشفي (٤٧: ٢)، أنا (٤٣: ١١-١٢، ٤٥: ١٢-١٣)، انظروا (٥١: ١، ٢)، فرأى (٥٩: ١٥-١٦)، عوضًا (٦٠: ١٧، أربع مرات)، لأنادي (٦١: ٢)، أين (٦٣: ١١، ١٥)، صوت (٦٦ ثلاث مرات)، لم (٦٣: ١٩)، هذا (٤٤: ٥). كما تتكرر بشكل خاص أدوات الربط مثل: כי, הן, הנה - لأن، سواء، ها هو:

- "ها هم هؤلاء من بعيد يأتون، وها هم من الشمال" (٤٩: ١٢).
- "هوذا عبيدي يأكلون .. هوذا عبيدي يشربون .. هوذا عبيدي يفرحون (٦٥: ١٣-١٤).
- "ها إنكم في يوم صومكم توجدون مسرَّة .. ها إنكم للخصومة والنزاع تصومون" (٥٨: ٣-٤). وكذلك: ٥٠: ١، ٢، ٩، ١١، ٥٤: ١٥-١٦، ٥٥: ٤-٥.

وتحديدًا كلمة لأن: ٤٣: ٢-٣، ٥٢: ١٢، ٥٩: ١٢، ٦٢: ٤-٥، ٦٥: ١٦-١٨ (خمس مرات)، ٥٤: ٨-١٢ (ست مرات).

يقول قويفمان إن هذا الوفر من الكلمات المكررة الممتدة بين الفقرات هو بتأثر من أسلوب هوشع. ويسميها بالتسلسل، ويقدم نماذج كثيرة من الإصحاحات ٤٠-٤١.[1]

لكن ليس الكلمات فقط إنما عبارات كاملة تتكرر مرتين وثلاث مرات وربما أكثر:

- أنا الأول وأنا الأخير (٤١: ٤، ٤٤: ٦، ٤٨: ١٢).
- أنا الرب وليس آخر (٤٥: ٥، ٦، ١٨، ٢٢، ٤٦: ٩، وغيرها).
- هوذا أجرته معه وعملته قدَّامه (٤٠: ١٠، ٦٢: ١١).
- ارفعي عينيك حواليك وانظري، كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك (٤٩: ١٨، ٦٠: ٤).

---

[1] ص ٧٠

- أنتم شهودي، يقول الرب (٤٣: ١٠، ١٢).
- أنا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب (٤٩: ٢٦، ٦٠: ١٦).
- من أجل الرب إلهك وقدوس إسرائيل، لأنه قد مجَّدك (٥٥: ٥، ٦٠: ٩)

إن كلمات إشعياء الثاني تضرب آذاننا مثل الأمواج المتلاطمة، وكأصوات الأجراس.

افتتاحيات النبوءات

١. صيغة "هكذا يقول الرب" موجودة في ٤٣: ١، ١٤، ١٦، ٤٤: ٢، ٦، ٢٤ وغيرها. وربما تكون مميزة أكثر للقسم الأول من السفر (٤٠–٤٨)؛ لكنها تظهر أيضًا في بقية الأقسام.

٢. "هكذا قال السيد الرب" — ٤٩: ٢٢، ٥٢: ٤، ٦٥: ١٣.

٣. "هكذا يقول الله الرب" — ٤٢: ٥.

٤. الكلام المباشر للرب بضمير المتكلم: "أنصتي إليَّ أيتها الجزائر، ولتجدد القبائل قوة ... أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو"، كل الإصحاح ٤١، وكذلك ٤٢: ١–٩، ١٤–١٧، كل الإصحاح ٤٣، الإصحاح ٤٦، ٤٩، وغيرهم.

٥. النبي يتحدث عن الرب وعن عظمته: الإصحاح ٤٠ كله، ٤٢: ١٠–١٣، الإصحاح ٥٩، ٦٣: ٧–١٩، وغيرهم.

من المثير للاهتمام إننا لا نجد مثل هذه الصيغ في افتتاحيات نبوءاته؛ حيث نجد: "اسمعوا كلام الرب" (١: ١٠)؛ "هكذا قال لي الرب" (٨: ١١، ١٨: ٤، ٢١: ١٦، ٣١: ٤)؛ "هكذا يقول السيد رب الجنود" (١٠: ٢٤، ٢٢: ١٥)؛ "الأمور

التي رآها" (٢: ١)، "لذلك يقول السيد رب الجنود" (١: ٢٤، ٣: ١، ١٠: ٣٣).

كما تثبت الصيغ الافتتاحية أيضًا الاختلافات في الأسلوب بين قسمي السفر. فمسمى "رب الجنود" يظهر في القسم الأول من سفر إشعياء أكثر من ٥٠ مرة؛ أما في القسم الثاني فست مرات فقط. كما تظهر صيغة "هكذا قال الرب" الأساسية في إشعياء الثاني، في إشعياء الأول بصورة مختلفة "هكذا يقول السيد الرب"، وبهذه الصورة أيضًا ثلاث مرات فقط (٧: ٧، ١٠: ٢٤، ٢٨: ١٦). ولقد رأينا في الفصل الذي تناولنا فيه حزقيال أن كل نبي لديه صيغ ثابتة في افتتاحيات النبوءات، ومن هذه الناحية أيضًا يضم سفر إشعياء نبيين.

المحسِّنات اللفظية

الجناس: לתת להם פאר תחת אפר – لأعطيهم جمالًا عوضًا عن الرماد (٦١: ٣)؛ לא קנית לי בכסף קנה - لم تشتر لي بفضة قصبًا (٤٣: ٢٤)؛ פשת כהה לא יכבנה .. לא יכהה ולא ירוץ – فتيلة خامدة لا يطفيء ... لا يكل ولا ينكسر (٤٢: ٣–٤). في الأمثلة السابقة هناك كلمات مكررة تحمل معانٍ مضادة أو مختلفة. ومن الأمثلة الأخرى: כרע בל, קרס נבו .. קרסו כרעו יחדו – لقد جثنا بيل، انحنى نبو .. قد انحنت جثت معًا (٤٦: ١–٢). בשצף קצף הסתרתי פני – بفيضان الغضب حجبت وجهي (٥٤: ٨)؛ מי זה בא מאדום? – מדוע אדום ללבושך? – من ذا الآتي من أدوم؟ – ما بال لباسك محمَّر(٦٣: ١–٢).

كلمات لها معان مزدوجة: צדקה – أعمال الرحمة، الخلاص: "اسمعوا لي يا أشداء القلوب البعيدين عن البر. قد قربت برِّي، لا يبعد، وخلاصي لا يتأخر"

(٤٦: ١٢-١٣)؛ **לימודים** — تلاميذ، حكمة (٥٠: ٤)؛ **נצח** — دم "فتناثر دمهم على ردائي" (٦٣: ٣)، القوة والعظمة "وسكبت دمائهم فوق الأرض"[١] (٦). **מי־נוח** — مياه، أيام (٥٤: ٩)؛ **עבד ה'** (عبد الرب): شعب إسرائيل، النبي؛ **עניה סוערה** — الذلية المضطربة (٥٤: ١١) رمز واضح للسفينة المضطربة.

المحاكاة الصوتية[٢]: "الرب كجبار يخرج .. يهتف ويصرخ، ويقوى على أعدائه. قد صمتُّ منذ الدهر. سكتُّ. تجلدتُّ كالوالدة أصيح، أنفخ وأنخر معًا" (٤٢: ١٣-١٤)؛ "بفيضان الغضب" (٥٤: ٨)؛ "ييس العشب، ذبل الزهر" (٤٠: ٧).

يحب إشعياء الثاني بشكل خاص استخدام صوت واحد يتكرر؛ ففي كلامه عن الصوم في الإصحاح ٥٨، يتكرر صوت حرف الصاد حوالي ثلاثين مرة، والنبي يختار كلمات خاصة تحتوي على هذا الصوت: **ביום צומכם תמצאו וכל עצביכם תנגשו. הן לריב ומצה תצומו .. חרצובות, רצוצים, צחצחות**, وغيرها.

وكذلك: **כל הבשר חציר וכל חסדו כציץ השדה. יבש חציר נבל ציץ .. אכן חציר העם. יבש חציר נבל ציץ**.(٤٠: ٦-٧) لدينا

---

[١] الكلمة في الترجمات العربية للسفر، بمعنى دم. لكن ما يقصده المؤلف في النص العبري هو العظمة والقوة.

[٢] هي مشابهة بين الصوت الناتج عن لفظ بعض الكلمات والأصوات المسموعة في الطبيعة، مثل الضوضاء أو أصوات الحيوانات، أي إن صوت كلمة ما مأخوذ من صوت حقيقي لحدث طبيعي.

هنا محاكاة صوتية لصوت العشب الجاف. (وهناك تشابه كبير بين الأصوات ص، س، ش).

בחירי רצתה נפ**ש**י ... מ**ש**פט לגויים יוציא, לא יצעק ... ולא י**ש**מיע בחוץ קולו. קנה רצוץ לא י**ש**בור ... לאמת יוציא י**ש**פט. לא יכהה ולא ירוץ. (٤٢: ١-٤). وهنا تكرار لصوت الشين.

מה נאוו על ההרים רגלי מבשר מ**ש**מיע **ש**לום מבשר טוב, מ**ש**מיע י**ש**ועה. אומר לציון מלך אלהיך (٥٢: ٧) وفي هذه الفقرة أيضًا تكرار لحرف الشين مرات كثيرة. لكن هناك أمثلة لحروف أخرى:

יב**חר** **חר**ש חכם (٤٠: ٢٠)، تكرار الحرفين الأخيرين في كلمة "יבחר" في بداية كلمة "חרש".

כ**רועה** **עדרו** ירעה. حرفا **ר' ע'** يتكرران بشكل عكسي في كلمة עדרו.

التقابل والوزن

يغيب النثر عن سفر إشعياء الثاني، فكل أقواله شعرًا، ومكتوبة بحسب قواعد شعر العهد القديم. وعرضنا في الموضوعات السابقة نماذجًا كثيرة لفقرات مشكولة، مكتوبة في تقابل، لذلك سنكتفي ببعض النماذج القليلة:

١. التقابل الترادفي:

المحملين علي من البطن،	المحمولين من الرحم. (٤٦: ٣)
لماذا صمنا و لم تنظر،	ذلَّلنا أنفسنا و لم تلاحظ؟ (٥٨: ٣)

٢. التقابل التكاملي:

كراعٍ يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحملان. (٤٠:١١)

ارفعي عينيك حواليك وانظري، قد اجتمعوا كلهم، جاءوا إليك (٦٠: ٤)

من يذبح ثورًا فهو قاتل إنسان، من يذبح شاة فهو ناحر كلب (٦٦: ٣)

في الفقرتين الأخيرتين الوزن رباعي. وفي النماذج السابقة الوزن ثلاثي.

٣. التقابل بالتضاد

– الوزن الرباعي:

يبس العشب، ذبل الزهر، وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد. (٤٠: ٨)

– وزن الرثاء:

هوذا عبيدي يأكلون وأنتم تجوعون،

هوذا عبيدي يشربون وأنتم تعطشون. (٦٥: ١٣)

٤. التقابل التقاطعي:

الغلمان يعيون ويتعبون ...

يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون. (٤٠: ٣٠-٣١)

وزن الرثاء: موجود في أقوال إشعياء الثاني، لكنه ليس في الرثاء إنما في نبوءات المواساة:

عزُّوا، عزُّوا شعبي، يقول إلهكم. (٤٠: ١)

لا تخف يا دودة يعقوب، يا شرذمة إسرائيل. (٤١: ١٤)

وفي الرثاء الحقيقي:

اجلسي على الأرض بلا كرسي، يا ابنة الكلدانيين،

لأنك لا تعودين تدعين ناعمة، ومترفهة. (٤٧: ١)

٥. التقابل المكون من ثلاثة أضلاع:

فيعلن مجد الرب، ويراه كل بشر جميعًا، لأن فم الرب تكلم (٤٠: ٥).

قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفيء، إلى الأمان يخرج الحق (٤٢: ٣).

تغطيك كثرة الجمال، بكران مديان وعيفى، كلها تأتي من شبا (٦٠: ٦).

التأنيس والتجسيد

كعادة جميع الشعراء، يكثر إشعياء الثاني أيضًا من تجسيد أفكاره بكثير من التشبيهات والصور، وصبغ الجماد وكذلك شعب إسرائيل، وأرض إسرائيل، وأورشليم، بل والرب نفسه، بصفات بشرية. وفكرة أن العالم كله يخدم الرب الذي يملأ مجده العالم كله، يجسدها النبي بالفقرة التي تقول: "السماوات كرسي والأرض موطيء قدمي" (٦٦: ١). كما أن قوة الرب يجسدها في تصويره لذراع الرب: "قد شمَّر الرب عن ذراع قدسه" (٥٢: ١٠)؛ "وذراعه تحكم له" (٤٠: ١٠) وغيرها. ومن المثير للاهتمام أن تعبير "ذراع الرب" تكرر في إشعياء الثاني عشر مرات، في حين أنه ورد في إشعياء الأول مرتين فقط (٣٠: ٣٠، ٣٣: ٢).

كما يجسد جمع المسبيين من جهات الأرض الأربعة في نداءه لرياح السماء: "أقول للشمال: أعطِ، وللجنوب: لا تمنع" (٤٣: ٦).

كنا قد رأينا، من قبل في كلامنا عن "عبد الرب" أن شعب إسرائيل يعتبر شخصية واحدة، تحمل صفات بشرية، جسدية ونفسية، كذلك يشبه النبي أورشليم بشخصية بشرية: "طيبوا قلب أورشليم" (٤٠: ٢)؛ "ارفعي عينيك حواليك وانظري" (٤٩: ١٨) وغيرها. كما يتحدث النبي كذلك عن "العذراء ابنة بابل" (٤٧: ١).

إن تجسيد الرب هو من سمات أشعار العهد القديم. "فالرب يحجب وجهه" (٥٤: ٨، ٥٩: ٢)، "فم الرب تكلم" (٤٠: ٥)، "في ظل يده خبأني" (٤٩: ٢)؛ "إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلِّص، و لم تثقل أذنه عن أن تسمع" (٥٩: ١)؛ "من كال بكفه المياه، وقاس السماوات بالشبر" (٤٠: ١٢)، "الجالس على كرة الأرض" (٢٢) وغيرها.

وكذلك يصور إشعياء الثاني الطبيعة كشخصية حية: "أشيدي أيتها الجبال ترنمًا" (٤٤: ٢٣)، "ترنمي أيتها السماوات وابتهجي أيتها الأرض" (٤٩: ١٣)، "وكل شجر الحقل تصفق بالأيادي" (٥٥: ١٢) وغيرها.

ومن ناحية أخرى يصور النبي مرات عديدة الشعب الحي بالطين في يد الخالق: "هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع؟" (٤٥: ٩)؛ "نحن الطين وأنت جابلنا" (٦٤: ٧)، والانسان الحي بالعشب اليابس، والزهر الذابل، الذي لا حياة فيه (٤٠: ٦).

صور وتشبيهات

أ. تشبيهات الرب

١.البنَّاء الذي يبني العالم — ٤٠: ١٢، ٢٢.

٢.راعي رحيم لإسرائيل — ٤٠: ١١.

٣.أب لإسرائيل — ٦٣: ١٦.

٤.ملك إسرائيل — ٤١: ٢١، ٤٤: ٦.

٥.نور الدنيا لإسرائيل — ٦٠: ١٩.

٦.بطل ورجل حرب — ٤٢: ١٣، يرتدي ملابس الحرب — ٥٩: ١٧، يحارب أدوم ويرجع بـــ"ثياب حمر" من دم قتلاه — ٦٣: ١-٣. "لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر، ويكثر قتلى الرب" (٦٦: ١٦).

٧. غضب الرب موجه إلى أعداء إسرائيل، لكن علاقته بإسرائيل يصوره النبي بالعلاقة بين الأم وأبنائها، وبين الزوج وزوجته المحبوبة: "كإنسانة تعزيه أمه، هكذا أعزيكم أنا" (٦٦: ١٣)؛ "وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" (٦٢: ٥). تشبيهات الرب إنما تجسد خصال الحب والرحمة وعطف الرب على إسرائيل. ومن غير المنتظر أن تجد عند إشعياء الثاني تشبيه الرب بالأسد (كما هو عند عاموس وهوشع)، أو كدب مُثكل (هوشع ١٣: ٧).

٨. يتحول تصوير الرب بأم إسرائيل إلى صورة كاملة: "اسمعوا لي يا بيت يعقوب، وكل بقية بيت إسرائيل، المحملين علي من البطن، المحمولين من الرحم. وإلى الشيخوخة أنا هو، وإلى الشيبة أنا أحمل، قد فعلت، وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجي." (٤٦: ٣-٤). فالرب يرعى شعبه كالأم برضيعها، فهو يحمله على كفيه ويستمر في حمله حتى الشيب والشيخوخة.

٩. وفي موضع آخر يصور النبي الرب بالمرأة التي تلد: "كالوالدة أصيح، أنفخ وأنخر معًا" (٤٢: ١٤). فالتشبيهات النسائية من السمات المميزة عند إشعياء الثاني.

أما كلام الرب فيشبهه النبي بالغذاء المقدم للإنسان، فهو يشبهه بالخبز، والماء والخمر والحليب (٥٥: ١-٢). فالغذاء الروحي الحقيقي يقدم للإنسان "بدون مال وبدون ثمن". كما يشبه كلام الرب كذلك بالثلج والمطر الذي يروي الأرض (١٠).

ب. تشبيهات إسرائيل وصهيون.

١. تشبيهات من عالم النبات: "مثل الصفصاف على مجاري المياه" (٤٤: ٤)؛ "كأيام شجرة أيام شعبي" (٦٥: ٢٢)؛ وعن عبد الرب: "نبت قدامه كفرخ وكعرق من أرض يابسة" (٥٣: ٢)؛ شعب إسرائيل هو غرس الرب (٦٠: ٢١، ٦١: ٣).

٢. تشبيهات من عالم الحيوان: دودة يعقوب (٤١: ١٤)، تصوير الوضع البائس للشعب الذي تطأه الأقدام في السبي، كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها (٥٣: ٧، صفات عبد الرب)

٣. تشبيهات أخرى: نورجًا محدَّدًا (٤١: ١٥) — على عكس "دودة يعقوب" فالشعب لن يداس بالأقدام بل سيدوس هو الآخرين؛ نورًا للأمم (٤٩: ٦)؛ إكليل جمال بيد الرب وتاجًا ملكيًا بكف إلهك (٦٢: ٣)؛ "فكان كالنهر سلامك، وبرُّك كلجج البحر. وكان كالرمل نسلك وذرية أحشائك كأحشائه" (٤٨: ١٨-١٩)؛ "أوسعي مكان خيمتك، ولتبسط شقق مساكنك" (٥٤: ٢)، فالخيمة مثال للشعب والأرض على السواء.

٤. تشبيهات نسوية: أهم تشبيهات لشعب إسرائيل ولأرض إسرائيل مأخوذة من حياة المرأة. فالنبي يشبه الشعب والأرض بالمرأة العاقر، التي تباركت فجأة بأبناء كثيرين (٥٤: ١-٤)، وإنها قد فرحت وابتهجت على خلاصها من خزي ترملها؛ وبالمرأة المهجورة والحزينة التي عاد إليها زوجها بالحب والرحمات (٦-٨)؛ وبالمرأة الفقيرة جدًا التي أثرت فجأة ثراءً فاحشًا (١١-١٣)؛ وبالأم السعيدة التي تجمع كل أبنائها البعيدين وجاءوا إليها، "عندئذ تنظرين وتتهللين، وتطغى الإثارة على قلبك" (٦٠: ٤-٥)؛ بالعروس الفرحة بزفافها وحُليها (٦١: ١٠)، بالمرأة التي طلقها زوجها أو بيعت كأَمَة (٥٠: ١). ويتوجه إلى أورشليم كمن يتوجه إلى امرأة.

إن التشبيهات النسوية الكثيرة في السفر غنية بالعواطف الدافئة، والحب والرحمات. فالنبي يفهم جيدًا مشاعر المرأة في مختلف حالاتها وفي مراحل عمرها المختلفة، ويعبر عن تجاربها بشكل شعري مبهج للقلب. وما أجمل وصفه للمرأة الثكلى والوحيدة التي تظن أن زوجها هجرها ونسيها، وفجأة يحيط بها كل أبنائها الكثيرين ويعود زوجها إليها معلنًا عن حبه الأبدي لها. فيصعب عليها تصديق ما تراه عيناها، وتسأل نفسها في تأثر: "من ولد لي هؤلاء؟ وأنا ثكلى وعاقر ومنفية ومطرودة؟ وهؤلاء من ربَّاهم؟ هأنذا كنت متروكة وحدي. هؤلاء أين كانوا؟" (٤٩: ١٤-٢١).

يثير كثرة استخدام التشبيهات النسوية وتضامن النبي مع مشاعر المرأة والأم الشكوك حول أن النبي العظيم، مجهول الاسم، لم يكن نبيًا بل نبية.

رأى النبي في خياله أيضًا الرضيع الوليد ورضاعته، ويصور الشعب بالرضيع المحبوب الذي يبتهج الجميع به: "هأنا أسبغ عليها الخير كنهر، وأجري إليها ثروة

الأمم كسيل متدفق، فترضعون، وتحملون في الحضن، وعلى ركبتيها تدللون" (٦٦: ١٢): "وتشربين لبن الأمم وترضعين ثدي الملوك" (٦٠: ١٥-١٦). ورأينا فيما سبق أن الرب يراقب شعبه مثل الأم التي ترعى وليدها وتحمله على كتفيها (٤٦: ٣-٤). حتى أن النبي يصور الولادة بدون ألم (٦٦: ٧-٩).

ث. تشبيهات الإنسان

من أجل تجسيد فكرة ضآلة الإنسان مقارنة بالرب يصور النبي الإنسان بالعشب اليابس والزهر الذابل (٤٠: ٦٦، ٥١: ١٢)، بالخزف من أخزاف الأرض (٤٥: ٩). وكل الأمم هي "كنقطة من دلو، وكغبار الميزان" (قطرة ماء، الغبار البسيط)، "كالثوب يبلون، يأكلهم العث". ويشبه أهل الأرض بالذباب" (٥١: ٦)، وبالورقة الذابلة (٦٤: ٥).

لكن الإنسان الذي يرغبه الرب فسيكون "كروضة مروية وكجدول ماء لا ينقطع" (٥٨: ١١)؛ أم راجون الرب "فإنهم يجددون قوتهم، ويحلقون بأجنحة النسور" (٤٠: ٣١).

ج. تشبيهات أخرى

يشبه النبي كورش بالطائر الجارح الذي ينقض على جيفات بابل (٤٦: ١١). وتشبه لعنات النبي السيف الحاد والسهم المسنون (٤٩: ٢). إن رعاة الشعب مثل الكلاب النهمة لا تعرف الشبع (٥٦: ١٠)، وإن أعمال الأشرار وكذبهم يشبه بيض الأفعى وخيوط العنكبوت. وإن من يأكل من بيضهم سوف يموت، ومن البيضة المكسورة تخرج أفعى (٥٩: ٥-٦). أما الفقراء والمساكين فيشبهون القصبة المرضوضة والفتيلة الخامدة (٤٢: ٣).

ح. صور كاملة

١. البرية المزهرة (٤١: ١٧-١٩).

٢. صناعة التماثيل (٤٠: ١٩-٢٠، ٤٤: ١٢-١٧).

٣. شخصية عبد الرب وصفاته (٤٢: ١-٤؛ الإصحاح ٥٣).

٤. عمل ابنة بابل (الإصحاح ٤٧).

٥. الأم الفرحة بعودة جميع أبنائها (٤٩: ١٤-٢١، ٦٠: ٥٤).

خ. المقارنة بإشعياء بن آموص

إن التمعن في كل منظومة التشبيهات في قسمي سفر إشعياء يثبت بدون شك أننا أمام نبيين مختلفين. فتشبيهات إشعياء بن آموص مستوحاة من الطبيعة الزراعية ليهوذا، وتصور عمل المزارع، والأشجار غير المثمرة، والأشجار المثمرة، والكرمة والبساتين، والثور، والحمار (بهائم المزارع)، وشجر البلوط، وحضارة مدينة أورشليم وحُليّ بنات صهيون. ولا يوجد ذكر لكل ذلك في إشعياء الثاني. فكل نبي يستوحي تشبيهاته من الطبيعة ومن البيئة المحيطة التي يعيش فيها. فتشبيهات عاموس مستوحاة من حياة الراعي، وتشبيهات إرميا (في فترته الأولى) متأثرة من طبيعة عناثوث. كما إن تشبيهات إشعياء بن آموص مأخوذة من المشاهد الزراعية والمدنية لأرض يهوذا، والبيئة المحيطة بأورشليم. أما طبيعة إشعياء الثاني فهي البرية التي لا يوجد بها مياه، ولا أشجار. فهو لا يعرف العشب ولا الزراعة، ولا الجرن ولا البستان، ولا الثور ولا الحمار، ولا عمل المزارع. فهو لا يعيش مع سكان مستقرين في أرضهم، إنما بين المسبيين في أرض غربتهم، حيث لا يوجد أي رابط

نفسي بالطبيعة أو البيئة المحيطة، لذلك فإن تشبيهاته مستوحاة من حياة الأسرة، ومعظمها تشبيهات نسوية عاطفية.

د. وسائل فنية أخرى

١. المبالغة:

"لأن الصبي يموت ابن مئة سنة، والخاطيء يلعن ابن مئة سنة" (٦٥: ٢٠)؛ "لا تكون لك بعد الشمس نورًا في النهار، ولا القمر ينير لك مضيئًا" (٦٠: ١٩)؛ "ويكون الملوك حاضنيك، وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك" (٤٩: ٢٣)؛ "هأنذا أبني بالأثمد حجارة كريمة، وبالياقوت الأزرق أؤسسك، وأجعل شرفك ياقوتًا .." (٥٤: ١١-١٢)، وغيرها.

٢. السخرية والتهكم:

عن الأصنام وصانعيها تحديدًا (٤٠: ١٩-٢٠، ٤١: ٦-٧، ٤٣: ٢٢-٢٤، ٤٦: ١-٧، ٥٨: ٢-٤، وبخاصة ٤٤: ١٢-٢٠). وكذلك عن بابل ومنجميها (الإصحاح ٤٧).

٣. الجدل والحكم:

الجدل حول الصوم – الإصحاح ٥٨.

جدل مع إسرائيل – ٤٠: ٢٧، ٤٨: ١٢-١٦، ٥٠: ٢ وغيرها.

جدل وحكم مع الأمم – ٤١، ٤٣، ٤٥: ٢٠-٢٣.

٤. أسئلة:

في القسم الأول من السفر (٤٠–٤٨) تكثر التساؤلات: ٤٠: ١٢، ١٣، ١٨، ٢٥، ٢٦؛ ٤١: ٢٦، ٤٢: ١٩، ٢٤؛ ٤٤: ١٠، ٤٥: ٢١؛ لكنها لا تغيب عن الأقسام الأخرى: ٥٠: ١، ٢؛ ٥٥: ٢، ٥٨: ٥، ٦٠: ٨، ٦٣: ١ وغيرها. وفي ذلك أيضًا يشبه أسلوب إشعياء الثاني أسلوب إرميا أكثر من أسلوب إشعياء بن آموص، الذي لا يطرح أسئلة كثيرة. فهو لديه شكل خاص من المقارنة بالتقابل بطريقة السؤال (هي أيضًا بتأثير من إرميا، لكن لها طابع جديد): "هل تنسى المرأة رضيعها، فلا ترحم ابن بطنها؟"، وتكون الإجابة الطبيعية: لا تنسى! لكن التكملة لا تكون: "وهكذا أنا لن أنساك" (وهذه هي الصيغة التي يستخدمها إرميا)، إنما: "حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك" (٤٩: ١٥)؛ أي أني أذكرك أكثر من الأم التي تذكر رضيعها.

وكذلك: "هل تسلب الغنيمة من المحارب الجبَّار، أو يفلت الأسرى من قبضة الغالب؟"، والإجابة: لا تسلب، ولا تفلت! لكن التكملة هي: "نعم، سبي الجبار يسلب منه، وتسترد الغنيمة من الغالب، لأنني أخاصم مخاصميك، وأنقذ أبناءك" (٤٩: ٢٥). حتى أن الغنيمة تسلب من المحارب الجبار، لكنكم لن تسلبوا مني.

٥. تضاد:

إن السماوات كالدخان تضمحل	أما خلاصي فإلى الأبد يكون (٥١: ٦).
لأن أفكاري ليست أفكاركم،	ولا طرقكم طرقي (٥٥: ٨).
جمالًا عوضًا عن الرماد،	ودهن فرح عوضًا عن النوح (٦١: ٣).
لا يبنون وآخر يسكن،	ولا يغرسون وآخر يأكل (٦٥: ٢٢).

الفصل التاسع

نَاحُوم وَعُوبَدْيَا

مدخل

جميع الأنبياء الذين تناولناهم بالدراسة حتى الآن كانوا أنبياء موبخين لإسرائيل؛ حتى أقوال إشعياء المواسي كان فيها الكثير من نبوءات التوبيخ. غير أن النبوة الإسرائيلية لم تكن أبدًا مجرد أوامر وتوبيخ؛ فكانت تشتمل دائمًا على أساسين هما: الأول؛ مشاهدة المولود؛ أي الإخبار بالمستقبل. والثاني؛ الخطاب؛ أي الكلام الإلهي الذي أساسه أوامر وتوبيخ. حقيقي أن عنصر التوبيخ يبدو لنا أساسي في النبوة. وعلى من يتناول أسس النبوة أن يعبر عن رأيه فيه بشكل خاص. غير أنه من الناحية التاريخية الواقعية لا يجب تجاهل أنه في جميع الأزمنة — حتى في زمن الأنبياء الأوائل، وكذلك في زمن الأنبياء الأواخر — كانت هناك أهمية كبيرة لدور النبي كرائي لما سيحدث، وكمحدد مصير الحروب، والشعوب والبلدان. إن طبيعة النبي كرائي لم تتوقف نهائيًا بعد عصر صموئيل. حتى الأنبياء العظام جدًا لم يكوانوا مجرد معلمين للشعب ومؤنبين له؛ إنما أيضًا مخبرين للمستقبل ومحددين لمصائر الشعوب، بما في ذلك مصير إسرائيل. وأهم اختبار حقيقي لكلام النبي هو تحقق رؤاه (التثنية ١٨: ٢٢، إرميا ٢٨: ٩، وغيرها). وهناك أنبياء يحددون من البداية زمن الأحداث المستقبلية بالضبط. فإشعياء يقول: "وفي مدة خمس وستين سنة ينكسر أفرايم ولا يكون شعبًا" (٧: ٨)؛ "ويكون من بعد سبعين سنة أن الرب يتعهد صور" (٢٣: ١٧). ولقد تنبأ إرميا بسقوط بابل وحدد مدة حكمها: "ويكون عند تمام السبعين

سنة أبي أعاقب ملك بابل" (٢٥: ١٢). يكرر إشعياء الثاني عشرات المرات فكرة أن تحقق النبوءات الأولى لدليل على تحقق النبوءات الجديدة. ويوبخ النبي زكريا أهل أورشليم الذي لم يتعظوا من تحقق نبوءات "الأنبياء الأوائل" (١: ٤–٧)، ويقصد الأنبياء الأواخر – إشعياء، وإرميا، وآخرين.

من المعلوم أن هناك اختلافات أساسية وجوهرية بين النبوءات الشعبية "القومية" ل"أنبياء السلام" و"الرائين"، الذين تنبأوا دائمًا بالانتصارات لإسرائيل وبسقوط أعدائها، وبين إخبار الأنبياء الكبار بالمستقبل، الذين ترتكز أقوالهم على خلفية أخلاقية وإنسانية عامة، ولقد تنبأ غالبيتهم بخراب أورشليم وبانتصارات أعدائها (ميخا بن يَمْلَة، عاموس، هوشع، ميخا، إرميا، حزقيال).

سنتناول الآن نبيين – ناحوم وعوبديا – لم يوبخا إسرائيل نهائيًا؛ فكل سفر يحتوي فقط على نبوءات خراب على أحد أعداء إسرائيل: ناحوم على آشور، وعوبديا على أدوم. ويحتمل أن يكون لهما أيضًا نبوءات أخرى، لكننا لا نستطيع مناقشة سوى الموجود في سفريهما.

ناحوم: الرجل والسفر

نحن لا نعلم شيئًا عن هوية النبي، كما إن مكان مولده – ألقوش – غير معروف. ويظن البعض، اعتمادًا على الموروث المحلي، أنه كان أحد مسببي الأسباط العشرة، وكان يقيم في مدينة صغيرة وهي ألقوش، بالقرب من نينوى. وهناك مكان باسم مشابه لألقوش موجود في بلاد النهرين بجوار الموصل. ويقول البعض أن ألقوش موجودة في الجليل. على أي حال، فنبوءات خلاص يهوذا تساعد على التخمين بأنه كان يقع في مملكة يهوذا.

ويمكن تحديد زمن النبي بحسب مضمون السفر؛ ففي الإصحاح الثالث ٨-١٠ الحديث عن خراب نو أمون (طيبة المصرية)، التي سقطت في يد الملك الآشوري آشوربانيبال، في سنة ٦٦٣ قبل الميلاد؛ بذلك يكون ناحوم قد تنبأ بعد سنة ٦٦٣ق.م. ويصف السفر تفاصيل احتلال نينوى. وبما أن نينوى قد سقطت في عام ٦١٢ ق.م. فإن نبوءة ناحوم قد ذكرت بالقرب من سقوط نينوى، في السنوات ٦١٥-٦١٢ق.م أو — بحسب قويفمان — في سنة ٦١٢ق.م تحديدًا.

يتكون سفر ناحوم من ثلاثة إصحاحات، ويمكن تقسيمه إلى قسمين:

١. الإصحاح الأول حتى الإصحاح الثاني: ٣، ترنيمة للرب، "إله غيور ومنتقم"، من مبغضيه وأعدائه. وملك آشور هو رمز أعداء الرب ويلقب "السيء" (١: ١١، ٢: ١). لكن عند المؤمنين والواثقين فيه فإن الرب طيب وصبور؛ ويَعِد النبي شعب يهوذا بالنجاة والسلام: "هوذا على الجبال قدما المبشر حامل الأخبار السارة، الذي يعلن السلام، فيا يهوذا واظب على الاحتفال، بأعيادك، وأوف نذورك لأنه لن يهاجمك الشرير من بعد، إذ انقرض تمامًا" (٢: ١)[١]. وتفتتح الترنيمة بأشعار كونية عن ظهور الرب، الذي يخرج لمطاردة أعدائه (١: ٣-١٢)، ثم تأتي بعدها أنشودة قومية (١: ١٣-٢: ٣)، التي تبشر بخلاص يهوذا وسقوط آشور.

٢. الإصحاح الثاني ٤ — الإصحاح الثالث ١٩؛ ويصور احتلال نينوى وجرائمها وعقابها.

---

[١] في الطبعات العربية للعهد القديم الفقرة هي في الإصحاح الأول ١٥. ونحن نعتمد في ترجمة هذا الكتاب على الطبعة العبرية للعهد القديم، ولقد نوّهنا عن ذلك من قبل.

الخلفية التاريخية لسفر ناحوم

بعد موت آشوربانيبال آخر ملوك آشور العظام (٦٢٦ق.م) ضعفت مملكة آشور واضمحلت وتفككت بسرعة كبيرة. وفي الجنوب تحررت بابل وتحالفت مع الميديين لمحاربة آشور. وفي الشمال أضعفت هجمات السكوثيين قوة المملكة الآشورية، وتمردت مصر. وتشهد الإصلاحات الدينية ليوشيا في أرض يهوذا (٦٢١ق.م) على تحرر يهوذا. وتم احتلال نينوى عام ٦٢١ق.م بواسطة القوات المشتركة للبابليين والميديين. ولقد تنبأ ناحوم بأن سقوط نينوى يبشر بالنهاية القريبة لمملكة آشور كلها. وبعد ثلاث سنوات سقطت حاران كذلك. وهبَّ الفرعون نخو ملك مصر لمساعدة آشور، ليرث حكمها على سوريا ويهوذا، لكنه تعرض في معركة كركميش[١] (٦٠٥ق.م) لضربة قاصمة على يد البابليين.

علاقة ناحوم بنينوى

هو يدعو آشور "الأسد المفترس" (٢: ١٣)، ويصور نينوى بـــ"مدينة الدماء، كلها ملآنة كذبًا وخطفًا، لا يزول الافتراس ... صاحبة السحر البائعة أممًا بزناها، وقبائل بسحرها" (٣: ١-٤). الرب يكافئها، على كل خصلة وخصلة، على قسوتها، وعلى جرائمها، ليس ضد إسرائيل فحسب بل ضد الشعوب كلها، وضد العالم كله، والعالم يسعد بسقوطها: "كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك، لأنه على من لم يمر شرك على الدوام؟" (٣: ١٩). والانتقام هو فكرة

---

١ كركميش أو جرابلس مدينة أثرية سورية تقع في نقطة عبور هامة على الفرات إذ تعتبر بوابة بلاد الشام إلى الأناضول وبوابة الأناضول إلى بلاد الرافدين، فضلاً عن كونها نقطة عبور فراتية هامة بين الجزيرة والشامية.

رئيسية في نبوءة ناحوم. فالرب يوصف بأنه الإله المنتقم الغيور (في أول مرة في النبوءة)، لكن انتقام الرب لا ينبع من منطلق مصالح قومية ضيقة إنما هو تعبير عن إيمان النبي بسلطة العدل في العالم. لذلك لا يمكن اعتبار ناحوم من أنبياء السلام، الذين ينظر إليهم في العهد القديم على أنهم أنبياء كذب (خاصة عند إرميا وحزقيال). "إن ناحوم هو نبي حقيقي بشكل لا يقل عن أنبياء الخراب".[1]

أسلوب ناحوم

يقول البروفسور سيجل إن ناحوم هو أحد أعظم الفنانين في أدب العهد القديم. "يتميز السفر الصغير ببلاغته السامية، ولغته الموسيقية الغنية، وبتصويراته الحية والدرامية". وبالفعل، فإن الحيوانات، والخيال، وقوة التعبير في لغة ناحوم أمر غير اعتيادي، ويقترب أسلوبه من أسلوب إشعياء بن آموص. ويكفي أن نعرض لبعض الفقرات كنماذج: "تهيج المركبات في الأزقة، تتراكض في الساحات، منظرها كمصابيح تجري كالبروق" (٢: ٥)؛ "أضحت موحشة خاوية جرداء، ذابت منها القلوب رعبًا وانحلت منها الركب، طغى عليها الألم وعلا وجوه أهلها الشحوب" (٢: ١١)؛ "ها فرقعة السياط وقعقعة العجلات وجلبة حوافر الخيول وصلصلة المركبات، وفرسان واثبة، وسيوف لامعة ورماح بارقة، وكثرة قتلى وأكوام جثث لا نهاية لها بها يتعثرون" (٣: ٢–٣). ويصور ناحوم في حيوية كبيرة مشاهد المعركة وجو المعركة والقتل. والصور الحية الملونة بألوان واضحة وقوية، تمر وتجري أمام أعيننا مثل البرق.

---

[1] قويفمان ٣٥٩

ولقد استعان ناحوم بمعظم الوسائل الفنية لأشعار العهد القديم: التقابل، التكرار بغرض التأكيد (إله غيور ومنتقم الرب، الرب منتقم وغاضب، الرب ينتقم من أعدائه)، ونداءات تشجيع (قفوا! قفوا!، انهبوا فضة! انهبوا ذهبًا!) الجناس (فراغ وخلاء وخراب)، التجسيد والتأنيس، كلمات فيها أصوات متشابهة (**עד סירים סבוכים וכסבאם סבואים** – ١: ١٠) وغيرها. كما يمكننا أن نجد في الإصحاح الأول فقرات مكتوبة بأسلوب التتويج[١] بالترتيب الأبجدي من الألف حتى الكاف.

والعنوان في بداية السفر عنوان فريد من نوعه: "وحي على نينوى سفر رؤيا ناحوم الألقوشي". فلدينا هنا مزج بين أساس عنصر الكلام وبين عنصر الرؤيا. وعلى الرغم من وجود بعض الشبه بين هذه الافتتاحية وافتتاحية عوبديا (رؤيا عوبديا) وإشعياء (رؤيا إشعياء بن آموص)، وافتتاحية حبقوق على وجه التحديد (الوحي الذي رآه حبقوق النبي). كما يظهر عند حبقوق أيضًا مزج بين مفهومي الوحي والرؤيا، غير أنه هنا فقط ورد ذكر كلمة "سفر". وهو ما نعرف منه أن نبوءة ناحوم ليست نبوءة تلقائية؛ إنما سفر، كتبه النبي، ونسخ وانتشر بين الشعب. ويحتمل أن تكون كلمات ناحوم قد كتبت في سفر، وبعد فترة من الوقت تمت قراءتها على السامعين. إن كلمات ناحوم لها طابع العمل الأدبي الشعري، على الرغم من أن بها عنصر نبوءي قوي لنبوءات النكبات على آشور، ورؤيا خلاص ليهوذا.

---

[١] القصيدة ذات ترتيب خاص تشكل فيها الحروف الأولى لأحد المصراعين أو كليهما كلامًا مفهومًا.

عوبديا: الرجل والسفر

سفر عوبديا هو أقصر أسفار العهد القديم فيتكون من إصحاح واحد فقط من ٢١ فقرة؛ ويتناول موضوعًا واحدًا فقط: رؤيا الانتقام من أدوم. ونحن لا نعرف شيئًا عن شخصية النبي؛ ويقول البعض أن حتى اسمه غير معروف، فاسم "عوبديا" ليس سوى كنية "عبد الرب". وعلى الرغم من أنه ورد في سفر الملوك الأول ١٨: ٣ "عوبديا مدير شؤون القصر" الذي عاش في زمن أخآب وإيليا، لكن لا يوجد أي أساس لتوافق هذه الشخصية مع عوبديا النبي؛ فالحدث الرئيس الذي يتناوله سفر عوبديا هو سلوك الأدوميين يوم خراب أورشليم. ولقد ورد ذكر هذا اليوم عشر مرات في الفقرات ١١-١٤. ومن التخمينات المقبولة أن عوبديا قد تنبأ بعد خراب أورشليم على الفور، تقريبًا في السنوات ٥٨٦-٥٨٠ق.م.

ويقسم السفر أو الإصحاح إلى أربعة أقسام كالتالي:

١-٩: إعلان الحرب على أدوم والضربات التي ستنزل بها.

١٠-١٤: أسباب الانتقام من أدوم: خطيئة أدوم مع إسرائيل.

١٥-١٨: يوم الرب على جميع الأمم الأخرى، وخاصة أدوم الذي يعد رمزًا لكارهي إسرائيل. وتدمير بيت عيسو.

الخلفية التاريخية لسفر عوبديا

للعداء بين أدوم وإسرائيل جذور قديمة، ترجع بدايته إلى الصراع على البكورة والبركة بين يعقوب وعيسو في سفر التكوين. ولقد استطاع أبناء عيسو التمسك بأرضهم وإقامة مملكة استمرت مئات السنين قبل بني يعقوب. وعند تنقل بني إسرائيل في البرية وهم في طريقهم إلى أرض آبائهم، كان أدوم قد أصبح دولة

منظَّمة، على رأسها ملك. ولقد أراد بنو إسرائيل المرور عبر أرض أدوم غير أن ملك أدوم رفض وهدد بشن حرب. كان هذا الصراع الأول بين شعب أدوم وشعب إسرائيل. كما حارب شاول، أول ملوك إسرائيل، الأدوميين (صموئيل الأول ١٤: ٤٧)، لكن داود فقط هو الذي نجح في ضربهم واحتلال أرضهم. ويحكي سفر الملوك الأول أن يؤاب ضرب كل ذَكَر في أدوم، لكن نجحت مجموعة من أهل أدوم وعلى رأسهم هدد في الفرار إلى مصر. ولقد استمر حكم إسرائيل لأدوم طوال فترة حكم داود وسليمان. وبعد موت سليمان عاد هدد إلى أرض أدوم وحاول تحرير أرضه من حكم يهوذا. وبعد موت يهوشافاط، ملك يهوذا، أجرم أدوم في يهوذا، وملَّكوا عليهم ملكًا. وانقطع حكم يهوذا لأدوم حتى عصر أمصيا. وبنى عوزيا أيلوت، التي هي إيلات، وأعادها إلى يهوذا. وعاد الأدوميون إلى إيلات في أيام آحاز، الذي كان مضغطًا من آرام وإسرائيل. ولا شك أنه في فترة عبودية مملكة يهوذا لأشور وبابل تم تحرير أدوم من نير يهوذا، وفي أيام حصار نبوخذنصر ساعد الأدوميون البابليين.

نجد شواهد على علاقة الأدوميين بأورشليم في جيل الخراب في ثلاثة مصادر في العهد القديم، غير سفر عوبديا:

أ. ورد في سفر مراثي إرميا: "ابتهجي وافرحي يا ابنة أدوم، يا ساكنة عوص. إنما هذه الكأس ستجور عليك أيضًا" (٤: ٢١). وذكرت هنا فرحة أدوم بسقوط أورشليم.

ب. المزمور ١٣٧ من سفر المزامير يشهد على مساعدة الأدوميين للكلدانيين: "اذكر يا رب لبني أدوم ما فعلوه يوم خراب أورشليم إذ قالوا: اهدموا! اهدموا! حتى يتعرى أساسها".

ت. تنبأ حزقيال بالخراب والقفر لأدوم: "لأنك قلت إن هاتين الأمتين وهاتين الأرضين تصبحان لي فأمتلكهما" (٣٥: ١٠). نجد هنا أن الأدوميين أرادوا ميراث أرض يهوذا بعد خراب أورشليم وضمها إلى أرضهم.

النصر النهائي لأورشليم على أدوم حققته في فترة الهيكل الثاني على يد يوحنان هوركينوس(١) والأسكندر جانيوس (يناي)(٢).

خطايا أدوم وعقابه

الخطيئة الأولى: هي الثقة في النفس والتكبر والغرور: "قد غرَّتك كبرياء قلبك، أيها المقيم في شقوق الصخور، ومساكنه في القمم، القائل في قلبه: من يهوي بي إلى الأرض" (عوبديا ١: ٣)، فالكبرياء والغرور يجب أن تحاسب عليه أمم العالم. وهو ما يقوله إشعياء عن ملك آشور: "ولكن حالما ينتهي الرب من عمله بجبل صهيون، فإنه سيعاقب ملك أشور على غرور قلبه وتشامخ عينيه" (إشعياء ١٠: ١٢). والخطيئة الثانية؛ وهي الأعظم، هي تعاملها مع يهوذا. فقد شارك الأدوميون في نهب وسلب أورشليم، وشمتوا في يهوذا، وسلموا بقايا أهل أورشليم للعدو، أو

---

١ يوحنا هيركانوس أو يوحنا بن سمعان المكابي ١٦٤-١٠٤ ق.م. زعيم مكابي حشموني يهودي ورئيس كهنة بني إسرائيل في القرن الثاني قبل الميلاد. ولقد حكم الحشمونيون من ١٣٤ق.م وحتى وفاته في عام ١٠٤ ق.م. ويشار إليه في الأدب الحاخامي باسم "يوحنا رئيس الكهنة".

٢ ألكسندر جانيوس بالعبرية: יהונתן "ינאי" אלכסנדרוס هو ملك من السلالة الحشمونية، وكان رئيس كهنة اليهود في القرن الأول قبل الميلاد، حكم المملكة من 103 ق.م إلى 76 ق.م وهو ابن يوحنا هيركانوس. تولى الحكم بعد أخيه أرسطوبولس الأول، وتزوج أرملة أخيه الملكة سالومي ألكسندرا.

أهلكوهم. كما أرادوا ميراث أرض يهوذا وضمها إلى أدوم. وعن كل ذلك يوبخ النبي أدوم بغضب شديد وتنبأ عليه بالفناء.

الفكرة الرئيسية لنبوءات الخراب على أدوم هي الانتقام: "وكما فعلت لابد أن يفعل بك أيضًا، فيرتد عملك على رأسك" (١٨)، ومعظم الضربات التي ستحل بأدوم هي صاع بصاع. فقد تعجرف لذلك "هأنا أجعلك صغيرًا بين الأمم وأشدَّها احتقارًا" (٢). ومثلما خان أخاه بيت يعقوب سيخونه حلفاؤه (٧). ولقد أراد ميراث يهوذا، لذلك سيرث اليهود جبل عيسو (١٩). ولقد سلب ممتلكات أورشليم، لذلك ستكشف جميع كنوزه وتتعرض للنهب (٥-٦). ولقد سلَّم بقايا يهوذا؛ لذلك "ولا يفلت من بيت عيسو أحد" (١٨). كما سيباد كل حكماء أدوم المشهورين، وكذلك كل أبطاله (٨-٩).

وأهم سبب لكراهية أدوم هو بدون شك خيانته لأخيه، إسرائيل في وقت ضيق أورشليم. وبحسب ما ورد في سفر إرميا ٢٧: ٣ فقد كان ملك أدوم أحد الملوك الذين جاءوا إلى صدقيا، ملك يهوذا، في أورشليم، لينظموا معًا التمرد ضد بابل. ويبدو أن أدوم وعد بأن يكون حليف أورشليم وعندما جاء البابليون تحول الحليف إلى عدو وتعاون مع الكلدانيين. ولقد أثَّرت هذه الخيانة في أهل أورشليم كثيرًا وحُفِرت في قلوب الشعب إلى الأبد، وأصبح الأدوميون رمزًا لكارهي إسرائيل، مثلهم مثل العماليق.

يوم الرب في سفر عوبديا

شاهدنا في الفصل الذي تناولنا فيه عاموس أنه أعطى يوم الرب معنى جديدًا ليوم حساب إسرائيل، بخلاف الرؤية الشعبية ليوم حساب الأمم. ويكرر عوبديا الرؤية الشعبية: "لأن يوم الرب قريب آت على كل الأمم" (١٥). وهذا اليوم ليس

ببعيد، في آخر الأيام، إنما يوم قريب، ويحصل على معنى خاص تجاه أدوم، لأنه من الممكن أن نرى فيه عقاب ليوم محنة أورشليم. إن أورشليم قد اجتازت في الحقيقة "يوم ربها"، ويوم رب أدوم هو الرد والجزاء على "يوم أورشليم" (المزامير ١٣٧: ٧). وبالفعل ففي هذا اليوم سيتغير المصير: "ويرث بيت يعقوب نصيبه، ويصير بيت يعقوب نارًا، وبيت يوسف لهيبًا، وبيت عيسو قشًا، فيوقدونهم ويلتهمونهم. ولا يفلت من بيت عيسو أحد، يقول الرب ... ويرث أهل النقب جبل عيسو .. ويصعد المنقذون (القضاة والحكام) إلى جبل صهيون ليحكموا جبل عيسو، ويصبح الملك للرب" (١٧-٢١).

تشمل رؤيا خلاص عوبديا كل من بيت يعقوب وبيت يوسف. وكما هو الحال عند إرميا وحزقيال فقد تطلع هو أيضًا لذلك، أن تعود الأسباط العشرة إلى أرضهم ويرثوا مجددًا أرضهم التي نهبتها الأمم منهم.

متطابقات عند عوبديا مع أنبياء آخرين

١. عاموس ١: ١١.

٢. إشعياء ٣٤، ٦٣: ١-٦؛ استخدام مصير أدوم كمثال على محاكمة الرب لجميع الشعوب، ويوجد أيضًا هنا تأكيد على فكرة الانتقام: "لأن الرب ساخط على كل الشعوب وغضبه منصب على جميع أجنادهم ...لأن للرب يوم انتقام، سنة ثأر لدعوى صهيون (٣٤: ٢-٨).

٣. حزقيال ٣٥، ٣٦: ٥؛ حيث يذكر "كراهية أدوم" الأبدية لإسرائيل، بل ويتحدث كذلك عن سلوك الأدوميين "أثناء ضائقة" إسرائيل (٣٥: ٥).

٤. يوئيل ٤: ١٩؛ "وأدوم تصير قفرًا خربًا، من أجل ظلمهم لبني يهوذا الذين سفكوا دمًا بريئًا في أرضهم" وهو ما يقابل ما ورد في عوبديا ١٠.

٥. ملاخي ١: ٢-٥؛ "أليس عيسو أخًا ليعقوب، يقول الرب، ومع ذلك أحببت يعقوب وأبغضت عيسو ..".

٦. إرميا ٤٩: ٧-٢٢؛ هناك فقرات في سفر إرميا تشبه كثيرًا فقرات عوبديا (إرميا ٤٩: ٧، ٩، ١٤-١٦؛ عوبديا ١-٥، ٨، ١٢). وهناك احتمالان لتفسير هذه الظاهرة: إما أن النبيين استخدما مصدرًا واحدًا قديمًا، به أشعار لعنة على أدوم؛ أو أن إحدى النبوءتين هي محاكاة للأخرى. ويعتقد قلوزنر أن نبوءة إرميا قد انتقلت إلى ابن عصره الشاب، الذي ربما كان تلميذه، ثم أدخل عوبديا تغييرات عليها، من حذف وإضافة. لكن قويفمان يقول "في عوبديا يوجد في النبوءة استمرارًا طبيعيًا متسلسلًا، وأما في إرميا فهي تختلط وتمتزج بكلام إرميا نفسه"[1]. ومن ناحية بناء وأسلوب النبوءة فكما لو أن عوبديا قد سبق إرميا؛ فنبوءة عوبديا تبدو أكثر أصالة. لكن من ناحية زمن ومضمون سفر عوبديا فقد سبق إرميا؛ فعوبديا تنبأ بعد الخراب، ولا يُذكر دور أدوم في خراب أورشليم نهائيًا عند إرميا. لذلك فالرأي المقبول هو أن كليهما استخدما مصدرًا مشتركًا. ولقد كانت أشعار لعن أدوم شائعة على ما يبدو بين الشعب منذ العصور القديمة.

---

[1] الكتاب الثامن ٣٦٣

الفصل العاشر

حَبَقُوق

النبي: زمنه وسفره

تهتم نبوءة حبقوق، مثل نبوءات ناحوم وعوبديا، بشعب واحد فقط — الكلدانيين. حتى أن حبقوق لا يوبخ إسرائيل، على الرغم من أن في كلامه توبيخ وشكوى؛ لكن ليس ضدر إسرائيل إنما ضد إله إسرائيل الذي منح للشعب الوثني نجاحه وعظمته.

لا يخبر عنوان سفر حبقوق شيئًا عن زمن وعائلة النبي وأصله. يقول الحاخام داود قمحي: "إننا لم نعرف جيل هذا النبي ولا عائلته، وورد في كتاب "سيدر عولام"[1]: تنبأ كل من يوئيل وناحوم وحبقوق في زمن منسي، ولأن منسي لم يكن نزيهًا لذلك لم يسموا على اسمه؛ ونبوءته عن نبوخذ نصر، عن الشر الذي صنعه لإسرائيل من بين كل الشعوب". ويذكر هارتم في تفسيره "أجادات حازل"[2] أن حبقوق هو ابن المرأة الشونمية[3]، التي بشرها النبي أليشع بمولده بالكلمات التالية: "כעת חיה את חובקת בן. نحو زمان الحياة تحتضنين ابنًا".

---

[1] مؤلف يتناول الترتيب الزمني اليهودي منذ آدم الأول وحتى حراب الهيكل الثاني، وتمرد بركوخبا. وينسب بحسب التلمود إلى التَّنَّائي رابي يوسي بن حلفتا.

[2] كلمة عامة عن مقالات الحاخامات التي لا تتناول الشريعة. وشملت في الأدب التوراتي موضوعات كثيرة بداية من القصص والحكايات العامة وانتهاء بمقولات الحكمة والموعظة.

[3] بطلة قصة توراتية تحكي عن امرأة لا تنجب ثم أنجبت ببركة النبي أليشع، ثم يموت الولد ويعود إلى الحياة مرة أخرى على يد أليشع النبي.

وهذا الكلام لا يرتكز على رواية تاريخية، إنما يعد تفسيرًا لتأويل هذا الاسم غير العادي. كما نجد في الأسفار الخارجية قصة "بال والتنين" التي تربط حبقوق بدانيال. ونرى أن الحاخامات لم يكن لديهم رواية واحدة تحدد زمن النبي، لكن معظم المفسرين بما فيهم راشي وابن عزرا وكذلك المفسرين المحدثين، ينسبون كلام حبقوق إلى نبوخذ نضر؛ فورد في الفقرة السادسة من الإصحاح الأول: "فها أنا أثير الكلدانيين، هذه الأمة الحانقة المندفعة الزاحفة في رحاب الأرض، لتستولي على مساكن ليست لها". فنبوءة حبقوق هي عن الصعود السريع والمفاجيء للبابليين الذين ضربوا الإمبراطورية الأشورية العظمة، واحتلوا نينوى (٦١٢ق.م)، وضربوا فرعون نخو، ملك مصر، في معركة كركميش (٦٠٥ق.م)؛ التي تحولت خلال خمس عشرة سنة فقط إلى مملكة صغيرة، مستعبدة لأشور، باسطين سلطانهم على امبراطورية عظيمة ممتدة من ميدي وحتى مصر.

لقد بعث سقوط آشور في قلب الشعوب المستعبدة لها، وكذلك في قلب أهل يهوذا، الأمل في الحرية. وعلى الرغم من أن يهوذا قد تمتعت بحرية مؤقتة؛ حيث نجح يوشيا في استعادة الاستقلال السياسي والديني ليهوذا، لكن سرعان ما تبددت هذه الآمال البراقة. فالملك البار الذي "لم يكن قبله ملك مثله، قد رجع إلى الرب بكل قلبه، وكل نفسه، وكل قوته" (الملوك الثاني ٢٣: ٢٥)، قد قتل في مجدو، في محاولته القبض على الفرعون نخو، الذي خرج لقتال البابليين، ليرث حكم آشور (٦٠٩ق.م). وفي أورشليم، وبمباركة مصرية، تمت تولية يهوياقيم الذي قال عنه إرميا: "ويل لمن يبني بيته بغير عدل وعلالية بغير حق! لأن عينيك وقلبك ليست إلا على خطفك وعلى الدم الزكي لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما." (٢٢: ١٣-١٧). لقد سقط الملك البار، ووصل الحكم إلى يد ظالمين عظيمين:

الأول؛ الذي يحكم العالم؛ وهو ملك الكلدانيين. والثاني؛ حاكم أورشليم، وهو يهوياقيم. بذلك يكون حبقوق قد تنبأ في السنوات ٦١٠-٦٠٠ق.م تقريبًا، في زمن يهوياقيم، وكان من أبناء جيل إرميا.

ينقسم السفر إلى ثلاثة أقسام:

١. الإصحاح الأول: شكوى النبي.

٢. الإصحاح الثاني: إجابة الرب.

٣. الإصحاح الثالث: صلاة حبقوق، التي تنتمي إلى الأدب المزموري.

شكوى حبقوق

إن التحولات الشديدة في الأحداث العالمية وفي مملكة يهوذا جعلت بني جيله في دهشة عظيمة: "تأملوا الأمم وأبصروا. تعجبوا وتحيروا لأني مقبل على إنجاز أعمال في عهدكم إذا حدثتكم بها لا تصدقونها" (١: ٥). فالنبي يؤكد على السرعة المذهلة لتقدم الكلدانيين، "الأمة الحانقة المندفعة .. خيولها أسرع من النمور، وأكثر ضراوة من ذئاب المساء .. فرسانها يندفعون بكبرياء قادمين من أماكن بعيدة، متسابقين كالنسر المسرع للانقضاض على فريسته .. منظر وجوههم إلى قدام" (٦-٩). يصعب هنا تفسير كلمة "قدام" على أنها الشرق، فالبابليون تقدموا غربًا. ويزعم بعض الباحثين أن حبقوق لا يتحدث نهائيًا عن البابليين إنما عن نبوخذ نصر العظيم، الذي احتل جميع بلدان الشرق في تقدمه نحو الشرق، وأصحاب هذا الرأي يقرأون بدلًا من "الكلدانيين – **כשדים**"، "الكيتيين – **כיתיים**". من المثير للاهتمام أن مؤلف "شرح حبقوق" في لفائف البحر الميت، يعتبر الكلدانيين في سفر حبقوق "الكيتيين، خفيفي الحركة، وبطولتهم في المعركة هي القضاء على الأشرار

والعصاة"، والمقصود هنا الرومان. لكن لا يوجد أي أساس للتشكيك في الرواية التقليدية في الكتب المتأخرة التي فسرت أقوال العهد القديم تفسيرًا مناسبًا للوضع الراهن لزمنهم. ويمكن تفسير كلمة "إلى قدام – קדימה" بـ"إلى الأمام"، وليس ناحية الشرق، تحديدًا.

على أية حال الإشكالية الرئيسية لسفر حبقوق ليست المشكلة السياسية لصعود بابل، إنما المشكلة الأخلاقية لحكم مملكة الشر للعالم. فحبقوق يرى في عظمة الكلدانيين وتعاظمهم إثمًا أخلاقيًا عظيمًا في النظام العالمي. وإنه لا يستطيع استيعاب لماذا أعطى إله العالم القوة والعظمة لشعب وثني خائن، "يأتون كلهم للظلم"، والذي يقتل الأمم دائمًا بسيفه بلا رحمة، ويسجد ويذبح لقوته ولآلة حربه. ويتوجه النبي إلى الرب شاكيًا بشدة:

لم تريني إثمًا وتبصر جورًا، وقدامي اغتصاب وظلم؟..

فلم تنظر إلى الناهبين، وتصمت حين يبلغ الشرير من هو أبر منه؟

(١: ٣، ١٣).

رأينا من قبل أن سؤال "لماذا تنجح طريق الأشرار؟" (إرميا ١٢: ١)، قد سُئل في نفس الجيل بواسطة إرميا. غير أن الفرق بين إرميا وحبقوق هو في أن السؤال عند إرميا ينبع من معاناته الشخصية، أما حبقوق فيرى نجاح الشر من الناحية الدولية والتاريخية. ويقول قويفمان إن سفر حبقوق هو السفر الوحيد في العهد القديم الذي يتناول مسألة نجاح الشرق في التقويم التاريخي. لماذا تحكم الشعوب المستبدة العالم؟ وهذا السفر بمثابة سفر أيوب في الأدب النبوي[1].

---

[1] ص ٣٦٥.

وها هي جرائم الكلدانيين فظيعة وبشعة: فهم يقتلون الشعوب الأخرى بلا رحمة (١: ١٧)، وينهبون ويغتصبون (٣)، منافقون أشرار (١٣)؛ والإنسانية كلها مباحة في نظرهم مثل أسماك البحر، ويفعلون فيها ما يحلو لهم (١٤-١٥)؛ فهم نهبوا كل الشعوب وبنوا مدينتهم بالظلم والدماء (٢: ١٢). كل هذا من الناحية الأخلاقية. أما من الناحية الدينية: فهم لا يؤمنون بالله. والعالم مباح. لذلك يسجدون لقوقم الوحشية (١: ١١) ولأسلحتهم (١٦)، ويعبدون تماثيلهم وأصنامهم البكم (٢: ١٨-١٩).

وينتظر النبي رد الرب على شكواه: "على مرصدي أقف، وعلى الحصن أنتصب، وأراقب لأرى ماذا يقول لي، وماذا أُحيبَ عن شكواي" (٢: ١). فيجيب الرب على النبي:

لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد   وفي النهاية تتكلم   ولا تكذب،

إن توانت فانتظرها   لأنها ستأتي إتيانًا   ولا تتأخر. (٢: ٣).

سيحدث سقوط الأشرار في الوقت الموعود عبر المراقبة، "والبار بإيمانه يحيا". فالبار يحيا بإيمانه لأن العدل الإلهي سوف يتحقق في التاريخ الإنساني. وغير مسموح لنا أن نطلب من الرب أن يتحقق العدل على الفور أمام أعيننا. ويكفي أن المؤمن واثق من أن الرؤيا لا تكذب. وعلى الرغم من تباطؤه إلا أنه "سيأتي إتيانًا، ولن يتأخر". والنبي يرى بعين روحه سقوط الشرير، بل إننا نجد في كلامه فكرة الجزاء. الجزاء من جنس العمل: "لأنك سلبت أممًا كثيرة، فبقية الشعوب كلها تسلبك" (٢: ٨)؛ "ويل لمن يسقي صاحبه .. فاشرب أنت أيضًا واكشف غرلتك، تدور إليك كأس يمين الرب، وقياء الخزي على مجدك" (١٥-١٦). إن مشهد شرب كأس الغضب معروف لنا من إرميا وعوبديا، وثلاثتهم من نفس العصر.

كما يرى في رؤياه نهاية الوثنية تمامًا، ويقول مثل إشعياء: "لأن الأرض ستمتلىء من معرفة مجد الرب، كما تغمر المياه البحر" (٢: ١٤، إشعياء ١١: ٩)

حبقوق وإرميا

١. الاثنان من نفس الجيل، وشاهدا الصعود المفاجيء والسريع للكلدانيين.

٢. ربما اختلف تعامل النبيين مع هذه الظاهرة. فإرميا قد اعتبرها نطقًا بالحكم على إسرائيل. والرب هو الذي أرسل الكلدانيين لتنفيذ إرادته. كما يدرك إرميا الحدث التاريخي، ولا يتذمر منه. بل العكس، فهو يوبخ إسرائيل وملكهم الذين لا يخضعون للكلدانيين. وفي المقابل حبقوق لا يستوعب صعود الكلدانيين؛ ويعتبرهم ظاهرة سلبية، من الصعب استيعابها، ويلوم الرب وليس إسرائيل؟ لماذا لا يتدخل في مجرى التاريخ ولماذا لا يحاكم الكلدانيين؟ لا توجد عند حبقوق الفكرة المركزية الموجودة عند إشعياء وإرميا، التي تقول إن الدولة الوثنية العظمى (آشور أو بابل) هي بمثابة "عصا غضب"، يضرب بها الرب الشعوب وخاصة إسرائيل. وفي كلام حبقوق عن الكلدانيين لم يذكر نهائيًا وصراحة لا شعب إسرائيل ولا صهيون أو أورشليم. فكلام حبقوق في هذا الشأن كلام بشري عام بدون أي أساس قومي واضح.

٣. من المشترك بينهما مشكلة نجاح الشرير؛ لكن المشكلة عند حبقوق تم تناولها من الناحية القومية وليس الشخصية.

٤. نجد عندهما ظاهرة مهمة من ناحية جوهر النبوة: التطلع المستمر لكلام الرب؛ فحبقوق يقول: "على مرصدي أقف .. وأراقب ماذا يقول لي" (٢: ١). فالنبي لا يقوم بأي من أفعال السحر أو التصوف كي يجذب إليه الوحي الإلهي، أو

روح الرب، لكن ينتظر كلام الرب في هدوء وصبر، عبر الاستعداد النفسي وعبر تركيز التفكير. ولا يوجد هنا أي إشارة على وجود نشوة. كما نجد في موضعين أن إرميا ينتظر كلام الرب: الأول؛ بعد اللقاء المأساوي مع حننيا بن عزور: النبي لا يجيبه "وانطلق إرميا النبي في سبيله" (٢٨: ١١)، ليفكر ويتأمل وينتظر كلام الرب. الثاني؛ عندما سأله الشعب والرؤساء بعد مقتل جدليا، ما السبيل الذي سيتبعوه؟ فلا يرد إرميا، وفقط بعد عشرة أيام كانت كلمة الرب إليه (٤٢: ٧).

من هذه الفقرات المهمة في سفري حبقوق وإرميا يمكننا أن نتيقن من العقيدة المطلقة للأنبياء بأن كل ما يقولونه هو كلام الرب فقط؛ وعندما لا يكون كلام الرب في فمه، لم "يوجدوه" ولم "يتنبأوا به" بطريقة صوفية، إنما انتظروا وترقبوا حتى يحصلون عليه.

٥. نجد في سفري النبيين أيضًا صلوات. وتحتل صلاة حبقوق الإصحاح الثالث كله.

الأسلوب والوسائل الفنية عند حبقوق

إن نبوءة حبقوق هي إحدى قمم أشعار العهد القديم؛ حيث يوجد فيها مزج رائع؛ كأسلوب إشعياء الذي فيه تعبيرات عاطفية قوية مع قوة الوصف والتصوير. ولغة حبقوق غنية ومركزة ومبلورة (صعبة الفهم أحيانًا)، وتصويرية وشعرية.

نماذج للتقابل العادي: ١: ٦، ١٠، ١٣، ١٤؛ نماذج لتقابل الثلاث شطرات: ١: ٧، ٨، ٩:

يأتون كلهم للظلم، منظر وجوههم إلى قدام،
ويجمعون سبيًا كالرمل.

وأسئلة حبقوق ليست بلاغية، لكن أسئلة انفعالية تنتظر الجواب: ١: ٢، ٣، ١٣، ١٧:

حتى متى يا رب أدعو   ولا تسمع؟

أصرخ إليك الظلم   وأنت لا تخلص؟

هذه الفقرة مكتوبة بوزن الرثاء.

تذكِّر نداءات حبقوق بنداءات عاموس وإشعياء: "ويلٌ للمكسب بيئته كسبًا ... ويلٌ للباني مدينة بالدماء ... ويلٌ، لمن يسقي صاحبه .. ويلٌ، للقائل للعود" (حبقوق ٢: ٩، ١٢، ١٥، ١٩). وتمني سقوط بابل يسميه "مَثَل"، مثل إشعياء (حبقوق ٢: ٦، إشعياء ١٤: ٤)، لأنه فيه رمزًا ومثالًا لسلطة العدل في العالم.

ازدواج الأصوات والكلمات: התמהו תמהו (١: ٥)، פועל פועל (١: ٥)، המר והנמהר (٦)، פרשו פרשיו (٨), מבצר ויצבור، (١٠) وغيرها.

التكرار: تكرار كلمة ظلم خمس مرات (١: ٢، ٣، ٩، ٢: ٨، ١٧)، وذلك للتأكيد على ظلم الكلدانيين. المبرر الأساسي لسقوط الكلدانيين يتكرر مرتين: "لدماء الناس وظلم الأرض، والمدينة وجميع ساكنيها" (٢: ٨، ١٧). كذلك يستخدم حبقوق في كلامه عن خطيئة الوثنية كلمات تتكرر بصور مختلفة: פסל – פסלו تمثال - نحته, יוצר – יצרו الصانع - صنعه, אלילים – אלמים أوثان - بُكم, מורה – יורה معلم - يعلم.

الصور الرئيسية هي:

١. الشرير يحيط البار ويبتلعه (١: ٤، ١٣). وهذا يناسب بطبيعة الحال الشرير الجماعي.

٢. سرعة تقدم الكلدانيين (١: ٨).

٣. تشبيه الناس بسمك البحر، ووصف انتصارات الكلدانيين بالصياد بالمعايير العالمية (١: ١٤-١٧).

٤. نَهَم الكلدانيين في السلب والنهب والظلم لا يعرف الشبع مثل الموت والهاوية (٢: ٥). حتى أن "الحجر يصرخ من الحائط، فيجيبه الجائز من الخشب (٢: ١١).

تظهر الوسائل الفنية للتجسيد والتأنيس في كل النماذج السابقة وفي فقرات أخرى.

الفصل الحادي عشر

يُوئِيل وصَفْنِيَا

يوم الرب في سفر يوئيل

يشكل يوئيل حلقة أخرى في سلسلة الأنبياء الذين لم يوبخوا إسرائيل: ناحوم، عوبديا، حبقوق، يوئيل. فيوئيل وصفنيا متساويان في شيء واحد مهم من ناحية مضمون أقوالهم: فـــ"يوم الرب" هو الموضوع الرئيس في نبوئاتهما.

ساد اعتقاد شعبي في فترة الهيكل الأول في إسرائيل بأن رب إسرائيل سيعاقب كافة الشعوب، أعداء إسرائيل، وسوف يخلّص شعبه ويباركه. لقد اختار الرب إسرائيل وقطع معه عهدًا، بأن يحرس شعبه ويحميه دائمًا، بدون قيد أو شرط. وتبلور التطلع إلى الانتقام من الأمم الأخرى في مفهوم "يوم الرب"، الذي هو يوم وبال على الأمم الأخرى، ولن يتوقف الشعب عن تمني سرعة مجيء هذا اليوم.

قام عاموس، الذي أحدث تغييرًا في القيم فيما يخص المعتقدات الشعبية (مثل: أهمية العبادة، أو اختيار إسرائيل)، بإدخال مضمون ومعنى جديدين على مفهوم "يوم الرب" أيضًا. ففي هذا اليوم لن يحاكم الرب الأمم، إنما سيحاكم إسرائيل، على الرغم من كون إسرائيل هو الشعب الذي اختاره. علاوة على أن يوم الرب سيكون أولًا يوم محاكمة لإسرائيل. فنجد لأول مرة عند عاموس ليس فقط أن مفهوم "يوم الرب" هو يوم وبال، إنما أيضًا تصوير يوم الرب بيوم ظلمة: "ويلٌ للذين يشتهون يوم الرب! يوم الرب! لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلام لا نور .. أليس يوم الرب ظلامًا لا نورًا، وقتامًا لا نور له؟" (عاموس ٥: ١٨–٢٠). لقد

منح هذا التصوير يوم الرب معنىً كونيًا. فمقاييس يوم الرب خرجت عن إطار الإنسانية، وشملت العالم بما فيه.

وبعد عاموس نجد مفهوم يوم الرب موجود عند كل الأنبياء تقريبًا. ولقد أكد عاموس على الطابع الإسرائيلي ليوم الرب. ووحَّد إشعياء الرؤية الشعبية ليوم الوبال على الأمم برؤية عاموس ووسع الخلفية الكونية للوبال: "فإن لرب الجنود يومًا على كل متعظم وعال، وعلى كل مرتفع فيوضع. وعلى كل أرز لبنان العالي المرتفع، وعلى كل بلوط باشان. وعلى كل الجبال العالية، وعلى كل التلال المرتفعة.." (إشعياء ٢: ١٢-٢٢)؛ "وَلْوِلُوا لأن يوم الرب قريب، كخراب من القادر على كل شيء .. فإن نجوم السماء وجبابرتها لا تبرز نورها، تُظلِم الشمس عند طلوعها، والقمر لا يلمع ضوء .. لذلك أزلزل السماوات وتتزعزع الأرض من مكانها، في سخط رب الجنود، وفي يوم حمو غضبه" (١٣: ٦-٢٣).

أما إرميا فلا يستخدم مصطلح "يوم الرب" صراحة، لكنه تنبأ أيضًا بالوبال على كل الشعوب، وعلى كل الأشرار: "هو ذا الشر يخرج من أمة إلى أمة، وينهض نوء عظيم من أطراف الأرض. ويكون قتلى الرب في ذلك اليوم من أقصاء الأرض إلى أقصاء الأرض، لا يندبون ولا يصمون، ولا يدفنون، يكونون دمنة على وجه الأرض" (إرميا: ٢٥: ٣١-٣٣). وسيحل الوبال بطريقتين: بسيف الرب (١٦، ٢٧، ٣١)، وعن طريق شرب كأس السم، "كأس خمس السخط" (١٥). ويوم الرب عند إرميا كما هو عند إشعياء يحل بجميع الشعوب، وكذلك على إسرائيل.

أخذ عوبديا من إرميا صورة كأس السم، لكن يوم الرب عنده هو يوم خلاص إسرائيل، ويكون عوبديا بذلك قد عاد إلى الرؤية الشعبية ليوم الرب. وذلك أمرٌ

طبيعي بعد الخراب، فيوم الشماتة في إسرائيل والوبال عليها قد تحقق. وكذلك يعتبر حزقيال، بعد الخراب، يوم الرب أنه يوم محاكمة الشعوب، ويذكره بنبوءاته على الأمم: "يا ابن آدم تنبأ وقل: هكذا قال السيد الرب: ولولوا: ياللّيوم. لأن اليوم قريب، ويوم الرب قريب، يوم غيم، يكون وقتًا للأمم" (٣٠: ٢-٣). فقد وسَّع الفكرة بشكل خاص، بأن كارثة عظيمة ستحل بالشعوب قبل الخلاص (حرب جوج). ستصعد شعوب كثيرة إلى إسرائيل، "أنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل" (٣٨: ١٩)، وستسقط كل هذه الشعوب على جبال إسرائيل. وفي حرب جوج يحام الرب الشعوب فقط، فهو الذي يحضرهم إلى أرض إسرائيل، ليتقدَّس في نظر الأمم (٣٨: ١٦، ٣٩: ٧، ٢١).

وفي نبوءة يوئيل يحتل يوم الرب مكانة مركزية؛ فيوم الرب عنده أيضًا هو يوم كارثي: "آه على اليوم! لأن يوم الرب قريب. يأتي كخراب من القادر على كل شيء" (١: ١٥، قارن إشعياء ١٣: ٦)؛ "يوم ظلام وقتام، يوم غيم وضباب" (٢: ٢، قارن عاموس ٥: ٢٠، وحزقيال ٣٠: ٣). ويبشر بقدوم يوم الرب ضربة الجراد. ويوم الرب نفسه متداخل مع رؤيا نهاية الأيام عند يوئيل، بل ويتكرر. وكما هو الحال عند عوبديا وحزقيال فإن الرؤية الشعبية (المميزة لفترة ما بعد الخراب)، في أن يوم الرب هو يوم خلاص لإسرائيل، ويوم وبال على الأمم.

توصف المقاييس الكونية للكارثة التي ستسبق الخلاص بشكل تصويري: "وأعطي عجائب في السماء والأرض. دمارًا ونارًا وأعمدة دخان. تتحول الشمس

إلى ظلمة، والقمر إلى دم قبل أن يجيء يوم الرب العظيم المخوف" (٣: ٣-٤)[1]؛ "الشمس والقمر يظلمان، والنجوم تحجز لمعانها. (٤: ١٥)[2].

ما يميز وصف يوئيل هو رؤيته ليوم الرب كيوم للحكم؛ فجميع الشعوب سيتم جمعها في "وادي يهوشافاط" (٤: ٢)، "لأني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية" (١٢). وبماذا تُتَّهم الأمم؟: "وأحاكمهم هناك على شعبي وميراثي إسرائيل، الذين بددوهم بين الأمم، وقسَّموا أرضي" (٢). فالشعوب ستحاكم على الأعمال الشريرة ضد إسرائيل وضد أرضه. ولا شك في أن لدينا هنا فكرة الانتقام والجزاء: "سريعًا بالعجل أرد عملكم على رؤسكم ... وأرد عملكم على رؤوسكم" (٤: ٤، ٧)؛ "مصر تصير خرابًا، وأدوم تصير قفرًا خربًا من أجل ظلمهم لبني يهوذا، الذين سفكوا دمًا بريئًا في أرضهم" (١٩). باع أهل صيدا والفلسطينيون أبناء يهوذا لبني "الياوانيين"، لذلك سيباع أبناؤهم وبناتهم بأيدي بني يهوذا (٤-٨).

كما يصور يوئيل حكم الرب بالمذبحة الكبيرة ضد أعداء إسرائيل. "جماهير جماهير" سيسقطون في "وادي القضاء"، وهو وادي يهوشافاط، الذي حكم عليهم فيه. وهذه الحرب لا هوادة فيها. وبعكس إشعياء ينادي يوئيل كل رجال الحرب: "اطبعوا سكاتكم سيوفًا، ومناجلكم رماحًا" (١٠).

لكن بعد القضاء على جميع أشرار العالم ستأتي أيام طيبة على إسرائيل والبشرية كلها. "كل من يدعو باسم الرب ينجو" من هذا الوبال (٣: ٥). وسيحظى كل المؤمنين بالرب بوحي سامٍ: "ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر،

---

[1] الإصحاح الثاني: ٣٠-٣١، في الترجمة العربية للعهد القديم.

[2] الإصحاح ٣: ١٥ في الترجمة العربية للعهد القديم.

فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويحلم شيوخكم أحلامًا، ويرى شبابكم رؤى" (٣: ١). الحديث هنا بالطبع ليس عن نبوءة حقيقية، فمن غير المحتمل بالتأكيد أن يصبح جميع البشر أنبياء، ولا حتى في أيام المسيح. لكن الحديث عن أحلام ورؤى، بوحي من روح الرب. وكنا قد عرفنا من قبل أن هناك فرق بين روح الرب التي هي أصل كل وحي إلهي (ويكون لها أحيانًا في العهد القديم شكل سلبي،كما هو في كلام ميخا بن يَمْلَة عن روح الكذب في فم أنبياء أخآب)، وبين الحديث الإلهي الحي، الذي يبلغ للنبي عبر التجلي الإلهي له. على أية حال من الضروري أن نشير إلى حقيقة، أن نبي الانتقام والجزاء والحرب ضد كارهي إسرائيل يرى لكل البشر رؤيا سمو روحي ووحي إلهي.

في رؤيا الخلاص عند يوئيل أفكار وتأثيرات من مختلف الأنبياء: إشعياء، عاموس، عوبديا، حزقيال. بتأثير من عاموس يقول يوئيل: "ويكون في ذلك اليوم أن الجبال تقطر عصيرًا، والتلال تفيض لبنًا" (٤: ١٨)، وكما يتمنى حزقيال أيضًا أن تخرج مياه كثيرة من بيت الرب وتسقي قنوات يهوذا و"وادي السنط" (غرب البحر الميت فيما يبدو). ومثير للاهتمام الاتصالات الكثيرة بين يوئيل وعوبديا (خاصة في عوبديا ١، ١٠، ١٥، ١٧). كما من المكن العثور على مرادفات لكلام يوئيل في زكريا ١٤: ٣، ٨، ٩، ١١.

وصف الجراد في سفر يوئيل

ليس واضحًا إن كان يوئيل وصف ضربة جراد حقيقية أم خيالية. على أية حال فإن وصف يوئيل واقعي للغاية. فهو يبدأ بنداء دهشة. فالجراد الكثير لم يشاهد على مر الأجيال: "اسمعوا هذا أيها الشيوخ وأصغوا يا جميع أهل الأرض! هل جرى مثل هذا في أيامكم، أو في أيام آبائكم؟ أخبروا بهذا أبناءكم وليخبر أبناؤكم

أبناءهم لينقلوه إلى الأجيال القادمة"(١: ٢-٣). ويصور يوئيل الضرر الكبير الذي أوقعه الجراد في الأرض. فالمحاصيل التهمت، وييس الكرم، وابيضت أشجار التين؛ والزيتون والرمان والتمور والتفاح "كل أشجار الحقل" يبست. وهلكت الحنطة والشعير. ولم يعد هناك مرعى للغنم. "تلتهم النار ما أمامها، ويحرق اللهيب ما خلفها. الأرض قدامه كجنة عدن وخلفها صحراء موحشة" ٢: ٣).

ويتسبب الخراب الذي جلبه الجراد على المزروعات في حزن شديد للإنسان والحيوان على السواء. ويبكي السكارى "على العصير لأنه انقطع من أفواههم". وينتحب الكهنة "لأن تقدمات الدقيق والخمر قد انقطعت عن بيت الرب." والفلاحون والكرامون حزانى، ولا أحد سعيد "زالت البهجة من أبناء البشر". حتى البهيمة تتأوه. ويطالب النبي الشعب كله بالنحيب "كعروس مؤتزرة بمسح من أجل بعل صباها" (١: ٨). ويتوجه يوئيل إلى الكهنة تحديدًا، ليلبسوا المسوح، ويقدسوا الصوم، وينادوا بالاعتكاف، ويصرخوا إلى الرب. فإذا تاب الجميع توبة نصوحة، فسيعفو الرب عنهم "لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر" (٢: ١٣، وكذلك يونان ٤: ٣).

يوصف الجراد نفسه بعدة صور: له أسنان أسد وأضراس لبوءة. كمنظر الخيل وكالأفراس يركضون. صوتها يشبه صوت "المركبات على رؤوس الجبال"، و"كزفير لهب تأكل قشًا". كثيرة العدد. يركض كالأبطال، كرجال الحرب، ولا شيء يستطيع إيقافها. والجراد هو جيش الرب الذي يبشِّر بقدوم يوم الرب: "يجهر الرب بصوته في مقدمة جيشه، لأن جنده لا يحصى لهم عدد، ومن ينفذ أوامره يكون مقتدرًا. لأن يوم الرب عظيم ومخيف جدًا، فمن يتحمله" (٢: ١١).

نجد في عدة مواضع في العهد القديم ضربة الجراد، فهي واحدة من ضربات مصر العشر وأحد أعظم مصائب أرض إسرائيل والشرق عامة منذ القدم وحتى اليوم. فالجراد هو من لعنات فصل التوبيخ (التثنية ٢٨: ٣٨). كما ذكر عاموس هجوم الجراد في عصره (٧: ١). وبشكل فني وتصويري وحيوي رائع يصور يوئيل كل التفاصيل في صورة الجراد: حركته، ركضه، صوته، قوته، الأضرار التي يسببها، وكذلك مشاعر الإنسان وانطباعات الإنسان والحيوان. ويرتقي الوصف إلى مستوى رفيع من خلال النظرة الشاملة إلى الجراد على أنه جيش الرب، الذي يبشر بقدوم يوم الرب.

زمن يوئيل وسفره

لا تذكر افتتاحية سفر يوئيل شيئًا عن زمن يوئيل؛ لذلك اختلفت الآراء في هذا الشأن. فقويفمان يعتقد أنه تنبأ في أيام منسَّى، غير أن معظم الباحثين يرون أن يوئيل عاش في أيام الهيكل الثاني؛ ومبرراتهم لذلك:

١. لم يرد في السفر أي ذكر لمملكتي إسرائيل ويهوذا ولا ملوكهما.

٢. التعامل الإيجابي ليوئيل مع العبادة يتماشى مع تعامل الأنبياء الذين تنبأوا بعد حزقيال. فيوئيل لا يبكي الأضرار التي سيتعرض لها الملوك والرؤساء، لكن الكهنة وعبادة الرب في الهيكل: "لأن تقدمات الدقيق والخمر قد انقطعت عن بيت الرب، وانتحب الكهنة خدَّام الرب" (١: ٩)؛ "أيها الكهنة اتشحوا بالمسوح ونوحوا. ولولوا يا خدام المذبح، تعالوا وبيتوا ليلتكم بالمسوح يا خدام إلهي. لأن تقدمات الدقيق والخمر قد منعت عن هيكل الله" (١٣)؛ "ألم ينقطع الطعام أمام عيوننا، ألم يتلاش الفرح والغبطة من بيت إلهنا؟" (١٦)؛ "ليبك الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح" (٢: ١٧). فالكهنة وعمل الهيكل على رأس اهتمامات يوئيل.

كما أن الحديث هنا ليس عن دولة ومملكة إنما عن الشعب من الفلاحين الذين يقودهم الكهنة. ويتماشى هذا الوضع الاجتماعي والسياسي مع بداية عصر الهيكل الثاني. كما يستنتج "سيجل" من حقيقة أن يوئيل لا يوبخ الأم على آثامها بأنه تنبأ بعد إصلاحات عزرا ونحميا.

٣. الخلفية التاريخية لسفر نحميا غير واضحة، لكن كلامه يشير إلى أحداث وقعت بعد خراب الهيكل: "لأنه في تلك الأيام، وفي ذلك الحين عندما أَرُدُّ سبي يهوذا وأورشليم، أجمع الأمم كلها وأحضرهم إلى وادي يهوشافاط، وأحاكمهم هناك من أجل شعبي وميراثي إسرائيل، لأنهم شتتوهم بين الشعوب واقتسموا أرضي." (٤: ١-٣)؛ "وبعتم يهوذا وأبناء أورشليم إلى الأغارقة، لتبعدوهم عن تخوم أرضهم" (٦). وعلى الرغم من أن البعض يؤخر زمن يوئيل إلى حكم السلوقيين ليهوذا (سنة ٢٠٠ قبل الميلاد تقريبًا)، إلا أن الرأي الأكثر قبولًا هو رأي قلوزنر بأن يوئيل تنبأ بعد استكمال بناء الهيكل سنة ٥٠٠-٤٨٠ق.م تقريبًا.

ينقسم السفر إلى قسمين: وصف الجراد، الإصحاحات ١-٢؛ رؤيا يوم الرب، الإصحاحات ٣-٤. أما القسم الأول فهو بصري، تصويري. والجزء الثاني فصوتي، نبوئي. وضربة الجراد هي وبال على إسرائيل (القسم الأول) ويوم الرب هو خلاص لإسرائيل (القسم الثاني). والجراد يبشر باقتراب قدوم يوم الرب. ويجب التأكيد على أن ضربة الجراد، هي بالطبع، وبال على إسرائيل، لكنها لا تعتبر عقابًا على الخطايا؛ فيوئيل ليس نبي توبيخ، ولم يرد في أي موضع أن الشعب يستحق هذا العقاب. فالشعب يجب أن يصلي إلى الرب ويتوب إليه توبة نصوحة، ليوقظ رحماته، وليس من أجل التكفير عن ذنوب سابقة. وحتى في الصلاة إلى الرب (٢: ١٧) لا يوجد طلب بالمغفرة للذنوب إنما "اعف عن شعبك يا رب، ولا تجعل

ميراثك مثار احتقار وهزء بين الأمم. فيقولوا بين الشعوب: أين إلهكم؟" لدينا هنا رؤية حزقيال، بأن الخلاص الكامل لن يأتي إلا بعد كارثة تسبقه على أرض إسرائيل. وضربة الجراد ترادف، من هذه الناحية، حرب جوج. فكلاهما لا يعتبران عقابًا على خطايا إسرائيل، إنما وسيلة لتعظيم اسم الرب بين الشعوب وفي إسرائيل: "فتدركون أني في وسط إسرائيل، وأني أنا هو الرب إلهكم وليس غيري، ولن يخزى شعبي ثانية" (٢: ٢٧)؛ "فتدركون أني أنا هو الرب إلهكم الساكن في صهيون جبلي المقدس" (٤: ١٧).

ويوجد في القسم الوصفي كذلك بعض فقرات الرؤى للربط بين القسمين: ١: ١٥، ٢: ١، ١١.

صَفَنْيَا: النبي وسفره

تشير افتتاحية السفر إلى زمن النبي ونسب آبائه حتى الجيل الرابع: "كلمة الرب التي صارت إلى صفنيا بن كوشي بن جدليا ابن أمريا بن حزقيا في أيام يوشيا بن آمون ملك يهوذا". من ناحية حساب الأزمنة، من المحتمل أن يكون حزقيا المذكور هنا هو ملك يهوذا (وهكذا يعتقد الحاخام أبراهام بن عزرا). لكن العجيب أن المكتوب لا يضيف إلى هذا الاسم كلمة "ملك يهوذا". على أي حال لا شك في أن صفنيا كان من عائلة عريقة جدًا. ويمكن أن نستخلص من توبيخه الشديد أنه تنبأ قبل إصلاحات يوشيا، في السنوات الأولى لملكه، ٦٣٩-٦٢١ق.م، قبل استئصال الوثنية من يهوذا والتي كانت موجودة في عصر منسى وآمون.

ينقسم السفر إلى ثلاثة أقسام كالتالي:

١. ١:٢-٣:٢؛ نبوءة عن يوم الرب.

٢. ٢: ٤–١٥؛ نبوءة عن الأمم.

٣. الإصحاح الثالث؛ توبيخ ورؤيا خلاص لأورشليم.

يوم الرب عند صفنيا

الخطان الرئيسان في مفهوم يوم الرب عند صفنيا هما:

١. الأبعاد الكونية والألوان السوداء: "سأمحو محوًا كل شيء عن وجه الأرض. أبيد الإنسان والحيوان وطيور السماء وسمك البحر، وأقضي على الأشرار ومعاثرهم. وأستأصل البشر عن وجه الأرض، يقول الرب" (١: ٢–٣)؛ "يوم غضب هو ذلك اليوم، يوم ضيق وعذاب، يوم خراب ودمار، يوم ظلمة واكتئاب، يوم غيوم وقتام. يوم دوي بوق وصيحة قتال ضد المدن الحصينة والبروج الشامخة .." (١: ١٤–١٨). لا يوجد عند أي نبي مثل هذا التعبير الشديد للغاية عن الكارثة والفناء الذي سيوقع به الرب على الإنسان وجميع الحيوانات.

٢. ولن يحل الوبال على الأمم فقط، إنما على إسرائيل أيضًا، بل وبخاصة على إسرائيل. وبذلك يختلف صفنيا عن يوئيل ويشبه عاموس. فرؤيا يوم الرب تصاحبها نبوءات توبيخ صارمة. لكن بخلاف عاموس، لا يركز صفنيا على الآثام في المجال الأخلاقي. فآثام يهوذا أولها الوثنية وعاداتها، والتي كانت عبارة عن خليط من التأثير الكنعاني المحلي والتأثير الأشوري للحكم الأجنبي: "وأقطع من هذا المكان بقية البعل ... والساجدين على السطوح لجند السماء .. أني أعاقب الرؤساء وبني الملك وجميع اللابسين لباسًا غريبًا ... أعاقب كل الذين يقفزون من فوق العتبة، الذين يملأون بيت سيدهم ظلمًا وغشًا." (١: ٤–٥، ٨–٩). حقيقة أن صفنيا ليس لديه توبيخ مباشر للملك، إنما كما ذُكر عن "الرؤساء وبني الملك"؛ دليل على

أن يوشيا كان لايزال تحت تأثير رؤسائه. ولقد وضعت إصلاحات يوشيا الدينية (٦٢١ق.م) نهاية للوثنية في يهوذا.

يتهم صفنيا أهل أورشليم وأثرياءها تحديدًا (١: ١٨)، بخطايا أخرى: فهم لا يطلبون الرب (١: ٦)، ولا يؤمنون بمراقبته ("القائلين في قلوبهم: إن الرب لا يحسن ولا يسيء")، وغير مبالين، "المتربعون فوق قاذوراتهم" (١٢). وأكبر فساد موجود لدى طبقة قادة الشعب: "رؤساؤها في داخلها أسود زائرة، وقضاتها كذئاب المساء الجائعة، التي لا تبقى شيئًا من فرائسها إلى الصباح. أنبياؤها مغررون وخونة وكهنتها يدنسون المقدس ويتعدون على الشريعة" (٣: ٣-٤). وبسبب كل هذه الجرائم يهدد صفنيا بأن يوم الرب سيكون يوم ذبيحة (١: ٧-٨)، سيستأصل فيه كل الأشرار والآثمين. ويتوجه صفنيا إلى أورشليم مناديًا: "المتمردة النجسة، المدينة الجائرة".

رؤيا صفنيا للخلاص

يشبه سفر صفنيا سفر حزقيال من حيث البناء: في البداية، خراب ووبال على إسرائيل؛ ثم نبوءات وبال على الأمم؛ وفي النهاية رؤيا الخلاص. إن رؤيا الخلاص عند صفنيا رؤيا قومية عالمية على حد سواء. وبتأثير من إشعياء يتنبأ صفنيا أيضًا بإنقاذ "بقية إسرائيل" (٣: ١٣). ولا يعد صفنيا هذه البقية بأهداف سياسية واقتصادية واعدة. على العكس، فهم سيصبحون "شعبًا بائسًا ومسكينًا، فيتوكلون على اسم الرب" (٣: ١٢)، لكنهم سيمتازوا بصفات أخلاقية سامية، "لا يفعلون إثمًا، ولا يتكلمون بالكذب، ولا يوجد في أفواههم لسان غش" (١٣)، كما لن يكون بينهم متكبرون ولا مغرورون (١١).

إن يوم الرب لن يطهِّر إسرائيل فقط، إنما البشرية كلها: "عندئذ أنقِّي شفاة الشعب ليدعوا جميعهم باسم الرب ويعبدوه جنبًا إلى جنب" (٣: ٩). تشير هذه الفقرة بالطبع إلى قصة برج بابل الذي كان محاولة متأخرة من البشرية للتمرد على الرب، لذلك بلبل الرب ألسنتهم؛ لكن في المستقبل سيعيد الرب للبشرية لغة واحدة واضحة، تتحد فيها البشرية على الإيمان بالرب. لقد أخطأ بناة برج بابل بإثم الكِبْر والغرور، وصفنيا يطلب التواضع ويدين الكِبْر (٢: ١٠، ١٥، ٣: ١١-١٢). وفي كل هذا يتجلى تأثير إشعياء أمام الأعين.

إن إسرائيل هو مركز الرؤيا العالمية عن الخلاص الروحاني للبشرية؛ فصفنيا لم يتنبأ بمجد أورشليم ولا بسيطرتها السياسية على الشعوب الأخرى؛ فهي لن تحتاج إلى قوة سياسية وعسكرية لأن الرب هو حاميها، وبطلها ومخلِّصها. وبما أن جميع الشعوب سوف تردد اسم الرب، فلن يخشى شعب إسرائيل العدو ثانية، وسيصبح موضع تمجيد ومدح بين كل شعوب الأرض (٣: ١٤-٢٠).

يوئيل وصفنيا

١. يوم الرب موضوع رئيسي في نبوءاتهما، لكن عند يوئيل ستنزل الكارثة بالأمم فقط. أما عند صفنيا فهي ستنزل بإسرائيل كذلك. والألوان القاتمة والمفهوم الكوني ليوم الرب مشترك بينهما، غير أن أبعاد الكارثة وهولها أكبر بكثير في سفر صفنيا.

٢. يوم الرب في سفر يوئيل أساسه الحكم؛ وفي سفر صفنيا يوم ذبيح وحرب.

٣. يوئيل ليس نبي توبيخ، وهو في ذلك يشبه ناحوم وعوبديا وحبقوق؛ أما صفنيا فهو نبي توبيخ يسير على درب عاموس وإشعياء.

٤. في رؤيا الخلاص فكرة مشتركة بين يوئيل وصفنيا: الرسالة الروحانية لكل البشرية؛ لكن لا توجد عند يوئيل فكرة الفقير المسكين، الذي سيكتفي بسعادته الروحية فقط.

الفصل الثاني عشر

حَجَّي وزكريَّا

الخلفية التاريخية

١. قائمة تواريخ

- ٥٥٨ — ٥٢٩ ق.م احتلال كورش الثاني لبابل.
- ٥٣٩ ق.م احتلال كورش لبابل.
- ٥٣٨ ق.م إعلان كورش عن الهجرة الأولى بقيادة شيشبصر.
- ٥٣٦ ق.م وضع أساس الهيكل.
- ٥٢٩ — ٥٢٨ ق.م قمبيز.
- ٥٢١ — ٤٨٦ ق.م احتلال قمبيز لمصر.
- ٥٢١ — ٤٨٦ ق.م داريوس الأول.
- ٥٢٠ ق.م نبوءة حجي واستئناف بناء الهيكل.
- ٥١٦ ق.م الانتهاء من بناء الهيكل.
- ٥٢٠-٥١٨ ق.م نبوءات زكريا.
- ٤٨٦ — ٤٦٥ ق.م أَحَشوِيروش.
- ٤٦ — ٤٢٤ ق.م أرتحشتا الأول.
- ٤٥٨ ق.م هجرة عزرا.
- ٤٤٥ ق.م هجرة نحميا.

٢. الأحداث الرئيسية في عصر حجي وزكريا

يحكي الإصحاح الأول من سفر عزرا أنه في أعقاب إعلان كورش، عادت إلى أورشليم الموجة الأولى من المهاجرين من بابل، وعلى رأسهم شيشبصر؛ رئيس يهوذا (١: ٨). ويُعتقد أن شيشبصر هو شنأصر بن يكُنيا (أخبار الأيام الأول ٣: ١٨)، الذي ذُكر أيضًا في الإصحاح الخامس (١٤، ١٦)، ولا يجب اعتباره زرُبابل الذي رأس الموجة الثانية من المهاجرين. ولَقَب "رئيس يهوذا" أطلقه عليه بنو شعبه، لأن كورش عيَّنه واليًا. كانت الإمبراطورية الفارسية مقسمة إلى محافظات كبيرة أطلق عليها أقاليم، يرأسها حاكم. ويقسم كل إقليم إلى ولايات صغيرة، ولكل ولاية والي. كان حكام المحافظات من الفرس؛ لكن حكام الولايات الصغيرة كانوا من أهل المكان أيضًا. وكان شيشبصر ومن بعد زربابل أول من حصل على تفويض رسمي بحكم منطقة أورشليم؛ لكنهما كانا يخضعان للحكم الفارسي، وفي الأراضي المجاورة ليهوذا حكم الآخرون بشكل أقل، الذين نظروا نظرة سوء إلى المهاجرين من بابل وعلى رأسهم الوالي الجديد. حصل شيشبصر من كورس على كنوز الهيكل (١: ٧-١١)، وكان أول عمل قام به عند وصوله أورشليم هو وضع أساس بناء الهيكل (٥: ١٦). ولا نعلم المدة التي مكثها شيشبصر في أورشليم؛ على أية حال فهو لم يواصل عملية بناء الهيكل.

وفي الإصحاح الثاني نقرأ عن الموجة الثانية من المهاجرين "الذين جاءوا مع زربابل يهشوع ..". وكان على رأس هؤلاء المهاجرين قائدان: زربابل بن شألتيئيل — والي – زعيمًا سياسيًا؛ ويهوشع بن يهوصادق — كاهن – زعيمًا دينيًا. كان زربابل من نسل يهوياكين ملك يهوذا (أخبار الأيام الأول ٣: ١٦-١٩). وكان يوصاداق ابن سرايا، الكاهن الأكبر في أيام صدقيا، الذي قتل في رَبْلَة (الملوك الثاني

٢٥: ١٨–٢١). كان يوصاداق نفسه من بين المنفيين إلى بابل (أخبار الأيام الأول ٥: ٤١)، وكان يشوع حفيد الكاهن الأكبر الأخير في فترة الهيكل الأول، استمرارًا لنسل الكهانة العظمى من بيت صادوق. لم يحظ زربابل بتاج الملك، لكن كان حاكمًا من بيت يهوذا. ولقد بعثت بلا شك حقيقة أن زعيمين يعتبران استمرارًا للزعامة السياسية والدينية في فترة الهيكل الأول؛ الأمل والتطلعات في قلب العائدين بتحقيق نبوءات الخلاص الحماسية التي تنبأ بها لهم الأنبياء.

غير أن الواقع كان مختلفًا تمامًا عن وعود الأنبياء؛ فالعائدون إلى البلاد وجدوها مهجورة وجرداء؛ ومحاطين بالأعداء: السامريون، والعمونيون، والمؤابيون، والأدوميون. وكانت أورشليم منتهكة، وهيكل الرب مدمَّر. وكانت هناك حاجة إلى إعادة بناء المدينة الخربة وتوفير الرعاية الأمنية والاقتصادية لآلاف المهاجرين. لكن الاحتياجات المادية لم تكن الوحيدة؛ فالضرورة الملحة كانت استئناف الحياة الدينية وشعائرها. لذلك بني المذبح أولًا "ليصعدوا عليه محرقات كما هو مكتوب في شريعة موسى رجل الله"، على الرغم من عدم تشييد بيت الرب بعد.

يبرهن تعبير "كما هو مكتوب في شريعة موسى" على أنه بدأ في بابل جمع الكتابات المقدسة. فتوراة موسى لم تعد توراة شفهية، فقد تم جمعها في سفر واحد مقدس، مكتوب وملزم للطائفة اليهودية.

على الرغم من أن شيشبصر بدأ وضع أسس الهيكل إلا أنه لم يكملها "وهيكل الرب لم يكن قد تأسس" (عزرا ٣: ٦). وواصل زربابل ويشوع العمل "وفي السنة الثانية من مجيئهم إلى بيت الله إلى أورشليم، في الشهر الثاني" (٣: ٨)، أي أنه في سنة ٥٣٦ ق.م. في بداية العمل كانوا تحت ضغط وتهديدات أعدائهم: "لأنه كان عليهم رعب من شعوب الأراضي" (٣: ٣). و"شعوب الأراضي" تعبير شامل عن

الشعوب المختلفة التي استوطنت الأرض بعد سبي أسباط إسرئيل ويهوذا. لكن على الرغم من "التهديد" إلا أن أساس الهيكل أدى إلى حماس كبير بين المهاجرين: "ولما أسس البانون هيكل الرب، أقاموا الكهنة بملابسهم بأبواق، واللاويين بني آساف بالصنوج ... وكل الشعب هتفوا هتافًا عظيمًا بالتسبيح للرب لأجل تأسيس بيت الرب. وكثيرون من الكهنة واللاويين ورؤوس الآباء الشيوخ، الذين رأوا البيت الأول، بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم، وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح. ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب، لأن الشعب كان يهتف هتافًا عظيمًا حتى أن الصوت سمع من بعد" (عزرا ٣: ١٠-١٣).

لقد كان الفرح بتأسيس الهيكل عظيمًا، لكنه لم يستمر وقتًا طويلًا، وتوقف العمل. ما سبب ذلك؟ بالطبع كانت هناك أسباب داخلية وكذلك خارجية. ويذكر سفر عزرا الأسباب الخارجية: "وكان شعب الأرض يرخون أيدي شعب يهوذا ويذعروهم عن البناء. واستأجروا ضدهم مشيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورش ملك فارس وحتى ملك داريوس ملك فارس" (٤: ٤-٥). "أعداء يهوذا وبنيامين" الذين اقترحتم مشاركتهم في بناء الهيكل قد رفضه زربابل" (٤: ١-٢)، بذلوا جهودًا كبيرة من أجل تعطيل العائدين من صهيون ووقف عملهم. وعلى الرغم من أن المهاجرين استطاعوا الاعتماد على إعلان كورش، لكن تنفيذ هذا الإعلان على الأرض كان مرتبطًا أكثر بسلطات المحافظات والمحليين. واتهم أعداء يهوذا وبنيامين المهاجرين بالنوايا التمردية وأرسلوا إلى ملوك فارس كتابات كيدية وواشية عن أهل يهوذا وأورشليم؛ ونجحوا في جهودهم. واستمر هذا الوضع ١٦

سنة، طوال أيام كورش (٥٣٦-٥٢٩ ق.م)، وقمبيز (٥٢٩-٥٢٢ ق.م) وحتى السنة الثانية من حكم داريوس (٥٢٠ ق.م).

وفي السنوات الأخيرة من حكمه غاب قمبيز عن فارس، واستولى أحد السحرة على حكم فارس وميدي. واندلعت الاضطرابات في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية، ونجح داريوس في التغلب على معارضيه، وقمع الاضطرابات ووضع شكل للإمبراطورية الفارسية لحوالي مائتي سنة. لقد كان بالتأكيد أحد عباقرة الإدراة في تاريخ البشرية. فقد ورث أراضٍ شاسعة ومنحها أنماط حكم مستقرة. ومهَّد الطرق، ونظَّم الاتصالات البريدية المفيدة (عبر الفرسان)، وسَكَّ عملة خاصة للاستخدام في أنحاء المملكة (الدريك أو الدراخما)، وبنى أسطولًا من السفن، وظهرت لغة تجارية مشتركة وهي الآرامية التي تحدثوا وكتبوا بها في جميع أنحاء الإمبراطوية، وكذلك في يهوذا. وتم في عهده استئناف بناء الهيكل (في السنة الثانية من حكمه — ٦٢٠ ق.م)، واستكمل (في السنة السادسة لحكمه — ٥١٦ ق.م). واستمرت عملية البناء أربع سنوات (عزرا ٦: ١٥)، وبعد انتهاء البناء "دشنوا بيت الله هذا بفرح" وبتقديم القرابين.

بعثت الاضطرابات في بداية ملك داريوس أمالًا جديدة. فقد كانت تلك هي اللحظة المناسبة لتقوية الاستيطان الصغير في يهوذا واستئناف العمل في الهيكل. وكانت تلك بالفعل المهمة التاريخية لحجَّي وزكريا، الذي حفَّزُوا الشعب وزعماءه من أجل استئناف العمل: "فتنبأ النبيان حجي النبي وزكريا بن عدو لليهود الذين في يهوذا وأورشليم باسم إله إسرائيل عليهم. حينئذ قام زربابل بن شألتيئيل ويشوع بن يوصاداق وشرعا يبنيان بيت الله الذي في أورشليم، ومعهما أنبياء الله

يساعدونهما (عزرا ٥: ١–٢)؛ "وكان شيوخ اليهود يبنون وينجحون حسب نبوة حجي النبي وزكريا بن عدو" (عزرا ٦: ١٤).

حجَّي: الرجل وسفره

ليست لدينا تفاصيل عن شخصية حجي وأصله، لكن أوقات نبوءته مفسرة في سفره. فالتسجيل الدقيق لتواريخ النبوءات من سمات الأنبياء الذين تنبأوا بعد الخراب، وذلك بتأثير بابلي بالتأكيد. يحتوي سفر حجي على التواريخ التالية:

١. ١: ١: "في السنة الثانية لداريوس الملك، في الشهر السادس في أول يوم من الشهر" بداية شهر أيلول ٥٢٠ ق.م

٢. ١: ١٥، ٢: ١: "في السنة الثانية عشرة لداريوس الملك. في الشهر السابع في الحادي والعشرين من الشهر". ٢١ تشرين من نفس السنة.

٣. ٢: ١٠: "وصارت كلمة الرب ثانية إلى حجي في الرابع والعشرين من الشهر قائلًا". ذكرت النبوءة الرابعة في نفس يوم النبوءة الثالثة. وبذلك تكون الفترة من نبوءة حجي الأولى والرابعة هي أربعة أشهر تقريبًا (من بداية شهر أيلول وحتى ٢٤ من شهر كسلو).

يُعتقد أن النشاط النبوي لحجي بدأ قبل النبوءة الأولى المذكورة في السفر؛ حيث يظهر كنبي معروف ومشهور. وسمِّيَ النبي حجي خمس مرات (١: ١، ٣، ١٢؛ ٢: ١، ١٠)، ومرة واحدة "ملاك الرب" (١: ١٣). كما تثبت حقيقة أن كلامه كان له تأثير كبير على الشعب وزعمائه؛ أنه كان معروفًا لديهم كنبي ورسول الرب. وورود اسم حجي في عزرا ٦: ١٤ إنما يدل على نشاطه المستمر حتى بعد الشهور الأربعة المذكورة.

يحتوي السفر على إصحاحين من ٣٨ فقرة. لكنه لا يحتوي فيما يبدو على جميع نبوءات حجي، إنما فقط على النبوءات الأربعة المرتبطة ببناء الهيكل. وتقسيم السفر واضح:

١. ١: ١–١٥: المطالبة ببناء الهيكل، وبداية البناء.

٢. ٢: ١–٩: أقوال تشجيع لزربابل ويهوشع ولكل شعب الأرض.

٣. ٢: ١٠–١٩: سؤال حجي للكهنة.

٤. ٢: ٢٠–٢٣: نبوءة لزربابل.

يقول الدكتور مردخاي. زر–كافود في مقدمته لسفر حجي: "يصعب الافتراض أن بكلماته القصيرة الواردة في هذا السفر الصغير أنه استطاع تغيير نظرة الشعب إلى مسألة بناء الهيكل، وجعلها واقعية، والتغلب على كافة العوائق التي واجهته، لأنه من غير المعقول أن يسمى حجي نبيًا بسبب نبوءة استمرت أربعة شهور في المجمل. لذلك يجب القول إن أمامنا جزء فقط من نبوءة هذا النبي. ويرى الحاخامات: أن النبوءة التي كان هناك حاجة إليها لأجيال تم تدوينها؛ والتي لم يكن هناك حاجة إليها لم تدوَّن"[١].

النشاط النبوي لحجي

موضوعات نبوءة حجي غير كثيرة، فكل نبوءته مرتبطة بالمشاكل الواقعية الملحة لعصره؛ خاصة مشكلة بناء الهيكل. ولقد رأينا أن سفر عزرا قد ذكر الأسباب الخارجية لتوقف العمل. ويتهم حجي أيضًا الشعب نفسه؛ فترسم كلماته صورة قاتمة للوضع الاقتصادي ليهود أورشليم:

---

[١] מגילה יד ע"א

"زرعتم كثيرًا ودخلتم قليلًا، تأكلون وليس إلى الشبع، تشربون ولا تروون، تكتسون ولا تدفأون، والآخذ أجرة يأخذ أجرة لكيس منقوب" (١: ٦)؛ "لذلك منعت السماوات من فوقكم الندى، ومنعت الأرض غلتها. ودعوت بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى ما تنبته الأرض وعلى الناس وعلى البهائم، وعلى كل أتعاب اليدين" (١: ١٠-١١)؛ "عندما كان يقبل أحد على كومة حبوب ظنًا منه أن الأرض غلت عشرين مكيالا، يجد أنها لم تغل سوى عشرة فقط. وحين يدنو من المعصرة ليعرف ملء خمسين وعاء لا يجد إلا عشرين." (٢: ١٦)؛ "قد ضربتكم باللفح وباليرقان وبالبرد في كل عمل أيديكم" (٢: ١٧).

لم يكن هناك أي إمكانية اقتصادية للتفرغ لعمل الهيكل وبذل الجهد والمال فيه. غير أن النبي يزعم أن فقرهم ليس السبب لعدم إكمال الهيكل؛ إنما ذلك نتيجة إهمالهم. ويكرر عدة مرات صيحات: "اجعلوا قلبكم على طرقكم!" (١: ٥، ٧؛ ٢: ١٥، ١٨). فهم يجلسون في بيوتهم "المغشاة" (لها سقف)، وبيت الرب خراب (١: ٤). وكل واحد منهم يحرص على مصلحته الشخصية فقط (٩). ولا يوبخ حجي الشعب على الآثام الأخلاقية، وشكواه الوحيدة هي عدم مبالاتهم ببيت الرب الخراب؛ ويعد أنه في نفس اليوم الذي سيستكمل فيه البناء، سوف يبارك الرب أعمالهم (٢: ١٩). تتضح هنا كثيرًا العلاقة الإيجابية بالعبادة التي يتسم بها الأنبياء من حزقيال ومن تلاه؛ فكل تفكير حجي يتركز على الهيكل. والرب يريد العبادة: "اصعدوا إلى الجبل وأتوا بخشب وابنوا البيت، فأرضى عليه وأتمجد، قال الرب" (١: ٨). وهو يجلب عليهم الضربات والمشكلات، لأنهم لا يبنون بيته ١: ٩-١٠). يجب التأكيد على أن حجي يتوجه إلى قلب مستمعيه: "اجعلوا قلوبكم!"

كما يظن أن أساس العبادة هو طهارة القلب، وليس العبادة الخارجية فقط، لكن رسالته الخاصة إلى جيله تتركز على العمل الخارجي لبناء الهيكل الذي كان ضرورة ذلك الوقت.

لقد حققت كلمات حجي أهدافها، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول، بعد ثلاثة أسابيع من نبوءته الأولى بدأ العمل. وهذا أحد النماذج القليلة لدى الأنبياء الأواخر، لنبي نجح كلامه من الناحية العملية (١: ١٢-١٥). وبعث هذا النجاح في روحه الثقة في مستقبل مُشرِق للهيكل:

"من بقي منكم، ممن شاهدوا هذا الهيكل في مجده السابق؟ كيف ترونه الآن؟ أليس هو في نظركم كلا شيء؟ ... يقول الرب القدير. بمقتضى عهدي الذي أبرمته معكم عندما خرجتم من ديار مصر. إن روحي ماكث معكم فلا تفزعوا. لأنه هكذا يقول الرب القدير: هأنا مزمع مرة أخرى، عما قليل، أن أزلزل السماء والأرض والبحر واليابسة. وأزعزع أركان جميع الأمم فتجلب نفائسهم إلى هذا المكان وأملأ هذا الهيكل بالمجد. فالذهب والفضة لي يقول الرب القدير. ويكون مجد هذا الهيكل الأخير أعظم من مجد الهيكل السابق، وأجعل السلام يسود هذا الموضع يقول الرب القدير" (٢: ٣: ٩).

الكلمات: "بعد قليل" (٦) تشير إلى أن الشعور بالخلاص الكامل ليس رؤيا آخر الأيام لكن سرعان ما سيتحقق. وهذا الشعور هو من سمات أنبياء ذلك الجيل مثل إشعياء الثاني وحجي وزكريا. إن الثورة العالمية الكبرى التي أحدثها كورش بسرعة كبيرة قد أثارت في قلب إشعياء الثاني الإيمان بأن خلاص إسرائيل والبشرية قريب، و أثارت الاضطرابات التي حدثت في أنحاء الامبراطورية الفارسية قبل تولي داريوس قد أثارت تطلعات مسيحانية في قلب حجي وزكريا. ويشير حجي إلى

هذه الاضطرابات في كلامه عن زلزلة السماوات والأرض (٢: ٦، ٢١). ويشجع زربابل ويهوشع وكل شعب الأرض (٢: ٤)، ويتنبأ لزربابل بنبوءة خاصة: "وأطيح بعروش ممالك الأمم، وأدمر قوتها وأقلب المركبات وفرسانها، فتهوي الخيول وركابها ويلقى كل واحد حتفه بسيف صاحبه. في ذلك اليوم يقول الرب القدير، أصطفيك يازربابل بن شألتيئيل عبدي، وأجعلك كخاتم في إصبعي لأني اخترتك يقول الرب القدير" (٢: ٢٢-٢٣). هذه النبوءة لحفيد يهوياكين مخالفة تمامًا لأقوال إرميا ليهوياكين، "لو كان كنياهو بن يهوياقيم ملك يهوذا خاتمًا في يدي اليمنى لنزعته منها (إرميا ٢٢: ٢٤). على أية حال لم تتحقق نبوءة حجي. فزربابل لم يصبح ملكًا مستقلًا بيهوذا، و لم تزلزل الإمبراطورية الفارسية و لم تنقلب. ونجح داريوس في فترة قصيرة في قمع كل الاضطرابات والاستيلاء على جميع أراضي الشرق من الهند وحتى كوش.

تضم رؤيا حجي المستقبلية المجد والثراء والسلام لبيت المقدس وأورشليم، لكن لا يوجد فيها من الأهداف الأخلاقية والروحية لأنبياء الخلاص الذين سبقوه. تركزت كل هذه الأهداف عنده في عبارة واحدة: "لأني معكم، يقول الرب القدير، بمقتضى عهدي الذي أبرمته معكم عندما خرجتم من ديار مصر. إن روحي ماكث معكم، فلا تفزعوا" (٢: ٤-٥).

النبي والكاهن

في النبوءة الثالثة (٢: ١٠-١٤)، يتوجه حجي إلى الكهنة وسألهم عن الشريعة. ومضمون السؤال (عن قوة النجاسة) أقل أهمية عن الفارق الأساسي والجوهري الذي يظهر فيها بين النبي والكاهن. فكلام الرب الذي تبلور في سفر التوراة، وبلغ للكنهة، موجود إلى الأبد بشكل دائم وثابت. والكاهن يفسر كلام الرب الموجود

في سفر التوراة ويفتي وفقًا له. وفي المقابل فإن كلام الرب المبلَّغ للنبي له طابع مختلف تمامًا. فهذا الكلام ليس ثابتًا وأبديًا إنما رسالة لوقتها؛ وليس توراة يحكم بما فيها، بل كلام ديناميكي، مطلوب لجيل النبي وعصره ومكانه. فالرب لا يتجلى للكاهن. الكاهن أُعطي التوراة التي تجسد كلام الرب؛ وفي المقابل فإن الرب يتجلى للنبي، لحاجة الجيل. الكاهن يعمل بحسب كلام الرب الراسخ الأبدي والمذكور في التوراة. والنبي يعمل بحسب كلام الرب الديناميكي، الذي يبلغ به من حين لآخر بما يتماشى مع أهداف رسالته. أقوال الأنبياء لا تعتبر منظومة ثابتة للعقائد والآراء الثابتة إنما هي تعبيرات ديناميكية في أوقات حرجة، أمر وقتي لوضع معين.

لذلك يجب اعتبار حجي نبيًا على الرغم من أن كلامه ليس فيه أي ذكر لكل الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية التي لدى الأنبياء الذين سبقوه. لقد كان التوبيخ الأخلاقي لدى الأنبياء موجود ومصاغ في أسفارهم التي حصلت على صلاحيتها في ذلك الجيل. أما حجي كانت لديه رسالة أخرى: تشجيع الاستيطان الصغير في أورشليم وزعمائه وتحفيز بناء بيت المقدس الذي كان يهدف إلى أن يكون المركز الروحي والديني، ومسكن لروح الرب، وشعب إسرائيل على مدار مئات السنين.

زكريا: الرجل والسفر

رأينا أن زكريا ذُكر مع حجي في عزرا ٥: ١، ٦: ١٤، وكذلك توجد في سفره بعض التواريخ لنبوءاته:

١. "في الشهر الثامن من السنة الثانية لداريوس" (١: ١). بذلك يكون زكريا قد بدأ يتنبأ في نفس السنة التي تنبأ فيها حجي في سنة ٥٢٠ ق.م في شهر مارحشوان، بعد شهرين من نبوءة حجي الأولى، وبعد خمسة أسابيع من استئناف العمل في بيت المقدس (حجي ١: ١٥).

٢. "في اليوم الرابع والعشرين من الشهر الحادي عشر، هو شهر شباط في السنة الثانية لداريوس" (١: ٧).

٣. "وكان في السنة الرابعة لداريوس الملك أن الرب صار إلى زكريا في الرابع من الشعر التاسع في كسلو" (٧: ١). ذكرت هذه النبوءة بعد سنتين من النبوءات السابقة؛ فزكريا قد تنبأ حتى سنة ٥١٨ ق.م على أقل تقدير، والخلفية التاريخية لنبوءاته تماثل الخلفية التاريخية لنبوءة حجي: السنوات الأولى من حكم داريوس وزعامة زربابل بن شألتيئيل ويهوشع بن يهوصادق في أورشليم.

على عكس النبوءات في الإصحاحات ١-٨، التي يكون فيه زالمن والخلفية التاريخية واضحة تمامًا، فإن الخلفية التاريخية للنبوءات في الإصحاحات ٩-١٤ مبهمة؛ فهذه الإصحاحات تختلف تمامًا عن الإصحاحات ١-٨ في طبيعتها ومضمونها وأسلوبها. ويعتقد معظم باحثي العهد القديم أنها لا تنتمي إلى زكريا بن برخيا، الذي عاش في زمن حجي، إنما لنبي آخر. فزمن هذا النبي محل خلاف. على أي حال فنحن لن نتناول هنا إلا الإصحاحات ١-٨، وتنقسم هذه المجموعة من النبوءات إلى ثلاث مجموعات:

١. ١: ١-٦؛ نبوءة افتتاحية تدعو إلى التوبة.

٢. ١: ٧-٦: ١٥؛ ثمانية مشاهد أو رؤى. ويوجد أيضًا من بين الرؤى الموجودة أجزاء نبوئية مختلفة: ٢: ١٠-١٧؛ ٤: ٦ب – ١٠أ؛ ٦: ٩-١٥.

٣. ٧-٨؛ سلسلة من النبوءات المرتبطة بمسألة الصوم.

كان زكريا أصغر من حجي، ولقد بدأ التنبوء الفعلي بعد شهرين من حجي، وليس في ذلك أي إثبات على عمره، لكن يرد اسمه مرتين في سفر عزرا بعد حجي. كما أنه يلتقى في الإصحاح الثاني بهذا الغلام (٢: ٨). ويبدو أن الناس شككوا في الرسالة النبوية لرائي الرؤية الشاب، لذلك يؤكد زكريا على أن الرب أرسله: "فتعلمون أن رب الجنود قد أرسلني" (٢: ١٣)؛ "فتعلم أن رب الجنود أرسلني إليك" (١٥)؛ فتعلم أن رب الجنود أرسلني إليكم" (٤: ٩، ٦: ١٥).

وفي سفر نحميا ١٢: ٤ ورد ذكر "عِدُّو"، أحد رؤساء الكهنة الذين هاجروا مع زربابل بن شألتيئيل، ويُتصور أنه كان جد النبي زكريا. وبذلك كان زكريا من عائلة كهنة، وهاجر من بابل مع جده في هجرة زربابل؛ وفي ذلك دليل على صغر سنه.

ومثل رسالة حجَّي كانت رسالة زكريا أيضًا هي مساندة وتشجيع أهل أورشليم وزعماءهم المحبطين من الوضع الاقتصادي السياسي. فالواقع الذي عاش فيه العائدون إلى صهيون في ذلك الجيل كان يتناقض مع الوعود البراقة لحزقيال وإشعياء الثاني. ولقد ربط حجي كل المشاكل بسبب واحد فقط: إهمال بناء بيت المقدس، أما زكريا فقد توجه إليهم أيضًا بأقوال توبيخ وبدعوة إلى التوبة بروح توبيخ الأنبياء "الأوائل"، لكن كلمات زكريا أيضًا في معظمها ومضمونها نبوءات مواساة "كلام طيب، كلام تعزية" (١: ١٣). بل أنه ساعد مع حجي كل من زربابل ويهوشع على بناء بيت الرب.

النبوءات في الإصحاحات ١-٦

النبوءة الافتتاحية (١: ١-٦) هي دعوة للتوبة وإنذار، كي لا يسلكون سبل الشر التي اتبعها آباؤهم. ويعتمد زكريا على أقوال "الأنبياء الأوائل" (٤). وهو لا

يقصد بالطبع صموئيل وإيليا إنما الأنبياء في نهاية أيام الهيكل الأول، خاصة إرميا. وكنا قد ذكرنا أنه في العصر البابلي وفي بداية فترة الهيكل الثاني قد بدأت عملية جمع الكتابات المقدسة. وتم جمع الأدب التوراتي في سفر التوراة، وكذلك تقدست أقوال الأنبياء ونالت الصلاحية الملزمة. لذلك لا يقوم ذكريا بسرد ما هي خطايا أبناء جيله. فأجدادهم لم يسمعوا كلام الأنبياء لذلك خربت أورشليم. والنتيجة المنطقية واضحة: بما أن نبوءات الوبال قد تحققت، وبما أن الآباء لم يسمعوا تحذير الأنبياء، فسوف تتحقق الأهداف الطيبة إذا عاد الأبناء عن طرقهم الشريرة ونفذوا مطالب الأنبياء. لم يأت زكريا بجديد؛ فهو يشير إلى أقوال الأنبياء الأوائل الذين وجهوا شعبهم إلى الطريق الصحيح.

غير أنه لا يمكن اعتبار زكريا نبي توبيخ؛ فهو لم يُرسل لتوبيخ أبناء جيله، إنما لتشجيعهم ودعمهم من الناحية الروحية؛ فالقسم الثاني من السفر يضم ثماني رؤى، ممزوجة بأقوال تشجيع ومواساة. ففي الرؤيا الأولى نقل للغضب الذي غضبه الرب على إسرائيل: ""وقد غضب الرب غضبًا على آبائكم" (١: ٢) وعلى الأمم: "هكذا قال رب الجنود، غِرت على أورشليم وعلى صهيون غيرة عظيمة، وأنا مغضب بغضب عظيم على الأمم المطمئنين، لأني غضبت قليلًا وهم أعانوا الشر" ١: ١٤-١٥). هكذا يرد زكريا ردًا مبدئيًا على سؤال: لماذا ستدمر الشعوب، الذين ضربوا إسرائيل بحكم من الرب؟ إشعياء كان لديه إجابته الخاصة على هذا السؤال. فأشور هو عصا غضب في يد الرب، لكنه سيعاقَب لقسوته وتفاخره (إشعياء ١٠: ٧-١٥). يزعم زكريا أن الأمم قد تجاوزت سلطاتها وأضافت إلى الشر الذي حكم به الرب: "لذلك هكذا قال الرب قد رجعت إلى أورشليم بالمراحم فبيتي يبنى فيها، يقول رب الجنود ...والرب يعزِّي صهيون بعد، ويختار

بعد أورشليم" (١: ١٦-١٧). وفي الرؤيا الثالثة يعد النبي، على غرار إشعياء الثاني، أن "كالأعراء تسكن أورشليم من كثرة الناس والبهائم فيها. وأنا، يقول الرب، أكون لها سور نار من حولها، وأكون مجدًا في وسطها" (٢: ٨-٩). فالرب جاء ليسكن في صهيون، "فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم، ويكونون لي شعبًا فأسكن في وسطك" (٢: ١٥).

وكأهداف إشعياء الثاني القومية؛ فلأهداف زكريا أيضًا طابع قومي خالص. لكننا نجد في نبوءات زكريا أفكارًا جديدة مثيرة ومهمة: فهو غير محبط من الواقع الكئيب؛ "لأنه من ازدرى بيوم الأمور الصغيرة؟" إن بناء الهيكل لإنجاز عظيم: "إن يد زربابل قد أسستا هذا البيت، فيدان تتممانه" (٤: ٩-١٠). وهو لا يحلم بمجد المُلْك، والحكم والغزوات: "هذه كلمة الرب إلى زربابل قائلًا: لا بالقدرة ولا بالقوة، بل بروحي قال رب الجنود" (٤: ٦). إن أهداف زكريا روحية، ليست سياسية مركزها الهيكل، مسكن روح الرب، المركز الروحي لشعب إسرائيل والبشرية كلها. لقد تنبأ زكريا بالفعل بعودة ملك بيت داود (٣: ٨، ٦: ١٢)، وربما كان يقصد زربابل تحديدًا، لكن لا شك أن أساس نبؤاته عن زربابل وعن يهوشع هو يهوشع الكاهن الأعظم (٣: ١-٧، ٦: ١٢-١٣). على أية حال لن يكون هناك خصام بين الحاكم السياسي والكاهن الأعظم حول مسألة الزعامة الرئيسية للشعب؛ "وتكون مشورة السلام بينهما كليهما".

رؤى زكريا

إن تفرد زكريا بين الأنبياء هو في مجموعة رؤاه؛ لكن قبل أن نقف على ما يميزها، سنستعرضها في البداية باختصار:

١. **الرؤيا الأولى (١: ٧–١٧)**: يرى النبي في الليل رجلًا يمتطي جوادًا أحمر، ويقف بين أشجار الآس في الظل (وادي عميق)، ومن وراءه جياد حمر، وشقر وبيض. تم التأكيد على كلمة "في الليل" لبرهان أن الرؤيا كانت حلمًا. فالرائي لا يرى أمامه واقعًا حقيقيًا ملموسًا (كما هو مع عصا إرميا، أو سلة القطاف عند عاموس)، لكن صورة مما يدور في العالم السماوي العلوي، تراه الروح والخيال، وليس الحواس. و"الرجل" هو بالطبع ملاك الرب. و لم يُذكر أنه قد شوهد فرسان يمتطون الخيل، لكن يمكن التخمين مما ورد أنه كان يركبها فرسان. ولقد تأثر زكريا بالطبع بصورة الفرسان حاملي البريد الفارسي، الذين كانوا يحملون الأخبار بين مراكز الإمبراطورية وأقاليمها. لا يعرف زكريا معنى هذا المنظر فيسأل الملك ("الرجل"): "ما هؤلاء يا سيدي؟" فأجاب الرجل: "هؤلاء هم الذين أوفدهم الرب ليتجولوا في الأرض" (قارن أيوب ١: ٧، حيث يحكى عن الشيطان العائد إلى الرب "من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها"). يعود وفد الملائكة إلى الرب بعد تجولهم في الأرض، ويبلغوه "وإذا الأرض كلها مستريحة وساكنة. حدثت هذه الرؤيا فيما يبدو بعد أن نجح داريوس في الاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية. و لم تتحقق تطلعات حجي المسيحانية حول ثورة عالمية، و لم يتغير الوضع السياسي لأورشليم وزربابل للأفضل. ويسأل الملاك الرب: "إلى متى أيها الرب القدير لا تشفق على أورشليم ومدن يهوذا التي سخطت عليها طوال هذه السبعين سنة؟" (١٢) فيسمع النبي من الملاك رد الرب المواسي عن المستقبل الجيد لأورشليم.

تُظهر الرؤيا الأولى السمات التالية:

١. إنها تُرى في الليل.

٢. يرى النبي مخلوقات خيالية من العالم السماوي والملائكة.

٣. إنه لا يفهم معنى الرؤيا وملاك الرب هو الذي يفسر له معنى المشهد.

٤. يتوسط الملك بينه وبين الرب؛ فالنبي لا يسمع كلام الرب مباشرة، إنما يبلغه به الملاك. فلا يوجد اتصال مباشر بين النبي والرب.

٥. لا يوجد أي معنى رمزي لكل تفصيل في الرؤيا، ولا مبرر لسؤال: ما معنى شجر الآس؟ ما معنى الألوان؟ لماذا ثلاثة ألوان؟

٦. يشير الحدث السماوي إلى حدث تاريخي. فإن الذي على وشك أن يحدث في العالم الأرضي يحدث أولًا في العالم العلوي. لكن الحدث العلوي لا تدركه أنظار الإنسان ولا حتى النبي، وإنما هو مجرد رمز، يحتاج إلى تفسير الملاك. ويستحسن أن نعرض هنا لرأي راشي في الإصحاح الأول ١: "إن نبوءة زكريا نبوءة مبهمة للغاية؛ لأنها تحتوي على مشاهد تشبه الحلم القابل للتفسير؛ لكن لا يمكننا الوقوف على تفسيرها الحقيقي".

٢. **الرؤيا الثانية (٢: ١–٤)**: يرى النبي "أربعة قرون". ويفسر الملاك له أن "هذه هي القرون التي بددت يهوذا وإسرائيل وأورشليم". ثم يرى النبي بعد ذلك "أربعة صنَّاع"، جاءوا لضرب القرون أو رميها. والقرون ترمز إلى القوة السياسية (أو الشعوب)، التي نفت إسرائيل ويهوذا، والصناع (الفنانون يحملون عدة تدمير — انظر حزقيال ٩: ٢)، يمنعوهم من إمكانية ضرب يهوذا ثانية ويلقون من أيديهم القرون وقوتهم ومجدهم. فالرؤيا تشير إلى تخليص أورشليم من أيدي الأعداء المتآمرين عليها.

٣. **الرؤيا الثالثة (٢: ٥–٩)**: "رجل" وفي يده حبل قياس "لأقيس أورشليم لأرى كم عرضها وكم طولها". تشير الرؤيا إلى أن أورشليم الجديدة لن تكون في

المستقبل قابلة للقياس، لأنها "ستكون كسهل مكشوف آهلة بالناس والبهائم المطمئنين فيها" ولن تكون في حاجة إلى أسوار لأن الرب سيكون لها "سورًا محيطًا من نار".

٤. **الرؤيا الرابعة (الإصحاح ٣)**: أمامنا صورة لمحكمة سماوية، المتهم الذي يرتدي "ملابس قذرة"، وهو يهوشع الكاهن الأعظم، والمدعي هو الشيطان (كما هو في أيوب ١: ٦). لم يُذكر ماذا كانت ذنوب يهوشع. وورد خلال الإصحاح: "وأزيل إثم تلك الأرض في يوم واحد" (٩). لذلك فمن الجدير تفسير أن يهوشع يرمز هنا إلى الشعب الساكن في أورشليم. ويدعي الشيطان على يهوشع وعلى الشعب، ويتوجه الملاك إلى الرب، الذي يختار أورشليم، ويطلب منه الصراخ في الشيطان وأن يكف حقده. "أليس هذا الرجل (يهوشع) كحطبة انتشلت من النار (حرق بيت المقدس)، لذلك يجب الترحم عليه وإنقاذه. ويستجيب الرب لطلب الدفاع. ويأمر بتبديل ملابس الكاهن ووضع عمامة طاهرة على رأسه. ثم يعد ملاك الرب الكاهن بمكانة مرموقة، حتى يشبه ملاك الرب، شريطة أن يسير في طريق الرب ويؤدي مهام الكهانة على أكمل وجه. ثم يقدم له حجر إعجازي (المعنى غير واضح ربما كان المقصود الهيكل أو أحجار حماية). ويعد بتطهير الأرض من الآثام وجلب السكينة والسلام عليها. وترمز الرؤيا إلى المكانة السامية للكهانة الكبرى في فترة الهيكل الثاني. كما فيها أيضًا رمزًا مبهمًا لـــ"عبدي الغصن" (٨)، ويصعب التحديد إن كان زربابل هو المقصود أو ملك سيأتي مستقبلًا من نسل يسَّي.

٥. **الرؤيا الخامسة (٤: ١–٦، ١٠–١٤)**: هو يرى الآن منارة ذهبية، فيها سبعة سُرُج. والشموع تستمد زيتها من صحن على رأس المنارة. وشكل المنارة لا

يشبه منارة الهيكل، ذات الأعمدة السبعة، أو المنارة الموجودة في شعار الدولة. فهي عبارة عن صحن مستدير يرتكز على عامود مستدير، وحول جوانب الصحن سبعة أقماع صغيرة من الزيت، فيها فتائل. والمنارة مصنوعة كلها من الذهب وأعلاها غضني زيتون، واحد على اليمين والآخر على الشمال. وغير واضح إن كان المقصود ثمرة زيتون أم شجرة زيتون أم غصن زيتون. على أية حال فإن زيت المنارة مستخرج من ثمرة الزيتون. ونور المنارة يرمز إلى النجاح الروحي لزربابل. والسرج السبعة ترمز إلى مراقبة الرب للأرض والزيتونتان تشيران إلى قائدي العالم، مسيحي الرب، الممسوحين بالزيت المقدس.

على عكس الرؤى الأربعة السابقة التي شاهد فيها زكريا نسج خيال سماوي (ملاك يركب جوادًا أحمر، وقرون وصنَّاع، وملاك في يده حبل قياس، وجلسة محاكمة سماوية)، فإن المنظر هنا أكثر واقعية ومستعار من عالم الحواس الأرضي: منارة، شموع، أشجار زيتون. ولا تختلف هذه الرؤية في جوهرها عن رؤى الأنبياء الآخرين. وهناك إشارة إلى ذلك في الفقرة الأولى من الإصحاح: "فرجع الملك الذي كلمني وأيقظني كرجل أوقظ من نومه". وهذه الرؤيا حدثت للنبي ليلًا. لكنه لم يكن في نفس وضع النوم إنما "كرجل أوقظ من نومه"[1].

٦. **الرؤيا السادسة (٥: ١-٤)**: الدَرَج الطائر، ذو الأبعاد الكبيرة، يُرسَل إلى بيوت اللصوص والحالفين بالكذب كي يبيدهم ويبيد بيوتهم؛ إشارة إلى عقاب العصاة والمجرمين في يهوذا وفي كل الأرض.

---

[1] دكتور ب. أوفنهايمر ٦١-٦٣.

٧. **الرؤيا السابعة (٥: ٥–١١)**: النبي يرى مكيالًا، تجلس امرأة في داخله، رمزًا للإدانة. فالمرأة يلقى بها في المكيال ويسد فيها بحجر من الرصاص، كي لا تستطيع الاستمرار في أمورها السيئة. وهاهو تظهر امرأتان لهما أجنحة كأجنحة اللقلق فتحملان المكيال (مع الشر) إلى أرض شنعار. ترمز الرؤيا إلى إبعاد أعداء أورشليم وإعادتهم إلى آرام النهرين، من حيث جاءوا إلى أرض إسرائيل.

٨. **الرؤيا الثامنة (٦: ١–٨)**: أربع مركبات تخرج من بين جَبَلَي نحاس. في المركبة الأولى خيل حمراء، وفي الثانية سوداء، وفي الثالثة بيضاء، وفي الرابعة منمرة شقر. تتصل الرؤيا الثامنة والأخيرة بشكل ما برؤيا الخيل الأولى. فهناك تعود الخيل إلى الرب بعد أن تجولت في الأرض. أما هنا فالمركبات "خارجة بعد مثولها في حضرة رب الأرض كلها" (٥). وهي ترمز إلى أرواح السماء الأربعة. والخيل الخارجة إلى الأرض شمالًا تضع روح الرب وغضبه في أرض الشمال. وترمز الرؤيا إلى أن غضب الرب سينتقل من إسرائيل إلى الأمم، كما ورد في الرؤيا الأولى (١: ١٤–١٥). وعلى العكس يفسر الدكتور ب. أوفنهايمر، أن روح الرب هي "القوة الروحية التي أصبح شعب إسرائيل بفضلها شعب الرب، والتي بفضلها سيعود إلى الحياة ثانية. وليس هذا سوى بأنه على الجياد أن تحمل روح الإحياء وبشرى الخلاص إلى كل أطراف الشتات"[1].

هناك بالطبع اختلافات مهمة بين الرؤى المختلفة، وكنا قد وقفنا على الفروق بين رؤيا المنارة الحقيقية وبين بقية الرؤى الخيالية. ويفرق قويفمان على سبيل المثال بين مشهد القرون والصناع والذي هو رؤية رمزية وبين مشهد الكاهن الأعظم

[1] ص ٧٨.

أمام المحكمة السماوية الذي هو رؤية درامية واقعية"[١]. ويشير أيضًا الدكتور زر-كافود في مقدمته لسفر زكريا إلى الفروق المختلفة[٢]، لكننا لن نقف هنا على التفاصيل، إنما سننظر إلى السمات المميزة لجميع الرؤى:

١. رؤى زكريا هي نوع من النبوءة قريب من الحلم، لذلك يجب اعتبارها مرتبة أقل من النبوة. ليس لدينا هنا حلم حقيقي بالفعل، فإرميا يفرق بين النبوءة الحقيقية وبين الحلم (إرميا ٢٣: ٢٥-٢٨)، وربما لذلك ثارت الشكوك حول رسالة زكريا.

٢. لا يوجد ارتباط مباشر في كل الرؤى بين النبي والرب؛ فالملاك يفسِّر المشاهد ويتوسط بين الرب والنبي. وفي هذه الحقيقة أيضًا يجب ملاحظة ضعف قوة النبوة؛ فهناك مسافة بين الرب ورسوله.

٣. كل رؤيا فيها جزء مرئي وجزء سمعي. الجزء السمعي يفسر المظهر المرئي. مع ذلك، تبقى تفاصيل المشهد المرأي مبهمة. ويقول الدكتور زر-كافود "في الجزء المرأي تأثير لحزقيال على زكريا، وفي الجزء الكلامي يشتد ارتباطه بنبوءة إرميا"[٣].

٤. باستثناء رؤيا المنارة، يظهر نسج الخيال في جميع الرؤى: الجياد والمركبات السماوية؛ الدرج الطائر؛ سيدات بأجنحة طائر اللقلق تحمل المكيال بين الأرض والسماء. ويظهر ملاك الرب في جميع الرؤى، وكذلك في رؤيا المنارة "الرجل" (الملاك) يظهر في المشهد الأول والثالث، والشيطان في المشهد الرابع. على أية حال

---

[١] ص ٢٣٠.

[٢] ٣١-٣٢.

[٣] ٣٩.

تعكس المشاهد السماوية أيضًا في الإحصاء السماوي واقعًا أرضيًا موازيًا: الجياد، المركبات، الصناع، جلسة المحكمة (قاض، ومدعي، ودفاع، ومتهم) إلخ. وأثار الواقع الحقيقي بشكل تجميعي المشاهد الخيالية، غير أن السمة المشتركة بين الواقع والخيال لا تفهم دائمًا. ففي كل قصة رؤى زكريا يفوق المبهم الظاهر.

٥. المخلوقات التي تظهر في المشاهد كلها متحركة: الخيل جالت في الأرض (١: ١١)؛ الصناع يأتون لإلقاء قرون الأمم (٢: ٤)؛ الرجل مع الحبل يذهب لقياس أورشليم (٢: ٦)؛ وفي هذه الرؤيا نرى أن ملاكًا يركض (٢: ٨)؛ السلة محمولة إلى أرض شنعار (٢: ٩)، المركبات الأربعة تخرج إلى أربع أرواح السماء (٦: ٥). المنارة فقط هي التي تبدون كما لو كانت ثابتة وموجودة في حالة سكون. لكن في رؤيا المنارة هناك كلام عن "أعين الرب الجائلة في الأرض" (٤: ١٠) والفقرة ال١٢ المبهمة تصف على ما يبدو تدفق الزيت من الزيتون إلى المنارة.

٦. جميع النبوءات تنتهي بنبوءة مواساة.

٧. تشكل رؤى زكريا مرحلة انتقالية من النبوءة إلى الارتباط بنهاية العالم[١]. والحلقات الأساسية في هذه العملية هي: حزقيال، زكريا، دانيال.

إشكالية الصوم (٧–٨)

"وكان في السنة الرابعة لداريوس الملك ... لما أرسل أهل بيت إيل شراصر ورجم ملك ورجالهم ليصلوا قدام الرب. وليكلموا الكهنة الذين في بيت رب

---

[١] أوفنهايمر ١٣٥ وما بعدها.

الجنود والأنبياء قائلين: أبكي في الشهر الخامس منفصلا كما فعلت كم من السنين هذه؟" (٧: ١-٣).

وبالفعل بعد سنتين من استئناف بناء بيت الرب، وعندما كان العمل في ذروته، ظهرت مشكلة، إن كان هناك حاجة في الاستمرار في صوم التاسع من آب (حزنًا) على خراب الهيكل الأول. ونعرف من ذلك أنه منذ الخراب اعتاد بنو إسرائيل الحزن على الخراب، وبحسب ما ورد في ٨: ١٩ فإنهم كانوا يصومون أربعة أيام: في الشهر الرابع (١٧ تموز)، وفي الشهر الخامس (٩ آب)، وفي الشهر السابع (صوم جداليا)، وفي الشهر العاشر (١٠ طيبت). استمر هذا الصوم الوطني على مدار سبعين سنة (٧: ٥)، من سنة ٥٨٦ ق.م وحتى سنة ٥١٨ ق.م عندما أصبح الهيكل قائمًا، ودخل العمل مراحله الأخيرة.

والحديث هنا عن وفد جاء إلى بيت الرب بسؤال إلى الكهنة والأنبياء (٧: ٢). ولا نعرف حقًا مَن السائلين ومِن أين جاءوا، هل من بابل أو من بيت إيل أو من مكان آخر في البلاد؟ على أي حال من الواضح أن السؤال لم يوجه إلى زكريا بشكل مباشر؛ حيث توجهوا إلى الكهنة وإلى الأنبياء. نقف من ذلك على أمرين مهمين: الأول؛ إنه كان في عصر حجي وزكريا أنبياء آخرون. الثاني، أن هؤلاء الأنبياء كانوا شركاء في عمل الكهنة المقدس. وبالفعل تدل نبوءات حجي وزكريا على تقاربهم الشديد من دوائر الكهنة. فما أبعد المسافة بين عاموس وهوشع وإرميا الموبخين للكهنة، الذين طوردوا وطردوا على يد الكهنة؛ وبين حجي وزكريا اللذين مركز نبوءاتهما هيكل الرب، والعمل المقدس والكهنة. فحجي يتحدث مع الكهنة بخصوص الشريعة كما يتحدث المرء إلى صديقه. ويشغل يهوشع بن يهوصادق، الكاهن الأعظم مكانة مرموقة جدًا في نبوءات زكريا ورؤاه. كما أن حجي

وزكريا كانا مرتبطين بعلاقة وطيدة مع بيت الرب وكهنته وأنبيائه. لكن لا يجب المبالغة (بحسب رأي بعض باحثي العهد القديم مؤخرًا) والادعاء بأن الأنبياء كانوا جميعًا مرتبطين بمراكز العبادة. فمن هذه الناحية هناك فرق واضح وجوهري بين أنبياء الهيكل الأول وأنبياء الهيكل الثاني.

على أية حال، بما أن السؤال لم يتم توجيهه إلى زكريا مباشرة، فلا نجد في السفر الإجابة عن سؤال السائلين. ومن المحتمل أن يكون الكهنة والأنبياء قد أجابوهم، وأن زكريا قد علم بالسؤال وبالإجابة. وأن المسألة قد شغلته وتطرق إليها في عدة نبوءات موجهة إلى "جميع شعب الأرض وللكهنة قائلًا" (٧: ٤). وهو لا يقصد التشريع في هذا الأمر، وعبثًا إذا بحثنا في كلامه عن رد عملي واضح: هل يجب المواصلة والصوم، أم التوقف عن الصوم؟ هو يتحدث عن مشكلة الصوم والعبادات عامة ويعتمد صراحة على "الأنبياء الأوائل" (٧)، الذين تقدَّست أقوالهم وأصبح اقتباسها معتمدًا (كذلك في الإصحاح ١: ٤).

سنتناول كل واحدة من نبوءاته الثلاثة حول هذا الموضوع:

١. **النبوءة الأولى (٧: ٤-١٤)**: الرب لم يأمر بالصوم لأنه لم يأمر بالأكل والشرب. فالصوم هو مسألة شخصية مرتبطة بمشاعر الإنسان. فإن كان حزينًا لأن الأهداف القومية لم تتحقق بأكملها؛ فليصم، وإن اكتفى بأن بناء الهيكل قد أوشك على الانتهاء، فلا يصوم: "لما صمتم ونُحتم في الشهر الخامس والشهر السابع، وذلك هذه السبعين سنة فهل صمتم صومًا لي أنا؟ ولما أكلتم ولما شربتم، أفما كنتم أنتم الآكلين وأنتم الشاربين؟". فقد قال الأنبياء الأوائل — وأثبتت الأحداث التاريخية صدق قولهم — إن مطالب الرب من بني إسرائيل هي: "اقضوا قضاء الحق واعملوا إحسانًا ورحمة، كل إنسان مع أخيه، ولا تظلموا الأرملة ولا

اليتيم ولا الغريب ولا الفقير، ولا يفكر أحد منكم شرًا على أخيه في قلبكم". فالهيكل الأول لم يخرب بسبب عدم تنفيذ وصايا العبادات إنما بسبب السلوك غير الأخلاقي. والنتيجة واضحة: من ناحية الرب ليس هناك أهمية في أن يصوم شخص من إسرائيل، أو لا يصوم، فهذه مسألة أخلاقية في قلبه. لكن المهم بالنسبة للرب هو الأخلاق. وليس هناك أي جديد في ذلك فزكريا يكرر أقوال سابقيه، خاصة بروح إشعياء الثاني.

٢. **النبوءة الثانية** (**٨: ١–١٧**): أصبحت إشكالية الصوم خلفية لنبوءات المواساة الجميلة والحماسية جدًا عند زكريا؛ فالرب يعود للسكن في أورشليم، فتدعى "مدينة الحق وجبل رب الجنود، الجبل المقدس"؛ "سيجلس بعد الشيوخ والشيخات في أسواق أورشليم، كل إنسان منهم عصاة بيده من كثرة الأيام، وتمتلىء أسواق المدينة من الصبيان والبنات لاعبين في أسواقها" (١–٥). وللآن لم تكن البركة موجودة في أعمال سكان أورشليم "ولا سلام لمن خرج أو دخل من قبل الضيق" (١٠)؛ أما الآن "فلا أكون أنا لبقية هذا الشعب كما في الأيام الأولى، يقول رب الجنود" (١١). فالرب يعد بجمع الشتات (٧)، وبالحصاد المبارك، والسلام والبركة (١٢) ويشجع العائدين إلى صهيون بقوله: "لتتشدد أيديكم" (٩، ١٣) لكنه يعتمد في رؤيا المستقبل على مطالبه الأخلاقية: "هذه هي الأمور التي تفعلونها، ليكلم كل إنسان قريبه بالحق. اقضوا بالحق وقضاء السلام في أبوابكم. ولا يفكرن أحد في السوء على قريبه في قلوبكم. ولا تحبوا يمين الزور. لأن هذه جميعها أكرهها، يقول الرب". حقًا العلاقة بإشكالية الصوم ضعيفة (وربما ذكرت هذه النبوءة في زمن آخر، وليس في وقت قريب من مسألة الصوم)، لكن هناك

علاقة: فالنجاح القومي غير مرتبط بالصوم؛ إنما بالوصايا التي بين الإنسان وأخيه. فالخلاص مرتبط بالتوبة الأخلاقية وليس بالعبادة.

٣. **النبوءة الثالثة (٨: ١٨–٢٣)**: عندما يأتي الخلاص بالفعل سيتحول الصوم إلى "ابتهاجًا وفرحًا وأعيادًا طيبة"، وستصبح أورشليم مركزًا روحيًا للعالم كله؛ "فتأتي شعوب كثيرة وأمم قوية ليطلبوا رب الجنود في أورشليم وليترضوا وجه الرب ... في تلك الأيام يمسك عشرة رجال من جميع ألسنة الأمم يتمسكون بذيل رجل يهودي قائلين: لنذهب معكم لأننا سمعنا أن الله معكم".

إن زكريا نبي من الأنبياء العالميين جدًا؛ وهو يختلف عن حجي في أنه من حاملي الشريعة الأخلاقية للأنبياء. مع ذلك يكون بناء الهيكل مركز نبوءاته. ولا يرفض العبادات رفضًا تامًا، فقد اعتبرها مهمة جدًا شريطة أن تعبِّر عن إيمان حقيقي[١].

---

[١] قويفمان ٢٦٨–٢٦٩

مَلاخِـــي

النبي وزمنه

لم يذكر عنوان سفر ملاخي – آخر أسفار الأنبياء – أي شيء عن زمن النبي أو شخصيته. وربما لا نكون نعلم حتى اسمه، ويحتمل أن يكون اسم "ملاخي" (ملاكي) صفة النبي وكنيته؛ ذلك لعدة أسباب: أولًا؛ كلمات "على يد ملاخي" (١: ١) ترجمها "السبعون"[١]: "على يد رسوله". ثانيًا؛ ورد في الإصحاح ٣: ١: "هأنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي". ثالثًا؛ والكاهن أيضًا أُطلِق عليه في هذا السفر "ملاك الرب"[٢] (٢: ٧). رابعًا؛ إطلاق "ملاك الرب" على نبي موجود أيضًا في حجَّي ١: ١٣. ويفسرها المفسرون (راشي، رادق، إبن عزرا) على أنها اسم النبي.

و أما زمن النبي فيمكننا الوقوف عليه من مضمون أقواله:

١. في ١: ٨ ورد: "هدية لحاكمكم". ولا شك في أن ملاخي عاش في عصر الحكم الفارسي، عندما حكم الوالي أورشليم.

---

[١] هي ترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية، مع بعض الكتب الأخرى التي نقل البعض منها عن العبرية كسائر أسفار العهد القديم، والبعض الآخر كتب أصلًا باليونانية. سميت بالسبعينية بناء على التقليد المتواتر بأنه قام بها سبعون (أو بالأحرى اثنان وسبعون) من شيوخ اليهود بالإسكندرية في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس ٢٨٥–٢٤٧ق.م.

[٢] النسخة العربية للعهد القديم ورد فيها "رسول رب الجنود" والترجمة الحرفية للعبرية هي "ملاك الرب"

٢. الحديث عن هيكل الرب كعن مبنى مكتمل البناء يتم فيه العمل المقدس بشكل اعتيادي: "ويأتي بغتة إلى هيكله" (٣: ١)؛ "ليكون في بيتي طعام" (١٠)؛ "من فيكم يغلق الباب! بل لا توفدون على مذبحي مجانًا" (١: ٩).

٣. يتحدث ملاخي عن نساء أجانب وعن طرد النساء العبريات (٢: ١١-١٤). كما هو معلوم فقد كافح كل من عزرا ونحميا ضد الزواج المختلط وطالبا بطرد النساء الأجانب (عزرا ٩-١٠، نحميا ١٣). يتضح أن ملاخي تنبأ بعد انتهاء بناء الهيكل (٥١٦ ق.م)، في فترة زمنية مقاربة لعزرا ونحميا؛ أي في الفترة بين سنة ٥٠٠ — ٤٠٠ق.م. وهناك باحثون مثل الدكتور زر-كافود، يحددون زمن ملاخي بما بعد إصلاحات نحميا (٤٤٤ — ٤١٠ ق.م)، معتمدين بشكل خاص على ما ورد في ٣: ١٠ "هاتوا جميع العشور إلى الخزينة". وطلب ملاخي هذا هو أحد إصلاحات نحميا (نحميا ١٠: ٣٩، ١٢: ٤٤).

٤. إشارة أخرى إلى عصر ملاخي يمكننا أن نعثر عليها في النبوءة الأولى التي تتحدث عن الكارثة الكبيرة التي حلَّت بالأدوميين: "وأبغضت عيسو وحوَّلت جباله إلى أراضٍ موحشة، وجعلت ميراثه لبنات آوي البريَّة. وإن قال الأدوميون: مع إننا تحطمنا فإننا نبني الخرب، فإن الرب القدير يقول: هم يعمِّرون وأنا أهدم .." (١: ٣-٤). ربما كان النبي يقصد هنا غزو النبطيين الذين جاءوا من بلاد العرب في القرن الخامس ق.م، واحتلوا جزءًا كبيرًا من أرض أدوم.

٥. هناك فقرة أخرى تثير إشكالية حول زمن ملاخي، وهي الفقرة ١: ١١: "لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها أُسَمَّى عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يحرق لاسمي بخور وذبائح طاهرة لأن اسمي عظيم بين الأمم يقول الرب القدير". ويمكن تفسير هذه الفقرة بثلاث طرق: الأولى؛ أن الحديث عن اليهود المشتتين في

الشتات، خاصة في بابل ومصر (في جزيرة إلفنتين)، وعبادة الرب عندهم، في رأي النبي، طاهرة وأكثر احترامًا من العبادة في أورشليم. الثانية؛ إنه كان في ذلك العصر – في جميع البلدان – رجال مثقفون من الشعوب الأخرى اعتنقوا العقيدة الإسرائيلية التوحيدية وأقاموا الصلاة، بل وقدموا القرابين إلى رب العالمين. وهذا التفسير هو الأكثر قبولًا لكن يجب أن نذكر أيضًا التفسير الثالث الذي يقول بأن النبي يعتقد أن عبادة الأوثان التي قامت بها الشعوب الأخرى أيضًا كانت وجهتها رب العالمين. ويقول راشي: حتى الذين يعبدون الكواكب والأجرام السماوية يعرفون أن الرب هو الأسمى فوق الجميع، وفي كل مكان يتبرعون باسمي، حتى عبدة الأجرام السماوية. كما يقول رادق: "على الرغم من أنهم يعبودن جيش السماء إلى أنهم يعترفون بي، وأني السبب الأول".

"يخصص ملاخي جزءًا معتبرًا في نبوءته للكهنة (يمجدهم ويوبخهم على السواء)، ويبدو أنه نفسه كان كاهنًا"[1]. وتعكس هذه الكلمات صورة بائسة للحياة المادية والروحية في أورشليم. فالوضع الاقتصادي كان متدهورًا للغاية، ويرد ذكر الجراد والجفاف (٣: ١٠–١١). كما تدل القرابين المعيبة التي يتم إحضارها إلى الهيكل كذلك على فقر وبؤس (١: ٨). الحياة الدينية كان يغيب عنها الاحتفال والقداسة، والإيمان ومخافة الرب. وكفر الكثيرون بمراقبة الرب وبالعدل الإلهي (٢: ١٧، ٣: ١٤). وارتفع عدد السحرة الفاسقين والحالفين زورًا على عدد من يخشى الرب (٣: ٥، ١٥). ودمَّر الزواج المختلط والطلاق الحياة الأسرية الإسرائيلية (٢: ١١) وتعكرت العلاقات بين الآباء والأبناء (٣: ٢٤). حتى السلطة السياسية لم تكن مشجعة؛ ففي أورشليم حكم والي (فارسي فيما يبدو. لم يكن

[1] قويفمان ص ٣٦٧.

زربابل أو نحميا بالطبع)، وكانت هناك ضرورة إلى تقديم الهدايا له (١: ٨). وكان الكهنة هم زعماء الشعب، لكنهم لم يلعبوا هم أيضًا دورهم الديني والروحي على أكمل وجه. كان ذلك عصر تواضع وفتور للعزيمة، والعوز، وحياة التفاهات، والحياة الروتينية الدنيوية. كما تتماشى الرؤية المسيحانية لملاخي مع يوم الصغائر في عصره. الخلفية والجو العام لسفر ملاخي يتماشيان بشكل خاص مع السنوات التي سبقت هجرة عزرا ونحميا.

بناء السفر

يشتمل السفر على ثلاثة إصحاحات، وينقسم إلى سبعة أجزاء كالتالي:

١. ١: ١-٥؛ نبوءة افتتاحية عن عيسو ويعقوب، تعبر عن محبة الرب ليعقوب وكرهه لعيسو.

٢. ١: ٦-٢:٩؛ توبيخ للكهنة.

٣. ٢: ١٠-١٦؛ ضد تدنيس عهد الزواج.

٤. ٢: ١٧-٣: ٦؛ رب الحكم ويوم الحكم.

٥. ٣: ٧-١٢؛ العشور والتقدمة.

٦. ٣: ١٣-٢١؛ الذين يخشون الرب والأشرار.

٧. ٣: ٢٢-٢٤؛ ختام السفر.

إن معظم السفر مكتوب في شكل حوار بين النبي وسامعيه (١: ٢، ٦، ٧، ١٣؛ ٢: ١٤، ١٧؛ ٣: ٧، ١٤). كما يبدأ النبي الحوار بفرضية أو مطلب، وبعدها يسمع رد سامعيه الذي يبدأ بكلمة: "وقلتم". وهذه الصورة من الحوار موجودة بالفعل في أسفار أنبياء آخرين، لكنها السمة البارزة في سفر ملاخي في

لغته. مع ذلك لا يجب أن نستنتج من هذا أن كل هذه الحوارات قد دارت شفهيًا بهذا الشكل. فقد رأينا أنه منذ عصر حزقيال وما بعده لم تكن معظم النبوءات في خطابات للشعب، إنما نبوءات أدبية. وهذا واضح تمامًا عند حزقيال وإشعياء الثاني وزكريا. لكن زكريا وملاخي أيضًا خطبا فيما يبدو أمام الناس، أو الكهنة على الأقل، فهناك بالفعل تقارب غير بسيط بين حجَّي وملاخي، سواء من ناحية الأفكار أو الروح العامة لأقوالهم.

علاقة ملاخي بالكهنة والعبادة

إن ملاخي هو أحد الأنبياء الذين وبخوا الكهنة بشكل خاص. زعم هوشع أن الكهنة قد شوهوا الحق (٥: ١)، وأجرموا بالقتل (٦: ٩)؛ أما ميخا فزعم: "كهنتها يعلمون بالأجرة" (٣: ١١)، وقال صفنيا: "كهنتها نجسوا القدس، خالفوا الشريعة" (٣: ٤)، وبحياة الغش (٥: ٣١، ٦: ١٣، ٨: ١٠). ولا يتهم أحد من هؤلاء الأنبياء الكهنة بتدنيس العبادة المقدسة. وفي المقابل فإن توبيخ ملاخي خاص بالعبادة في الأساس، على الرغم من أن الأمر ليس ذلك فحسب. فهو لا يتهم الكهنة بتجاوز الوصايا بين الإنسان وأخيه، إنما إثمهم الأساسي هو تقديم القرابين المعيبة على مذبح الرب، والاستهزاء بمجد الرب، وتدنيس اسمه. وكأنهم يقولون إن "مائدة الرب، محتقرة". وتقديم القرابين المعيبة فيه مخالفة لشريعة التوراة "كل ما كان فيه عيب لا تقرِّبوه" (اللاويين ٢٢: ١٩–٢٥)؛ "وإذا كان فيه عيب، عرج أو عمى، عيب ما رديء، فلا تذبحه للرب إلهك" (التثنية ١٥: ٢١). وتشبيه القرابين بخبز الرب — اللاويين ٢١: ٦، وتشبيه المذبح بمائدة الرب — حزقيال ٤١: ٢٢.

وعلى غرار الأنبياء "الأوائل" يزعم ملاخي أيضًا أن الرب ليس له رغبة في قرابينهم (١: ١٠)؛ غير أن مبرره يختلف تمامًا عن مبررات عاموس، وإشعياء

وإرميا؛ فالرب لا يريد هذه القرابين ليس لأنهم يريدون التكفير بها عن آثام أخلاقية، إنما لأن قرابينهم ليست طيبة بالدرجة، ولا تقدر الرب كما ينبغي. لذلك فإن الرب يترل بهم اللعنة (٢: ٢-٣). النجاح القومي والاقتصادي لإسرائيل غير مرتبط بتنفيذ الوصايا الأخلاقية والاجتماعية، إنما بتنفيذ الوصايا بين الإنسان والمكان؛ قرابين لائقة، عُشُور وتقدمات — فهي فقط التي ستنجِّي الشعب من الأزمة الشديدة. "فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للرب كما في أيام القدم وكما في السنين القديمة" (٣: ٤).

أما من ناحية التعامل الإيجابي مع العبادة فإن ملاخي يسير على درب حزقيال وإشعياء الثاني وحجي وزكريا. غير أنه الأكثر تطرفًا فيهم. فنحن لا نجد في أي سفر لنبي آخر مثل هذا التقدير الشديد ومثل هذه المطالبة الصريحة بالعبادة. فملاخي يشكل من هذه الناحية الحلقة الأخيرة في غروب شمس النبوة. مع ذلك لا يجب تجاهل حقيقة أن ملاخي لا يقصد العبادة الخارجية. حقًا إنه لا يفضل الأخلاق على العبادة، لكنه يطالب بالعبادة القائمة على خشية الرب وتمجيده: "الابن يكرم أباه، والعبد يكرم سيده، فإن كنت أنا أبًا، فأين كرامتي؟ وإن كنت سيدًا فأين هيبتي؟" (١: ٦). فقرابينكم البائسة تهين اسم الرب. واسم الرب عظيم بين الأمم "لأني أنا ملك عظيم، قال رب الجنود، واسمي مهيب بين الأمم" (١: ١١-١٢، ١٤).

لقد قطع الرب مع بني هارون عهدًا أبديًا: "لذلك قل: هأنذا أعطيه ميثاقي ميثاق السلام، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي" (العدد ٢٥: ١٢-١٣). ولقد أعطى الكهنة واللاويين (ملاخي لا يفرق بينهما) العشور والتقدمات ومكانة رفيعة ومحترمة. وشبه الكاهن بأخد ملائكة السماء ورسم صورة الكاهن

المثالي: "كان عهدي معه للحياة والسلام، وأعطيته إياهما للتقوى، فاتقاني ومن اسمي ارتاع هو. شريعة الحق كانت في فيه، وإثم لم يوجد في شفتيه. سلك معي في السلام والاستقامة، وأرجع كثيرين عن الإثم. لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة، ومن فمه يطلبون الشريعة، لأنه رسول رب الجنود" (٢: ٥-٧). فالوظيفتان الأساسيتان للكاهن بحسب هذا العهد هما: العبادة المقدسة وتعليم التوراة: "يعلِّمون يعقوب أحكامك، وإسرائيل ناموسك، يضعون بخورًا في أنفك ومحرقات على مذبحك" (التثنية ٣٣: ١٠). لكنهم يخونون وظيفتهم. وتحدثنا عن العبادة المقدسة. وفيما يخص تعليم الشريعة، فقد قال ملاخي: "أما أنتم فحِدتم عن الطريق، وأعثرتم كثيرين بالشريعة. أفسدتم عهد لاوي، قال رب الجنود." (٢: ٨-٩). بذلك لا تكون شكوى ملاخي غير مرتبطة بالعبادة فحسب إنما أيضًا بالوظيفة الروحية والتعليمية للكهنة واللاويين. وفيما يخص العبادة أيضًا لا يطلب ملاخي قرابين إضافية إنما تقديم القرابين من منطلق الخشية والتمجيد، وليس فقط من منطلق الاستهزاء ومجرد تأدية الواجب. وبحسب راشي فإن صورة الكاهن المثالي ترتبط فيما يبدو بهارون وأبنائه.

الرب وإسرائيل، الأسرة الإسرائيلية

تفرد ملاخي هو في تشبيهه الرب بأنه أب لإسرائيل. وعلى الرغم من ورود هذا التشبيه أيضًا في الأنبياء الأواخر: إرميا ٣: ١٤، ٣١: ٨؛ إشعياء ٦٣: ١٦، ٦٤: ٧. إلا أن هذا التشبيه عند ملاخي له تأثيره على كل نظرته للرب، وكذلك على فكره؛ ففي نبوءته الأولى يشبه ملاخي حب الرب لإسرائيل بحب ابنه المحبوب: "أحببتكم. قال الرب. وقلتم بما أحببتنا؟؟ أليس عيسو أخًا ليعقوب، يقول الرب، وأحببت يعقوب، وأبغضت عيسو" (١: ٢-٣). ويمكن للأبناء أن يثقوا في حب

الأب ورعايته ومراقبته، لكن عليهم القيام بواجب احترام الأب: "الابن يكرم أباه، والعبد يكرم سيده، فإن كنت أبًا فأين كرامتي؟" (١: ٦). فمفهوم الرب شخصي أسري. وبالطبع الرب عند ملاخي عالمي أيضًا، غير أن مفهوم الرب مجرد. وفي المقابل فإن التجربة الفنية لمعرفة الرب هي إحساس بالقرب الإلهي في داخل الإطار القومي المحدود. فالأمة كلها تعتبر أسرة واحدة، يجمعها العهد مع الرب ويربط بينها وبين كل أفرادها.

ليس غريبًا أن يكون ملاخي قد دعم الحرب ضد الزواج المختلط، لكنه لا يحذر من الزواج المختلط فقط، إنما أيضًا من تدنيس ميثاق الزواج بشكل عام، لأنه يعتبر الزواج ميثاقًا مقدسًا هدفه "زرع الله" (٢: ١٥). فالزوجان ينضمان إلى الأسرة الإلهية المقدسة. والرب نفسه يكون شاهدًا وشريكًا في ميثاق الزواج: "من أجل أن الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التي أنت غدرت بها، وهي قرينتك وامرأة عهدك" (٢: ١٤). وإذا خرق أحد الزوجين هذا الميثاق فإنه يمس الطرف الثالث كذلك، "السكينة" (الشخينة) التي منحت هذا الميثاق جوهره ووجوده الروحي، والقداسة والقومية. ويتوصل ملاخي إلى ميثاق ثلاثي مهم بين إله إسرائيل، والأمة الإسرائيلية والعائلة الإسرائيلية. وكل مكان يسود فيه السلام في داخل الأسرة اليهودية تحل فيه "السكينة" أيضًا. وعندما يتزوج الحليف بامرأة أجنبية أو عندما يخون زوجته، صديقته وامرأة ميثاقه، فهو يدنِّس الميثاق الأسري، الذي يكون الرب عضوًا فيه: "أليس أب واحد لكلنا؟ أليس إله واحد خلقنا؟. فلم نغدر الرجل بأخيه لتدنيس عهد آبائنا؟" (٢: ١٠)؛ "لأنه يكره الطلاق، قال الرب إله إسرائيل" (٢: ١٦). لا يوجد هنا بالطبع رفض لإمكانية الطلاق، لكن لا شك في أن الطلاق غير محبب عند الرب، بحسب رأي ملاخي.

الآن يمكننا أن نفهم أكثر اعتراض ملاخي على الأجنبيات، على الرغم من أن التوراة لا تحظر إلا الزواج مع شعوب كنعان السبعة. ويمكن تفسيره حرب عزرا ونحميا ضد الزواج المختلط وتأييد ملاخي لهذه الحرب بما يلي:

١. في شتات بابل توقفت العبادة الوثنية في إسرائيل نهائيًا؛ فلا يذكر حجَّي، ولا زكريا ولا ملاخي عبادة الأوثان نهائيًا. وكانت هناك مخاوف من عودة الوثنية إلى يهوذا، بعد تأثير النساء الأجنبيات على أزواجهن.

٢. كان الاستيطان اليهودي في البلاد قليلًا جدًا، وكان في الزواج المختلط خطر حقيقي على وجوده القومي.

٣. كان هناك شعور لدى المنفيين بأنهم النسل المقدس، وإن تحقق نبوءة الأنبياء ولو بشكل جزئي قد جسَّد الإيمان بعناية إله إسرائيل الخاصة؛ لذلك كان يخشى أن تدنِّس الأجنبيات النسل المقدس.

٤. لم يظهر بعد التهويد الديني، الذي يسمح بإدخال بنات الإله الأجنبي في أحضان اليهودية ورعايتهن للأسرة اليهودية. فالميثاق المقدس مع الرب هو شأن داخلي خاص لـــ"نسل الرب".

يتكرر تشبيه الرب بالأب في السفر عدة مرات في أقوال ملاخي للكهنة، وكذلك لمن يخافون الرب: "ويكونون لي، قال رب الجنود، في اليوم الذي أنا صانع خاصة، وأشفق عليهم كما يشفق الإنسان على ابنه الذي يخدمه" (٣: ١٧). و يفسر في نهاية السفر الارتباط بهذا التشبيه: "هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء، وقلب الأبناء على آبائهم" (٣: ٢٣-٢٤). فليس من قبيل المصادفة أن يعتبر ملاخي إقرار السلام في الأسرة الإسرائيلية علامة على أيام المسيح وكأنهم إنجاز للمستقبل السعيد.

العناية ويوم الرب

إن النبي الذي يعتبر الرب أبًا ويشعر دائمًا بوجوده وعنايته، سينتفض بالطبع وبشكل خاص ضد الكافرين بعنايته. فهو لا يمكنه احتمال كلامهم: "لقد أتعبتم الرب بكلامكم. وقلتم: بم أتعبناه؟ بقولكم: كل من يفعل الشر فهو صالح في عيني الرب وهو يسر بهم، أو أين إله العدل" (٢: ١٧)؛ "أقوالكم اشتدت علي، قال الرب. وقلتم: ماذا قلنا عليك؟ قلتم: عبادة الله باطلة. وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره. وأننا سلكنا بالحزن قدام رب الجنود؟ والأن نحن مطوِّبون المستكبرين وأيضًا فاعلو الشر يبنون. بل جربوا الله ونجوا" (٣: ١٣-١٥).

قد أثيرت إشكالية عناية الشرير والصديق وجزائهما لأول مرة في نهاية عصر الهيكل الأول؛ فقد شغلتنا في أسفار إرميا وحبقوق وحزقيال وإشعياء الثاني. ولكل منهم رده الخاص. ورد ملاخي مبسَّط للغاية؛ فنجاح الأشرار مؤقت وزائل؛ فسرعان ما سيأتي يوم الرب الذي سيكون يوم دين لكل الأشرار، وسينال كل إنسان جزاءه: "فتعودون وتميزون بين الصديق والشرير، بين من يعبد الله ومن لا يعبده. فهو ذا يأتي اليوم المتقد كالتنور، وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشًا، ويحرقهم اليوم الأول الآتي، قال رب الجنود، فلا يبقي لهم أصلًا ولا فرعًا. ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها، فتخرجون وتنشأون كعجول الصِّيرَة. وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رمادًا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود" (٣: ١٨-٢١).

لا يعتبر يوم الرب هنا يوم حساب عالمي، يحدد مصير الشعوب، كما أنه ليس يوم كارثة كونية، لكنه مثل يوم محاكمة أشرار إسرائيل في أرض يهوذا ("يوم

محاكمة يهودي داخلي")[1]. في هذا اليوم سيطهر الرب أبناء لاوي وينقيهم ويخلصهم من الشوائب "ليكونون مقربين للرب تقدمة بالبر" (٣: ٣). تضم الرؤية المسيحانية لملاخي ثلاثة نماذج: الأول؛ تطهير العبادة المقدسة. الثاني؛ القضاء على الأشرار؛ الثالث، إحلال السلام في الأسرة الإسرائيلية. هذه الرؤيا مرتبطة كلها بمطلب واحد شامل وهو: "اذكروا شريعة موسى عبدي، التي أمرته بها في حوريب على كل إسرائيل. الفرائض والأحكام" (٣: ٢٢).

حجي وزكريا وملاخي

١. تنبأ هؤلاء الأنبياء الثلاثة في بداية عصر الهيكل الثاني، وهم يختتمون تاريخ النبوة في إسرائيل. ولا توجد في العهد القديم أسفار لأنبياء تنبأوا بعد ملاخي. "قال الحاخامات: ما أن انتهت مهمة الأنبياء الأواخر حجي وزكريا وملاخي حتى انصرفت روح القدس عن إسرائيل" (سنهدرين ١١: ١، يوما ٩: ٢، سوطا ١٣)؛ "إلى هنا كان الأنبياء يتنبأون بروح القدس، ومن بعدها أصغ إلى أقوال الحكماء" (سيدر عولام رابا، ٨٦، ٧٢).

٢. الثلاثة كان لهم علاقة إيجابية بالعبادات؛ بناء الهيكل، مكانة الكهنة، والعبادة المقدسة تقع على رأس اهتماماتهم وعملهم. ولقد أعلن الأنبياء السابقون أن مصير الأمة، وفشلها ونجاحها، غير مرتبط بالعبادات نهائيًا إنما بالسلوك الأخلاقي للشعب. أما هم فيؤكدون على أن نجاح الأمة مرتبط بالعبادة تحديدًا. ويمكن اعتبارهم أنبياء عبادة يعملون بجوار الهيكل ويساعدون عمل الكهنة في أقوالهم.

[1] قويفمان ص ٣٧٥.

٣. الأنبياء الثلاثة لا يوبخون؛ وعلى الرغم من أن في سفر "زكريا" دعوة إلى التوبة، وفي سفر ملاخي هناك شكوى من نقض ميثاق الزواج، والكفر بالعناية الإلهية، لكن أساس أقوال الثلاثة ليس التأنيب؛ بل أقوال تعزية لأورشليم والمنفيين وزعمائهم.

٤. أفق نبوءاقم محدودة للغاية؛ فهم مهتمون ب"يوم الصغائر" بالشئون الواقعية لزمانهم ومكانهم. ولا تحتل الموضوعات الكبرى والأزلية للأنبياء السابقين مكانة كبيرة في أسفارهم. وكذلك رؤاهم المسيحانية ليست ثرية في مضمونها. ومن الناحية الأيديولوجية فقد كان تجديدهم بعد أنبياء فترة الهيكل الأول قليلًا.

٥. حتى من ناحية قوة التعبير الفني وجمال البلاغة الشعرية، يَظهر تدهور في أسفار حجي وزكريا وملاخي مقارنة بأسفار الأنبياء السابقين. فَهم لم يكونوا شعراء كبار، ومعظم أقوالهم مكتوبة نثرًا، ينقصها الحماس الأخلاقي الموجود عند عاموس وهوشع، وإشعياء وإرميا.

٦. كان لدى إشعياء وإرميا إحساس بالقرب من الرب. وعند حزقيال نجد لأول مرة بداية عملية ابتعاد النبي عن الرب؛ فالرب لا يتوجه إليه باسمه، إنما "ابن آدم". وهو أول من يرى رجال سماويين" ويسمع كلام الرب لهم" (حزقيال ٩-١٠)، لكن كان عنده إحساس بالقرب من الرب. أما رؤى زكريا فهي بمثابة أحلام؛ فملاك يتوسط بينه وبين الرب، ويفسر له المشاهد وينقل له كلام الرب. وفي كتابه "دلالة الحائرين" يعدد موسى بن ميمون عشر مراتب للنبوة، وتوجد رؤى زكريا في المرتبة الثالثة، ومعظم أقوال الأنبياء في المرتبة السادسة والسابقة.

٧. يكرر الأنبياء الثلاثة حجي وزكريا وملاخي تعبير "هكذا قال رب الجنود"، "كلام رب الجنود"، أكثر من أي نبي آخر (مقارنة بحجم السفر). وفي

سفر حجي، الذي يحتوي على ٣٨ فقرة، تتكرر هذه الكلمات ١٢ مرة، من أجل إقناع السامعين أن كلام الرب في فمه. كما نُودِي مرات كثيرة بـــ"نبي" لنفس الهدف. وفي الإصحاح الأول فقط في سفر زكريا يتكرر تعبير "هكذا قال رب الجنود"، أو "كلام رب الجنود" سبع مرات، وفي فقرة واحدة ثلاث مرات؛ في الإصحاحات ٧-٨، عن الصوم، خمس عشرة مرة. وكذلك في سفر ملاخي تكرر هذا التعبير أكثر من عشرين مرة. ويؤكد زكريا عدة مرات على أنه رسول الرب؛ في حين لم يكن الأنبياء السابقون في حاجة إلى سبل الإقناع هذه.

٨. إن أسفار الأنبياء التي تناولناها بعد إشعياء الثاني جميعها لها أهمية تاريخية كبيرة في تاريخ إسرائيل وفي تاريخ النبوة، وبالطبع هناك حاجة واهتمام كبيرين إلى دراسة أسفارهم من نواحٍ كثيرة ومختلفة. ويمكن أن نجد في كل منها بالطبع تجديدات كثيرة في التعبيرات والتشبيهات والموضوعات، وكذلك في الآراء والعقائد، غير أن إسهامهم في أسس النبوة لا يضاهي إسهام كل من عاموس وإشعياء وإرميا وحزقيال.

الفصل الرابع عشر

أسس النبوة

(رؤوس موضوعات)

مفهوم "أسس النبوة" في حد ذاته دليل على التقدير الذي لا نظير له لأقوال الأنبياء. وهذا التقدير هو بالطبع تقدير غير موضوعي بالضرورة. على أية حال، فبعد دراسة أسفار كل الأنبياء الآواخر حان وقت محاولة إيجاز في رؤوس عناوين وباختصار شديد (من أجل منع تكرار ما أسهبنا فيه) ما نعتبره أسس النبوة.

النبوة والنبي

١. الفرق بين أنواع التجلي الإلهي المختلفة. التجلي الخاص للأنبياء. الفرق بين روح الرب وكلمة الرب. النبوءة كرسالة وكنقل للكلام الإلهي.

٢. الفرق بين نبوة النشوة؛ التي يحاول فيها النبي الوصول إلى التنبوء، وبين النبوة الحقيقية التي يكلف بها النبي من أعلى، سواء كان ذلك برغبته أو بخلاف رغبته؛ فما النبي سوى قناة فقط؛ أداة ووسيلة للنبوءة.

٣. تكليف الأنبياء، وَرَدُّ فعلهم على التكليف والرسالة: الشك، الخوف، التراجع، الفرار. العلاقة بين الرب والنبي. الصراع بين النبي والنبوءة (إرميا). يقين النبي التام بأن كلام الرب فقط هو الذي في فيه. مسئولية النبي وتصويره بالرائي (حزقيال).

٤. الفروق بين أنبياء الحق وأنبياء الكذب، والأنبياء المحترفين، والأنبياء الرسل. المواجهة القوية لأنبياء الحق للملوك والرؤساء؛ والتوتر بين النبي والمجتمع.

٥. يعمل الوحي الإلهي على النبي عبر طريقتين: الرؤية والاستماع. الرؤيا والمقال. الجانب البصري والجانب الحماسي في النبوة. النبي "كرائي لمشهد الرب" وكـــ"مستمع لكلام الرب"، كرائي للرؤى وكموبخ للشعب.

٦. مهمتان أساسيتان للنبوءة: الإخبار بالمستقبل، وتحدي مصير الحروب والشعوب؛ والتوبيخ، والتعليم والدعوة إلى اتباع الصراط المستقيم، وتعليم المعتقدات والآراء. هاتان المهمتان يتم التعبير عنهما أيضًا عبر الرؤيا وكذلك عبر الخطاب التوبيخي. وفي الإخبار بالغيب يتغلب عنصر الرؤى، وفي التوبيخ يتغلب عنصر الكلام. والنبي يجمع في شخصيته وفي كلامه وفعله بين العنصرين؛ فهو يتنبأ ويتحدث. ومعظم الأنبياء الأواخر كانوا شعراء متنبأين، قدموا تعبيرًا شعريًا فنيًا لمعتقداهم وآرائهم. إن النبوءة هي مزيج رائع بين التصوير والكلام؛ الصورة والفكرة؛ العقيدة والرأي؛ لكنها ليست أسلوبًا فلسفيًا منطقيًا بلا تناقضات. إن إرسال النبي يكون لجيله وشعبه، لكن أساس كلامه يكون موجهًا لكل الأجيال والشعوب.

٧. الأسلوب والوسائل الفنية للأنبياء ليست مجرد زخرفة لغوية خارجية؛ فالنبوءة هي عمل فني راق لا شبيه له في الأدب العالمي، وكما هو الحال في جميع الأعمال الكبرى فالشكل لا يخلو من المضمون، ولا يجب فصله عنه. فالتشبيهات والمشاهد، والأمثال والأعمال الرمزية، والتكرار والاستعارات، والتقابل والتلاعب بالألفاظ، والجدل والحوار؛ كلها من العناصر المهمة في شريعة الأنبياء وأسس النبوة.

٨. التطور في الدور الاجتماعي للنبي: الزعيم القومي، مؤنب الملوك، مؤنب الشعب. غير أن النبوة لم تكن في مراحلها المتقدمة جدًا توبيخًا وتعبيرًا عن الأفكار

السامية فقط؛ إنما إخبار بالغيب أيضًا. لذلك فمن غير الممكن إيجاد تعريف مبسط للنبوة؛ فعناصر النبوة كثيرة ومختلفة، وهي ليست مجرد مزج خارجي بين الرؤيا والكلام، والمشاعر والأفكار، ومشاهدة الجديد والتوبيخ؛ إنما مزيج غير منطقي لكل العناصر، ظاهرة روحية وعاطفية وعقلية فريدة في التاريخ الإنساني، لا يمكننا استيعابها بعقولنا، ولا نظير لها في عالمنا.

٩. شخصية النبي ضئيلة مقارنا بنبوءته. لذلك لا توجد في أسفار الأنبياء معلومات كثيرة عن شخصية الأنبياء وحياتهم. وأقوال النبي ليس لها "حقوق محفوظة"؛ فالنبوءة هي كلام الرب وليست كلام النبي. لذلك من الممكن أن تتكرر النبوءات في أسفار الأنبياء المختلفة.

١٠. الاختلافات بين الأنبياء الأواخر والأنبياء الأوائل والجذور المشتركة بينهما.

المعتقدات، الآراء والمطالب

١. سمو الأخلاق الاجتماعية على العبادة؛ للعبادة قيمة ثانوية مرتبطة بالأخلاق. والأخلاق قيمة تامة غير مرتبطة بالعبادة؛ لا قيمة مطلقة حتى لهيكل الرب؛ رفض الديانة الرسمية؛ المطالبة بالديانة الأخلاقية النابعة من القلب.

٢. المطالب الأخلاقية الرئيسية: الرحمة، الحكم، والعدل، ومعرفة الرب "قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب، إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعًا مع إلهك"[١]؛ التواضع والحشمة، الحق والسلام، مساعدة الفقراء والضعفاء، الأيتام والأرامل، طهارة اليد، البعد عن الجريمة والطمع،

---

[١] ميخا ٦: ٨

والكذب، والظلم. محاربة التكبر، والشهوات، والعدمية والاستخفاف. المطالبة بالتوبة. الحماس الأخلاقي الشديد للأنبياء.

٣. مصير الأمة؛ فشل الأمة ونجاحها مرتبط بسلوك الشعب، وخاصة بتنفيذ الوصايا الأخلاقية. البلايا هي عقاب على معاصي الشعب. المسئولية الأخلاقية الخاصة المتبادلة لكل إنسان في إسرائيل. إمكانية التوبة والخلاص؛ الإيمان بالثواب والعقاب القومي والشخصي.

٤. العقيدة التوحيدية بالوحدانية التامة للرب. قداسة الرب إله إسرائيل؛ سمو الرب في مقابل انحطاط الإنسان ودونيته؛ الصفات الأخلاقية للرب. الرب رجل حكم وعدل وحق، لكنه أيضًا "إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة"[١]، يصنع الرحمة، والحق والعدل. الرب خالق العالم، والمسيطر على كل الأجرام السماوية. وكل قوى الطبيعة خدَّامه. الرب هو إله كل الشعوب إله حي أبدي، يعمل في التاريخ، يملأ مجده العالم. وقوة كلمة الرب وعظمتها في تاريخ العالم والإنسان.

٥. مراقبة الرب لجميع الشعوب بشكل عام وإسرائيل بشكل خاص. كل ما يحدث في التاريخ يتم بحسب رغبته ومشورته. أشور وبابل عصا غضب في يد الرب، وهما أنفسهما سيعاقبان على جرائمهما. العدل الإلهي يتحكم في التاريخ. يوم الرب هو رمز لتجسيد سمو الرب على إسرائيل والبشرية كلها. فلسفة تاريخ الأنبياء.

---

[١] يونان ٤: ٢

٦. محاربة الوثنية وعادات التنجيم. الرأي بضآلة الأوثان وأعمال الإنسان. اعتبار الوثنية عبادة للأصمام، والسخرية من عبادة الشجر والحجر. رؤيا نهاية الوثنية.

٧. العلاقة الخاصة بين الرب وإسرائيل. اختيار إسرائيل معناه العقلاني (واجبات أخلاقية ودينية، رسالة إنسانية عامة، منارة للأمم)، وغير العقلاني (المحبة الأبدية لإله إسرائيل، غير المرتبط نهائيًا بسلوكهم). العهد بين الرب وإسرائيل. خيانة الشعب للرب هو نقض للعهد. الأمل باستئناف العهد. مصير شعب إسرائيل الخاص، الذي لا يمكنه التخلص من رسالته.

٨. التطلع إلى سقوط حكومات الشر وتحطم الاستبداد في إسرائيل والعالم. ضربات الرب ضد كارهي إسرائيل. النبوءات على الأمم. المطالب الأخلاقية من الأمم.

٩. إشكالية الشرير وأحواله طيبة، والبار وأحواله سيئة، من الناحية الإنسانية والقومية، وردود إرميا وحبقوق، حزقيال وإشعياء الثاني.

١٠. معارضة المادية السياسية للملوك والرؤساء والأهداف العلمانية للدولة. ضرورة عدم الثقة في القوة المادية العسكرية، والعلاقات الدبلوماسية والتحالفات العسكرية، والثقة في الرب وحده. "لا بالقدرة ولا بالقوة؛ بل بروحي قال رب الجنود"[1]. مطالبة الملوك بالعدل والحق. وصف الملك المثالي. المثالية السياسية الأخلاقية.

---

[1] زكريا ٤: ٦

١١. الخراب هو عقاب على معاصي الشعب، لكنه لن يجلب النهاية والفناء. فكرة البقية. وظيفة الخراب والشتات هي شفاء الشعب وتطهيره وصقله. في الشتات سيتم تأهيل الشعب للخلاص. نجَّت فكرة الخراب (ميخا وإرميا) الشعب من الدمار. القيمة الإيجابية للشتات. السكينة (الشخينة) تنفى مع الشعب وتعود وتعيد الشعب إلى صهيون.

١٢. الرؤيا المسيحانية. الأهداف القومية والعالمية لشعب إسرائيل، وجبل صهيون وبيت داود. صهيون مركز أخلاقي وديني لكل البشرية. السلام العالمي: "لا ترفع أمة على أمة سيفًا، ولا يتعلمون الحرب في ما بعد". نبوءات عن عودة صهيون، وحدة الأمة، بركة الشعب والأرض، العودة إلى الرب، العهد الجديد الأبدي. تأثير خلاص إسرائيل على أمم العالم. اعتراف البشرية كلها بعظمة الرب. شعب إسرائيل سيكون محل فخر واعتزاز في كل شعوب الأرض، "لأنه من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب"[١].

---

[١] إشعياء ٢: ٣

الملاحق

إشعياء ويونان

سفر يونان ليس مجموعة نبوءات إنما قصة عن يونان الذي يخبرنا عن طريق القصة، وبصورة ملموسة جدًا، عن جوهر النبوة، ومن الممكن أن يصبح مدخلًا لدراسة النبوة بشكل عام.

إن قصة يونان معروفة ومشهورة ولا حاجة إلى العودة إلى تفاصيلها. إنما سنناقش فقط الحقائق الأساسية والأفكار الرئيسية في السفر.

تكشف لنا أول فقرتين حقيقتين مهمتين جدًا: الحقيقة الأولى؛ أن يونان قد أرسله الرب إلى المدينة الكبيرة نينوى، التي يعبد أهلها الأصنام، وكلَّفَه بدعوة أهل نينوى إلى الصراط المستقيم، كي يتوبوا وينجوا من البلاء. والحقيقة الثانية؛ أن يونان فرَّ من ترشيش كي لا يقوم بالمهمة التي كُلِّف بها. فقد أرسله الرب شرقًا إلى نينوى لكنه ارتحل غربًا إلى ترشيش في الاتجاه المعاكس كي يبتعد عن نينوى قدر المستطاع.

لماذا فرَّ يونان من أمام الرب؟ لم يذكر الإصحاح الأول أي شيء، وهذه هي طريقة القصة المقرائية، التي لا تقص ما يدور في نفس البطل لكن أعماله وأقواله فقط. لكن يمكننا عرض ثلاث إجابات لهذا السؤال: الإجابة الأولى؛ أن يونان قد عرف مسبقًا أن أهل نينوى سوف يتوبون إلى الرب، وأن الرب سيرحمهم، لذلك لم يرغب في أن يكون ملفِّقًا ونبي كذب. والإجابة الثانية قدمَّها راشي؛ وهي أكثر عمقًا: "ما الذي شاهده يونان كي لا يرغب في الذهاب إلى نينوى؟ قال: عبدة النجوم والكواكب القريبين من التوبة. فإذا أخبرتهم وتابوا، أصبحت ملْزِمًا

لإسرائيل الذين لا يصغون إلى كلام الأنبياء" (وكذلك قال رادق). إن المثال الجيد لنينوى سيزيد من غضب الرب على إسرائيل الذين لا يُصلحون من أعمالهم على الرغم من توبيخ الأنبياء. والإجابة الثالثة الأكثر قبولًا؛ إجابة صاحب تفسير "ماتسودوت دافيد"[1] حيث يقول: "لم يكن يرغب في أن يكون رسولًا في هذا الأمر، لأنه كان يرى أنه من الأفضل أن ينالوا عقابهم على أعمالهم ويبيدون وألّا يصبحوا شيطانًا لإسرائيل". يمكننا نحن التخمين بأن مثل هذا القرار الشجاع بالهرب من أمام الرب لا يُتَّخذ بدون تردد وتخبط نفسي، وبدون سبب حقيقي ومهم جدًا. ويبدو أن الإجابة الثالثة يمكنها تفسير سبب هروبه. فروح يونان قد احتجت على نجاة أعداء إسرائيل، فلماذا هو تحديدًا، الإسرائيلي، عليه أن يأتي بالنجاة لأبناء الشعب الذي سيقوم في المستقبل بتدمير أرضه وسبي شعبه؟

هل اعتقد يونان أنه سيستطيع الاختباء من الرب، أم أن الخلاص لن يتحقق لنينوى إذا هرب؟ لم يعتقد هذا بالطبع، لكنه لم يرغب في أن يكون خلاص نينوى على يديه؛ فهو لم يشفق على نينوى "مدينة الدماء" (ناحوم ٣: ١)، وظنَّ أنه إذا هرب إلى ترشيش سيجد الرب رسولًا آخر. كان ذلك سبب هروبه الوحيد، ألَّا يتحقق الخلاص على يديه، على الرغم من علمه بأنه لن يختفي من أمام الرب. وبالفعل عندما هبَّت العاصفة — الخارجية – في البحر، هدأت عاصفة روحه – الداخلية – فهدأ، "واضطجع ونام"؛ فقد أدرك الآن أنه سيموت مع كل رجال السفينة، أو سيموت بمفرده وسيتحرر من مهمته؛ فيقول لرجال السفينة في هدوء

[1] شرح لبعض أجزاء من أسفار الأنبياء والمكتوبات وضعه الحاخام دافيد ألتشولر من حاخامات أشكناز في القرن الثامن عشر، وأكمله ابنه يحيئيل هليل. والتفسير يفسر جميع أسفار العهد القديم باستثناء راعوث ومراثي إرميا وأستير.

تام: "خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم، لأنني عالم أنه بسببي هذا النوء العظيم عليكم" (١: ١٢). ولا يعترض يونان نهائيًا على إلقائه في البحر، على العكس، فهو لم يدعو الرب من أجل إيقاف العاصفة لأنه سعد بها، بل عرض هو نفسه إنزاله إلى البحر فحينها سيتوقف البحر عن هياجه.

وفي الإصحاح الأخير نسمع من فم يونان نفسه مبرر هربه: "آه يا رب، أليس هذا كلامي إذ كنت بعد في أرضي؟ لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم وبطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر" (٤: ٢). ثم يطلب من الرب: "فالآن يا رب خذ نفسي منِّي، لأن موتي خير من حياتي" (٣). لكن الخوف من أن يبدو ملفِّقًا وكاذبًا لا يفسِّر تفضيله الموت ونداءه "إن موتي خير من حياتي". لكن الأسف على أن تكون نجاة نينوى على يديه سيكون سببًا معقولًا لطلبه الموت. وتساعد قصة اليقطينة ونهايتها في تفسير هرب يونان؛ فيونان يشفق على اليقطينة لكن ليس على أهل نينوي، فيعظه الرب: "أنت أشفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة" (٤: ١٠)، هنا يتضح الخلاف بين الرب ويونان: فالرب أشفق على نينوى ويونان لا يشفق عليها، فيعلِّمه الرب أن رحمته تسع كل المخلوقات، حتى أهل نينوى وأطفالهم، وحتى بهائمهم.

على أي حال يفيدنا سفر يونان بحقيقة مهمة جدًا من أجل فهم النبوة ألا وهي عدم وجود اتفاق دائم بين النبي والنبوة؛ فيونان لم يتفق مع مهمته وتمرد عليها وهرب منها وقال الكلمات رغمًا عنه وعلى غير إرادته. لكن الرب فرض النبوة على يونان، وهي الخصلة الأساسية في النبوة الحقيقية، وهي أن تصبح النبوة أقوى من النبي، فالنبي يجب أن يقولها وأن يعمل وفقًا لها، حتى وإن كانت على عكس

إرادته. هكذا يمكننا الوقوف على ما يدور في نفس إرميا الذي كان مجبورًا على الكلام والتنبوء بخراب شعبه وأرضه، رغم عدم اتفاقه مع هذه النبوءة، وعدم رغبته في تحققها بالطبع. ولو تحدث إرميا بأسلوب يونان لقال: "موتي أفضل من حياتي وألا أرى خراب شعبي"، وقد قال بالفعل: "ملعون اليوم الذي ولدت فيه ... لأنه لم يقتلني من الرحم، فكانت لي أمي قبري ورحمها حبلى إلى الأبد. لماذا خرجت من الرحم لأرى تعبًا وحزنًا فتفنى بالخزي أيامي" (٢٠: ١٤-١٨).

نستفيد من مثالَيِّ إرميا ويونان أن المهمة النبوية تكون أحيانًا أكبر من روح النبي ورغبته، لدرجة أنه يكره حياته ويطلب موته؛ وهذه الظاهرة يستحيل وجودها في نبوءة الكذب وعند أنبياء الكذب. فنبي الكذب يكيِّف كلامه بحسب رغبه سامعيه وليس بحسب رغبته هو. إذن، يمكننا تعريف النبوة بأنها "خِدمة الرب" سواء كان هناك توافق أو عدم توافق بين النبي والنبوة، وكذلك اختفاء شخصية النبي ورغبته من أجل "خدمة الرب"، ومن أجل الأفكار التي يجب أن يبلِّغها.

بهذا الشكل يكون إشعياء على النقيض من يونان؛ وبما أن يونان هو أبرز مثال على عدم التوافق، فإن إشعياء هو النموذج الأبرز على التوافق التام بين النبي ونبوءته. فأمامنا قطبان: "هأنا أرسلني" من ناحية؛ و"فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب" من ناحية أخرى؛ وبين هذين القطبين الأنبياء الآخرين الذين كانت لديهم ترددات ومخاوف، وأرادوا الهروب أكثر من مرة ولم يفعلوا، وجادلوا الرب أكثر من مرة واشتكوا من إرسالهم كموسى وإيليا وإرميا وغيرهم.

غير أن سفر يونان مهم ليس فقط لأننا نتعرف منه على جوهر النبوة الحقيقية؛ فهو يحتوي أيضًا على أفكار أساسية في فلسفة الأنبياء:

على مستوى مفهوم الألوهية

١. إله إسرائيل هو إله كل الشعوب حتى الآشوريين، وهو يسيطر على العالم كله وعلى كل عناصر الطبيعة. ولا يُذكَر ذلك بشكل مجرد إنما عبر قصة ملموسة. فالرب يخضع له كل من: الرياح والبحر والسمك واليقطين، والدود؛ أي: قوى البحر والبر، والنبات والحيوان.

٢. إله إسرائيل "رؤوف رحيم، بطيء الغضب كثير الرحمة" وسعت رحمته جميع مخلوقاته، وليس شعب إسرائيل فقط. وربما لا يوجد في العهد القديم كله تعبير أكثر تجسيدًا لعالمية الإله وقيمه الأخلاقية.

على مستوى الإنسان

١. القيمة الكبيرة للتوبة؛ ففي وسعها إبطال أحكام وتطهير المجرمين والآثمين.

٢. الرب لا يطلب من الشعوب الأخرى ترك آلهتهم، ويكفيه فقط أن يتراجعوا عن طريق الشر وعن الظلم الذي في أيديهم كي ينالوا رحمة الرب. وسفر يونان كله مليء بمحبة الإنسان وتشجيع الأغراب؛ فعندما يطلب يونان من الملاحين، عبدة الأوثان، أن يلقوا به في البحر لا يريدون القيام بذلك، بل يبذلون كل جهدهم من أجل الوصول إلى اليابسة وإنقاذه، وعندما يضطرون إلى طرحه في البحر يصلُّون للرب: "يا رب! لا نهلك من أجل نفس هذا الرجل، ولا تجعل علينا دمًا بريئًا، لأنك يا رب فعلت كما شئت" (١: ١٤). هؤلاء الملاحون البسطاء يوصفون بأنهم من محبي الشعب اليهودي، بل أن رجال نينوى الأشرار يؤمنون بكلام يونان ونادوا بصوم، ولبسوا مسوحًا من كبيرهم إلى صغيرهم حتى أن ملك نينوى تغطى بمسح وجلس على الرماد. وما لم ينجح فيه أنبياء إسرائيل في مئات السنين نجح يونان في فعله في يوم واحد.

ومن ناحية العلاقة مع الأمم لا يوجد سفر عالمي مثل سفر يونان؛ ففي هذا الموضوع تحديدًا لا يوجد تعارض بين يونان وإشعياء، فتظهر في نبوءات إشعياء أيضًا نفس نظرة الحب والرحمة للأمم خاصة لآشور ومصر.

نحن لا نناقش هنا إشكالية متى وبواسطة من تم تدوين سفر يونان؟ هناك من يؤخر زمن تدوين السفر إلى عصر الهيكل الثاني لسببين: الأول؛ الصور اللغوية المتأخرة الموجودة في السفر. والثاني؛ الاعتقاد أن السفر تم تدوينه في العصر الذي نسيت فيه جرائم آشور في إسرائيل بسبب الأعمال التي صنعها البابليون في يهوذا. لكن من المحتمل أن يكون السفر قد دُوِّنَ قبل أن تسبب نينوى مشاكل لإسرائيل، أي في عصر يربعام الثاني وعزيا.

يذكر سفر الملوك نبيًا اسمه يونان بن أمتاي من جت حافر تنبأ بخراب حدود إسرائيل في عصر يربعام الثاني (الملوك الثاني ١٤: ٢٥). ويصعب كثيرًا التخمين أن الحديث في سفر يونان ليس عن نفس النبي بل عن نبي آخر. على العكس، فمن تنبأ بخراب حدود إسرائيل يمكنه أن يشعر حقًا بألم ومرارة إنقاذ نينوى.

ميخا بن يَمْلَة

حلقة الوصل بين الأنبياء الأوائل والأواخر

من السائد اعتبار النبي عاموس هو أول أنبياء الكتابة والفاصل بين الأنبياء الأوائل والأواخر. وقف الكثيرون على أنه من الممكن العثور في أقوال الأنبياء الأوائل وأعمالهم على جذور النبوة الأدبية الكلاسيكية غير أن الاختلافات بين الأنبياء الأوائل والأنبياء الأواخر بارزة وواضحة وأساسية. وهناك سؤال يطرح نفسه: هل لا توجد حلقة وسط بين صموئيل وناثان وإيليا وأليشع من ناحية، وبين عاموس وهوشع وإشعياء وميخا من ناحية أخرى؟

فرضية هذا النقاش هو الرأي القائل بأن هناك حلقة مرحلية وهي: ميخا بن يَمْلَة. ففي شخصية هذا النبي ونبوءته يمكن العثور على قواسم مشتركة بين الأنبياء الأوائل والأنبياء الأواخر على السواء، كما يمكن اعتباه المبشر بعاموس وإشعياء. لكننا سننظر أولًا إلى الصفات التي تجعل من ميخا أحد الأنبياء الأوائل:

١. لم يبق سفر نبوءات لميخا، مثلما لم تتبق أسفار نبوءات للأنبياء الأوائل. وعلى الرغم من أنه قال نبوءات إلا أن هذه الأقوال هي فقط جزء من قصة عن حدث سياسي، كما أن أقوال صموئيل وناثان وإيليا ممزوجة في داخل قصص عن أعمالهم، أو عن أعمال الملوك الذين عاشوا في عصرهم.

٢. من ناحية زمنه نجد أن ميخا ينتمي إلى عصر الأنبياء الأوائل. فقد وقعت حرب راموت جلعاد في سنة ٨٥٢ ق.م[1] أما عاموس فقد بدأ التنبوء في ٧٦٠-٧٥٠ ق.م؛ أي هناك ١٠٠ سنة تفصل بين ميخا وعاموس.

٣. ميخا بن يَمْلَة لا يوبخ الشعب، إنما ملك إسرائيل فقط مثلما فعل ناثان وجاد وإيليا وأليشع؛ فالأنبياء الأوائل لم يكونوا من موبخي الشعب بل الملوك بخلاف الأنبياء الأواخر الذين كان أساس كلامهم توبيخ الشعب كله.

٤. لا يوجد في مضمون كلام ميخا توبيخ أخلاقي وديني؛ فكلامة مرتبط بأمر عسكري وسياسي واحد فقط؛ هو معركة راموت جلعاد. وعلى الرغم من أن إشعياء وإرميا أعربوا عن رأيهم في السياسة الأمنية العامة لملوك يهوذا إلا أنهما لم يطالبا بالتنبوء عن مصير معركة معينة. وهذه الظاهرة حول سؤال الرب قبل معركة، أو عملية عسكرية، تميز فترة الأنبياء الأوائل[2]. ومن هذه الناحية ينتمي ميخا إلى الأنبياء الأوائل.

٥. وفي مقاله بعنوان "علاقة الأنبياء بالسياسة الخارجية لأخآب" يقول الدكتور ب. أوفنهايمر إن منظومة العلاقات بين النبوة وبين الملكية وصلت في عصر أخآب إلى حد الأزمة وإن تجربة عصر أخآب قد مهدت الطريق لمعارضة أنبياء الكتابة لسياسة التحالفات مع الشعوب وميل الملوك والرؤساء إلى الاعتماد على

---

[1] ב. מזר, מלחמות ישראל עם ארם, היסטוריה צבאית של א"י בימי המקרא (עורך: י. ליוור), 1964 ע' 212.

[2] القضاة ١: ١، ٢٠، ٢٣، ٢٧، صموئيل الأول: ٢٣: ٢، ٣٠، ٨، صموئيل الثاني ١: ٥، ١٩، الملوك الأول ١٢: ٢٤، ٢: ١٣، ٢٢: ٥، الملوك الثاني ٣: ١١.

القوة العسكرية فقط[1]. وفي هذه الناحية لم يخرج ميخا عن إطار عمل الأنبياء الأوائل، لكن أوفنهايمر يضيف أنه على خلفية الأربعة مائة نبي كذب، الذين شجعوا أخآب بحماس كبير على الخروج إلى راموت جلعاد، تبرز شخصية ميخا بن يَمْلَة العظيمة بشكل كبير. وليس فقط أنه أثبت جرأة كبيرة بل إن المقاومة الشديدة له لم تثنيه عن رأيه. وهو لا يتهمهم بالكذب العمدي، فهم تحولوا عن غير معرفة إلى أداة تخدم الرب كي تغوي أخآب وتضلله".

٦. كان قويفمان[٢] قد وقف بالتأكيد على أن الرسالة هي من الميزات الأساسية للنبوءة الإسرائيلية؛ فأنبياء إسرائيل لم ينتظروا حتى يتم استدعائهم لتقديم المشورة؛ فهم أُرسلوا لقول كلمة الرب فذهبوا. رغم ذلك يذهب ميخا إلى الملك فقط بعد أن يستدعيه الملك.

سنستعرض الآن الصفات المشتركة بين ميخا والأنبياء الأواخر:

١. مِن الصفات التي تميز الأنبياء الأواخر هي عزلتهم؛ فالأنبياء الأوائل ينتمون إلى مكانة اجتماعية معينة. ويتجمع حولهم أبناء الأنبياء، ويعملون في داخل قطاع الأنبياء؛ وذلك بخلاف الأنبياء الأواخر الذين يعمل كل منهم بمفرده[٣]. كذلك عمل ميخا بمفرده في وحدة وانعزال كاملين. فهو يختلف تمامًا عن كل أنبياء جيله. وهو الوحيد "الذي يتنبأ على الملك بالشر". والفرق بينه وبين الأربع مائة نبي الآخرين ليس ذلك الموجود بين أنبياء الرب وأنبياء البعل. فلو أن الأمر كذلك، لما

---

[1] ב. אופנהיימר, יחס הנביביאים לפוליטיקה החיצונית של אחאב, ספר אורבך, החברה לחקר המקרא, ירושלים תשט"ו ע"ע 84, 92.

[٢] י. קויפמן, תולדתו האמונה הישראלית, כרך ג' ספר א' ע' 4, 32-30.

[٣] المرجع السابق כרך א' ספר ב' ע' 512.

اختلف ميخا عن إيلي الذي حارب هو أيضًا أنبياء البعل. سأل يهوشافاط ملك يهوذا: "هل يوجد هنا نبي آخر للرب؟" من هنا نجد أن يهوشافاط قد اعتبرهم أنبياء الرب. أما أنبياء البعل فقد قتلوا قبل ذلك على يد إيليا. وبذلك فإن وقوف ميخا ضد الأنبياء خاصة ضد صدقيا بن كنعنة، لنموذج أولي على نبي الرب الأوحد الذي واجه بمفرده جميع الأنبياء الآخرين الذين تنبأوا هم أيضًا باسم الرب. ويتشابه في ذلك كثيرًا الأنبياء الأواخر[١] مع كل من ميخا وإرميا.

٢. النقاط المشتركة بين ميخا بن يَمْلَة وميخا مثيرة للاهتمام كثيرًا. يقول ميخا: "هكذا قال الرب على الأنبياء الذي يضلون شعبي، الذين ينهشون بأسنانهم وينادون سلام والذي لا يجعل في أفواههم شيئًا، يفتحون عليه حربًا"[٢]. وهذه الكلمات توافق أنبياء الكذب عند أخآب، عبيده الأذلاء الذين يعيشون من دعمه لهم. فهم يبشرون الملك بما ينتظر سماعه منهم بالضبط. وفي المقابل يقول ميخا في شدة: "لكنني أنا ملآن قوة روح الرب وحقًا وبأسًا، لأخبر يعقوب بذنبه وإسرائيل بخطيئته"[٣]. ويزعم ميخا أنه هو فقط الذي يعمل من قوة روح الرب، أما نبوءات بقية الأنبياء فكذب. لكن يدور سجال بين ميخا بن يَمْلَة وصدقيا حول الموضوع نفسه؛ فيزعم ميخا بن يَمْلَة أن نبوءة الأنبياء لا تنبع من روح الرب إنما من روح الكذب، وأن نبوءته فقط هي التي تعمل من روح الرب. ثم يلطم صدقيا ميخا على وجهه ويسأله في سخرية: "من أين عبر روح الرب مني ليكلمك؟".

---

[١] ميخا ٣: ٥-٨، إرميا ٢٨.

[٢] ميخا ٣: ٥

[٣] ميخا ٣: ٨

وكما هو معروف فإن الكلمات "سمعت الشعوب جميعها" تظهر في أقوال ميخا بن يَمْلَة وكذلك في كلام ميخا[1]، لكن هذه الكلمات غير موجودة في الترجمة السبعينية، ويعتقد معظم الباحثين أنها إضافة لمن قام بالترتيب أو النسخ، وبدَّل بين ميخا بن يَمْلَة وميخا. لكن حقيقة أن من قام بالترتيب ظن أنه من الممكن أن يضيف إلى كلام ميخا بن يَمْلَة اقتباس من أقوال ميخا تشير إلى الشبه الكبير بين هذين النبيين ليس فقط في الاسم بل في مضمون الكلام أيضًا.

٣. وضع ومشهد الشجار بين إرميا وحننيا بن عزور يشبه كثيرًا الشجار بين ميخا بن يَمْلَة وصدقيا.

أ. في الحالتين يقف الأنبياء في مكان عام رئيسي وفي وضع علني. ويقف ميخا وصدقيا عند مدخل بوابة السامرة أمام الملوك والأنبياء وكل الشعب. ويقف إرميا وحننيا أمام الكهنة وأمام كل الشعب في بيت الرب.

ب. في الحالتين يستعين أنبياء الكذب بعمل مشهد درامي رمزي. يتخذ صدقيا له قرنين من حديد – رمزًا للقوة والعظمة العسكرية — ويعلن "بهذه تنطح الآراميين حتى يفنوا" (الملوك الأول ٢٢: ١١). ويأخذ حننيا النير من عنق إرميا، ويحطمه أمام أنظار الشعب ويعلن: "هكذا أكسر نير نبوخذ نصر ملك بابل"[2].

ت. في الحالتين يتأجل الحسم حول حقيقة نبوءة المستقبل؛ فإرميا لا ينكر نبوءة حننيا بل ويتبعه وبعد فترة من الوقت يتلقى من الرب نبوءة جديدة تمنحه اليقين بأن أقوال حننيا كذب. والوضع متشابه أيضًا عند ميخا، فبعد أن يتم لطمه ويُسأل:

---

[1] الملوك الأول ٢٢: ٢٨، ميخا ١: ٢.

[2] إرميا ٢٨: ١١

""من أين عبر روح الرب مني ليكلمك؟" لا يرد على كلام صدقيا بنبوءة أخرى إنما يقول: "إنك سترى في ذلك اليوم الذي تدخل فيه من مخدع إلى مخدع لتختبيء"؛ أي أن ميخا يقترح الانتظار والمشاهدة، بالضبط كما فعل إرميا. واختبار حقيقة نبوءة من هذا النوع يظهر في سفر التثنية ١٨: ٢١-٢٢: "وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي تكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب و لم يحدث و لم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب". وأمر الملك بوضع ميخا في السجن "حتى مجيئي بسلام" يناسب تعليمات سفر التثنية. ويرد ميخا على صدقيا: "إن رجعت بسلام فلم يتكلم بي الرب". والأمر المدهش أن إرميا أيضًا يعتمد في رده على حننيا على التثنية ١٨ بقوله: "إن الأنبياء الذين كانوا قبلي وقبلك منذ القديم وتنبأوا على أراضٍ كثيرة وعلى ممالك عظيمة بالحرب والشر والوبا، النبي الذي تنبأ بالسلام، فعند حصول كلمة النبي عرف ذلك النبي أن الرب قد أرسله حقًا"[١].

هناك علاقة وثيقة بين ميخا بن يملة وميخا وإرميا في علاقتهم بأنبياء الكذب ونبوءات الحق ونبوءات الكذب.

٤. وعلى غرار نبوءة الأنبياء الأواخر هكذا أيضًا نبوءة ميخا لا تنبع من نشوة وغير مرتبطة بأي حماس عبادي أو عنصر خارجي. فهو لم يكن في جورن السامرة نهائيًا عندما أقيم الحفل الملكي فيه. ملك إسرائيل يرسل خصي لإحضاره. ويحاول الرسول التأثير على ميخا ليكون كلامه طيبًا ككلام سائر الأنبياء، لكن ميخا يجيبه: "أما الذي يضعه الرب في فمي أحرص أن أتكلم به"[٢]. وهذا الرد يذكرنا بلا شك برد بلعام على بالاق، كما أن محاولة ميخا التهرب من قول الحق لتذكر بعض

[١] إرميا ٢٨: ٨-٩.

[٢] العدد ٢٣: ١٢، ٢٦، وكذلك ٢٤: ١٣.

الشيء بمحاولة بلعام التهرب من قول الرب الحقيقي، لكن في نهاية الأمر يقولان رؤيا النبوءة الحقيقية. على أية حال فالتشابه بين ميخا وبلعام لا يجب أن يضللنا. فبلعام يقول كلامه في أماكن العبادة المؤابية بجوار المذابح والقرابين. وفي المقابل لا يرتبط كلام ميخا بأي مكان للعبادة أو أي طقس عبادة، وهو من هذه الناحية يشبه الأنبياء الأواخر أكثر.

٥. ميخا بن يَمْلَة هو أول من رأى الرب يجلس على عرشه وكل جيش السماء يقف عن يمينه وعن شماله، وكان لوصف موكب السماء هذا تأثير مباشر على وصف التجلي الإلهي لإشعياء وحزقيال؛ على الرغم من وجود اختلافات بين الوصفين. أولًا، في القصة عن ميخا لا تظهر فكرة الخوف والمهابة؛ فقد قيل عن موسى: "فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله"[١]؛ "لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش"[٢]. وإشعياء يقول: "ويل لي! إني هلكت ... لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود"[٣]. وحزقيال يسقط على وجهه[٤]، لكن لا توجد عند ميخا أي إشارة على خوف وخشية؛ فهو يقول ببساطة: "قد رأيت الرب جالسًا على كرسيه"[٥]. ثانيًا؛ هناك أيضًا اختلافات في صيغة الرؤية: "يقول إشعياء: "رأيت السيد جالسًا على كرسي عالٍ ومرتفع"[٦]، وحزقيال يقول:

---

١ الخروج ٣: ٦

٢ الخروج ٣٣: ٢٠

٣ إشعياء ٦: ٥

٤ حزقيال ١: ٢٨

٥ الملوك الأول ٢٢: ١٩

٦ إشعياء ٦: ١

"فرأيت رؤى الله .. وإذا بمجد الرب واقف هناك كالمجد الذي رأيته عند نهر خابور"[1]. ثالثًا؛ كما أن تفاصيل الصورة لا تتطابق عند ميخا وإشعيا وحزقيال؛ لكن عند الثلاثة رؤيا واحدة تشبه رؤية الرب الجالس على كرسي مجده محاطًا بجيش السماء. يقول عاموس: "رأيت السيد قائمًا على المذبح"[2]. هذه الكلمات عن رؤيا الرب ومَشَاهِد الرب غير موجودة نهائيًا عند أي نبي من الأنبياء الأوائل؛ لكنها موجودة فقط عند موسى وميخا وعاموس وإشعياء وحزقيال وأنبياء أواخر آخرين. فصموئيل لم يرَ الرب، ولم يرَ رؤى الرب؛ فقد كان نبيًا سامعًا وليس رائيًا. وكذلك إيليا في حوريب لم يشاهد أي صورة إنما سمع فقط "صوت منخفض خفيف، فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة، وإذا بصوت إليه يقول: ما لك هنا يا إيليا؟"[3].

من الممكن أن يكون هذا الموضوع أحد الاختلافات الرئيسية جدًا بين الأنبياء الأوائل والأواخر. الأوائل لم يروا رؤى الرب؛ فالوحي الإلهي عمل معهم عبر السماع فقط. فقد سمعوا أصواتًا، لكنهم لم يروا صورًا ولم يشاهدوا أي رؤية، يظهر فيها الرب في أي صورة كانت. وفي المقابل فإن نبوءة عاموس، أول الأنبياء الأواخر، تشمل خمس رؤى يرى الرب في اثنتين منها؛ ففي الرؤية الثالثة يرى عاموس الرب "وإذا الرب واقف على حائط قائم وفي يده زيج"[4]، وفي الرؤية

---

[1] حزقيال ١: ١، ٣: ٢٣

[2] عاموس ٩: ١

[3] الملوك الأول ١٩: ١٢-١٣

[4] عاموس ٧: ٧

الخامسة يرى عاموس الرب واقفًا على المذبح. وهذا العنصر من العناصر المهمة جدًا في جوهر نبوة الأنبياء الأواخر.

إن المشهد الذي يصفه ميخا هو سابقة حقيقية في رؤى عاموس، وهو يقرب ميخا من عاموس كثيرًا.

٦. نجد في أقوال ميخا تشبيهًا سبق فيه الأنبياء الأواخر، وأقصد هنا تشبيه الشعب بالخراف، وكذلك تشبيه الملك والرب بالراعي: "رأيت كل إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها"[١]. ومثل هذا التشبيه نجده بعد ميخا عند الأنبياء الأواخر (إشعياء، إرميا، حزقيال وغيرهم)، لكن هذا التشبيه غير موجود قبل ميخا عند الأنبياء الأوائل.

٧. لا يوجد أيضًا أي نبي من الأنبياء الأوائل لديه لغة تصويرية، مرئية كما هو عند ميخا؛ فأقواله تتسم بالمشاهد المرئية. ورؤيا موكب السماء متأثرة فيما يبدو بمشهد حقيقي رآه ميخا من قبل عند مدخل باب السامرة. فقد شاهد ملك إسرائيل يجلس على كرسي مجد ووزرائه عن يمينه وعن شماله. وهذه الصورة نقلت خياله من الملك البشري المعرَّض للقتل إلى الملك الأعلى الأبدي الذي يحدد مصير ملوك البشر.

٨. يعتبر ميخا الوحي الإلهي هو "روح الرب"، وهو لا يأتي في ذلك بجديد، فهذه الرؤية موجودة منذ عصر القضاة. فروح الرب هي التي تمنح البطولة ليفتاح وشمشون وهي التي تجعل شاول يتنبأ[٢]، لكننا لا نجد عند أي نبي آخر قبل ميخا

---

[١١] الملوك الأول ٢٢: ١٧

[٢] القضاة ١١: ١٩، ٢٩، ١٤: ٦، صموئيل الأول ١٠: ١٠، ١٩: ٢٣.

تجسيدًا لروح الرب، الذي يعتبر كيانًا سماويًا ذاتيًا: "ثم خرج الروح ووقف أمام الرب، وقال: أنا أغويه"[1]. ولقد تم التعبير الكامل عن هذه الرؤية في سفر أيوب؛ والسلطة التي منحت لروح الكذب عند ميخا يمكن مقارنتها بالسلطة التي منحها الرب للشيطان في أيوب. ففي الموضعين يستخدم الرب كائنًا سماويًا لتنفيذ رغبته في البشر في العالم السفلي. وكذلك نجد في الأنبياء الأواخر تأثير رؤية روح الرب ككيان روحاني إلهي له كيانه الخاص. يقول ميخا: "أنا ملآن قوة روح الرب"[2]، ويقول إشعياء: "ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم"[3]، كما يتحدث حزقيال عن روح الرب التي توقفه على قدميه، والتي تحمله إلى أورشليم وتبعث الحياة في العظام البالية[4].

٩. إن النبوءة الحقيقية يعملها روح الرب؛ أما النبوءة الكاذبة فمصدرها الروح الكاذبة، لكن حتى الروح الكاذبة يعملها روح الرب. وأساس هذه الرؤية في فكرة أن لكل نبوءة مصدر غير بشري، أو يسمو فوق البشر. وإن مفهوم "روح الرب" يشير في كل مكان إلى نوع ما من القوة فوق البشرية. ونتيجة تأثير هذه القوة يستطيع الإنسان فعل أشياء هو غير قادر على فعلها بشكل طبيعي وبقواه الإنسانية الطبيعية. وبتأثيرها يصبح الإنسان شخصًا آخر. ولقد رفض ميخا فكرة أن هناك قوة ما عليا أخرى، هي مصدر الوحي النبوي، لذلك قبل فكرة أن الرب نفسه هو وضع روح الكذب في فم أنبيائه. وعن ذلك يقول قويفمان، إنه من العار التمييز

---

[1] الملوك الأول ٢٢: ٢١

[2] ميخا ٣: ٨

[3] إشعياء ١١: ١

[4] حزقيال ٢: ١، ١١: ١، ٣٧.

الحدسي بين "كلام الرب" المصدر الحقيقي للنبوءة، وبين "الروح" التي هي ظاهرة مصاحبة للنبوءة. فالنبوءة الحقيقية ليست سوى كلام الرب؛ فالرب لا يتجلى لأنبياء أخآب ليضع كلام الكذب في فمهم .. إنما "الروح" هي التي تجعل هؤلاء أنبياء ظاهريًا، لا يعرفون كلام الرب. أما ميخا فليس نبيًا بقوة "روح الحقيقة"، إنما بكلام الرب(١). ومع ذلك فإن كلام ميخا عن روح الكذب تثير إشكالية كبيرة، تخبط فيها كبار المفسرين. فكيف يمكن أن يكون الرب نفسه هو الذي يضع نبوءات كذب في فم أنبيائه؟ يقول رادق: "وقل الرب من يغوي أخآب؟" هذه الكلمات موضع ارتباك شديد لمن يأخذ الكلام على ظاهره. والحقيقة أن الرب قد أيقظ روح أنبياء الكذب لتغوي أخآب للذهاب إلى راموت جلعاد لأنه كتب عليه الموت. وليس لأن روح النبوءة قد حلت على أحدهم، لكن رغبة في الحديث إلى أخآب بهذا الكلام ... وكل هذا الكلام كلام بلاغي قاله ميخا، وليس أن ميخا رأى هذه الأمور أو سمعها، لأن روح النبوءة لن تكون الحقيقة فقط باسم الرب". ويقول راشي أن روح الرب هي روح نابوت اليزرعيلي. وهذا التفسير المدراشي يحل المشكلة اللاهوتية؛ فموت أخآب هو عقاب على عمل نابوت، وروح نبوت هي السبب غير المباشر لموت أخآب. وهذا التفسير بالطبع تفسير ظاهري. فظاهريًا ينسب ميخا نبوءة الكذب إلى مصدر إلهي علوي.

ختامًا رأينا أن ميخا ينتمي إلى الأنبياء الأوائل في ستة أمور:

١. عصره.

٢. لم يترك سفر نبوءات.

---

(١) י. קויפמן, תולדות האמונה הישראלית, כרך שני ספר א' ע' 246.

٣. لم يوبخ الشعب، بل الملك فقط.

٤. ليس في كلامه توبيخ ديني وأخلاقي.

٥. علاقته بالملك لا تختلف عن إيليا.

٦. رؤيه لروح الكذب لا تختلف عن مفهوم عصره.

غير أنه ينتمي إلى الأنبياء الأواخر في ستة أمور أخرى:

١. عزلته؛ فهو لا ينتمي إلى مجموعة أنبياء ولا يرتبط بأي مكان عبادة.

٢. محاربته لأنبياء الكذب الذين يتنبأون باسم الرب. ولقد سبق ميخا في ذلك كل من إرميا وحزقيال.

٣. سبق عاموس وإشعياء وحزقيال في وصف الرب الجالس على كرسيه وفي رؤيته للرب.

٤. سبق إشعياء وإرميا وحزقيال في تشبيه الراعي والخراف.

٥. المشهد، والرؤيا التصورية المرئية في كلامه؛ وسبق في ذلك الأنبياء الأواخر.

٦. تجسيد روح الرب؛ وفي ذلك سبق إشعياء وميخا.

يمكننا القول إن ميخا بن يَمْلَة هو حلقة الوصل بين الأنبياء الأوائل والأواخر؛ بين صموئيل من ناحية وعاموس من ناحية أخرى.

رؤى عاموس الخمسة

إن التمعن في رؤى عاموس لأمر مهم من أجل فهم نبوءة عاموس وشخصيته ومكانته في تاريخ النبوة، ولفهم بعض الظواهر الجوهرية للنبوءات بشكل عام.

البناء الأدبي للرؤى

الرؤية الأولى: الجراد (٧: ١-٣)؛ في ثلاث فقرات ومكونة من أربع وحدات:

١. افتتاحية: هكذا أراني السيد الرب.

٢. ما شوهد: وإذا هو يصنع جرادًا إلخ.

٣. قول النبي الذي يتوجه إلى الرب بطلب إيقاف المحنة.

٤. رد الرب.

الرؤية الثانية: النار (٧: ٤-٦)؛ وتشبه الأولى في كل تفاصيلها. وهي تمتد أيضًا لثلاث فقرات ومكونة من أربع وحدات، ثلاث منها شبه متساوية، فقط من وقع عليه الفعل هو المختلف.

الوحدة	الرؤية الأولى	الرؤية الثانية
١. افتتاحية	هكذا أراني السيد الرب	هكذا أراني السيد الرب
٢. المفعول به	جراد يأكل عشب الأرض	نارًا تأكل الحقل
٣. قول النبي	أيها السيد الرب، اصفح عنا، كيف يقوم يعقوب؟ فإنه صغير.	أيها السيد الرب، كُفَّ! كيف يقوم يعقوب؟ فإنه صغير

رد الرب	فندم الرب على هذا، لا يكون.	فندم الرب على هذا. فهو أيضًا لا يكون.

الرؤية الثالثة: الزيج (٧: ٧-٩)؛ وتمتد على ثلاث فقرات. الافتتاحية بها تغيير بسيط في الأسلوب فلم يُذكر: "هكذا أراني السيد الرب"، إنما قال: "هكذا أراني"، لأن الرؤية نفسها تبدأ بـــ"الرب واقف على حائط قائم". وفي بعض الكلام تجديد حقيقي: السؤال "ما أنت راءٍ يا عاموس؟" ففي الرؤيتين الأوليين لا يوجد مثل هذا السؤال، لأن النبي يرى فيهما الوبال نفسه: الجراد، النار. لكن الرؤية هنا بمثابة لغز؛ فالزيج نفسه لا يدل على معناه الرمزي، وحل اللغز يقدمه الرب نفسه. ونجد الأمر نفسه فيما بعد عند إرميا حيث سأله الرب: "ما أنت راءٍ يا إرميا؟" (إرميا ١: ١١). في الحالتين يتعرف النبي على الشيء ويسميه باسمه، لكن المعنى الرمزي لا يقدمه النبي لكن الرب.

تتكون الرؤية الثالثة من خمس وحدات كالتالي:

١. الافتتاحية: هكذا أراني.

٢. المفعول به: رؤية الرب الواقف على حائط قائم وفي يده زيج.

٣. سؤال الرب: ما أنت راءٍ يا عاموس؟

٤. جواب النبي: زيجًا.

٥. كلام الرب.

بعد الرؤية الثالثة تأتي القصة عن الاصطدام بين عاموس وآمصيا (٧: ١٠-١٧). تختلف الآراء حول حدوث هذا الاصطدام بعد كلام عاموس في الرؤية

الثالثة، أو أن المحرر هو الذي أقحمها هنا، نظرًا للرابط الشديد بين كلام آمصيا في الفقرة ١١ وكلام عاموس في الفقرة ٩؛ وهو ما سنتناوله فيما بعد.

الرؤية الرابعة: سلة القطاف (٨: ١-٣)؛ وتمتد هي أيضًا لثلاث فقرات. وتتشابه الافتتاحية مع الرؤية الأولى والثانية، والمفعول به هو "سلة القطاف" ومثل "الزيج" لا يشير إلى معناه الرمزي، لذلك يطرح هنا السؤال: "ما أنت راءٍ يا عاموس؟" وهنا أيضًا يحل الرب اللغز ويفسر الرؤية. وتتكون الرؤية الرابعة من خمس وحدات مثل الرؤية الثالثة، ويأتي بعدها عدد من النبوءات لا تنتمي إلى القالب الأدبي للرؤية (٨: ٤-١٤)؛ لذلك تأتي الرؤى الثلاثة الأولى متتابعة.

الوحدة	الرؤية الثالثة	الرؤية الرابعة
١. الافتتاحية	هكذا أراني	هكذا أراني السيد الرب
٢. المفعول به	الزيج	سلة القطاف
٣. السؤال	فقال لي الرب: ما أنت راء يا عاموس؟	فقال: ماذا أنت راء يا عاموس؟
٤. الرد	زيجًا	سلة للقطاف
٥. كلام الرب	فقال السيد: هأنذا أضع زيجا في وسط شعبي إسرائيل، لا أعود أصفح له بعد.	فقال لي الرب: قد أتت النهاية على شعبي إسرائيل. لا أعود أصفح له بعد.
٦. البقية	حكاية عن عاموس بضمير	نبوءات

	الغائب.

الرؤية الخامسة: المذبح (٩: ١-٤)؛ وتمتد لأربع فقرات، وليس ثلاث، ويختلف تكوينها عن الاثنتين الأوليين، والاثنتين الأخيرتين. أولًا؛ لم يذكر في الافتتاحية: "هكذا أراني"، إنما "رأيت"، فلم تكن هناك حاجة هنا لأن يلفت الرب انتباه النبي لشيء آخر (جراد، نار، زيج، سلة قطاف)؛ فالرب نفسه هو محل الرؤية. لذلك يقول النبي بصورة بسيطة ومقتضبة: رأيت! ويبدو أن الرب هو محل الرؤية في الرؤية الثالثة. غير أن الأمر ليس كذلك؛ فعاموس يرى "الزيج". ثانيًا؛ لا يوجد السؤال: "ماذا أنت راء يا عاموس؟" ومعنى الرؤية واضح. فضلًا عن أن الرؤية الخامسة مكونة من ثلاث وحدات فقط، بخلاف الرؤيتين الأوليين المكونتين من أربع وحدات، والأخيرتين من خمس وحدات:

١. افتتاحية قصيرة: رأيت.

٢. المفعول به: السيد قائمًا على المذبح.

٣. كلام الرب الممتد لأربع فقرات، باستثناء بداية الفقرة الأولى.

إذن يمكننا القول إن الرؤى الخمسة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. الرؤيتان الأوليان. ٢. الرؤيا الثالثة والرابعة. ٣. الرؤيا الخامسة.

إن التقسيم لوحدات، والتكرار والتقابل بين أقسام الوحدات؛ دليل على أن لغة الرؤى ليست لغة نثرية إنما شعرية وموزونة؛ ففي لغة الرؤى تقابل تكاملي (٧: ٤، ٨: ٢، ٩: ١-٤)، وتقابل تقاطعي (٧: ٩) وثلاثي (٧: ٢، ٦)، وتكرار كثير (٧: ٢، ٥، ٧: ٣، ٦، ٧: ٨-٨: ٢، ٩: ٢-٤) المميزة للأسلوب الشعري.

ومن ناحية الانسجام بين الوحدات يمكننا معرفة أن كلام النبي يقصر وكلام الرب يطول؛ ففي الرؤيتين الأوليين يقول النبي عبارة كاملة، وفي الرؤيا الثالثة والرابعة — كلمة واحدة أو اثنتين، وفي الرؤيا الخامسة — لا يقول شيئًا. وفي المقابل؛ في الرؤيتين الأوليين يقول الرب كلمات قليلة، وفي الرؤيا الثالثة والرابعة يحتل كلامه فقرتين، وفي الخامسة كل الفقرات الأربعة تقريبًا. إن مسيرة الرؤى هي من النبي إلى النبوءة؛ وتتعاظم النبوءة حتى تقصي النبي.

الرؤى

المشترك بين جميع الرؤى الخمسة إنها تعرض لضربات وخراب وبلايا. الضربة الأولى ظاهرة طبيعية لكن النبي يعتبرها عقابًا وتحذيرًا. وهذه الضربة تصيب الفقراء تحديدًا؛ لذلك يتوجه عاموس، نبي الفقراء، بالدعاء من أجل العفو والرحمة: "كيف يقوم يعقوب؟ فإنه صغير؟" ويستجيب الرب لطلب النبي ويمنح الشعب مهلة للتوبة وإصلاح طريقه.

الرؤيا الثانية تشبه الأولى ليس في البناء الأدبي والأسلوب فقط إنما في المضمون أيضًا؛ فالنبي يرى ظاهرة طبيعية مرة أخرى: نار تأكل الأرض وتصيبها بالجفاف. وتحترق الأرض؛ حتى المياه الجوفية تنضب. يفسر البعض أن المقصود هنا رياح خماسين قوية، وحر شديد، لكن لا يجب تأويل الكلمة، فعاموس معتاد التهديد بضربة النار (١: ٤، ٧، ١٠، ١٢، ١٤، ٢: ٢، ٥، ٥: ٦). وتعتبر النار مثلها مثل الجراد عقابًا وتحذيرًا من قبل الرب. وبعد طلب النبي يندم الرب على حكمه الذي حكم به على إسرائيل ويؤجله مرة أخرى.

يظهر عاموس في الرؤيتين كنبي يصلي من أجل إسرائيل؛ وكان أول نبي ظهر في العهد القديم يصلي من أجل الآخرين هو إبراهيم؛ حيث ذكر عنه: "فإنه نبي،

فيصلي لأجلك" (التكوين ٢٠: ٧). لكن إبراهيم لا يصلي هناك من أجل نسله، إنما من أجل أبيمالك. وفي المقابل فإن أول نبي صلَّى من أجل نفسه هو موسى، بعد صنع العجل؛ حيث ذُكر هناك: "فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه" (الخروج ٣٢: ١٤). ولقد صلى صموئيل من أجل شعبه بشكل مستمر (صموئيل الأول ٧: ٥، ٩، ١٢: ١٩، ٢٣). وطلب رجال حزقيا من إشعياء الصلاة "لأجل البقية الموجودة" (إشعياء ٣٧: ٤). ولقد صلى إرميا، مثل صموئيل، بشكل متواصل من أجل شعبه (٧: ١٦، ١٤: ١١)، وطلب الرب منه التوقف عن فعل ذلك. أما عاموس فهو يلعب هنا أحد الأدوار الجوهرية لنبي إسرائيلي؛ فمن ناحية هو رسول الرب لتوبيخ شعبه وتهديده بالبلايا والخراب؛ لكنه من ناحية أخرى أيضًا رسول الشعب إلى الرب لطلب العفو والرحمة.

وإذا دقَّقنا في لغة النبي لأمكننا القول: في الرؤيا الأولى يطلب عاموس "اصفح!" لكن بعد أن صفح لهم، ولم يعد الشعب عن طريق الشر، لا يطلب النبي الصفح مرة أخرى لكن الرحمات: "كُفَّ!" وفي الرؤيا الثالثة لا يستمر النبي في الصلاة من أجل شعبه فقد أعلن الرب: "لا أعود أصفح له بعد".

وفي الرؤيا الثالثة والرابعة لا يرى النبي الظواهر الطبيعية ولا البلايا نفسها إنما أداتين من صنع الإنسان. وتتحول هذه الأشياء "البسيطة" إلى رموز حكم وخراب. الرؤيا الثالثة: صورة "السيد واقف على حائط قائم وفي يده زيج" غير حقيقي (إلا إذا قبلنا رواية الترجمة السبعينية). فالنبي يرى الرب كبنّاء يتفحص الحائط الذي هو رمز الشعب، بمكيال من الرصاص. والحائط الذي لا يحافظ على استقامة الزيج سيكون مصيره الهدم. ويفسر ذلك راشي: "إن الرب يحاكمهم بخط منصوص القانون". ويقول بوبر: "الزيج موضوع على الحائط ليفحص كم مال عن خط

المثقال. فالرب هو كالبنَّاء الذي يفحص الأضرار بيديه، ليقرر إن كان من الممكن أن ينقذ الحائط الذي اعوَّج، سواء بعضه أو كله، أو أنه يجب هدمه تمامًا"[1]. ويبدو أن الزيج يعتبر رمزًا للبناء، لكن ميل الخيط من الممكن أن يجعله أيضًا رمزًا للهدم، فعلى سبيل المثال: مراثي إرميا ٢: ٨، وخاصة الملوك الثاني ٢١: ١٣: "وأمد على أورشليم خيط السامرة، ومطمار بيت أخآب، وأمسح أورشليم ..". والحقيقة أن المقصود في هذه الرؤيا ليس الشعب إنما المؤسسات الملكية، ومراكز العبادة، وبيت الملك: "فتفقر مرتفعات إسحق، وتخرب مقادس إسرائيل، وأقوم على بيت يربعام بالسيف" (عاموس ٧: ٩).

في رؤيا الزيج تتحول أداة البناء إلى رمز للحكم والقضاء. وفي رؤيا السلة يتحول عنصر الرؤيا البصري إلى عنصر سمعي، صوتي. ويحتمل أن تكون الأسباط الشمالية قد نُطقت حركة "الفتحة" مثل حركة "الإمالة"، وأنا كلمة "קיץ – قايتس" قد نطقت "קץ – قيتس"[2]، ففاكهة الصيف ذكَّرت النبي بكلمة "קץ"، وأصبحت رمزًا للنهاية. ظاهرة مشابهة نجدها مرة أخرى في تكليف إرميا؛ فالعنصر المرئي "قضيب اللوز" يصبح عنصرًا صوتيًا "أنا ساهر على كلمتي لأجريها"؛ فالصورة تتحول إلى صوت.

يزعم البروفسور ش.أ. ليونشطم أن التشابه الصوتي في (קיץ قايتس – קץ قيتس) تأثير خارجي بحت. فكلمة "قيتس" مشتقة من "قاتسس" و"قايتس" من "قيط". ومن غير الممكن أن يرتكز حل الرؤيا النبوئية كله على التلاعب بالألفاظ، لذلك يقترح تفسيرًا آخر: تظهر في الحلم أحيانًا علاقة بين اسم غرض وبين فكرة

---

[1] מ. מ. בובר, תורת הנביאים, תל־אביב, תש"י, ע' 100-99.

[2] انظر י. קוטשר, מלים ותולדותיהן, ירושלים, תשכ"א, ע' 34.

تعتمل في قلب الحالم. والرؤيا النبوية فيها بعض نقاط التماس مع الحلم. ففكرة النهاية הקץ التي تقض راحة النبي هي التي أدت إلى خلق رؤياه[1].

كما يمكن أيضًا العثور في فاكهة الصيف على إشارة لفكرة النهاية؛ فالفاكهة الأخيرة في نهاية العام تشير إلى النهاية، وكما أنها تذبل سريعًا هكذا أيضًا الشعب يذبل.

الرؤيا الخامسة هي الأكثر خيالية، وهي تشبه في ذلك الرؤيا الثالثة؛ فالرب يقف على المذبح في هيكل بيت الرب ويأمر الملاك بهدم الهيكل على رؤوس المجتمعين فيه. وبخلاف كل الرؤى السابقة؛ فالرب لا يُرِي عاموس أي شيء أو ظاهرة طبيعية لكن النبي يرى الرب نفسه.

تطور البلايا

تتفاقم البلايا من رؤيا إلى الرؤيا التي تليها؛ ففي الرؤيا الأولى يأكل الجراد عشب الأرض الذي بقي لدى المزارعين في موسم المطر الأخير، بعد أن أخذ منهم "جزاز الملك" (عاموس ٧: ١). والنتيجة هي المجاعة، خاصة عند البهائم. وفي الرؤيا الرابعة تدمِّر النار الأرض نفسها، بل وحتى المياه الجوفية، وتتسبب في العطش أيضًا. هاتان المصيبتان سببتهما الطبيعة، وكلتاهما لا تستمران حتى النهاية، إنما تتوقفان برحمة من الرب. وبذلك تكونان مصيبتين جزئيتين. وفي الرؤيا الثالثة تتدمر مراكز العبادة وبيت الملك. وهذه البلية لا تسببها قوى الطبيعة إنما الرب بشكل مباشر. والحكم نهائي ولا عودة فيه.

[1] ש"א ליונשטם, כלוב קיץ – לטיפולוגיה של חזון הנבואה – תרביץ 34 התשכ"ה", ע' 322-319.

وفي الرؤيا الرابعة تأتي النهاية على الشعب؛ فلا ضربة أخرى أو مصيبة، أو خراب جزئي إنما إبادة شاملة للشعب في أرضه. وفي الرؤيا الخامسة "لا يهرب منهم هارب، ولا يفلت منهم ناج"؛ فالفناء يطال كل واحد فيهم حتى في أطراف العالم، وخارج حدود البلاد.

هناك تحديد وتطور في كل رؤيا: الجوع، العطش، خراب المقادس والمملكة، نهاية الشعب كله، وختامًا — إبادة حتى البقية المشتتين. وهناك تطور كذلك في حجم رؤيا النبي. فالجراد والنار يراهما النبي في منطقة معينة في البلد، وليس في البلد كله. وفي الرؤيا الثالثة يتسع أفق الرؤيا ويشمل المرتفعات والمقادس المنتشرة في البلد. وفي الرؤيا الرابعة الحديث عن النهاية الشاملة في كل البلد. وفي الرؤيا الخامسة يتسع أفق الرؤيا ويشمل العالم كله؛ في السماء وفي الهاوية.

زمن الرؤى

من الممكن طرح سؤالين: في أي زمن حدثت الرؤى؟ وكم من الوقت استمرت؟ فيما يخص السؤال الأخير، يجب أن نذكر أنه من الناحية النفسية يستطيع كل إنسان أن يرى في حلم أو في رؤيا، حدث استمر فترة طويلة في غمضة عين. ومن الناحية المادية يجب أن تستمر رؤيا الجراد عدة أيام على الأقل. فعاموس يرى الجراد منذ بداية ظهوره ("وإذا هو يصنع جرادًا") إلى دمار المحصول. وكذلك تحتاج النار إلى وقت معين حتى تأكل الحقل كله؛ لكن الوقت الذي تحتاجه النار أقصر مما يحتاجه الجراد. وفي الرؤيا الثالثة لا يرى النبي الدمار نفسه، إنما يسمع فقط كلام الرب. وهو ما حدث في الرؤيا الرابعة والخامسة. إن قصر الزمن مفهوم لأن صبر الرب يقصر؛ ففي الضربات الأولى انتظر الرب توبة الشعب وانتظر ليرى كيف سيؤثر الجوع والعطش فيهم. لكن بداية من الضربة الثالثة، بعد أن حكم

عليهم حكم النهاية وأنه لا عودة عنها؛ تقصر الرؤى من ناحية الفترة الزمنية. هناك علاقة عكسية بين تطور المساحة في مقابل تقلص الزمن؛ فمساحة الرؤيا تتسع، وزمنها يقصر.

أما سؤال في أي وقت وقعت الرؤيا فلا يمكن الإجابة عنه بشكل قاطع؛ لكن من الممكن وضع تخمينات بحسب الإشارات؛ ففي الرؤيا الأولى الحديث عن "أول طلع خلف العشب"، بذلك تكون ضربة الجراد قد بدأت في الربيع، في شهر نيسان أو آيار. ويتضح أن جفاف الأرض شعروا به كثيرًا في شهر تموز وآب. أما رؤيا الزيج فلا ترتبط بموسم معين. ورؤيا سلة القطاف وقعت بالتأكيد في نهاية فصل الصيف، في شهر أيلول. وتتحدث الرؤيا الخامسة عن خراب الهيكل، عندما يجتمع فيه كل الشعب، ومن الممكن أن يناسب ذلك أحد أعياد شهر تشري أو حشوان؛ حيث كانوا يحتفلون بعيد المظال في الخامس عشر من الشهر الثامن (الملوك الأول ١٢: ٣٣)، وربما لم تكن مصادفة أنه بعد الرؤيا الخامسة تم ضم النبوءة عن الرب "الذي يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض" (٩: ٦)، أي عن قوة الأمطار في فصل الشتاء. وبذلك تستمر الرؤى من الربيع وحتى الخريف، وعلى مدار شهور طويلة رأى النبي ببصيرته رؤى الدمار والفناء المحتوم. وفي بدايتها كان لدى النبي أمل في النجاة؛ وصلَّى من أجل الشعب وأراد تحفيز رحمة الرب على شعبه. بعدها حصل على رؤيا النهاية التي لا يمكن ردها، واستبعد شخصيته ومشاعره ورغباته، وأصبح أداة في يد مرسله.

هناك أيضًا جانب آخر لسؤال في أي وقت وقعت الرؤى: هل في بداية نبوءة عاموس أم في نهايتها؟ على الرغم من ظهور النبوءات في الجزء الأول من السفر إلا أن الباحثين يعتقدون أن الرؤى تنتمي إلى بداية نشاط النبي. يقول أوتو أيسفلدت

على سبيل المثال أن رؤى عاموس هي رؤى تكليفه[١]، كما يعتقد أن الرؤي الخمسة شكلت ذات مرة الجزء الأول من السيرة الذاتية، وظهرت فيها كلها الواحدة تلو الأخرى[٢]. وعن سؤال لماذا وضعت الرؤى في نهاية السفر يجيب أيسفلدت إنه في سفر إشعياء كما هو في سفر عاموس ظنَّ المحررون أنه من الأفضل وضع كلام الرب في البداية، وتأتي بعده انطباعات النبي الشخصية[٣]. وفي المقابل يقرر درايفر، أن الرؤى تأتي لتعضد، عبر الرمزية البسيطة والمبهرة، عظات النبوءات التي سبقتها[٤].

إن من يزعم أن الرؤى الخمسة هي جزء مستقل في سفر عاموس؛ عليه أن يفترض أن القصة عن آمصيا والنبوءات في الإصاح الثامن قد وضعها محرر السفر بين الرؤى. إن وضع قصة آمصيا في الرؤيا الثالثة يسهل تفسيره عبر العلاقة بين كلام عاموس: "وأقوم على بيت يربعام بالسيف" (٧: ٩) وبين كلام آمصيا الذي يزعم "لأنه هكذا قال عاموس: يموت يربعام بالسيف، ويسبى إسرائيل من أرضه" (٧: ١١). هكذا قال أيضًا ي. قويفمان بأن "النبوءة المفسرة عن الملك هي التي حفزت آمصيا للتحرك"[٥]، لكن يصعب فهم لماذا أقحم المحرر النبوءات التالية بين الرؤيتين الرابعة والخامسة في هذا الموضع تحديدًا، ولماذا فصل بين الرؤى الأخرى.

---

١ O Eissefeldt, The Old Testament, Oxford 1965, pp. 55, 339.

٢ المرجع السابق ص، ١٣١.

٣ المرجع السابق ص ٣٣٩.

٤ S.R. Driver, An introduction to the Literature of the O.T. 1963 p. 315

٥ י. קויפמן, תולדות האמונה הישראלית, כרך ג', ספר א', ע' 57, 64.

ولو قبلنا تخميننا بأن الرؤى استمرت فترة بين سبعة وثماني شهور، من شهر نيسان وحتى حشوان، يمكننا اعتبار ترتيب النبوءات في السفر مناسبًا لترتيبها في الواقع.

العنصر المرئي والعنصر السمعي

إن التجلي الإلهي للأنبياء يتم بصورتين: مرئية، ومسموعة. والعلاقة بين الصورتين لا تتساوى عند جميع الأنبياء وفي كل النبوءات؛ فمرة يتغلب العنصر المرئي ومرة يتغلب العنصر السمعي. وكنا قد رأينا في رؤى عاموس أن العنصر السمعي يتغلب من رؤيا إلى رؤيا على الرغم من أن مساحة الرؤيا تتسع؛ فالتعبيرات المحسوسة بشدة: "رأي الرب واقفًا"، "هكذا أراني، وإذا الرب واقف"، فيها نقاط تلاقي مع كلام ميخا بن يَمْلَة، من ناحية (الملوك الأول ٢٢: ١٩)، وكلام إشعياء في تكليفه من ناحية أخرى (إشعياء ٦: ١). وإشكالية كيفية رؤية النبي للرب لا تقع على عاموس فقط إنما أيضًا على الأنبياء الآخرين الذين يستخدمون نفس اللغة. ولا يمكن تبرير الإشكالية عند عاموس بالتخمين بأن رؤاه قد تجلَّت له في الحلم وليس في اليقظة. وطبيعة الرؤى تدحض مثل هذا الاحتمال. فالرؤى تختلف عن بعضها البعض اختلافًا مؤقتًا، وهي واضحة وواقعية (على عكس رؤى زكريا). فهي ليست "رؤى الليل، عند وقوع سبات على الناس" (أيوب ٤: ١٣)، إنما رؤى الرب، يراها النبي ببصيرته بإلهامه النبوي"[١].

---

[١] هناك بالفعل نقاط تلاقي بين الحلم والرؤيا: "إن كان منكم نبي للرب، فبالرؤيا أستعلن له، في الحلم أكلمه" (العدد ١٢: ٦). لكن الحلم يأتي لكل إنسان، أما الرؤيا فمحفوظة للأنبياء فقط. ويفرق إرميا صراحة بين الحلم والنبوءة (إرميا ٢٣: ٢٥-٢٦)، ويحارب الأنبياء الذين يقصون أحلامهم.

لم يكن تجلي الرب لعاموس عبر المشاهدة فقط؛ فقد سمع عاموس صوت الرب جيدًا": "إن الرب يزمجر من صهيون، ويعطي صوته من أورشليم" (عاموس ١: ٢)، "الرب قد تكلم، فمن لا يتنبأ" (٣: ٨). كلام عاموس ينبع من التجلي السمعي، ومشاهده من التجلي البصري. وكذلك في الرؤى التي بها العنصر السمعي. صورتا التجلي تظهران لنا الجانبين في جوهر النبوءة الإسرائيلية. "يكثر أنبياء الكتابة من استخدام لغة المشاهدة مثل: يرى، يشاهد، مشهد، رؤيا وغيرها. أما انطباعاتهم النبوئية؛ فيزيد فيها عنصر السماع على عنصر المشاهدة بكثير. ويبدو أن مفردات المشاهدة هذه هي من بقايا مرحلة سابقة من النبوة، التي كانت تأتي في الأساس في ظواهر مرئية"[١].

ومعلوم أن الأنبياء في إسرائيل أطلق عليهم أحيانًا "رائين" (صموئيل الأول ٩: ٩). وإن الصور والتعبيرات "رأيت، أراني، ورأيت، ورأى، وماذا ترى؟" هي من مميزات الرؤيا النبوئية، وتظهر في كل عصور النبوة[٢].

الخصائص الفنية للرؤى

العنصر المرئي، وخيال النبي، وتصويرات الرؤى هي من الخصائص الفنية أيضًا؛ فوصف الرؤى هو من الإنتاج الأدبي أيضًا. وكنا قد وقفنا من قبل على البناء

---

[١] פרופ' י"א זליגמן, התגלות אלוהים, אנציקלופדיה מקראית, כרך ב', ע" 868.

[٢] التكوين ١٨: ١، الخروج ٣: ٢، ٦: ٢، العدد ١٢: ٨، القضاة ٦: ١٢، ١٣: ٣، صموئيل الأول ٣: ١٥، ٢١، الملوك الأول ٢٢: ١٧، ١٩، إشعياء ٦: ١، إرميا ١: ١١، ١٣، ٢٤: ١، حزقيال ١: ٢٨، ٨: ٢، ١٠: ١، ١١: ٢٤، حبقوق ٢: ١، زكريا ١: ٨، ٢: ١، وغيرها.

الأدبي للرؤى؛ فالرؤية الأخيرة غنية بالتصويرات الكثيرة تحديدًا. كما نجد في الرؤى وسائل فنية أخرى: استعارات (٧: ٣-٨، ٨، ٣، ٩: ٢، ٣، ٥)؛ أسئلة وأجوبة (٧: ٢-٣، ٥-٦، ٨، ٩: ٣، ٩: ٢-٤)؛ الجناس (קיץ- قايتس، קץ - قيتس)؛ تجسيد الإله (خاصة في الرؤيا الثالثة ٥-٦)؛ السيف (٩: ٤)؛ المبالغة (٩: ٢-٤)؛ الطباق (٧: ٣-٨، ٧: ٦، ٨: ٢، ٩: ٢، ٣، ٤)؛ والتدرج التصاعدي (٩: ١-٤).

ختامًا، إن التمعن في رؤى عاموس أمرٌ مهم ليس فقط من أجل فهم نبوءات عاموس وشخصيته وسفره بل أيضًا من أجل فهم تاريخ النبوة. فهو يرينا أن عاموس ليس بظاهرة جديدة تمامًا في النبوة الإسرائيلية. "عاموس شاعر أصيل، وهو يعبر في سفره أيضًا عن أفكار جديدة وأصيلة. لكن نص النبوءة وطرق التعبير عنها لم يبتدعها إنما استعارها من الموجود"[1]. وتبرهن الرؤى بوضوح على أنه ينتمي إلى موروث نبوي قديم. فهو "يرى" رؤى الرب مثل الأنبياء الآخرين الذين سبقوه، كما إنه يصلي من أجل شعبه، مثل الأنبياء الآخرين الذين سبقوه. وفضلًا عن هاتين الصفتين الجوهريتين للنبوة، تظهر الرؤى أيضًا صفة جوهرية ثالثة ألا وهي تغلب النبوة على النبي واستبعاد شخصيته. نحن نرى في سفر إرميا الصراع بين النبي والنبوءة، وهذا الصراع غير موجود نهائيًا عند عاموس؛ حيث أدى عاموس مهمته القاسية بدون أي تردد أو ارتداع.

ويظهر في الرؤى بشكل واضح جدًا عنصرا التجلي الإلهي والنبوة: السمع والبصر، الرؤيا والكلام؛ وحتى في أرقى درجاتها لا تكون النبوة مجرد كلام وتوبيخ فقط إنما أيضًا رؤيا ووحي.

---

[1] קויפמן, הספר המצוטט, ע' 58.

طبع بمطابع الدار كوبي سنتر

مدينة ٦ أكتوبر – سيتي ستار سنتر ٣/٢٠

ت: ٠١٠٣٠٠٩٤٠٩٣ – ٠١١٠٢٩٩١٠١٥